شرح
نهج البلاغة

ابن أبي الحديد

تحقيق
محمد إبراهيم

المجلد الرابع
٧ - ٨

شرح نهج البلاغة

ابن أبي الحديد

٧ - ٨

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م



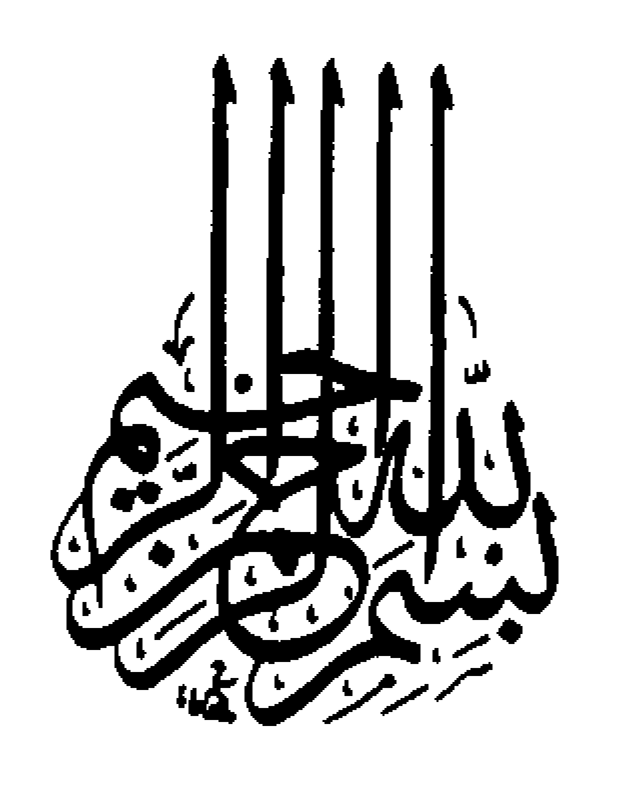
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

تلفون: ٠٣/٩٤٦١١٦١ - ٠٣/٨١٥٤٢٥ - تلفاكس: ٠٨-٧٢٦٤-٠٧
http://www.Dar-ALamira.com
email:info@dar-alamira.com



دار الكتاب العربي

بغداد - شارع المتنبي
تلفون: ٤١٥٤٥٦١ - ٧٩٠١٤١٩٣٧٥



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد العدل بقية الخطبة التسعين

الأصل: فَلَمَّا مَهَدَ أَرْضَهُ، وَأَنْفَذَ أَمْرَهُ، ٱخْتَارَ آدَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خِيَرَةً مِنْ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهُ أَوَّلَ جِبِلَّتِهِ، وَأَسْكَنَهُ جَنَّتَهُ، وَأَرْغَدَ فِيهَا أُكُلَهُ، وَأَوْعَزَ إِلَيْهِ فِيمَا نَهَاهُ عَنْهُ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّ فِي ٱلْإِقْدَامِ عَلَيْهِ ٱلتَّعَرُّضَ لِمَعْصِيَتِهِ، وَالْمُخَاطَرَةَ بِمَنْزِلَتِهِ، فَأَقْدَمَ عَلَى مَا نَهَاهُ عَنْهُ مُوَافَاةً لِسَابِقِ عِلْمِهِ. فَأَهْبَطَهُ بَعْدَ ٱلتَّوْبَةِ، لِيَعْمُرَ أَرْضَهُ بِنَسْلِهِ، وَلِيُقِيمَ ٱلْحُجَّةَ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَلَمْ يُخْلِهِم بَعْدَ أَنْ قَبَضَهُ مِمَّا يُؤَكِّدُ عَلَيْهِمْ حُجَّةَ رُبُوبِيَّتِهِ، وَيَصِلُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ، بَلْ تَعَاهَدَهُمْ بِالْحُجَجِ عَلَى أَلْسُنِ ٱلْخِيَرَةِ مِنْ أَنْبِيَائِهِ، وَمُتَحَمِّلِي وَدَائِعِ رِسَالاَتِهِ، قَرْناً فَقَرْناً، حَتَّى تَمَّتْ بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ حُجَّتُهُ، وَبَلَغَ الْمَقْطَعَ عُذْرُهُ وَنُذُرُهُ.

الشرح: مهّد أرضه: سوّاها وأصلحها، ومنه المهاد وهو الفراش، ومَهَدْتُ الفراش، بالتخفيف مَهداً، أي بسطته ووطّأته. وقوله - «خِيَرَة من خَلْقه» على «فِعَلة»، مثل عِنَبَة، الاسم من قولك: اختاره الله، يقال: محمد خِيَرَة الله من خلْقه، ويجوز: «خِيْرة الله» بالتسكين، والاختيار: الاصطفاء.

والجِبِلّة: الخَلْق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1]، ويجوز «الجُبُلة»، بالضم، وقرأ بها الحسن البصريّ، وقرىء قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾[2] على وجوه: فقرأ أهلُ المدينة بالكسر والتشديد، وقرأ أبو عمرٍو: ﴿جُبْلاً كثيراً﴾ مثل قُفل، وقرأ الكِسائيّ «جُبُلاً كثيراً»، بضم الباء مثل «حُلُم»، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿جِبِلاً﴾ بكسر الجيم، وقرأ الحسن بن أبي إسحاق: ﴿جُبُلًّا﴾ بالضم والتشديد.

قوله: «وأرْغَدَ فيها أُكُله»، أي جعل أُكُله - وهو المأكول - رغداً، أي واسعاً طيّباً، قال سبحانه: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾[3]، وتقرأ رغُدا ورغِدا بكسر الغين وضمها، وأرغَدَ القومُ: أخصبوا، وصاروا في رَغَدٍ من العيش.

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٨٤.
(٢) سورة يس، الآية: ٦٢.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٥.

قوله: «وأوعز إليه فيما نهاه عنه»، أي تقدّم إليه بالإنذار، ويجوز «ووَعَّز إليه» بالتّشديد توعيزاً، ويجوز التخفيف أيضاً وَعَزَ إليه وَعْزاً. والواو في «وأعلمه» عاطفة على «وأوعز»، لا على «نهاه».

قوله، «موافاة لسابق علمه» لا يجوز أن ينتصب لأنه مفعول له، وذلك لأن المفعول له يكون عذراً وعلّة للفعل، ولا يجوز أن يكون إقدام آدم على الشجرة لأجل الموافاة للعلم الإلٰهيّ السابق، ولا يستمرّ ذلك على مذاهبنا، بل يجب أن ينصب «موافاةً» على المصدرية المحْضَة، كأنه قال: فوافى بالمعصية موافاة، وطابق بها «سابق العلم» مطابقة.

قوله: «فأهبطه بعد التوبة»، قد اختلف الناس في ذلك، فقال قوم: بل أهبطه قبل التوبة، ثم تاب عليه وهو في الأرض. وقال قوم: تاب قبل الهبوط، وهو قول أمير المؤمنين عليه السلام، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا﴾[1]، فأخبر عن أنّه أهبطهم بعد تلقِّي الكلمات والتوبة. وقال تعالى في موضع آخر: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾[2]. فبيّن أنّ اعترافهما بالمعصية واستغفارهما كانا قبل أمرهما بالهبوط. وقال في موض آخر: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ﴾[3]، فجعل الإهباط بعد الاجتباء والتوبة، واحتجّ الأولون بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ﴾[4]، قالوا: فأخبر سبحانه عن أمره لهم بالهبوط عقيب إزلال الشيطان لهما، ثم عقَّب الهبوط بفاء التعقيب في قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾، فدلّ على أنّ التوبة بعد الهبوط.

ويمكن أن يجابَ عن هذا فيقال: إنّه تعالى لم يقل: «فقلنا اهبطوا» بالفاء، بل قال: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟﴾ بالواو، والواو لا تقتضي الترتيب، ولو كان عِوَضها فاء لكانت صريحة في أنّ الإهباط كان عقيب الزلّة، فأمّا الواو فلا تدلّ على ذلك، بل يجوز أن تكون التوبة قبل الإهباط، ويخبر عن الإهباط بالواو وقبل أن يخبرَ عن التوبة.

قوله عليه السلام: «وَلِيُقِيمَ الحجّة على عباده»، أي إذا كان أبوهم أخرج من الجنة بخطيئة واحدة فأخلِقْ بِها ألاّ يدخلها ذو خطايا جَمّة، وهذا يؤكّد مذهب أصحابنا في الوعيد. ثم أخبر عليه السلام

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٣٧، ٣٨.
(٢) الأعراف، الآيات: ٢٢ - ٤٠.
(٣) سورة طه، الآيات: ١٢١ - ١٢٣.
(٤) سورة البقرة، الآيات: ٣٥ - ٣٧.

أنّ الباريء سبحانه ما أخلى عباده بعد قبض آدم وتوفيّه مما يؤكد عليهم حجج الربوبية، بل أرسل إليهم الرسل قَرْناً فقَرناً، بفتح القاف، وهو أهل الزمان الواحد، قال الشاعر:

إذا مَا مَضى ٱلْقَرْنُ ٱلَّذِي أَنتَ فِيهِمُ ... وَخُلِّفتَ فِي قَرْنٍ فَأَنتَ غَرِيبُ

وتعاهدَهُم بالحجج، أي جَدّد العهد عندهم بها، ويروى «بل تَعَهَّدَهم» بالتشديد، والتعهّد: التحفّظ بالشيء، تعهّدْتُ فلاناً وتعهّدت ضَيْعتي، وهو أفصح من «تعاهدت» لأنّ التفاعل إنما يكون من شيئين، وتقول: فلان يتعهده صَرْعٌ.

قوله: «وبلَغ المقطعَ عُذْرُه ونُذُرُه»، مقطع الشيء حيث ينقطع، ولا يبقى خلفه شيء منه، أي لم يزل يبعث الأنبياء واحداً بعد واحد، حتى بعث محمداً صلى الله عليه وآله، فتمّتْ به حجته على الخلق أجمعين. وبلغ الأمرُ مقطعه، أي لم يبق بعده رسول ينتظر، وانتهت عُذْرُ الله تعالى ونُذُره، فعذْرُهُ مَا بيَّن للمكلَّفين من الإعذار في عقوبته لهم إنْ عَصَوْه، ونُذُرُه ما أنذرهم به من الحوادث، ومَنْ أنذَرَهُمْ على لسانه من الرسل.

واعلم أنّ المتكلمين اختلفوا في عصمة الأنبياء، ونحن نذكر ها هنا طَرَفاً من حكاية المذاهب في هذه المسألة على سبيل الاقتصاص ونقل الآراء، لا على سبيل الحِجاج، ونخصّ قِصّة آدم عليه السلام والشجرة بنوع من النظر، إذ كانت هذه القصة مذكورةً في كلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الفصل، فنقول:

اختلف الناس في المعصوم ما هُوَ؟ فقال قوم: المعصوم هو الذي لا يمكنه الإتيان بالمعاصي، وهؤلاء هم الأقلّون أهل النظر، واختلفوا في عدم التمكّن كيف هو؟ فقال قوم منهم: المعصوم هو المختصُّ في نفسه أو بدنه أو فيهما، بخاصيّة تقتضي امتناع إقدامه على المعاصي.

وقال قوم منهم: بل المعصوم مساوٍ في الخواصّ النفسية والبدنية لغير المعصوم، وإنما العصمة هي القدرة على الطاعة أو عدم القدرة على المعصية، وهذا قولُ الأشعريّ نفسه، وإن كان كثير من أصحابه قد خالفه فيه.

وقال الأكثرون من أهل النظر: بل المعصوم مختار متمكّن من المعصية والطاعة.

وفسروا العصمة بتفسيرين: أحدهما: أنها أمورٌ يفعلها الله تعالى بالمكلّف فتقتضي ألاّ يفعل المعصية اقتضاء غير بالغ إلى حدّ الإيجاب، وفسَّروا هذه الأمور فقالوا: إنها أربعة أشياء: أوّلُها أن يكون لنفس الإنسانِ مَلَكةٌ مانعة من الفجور، داعية إلى العفّة، وثانيها العلم بمثالِب المعصية ومناقب الطاعة. وثالثها تأكيد ذلك العلم بالوحي والبيان من الله تعالى. ورابعها أنه مَتَى صَدَر عنه خطأ من باب النسيان والسهو لم يترك مهملاً بل يعاقب وينبه ويضيّق عليه العذر، قالوا: فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان الشخص معصوماً عن المعاصي لا محالة، لأنّ

العِفّة إذا انضاف إليها العلْم بما في الطاعة من السعادة وما في المعصية من الشقاوة، ثم أكّد ذلك تتابع الوحي إليه وترادُفه، وتظاهر البيان عنده، وتمّم ذلك خوفُه من العتاب على القدر القليل، حصل من اجتماع هذه الأمور حقيقة العصمة.

وقال أصحابنا: العصمة لطف يمتنع المكلَّف عند فعله من القبيح اختياراً، وقد يكون ذلك اللطف خارجاً عن الأمور الأربعة المعدودة، مثل أن يعلم الله تعالى أنه إنْ أنشأ سحاباً، أو أهبّ ريحاً، أو حَرّك جسماً، فإن زيداً يمتنع عن قبيح مخصوص اختياراً، فإنّه تعالى يجب عليه فعل ذلك، ويكون هذا اللطف عصمة لزيد، وإن كان الإطلاق المشتهر في العصمة إنما هو لمجموع ألطافٍ يمتنع المكلَّف بها عن القبيح مدة زمان تكليفه.

وينبغي أن يقع الكلام بعد هذه المقدمة في ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في حال الأنبياء قبل البعثة ومن الذي يجوزُ أن يرسله الله تعالى إلى العباد

فالذي عليه أصحابُنا المعتزلة رحمهم الله، أنه يجب أن ينزَّه النبيّ قَبْلَ البعثة عما كان فيه تنفيرٌ عن الحق الذي يدعو إليه، وعمّا فيه غضاضة وعيب.

فالأول: نحو أن يكون كافراً أو فاسقاً، وذلك لأنّا نجد التائب العائد إلى الصلاح بعد أن عهد الناسُ منه السُّخف والمجون والفِسْق، لا يقع أمرُه بالمعروف ونهيه عن المنكر عند الناس موقعهما ممن لم يعهدوه إلاّ على السَّداد والصلاح.

والثاني: نحو أن يكون حَجّاماً أو حائكاً أو محترفاً بحِرفة يقذرُها الناس، ويستخفُّون بصاحبها، إلا أنْ يكون المبعوثُ إليهم على خلاف ما هو المعهود الآن، بألاّ يكون من تعاطى ذلك مستهاناً به عندهم. ووافق أصحابنا في هذا القول جمهورُ المتكلمين.

وقال قوم من الخوارج: يجوز أن يبعث الله تعالى مَنْ كان كافراً قبل الرسالة، وهو قول ابن فُورك من الأشعرية، لكنه زعم أنّ هذا الجائز لم يقع.

وقال قوم من الحَشَوِيّة: قد كان محمد ﷺ كافراً قبل البعثة، واحتجُّوا بقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾[1]. وقال بُرغوث المتكلم، وهو أحد النَّجّارية: لم يكن النبيّ ﷺ مؤمناً بالله قبل أن يبعثه، لأنه تعالى قال له: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾[2].

وروي عن السُّدّيّ في قوله تعالى: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ﴾[3]، قال: وِزْرُهُ: الشرك، فإنه كان على دين قومه أربعين سنة.

---

(١) سورة الضحى، الآية: ٧.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٥٢.
(٣) سورة الشرح، الآيتان: ٢، ٣.

وقال بعض الكرّاميّة في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام، ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ﴾[1]: إنه أسلم يومئذ، ولم يكن من قبل ذلك مسلماً، ومثل ذلك، قال اليمان بن رباب، متكلّم الخوارج.

وحكى كثير من أرباب المقالات عن شيخنا أبي الهذيل وأبي عليّ جواز أن يبعث الله تعالى من قد ارتكب كبيرة قبل البعثة، ولم أجد في كتب أصحابنا حكاية هذا المذهب عن الشيخ أبي الهُذَيل، ووجدتُه عن أبي عليّ، ذكره أبو محمد بن مَتّوَيْه في كتاب «الكفاية»، فقال: منع أهلُ العدل كلُّهم من تجويز بعثة مَنْ كان فاسقاً قبل النبوّة إلا ما جرى في كلام الشيخ أبي عليّ رحمه الله تعالى من ثُبوت فَضل بين البعثة وقبلها، فأجاز أن يكون قبل البعثة مرتكباً لكبيرة ثم يتوب، فيبعثه الله تعالى حينئذ، وهو مذهب محكيّ عن عبد الله بن العباس الرَّامَهُرْمزيّ.

ثم قال الشيخ أبو محمد رحمه الله تعالى: والصّحيح من قول أبي عليّ رحمه الله تعالى مثل ما نختاره من التّسْوية بين حال البعثة وقبلها في المنع من جواز ذلك.

وقال قوم من الأشعريّة ومن أهل الظاهر وأرباب الحديث: إنّ ذلك جائز واقع، واستدلُّوا بأحوال إخوة يوسف. ومنع المانعون من ذلك من ثبوت نُبُوَّةِ إخوة يوسف، ثم هؤلاء المجوّزون، منهم من جَوَّز عليهم فعل الكبائر مطلقاً، ومنهم مَنْ جوَّز ذلك على سبيل النُّدْرة ثم يتوبون عنه، ويشتهر حالهم بين الخلق بالصلاح، فأمّا لو فرضنا إصرارهم على الكبائر بحيث يصيرون مشهورين بالفسق والمعاصي، فإنّ ذلك لا يجوز، لأنه يفوّت الغرض من إرسالهم ونبوّتهم على هذا التقدير.

وقالت الإماميّة: لا يجوز أنْ يبعث الله تعالى نبيًّا قد وقع منه قبيح قبل النّبوة، لا صغيراً ولا كبيراً، لا عمداً ولا خطأً، ولا على سبيل التأويل والشبهة، وهذا المذهب مما تفرّدوا به، فإن أصحابنا وغيرهم من المانعين للكبائر قبل النبوة، لم يمنعوا وقوع الصغائر منهم إذا لم تكن مسخّفة منفرة[2].

أطْردت الإمامية هذا القول في الأئمة فجعلت حكمهم في ذلك حكم الأنبياء في وجوب العصمة المطلقة لهم قبل النبوّة وبعدها.

الفصل الثاني: في عصمة الأنبياء في زمن النبوة عن الذنوب في أفعالهم وتروكهم عدا ما يتعلق بتبليغ الوحي والفتوى في الأحكام

جوّز قوم من الحَشَويّة عليهم هذه الكبائر وهم أنبياء، كالزنى واللواط وغيرهما، وفيهم مَنْ جوز ذلك بشرط الاستسرار دون الإعلان، وفيهم مَنْ جوّزَ ذلك على الأحوال كلها.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣١.

(٢) أقول: الإصرار على الصغائر من الكبائر فينحصر الفرق فيما إذا ارتكبت الصغيرة مرة واحدة.

ومنع أصحابنا المعتزلة من وقوع الكبائر منهم عليهم السلام أصلاً، ومنعوا أيضاً مِنْ وقوع الصغائر المسخّفة منهم، وجوّزوا وقوع الصغائر التي ليست بمسخّفة منهم. ثم اختلفُوا فمنهم مَنْ جَوّز على النبيّ الإقدام على المعصية الصغيرة غير المسخّفة عَمْداً، وهو قول شيخنا أبي هاشم رحمه الله تعالى، فإنه أجاز ذلك وقال: إنه لا يقدم عليه السلام على ذلك إلا على خوف وَوَجَلٍ، ولا يتجرّأ على الله سبحانه.

ومنهم مَنْ منع مَنْ تعمَّد إتيان الصغيرة، وقال: إنّهم لا يقدمون على الذنوب التي يعلمونها ذنوباً، بل على سبيل التأويل ودخول الشبهة، وهذا قول أبي علي رحمه الله تعالى.

وحُكِيَ عن أبي إسحاق النظام وجعفر بن مبشّر، أنّ ذنوبهم لا تكون إلاّ على سبيل السَّهو والنسيان، وأنّهم مؤاخذون بذلك وإن كان موضوعاً عن أمتهم، لأنّ معرفتهم أقوى، ودلائلهم أكثر، وأخطارهم أعظم، ويتهيّأ لهم من التحفُّظ ما لا يتهيّأ لغيرهم.

وقالت الإمامية: لا تجوزُ عليهم الكبائر ولا الصغائر، لا عمداً ولا خطأ، ولا سهواً، ولا على سبيل التأويل والشبهة، وكذلك قولهم في الأئمة، والخلاف بيننا وبينهم في الأنبياء يكاد يكون ساقطاً، لأنّ أصحابنا إنّما يجوّزون عليهم الصغائر، لأنه لا عقابَ عليها، وإنما تقتضي نقصان الثواب المستحقّ على قاعدتهم في مسألة الإحباط، فقد اعترف إذاً أصحابنا بأنّه لا يقع من الأنبياء ما يستحقون به ذمًّا ولا عقاباً، والإمامية إنّما تنفي عن الأنبياء الصغائر والكبائر، من حيث كان كلُّ شيء منها يستحق فاعلُه به الذمّ والعقاب، لأنّ الإحباط باطل عندهم، فإذا كان استحقاقُ الذمّ والعقاب يجب أن ينفى عن الأنبياء، وجب أن يُنْفَى عنهم سائر الذنوب، فقد صار الخلافُ إذاً متعلّقاً بمسألة الإحباط، وصارت هذه المسألة فرعاً من فروعها.

واعلم أن القول بجواز الصَّغائر على الأنبياء بالتأويل والشبهة على مَا ذهب إليه شيخنا أبو عليّ رحمه الله تعالى، إنما اقتضاه تفسيرُه لآية آدم والشجرة، وتكلّفه إخراجها عن تعمّد آدم للعصيان، فقال: إنّ آدم نُهِيَ عن نوع تلك الشجرة لا عن عينها، بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾[1]، وأراد سبحانه نوعَها المطلق، فظن آدم أنه أراد خُصوصيّة تلك الشجرة بعينها، وقد كان أشير إليها فلم يأكل منها بعينها، ولكنه أكل من شجرة أخرى من نَوْعِها، فأخطأ في التأويل. وأصحاب شيخنا أبي هاشم لا يرضون هذا المذهب، ويقولون إنّ الإشكال باقٍ بحاله، لأن آدم أخلّ بالنظر على هذا القول في أنّ المنهيّ عنه: هل هو عينُ الشجرة أو نوعها؟ مع أنه قد كان مدلولاً على ذلك، لأنّه لو لم يكن مدلولاً على ذلك لكانَ تكليفُ الامتناع عن التناول تكليف ما لا يطاق، وإذا دلّ على ذلك وجب عليه النظر، ولا وَجْه يجب النظر لأجله

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٥. والأعراف، الآية: ١٩.

إلا الخوف من تركه، وإذا لم يكن بدّ من كونه خائفاً فهو عالم إذاً بوجوب هذا التأمّل والنظر، فإذا أخلّ به فقد وقعتْ منه المعصية مع علمه.

وكما لا يرضَى أصحابُ شيخنا أبي هاشم هذا المذهب، فكذلك لا يرتضُون مذهَب النَّظّام وجعفر بن مبشِّر، وذلك لأنّ القول بأنّ الأنبياء يؤاخذون على ما يفعلونه سهواً متناقض، لأنّ السهو يُزِيل التكْليف، ويخرج الفعل من كونه ذنباً مؤاخذاً به، ولهذا لا يصحّ مؤاخذةُ المجنون والنائم، والسهو في كونه مؤثراً في رفع التكليف جارٍ مجرى فقد القُدر والآلات والأدلّة، فلو جاز أن يخالف حالُ الأنبياء حالَ غيرهم في صحّة تكليفهم مع السهو، جاز أن يخالف حالُهم حالَ غيرهم في صحّة التكليف مع فقد القُدَر والآلات، وذلك باطل.

واعلم أنّ الشريف المرتضَى - رحمه الله تعالى - قد تكلّم في كتابه المسمى «بتنزيه الأنبياء والأئمة» على هذه الآية، وانتصر لمذهب الإمامية [فيها]، وحاول صَرْفها عن ظاهرها، وتأوّلَ اللفظِ بتأويلٍ مستكرَه غير صحيح، وأنا أحكي كلامه ها هنا وأتكلّم عليه نُصرةً لأصحابنا، ونصرةً أيضاً لأمير المؤمنين عليه السلام، فإنه قد صرّح في هذا الفصل بوقوع الذنب من آدم عليه السلام، ألا ترى إلى قوله: «والمخاطرة بمنزلته»، وهل تكون هذه اللفظة إلا في الذنب! وكذلك سياقة الفَصْل من أوّله إلى آخره، إذا تأمله المنصف واطّرح الهوى والتعصّب. ثم إنا نذكر [كلام] السيد الشريف المرتضى رحمه الله تعالى، قال رحمه الله تعالى:

أما قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾[1] فإنّ المعصية مخالفة للأمر، والأمر من الحكيم تعالى قد يكونُ بالواجب وبالندب معاً، فلا يمتنع على هذا أن يكون آدم مندوباً إلى ترك التّناول من الشجرة، فيكون بمواقعتها تاركاً فرضاً ونفلاً، وغير فاعل قبيحاً، وليس يمتنع أن يسمَّى تارك النفل عاصياً، كما يُسمَّى بذلك تارك الواجب، فإنّ تسمية من خالف ما أمر به سواء كان واجباً أو نفلاً بأنه عاصٍ ظاهر، ولهذا يقولون: أمرتُ فلاناً بكذا وكذا من الخير فعصاني وخالفني، وإن لم يكن ما أمر به واجباً.

يقال له: الكلام على هذا التأويل من وجوه:

أولها: أنّ ألفاظ الشَّرْع يجب أن تُحمَل على حقائقها اللّغوية ما لم يكن لها حقائق شرعية، فإذا كان لها حقائق شرعية وجبَ أن تحمل على عُرْف الشَّرْع واصطلاحه، كالصلاة والحجّ والنفاق والكفر، ونحو ذلك من الألفاظ الشّرعية، وهكذا قال السيد المرتضى رحمه الله تعالى في كتابه في أصول الفقه المعروف «بالذَّريعة» في باب كون الأمر للوجوب وهو الحق الذي لا

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢١.

مندوحَة عنه. وإذا كان لفظُ العصيان في الاصطلاح الشرعيّ موضوعاً لمخالفة الأمر الإيجابيّ لم يُجز العدول عنه وحمله على مخالفة النَّدْب.

ومعلوم أنّ لفظ العصيان في العُرْف الشرعيّ لا يطلق إلا على مخالفة الأمر المقتضِي للوجوب، فالقول بجواز حملها على مخالفة الأمر الندبيّ قول تبطله وتدفعه تلك القاعدة المقرّرة التي ثبتت بالاتفاق وبالدليل، على أنّنا قبل أن نجيبَ بهذا الوجه نمنع أصلاً أنه يجوز أن يقال لِتارك النفل: إنَّه عاصٍ لا في أصل اللغة، ولا في العُرْف، ولا في الشرع، وذلك لأنّ حقيقة النفل هو ما يقال فيه للمكلّف: الأوْلى أن تفعلَ هذا، ولكَ ألاّ تفعله، ومعلوم أنّ تاركَ مثلِ ذلك لا يطلَق عليه أنه عاصٍ، ويبين ذلك أن لفظ «العصيان» في اللغة موضوع للامتناع، ولذلك سُمّيتِ العصا عَصاً، لأنه يُمتَنع بها، ومنه قولهم: قد شقّ العصا، أي خرج عن الرِّبْقة المانعة من الاختلاف والتفرّق، وتارك الندب لا يمتنع من أمرٍ، لأنّ الأمر الندبيّ لا يقتضي شيئاً اقتضاء اللزوم، بل معناه إن فعلت فهو أوْلى، ويجوز ألاّ تفعل، فأيّ امتناع حدث إذا خولف أمر الندب سمي المخالف له عاصياً، ويبين ذلك أيضاً أنّ لفظ «عاصٍ» اسم ذمّ، فلا يجوز إطلاقه على تارك الندب: كما لا يسمّى فاسقاً، وإنْ كان الفسق في أصل اللغة للخروج.

ثم يُسأل المرتضَى رحمه الله تعالى عَمّا سأل عنه نفسَه، فيقال له: كيف يجوز أن يكون تركُ الندب معصية؟ أو لَيْس هذا يوجب أن يوصف الأنبياء بأنهم عصاة في كل حالٍ، وأنهم لا ينفكّون عن المعصية، لأنهم لا يكادون ينفكّون من ترك الندب؟!

وقد أجاب رحمه الله تعالى عن هذا، فقال: وَصْف تارك النَّدْب بأنه عاصٍ توسّع وتجوّز، والمجاز لا يقاسُ عليه، ولا يعدَّى عن موضعه. ولو قيل إنه حقيقة في فاعل القبيح، وتارك الأوْلى والأفضل لم يجز إطلاقه في الأنبياء إلا مع التقييد، لأنّ استعماله قد كثر في فاعل القبائح، فإطلاقه عن التقييد مُوهِمٌ.

لكنا نقول: إن أردت بوصفهم بأنهم عصاة أنّهم فعلوا القبيح، فلا يجوز ذلك، وإنْ أردت أنهم تركوا ما لو فعلوه لاستحقُّوا الثواب، ولكان أوْلَى، فهم كذلك.

كذلك يقال له: ليس هذا من باب القياس على المجاز الذي اختلَفَ فيه أربابُ أصول الفقه، لأن مَنْ قال: إذا ترك زيد الندب، فإنه يسمَّى عاصياً، يلزمه أن يقول: إن عمْراً إذا ترك الندب يسمى عاصياً، وليس هذا قياساً، كما أنّ من قال لزيد البليد: هذا حمار، قال لعمرو البليد: هذا حمار، والقياس على المجاز الذي اختلف الأصوليون في جوازه خارج عن هذا الموضع.

ومثال المسألة الأصولية المختلف فيها: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾[1]، هل يجوز أن يقال: طأطِىء لهما عُنق الذلّ!

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٤.

وأما قوله: لو سلمنا أنه حقيقة في تارك الندب لم يجز إطلاقه في حق الأنبياء، لأنه يوهم العصيان، بل يجب أن يقيّد.

فيقال له: لكن الباريء سبحانه أطلقَه ولم يقيّده في قوله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ﴾[(١)]، فيلزمك أن يكون تعالى موهماً وفاعلاً للقبيح، لأن إيهام القبيح قبيح.

فإن قال: الدلالة العقلية على استحالة المعاصي على الأنبياء تؤمن من الإيهام.

قيل له: وتلك الدلالة بعينها تُؤمن من الإيهام في قول القائل: الأنبياء عصاة، فهلاّ أجزتَ إطلاق ذلك!

وثانيها: أنه تعالى قال: ﴿فَغَوَىٰ﴾ والغيّ الضلال.

قال المرتضى رحمه الله تعالى: معنى غوى ها هنا خاب، لأنه نعلم أنه لو فعل ما ندب إليه من ترك التناول من الشجرة لاستحقّ الثواب العظيم، فإذا خالف الأمر ولم يَصِر إلى ما ندب إليه، فقد خاب لا محالة من حيث لم يصِرْ إلى الثّواب الذي كان يستحقّه بالامتناع، ولا شبهة في أنّ لفظ «غوى» يحتمل الخيبة، قال الشاعر:

فَمَنْ يَلْقَ خَيْراً يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ ... وَمَنْ يَغْوَ لاَ يَعْدَمْ عَلَى الْغَيِّ لاَئِمَا

يقال له: ألستَ القائل في مصنّفاتك الكلامية: إنّ المندوبات إنما ندب إليها، لأنها كالمسّهلات والميّسرات لفعل الواجبات العقلية، وأنها ليست ألطافاً في واجب عقليّ، وأنّ ثوابها يسيرٌ جداً بالإضافة إلى ثواب الواجب! فإذا كان آدم عليه السلام ما أخلّ بشيء من الواجبات، ولا فعلَ شيئاً من المقبّحات، فقد استحقّ من الثواب العظيم ما يستحقر ثواب المندوب بالإضافة إليه. ومثل هذا لا يقال فيه لمن ترك المندوب إنّه قد خاب، ألا ترى أنّ من اكتسب مائة ألف قنطار من المال، وترك بعد ذلك درهماً واحداً كان يمكنُه اكتسابه فلم يكتسبه، لا يقال: إنه خاب!

وثالثها: أنّ ظاهر القرآن يخالف ما ذكره، لأنه تعالى أخبر أن آدم منهيٌّ عن أكل الشجرة بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾[(٣)]، وهذا يوجب أنّه قد عصى بأن فعل منهيًا عنه، والشريف المرتَضى رحمه الله تعالى يقول: إنه عصى بأن ترك ماموراً به.

قال المرتَضى رحمه الله تعالى مجيباً عن هذا: إنّ الأمر والنهي ليسا يختصّان عندنا بصيغة

(١) سورة طه، الآية: ١٢١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٥.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٢.

ليس فيها احتمال واشتراك، وقد يؤمر عندنا بلفظ النهي ويُنهى بلفظ الأمر، وإنّما يكون النهيُ نهياً بكراهة المنهيّ عنه، فإذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾، ولم يكره قربهما لم يكن في الحقيقة ناهياً، كما أنه تعالى لمّا قال: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾[1]، ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾[2]، ولم يرد ذلك، لم يكن أمراً به، وإذا كان قد صحب قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ إرادة ترك التناول، وجب أن يكون هذا القول أمراً، وإنما سمّاه منهيًّا، وسمى أمره له بأنه نهيٌ من حيث كان فيه معنى النهي، لأنّ في النهي ترغيباً في الامتناع من الفعل، وتزهيداً في الفعل نفسه، ولما كان الأمر ترغيباً من فعل المأمور، وتزهيداً في تركه جاز أن يسمّى نهياً.

وقد يتداخل هذان الوضعان في الشاهد، فيقول أحدنا: قد أمرت فلاناً بألاّ يلقى الأمير، وإنما يريد أنّه نهاه عن لقائه، ويقول: نهيتك عن هَجْر زيد، وإنّما معناه أمرتُك بمواصلته.

يقال له: هذا خلاف الظاهر، فلا يجوز المصير إليه إلا بدلالة قاطعة تصرف اللفظ عن ظاهره، ويكفي أصحاب أبي هاشم في نصرة قولهم التمسك بالظاهر.

واعلم أنّ بعض أصحابنا تأول هذه الآية، وقال: إنّ ذلك وقع من آدم عليه السلام قبل نبوّته، لأنه لو كان نبياً قبل إخراجه من الجنَّة، لكان إما أن يكون مرسَلاً إلى نفسه، وهو باطل، أو إلى حوّاء وقد كان الخطاب يأتيها بغير واسطة، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ أو إلى الملائكة، وهذا باطل، لأن الملائكة رسل الله، بدليل قوله: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾[3]، والرسول لا يحتاج إلى رسول آخر، أو يكون رسولاً وليس هناك من يرسَل إليه، وهذا محال. فثبت أن هذه الواقعة وقعت له عليه السلام قبل نبوّته وإرساله.

الفصل الثالث: في خطئهم في التبليغ والفتاوى

قال أصحابنا: إنّ الأنبياء معصومون من كلّ خطإٍ يتعلّق بالأداء والتبليغ، فلا يجوز عليهم الكذب ولا التغيير ولا التبديل ولا الكتمان ولا تأخر البيان عن وقت الحاجة، ولا الغلط فيما يؤدّونه عن الله تعالى، ولا السهوُ فيه ولا الإلغاز ولا التَّعمِية، لأنّ كلّ ذلك إما أنْ ينقُض دلالة المعجز على صدقه، أو يؤدّي إلى تكليف ما لا يطاق.

وقال قومٌ من الكرّامية والحشَويّة: يجوز عليهم الخطأ في أقوالهم، كما جاز في أفعالهم، قالوا: وقد أخطأ رسول الله صلى الله عليه وآله في التبليغ، حيثُ قال: «تلك الغرانيق العلا * وإن شفاعتهنّ لتُرتجى»[4].

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٠.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٢.
(٣) سورة فاطر، الآية: ١.
(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٩١٥٦).

وقال قوم منهم: يجوز الغلط على الأنبياء فيما لم تكن الحجّة فيه مجرّد خبرهم، لأنه لا يكون في ذلك إبطال حجة الله على خلقه، كما وقع من النبيّ ﷺ في هذه الصورة، فإنّ قوله ذلك ليس بمبطل لحجة العقل في أن الأصنام لا يجوز تعظيمها، ولا ترجَى شفاعتها. فأمّا ما كان السبيلُ إليه مجرّد السمع فلو أمكن الغلط فيه لبطلت الحجة بإخبارهم.

وقال قوم منهم: إنّ الأنبياء يجوز أن يخطئوا في أقوالهم وأفعالهم، إذا لم تَجْرِ تلك الأفعال مجرَى بيان الوحي، كبيانه عليه السلام لنا الشريعة، ولا يجوز عليه الخطأ في حال البيان، وإن كان يجوز عليه ذلك في غير حال البيان، كما روي من خَبِر ذي اليدين حين سها النبيّ ﷺ في الصلاة[1]، وكذلك ما يكون منه من تبليغ وحي، فإنه لا يجوز عليه أن يخطِىء فيه، لأنه حجّة الله على عباده. فأمّا في أقواله الخارجة عن التبليغ، فيجوز أن يخطىء كما روي عنه ﷺ في نهيه لأهل المدينة عن تأبير النّخل[2].

فأمّا أصحابُنا المعتزلة، فإنّهم اختلفوا في الخبر المرويّ عنه عليه الصلاة والسلام في سورة النّجم، فمنهم مَن دَفَع الخبر أصلاً ولم يقبله، وطعن في رواته، ومنهم من اعترف بكونه قرآناً منزّلاً، وهم فريقان: أحدُهما القائلون بأنه كان وصفاً للملائكة، فلما ظَنّ المشركون أنه وصفُ آلهتهم، رفِع ونُهِيَ عن تلاوته. وثانيهما القائلون إنه خارجٌ على وجه الاستفهام بمعنى الإنكار، فتوهّم سامعوه أنه بمعنى التحقيق، فنسخه الله تعالى ونهى عن تلاوته.

ومنهم من قال: ليس بقرآن منزّل، بل هو كلام تكلّم به رسول الله ﷺ من قِبَل نفسه على طريق الإنكار والهزء بقريش، فظنوا أنّه يريد التحقيق، فنسخه الله بأنْ بيّن ظنّهم، وهذا معنى قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾[3]. قالوا: فإلقاءُ الشيطان ها هنا هو إلقاء الشبهة في قلوب المشركين، وإنما أضافه إلى أمنيّته، وهي تلاوته القرآن، لأن بغرور الشيطان ووسوسته أضاف المشركون إلى تلاوته عليه السلام ما لم يُرِده بها.

وأنكر أصحابُنا الأخبار الواردة التي تقتضي الطّعْنَ على الرسول الله ﷺ، قالوا: وكيف

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان، باب: هل يأخذ الإمام إذا شك بقول الناس (٧١٤) بلفظ: «أن رسول الله ﷺ من اثنتين فقال له: ذو اليدين أقصرت الصلاة، أم نسيت يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: أصدق ذو اليدين، فقال الناس: نعم، فقال رسول الله ﷺ فصلى اثنتين أخريين ثم سلم ثم كبر فسجد مثل سجوده أو أطول» وأخرجه مسلم في المساجد، باب: السهو في الصلاة والسجود له (٥٧٣) والترمذي في الصلاة (٣٩٩)، وأبو داود؛ الحديث (١٠٠٨).

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل الحديث (٢٣٦٣).

(٣) سورة الحج، الآية: ٥٢.

يجوز أن تصدق هذه الأخبار الآحاد على من قد قال الله تعالى له: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[1] وقال له: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾[2] وقال عنه: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾[3]. وأمّا خبر ذي اليدين وخبر تأبير النخل، فقد تكلّمنا عليهما في كتبنا المصنّفة في أصول الفقه.

الأصل: وَقَدَّرَ ٱلْأَرْزَاقَ فَكَثَّرَهَا وَقَلَّلَهَا، وَقَسَّمَهَا عَلَى الضِّيقِ وَالسَّعَةِ، فَعَدَّلَ فِيها لِيَبْتَلِيَ مَنْ أَرَادَ بِمَيْسُورِها وَمَعْسُورِهَا، وَلِيَخْتَبِرَ بِذَلِكَ الشُّكْرَ وَالصَّبْرَ مِنْ غَنِيِّهَا وَفَقِيرِهَا. ثُمَّ قَرَنَ بِسَعَتِهَا عَقَابِيلَ فَاقَتِهَا، وَبِسَلاَمَتِهَا طَوَارِقَ آفاتِهَا، وَبِفُرَجِ أَفْرَاحِهَا غُصَصَ أَتْرَاحِهَا. وَخَلَقَ ٱلْآجَالَ فَأَطَالَهَا وَقَصَّرَها، وَقَدَّمَهَا وَأَخَّرَهَا، وَوَصَلَ بِالمَوْتِ أَسْبَابَها، وَجَعَلَهُ خالِجاً لِأَشْطانِها، وَقاطِعاً لِمَرَائِرِ أَقْرَانِها.

الشرح: الضِّيق والضَّيْق: لغتان، فأما المصدر من «ضاق» فالضِّيق بالكسر، لا غير. وعَدّل فيها: من التعديل وهو التقويم، وروي: «فعدَل»، بالتخفيف، من العدل نقيض الظلم. والميسور والمعسور: مصدران. وقال سيبويه: هما صفتان، ولا يجيء عنده المصدر على وزن «مفعول» البتّة، ويتأول قولهم: «دعه إلى ميسوره»، ويقول كأنه قال: دعْه إلى أمر يوسر فيه، وكذلك يتأول «المعقول» أيضاً، فيقول كأنه عُقِل له شيء، أي حبس وأيّد وسدد.

ومعنى قوله عليه السلام: «ليبتليَ مَنْ أراد بميسورها ومعسورها»، هو معنى قول النبيّ ﷺ: «إنّ إعطاء هذا المال فتنة، وإمساكه فتنة»[4]. والعقابيل في الأصل: الحَلأ، وهو قروح صغار تخرج بالشّفة من بقايا المرض. والفاقة: الفقر. وطوارق الآفات: متجدّدات المصائب، وأصلُ الطُّروق ما يأتي ليلاً. والأتراح: الغموم، الواحد تَرَح، وترّحه ترحيحاً، أي حزّنه. وخالجاً: جاذباً، والخلج الجذْب، خلجه يخلِجه بالكسر، واختلجه، ومنه الخليج: الحبْل لأنه يجتذب به، وسمي خليج البحر خليجاً، لأنه يجذَب من معظم البحر.

والأشطان: الحبال، واحدها شَطَن، وشطنتُ الفرسَ أشطُنه، إذا شددته بالشَّطَن.

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٣٢. (٢) سورة الأعلى، الآية: ٦.

(٣) سورة الحاقة، الآيتان: ٤٥، ٤٦.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٠٠٦٣)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٨٧)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٩٩٧).

والقرائن: الحبال، جمع قَرَن، وهو من شواذ الجموع، قال الشاعر:

أبلغ خليفتنا إنْ كنتَ لاقيَه ... أنّي لَدَى الباب كالمشدود في قَرَنِ

ومرائر القرائن: جمع مَرير، وهو ما لَطُف وطال منها واشتدّ فتله، وهذا الكلام من باب الاستعارة.

الأصل: عَالِمُ السِّرِّ مِنْ ضَمائِرِ الْمُضمِرِينَ وَنَجْوَى الْمُتَخَافِتِينَ، وَخَوَاطِرِ رَجْمِ الظُّنُونِ، وَعَقَدِ عَزِيمَاتِ ٱلْيَقِينِ، وَمَسَارِقِ إِيمَاضِ ٱلْجُفُونِ، وَما ضَمِنَتْهُ أَكْنانُ ٱلْقُلُوبِ، وَغَيَاباتُ ٱلْغُيوبِ، وَما أَصْغَتْ لاِسْتِرَاقِهِ مَصائِخُ ٱلْأَسْمَاعِ، وَمَصَائِفِ الذَّرِّ، وَمَشَاتِي ٱلْهَوَامِّ، وَرَجْعِ ٱلْحَنِينِ مِنَ المُولَهاتِ، وَهَمْسِ ٱلْأَقْدَامِ، وَمُنْفَسَحِ الثَّمَرَةِ مِنْ وَلائِجِ غُلُفِ ٱلْأَكْمَامِ، وَمُنْقَمَعِ ٱلْوُحُوشِ مِنْ غِيرَانِ ٱلْجِبالِ وَأَوْدِيَتِها، وَمُخْتَبَإِ ٱلْبَعُوضِ بَيْنَ سُوقِ ٱلْأَشْجَارِ وَأَلْحِيَتِها، وَمَغْرِزِ ٱلْأَوْرَاقِ مِنَ ٱلأَفْنانِ، وَمَحَطِّ ٱلْأَمْشاجِ مِنْ مَسَارِبِ ٱلْأَصْلاَبِ، وَناشِئَةِ ٱلْغُيُومِ وَمُتَلاَحِمِها، وَدُرُورِ قَطْرِ السَّحَابِ فِي مُتَرَاكِمِها، وَمَا تَسْفِي ٱلْأَعَاصِيرُ بِذُيُولِها، وَتَعْفُو ٱلْأَمْطَارُ بِسُيُولِها، وَعَوْمِ بَنَاتِ ٱلْأَرْضِ فِي كُثْبانِ الرِّمَالِ، وَمُسْتَقَرِّ ذَوَاتِ ٱلْأَجْنِحَةِ بِذُرَا شَناخِيبِ ٱلْجِبالِ، وَتَغْرِيدِ ذَوَاتِ المَنْطِقِ فِي دَيَاجِيرِ ٱلْأَوْكَارِ، وَمَا أَوْعَبَتْهُ ٱلْأَصْدَافُ، وَحَضَنَتْ عَلَيْهِ أَمْوَاجُ ٱلْبِحَارِ، وَمَا غَشِيَتْهُ سُدْفَةُ لَيْلٍ، أَوْ ذَرَّ عَلَيْهِ شَارِقُ نَهارٍ، وَمَا ٱعْتَقَبَتْ عَلَيْهِ أَطْبَاقُ الدَّيَاجِيرِ، وَسُبُحَاتُ النُّورِ، وَأَثَرِ كُلِّ خَطْوَةٍ، وَحِسِّ كُلِّ حَرَكَةٍ، وَرَجْعِ كُلِّ كَلِمَةٍ، وَتَحْرِيكِ كُلِّ شَفَةٍ، وَمُسْتَقَرِّ كُلِّ نَسَمَةٍ، وَمِثْقالِ كُلِّ ذَرَّةٍ، وَهَمَاهِمِ كُلِّ نَفْسٍ هَامَّةٍ، وَمَا عَلَيْهَا مِنْ ثَمَرِ شَجَرَةٍ، أَوْ سَاقِطِ وَرَقَةٍ، أَوْ قَرَارَةِ نُطْفَةٍ، أَوْ نُقاعَةِ دَمٍ وَمُضْغَةٍ، أَوْ نَاشِئَةِ خَلْقٍ وَسُلاَلَةٍ، لَمْ يَلْحَقْهُ فِي ذَلِكَ كُلْفَةٌ، وَلاَ ٱعْتَرَضَتْهُ فِي حِفْظِ مَا ٱبْتَدَعَ مِنْ خَلْقِهِ عَارِضَةٌ، وَلاَ ٱعْتَوَرَتْهُ فِي تَنْفِيذِ ٱلْأُمُورِ وَتَدَابِيرِ المَخْلُوقِينَ مَلاَلَةٌ وَلاَ فَتْرَةٌ، بَلْ نَفَذَهُمْ عِلْمُهُ، وَأَحْصَاهُمْ عَدَدُهُ، وَوَسِعَهُمْ عَدْلُهُ، وَغَمَرَهُمْ فَضْلُهُ، مَعَ تَقْصِيرِهِمْ عَنْ كُنْهِ مَا هُوَ أَهْلُهُ.

الشرح: لو سمع النّضر بن كنانة هذا الكلام لقال لقائله ما قاله عليّ بن العباس بن جُريج، لإسماعيل بن بلبل:

قَالُوا أبو الصَّقْرِ مِنْ شَيْبَانَ قُلْتُ لَهُمْ ... كَلاَّ، وَلَكِنْ لَعَمْرِي مِنْهُ شَيْبَانُ

وكم أبٍ قَدْ عَلاَ بابنٍ ذُرا شَرَفٍ ... كَمَا عَلاَ بِرَسُولِ اللهِ عَدْنَانُ

إذ كان يفخر به على عدنان وقحطان، بل كان يقرُّ به عينُ أبيه إبراهيم خليل الرحمن، ويقول له: إنه لم يُعْفِ ما شيّدْتُ من معالم التوحيد، بل أخرج الله تعالى لك من ظهري ولداً ابتدع من علوم التوحيد في جاهلية العرب ما لم تبتدعْهُ أنت في جاهلية النَّبط[1]، بل لو سمع هذا الكلام أرسطوطاليس، القائل بأنه تعالى لا يعلم الجزئيّات، لخشع قلبهُ وقَفَّ شعرُه، واضطربَ فكره، ألا ترى ما عليه من الرُّواء والمهابة، والعظمة والفخامة، والمتانة والجزالة! مع ما قد أُشرِبَ من الحلاوة والطَّلاوة واللُّطف والسلاسة، لا أرى كلاماً يشبه هذا إلا أن يكون كلامَ الخالق سبحانه، فإنَّ هذا الكلام نَبْعةٌ من تلك الشجرة، وجدولٌ من ذلك البحر، وجَذْوَةٌ من تلك النار، وكأنه شَرْح قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[2].

ثم نعود إلى التفسير فنقول:

النَّجْوى: المسارَّة، تقول: انتجى القومُ وتناجَوْا، أي تسارُّوا، وانتجيت زيداً إذا خصصتَه بمناجاتك، ومنه الحديث، أنه صلّى الله عليه وآله أطال النَّجْوى مع عليّ عليه السلام، فقال قوم: لقد أطال اليوم نَجْوَى ابن عَمّه، فبلغه ذلك فقال: «إنّي ما انتجيتُه، ولكن الله انتجاه»[3] ويقال للسرّ نفسه النَّجْو، يقال: نجوته نَجْواً أي ساررته، وكذلك ناجَيْتُه مناجاةً، وسمّي ذلك الأمرُ المخصوص نجوى لأنه يستسرّ به، فأمّا قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾[4] فجعلهم هم النجوى، وإنما النجوى فعلهم، فإنما هو كقولك: «قوم رضاً» وإنما الرضا، فعلهم، ويقال للذي تسارّه: النجيّ على «فعيل»، وجمعه أنجية، قال الشاعر:

إنّي إذا ما القومُ كانوا أنجِيَهْ

وقد يكون النجيّ جماعة، مثل الصَّدِيق، قال الله تعالى: ﴿خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾[5]، وقال الفرّاء: قد يكون النجيّ والنجوَى اسماً ومصدراً.

والمتخافتين: الذين يسرّون المنطق، وهي المخافتة والتخافت والخَفْت، قال الشاعر:

---

(١) النَّبط: هم الأنباط شعب كانت له دولة في شمالي شبه الجزيرة العربية، وعاصمتهم سَلْع وتعرف اليوم بالبتراء، المعجم الوسيط، مادة (نبط).

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.

(٣) أخرجه الترمذي كتاب: المناقب علي بن أبي طالب (٣٧٢٦)، والطبراني في «الكبير» (١٧٥٦)، وابن عدي في «الكامل» (١/ ٤٢٨).

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٤٧.

(٥) سورة يوسف، الآية: ٨٠.

أخـاطِـبُ جَـهْـراً إذْ لَـهُـنَّ تَـخَـافُـتٌ وَشَتَّانَ بَيْنَ ٱلْجَهْرِ وَالمَنْطِقِ ٱلْخَفْتِ

ورَجْم الظنون: القولُ بالظَّن، قال سبحانه: ﴿رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾[1]، ومنه «الحديث المُرَجَّم» بالتشديد، وهو الذي لا يدرَي أحقٌّ هو أم باطل، ويقال صار رَجْماً، أي لا يوقف على حقيقة أمره. وعقد عزيمات اليقين، العزائم: التي يعقِد القلب عليها وتطمئِنّ النفس إليها.

ومسارق إيماض الجفون: ما تسترقه الأبصار حين تومض، يقال: أومض البصر والبرق إيماضاً إذا لمع لَمْعاً خفيفاً، ويجوز: ومض بغير همز، يَمِض وَمْضاً ووَميضاً ووَمَضاناً. وأكنانُ القلوب: غُلُفها، والكِنُّ: الستر، والجمع أكنان، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَـٰنًا﴾[2] ويروى: «أكنّة القلوب» وهي الأغطية أيضاً، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾[3]، والواحد كِنَان، قال عمر بن أبي ربيعة:

تـحـتَ عَـيْـنٍ كِـنَـانُـنَـا ظِـلُّ بُـرْدٍ مُـرَحَّـلُ

ويعني بالذي ضمنته أكنانُ القلوب الضمائر.

وغَيابات الغيوب: جمع غَيابة، وهي قَعْر البئر في الأصل، ثم نقلت إلى كلّ غامض خفيّ، مثل غَيابة، وقد روي: «غَبَابَات» بالباء. وأصغَتْ: تسمّعت ومالت نحوه. ولاستراقِه: لاستماعه في خُفْيَة، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾[4].

ومصائخ الأسماع: خروقُها التي يُصيخ بها، أي يتسمّع.

ومصائف الذرّ: المواضع التي يَصِيف الذرّ فيها، أي يقيم الصيف، يقال: صافَ بالمكان واصطاف بمعنى، والموضع مَصِيف ومصطاف.

والذرّ: جمع ذَرّة، وهي أصغر النمل.

ومشاتي الهوامّ: المواضع التي تشتو الهوامُّ بها، يقال: شتوتُ بموضع كذا وتشتَّيت، أي أقمت به الشتاء.

والهوامّ: جمع هامّة، ولا يقع هذا الاسم إلاّ على المخُوف من الأحْناش.

ورجْع الحنين: ترجيعه وترديده، والمولّهات: النُّوق والنساء اللواتي حِيلَ بينهنّ وبين أولادهنّ. وهمس الأقدام: صوت وطئها خفيًا جدًا، قال تعالى: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾[5]، ومنه قول الراجز.

فَـهُـنَّ يَـمْـشِـيـنَ بِـنَـا هَـمِـيـسـا

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٢.
(٢) سورة النحل، الآية: ٨١.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٤٦.
(٤) سورة الحجر، الآية: ١٨.
(٥) سورة طه، الآية: ١٠٨.

والأسدُ الهمُوس: الخفيُّ الوطء.

ومنفسَحُ الثَّمرة، أي موضع سعتها من الأكمام، وقد رُوي: «متفسّخ» بالخاء المعجمة وتشديد السين وبتاء بعد الميم، مصدراً من تفسّخت الثمرة، إذا انقطعت.

والولائج: المواضع الساترة، والواحدة وَلِيجة، وهو كالكهف يستَتِر فيه المارة من مطر أو غيره، ويقال أيضاً في جمعه: وُلُج وأولاج.

ومتقمّع الوحوش: موضع تقمّعها واستتارها، وسُمّيَ قَمَعة بن إلياس بن مضر بذلك، لأنّه انقمع في بيته كما زعموا. وغِيران الجبال: جمع غارٍ، وهو كالكهف في الجبل، والمغار مثل الغار والمغارة مثله. ومختَبأ البعوض: موضع اختبائها واستتارها، وسُوق الأشجار: جمع ساق. وألحيتُها جمع لحاء وهو القشر. ومغرز الأوراق: موضع غَرْزها فيها.

والأفنان: جمع فَنَن، وهو الغصن. والأمشاج: ماء الرجل يختلط بماء المرأة ودمها، جمع مَشِيج، كيتيم وأيتام. ومحطّها: إما مصدر أو مكان.

ومسارب الأصلاب: المواضع التي يتسرب المنيُّ فيها من الصُّلبُ، أي يسيل.

وناشئة الغيوم: أوّل ما ينشأ منها، وهو النَّشْءُ أيضاً، وناشئة الليل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا﴾[1] أول ساعاته، ويقال: هي ما ينشأ في الليل من الطاعات. ومتلاحمها، ما يلتصق منها بعضها ببعض ويلتحم.

ودرور قطر السحائب: مصدر، من دَرّ يدِرّ، أي سال، وناقة دَرُور: أي كثيرة اللّبن، وسَحَاب درور: أي كثير المطر، ويقال: إن لهذا السّحاب لدِرَّةً، أي. صبًّا، والجمع درور. ومتراكمها: المجتمِع المتكاثف منها، رَكَمْتُ الشيء أركُمه بالضم: جمعته وألقيت بعضَه على بعض، ورمْلٌ رُكام: وسحاب رُكام، أي مجتمع.

والأعاصير: جمع إعصار، هي ريح تثير الغبار فيرتفع إلى السَّماء كالعَمود. وقال تعالى: ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ﴾[2]. وتسفي، من سفَتِ الريح التراب سَفْياً، إذا أذرته فهو سَفيٌّ. وذيولها هاهنا، يريد به أطرافها وما لاحَفَ الأرض منها. وما تعفو الأمطار: أيّ ما تدرُس، عفت الريح المنزل أي درسته، وعفا المنزل نفسُه يعفُو: دَرَسَ، يتعدّى ولا يتعدّى.

وبنات الأرض: الهوامّ والحشرات التي تكون في الرمال، وعَوْمُها فيها: سباحتها، ويقال لسير السفينة وسير الإبل أيضاً: عَوْم، عُمْتُ في الماء، بضمّ أوله أعُوم.

وكُثبان الرمال: جمع كَثيب وهو ما انصبَّ من الرَّمْل واجتمع في مكانٍ واحد فصار تلّا، وكَثَبْتُ الشيءَ أكثِبُه كثباً، إذا جمعته، وانكثب الرمْلُ: اجتمع.

---

(١) سورة المزمل، الآية: ٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٦.

وشَناخيب الجبال: رؤوسها، واحدها شُنْخوب. وذُرَاها: أعاليها جمع ذِرْوة وذُروة، بالكسر والضمّ.

والتَّغريد: التطريب بالغناء، والتغرّد مثله، وكذلك الغَرَد بفتحهما، ويقال: غرِد الطائر فهو غرِد، إذا طرّب بصوته.

وذوات المنطق ها هنا: الأطيار، وسمّيَ صوتها منطقاً وإن كان لا يطلق إلا على ألفاظ البشر مجازاً.

ودياجير: جمع دَيْجور، وهو الظلام. والأوكار: جمع وَكْر، وهو عُشّ الطائر، ويجمع أيضاً على وُكُور، ووَكَر الطائر يَكِر وَكْراً، أي دخل وَكْره.

وقوله: «وما أوعِبَته الأصداف»، أي من اللؤلؤ. وحَضَنت عليه أمواجُ البحار: أي ما ضمَّته كما تحضن الأنثى من الطير بيضها، وهو ما يكون في لُجَجِ، إما من سمك أو خشب أو ما يحمله البحر من العنبر كالجماجم بين الأمواج وغير ذلك.

وسُدْفة الليل: ظلمته، وجاء بالفتح. وقيل: السُّدْفة اختلاط الضوء والظلمة معاً كوقت ما بين طلوع الفجر إلى الإسفار.

وغشيَتْه: غطّته. وذرّ عليه شارق نهار، أي ما طلعت عليه الشمس، وذَرَّت الشمس تذُرُّ بالضم، ذُروراً: طلعت، وذرّ البقل، إذا طلع من الأرض.

وشَرَقت الشمس: طلعت، وأشرقت بالهمزة، إذا أضاءت وصفت.

واعتقبت: تعاقبت. وأطباق الدياجير[1]: أطباق الظُّلَم. وأطباقها: جمع طَبَقة، أي أغطيتها، أطبقتُ الشيء أي غطّيته، وجعلته مطبَقاً، وقد تطبّق هو، ومنه قولهم: لو تطبّقت السماء على الأرض لما فعلتُ كذا. وسُبحات النور: عطف على أطباق الدياجير، أي يعلم سبحانه ما تعاقب عليه الظلام والضياء. وسُبحات ها هنا، ليس يعني به ما يعني بقوله: «سبحات وجْه ربنا»، لأنه هناك بمعنى ما يسبَح عليه النور، أي يجري، من سَبْح الفرس وهو جَرْيه، ويقال: فرس سابح.

والخُطوة: ما بين القدمين، بالضم، وخطوت خَطْوَةً بالفتح، لأنه المصدر.

ورَجْعُ كلّ كلمة: ما ترجع به من الكلام إلى نفسك وتردّده في فكرك.

والنَّسَمة: الإنسان نفسه، وجمعها نَسَم، ومثقال كلّ ذرة: أي وزن كلّ ذرة، ومما يخطىء فيه العامة قولهم للدينار: مثقال، وإنما المثقال وزن كلّ شيء، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[2].

---

(١) انظر المعجم الوسيط، مادة (دجر).

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٠.

وهَمَاهم كلّ نفس هامّة، الهماهِم: جمع هَمْهمة، وهي ترديد الصوت في الصَّدْر، وحمار هِمْهيم: يهمْهِم في صوته، وهممهت المرأة في رأس الصبيّ، وذلك إذا نوّمتْه بصوت ترقّقه له. والنفس الهامّة: ذات الهمّة التي تعزم على الأمر.

قوله: «وما عليها» أي ما على الأرض، فجاء بالضمير ولم يسبق ذكر صاحبه، اعتماداً على فهم المخاطب، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[1].

وقرارة النطفة: ما يستقِرّ فيه الماء من الأماكن، قال الشاعر:

وَأَنْـتُـمْ قَـرَارَةُ كُـلِّ مَـعْـدِنِ سَـوْءَةٍ   وَلِـكُـلِّ سَـائِـلَـةٍ تَـسِـيـلُ قَـرَارُ

والنُّطفة: الماء نفسه، ومنه قوله عليه السلام في الخوارج: إن مَصارعهم لَدُونَ النطفة، أي لا يعبُرون النهر، ويجوز أن يريد بالنطفة المَنِّي، ويقويه ما ذكره بعده من المُضْغة.

والنُّقاعة: نُقْرة يجتمع فيها الدم، ومثله أنْقُوعة، ويقال لِوَقْبَة الثّريد: أنقوعة.

والمضغة: قطعة اللّحم. والسلالة في الأصل: ما استلّ من الشيء، وسميت النطفة سلالة الإنسان، لأنها استلّتْ منه، وكذلك الولد.

والكُلْفة: المشقّة، واعتورته مثل عرته. ونفذهم علمه، تشبيه بنفوذ السهم، وعدّى الفعل بنفسه وإن كان معدًّى في الأصل بحرف الجرّ، كقولك: اخترت الرجال زيداً، أي من الرجال، كأنه جعل علمه تعالى خارقاً لهم ونافذاً فيهم. ويروى: «وأحصاهم عَدّه»، بالتضعيف.

الأصل: اللّٰهُمَّ أَنتَ أَهْلُ ٱلْوَصْفِ ٱلْجَمِيلِ، وَالتَّعْدَادِ ٱلْكَثِيرِ، إِنْ تُؤَمَّلْ فَخَيْرُ مَأْمُولٍ، وَإِنْ تُرْجَ فَخَيْرُ مَرْجُوٍّ. ٱللّٰهُمَّ فَقَدْ بَسَطْتَ لِي فِيمَا لاَ أَمْدَحُ بِهِ غَيْرَكَ، وَلاَ أُثْنِي بِهِ عَلَى أَحَدٍ سِوَاكَ، وَلاَ أُوَجِّهُهُ إِلَى مَعادِنِ ٱلْخَيْبَةِ وَمَوَاضِعِ الرِّيبَةِ، وَعَدَلْتَ بِلِسَانِي عَنْ مَدَائِحِ ٱلْآدَمِيِّينَ، وَالثَّنَاءِ عَلَى المَرْبُوبِينَ المَخْلُوقِينَ. ٱللّٰهُمَّ وَلِكُلِّ مُثْنٍ عَلَى مَنْ أَثْنَى عَلَيْهِ مَثُوبَةٌ مِنْ جَزَاءٍ، أَوْ عَارِفَةٌ مِنْ عَطاءٍ، وَقَدْ رَجَوْتُكَ دَلِيلاً عَلَى ذَخَائِرِ ٱلرَّحْمَةِ وَكُنُوزِ المَغْفِرَةِ.

ٱللّٰهُمَّ، وَهٰذَا مَقَامُ مَنْ أَفْرَدَكَ بِالتَّوحِيدِ ٱلَّذِي هُوَ لَكَ، وَلَمْ يَرَ مُسْتَحِقًّا لِهٰذِهِ المَحَامِدِ وَالمَمادِحِ غَيْرَكَ، وَبِي فاقَةٌ إِلَيْكَ لاَ يَجْبُرُ مَسْكَنَتَها إِلا فَضْلُكَ، وَلاَ يَنْعَشُ مِنْ خَلَّتِها إِلاَّ مَنُّكَ وَجُودُكَ، فَهَبْ لَنا فِي هٰذَا المَقامِ رِضَاكَ، وَأَغْنِنَا عَنْ مَدِّ ٱلْأَيْدِي إِلَى سِوَاكَ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ!

---

(١) سورة الرحمٰن، الآية: ٢٦.

الشرح: التعداد: مصدر: وخَيْر: خبر مبتدأ محذوف، تقديره: فأنت خير مأمول.

ومعنى قوله: «قد بسطت لي»، أي قد آتيتني لسناً وفصاحة وسعة منطق، فلا أمدحُ غيرَك، ولا أحمَدُ سواك.

ويعني بمعادن الخيبة: البشر، لأن مادحهم ومؤملهم يخيب في الأكثر، وجعلهم مواضع الريبة، لأنهم لا يوثق بهم في حال:

ومعنى قوله عليه السلام: «وقد رجوتُك دليلاً على ذخائر الرَّحْمة وكنوز المغفرة»، أنّه راجٍ منه أن يدلّه على الأعمال التي ترضيه سبحانه، ويستوجب بها منه الرحمة والمغفرة، وكأنه جعل تلك الأعمال التي يرجو أن يدلّ عليها ذخائر للرحمة وكنوزاً.

والفاقة: الفقر، وكذلك المسْكَنة.

وينعَش، بالفتح: يرفع، والماضي نعَش، ومنه النعْش لارتفاعه.

والمنّ: العطاء والنعمة، والمَنّان، من أسماء الله سبحانه.

٩١ - ومن كلام له عليه السلام
لما أراده الناس على البيعة بعد قتل عثمان رضي الله عنه

الأصل: دَعُونِي وَٱلْتَمِسُوا غَيْرِي، فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَهُ وُجُوهٌ وَأَلْوَانٌ، لاَ تَقُومُ لَهُ ٱلْقُلُوبُ، وَلاَ تَثْبُتُ عَلَيْهِ ٱلْعُقُولُ. وَإِنَّ ٱلآفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ، وَٱلْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ.

وَٱعْلَمُوا أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ، وَلَمْ أُصْغِ إِلَى قَوْلِ ٱلْقَائِلِ، وَعَتْبِ ٱلْعَاتِبِ، وَإِنْ تَرَكْتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ، وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطْوَعُكُمْ لِمَنْ وَلَّيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ، وَأَنَا لَكُمْ وزيراً، خيرٌ لكم مِنِّي أميراً.

الشرح: في أكثر النسخ: «لما أراده الناس على البيعة»، ووجدت في بعضها: «أداره الناس على البيعة»، فمن روى الأول جعل «على» متعلّقة بمحذوف، وتقديره «موافقاً»، ومن روى الثاني جعلها متعلّقة بالفعل الظاهر نفسه، وهو «أداره»، تقول: أدرت فلاناً على كذا، وداورت فلاناً على كذا، أي عالجته.

ولا تقوم له القلوب، أي لا تصبر. وأغامت الآفاق: غطّاها الغيم، أغامت وغامت، وأغيَمَتْ وتغيَّمَتْ، كلّه بمعنى، والمحَجّة: الطريق. وتنكّرت: جهلت فلم تعرف. و«وزيراً» و«أميراً»: منصوبان على الحال.

وهذا الكلام يحمِلُه أصحابُنا على ظاهره، ويقولون: إنه عليه السلام لم يكن منصوصاً إليه بالإمامة من جهة الرسول الله صلى الله عليه وآله، وإن كان أوْلى الناس بها وأحقهم بمنزلتها، لأنه لو كان منصوصاً عليه بالإمامة من جهة الرسول عليه الصلاة والسلام لما جاز له أن يقول: «دَعُوني والتمسوا غيري»، ولا أنْ يقول: «ولعلّي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم»، ولا أن يقول: «وأنا لكم وزيراً خيرٌ منّي لكم أميراً» وتحمله الإمامية على وجه آخر فيقولون: إنّ الذين أرادوه على البَيْعة هم كانوا العاقدين بَيْعة الخلفاء من قبل، وقد كان عثمان مَنَعَهم أو منع كثيراً منهم عن حَقّه من العطاء، لأنّ بني أمية استأصلوا الأموال في أيام عثمان، فلما قُتِلَ قالوا لعليّ عليه السلام: نبايعك على أن تسيرَ فينا سيرَة أبي بكر وعمر، لأنهما كانا لا يستأثران بالمال لأنفسهما ولا لأهلهما، فطلبوا من عليّ عليه السلام البَيْعة، على أن يقسّم عليهم بيوت الأموال قسمة أبي بكر وعمر[1]، فاستعفاهم وسألهم أن يطلبُوا غيره ممّن يسير بسيرتهما، وقال لهم كلاماً تحته رمز، وهو قوله: «إنّا مستقبلون أمراً له وجوهٌ وألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول، وإنّ الآفاق قد أغامت، والمحجّة قد تنكّرت».

قالوا: وهذا كلام له باطنٌ وغَوْرٌ عميقٌ، معناه الإخبار عن غيب يعلمه هو ويجهلونه هم، وهو الإنذارُ بحرب المسلمين بعضهم لبعض، واختلافُ الكلمة وظهورُ الفتنة.

ومعنى قوله: «له وجوه وألوان» أنّه موضع شبهة وتأويل، فمن قائل يقول: أصاب عليّ، ومن قائل يقول: أخطأ، وكذلك القول في تصويب محارِبيه من أهل الجمل وصِفّين والنَّهْروان وتخطِئتهم، فإنّ المذاهب فيه وفيهم تشعّبت وتفرّقت جدًّا.

ومعنى قوله: «الآفاق قد أغامت، والمَحَجّة قد تنكّرت» أن الشبهة قد استولتْ على العقول والقلوب، وجهل أكثرُ الناس مَحَجّة الحق أين هي، فأنا لكم وزيراً عن رسول الله صلى الله عليه وآله أفتِي فيكم بشريعته وأحكامه خيرٌ لكم مني أميراً محجوراً عليه مدبّراً بتدبيركمَ، فإني أعلم أنه لا قُدرة لي أن أسير فيكم بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله في أصحابه مستقلًا بالتدبير، لفساد أحوالكم، وتعذّر صلاحكم.

وقد حمل بعضُهم كلامه على محمل آخر، فقال: هذا كلام مُسْتزيد شاكٍ من أصحابه، يقول لهم: دعوني والتمسوا غيري، على طريق الضَّجر منهم، والتبرّم بهم والتسخّط لأفعالهم، لأنهم كانوا عَدَلوا عنه من قَبْل، واختاروا عليه، فلما طلبوه بعدُ أجابهم جوابَ المتسخّط العاتب.

وحمل قوم منهم الكلام على وجه آخر، فقالوا: إنه أخرجه مخرج التهكّم والسخرية، أي أنا لكم وزيراً خيرٌ مني لكم أميراً فيما تعتقدونه، كما قال سبحانه: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ

(١) تقدم من المصنف ويأتي هنا أن عمر خالف أبا بكر في العطاء فلم يسو بين المسلمين.

ﵟٱلۡكَرِيمُﵞ(١) أي تزعم لنفسك ذلك وتعتقده.

واعلم أن ما ذكروه ليس ببعيد أن يحمَل الكلام عليه لو كان الدليل قد دلّ على ذلك، فأما إذا لم يدلّ عليه دليل، فلا يجوز صَرْفُ اللفظ عن ظاهره، ونحن نتمسك بالظاهر إلاّ أن تقوم دلالة على مذهبهم تصدّنا عن حَمْلِ اللفظ عن ظاهره، ولو جاز أن تصرف الألفاظُ عن ظواهرها لغير دليل قاهر يصدف ويصدّ عنها، لم يبق وثوق بكلام الله عز وجلّ وبكلام رسوله ﷺ، وقد ذكرنا فيما تقدم كيفية الحال التي كانت بعد قَتْل عثمان، والبيعة العلَويّة كيف وقعت.

ونحن نذكر ها هنا في هذه القصة ما ذكره شيخنا أبو جعفر الإسكافيّ في كتابه الذي نقض فيه كتاب «العثمانية» لشيخنا أبي عثمان، فإن الذي ذكره لم نورده نحن فيما تقدم.

قال أبو جعفر: لما اجتمعت الصحابةُ في مسجد رسول الله ﷺ بعد قَتْل عثمان للنَّظر في أمر الإمامة، أشار أبو الهيثم بن التَّيِّهان ورفاعة بن رافع ومالك بن العجلان وأبو أيوب الأنصاريّ وعمار بن ياسر بعليّ عليه السلام، وذكروا فضلَه وسابقته وجهاده وقرابته، فأجابهم الناسُ إليه، فقام كلّ واحد منهم خطيباً يذكر فَضْل عليٍّ عليه السلام، فمنهم مَنْ فَضّله على أهل عصره خاصة، ومنهم من فضله على المسلمين كلِّهم كافة. ثم بويع وصعد المنبر في اليوم الثاني من يوم البَيْعة، وهو يوم السبت، لإحدى عشرة ليلة بقينَ من ذي الحجة، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر محمداً فصلّى عليه، ثم ذكر نعمة الله على أهل الإسلام، ثم ذكر الدنيا، فزهدهم فيها، وذكر الآخرة فرغبهم إليها، ثم قال:

أما بعدُ، فإنه لما قُبِض رسول الله ﷺ استخلف الناس أبا بكر، ثم استخلف أبو بكر عمر، فعمِل بطريقه، ثم جعلها شورى بين ستة، فأفضى الأمر منهم إلى عثمان، فعمل ما أنكرتم وعرفتم، ثم حُصِر وقتل، ثم جئتموني طائعين فطلبتم إليّ، وإنما أنا رجلٌ منكم، لي ما لكم، وعليّ ما عليكم، وقد فتح الله الباب بينكم وبين أهل القبلة، وأقبلت الفِتن كقطع الليل المظلم، ولا يحمِلُ هذا الأمرَ إلا أهلُ الصبر والبصر والعلم بمواقع الأمر، وإنّي حاملكم على منهج نبيّكم ﷺ، ومنفِذ فيكم ما أمِرت به، إن استقمتم لي. وبالله المستعان. ألا إنّ موضعِي من رسول الله ﷺ بعد وفاته كموضعي منه أيامَ حياته، فامضوا لما تؤمرون به، وقِفُوا عند ما تنهون عنه، ولا تعجلوا في أمر حتى نبيّنه لكم، فإنّ لنا عن كلّ أمر تنكرونه عذراً. ألا وإنّ الله عالم من فوق سمائه وعرشه أني كنت كارهاً للولاية على أمة محمد، حتى اجتمع رأيُكم على ذلك، لأني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أيّما وَالٍ وَلِيَ الأمر من بعدي، أقيم على حدّ

---

(١) سورة الدخان، الآية: ٤٩.

الصراط، ونشرَت الملائكة صحيفته، فإن كان عادلاً أنجاه الله بعدله، وإن كان جائراً انتفض به الصراط حتى تتَزايل مفاصله، ثم يهوى إلى النار، فيكون أوّل ما يتَّقِيها به أنفه وحرّ وجهه»[١]، ولكني لمّا اجتمع رأيُكم لم يسعني ترككم.

ثم التفتَ عليه السلام يميناً وشمالاً، فقال: ألا لا يقولنّ رجال منكم غداً قد غمرتْهم الدنيا فاتخذوا العَقّار، وفَجّروا الأنهار، وركبوا الخيول الفارهة، واتخذوا الوصائف الرُّوقة، فصار ذلك عليهم عاراً وشناراً، إذا ما منعتُهم ما كانوا يخوضون فيه، وأصرتُهم إلى حقوقهم التي يعلمون، فينقِمون ذلك، ويستنكرون ويقولون: حرمَنا ابن أبي طالب حقوقنا! ألا وأيّما رجلٍ من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يرَى أن الفضل له على مَنْ سواه لصحبته، فإنّ الفضل النيِّر غداً عند الله، وثوابه وأجره على الله، وأيّما رجلٍ استجاب لله وللرسول، فصدق ملّتنا، ودخل في ديننا، واستقبل قبلتنا، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده، فأنتم عباد الله، والمال مال الله، يقسَّم بينكم بالسوّية، لا فضلَ فيه لأحد على أحدٍ، وللمتقين عند الله غداً أحسنُ الجزاء، وأفضل الثواب، لم يجعل الله الدنيا للمتقين أجراً ولا ثواباً، وما عند الله خير للأبرار. وإذا كان غداً إن شاء الله فاغدُوا علينا، فإن عندنا مالاً نقسّمه فيكم، ولا يتخلّفنّ أحدٌ منكم، عربيّ ولا عجميّ، كان من أهل العطاء أو لم يكن، إلا حَضَر، إذا كان مسلِماً حرًّا. أقولُ قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم. ثم نزل[٢].

قال شيخنا أبو جعفر: وكانَ هذا أوّل ما أنكروه من كلامه عليه السلام، وأورثهم الضِّغن عليه، وكرهوا إعطاءه وقَسْمه بالسويّة. فلما كان من الغد، غدا وغَدا الناس لقبض المال، فقال لعبيد الله بن أبي رافع كاتبه: ابدَأ بالمهاجرين فنادِهم، وأعطِ كلّ رجل ممّن حضر ثلاثة دنانير ثم ثَنّ بالأنصار فافْعل معهم مثل ذلك، ومن يحضر من الناس كلّهم، الأحمر والأسود فاصنع به مثل ذلك.

فقال سهل بن حَنيف: يا أمير المؤمنين، هذا غلامي بالأمس، وقد أعتقتُه اليوم، فقال: نعطيه كما نعطيك، فأعطَى كلّ واحد منهما ثلاثة دنانير، ولم يفضّل أحداً على أحد، وتخلّف عن هذا القَسْم يومئذ طلحة والزبير وعبد الله بن عمر وسعيد بن العاص ومرْوان بن الحكم، ورجال من قريش وغيرها.

---

(١) أخرجه السيوطي في «الجامع الصغير» (٣٠٠٠)، وقال: حسن. والمتقي الهندي في «كنز العمال» (١٤٦٥٨).

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٢/ ١٧، وأخرجه محمدي الريشهري في ميزان الحكمة: ٤/ ٢٩٩٥.

قال: وسمع عبيدُ الله بن أبي رافع عبدَ الله بن الزبير يقول لأبيه وطلحة ومروان وسعيد: ما خفيَ علينا أمس من كلام عليّ ما يريد، فقال سعيد بن العاص - والتفت إلى زيد بن ثابت: إياكِ أعني واسمعي يا جارة، فقال عبيدُ الله بن أبي رافع لسعيد وعبد الله بن الزبير: إن الله يقولُ في كتابه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾[1].

ثم إنّ عبيد الله بن أبي رافع أخبرَ عليًّا عليه السلام بذلك، فقال: والله إنْ بقيت وسلِمت لهم لأقيمنّهم على المحجّة البيضاء، والطريق الواضح، قاتل الله ابنَ العاص! لقد عرَفَ من كلامي ونظري إليه أمسِ أنّي أريده وأصحابه ممن هلك فيمن هَلَك.

قال: فبينا الناس في المسجد بعد الصبح إذ طلع الزّبير وطلحة، فجلسا ناحية عن عليّ عليه السلام، ثم طلع مروان وسعيد وعبد الله بن الزبير، فجلسوا إليهما، ثم جاء قوم من قريش فانضمّوا إليهم، فتحدّثوا نجيًّا ساعة، ثم قام الوليد بن عقبة بن أبي معيط، فجاء إلى عليّ عليه السلام، فقال: يا أبا الحسن، إنك قد وَتَرْتَنا جميعاً، أما أنا فقتلتَ أبي يوم بدر صَبْراً، وخذلتَ أخي يوم الدار بالأمس، وأما سعيد فقتلتَ أباه يوم بَدْر في الحرب - وكان ثورَ قريش - وأما مروان فسخّفت أباه عند عثمان إذ ضمّه إليه، ونحن إخوتك ونظراؤك من بني عبد مناف، ونحن نبايعك اليوم على أن تضعَ عَنّا ما أصبناه من المال في أيام عثمان، وأن تقتل قتلتَه، وإنا إن خفناك تركناك، فالتحقنا بالشام.

فقال: أمّا ما ذكرتم من وِتْري إياكم فالحقّ وترَكم، وأما وضعي عنكم ما أصبتم فليس لي أن أضع حق الله عنكم ولا عن غيركم، وأما قتلي قَتَلَةَ عثمان فلو لزِمَني قتلُهم اليوم لقتلتُهم أمس، ولكنْ لكم عليّ إن خفتموني أن أؤمّنكم وإن خفتُكم أنْ أُسَيِّركم.

فقام الوليد إلى أصحابه فحدّثهم، وافترقوا على إظهار العداوةِ وإشاعة الخلاف، فلما ظهر ذلك من أمرهم، قال عمار بن ياسر لأصحابه: قوموا بنا إلى هؤلاء النَّفَر من إخوانكم فإنّه قد بلغنا عنهم ورأينا منهم ما نكره من الخلاف، والطعن على إمامهم، وقد دخل أهلُ الجفاء بينهم وبين الزُّبير والأعسر العاقّ - يعني طلحة.

فقام أبو الهيثم وعمّار وأبو أيوب وسَهْل بن حنيف وجماعة معهم، فدخلوا على عليّ عليه السلام، فقالوا: يا أمير المؤمنين، انظر في أمرِك، وعاتِبْ قومك، هذا الحيّ من قريش فإنهم قد نَقَضُوا عهدك، وأخلفوا وعْدَك، وقد دعونا في السرّ إلى رفضك، هداك الله لرشدك! وذاك لأنّهم كرِهوا الأسوة، وفقدوا الأثرة، ولما آسيت بينهم وبين الأعاجم أنكروا واستشاروا عدوَّكَ وعظّموه، وأظهروا الطلب بدم عثمان فرقةً للجماعة، وتألّفاً لأهل الضلالة. فرأيك!

(١) سورة الزخرف، الآية: ٧٨.

فخرج عليّ عليه السلام، فدخل المسجد، وصعد المنبر مرتدياً بِطاقٍ، مؤتزراً بِبُردٍ قَطَرِيٍّ، متقلداً سيفاً، متوكئاً على قوْس، فقال:

أما بعد، فإنّا نحمد الله ربنا وإلٰهنا وولّينا، ووليّ النعم علينا، الذي أصبحت نعمه علينا ظاهرة وباطنة، امتناناً منه بغير حَوْل منا ولا قوة، ليبلُوَنَا أنشكرُ أم نكفر، فمن شكر زاده ومَنْ كَفَر عذّبه، فأفضلُ الناس عند الله منزلةً، وأقربهم من الله وسيلةً، أطوعهم لأمره، وأعملهم بطاعته، وأتبعهم لسنّة رسوله، وأحياهم لكتابه، ليس لأحد عندنا فَضلٌ إلا بطاعة الله وطاعة الرسول. هذا كتاب الله بين أظهرنا، وعهد رسول الله وسيرته فينا، لا يجهلُ ذلك إلا جاهلٌ عاند عن الحقّ منكر، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1].

ثم صاح بأعلى صوته: أطيعوا الله وأطيعوا الرَّسول، فإنْ تَوَلَّيْتُم فإنّ ٱللهَ لا يحبُّ ٱلْكَافِرِينَ.

ثم قال: يا معشر المهاجرين والأنصار: أتمنّون على الله ورسوله بإسلامكم، بل الله يمنّ عليكم أنْ هداكم للإيمان إنْ كنتم صادقين.

ثم قال: أنا أبو الحسن - وكان يقولها إذا غضب - ثم قال: ألا إنّ هذه الدنيا التي أصبحتم تَمَنَّوْنَهَا وترغبون فيها، وأصبحتْ تغضِبُكم وترضيكم، ليست بداركم ولا منزلكم الذي خلِقتُم له، فلا تغرّنّكم فقد حَذَّرتكموها، واستتمُّوا نعم الله عليكم بالصَّبْر لأنفسكم على طاعة الله، والذّلّ لحكمه جل ثناؤه، فأمّا هذا الفيء فليس لأحدٍ على أحد فيه أثَرة، وقد فرغ الله من قسمته، فهو مال الله، وأنتم عباد الله المسلمون، وهذا كتاب الله به أقررنا وله أسلمنا، وعهدُ نبينا بين أظهرنا، فمن لم يَرضَ به فليتَولّ كيف شاء، فإن العامل بطاعة الله والحاكم بحكم الله لا وحْشَة عليه.

ثم نزل عن المنبر، فصلّى ركعتين، ثم بعث بعمار بن ياسر، وعبد الرحمن بن حسل القرشيّ إلى طلحة والزبير، وهما في ناحية المسجدِ، فأتياهما فدعواهما، فقاما حتى جلسا إليه عليه السلام، فقال لهما: نشدتكما الله، هل جئتماني طائعيْن للبيعة، ودعوتماني إليها، وأنا كارهٌ لها! قالا: نعم، فقال: غيرَ مجبَرين ولا مقسورَيْن، فأسلمتما لي بيعتكما وأعطيتماني عهدكما! قالا: نعم، قال: فما دعاكما بعدُ إلى ما أرى؟ قالا: أعطيناك بَيْعتَنَا على ألاّ تقضي الأمور ولا تقطعها دوننا، وأن تستشيرنا في كلّ أمر ولا تستبدّ بذلك علينا، ولنا من الفضل على غيرنا ما قد علمتَ، فأنتَ تقسم القَسْم وتقطع الأمر، وتمضي الحكم بغير مشاورتنا ولا علمنا.

فقال: لقد نقَمتما يسيراً، وأرجأتما كثيراً، فاستغفرا الله يغفرلكما ألا تخبراني، أدفعْتُكما

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

عن حقّ وجب لكما فظلمتكما إياه؟ قالا : معاذ الله! قال: فهل استأثرتُ من هذا المال لنفسي بشيء؟ قالا : معاذ الله! قال: أفوقع حُكم أو حقّ لأحد من المسلمين فجهلته أو ضعفت عنه؟ قالا : معاذ الله! قال: فما الذي كرهتما من أمري حتى رأيتُما خلافي؟ قال: خلافك عمر بن الخطاب في القَسْم، أنك جعلتَ حقّنا في القَسْمْ كحقّ غيرنا، وسوَّيت بيننا وبين من لا يماثلنا فيما أفاء الله تعالى علينا بأسيافنا ورماحنا وأوَجَفْنا عليه بخيلنا ورَجْلِنا، وظهرتْ عليه دعوتنا، وأخذناه قسراً قهراً، ممن لا يرى الإسلام إلا كرهاً. فقال: فأمّا ما ذكرتماه من الاستشارة بكما فوالله ما كانت لي في الولاية رغبة، ولكنكم دعوتموني إليها، وجعلتموني عليها، فخفت أن أردّكم فتختلف الأمة، فلما أفضت إليّ نظرتُ في كتاب الله وسنّة رسوله فأمضيت ما دلأني عليه واتَّبعته، ولم أحتَجْ إلى آرائكما فيه، ولا رأي غيركما، ولو وقع حكمٌ ليس في كتاب الله بيانُه ولا في السنة برهانه، واحتيج إلى المشاورة فيه لشاورتُكما فيه، وأما القَسْم والأسوة، فإن ذلك أمر لم أحكُم فيه بادىء بدء! قد وجدتُ أنا وأنتما رسول الله صلى الله عليه وآله يحكُم بذلك، وكتاب الله ناطق به، وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. وأما قولكُما: جعلتَ فيئنا وما أفاءته سيوفنا ورماحنا سواء بيننا وبين غيرنا فقديماً سبق إلى الإسلام قوم ونصروه بسيوفهم ورماحهم، فلم يفضّلهم رسول الله صلى الله عليه وآله في القَسْم، ولا آثرهم بالسَّبْق، والله سبحانه موفٍ السابق والمجاهد يوم القيامة أعمالهم، وليس لكما والله عندي ولا لغيركما إلا هذا. أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق، وألهمنا وإياكم الصبر. ثم قال: رحم الله امرءًا رأى حقًّا فأعان عليه، ورأى جَوْراً فردّه، وكان عوناً للحقّ على من خالفه[1].

قال شيخنا أبو جعفر: وقد روي أنهما قالا له وقت البيعة: نُبايعك على أنّا شركاؤك في هذا الأمر، فقال لهما: لا، ولكنّكما شريكاي في الفيء، لا أستأثر عليكما ولا على عبدٍ حبشيٍّ مُجدَّعٍ بدرهم فما دونه، لا أنا ولا وَلَداي هذان، فإن أبيتُما إلا لفظ الشركة، فأنتما عَوْنان لي عند العجز والفاقة، لا عند القوة والاستقامة.

قال أبو جعفر: فاشترطا ما لا يجوز في عَقْد الأمانة، وشرط عليه السلام لهما ما يجب في الدِّين والشريعة.

قال رحمه الله تعالى: وقد رُوِيَ أيضاً أنّ الزبير قال في ملأ من الناس: هذا جزاؤنا من عليّ! قمنا له في أمر عثمان حتى قُتِل، فلما بلغ بنا ما أراد جعل فوقنا مَنْ كنّا فوقه.

وقال طلحة: ما اللّوم إلا علينا، كنّا أهل الشورى ثلاثة، فكرهه أحدنا - يعني سعداً -

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٢/ ٢٢.

وبايعناه، فأعطيناه ما في أيدينا، ومنَعَنا ما في يده، فأصبحنا قد أخطأنا اليوم ما رجوْنَاه أمس، ولا نرجو غداً ما أخطأنا اليوم.

فإن قلت: فإنّ أبا بكر قَسَم بالسواء، كما قَسمه أمير المؤمنين عليه السلام، ولم ينكروا ذلك، كما أنكروه أيام أمير المؤمنين عليه السلام، فما الفرق بين الحالتين؟

قلت: إنّ أبا بكر قَسَم محتذياً لقَسْم رسول الله صلى الله عليه وآله، فلما وَلِيَ عمر الخلافة، وفضّل قوماً على قوم ألفوا ذلك، ونسُوا تلك القسمة الأولى، وطالت أيام عمر، وأشرِبَتْ قلوبهم حُبَّ المال، وكثرةَ العطاء. وأما الذين اهتَمُوا فقنعوا ومَرَنُوا على القناعة، ولم يخطر لأحد من الفريقين له أنّ هذه الحال تنتقض أو تتغيّر بوجهٍ ما، فلما وليَ عثمان أجْرَى الأمر على ما كان عمر يُجريه، فازداد وثوقُ القوم بذلك، ومن ألِفَ أمراً شقّ عليه فراقه، وتغيير العادة فيه، فلما ولي أمير المؤمنين عليه السلام أراد أن يردّ الأمر إلى ما كان في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وأبي بكر، وقد نسي ذلك ورفض وتخلّل بين الزمانين اثنتان وعشرون سنة، فشق ذلك عليهم، وأنكروه وأكبروه، حتى حدَث ما حدث من نقض البيعة، ومفارقة الطاعة، ولله أمر هو بالغه!

---

٩٢ - ومن خطبة له عليه السلام يذكر ما كان تغلبه على الخوارج

الأصل: أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ ٱللهِ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنِّي فَقَأْتُ عَيْنَ ٱلْفِتْنَةِ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِىءَ عَلَيْهَا أَحَدٌ غَيْرِي بَعْدَ أَنْ مَاجَ غَيْهَبُهَا، وَٱشْتَدَّ كَلَبُها.

فَاسْأَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ تَسْأَلُونَنِي عَنْ شَيْءٍ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ السَّاعَةِ، وَلاَ عَنْ فِئَةٍ تَهْدِي مِائَةً وَتُضِلُّ مِائَةً إلاَّ أَنبأْتُكُمْ بِنَاعِقِهَا وَقَائِدِهَا وَسَائِقِهَا، وَمُنَاخِ رِكَابِهَا، وَمَحَطِّ رِحَالِهَا، وَمَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَهْلِهَا قَتْلاً، وَمَنْ يَمُوتُ مِنْهُمْ مَوْتاً.

وَلَوْ قَدْ فَقَدْتُمونِي وَنَزَلَتْ بِكُمْ كَرَائِهُ ٱلأُمُورِ، وَحَوَازِبُ ٱلْخُطُوبِ، لأَطْرَقَ كَثِيرٌ مِنَ السَّائِلِينَ، وَفَشِلَ كَثِيرٌ مِنَ المَسْؤُولِينَ، وَذَلِكَ إِذَا قَلَّصَتْ حَرْبُكُمْ، وَشَمَّرَتْ عَنْ سَاقٍ، وَكَانَتْ ٱلدُّنْيَا عَلَيْكُمْ ضِيقاً، تَسْتَطِيلُونَ أَيَّامَ ٱلْبَلاَءِ عَلَيْكُمْ، حَتَّى يَفْتَحَ ٱللهُ لِبَقِيَّةِ الأَبْرَارِ مِنْكُمْ.

إِنَّ ٱلْفِتَنَ إِذَا أَقْبَلَتْ شَبَّهَتْ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ نَبَّهَتْ، يُنْكَرْنَ مُقْبِلاَتٍ، وَيُعْرَفْنَ مُدْبِرَاتٍ، يَحُمْنَ حَوْمَ الرِّيَاحِ يُصِبْنَ بَلَداً، وَيُخْطِئْنَ بَلَداً.

أَلاَ وَإِنَّ أَخْوَفَ ٱلْفِتَنِ عِنْدِي عَلَيْكُمْ فِتْنَةُ بَنِي أُمَيَّةَ، فَإِنَّهَا فِتْنَةٌ عَمْيَاءُ مُظْلِمَةٌ عَمَّتْ خُطَّتُهَا، وَخَصَّتْ بَلِيَّتُهَا، وَأَصَابَ ٱلْبَلاَءُ مَنْ أَبْصَرَ فِيهَا، وَأَخْطَأَ ٱلْبَلاَءُ مَنْ عَمِيَ عَنْهَا.

وَٱيْمُ ٱللهِ لَتَجِدُنَّ بَنِي أُمَيَّةَ لَكُمْ أَرْبَابَ سُوءٍ بَعْدِي كَالنَّابِ ٱلضَّرُوسِ، تَعْذِمُ بِفِيهَا، وَتَخْبِطُ بِيَدِهَا، وَتَزْبِنُ بِرِجْلِهَا، وَتَمْنَعُ دَرَّهَا، لاَ يَزَالُونَ بِكُمْ حَتَّىٰ لاَ يَتْرُكُوا مِنْكُمْ إِلاَّ نَافِعاً لَهُمْ، أَوْ غَيْرَ ضَائِرٍ بِهِمْ.

وَلاَ يَزَالُ بَلاَؤُهُمْ عَنْكُمْ حَتَّىٰ لاَ يَكُونَ ٱنْتِصَارُ أَحَدِكُمْ مِنْهُمْ إِلاَّ مِثْلَ انتصار ٱلْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ، وَٱلصَّاحِبِ مِنْ مُسْتَصْحِبِهِ، تَرِدُ عَلَيْكُمْ فِتْنَتُهُمْ شوهاً مَخْشِيَّةً، وَقِطَعاً جَاهِلِيَّةً، لَيْسَ فِيهَا مَنَارُ هُدًى، وَلاَ عَلَمٌ يُرَىٰ، نَحْنُ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ مِنْهَا بنجاة، وَلَسْنَا فِيهَا بِدُعَاةٍ، ثُمَّ يُفَرِّجُهَا ٱللهُ عَنْكُمْ كَتَفْرِيجِ ٱلأَدِيمِ، بِمَنْ يَسُومُهُمْ خَسْفاً، وَيَسُوقُهُمْ عُنْفاً، وَيَسْقِيهِمْ بِكَأْسٍ مُصَبَّرَةٍ لاَ يُعْطِيهِمْ إِلاَّ ٱلسَّيْفَ، وَلاَ يُحْلِسُهُمْ إِلاَّ ٱلْخَوْفَ، فَعِنْدَ ذَٰلِكَ تَوَدُّ قُرَيْشٌ بِالدُّنْيَا وَمَا فِيهَا لَوْ يَرَوْنَنِي مَقَاماً وَاحِداً، وَلَوْ قَدْرَ جَزْرِ جزُورٍ، لِأَقْبَلَ مِنْهُمْ ما أَطْلُبُ ٱلْيَوْمَ بَعْضَهُ فَلاَ يُعْطُونَنِيهِ.

الشرح: فقأتُ عينَه، أي بخقْتُها[١]، وتفقأت السحابة عن مائها: تشققت، وتفقأ الدّمل والقُرح، ومعنى فقْئِه عليه السلام عينَ الفتنة، إقدامه عليها حتى أطفأ نارها، كأنه جعل للفتنة عيناً محدقة يهابها الناس، فأقدم هو عليها، ففقأ عينَها، فسكنت بعد حركتها وهيجانها. وهذا من باب الاستعارة، وإنما قال: «ولم يكن ليجترئ عليها أحد غيري»، لأنّ الناس كلَّهم كانوا يهابون قتال أهل القبلة، ولا يعلمون كيف يقاتلونهم، هل يتبعُون مولِّيهم أم لا؟ وهل يُجْهِزُون على جريحهم أم لا؟ وهل يقسِّمون فيئهم أم لا؟ وكانوا يستعظِمُون قتال منْ يؤذّن كأذاننا، ويصلّي كصلاتنا، واستعظموا أيضاً حربَ عائشة وحربَ طلحة والزبير، لمكانهم في الإسلام، وتوقّف جماعتهم عن الدّخول في تلك الحرب، كالأحنف بن قيس وغيره، فلولا أنّ عليًّا اجترأ على سلّ السيف فيها ما أقدم أحدٌ عليها، حتى الحسن عليه السلام ابنه، أشار عليه ألاّ يبرح عَرْصة المدينة، ونهاه عن المسير إلى البصرة، حتى قال له منكراً عليه إنكاره: ولا تزال تخِنّ خَنِينَ الأمَة! وقد روى ابنُ هلال صاحب كتاب «الغارات» أنه كلّم أباه في قتال أهل البصرة بكلام أغضبه، فرماه ببيضةِ حديدٍ عَقَرَتْ ساقه، فعولج منها شهرين[٢].

---

(١) بخق عينه: أي عوّرها، ا.هـ القاموس، مادة (بخق).

(٢) هذه من المفتريات على آل بيت العصمة والطهارة وهي منافية لأخلاق المؤمنين فضلاً عن ساداتهم وأئمتهم عليهم السلام.

والغيهب: الظلمة، والجمع غياهب. وإنما قال: «بعد ما ماج غيهبها»، لأنه أراد: بعد ما عَمّ ضلالُها فشمل، فكنّى عن الضلال بالغيهب، وكنّى عن العُموم والشمول بالتموّج، لأن الظلمة إذا تموّجت شملت أماكن كثيرة غير الأماكن التي تشملها لو كانت ساكنة. واشتدَّ كَلَبُها، أي شرّها وأذاها. ويقال للقحط الشديد: كَلَب، وكذلك للقرّ الشديد.

ثم قال عليه السلام: «سَلُوني قبل أن تفقدوني»[1]، روى صاحب كتاب «الاستيعاب» وهو أبو عمر محمد بن عبد البرّ عَنْ جماعة من الرواة والمحدّثين، قالوا: لم يقلْ أحدٌ من الصحابة رضي الله عنهم: «سَلُوني» إلا عليّ بن أبي طالب. وروى شيخنا أبو جعفر الإسكافي في كتاب «نقض العثمانية» عن عليّ بن الْجَعْد، عن ابن شُبْرَمَة، قال: ليس لأحد من الناس أن يقول عَلَى المنبر: «سَلُوني» إلا عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

والفئة: الطائفة، والهاء عوض من «الياء» التي نقصت من وسطه، وأصله «فيء» مثال «فيع» لأنه من فاء، ويجمع على فئات، مثل شيات وهبات ولِدَات.

وناعقها: الداعي إليها، من نَعيق الرّاعِي بغنمه، وهو صوته نَعَق ينعِق بالكسر نعيقاً ونُعاقاً، أي صاح بها وزجرها. قال الأخطل:

فانْعَقْ بضأنكَ يا جريرُ فإنّما منَّتْكَ نفسُك في الخلاء ضلالا

فأمّا الغراب، فيقال: نَغَق، بالغين المعجمة ينغِق بالكسر أيضاً، وحكى ابن كَيْسان «نَعَق الغراب» أيضاً بعين غير معجمة.

والركاب: الإبل، واحدتها راحلة، ولا واحد لها من لفظها، وجمعها رُكُب، مثل كتاب وكتب. ويقال: زيْت ركابيّ، لأنه يحمل من الشام عليها.

والمُنَاخ، بضمّ الميم، ومَحطّ بفتحها، يجوز أن يكونا مصدرين، وأنْ يكونا مكانين، أما كونُ المُناخ مصدراً، فلأنه كالمقام الذي بمعنى الإقامة، وأما كون المَحَطّ مصدراً فلأنه كالمَرَدّ في قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾[2]، وأما كونُهما موضعين فلأن المناخ من أنخت الجمل، لا من ناخ الجمل، لأنه لم يأت، والفعل إذا جاوز الثلاثة فالموضع منه يأتي مضموم الميم، لأنّه مشبه ببنات الأربعة، نحو دحرج، وهذا مُدَحرجنا، ومن قال: هذا مُقام بني فلان، أي موضع مقامهم جَعَله كما جعلناه نحن، من أقام يقيم، لا من قام يقوم، وأما المَحَطّ، فإنه كالمَقْتَل موضع القتلِ، يقال: مقتَلُ الرّجُل بين فكيه، ويقال للأعضاء التي إذا أصيب الإنسان فيها هلك: مَقاتل، ووجه المماثلة كونهما مضمومي العين.

(١) أخرجه الحاكم في «مستدركه» (٢/ ٣٨٣).
(٢) سورة غافر، الآية: ٤٣.

الإمام علي عليه السلام وإخباره بأُمور غيبيّة

واعلم أنه عليه السلام قد أقسم في هذا الفصل بالله الذي نفسه بيده، أنّهم لا يسألونه عن أمر يحدث بينهم وبين القيامة إلاّ أخبرهم به، وأنّه ما صحّ من طائفة من الناس يهتدي بها مائة وتضلّ بها مائة، إلا وهو مخبرٌ لهم - إن سألوه - برعاتها وقائدها وسائقها ومواضع نزُل ركابها وخيولها، ومَنْ يقتل منها قتلاً، ومَنْ يموت منها موتاً، وهذه الدعوى ليست منه عليه السلام ادّعاء الرّبوبية، ولا ادّعاء النبوة، ولكنه كان يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وآله أخبره بذلك، ولقد امتحنّا إخباره فوجدناه موافقاً، فاستدلَلنا بذلك على صدق الدعوى المذكورة، كإخباره عن الضربة يُضرب بها في رأسه فتخضِب لحيته، وإخباره عن قتل الحسين ابنه، وما قاله في كرْبلاء حيث مرّ بها، وإخباره بملك معاويةَ الأمر من بعده، وإخباره عن الحجاج، وعن يوسف بن عمر، وما أخبر به من أمر الخوارج بالنهروان، وما قدمه إلى أصحابه من إخباره بقتل من يقتل منهم، وصَلْب مَنْ يُصْلَب، وإخباره بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين، وإخباره بعدة الجيش الوارد إليه من الكوفة لما شَخَص عليه السلام إلى البصرة لحرب أهلها، وإخباره عن عبد الله بن الزبير، وقوله فيه: «خبّ ضبّ، يروم أمراً ولا يدركه، ينصِبُ حبالة الدين لاصطياد الدنيا، وهو بعد مصلوب قريش» وكإخباره عن هلاك البصرة بالغرق، وهلاكها تارة أخرى بالزّنج، وهو الذي صحّفه قوم فقالوا: بالريح، وكإخباره عن ظهور الرايات السُّود من خُراسان، وتنصيصه على قوم من أهلها يعرفون ببني رزيق - بتقديم المهملة - وهم آل مصعب الذين منهم طاهر بن الحسين وولده وإسحاق بن إبراهيم، وكانوا هم وسَلفهم دعاة الدولة العباسية، وكإخباره عن الأئمة الّذين ظهروا من وَلده بطبرستان، كالناصر والداعي وغيرهما، في قوله عليه السلام: «وإن لآل محمد بالطالقان لكنزاً سيظهره الله إذا شاء دعاؤه حق يقوم بإذن الله فيدعو إلى دين الله»[1]، وكإخباره عن مقتل النفس الزّكية بالمدينة، وقوله: «إنه يقتَل عند أحجار الزيت»[2]، وكقوله عن أخيه إبراهيم المقتول بباب حمزة: «يقتل بعد أن يظهر ويُقهر بعد أن يقهر»[3]، وقوله فيه أيضاً: «يأتيه سهم غَرْب يكون فيه منيّته فيا بؤسا للرامي! شَلّت يده، ووهَن عَضُده»[4]، وكإخباره عن قتلى وَجّ، وقوله فيهم: «هم خير أهل الأرض»[5].

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤١/ ٣٥٢.
(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤١/ ٣٥٢.
(٣) أخرجه المجلسي في البحار: ٤١/ ٣٥٢.
(٤) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤١/ ٣٥٢.
(٥) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤١/ ٣٥٢.

وكإخباره عن المملكة العَلوية بالغرب، وتصريحه بذكر كتامة، وهم الذين نصروا أبا عبد الله الدّاعي المعلّم. وكقوله وهو يشير إلى أبي عبد الله المهدي: وهو أولهم ثم يظهرُ صاحب القَيْروان الغضّ البَضّ، ذو النسب المحض، المنتجَب من سلالة ذي البداء، المسجّى بالرداء، وكان عبيد الله المهدي أبيض مترفاً مشرباً بحُمرة، رخْص البدن، تارّ الأطراف. وذو البداء إسماعيل بن جعفر بن محمد عليه السلام، وهو المسجّى بالرداء، لأن أباه أبا عبد الله جعفر سجّاه بردائه لما مات، وأدخل إليه وجُوه الشيعة يشاهدونه، ليعلموا موته، وتزول عنهم الشبهة في أمره.

وكإخباره عن بني بويه وقوله فيهم: «ويخرج من دَيْلمانَ بنو الصّياد»[1]، إشارة إليهم. وكان أبوهم صياد السمك يصيدُ منه بيده ما يتقوّت هو وعياله بثمنه، فأخرج الله تعالى من ولده لصلْبه ملوكاً ثلاثة، ونشر ذرّيتهم حتى ضربت الأمثال بملكهم. وكقوله عليه السلام فيهم: «ثم يستشري أمرُهم حتى يملكوا الزّوراء، ويخلعوا الخلفاء» فقال له قائل: فكم مدّتُهم يا أمير المؤمنين؟ فقال: «مائة أو تزيد قليلاً». وكقوله فيهم: «والمترفُ بن الأجذم، يقتله ابنُ عَمّه على دِجْلة»[2]، وهو إشارة إلى عزّ الدولة بختيار بن معز الدولة أبي الحسين، وكان معزّ الدولة أقْطع اليد، قطعت يده للنكوص في الحرب، وكان ابنه عزّ الدولة بختيار مترَفاً، صاحب لهو وشرب، وقتله عَضُد الدولة فنّاخسرو، ابن عمه بقصر الجُصّ على دِجْلة في الحرب، وسلَبه ملكه. فأما خلعهم للخلفاء فإنّ معز الدولة خلع المستكفي، ورتّب عِوضه المطيع، وبهاء الدولة أبا نصر بن عضد الدولة خَلَع الطائع ورتّب عوضه القادر، وكانت مدة ملكهم كما أخبر به عليه السلام.

وكإخباره عليه السلام لعبد الله بن العباس رحمه الله تعالى عن انتقال الأمر إلى أولاده، فإنّ عليَّ بن عبد الله لما ولِدَ، أخرجه أبوه عبد الله إلى علي عليه السلام، فأخذه وتَفَل في فيه وحَنّكه بتمرة قد لاكها، ودفعه إليه، وقال: خذ إليك أبا الأملاك. هكذا الرواية الصحيحة، وهي التي ذكرها أبو العباس المبرّد في كتاب «الكامل»، وليست الرواية التي يُذكر فيها العدد بصحيحة ولا منقولة من كتاب معتمَد عليه.

وكم له من الإخبار عن الغيوب الجارية هذا المجرى، مما لو أردنا استقصاءه لكسرنا له كراريس كثيرة، وكتب السير تشتمل عليها مشروحة.

فإن قلت: لماذا غَلاَ الناس في أمير المؤمنين عليه السلام، فادَّعَوْا فيه الإلٰهية لإخباره عن الغيوب التي شاهدوا صدقها عِياناً، ولم يَغْلوا في رسول الله صلى الله عليه وآله فيدّعوا له الإلٰهية، وأخباره عن الغيوب الصادقة قد سمعوها وعلموها يقيناً، وهو كان أوْلى بذلك، لأنه الأصلُ المتبوع، ومعجزاته أعظم، وأخباره عن الغيوب أكثر؟

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤١/ ٣٥٢.
(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤١/ ٣٥٣.

قلت: إنّ الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وآله، وشاهدوا معجزاتِه، وسمعوا إخباره عن الغيوب الصادقة عِياناً، كانوا أشدّ آراء، وأعظم أحلاماً، وأوفر عقولاً من تلك الطائفة الضعيفة العقول، السخيفة الأحلام، الذين رأوا أمير المؤمنين عليه السلام في آخر أيامه، كعبد الله بن سبأ وأصحابه، فإنهم كانوا من رَكاكة البصائر وضعفها على حال مشهورة، فلا عجب عن مثلهم أن تستخفّهم المعجزاتُ، فيعتقدوا في صاحبها أنّ الجوهر الإلٰهيّ قد حلّه، لاعتقادهم أنه لا يصحّ من البشرِ هذا إلا بالحلول، وقد قيل: إن جماعة من هؤلاء كانوا من نَسْل النصارى واليهود، وقد كانوا سمعوا من آبائهم وسلفهم القول بالحلول في أنبيائهم ورؤسائهم، فاعتقدوا فيه عليه السلام مثل ذلك. ويجوز أن يكون أصل هذه المقالة من قوم مُلْحدين أرادوا إدخال الإلحاد في دين الإسلام، فذهبوا إلى ذلك، ولو كانوا في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله لقالوا فيه مثل هذه المقالة، إضلالاً لأهل الإسلام، وقصداً لإيقاع الشبهة في قلوبهم، ولم يكن في الصَّحابة مثل هؤلاء، ولكن قد كان فيهم منافقون وزنادقة، ولم يهتدوا إلى هذه الفتنة، ولا خطر لهم مثل هذه المكيدة.

ومما ينقدِحُ لي من الفرق بين هؤلاء القوم وبين العرب الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وآله، أنّ هؤلاء من العراق وساكني الكوفة، وطينة العراق ما زالت تنبت أربابَ الأهواء وأصحاب النحل العجيبة والمذاهب البديعة، وأهل هذا الإقليم أهل بَصَرٍ وتدقيق ونظر، وبحث عن الآراء والعقائد، وشُبَهٍ معترضة في المذاهب، وقد كان منهم في أيام الأكاسرة مثل ماني وديصان ومَزْدك وغيرهم، وليست طينة الحجاز هذه الطينة، ولا أذهان أهل الحجاز هذه الأذهان، والغالب على أهل الحجاز الجفاء والعَجْرفيّة وخشونة الطبع، ومن سكن المدن منهم كأهلِ مكة والمدينة والطائف فطباعُهم قريبة من طباع أهل البادية بالمجاورة، ولم يكن فيهم من قبلُ حكيم ولا فيلسوف ولا صاحب نظر وجدل، ولا موقع شبهة، ولا مبتدع نحِلَة، ولهذا نجد مقالة الغُلاة طارئة وناشئة من حيث سكن عليّ عليه السلام بالعراق والكوفة، لا في أيام مقامه بالمدينة، وهي أكثر عمره.

فهذا ما لاح لي من الفرق بين الرجلين في المعنى المقدم ذكره.

فإن قلت: لماذا قال عن فئة تهدي مائة؟ وما فائدة التقييد بهذا العدد؟

قلت: لأنّ ما دون المائة حقير تافه لا يعتدّ به ليذكر ويخبر عنه، فكأنه قال: مائة فصاعداً.

قوله عليه السلام: «كرائه الأمور» جمع كريهة وهي الشدّة في الحرب. وحوازب الخطوب: جمع حازب، وحَزَبه الأمر، أي دَهمه.

وفشل: جبن، فإن قلت: أما فشل المسؤول فمعلوم، فما الوجه في إطراق السائل؟
قلت: لشدة الأمر وصعوبته، حتى إن السائل ليبهت ويذهش فيطرِق، ولا يستطيع السؤال.

قوله عليه السلام: «إذا قَلّصت حربكم» يروى بالتشديد وبالتخفيف، ويروى: «عن حربكم»، فمن رواه مشدداً أراد انضمّت واجتمعت، وذلك لأنه يكون أشدّ لها وأصعب من أن تتفرّق في مواطن متباعدة، ألا ترى أنّ الجيوش إذا اجتمعت كلّها واصطدم الفَيْلَقان، كان الأمر أصعب وأفظع من أن تكونَ كلُّ كتيبة من تلك الجيوش تحارب كتيبة أخرى في بلاد متفرّقة متباعدة! وذلك لأنّ اصطدامَ الفَيْلَقَيْن بأجمعهما هو الاستئصال الذي لا شَوَى له ولا بقْيًا بعده. ومن رواها بالتخفيف أراد كثرت وتَزايدت، من قولهم: قَلَصَتِ البئر، أي ارتفع ماؤها إلى رأسها أو دونه، وهو ماء قالِص وقَليص، ومن روى: «إذا قلَصت عن حربكم» أراد إذا قلّصت كرائه الأمور وحوازب الخطوب عن حربكم، أي انكشفت عنها، والمضارع من قلَص يَقْلِص، بالكسر.

قوله: «وشمّرت عن ساق»، استعارة وكناية، يقال للجادّ في أمره: قد شمّر عن ساق، وذلك لأنّ سبوغ الذيل مَعْثَرة. ويمكن أن يجري اللفظ على حقيقته، وذلك أن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾[1] فسّروه فقالوا: الساق: الشدّة، فيكون قد أراد بقوله: «وشمرت عن ساق»، أي كشفت عن شدّة ومشقة.

ثم قال: «تستطيلون أيام البلاء»، وذلك لأنّ أيام البؤس طويلة، قال الشاعر:

فأيّام الهموم مقصّصاتٌ ... وأيام السرور تطير طيرًا

وقال أبو تمام:

ثم انبَرَتْ أيام هَجْر أردفتْ ... بِجَوًى أسًى فكأنها أعوامُ

قوله عليه السلام: «إن الفتَن إذا أقبلت شبّهت»، معناه أن الفتن عند إقبالها وابتداء حدوثها، يلتبس أمرها ولا يُعلم الحقّ منها من الباطل، إلى أن تنقضيَ وتدبِر، فحينئذ ينكشف حالها، ويعلم ما كان مشتبهاً منها. ثم أكّد عليه السلام هذا المعنى بقوله: «ينكَرْن مقبلات، ويعرَفن مدبرات»، ومثال ذلك فتنة الجمل، وفتنة الخوارج، كان كثير من الناس فيها في مبدأ الأمر متوقّفين، واشتبه عليهم الحال، ولم يعلموا موضع الحقّ إلى أن انقضت الفتنة، ووضعت الحرب أوزارها، وبان لهم صاحبُ الضلالة من صاحب الهداية.

ثم وصف الفتن، فقال: إنها تحُوم حَوْمَ الرياح، يصبن بلداً، ويخطئن بلداً. حام الطائر وغيرُه حول الشيء، يحوم حَوْماً وحَوَماناً، أي دار.

---

(١) سورة القلم، الآية: ٤٢.

ثم ذكر أنّ أخوف ما يخاف عليهم فتنة بني أميّة. ومعنى قوله «عَمّت خطتها، وخصّت بليّتها»، أنها عمّت الناس كافة من حيث كانت رياسة شاملة لكلّ أحد، ولكن حظّ أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم من بليّتها أعظم، ونصيبهم فيها أوفر.

ومعنى قوله: «وأصاب البلاء مَنْ أبصر فيها، وأخطأ البلاء من عَمي عنها»، أن العالم بارتكابهم المنكر مأثوم إذ لم ينكر، والجاهل بذلك لا إثم عليه إذا لم ينههم عن المنكر، لأنّ من لا يعلم المنكر مُنْكَراً لا يلزمه إنكاره، ولا يعني بالمنكر هاهنا ما كان منكراً من الاعتقادات، ولا ما يتعلق بالأمانة، بل الزنى وشرب الخمر ونحوهما من الأفعال القبيحة.

فإن قلت: أيّ فرق بين الأمرين؟

قلت: لأن تلك يلحق الإثمُ مَنْ لا يعلمها إذا كان متمكناً من العلم بها، وهذه لا يجب إنكارها إلا مع العلم بها، ومن لا يعلمها لا يلحقه الإثم إذا كان متمكّناً من العلم بها، فافترق الموضوعان.

ثم أقسم عليه السلام فقال: «وايم الله»، وأصله: وايمنُ الله، واختلف النحويون في هذه الكلمة فعند الأكثرين منهم أن ألفها ألف وصل، وأن «ايمن» اسم وضع للقسم هكذا بألف وصل، وبضم الميم والنون، قالوا: ولم يأت في الأسماء ألف وصل مفتوحة غيرها، وتدخل عليها اللام لتأكيد الابتداء، فتقول: لَيْمن الله فتذهب الألف، قال الشاعر:

فقال فريقُ القوم لما نشدتهمْ ... نعم، وفريقٌ لَيْمُنُ الله ما ندري

وهذا الاسم مرفوع بالابتداء وخبره محذوف، والتقدير لَيْمنُ الله قسمي، فإذا خاطبت قلت «لَيْمُنُكَ»، وفي حديث عروة بن الزبير: «لَيْمُنُكَ لئِنْ كنت ابْتَلَيْتَ، لقد عافيت، ولئن كنتَ أخذت لقد أبقيت». وتحذف نونه فيصير «ايم الله» بألف وصل مفتوحة وقد تكسر، وربما حذفوا الياء، فقالوا: «ام الله»، وربما أبقوا الميم وحدها مضمومة، فقالوا: «مُ الله»، وقد يكسرونها لما صارت حرفاً شبهوها بالباء، وربما قالوا «مُنُ الله» بضم الميم والنون: «ومِنِ الله» بكسرهما: «ومَنْ الله» بفتحهما، وذهب أبو عبيد وابن كَيْسان وابن دَرَسْتَويه إلى أنّ «أيمن» جمع يمين، والألف همزة قطع، وإنما خففت وطرحت في الوصل لكثرة الاستعمال، قالوا: وكانت العرب تحلف باليمين فتقول: يمين الله لا أفعل، قال امرؤ القيس:

فَقُلْتُ يمينَ الله أبْرَحُ قاعداً ... وَلَوْ قَطّعُوا رَأْسِي لَدَيْكِ وَأَوْصَالِي

قالوا: واليمين تجمع على «أيمن»، قال زهير:

فتُجْمَعُ أيمُنٌ مِنّا ومِنْكُمْ ... بِمقْسَمَةٍ تَمُورُ بها الدِّماء

ثم حلفوا به، فقالوا: أيمن الله، ثم كثر في كلامهم وخفّ على ألسنتهم، حتى حذفوا منه النون كما حذفوا في قوله «لم يكن» فقالوا «لم يك». فأقسم عليه السلام لأصحابه أنّهم سيجدون بني

أمية بعده لهم أرباب سوء، وصدَقَ صلوات الله عليه فيما قال، فإنّهم ساموهم سوء العذاب قَتْلاً وصلباً، وحَبْساً وتشريداً في البلاد.

ثم شبّه بني أمية بالنّاب الضّروس، والنّاب: الناقة المُسِنّة، والجمع نِيب، تقول: لا أفعله ما حَنّت النِّيب، والضّروس: السيئة الْخُلق تعضّ حالبها.

وتعذِم بفيها: تكدم، والعذْم: الأكل بجفاء، وفرس عَذُوم: يعضّ بأسنانه.

والزَّبْن: الدفع، زبنتِ الناقة تزبِنُ، إذا ضربت بثَفِناتها عند الحلْب، تدفع الحالب عنها. والدَّرُّ: اللَّبَنُ، وفي المثل: «لا درّ دَرُّه» الأصل «لبنُه»، ثم قيل لكل خير، وناقة دَرُور، أي كثيرة اللَّبَن.

ثم قال: لا يزالون بكم قتلاً وإفناءً لكم حتى لا يتركوا منكم إلا من ينفعهم إبقاؤه، أو لا يضرهم ولا ينفَعُهم، قال: حتى يكون انتصار أحدكم منهم كانتصار العبْد من مولاه، أي لا انتصارَ لكم منهم، لأنّ العبد لا ينتصر من مولاه أبداً. وقد جاء في كلامه عليه السلام في غير هذا الموضع تتمة هذا المعنى: «إن حضر أطاعه، وإن غاب سَبَعه»، أي ثلبه وشتمه، وهذه أمارة الذلّ، كما قال أبو الطيب:

أَبْدُو فيسجدُ مَنْ بالسُّوء يذكرُني ... ولا أعاتبه صَفْحاً وإهوانا

وهكذا كنتُ في أهْلِي وفي وطني ... إنّ النفيسَ نفيسٌ أينما كانا

قال عليه السلام: «والصاحب من مستصحِبه»، أي والتابع من متبوعه.

والشُّوه: جمع شَوْهاء، وهي القبيحة الوجه، شاهت الوجوه تشوه شَوْهاً، قَبُحت، وشوّهه الله فهو مشوّه، وهي شوهاء، ولا يقال للذكر: أشوه. ومخشيّة: مخوفة.

وقطعاً جاهلية، شبهها بقطع السحاب لتراكمها على الناس، وجعلها جاهلية لأنها كأفعال الجاهلية الذين لم يكن لهم دين يردعهم، ويروى: «شوهاء» و «قطعاء»، أي نكراء، كالمقطوعة اليد.

قوله: «نحن أهلَ البيت منها بمنجاة»، أي بمعزل، والنّجاة والنّجوة: المكان المرتفع الذي تظن أنه نجاك، ولا يعلوه السيل. ولسنا فيها بدعاة، أي لسنا من أنصار تلك الدّعوة. و«أهلَ البيت» منصوب على الاختصاص، كقولهم: نحن معشرَ العرب نفعل كذا، ونحن آلَ فلان كرماء.

قوله: «كتفريج الأديم»: الأديم الجلد، وجمعه أدُم مثل أفيق وأفُق، ويجمع أيضاً على «آدمة»، كرغيف وأرغفه، ووجه التشبيه أن الجلد ينكشف عمّا تحته، فوعدهم عليه السلام بأنّ الله تعالى يكشف تلك الغمّاء كانكشاف الجلد عن اللحم، بمن يسومهم خسفاً، ويوليهم ذلاً.

والعُنْف، بالضم: ضدّ الرفق. وكأس مصبّرة ممزوجة بالصَّبِر لهذا المرّ، ويجوز أن يكون

«مصبّرة» مملوءة إلى أضبارها، وهي جوانبها، وفي المثل: «أخذها بأصبارها»[1] أي تامّة، الواحد صُبر، بالضم.

ويُخلِسهم: يلبسهم، أحلست البعير ألبسته الحِلْس، وهو كساء رقيق يكون تحت البرذعة، يقال: له حِلْس وحَلَس، مثل شِبْه وشَبَه.

والجَزُور من الإبل: يقع على الذَّكر والأنثى، وجَزرها: ذَبحها.

وهذا الكلام إخبار عن ظهور المسوّدة، وانقراض ملك بني أمية. ووقع الأمر بموجب إخباره صلوات الله عليه، حتى لقد صدق قوله: «لقد تودّ قريش. . .» الكلام إلى آخره، فإن أرباب السِّيَر كلهم نَقلوا أنّ مروان بن محمد قال يوم الزَّاب لما شاهد عبد الله بن عليّ بن عبد الله بن العباس بإزائه في صفّ خراسان: لوددت أن عليّ بن أبي طالب تحت هذه الراية بدلاً من هذا الفتى، والقصة طويلة وهي مشهورة.

وهذه الخطبة ذكرها جماعة من أصحاب السير، وهي متداولة منقولة مستفيضة، خطب بها عليٌّ عليه السلام بعد انقضاء أمر النّهروان، وفيها ألفاظ لم يوردها الرضيّ رحمه الله، من ذلك قوله عليه السلام: «ولم يكن ليجترىء عليها غيري، ولو لم أكُ فيكم ما قوتل أصحاب الجمل والنهروان. وايمُ الله لولا أن تتكلوا فَتَدَعُوا العمل لحدّثتكم بما قضى الله عزّ وجلّ على لسان نبيكم صلى الله عليه وآله: لمَنْ قاتلهم مبصراً لضلالتهم، عارفاً للهدى الذي نحن عليه، سلوني قبل أن تفقدوني، فإنّي ميّت عن قريب أو مقتول، بل قتلاً ما ينتظر أشقاها أن يخضب هذه بدم»[2]. وضرب بيده إلى لحيته.

ومنها في ذكر بني أمية: «يظهر أهلُ باطِلها على أهل حقّها، حتىٰ تُملأ الأرض عدواناً وظلماً وبِدَعاً إلى أن يضع الله عزّ وجلّ جبروتها، ويكسر عَمَدها، وينزع أوتادها. ألا وإنّكم مدركوها فانصرُوا قوماً كانوا أصحاب رايات بدر وحُنين، تؤجروا، ولا تمالئوا عليهم عدوّهم، فتصرعكم البليَّة، وتحُلّ بكم النقمة».

ومنها «إلاّ مثل انتصار العبد من مولاه إذا رآه أطاعه، وإن توارى عنه شَتَمه. وايمُ الله لو فرّقوكم تحتَ كلّ حجر، لجمعكم الله لشرِّ يوم لهم».

ومنها: «فانظروا أهل بيت نبيكم، فإن لبَدُوا فالبدوا، وإن استنصروكم فانصروهم، فليفرجَنّ الله الفتنة برجل منّا أهلَ البيت، بأبي ابن خيرة الإماء، لا يعطيهم إلا السيف، هَرْجاً هرجاً،

---

(١) ذكره الميداني في «مجمع الأمثال» (٣٤٠١).

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٣/ ٣٦٦.

موضوعاً على عاتقه ثمانية أشهر، حتى تقول قريش: لو كان هذا من ولد فاطمة لرحمنا، يغريه الله ببني أمية حتى يجعلهم حُطاماً ورفاتاً، ملعونين أينما ثقفوا أخذُوا وقُتّلوا تقتيلاً. سنّة الله في الذين خَلَوْا من قبل ولن تجدَ لسنّة الله تبديلاً»[1].

فإن قيل: لماذا قال: «ولو لم أكُ فيكم لما قوتل أهلُ الجمل وأهل النهروان»، ولم يذكر صِفّين؟ قيل: لأنّ الشبهة كانت في أهل الجمل وأهل النّهروان ظاهرة الالتباس، لأنّ الزبير وطلحة مَوْعُودان بالجنة، وعائشة موعودة أن تكون زوجة رسول الله ﷺ في الآخرة، كما هي زوجته في الدنيا، وحال طلحة والزبير في السَّبْق والجهاد والهجرة معلومة، وحال عائشة في محبّة الرسول الله ﷺ لها وثنائه عليها ونزول القرآن فيها معلومة، وأما أهل النّهروان فكانوا أهلَ قرآن وعبادة واجتهاد، وعُزوف عن الدنيا وإقبال على أمور الآخرة، وهم كانوا قرّاء أهل العراق وزهادهم، وأما معاوية فكان فاسقاً، مشهوراً بقلّة الدين والانحراف عن الإسلام، وكذلك ناصره ومظاهره على أمره عمْرو بن العاص، ومن اتّبَعهما من طغام أهل الشام وأجلافهم وجهّال الأعراب، فلم يكن أمرُهم خافياً في جواز محاربتهم واستحلال قتالهم، بخلاف حال من تقدّم ذكره.

فإن قيل: ومَنْ هذا الرجل الموعود به الذي قال عليه السلام عنه: «بأبي ابن خيرة الإماء»؟ قيل: أما الإمامية فيزعمون أنه إمامهم الثاني عشر، وأنه ابن أمَة اسمها نرجس، وأما أصحابنا فيزعمون أنه فاطميّ يولد في مستقبل الزمان، لأمّ ولد، وليس بموجود الآن.

فإن قيل: فمن يكون من بني أمية في ذلك الوقت موجوداً، حتى يقول عليه السلام في أمرهم ما قال من انتقام هذا الرجل منهم، حتى يودّوا أنّ علياً عليه السلام، كان المتولّي لأمرهم عوَضاً عنه؟

قيل: أما الإماميّة فيقولون بالرجعة، ويزعمون أنّه سيعاد قوم بأعيانهم من بني أميّة وغيرهم، إذا ظهر إمامهم المنتَظر، وأنه يقطع أيدي أقوام وأرجلهم، ويسمُل عيون بعضهم، ويصلُب قوماً آخرين، وينتقم من أعداء آل محمد عليهم السلام المتقدّمين والمتأخرين. وأما أصحابنا فيزعمون أنه سيخلق الله تعالى في آخر الزمان رجلاً من ولد فاطمة عليها السلام ليس موجوداً الآن، وأنه يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوْراً وظلماً، وينتقم من الظالمين وينكّل بهم أشدّ النّكال، وأنه لأمّ ولد، كما قد ورد في هذا الأثر وفي غيره من الآثار، وأن اسمه محمد، كاسم رسول الله ﷺ، وأنه إنما يظهر بعد أن يستولي على كثير من الإسلام ملك من أعقاب بني أمية، وهو السفيانيّ الموعود به في الخبر الصحيح[2]، من ولد أبي سفيان بن حرب بن أمية، وأنّ الإمام الفاطميّ

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٣/ ٣٦٨.

(٢) أخرجه الحاكم في «مستدركه» (٨٥٨٥)، (٤/ ٥٦٥).

يقتله ويقتل أشياعه من بني أمية وغيرهم، وحينئذ ينزل المسيح عليه السلام من السماء، وتبدو أشراطُ الساعة، وتظهر دابة الأرض، ويبطل التكليف، ويتحقّق قيام الأجساد عند نفخ الصور، كما نطق به الكتاب العزيز.

فإن قيل: فإنكم قلتم فيما تقدم: إن الوعد إنما هو بالسفّاح وبعمّه عبد الله بن عليّ، والمسوّدة، وما قلتموه الآن مخالف لذلك!

قيل: إن ذلك التفسير هو تفسير ما ذكره الرضيّ رحمه الله تعالى من كلام أمير المؤمنين عليه السلام في «نهج البلاغة» وهذا التفسير هو تفسير الزيادة التي لم يذكرها الرضِيّ، وهي قوله بأبي ابن خِيرة الإماء. وقوله: «لو كان هذا من ولد فاطمة لرحمنا»، فلا مناقضةَ بين التفسيرين.

٩٣ - ومن خطبة له عليه السلام يصف فيها حال الانبياء

الأصل: فَتَبَارَكَ ٱللهُ ٱلَّذِي لاَ يَبْلُغُهُ بُعْدُ ٱلْهِمَمِ، وَلاَ يَنَالُهُ حَدْسُ ٱلْفِطَنِ، ٱلْأَوَّلُ ٱلَّذِي لاَ غَايَةَ لَهُ فَيَنْتَهِي، وَلاَ آخِرَ لَهُ فَيَنْقَضِي.

الشرح: البَرَكة: كثرة الخير وزيادته، وتبارك الله منه، وبَرَّكْتُ، أي دعوتُ بالبَرَكة، وطعام بريك أي مبارك. ويقال: بارك الله لزيد وفي زيد وعلى زيد، وبارك الله زيداً، يتعدّى بنفسه، ومنه قوله تعالى: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾[1]. ويحتمل «تبارك الله» معنيين: أحدُهما أنْ يُراد: تبارك خَيْره وزادت نعمته وإحسانه، وهذا دعاء. وثانيهمَا أن يُراد به: تزايد وتعالٍ في ذاته وصفاته عن أن يُقاس به غيره، وهذا تمجيد.

قوله عليه السلام: «لا يبلغه بعدُ الهمم» أي بعد الأفكار والأنظار، عبّر عنها بالهمم لمشابهتها إياها. وحَدْس الفِطَن: ظنّها وتخمينها، حَدَسْتُ أحْدِسُ، بالكسر.

ويُسأل عن قوله: «لا غاية له فينتهي، ولا آخر له فينقضِي»، فيقال: إنما تدخل الفاء فيما إذا كان الثاني غير الأول، وكقولهم: ما تأتينا فتحدثَنا، وليس الثاني ها هنا غير الأول لأن الانقضاء هو الآخرية بعينها، فكأنه قال: لا آخر له، فيكون له آخر، وهذا لغو، وكذلك القول في اللفظة الأولى.

(١) سورة النمل، الآية: ٨.

وينبغي أن يقال في الجواب: إن المراد: لا آخر له بالإمكان والقوّة فينقضي بالفعل فيما لا يزال: ولا هو أيضاً ممكن الوجود فيما مضى، فيلزم أن يكون وجوده مسبوقاً بالعدم، وهو معنى قوله: «فينتهي» بل هو واجب الوجود في حالين: فيما مضى وفي المستقبل، وهذان مفهومان متغايران، وهما العدم وإمكان العدم، فاندفع الإشكال.

الأصل: ومنها: فَاسْتَوْدَعَهُمْ فِي أَفْضَلِ مُسْتَوْدَعٍ، وَأَقَرَّهُمْ فِي خَيْرِ مُسْتَقَرٍّ، تَنَاسَخَتْهُمْ كَرَائِمُ ٱلْأَصْلاَبِ إِلَى مُطَهَّرَاتِ ٱلْأَرْحَامِ، كُلَّمَا مَضَىٰ مِنْهُمْ سَلَفٌ، قَامَ مِنْهُمْ بِدِينِ ٱللهِ خَلَفٌ، حَتَّىٰ أَفْضَتْ كَرَامَةُ ٱللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْرَجَهُ مِنْ أَفْضَلِ ٱلْمَعَادِنِ مَنْبِتاً، وَأَعَزِّ ٱلْأَرُومَاتِ مَغْرِساً، مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ٱلَّتِي صَدَعَ مِنْهَا أَنْبِيَاءَهُ، وَٱنْتَجَبَ مِنْهَا أُمَنَاءَهُ، عِتْرَتُهُ خَيْرُ ٱلْعِتَرِ، وَأُسْرَتُهُ خَيْرُ ٱلْأُسَرِ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ الشَّجَرِ، نَبَتَتْ فِي حَرَمٍ، وَبَسَقَتْ فِي كَرَمٍ، لَهَا فُرُوعٌ طِوَالٌ، وَثَمرٌ لاَ يُنَالُ، فَهُوَ إِمَامُ مَنِ ٱتَّقَىٰ، وَبَصِيرَةُ مَنِ ٱهْتَدَىٰ.

سِرَاجٌ لَمَعَ ضَوْءُهُ، وَشِهَابٌ سَطَعَ نُورُهُ، وَزَنْدٌ بَرَقَ لَمْعُهُ، سِيرَتُهُ ٱلْقَصْدُ، وَسُنَّتُهُ ٱلرُّشْدُ، وَكَلاَمُهُ ٱلْفَصْلُ، وَحُكْمُهُ ٱلْعَدْلُ، أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ ٱلرُّسُلِ، وَهفْوَةٍ عَنِ ٱلْعَمَلِ، وَغَبَاوَةٍ مِنَ ٱلْأُمَمِ.

الشرح: تناسختهم، أي تناقلتهم، والتناسخ في الميراث: أنْ يموت ورثة بعد ورثة، وأصل الميراث قائم لم يقسّم، كأن ذلك تناقل من واحد إلى آخر، ومنه: نسخت الكتاب وانتسخته واستنسخته، أي نقلت ما فيه. ويروى: «تناسلتْهم».

والسّلَف: المتقدمون، والخلف: الباقون، ويقال: خَلَفُ صدق بالتحريك، وخَلْفُ سوء بالتسكين.

وأفضت كرامة الله إلى محمد ﷺ، أي انتهت. والأرومات: جمع أرومة وهي الأصل، ويقال أروم بغير هاء: وصدع: شقّ، وانتجب: اصطفى. والأسرة: رهط الرجل.

وقوله: «نبتت في حرم» يجوز أن يعني به مكّة، ويجوز أن يعني به المنعة والعزّ.

وبسقت: طالت. ومعنى قوله: «وثمر لا ينال» ليس على أن يريد به أن ثمرها لا ينتفع به، لأن ذلك ليس بمدح بل يريد به أنّ ثمرها لا ينال قهراً، ولا يجنى غصباً. ويجوز أن يريد بثمرها نفسه ﷺ، ومَنْ يجري مجراه من أهل البيت ﵈، لأنهم ثمرة تلك الشجرة.

ولا ينال، أي لا ينال مساعيهم ومآثرهم ولا يباريهم أحد، وقد روي في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله في فضل قريش وبني هاشم الكثير المستفيض، نحو قوله عليه السلام: «قدّموا قريشاً ولا تقدُموها»[١].

وقوله: «الأئمة من قريش»[٢]، وقوله: «إن الله اصطفى من العرب مَعَدًّا، واصطفى من معدٍّ بني النضر بن كنانة، واصطفى هاشماً من بني النضر، واصطفاني من بني هاشم»[٣]، وقوله: «إن جبرائيل عليه السلام قال لي: يا محمد قد طفتُ الأرض شرقاً وغرباً فلم أجدْ فيها أكرَم منك، ولا بيتاً أكرم من بني هاشم»[٤]، وقوله: ونقلنا من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكية»[٥]، وقوله عليه السلام: «إن الله تعالى لم يمسسْني بسفاح في أرومتي منذ إسماعيل بن إبراهيم إلى عبد الله بن عبد المطلب»، وقوله صلى الله عليه وآله: «سادة أهل محشر، سادة أهل الدنيا: أنا وعلي وحسن وحسين وحمزة وجعفر»[٦]، وقوله وقد سمع رجلاً ينشد:

يا أيّها الرجلُ المحوِّل رحلَهُ ... هلاً نزلتَ بآل عبد الدار؟

أهكذا قال يا أبا بكر؟ منكراً لما سمع، فقال أبو بكر: لا يا رسول الله، إنه لم يقل هكذا ولكنه قال:

ياأيُّها الرجلُ المحوِّل رَحْلَهُ ... هلَّا نزلتَ بآل عبد منافِ؟

عَمْرو العُلاَ هَشَمَ الثريدَ لقومِهِ ... وَرِجالُ مكة مُسْنِتونَ عِجافُ

فسرّ صلى الله عليه وآله بذلك، وقوله: «أذلّ الله من أذلّ قريشاً»[٧]، قالها ثلاثاً، وكقوله: «أنا النبيّ لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»[٨] وكقوله: «الناس تبعٌ لقريش، بَرّهم لبرهم، وفاجرهم

---

(١) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٥)، والشافعي في «مسنده» (١/ ٢٧٨)، والبزار في «مسنده» (٤٦٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٧٣)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (١٨٦٦).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١١٨٩٨)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٢٣٨٨)، والبيهقي في «سننه» (٨/ ١٤٣)، والنسائي في «الكبرى» (٥٩٤٢)، وأبو يعلى في «مسنده» (٤٠٣٢).

(٣) أخرجه الترمذي مختصراً في كتاب: المناقب، باب: في فضل النبي (ص) (٣٦٠٦) ومسلم في الفضائل، باب: فضل نسب النبي صلى الله عليه وآله (٢٧٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٢٤٢).

(٤) أمالي المرتضى: ٢/ ٢٦٨.
(٥) أمالي المرتضى: ٢/ ٢٦٨.

(٦) أخرجه الحاكم في «مستدركه» (٤٩٤٠) بلفظ: «سادة أهل الجنة...» وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وابن ماجه في «سننه» كتاب: الفتن، باب: خروج المهدي (٤٠٨٧).

(٧) ذكره السيوطي في «الدر المنثور».

(٨) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب: من قاد دابة غيره في الحرب (٢٨٦٤)، ومسلم في الجهاد والسير، باب: في غزوة حنين (١٧٧٦)، والترمذي في الجهاد، باب: ما جاء في الثبات عند القتال (١٦٨٨)، وأحمد في «مسنده» (١٨٠٠٠).

لفاجرهم»[١]، وكقوله: «أنا ابنُ الأكرمين»[٢]، وقوله لبني هاشم: «والله لا يُبغضُكم أحد إلا أكبّه الله على منخريه في النار»[٣]، وقوله: «ما بال رجال يزعمون أن قرابتي غير نافعة! بلى إنها لنافعة، وإنه لا يُبغِضُ أحدٌ أهلي إلا حرمه الله الجنة»[٤].

والأخبار الواردة في فضائل قريش وبني هاشم وشرفهم كثيرة جداً، ولا نرى الإطالة ها هنا باستقصائها.

وسطع الصبح يسطعُ سطوعاً، أي ارتفع، والسَّطيع: الصبح. والزَّند: العود تقدح به النار، وهو الأعلى، والزَّندة: السفلى فيها ثقب، وهي الأنثى، فإذا اجتمعا قيل: زَندان ولم يُقَلْ: «زندتان»، تغليباً للتذكير، والجمع زناد وأزنُد وأزناد.

والقصد: الاعتدال. وكلامه الفصل، أي الفاصل، والفارق بين الحق والباطل وهو مصدر بمعنى الفاعل، كقولك: رجل عَدْل، أي عادل.

والهفوة: الزّلة، هفا يهفو. والغباوة: الجهل وقلت الفطنة، يقال: غبيت عن الشيء وغبيت الشيء أيضاً، أغبى غباوة إذا لم يفطن له، وغبيَ عليّ الشيء كذلك، إذا لم تعرفه، وفلان غبيٌّ على «فعيل»، أي قليل الفطنة.

الأصل: اَعْمَلُوا - رَحِمَكُمُ اَللهُ - عَلَى أَعْلاَمٍ بَيِّنَةٍ، فَالطَّرِيقُ نَهْجٌ يَدْعُو إِلَى دَارِ اَلسَّلاَمِ، وَأَنْتُمْ فِي دَارِ مُسْتَعْتَبٍ عَلَى مَهَلٍ وَفَرَاغٍ، وَاَلصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ، وَاَلْأَقْلاَمُ جَارِيَةٌ، وَاَلْأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ، وَاَلْأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ، وَاَلتَّوْبَةُ مَسْمُوعَةٌ، وَاَلْأَعْمَالُ مَقْبُولَةٌ.

الشرح: الطريق: يذكّر ويؤنث، يقال: هذا الطريق الأعظم، وهذه الطريق العُظمى، والجمع أطرِقه وطرُق.

وأعلام بيّنة، أي منار واضح. ونهج، أي واضح. ودار السلام: الجنة، ويروى: «والطريق نهج» بالواو، واو الحال.

---

(١) أخرجه البزار في «مسنده» (٥١٢).

(٢) أمالي المرتضى: ٢/ ٢٦٨.

(٣) أمالي المرتضى: ٢/ ٢٦٨.

(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٨٠٣٦) بلفظ «والذي نفسي بيده لا يبغضنا أهل البيت أحد إلا أكبه الله في النار» وهو جزء من حديث طويل.

وأنتم في دار مستعتَب، أي في دار يمكنكم فيها استرضاء الخالق سبحانه، واستعتابه.

ثم شرح ذلك فقال: أنتم ممهلون متفرّغون، وصحف أعمالكم لم تطوَ بعد، وأقلام الحَفَظة عليكم لم تجف بعد، وأبدانكم صحيحة، وألسنتكم ما اعتُقلت كما تعتقل ألسنة المحتَضرين عند الموت، وتوبتكم مسموعة وأعمالكم مقبولة، لأنكم في دار التّكليف لم تخرجوا منها.

٩٤ - ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها حال الناس عند البعثة

الأصل: بَعَثَهُ وَٱلنَّاسُ ضُلاَّلٌ فِي حَيْرَةٍ، وَحَاطِبُونَ فِي فِتْنَةٍ، قَدِ ٱسْتَهْوَتْهُمُ ٱلْأَهْوَاءُ وَٱسْتَزَلَّتْهُمُ ٱلْكِبْرِيَاءُ، وَٱسْتَخَفَّتْهُمُ ٱلْجَاهِلِيَّةُ ٱلْجَهْلاَءُ، حَيَارَىٰ فِي زَلْزَالٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ، وَبَلاَءٍ مِنَ ٱلْجَهْلِ، فَبَالَغَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّصِيحَةِ، وَمَضَىٰ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ، وَدَعَا إِلَى ٱلْحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ.

الشرح: حاطبون في فتنة: جمع حاطب، وهو الذي يجمع الحَطَب، ويقال لمن يجمع بين الصواب والخطأ، أو يتكلّم بالغثّ والسمين: حاطب ليل، لأنه لا يبصر ما يجمع في حَبْله. ويروى: «خابطون».

واستهوتهم الأهواء: دعتهم إلى نفسها.

واستزلّتهم الكبرياء: جعلتهم ذوي زلل وخطأ. واستخفّتهم الجاهلية: جعلتهم ذوي خِفّة وَطيْشٍ وخُرْق.

والزلزال، بالفتح: الاسم، وبالكسر: المصدر، والزلازل: الشدائد، ومثله في الكسر عند الاسمية والفتح عند المصدر «القَلْقال».

٩٥ - ومن خطبة له عليه السلام في تحميد الله وتعظيمه

الأصل: ٱلْحَمْدُ للهِ ٱلْأَوَّلِ فَلاَ شَيْءَ قَبْلَهُ، وَٱلْآخِرِ فَلاَ شَيْءَ بَعْدَهُ، وَٱلظَّاهِرِ فَلاَ شَيْءَ فَوْقَهُ، وَٱلْبَاطِنِ فَلاَ شَيْءَ دُونَهُ.

الشرح: تقدير الكلام: والظاهر فلا شيء أجلَى منه، والباطن فلا شيء أخفى منه، فلما كان الجلاءُ يستلزم العلوّ والفوقية، والخفاء يستلزم الانخفاض والتحتيّة، عَبّر عنهما بما يلازمهما، وقد تقدم الكلامُ في معنى الأول والآخر والظاهر والباطن.

وذهب أكثر المتكلّمين إلى أن الله تعالى يعدم أجزاء ثم يعيدها، وذهب قوم منهم إلى أنّ الإعادة إنما هي جمع الأجزاء بعد تفريقها لا غير.

واحتجّ الأولون بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾[1]، قالوا: لما كان أوّلاً بمعنى أنّه الموجود ولا موجود معه، وجب أن يكون آخراً بمعنى أنه سيؤول الأمر إلى عدم كلّ شيء إلا ذاته تعالى، كما كان أولاً، والبحث المستقصى في هذا الباب مشروح في كتبنا الكلاميّة.

الأصل: ومنها في ذكر الرسول ﷺ: **مُسْتَقَرُّهُ خَيْرُ مُسْتَقَرٍّ، وَمَنْبِتُهُ أَشْرَفُ مَنْبِتٍ، فِي مَعَادِنِ ٱلْكَرَامَةِ، وَمَمَاهِدِ ٱلسَّلاَمَةِ، قَدْ صُرِفَتْ نَحْوَهُ أَفْئِدَةُ ٱلْأَبْرَارِ، وَثُنِيَتْ إِلَيْهِ أَزِمَّةُ ٱلْأَبْصَارِ، دَفَنَ ٱللهُ بِهِ ٱلضَّغَائِنَ، وَأَطْفَأَ بِهِ ٱلنَّوَائِرَ، أَلَّفَ بِهِ إِخْوَاناً، وَفَرَّقَ بِهِ أَقْرَاناً، وَأَعَزَّ بِهِ ٱلذِّلَّةَ، وَأَذَلَّ بِهِ ٱلْعِزَّةَ، كَلاَمُهُ بَيَانٌ، وَصَمْتُهُ لِسَانٌ.**

الشرح: المِهاد: الفِراش، ولما قال: «في معادن»، وهي جمع معدن، قال بحكم القرينة والازدواج: «ومَمَاهد» وإن لم يكن الواحد منها «ممْهداً»، كما قالوا: الغدايا والعشايا. ومأجورات ومأزوات، ونحو ذلك. ويعني بالسلامة ها هنا البراءة من العيوب، أي في نسب طاهر غير مأفون ولا معيب.

ثم قال: «قد صُرِفت نحوه»، أي نحو رسول الله ﷺ، ولم يقل مَنْ صرفَها، بل جعله فعلاً لم يُسَمّ فاعله، فإن شئت قلت: الصارف لها هو الله تعالى لا بالجبْر كما يقوله الأشعريّة، بل بالتوفيق واللطف، كما يقوله أصحابنا، وإن شئت قلت: صرفها أربابُها.

والضغائن: جمع ضغينة، وهي الحِقْد. ضَغِنت على فلان بالكسر ضغْناً والضِّغْن الاسم، كالضغينة، وقد تضاغنوا واضطغنوا: انطوَوْا على الأحقاد. ودَفَنها: أكمنها وأخفاها. وألّف به إخواناً، لأنّ الإسلام قد ألّف بين المتباعدين، وفرق بين المتقاربين، وقال تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[2]، قطع ما بين حمزة وأبي لهب مع تقاربهما، وألّف بين عليّ عليه السلام وعمّار مع تباعدهما.

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

قوله عليه السلام: «وَصَمْتُه لسان»، لا يعني باللسان ها هنا الجارحة نفسهما، بل الكلام الصادر عنها، كقول الأعشى:

إنّـي أتـتـنـي لِـسَـانٌ لا أسـرّ بـهـا

قالوا في تفسيره: أراد الكلمة، وجمعه على هذا ألسن، لأنه مؤنث، كقولك: ذراع وأذرع، فأمّا جمع لسان للجارحة فألسِنة، لأنه مذكّر، كقولك: حمار وأحمرة، يقول عليه السلام: إن كلامَ الرَّسول الله صلى الله عليه وآله بيان، والبيان إخراج الشيء من حَيّز الخفاء إلى حَيّز الوضوح، وصمته صلى الله عليه وآله كلام وقول مفيد، أي أن صمته لا يخلو من فائدة، فكأنه كلام، وهذا من باب التشبيه المحذوف الأداة، كقولهم: يده بَحْر، ووجهه بدر.

٩٦ - ومن كلام له عليه السلام في توبيخ أصحابه

الأصل: وَلَئِنْ أَمْهَلَ ٱللهُ ٱلظَّالِمَ فَلَنْ يَفُوتَ أَخْذُهُ، وَهُوَ لَهُ بِالْمِرْصَادِ، عَلَى مَجَازِ طَرِيقِهِ، وَبِمَوْضِعِ الشَّجَا مِنْ مَسَاغِ رِيقِهِ.

أَمَا وَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيَظْهَرَنَّ هَؤُلاَءِ ٱلْقَوْمُ عَلَيْكُمْ، لَيْسَ لِأَنَّهُمْ أَوْلَى بِالْحَقِّ مِنْكُمْ، وَلٰكِنْ لِإِسْرَاعِهِمْ إِلَى بَاطِلِهِمْ، وَإِبْطَائِكُمْ عَنْ حَقِّي، وَلَقَدْ أَصْبَحَتِ ٱلْأُمَمُ تَخَافُ ظُلْمَ رُعَاتِهَا، وَأَصْبَحْتُ أَخَافُ ظُلْمَ رَعِيَّتِي.

ٱسْتَنْفَرْتُكُمْ لِلْجِهَادِ فَلَمْ تَنْفِرُوا، وَأَسْمَعْتُكُمْ فَلَمْ تَسْمَعُوا، وَدَعَوْتُكُمْ سِرًّا وَجَهْراً فَلَمْ تَسْتَجِيبُوا، وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَلَمْ تَقْبَلُوا.

شُهُودٌ كَغُيَّابٍ، وَعَبِيدٌ كَأَرْبَابٍ. أَتْلُو عَلَيْكُمُ ٱلْحِكَمَ فَتَنْفِرُونَ مِنْهَا، وَأَعِظُكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ ٱلْبَالِغَةِ فَتَتَفَرَّقُونَ عَنْهَا، وَأَحُثُّكُمْ عَلَى جِهَادِ أَهْلِ ٱلْبَغْيِ فَمَا آتِي عَلَى آخِرِ قَوْلِي حَتَّى أَرَاكُمْ مُتَفَرِّقِينَ أَيَادِيَ سَبَا. تَرْجِعُونَ إِلى مَجَالِسِكُمْ، وَتَتَخَادَعُونَ عَنْ مَوَاعِظِكُمْ. أُقَوِّمُكُمْ غُدْوَةً وَتَرْجِعُونَ إِلَيَّ عَشِيَّةً، كَظَهْرِ ٱلْحَنِيَّةِ عَجَزَ ٱلْمُقَوِّمُ وَأَعْضَلَ ٱلْمُقَوَّمُ.

أَيُّهَا القومُ، ٱلشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ، ٱلْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، ٱلْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ، ٱلْمُبْتَلَى بِهِمْ أُمَرَاؤُهُمْ، صَاحِبُكُمْ يُطِيعُ ٱللهَ وَأَنْتُمْ تَعْصُونَهُ، وَصَاحِبُ أَهْلِ ٱلشَّامِ يَعْصِي ٱللهَ وَهُمْ يُطِيعُونَهُ! لَوَدِدْتُ وَٱللهِ أَنَّ مُعَاوِيَةَ صَارَفَنِي بِكُمْ صَرْفَ ٱلدِّينَارِ بِالدِّرْهَمِ، فَأَخَذَ مِنِّي عَشَرَةً مِنْكُمْ وَأَعْطَانِي رَجُلاً مِنْهُمْ!

يَا أَهْلَ ٱلْكُوفَةِ، مُنِيتُ مِنْكُمْ بِثَلاَثٍ وَٱثْنَتَيْنِ: صُمٌّ ذَوُو أَسْمَاعٍ، وَبُكْمٌ ذَوُو كَلاَمٍ، وَعُمْيٌ ذَوُو أَبْصَارٍ، لاَ أَحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ ٱللِّقَاءِ، وَلاَ إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ ٱلْبَلاَءِ.

تَرِبَتْ أَيْدِيكُمْ! يَا أَشْبَاهَ ٱلْإِبِلِ غَابَ عَنْهَا رُعَاتُهَا! كُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ تَفَرَّقَتْ مِنْ آخَرَ.

وَٱللهِ لَكَأَنِّي بِكُمْ فِيمَا إِخَالُكُمْ أن لَوْ حَمِسَ ٱلْوَغَى، وَحَمِيَ ٱلضِّرَابُ، قَدِ ٱنْفَرَجْتُمْ عَنِ ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ ٱنْفِرَاجَ ٱلْمَرْأَةِ عَنْ قُبُلِهَا. وَإِنِّي لَعَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي، وَمِنْهَاجٍ مِنْ نَبِيِّي، وَإِنِّي لَعَلَىٰ ٱلطَّرِيقِ ٱلْوَاضِحِ أَلْقُطُهُ لَقْطاً.

الشرح: أمهله: أخره، وأخذُه فاعل، والمفعول محذوف تقديره: «فلن يفوته». والمرصاد: الطريق، وهي من ألفاظ الكتاب العزيز.

ومجاز طريقه: مسلكه وموضع جوازه. والشَّجا: ما ينشَب في الحلق من عظم أو غيره، وموضع الشَّجا: هو الحَلق نفسه. ومساغُ ريقه: موضع الإساغة، أسغت الشراب: أوصلتُه إلى المعدة. ويجوز: سغت الشراب أسُوغه وأسيغه، وساغ الشرابُ نفسُه يسوغ سَوْغاً، أي سَهُل مدخله في الحَلق، يتعدّى ولا يتعدّى. وهذا الكلام من باب التوسّع والمجاز، لأنّ الله تعالى لا يجوز عليه الحصول في الجهات، ولكنه كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[1]. وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[2].

ثم أقسم عليه السّلام أنّ أهل الشام لا بدّ أن يظهروا على أهل العراق، وأنّ ذلك ليس لأنّهم على الحقّ وأهلُ العراق على الباطل، بل لأنّهم أطوَعُ لأميرهم، ومدَار النّصرة في الحرب إنّما هو على طاعة الجيش وانتظام أمره، لا على اعتقاد الحقّ، فإنه ليس يُغْنِي في الحرب أن يكون الجيش محقًّا في العقيدة إذا كان مختلف الآراء، غير مطيع لأمر المدبّر له، ولهذا تجدُ أهل الشرك كثيراً ما ينتصرون على أهل التوحيد.

ثم ذكر عليه السلام نكتة لطيفة في هذا المعنى، فقال: العادة أنّ الرعيّة تخاف ظلم الوالي، وأنا أخاف ظلم رعيتي، ومَنْ تأمّل أحواله عليه السلام في خلافته، علم أنّه كان كالمحجور عليه، لا يتمكّن من بلوغ ما في نفسه، وذلك لأنّ العارفين بحقيقة حاله كانوا قليلين، وكان السواد الأعظم، لا يعتقدون فيه الأمر الذي يجب اعتقادُه فيه، ويرون تفضيلَ مَنْ تقدّمه من الخلفاء عليه، ويظنّون أن الأفضليّة إنما هي الخلافة، ويقلّد أخلافُهم أسلافَهم، ويقولون: لولا أنّ

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٤.
(٢) سورة قٓ، الآية: ١٦.

الأوائل علموا فضل المتقدّمين عليه لما قدموهم، ولا يرونه إلا بعين التبعيَّة لمن سبقه، وأنه كان رعيّة لهم، وأكثرهم إنما يحارب معه بالحميّة وبنخوة العربية لا بالدين والعقيدة، وكان عليه السلام مدفوعاً إلى مداراتهم ومقاربتهم، ولم يكن قادراً على إظهار ما عنده، ألا ترى إلى كتابه إلى قضاته في الأمصار. وقوله: «فاقضوا كما كنتم تقضون، حتى تكون للناس جماعة، وأموتَ كما مات أصحابي»، وهذا الكلام لا يحتاج إلى تفسير، ومعناه واضح، وهو أنه قال لهم: أتبعُوا عادتكم الآن بعاجل الحال في الأحكام والقضايا التي كنتم تقضُون بها إلى أن يكون للناس جماعة، أي إلى أن تُسْفر هذه الأمور والخطوب عن الاجتماع وزوال الفرقة وسكون الفتنة، وحينئذ أعرفكم ما عندي في هذه القضايا والأحكام التي قد استمررتم عليها.

ثم قال: «أو أموت كما مات أصحابي»، فمن قائل يقول: عنى بأصحابه الخلفاء المتقدّمين ومن قائل يقول: عَنَى بأصحابه شيعتَه كسلمان، وأبي ذرّ، والمقداد، وعمّار، ونحوهم، ألا ترى إلى قوله على المنبر في أمّهات الأولاد: «كان رأيي ورأي عمر ألاَّ يُبَعْن، وأنا أرى الآن يبعهنّ»، فقام عليه عبيدة السلمانيّ فقال له: رأيكَ مع الجماعة أحبّ إلينا من رأيك وحدك، فما أعاد عليه حَرْفاً، فهل يدلّ هذا على القوة والقهر، أم على الضعف في السلطان والرخاوة! وهل كانت المصلحة والحكمة تقتضي في ذلك الوقت غير السكوت والإمساك! ألا ترى أنه كان يقرأ في صلاة الصبح وخَلْفه جماعة من أصحابه، فقرأ واحد منهم رافعاً صوته، معارضاً قراءة أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾[1]. فلم يضطرب عليه السلام، ولم يقطع صلاته ولم يلتفت وراءه، ولكنه قرأ معارضاً له على البديهة: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[2]. وهذا صبر عظيم وأناة عجيبة وتوفيق بيِّن، وبهذا ونحوه استدل أصحابنا المتكلّمونَ على حُسْن سياسته وصحة تدبيره، لأنّ مَنْ مُنِيَ بهذه الرعية المختلفة الأهواء، وهذا الجيش العاصي له، المتمرّد عليه، ثم كسر بهم الأعداء، وقَتَل بهم الرؤساء، فليس يبلغ أحد في حسن السياسة وصحة التدبير مبلغَه، ولا يقدر أحدٌ قدره، وقد قال بعض المتكلّمين من أصحابنا: إنّ سياسة عليّ عليه السلام إذا تأملها المنصف متدبراً لها بالإضافة إلى أحواله التي دفع إليها مع أصحابه، جرت مَجْرَى المعجزات، لصعوبة الأمر وتعذُّره فإن أصحابه كانوا فرقتين: إحداهما تَذهب إلى أن عثمان قتل مظلوماً وتتولاّه وتبرأ من أعدائه، والأخرى - وهم جمهور أصحاب الحرب وأهل الغناء والبأس - يعتقدون أن عثمان قُتِل لأحداث أوجبت عليه القتل، وقد كان منهم مَنْ يصرح بتكفيره، وكلٌّ من هاتين الفرقتين يزعُم أن علياً عليه السلام موافق لها على رأيها. وتطالبه في كل وقت بأن يبديَ مذهبه في عثمان، وتسأله أن يجيبَ بجواب واضح في أمره، وكان عليه السلام، يعلم أنّه متى وافق إحدى الطائفتين باينتْه الأخرى،

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٧. (٢) سورة الروم، الآية: ٦٠.

وأسلمته وتولتْ عنه وخذلته، فأخذ عليه السلام يعتمد في جوابه ويستعمل في كلامه ما تظنّ به كلّ واحدة من الفرقتين أنه يوافق رأيها ويماثل اعتقادَها، فتارة يقول: الله قتله وأنا معه، وتذهب الطائفة الموالية لعثمان إلى أنّه أراد أن الله أماتَه وسيميتني كما أماته، وتذهب الطائفة الأخرى إلى أنّه أراد أنه قتل عثمان مع قتل الله له أيضاً، وكذلك قوله تارة أخرى: «ما أمَرْت به ولا نَهيت عنه»، وقوله: «لو أمرت به لكنت قاتلاً، ولو نهيت عنه لكنت ناصراً»، وأشياء من هذا الجنس مذكورة مروية عنه، فلم يزل على هذه الوتيرة حتى قُبِض عليه السلام، وكلّ من الطائفتين موالية له معتقدة أن رأيه في عثمان كرأيها، فلو لم يكن له من السّياسة إلا هذا القَدْر - مع كثرة خوض الناس حينئذ في أمر عثمان والحاجة إلى ذكره في كل مقام - لكفاه في الدلالة على أنه أعرَفُ الناس بها، وأحذقهم فيها، وأعلمهم بوجوه مخارج الكلام، وتدبير أحوال الرجال.

ثم نعود إلى الشرح:

قوله عليه السلام: «ونصحت لكم»، هو الأفصح، وعليه، ورد لفظ القرآن، وقول العامة: «نصحتك» ليس بالأفصح.

قوله: «وعَبيد كأرباب» يصفهم بالكِبْرِ والتِّيه.

فإن قلت: كيف قال عنهم إنّهم عبيد وكانوا عَرَباً صليبة؟ قلت: يريد أنّ أخلاقهم كأخلاق العبيد، من الغَدْر والخلاف ودناءة الأنفس، وفيهم مع ذلك كِبْر السادات والأرباب وتيههم، فقد جمعوا خِصالَ السُّوء كلها.

وأيادي سبأ، مثل يضرب للمتفرّقين، وأصله قولُه تعالى عن أهل سبأ: ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾[1] وسبأ مهموز، وهو سبأ بن يشجُب بن يعرب بن قحطان، ويقال: ذهبوا أيدي سبا وأيادي سبا، الياء ساكنة، وكذلك الألف، وهكذا نقل المثل، أي ذَهَبوا متفرّقين، وهما اسمان جعلا واحداً، مثل معدي كرب.

قوله: «تتخادَعُون عن مواعظكم»، أن تمسكون عن الاتّعاظ والانزجار، وتُقْلعون عن ذلك، من قولهم: كان فلان يُعطي ثم خدع، أي أمسك وأقلع. ويجوز أن يريد: تتلوّنون وتختلفون في قبول الموعظة، من قولهم: خلق فلان خَلُق خادع، أي متلوّن، وسوق خادعة أي مختلفة متلوّنة، ولا يجوز أن يريد باللفظة المعنى المشهور منها، لأنه إنما يقال: فلان يتخادع لفلان، إذا كان يُريه أنّه منخدع له وليس بمنخدع في الحقيقة، وهذا لا يطابق معنَى الكلام.

والحَنِيّة: القوس. وقوله: «كظهر الحنيّة»، يريد اعوجاجهم، كما أنّ ظهر القوس معوجّ. وأعضل المقوّم، أي أعضل داؤه، أي أعيا. ويروى: «أيّها الشاهدةُ أبدانهم» بحذف الموصوف.

---

(١) سورة سبأ، الآية: ١٩.

ثم أقسم أنّه يودّ أن معاوية صارَفه بهم، فأعطاه من أهل الشام واحداً، وأخذ منه عشرة، صَرْف الدينار بالدراهم، أخذ هذا اللفظ عبدُ الله بن الزبير لَمّا وفد إليه أهلُ البصرة، وفيهم الأحنف، فتكلّم منهم أبو حاضر الأسديّ، وكان خطيباً جَميلاً، فقال له عبد الله بن الزّبير: اسكتْ، فوالله لوَدِدْت أنّ لي بكلّ عشرة من أهل العراق واحداً من أهل الشام صَرْف الدينار بالدراهم، فقال: يا أمير المؤمنين، إن لنا ولك مثَلاً، أفتأذن في ذكره؟ قال: نعم. قال: مَثلُنا ومثلُك ومثل أهل الشام قولُ الأعشى:

عُلِّقْتُهَا عَرَضاً وَعُلِّقَتْ رَجُلاً   غَيْرِي، وَعُلِّقَ أُخرَى غَيْرَهَا الرَّجُلُ

أحبّك أهلُ العراق وأحببتَ أهل الشام وأحبّ أهل الشام عبدَ الملك فما تصنع؟ ثم ذكر عليه السلام أنهُ مُنِيَ، أي بُلِيَ منهم بثلاث واثنتين، إنما لم يقل بخمس، لأن الثلاث إيجابية والاثنتين سَلْبية، فأحبّ أن يفرّق بين الإثبات والنفي.

ويروى: «لا أحرار صدُق عند اللقاء» جمع صادق. ولا إخوان ثقة عند البلاء، أي موثوق بهم.

تربتْ أيديكم، كلمة يدعى على الإنسان بها، أي لا أصَبْتُم خيراً، وأصل «ترب» أصابه التراب، فكأنه يدعو عليه بأن يفتقر حتى يلتصق بالتراب.

قوله: «فما إخالكم» أي فما أظنُّكم، والأفصح كسر الألف وهو السماع، وبنو أسد يفتحونها وهو القياس.

قوله: «ألّو» أصله «أن لو» ثم أدغمت النون في الألف فصارت كلمة واحدة.

وحمِس الوغى، بكسر الميم: اشتدّ وَعَظُم، فهو حمس وأحمس، بيّن الحمَس والحماسة. والوغى في الأصل: الأصوات والجلبة، وسميت الحرب نفسها وَغًى لما فيها من ذلك.

وقوله: «انفراج المرأة عن قُبُلها»، أي وقت الولادة.

قوله: «ألقطه لَقْطاً» يريد أنّ الضلال غالب على الهدى، فأنا التقط طريق الهدى من بين طريق الضلال لقطاً من ها هنا وها هنا كما يسلك الإنسان طريقاً دقيقة، قد اكتَنَفها الشَّوْك والعَوْسَج من جانبيْهما كليهما، فهو يلتقط النَّهج التقاطاً.

الأصل: أَنْظُرُوا أَهْلَ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ فَالْزَمُوا سَمْتَهُمْ، وَاتَّبِعُوا أَثَرَهُمْ، فَلَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ هُدًى، وَلَنْ يُعِيدُوكُمْ فِي رَدًى، فَإِنْ لَبَدُوا فَالْبُدُوا، وَإِنْ نَهَضُوا فَانْهَضُوا، وَلاَ تَسْبِقُوهُمْ فَتَضِلُّوا، وَلاَ تَتَأَخَّرُوا عَنْهُمْ فَتَهْلِكُوا.

لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ فَما أَرَى أَحَداً يُشْبِهُهُمْ مِنْكُمْ، لَقَدْ كَانُوا يُصْبِحُونَ شُعْثاً غُبْراً، وَقَدْ بَاتُوا سُجَّداً وَقِيَاماً، يُرَاوِحُونَ بَيْنَ جِبَاهِهِمْ وَخُدُودِهِمْ، وَيَقِفُونَ عَلَى مِثْلِ ٱلْجَمْرِ مِنْ ذِكْرِ مَعَادِهِمْ، كَأَنَّ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ رُكَبَ المِعْزَىٰ، مِنْ طُولِ سُجُودِهِمْ، إِذَا ذُكِرَ ٱللهُ هَمَلَتْ أَعْيُنُهُمْ حَتَّىٰ تَبُلَّ جُيُوبَهُمْ، وَمَادُوا كَما يَمِيدُ ٱلشَّجَرُ يَوْمَ ٱلرِّيحِ ٱلْعَاصِفِ، خَوْفاً مِنَ ٱلْعِقَابِ، وَرَجَاءً لِلثَّوَابِ.

الشرح: السَّمْت: الطريق، ولَبَد الشيء بالأرض، يلبُد بالضم لُبوداً: التصق به. ويصبحون شعثاً غبْراً، من قَشَف العبادة وقيام الليل وصوم النهار وهجر الملاذّ، فيراوحون بين جِباههم وخدودهم، تارة يسجدون على الجباه، وتارة يضعون خدودهم على الأرض بعد الصلاة، تذلّلاً وخضوعاً. والمراوحة بين العمل: أن يعمَل هذا مَرّة وهذا مرة، ويراوح بين رجليه، إذا قام على هذه تارة وعلى هذه أخرى.

ويقال معزى لهذا الجِنْس من الغنم ومَعِز ومعيز وأمعوز ومَعْز، بالتسكين، وواحد المعْز ماعز، كصَحْب وصاحب، والأنثى ماعزة والجمع مواعز. وهملتْ أعينُهم: سالَت، تهمُل وتهمِل. ويروى «حتى تُبَلّ جباههم»، أي يبلّ موضع السجود فتبتل الجبهة بملاقاته. ومادُوا: تحرّكوا واضطربوا، إما خوفاً من العقاب كما يتحرّك الرجل ويضطرب، أو رجاء للثواب كما يتحرَّك النشوان من الطرب، وكما يتحرك الجذِل المسرورُ من الفَرَح.

٩٧ – ومن كلام له عليه السلام في وصف بني أمية

الأصل: وَٱللهِ لاَ يَزَالُونَ حَتَّىٰ لاَ يَدَعُوا لله مُحَرَّماً إِلاَّ ٱسْتَحَلُّوهُ، وَلاَ عَقْداً إِلاَّ حَلُّوهُ، وَحَتَّى لاَ يَبْقَىٰ بَيْتُ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلاَّ دَخَلَهُ ظُلْمُهُمْ، وَنَبَا بِهِ سُوءُ رِعَتِهِمْ، وَحَتَّى يَقُومَ ٱلْبَاكِيَانِ يَبْكِيَانِ: بَاكٍ يَبْكِي لِدِينِهِ، وَبَاكٍ يَبْكِي لِدُنْيَاهُ، وَحَتَّىٰ تكونَ نُصْرَةُ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ كَنُصْرَةِ ٱلْعَبْدِ مِنْ سَيِّدِهِ، إِذَا شَهِدَ أَطَاعَهُ، وَإِذَا غَابَ ٱغْتَابَهُ، وَحَتَّى يَكُونَ أَعْظَمَكُمْ فِيهَا غَنَاءً أَحْسَنُكُمْ بِٱللهِ ظَنًّا، فَإِنْ أَتَاكُمُ ٱللهُ بِعَافِيَةٍ فَاقْبَلُوا، وَإِنِ ٱبْتُلِيتُمْ فاصْبِرُوا، فَإِنَّ ٱلْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ.

الشرح: تقدير الكلام: لا يزالون ظالمين، فحذف الخبر وهو مراد، وسدّت «حتى» وما بعدها مسدّ الخبر، ولا يصحّ ما ذهب إليه بعض المفسرين من أنّ «زال» بمعنى تحرك

وانتقل، فلا تكون محتاجة إلى خبر، بل تكون تامة في نفسها، لأنّ تلك مستقبلها يزول بالواو، وها هنا بالألف لا يزالون، فهي الناقصة التي لم تأتي تامّة قطّ، ومثلها في أنّها لا تزال ناقصة: ظلّ وما فتيء وليس.

والمحرّم: ما لا يحلّ انتهاكه وكذلك المحرَمة بفتح الراء وضمها.

وبيوت المَدَر: هي البيوت المبنيّة في القُرى، وبيوت الوبر: ما يتّخذ في البادية من وبر الإبل والوبر لها كالصوف للضأن، وكالشعر للمعِز.

وقد وَبِر البعيرُ بالكسر، فهو وَبِر وأوبر، إذا كثر وبرُه. ونبا به منزله: إذا ضرّه ولم يوافقه، وكذلك نبا به فِراشُه، فالفعل لازم، فإذا أردت تعديتَه بالهمزة قلتَ: قد أنبى فلان على منزلي، أي جعله نابياً، وإنْ عَدّيته بحرف الجر قلت: قد نبا بمنزلي فلان، أي أنباه عليّ، وهو في هذا الموضع معدًّى بحرف الجرّ.

وسوء رِعتهم أي سوء ورعهم، أي تقواهم والورع بكسر الراء: الرّجُل التقيّ، ورع يرع بالكسر فيهما ورعاً ورِعَةً، ويروى: «سوء رَعْيهم»، أي سوء سياستهم وإمْرَتهم. ونصرة أحدكم من أحدهم، أي انتصاره منه وانتقامه، فهو مصدر مضاف إلى الفاعل، وقد تقدم شرح هذا المعنى، وقد حمل قوم هذا المصدر على الإضافة إلى المفعول وكذلك نُصرة العبد وتقدير الكلام: حتى يكون نصرةُ أحد هؤلاء الولاة لأحدكم كنصرة سيّد العبد السَّيِّئ الطريقة إياه «ومن» في الموضعين مضافة إلى محذوف تقديره مِنْ جانب أحدهم ومن جانب سيده، وهذا ضعيف لما فيه من الفصل بين العبد وبين قوله: «إذا شهد أطاعه»، وهو الكلام الذي إذا استمرّ المعنى جعل حالاً من العبد بقوله: «من سيده» والضمير في قوله: «فيها» يرجع إلى غير مذكور لفظاً، ولكنه كالمذكور، يعني الفتنة، أي حتى يكون أعظمكم في الفتنة غناء.

ويروى برفع: «أعظمكم» ونصب «أحسنكم» والأول أليق، وهذا الكلام كلّه إشارة إلى بني أمية.

٩٨ - ومن خطبة له عليه السلام في وصف الدنيا

الأصل: نَحْمَدُهُ عَلَى مَا كَانَ، وَنَسْتَعِينُهُ مِنْ أَمْرِنَا عَلَى مَا يَكُونُ، وَنَسْأَلُهُ الْمُعَافَاةَ فِي ٱلْأَدْيَانِ، كَمَا نَسْأَلُهُ ٱلْمُعَافَاةَ فِي ٱلْأَبْدَانِ.

أُوصِيكُمْ بِالرَّفْضِ لِهَذِهِ ٱلدُّنْيَا ٱلتَّارِكَةِ لَكُمْ وَإِنْ لَمْ تُحِبُّوا تَرْكَهَا، وَٱلْمُبْلِيَةِ لِأَجْسَامِكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ تَجْدِيدَهَا، فَإِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُهَا كَسَفْرٍ سَلَكُوا سَبِيلاً فَكَأَنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوهُ، وَأَمُّوا عَلَماً

فَكَأَنَّهُمْ قَدْ بَلَغُوهُ، وَكَمْ عَسَىٰ ٱلْمُجْرِي إِلَى ٱلْغَايَةِ أَنْ يَجْرِيَ إِلَيْهَا حَتَّىٰ يَبْلُغَهَا! وَمَا عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ بَقَاءُ مَنْ لَهُ يَوْمٌ لاَ يَعْدُوهُ، وَطَالِبٌ حَثِيثٌ مِنَ ٱلْمَوْتِ يَحْدُوهُ، وَمُزْعَجٌ فِي ٱلدُّنْيَا عَنِ ٱلدُّنْيَا حَتَّىٰ يُفَارِقَهَا رَغْماً!

فَلاَ تَنَافَسُوا فِي عِزِّ ٱلدُّنْيَا وَفَخْرِهَا، وَلاَ تَعْجَبُوا بِزِينَتِهَا وَنَعِيمِهَا، وَلاَ تَجْزَعُوا مِنْ ضَرَّائِهَا وَبُؤْسِهَا، فَإِنَّ عِزَّهَا وَفَخْرَهَا إِلَى ٱنْقِطَاعٍ، وَزِينَتَهَا وَنَعِيمَهَا إِلَى زَوَالٍ، وَضَرَّاءَهَا وَبُؤْسَهَا إِلَى نَفَادٍ، وَكُلُّ مُدَّةٍ فِيهَا إِلَى ٱنْتِهَاءٍ، وَكُلُّ حَيٍّ فِيهَا إِلَى فَنَاءٍ.

أَوَ لَيْسَ لَكُمْ فِي آثَارِ ٱلْأَوَّلِينَ مُزْدَجَرٌ، وَفِي آبَائِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ تَبْصِرَةٌ وَمُعْتَبَرٌ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ!

أَوَ لَمْ تَرَوْا إِلَى ٱلْمَاضِينَ مِنْكُمْ لاَ يَرْجِعُونَ، وَإِلَى ٱلْخَلَفِ ٱلْبَاقِينَ لاَ يَبْقَوْنَ! أَوَ لَسْتُمْ تَرَوْنَ أَهْلَ ٱلدُّنْيَا يُمْسُونَ وَيُصْبِحُونَ عَلَى أَحْوَالٍ شَتَّىٰ: فَمَيْتٌ يُبْكَىٰ، وَآخَرُ يُعَزَّىٰ، وَصَرِيعٌ مُبْتَلًى، وَعَائِدٌ يَعُودُ، وَآخَرُ بِنَفْسِهِ يَجُودُ، وَطَالِبٌ لِلدُّنْيَا وَٱلْمَوْتُ يَطْلُبُهُ، وَغَافِلٌ وَلَيْسَ بِمَغْفُولٍ عَنْهُ، وَعَلَى أَثَرِ ٱلْمَاضِي مَا يَمْضِي ٱلْبَاقِي!

أَلاَ فَاذْكُرُوا هَادِمَ ٱللَّذَّاتِ، وَمُنَغِّصَ ٱلشَّهَوَاتِ، وَقَاطِعَ ٱلْأُمْنِيَّاتِ، عِنْدَ ٱلْمُسَاوَرَةِ لِلْأَعْمَالِ ٱلْقَبِيحَةِ، وَٱسْتَعِينُوا ٱللهَ عَلَى أَدَاءِ وَاجِبِ حَقِّهِ، وَمَا لاَ يُحْصَىٰ مِنْ أَعْدَادِ نِعَمِهِ وَإِحْسَانِهِ.

الشرح: لما كان الماضي معلوماً جعل الحمد بإزائه، لأنّ المجهول لا يحمَد عليه، ولما كان المستقبل غيرَ معلوم جعل الاستعانة بإزائه، لأنّ الماضيَ لا يُستعان عليه، ولقد ظَرُف وأبدع عليه السلام في قوله: «ونسألُه المعافاة في الأديان، كما نسأله المعافاة في الأبدان»، وذلك أنّ للأديان سُقماً وطبًّا وشفاء، كما أنّ للأبدان سُقماً وطبّاً وشفاء، قال محمود الورّاق:

وإذا مَرِضْتَ من الذُّنُوبِ فداوِها ... بالذِّكْرِ إنّ الذِّكْرَ خيرُ دواءِ

والسُّقْم في الأبدان لَيْسَ بضائرٍ ... والسُّقْم في الأديان شرّ بَلاَءِ

وقيل لأعرابيّ: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي، قيل: فما تشتهي؟ قال: الجنّة، قيل: أفلا ندعُو لك طبيباً؟ قال: الطبيب أمرضني.

سمعتْ عفيرة بنت الوليد البَصْريّة العابدة رجلاً يقول: ما أشدّ العمَى على من كان بصيراً! فقالت: عبدَ الله! غَفَلْتَ عن مرض الذنوب، واهتممت بمرض الأجساد، عَمَى القلوب عن الله أشدُّ من عمى العين عن الدنيا، ودِدْت أن الله وهب لي كُنْهَ محبّته، ولم يُبق مني جارحة إلا تَبلها.

قيل لحسان بن أبي سنان في مرضه: ما مرضُك؟ قال: مرض لا يفهمه الأطباء، قيل: وما هو؟ قال: مرض الذنوب، فقيل: كيف تجدُك الآن؟ قال: بخير إن نجوتُ من النار، قيل: فما تشتهي؟ قال: ليلة طويلةً بعيدةُ ما بين الطرفين أُحْيِيها بذكر الله.

ابن شُبْرُمة: عجبتُ ممّن يحتمِي من الطّعام مخافة الداء، كيف لا يحتمِي من الذنوب مخافة النار!

قوله عليه السلام: «الدنيا التاركة لكم وإن لم تحبُّوا تركها» معنى حسن، ومنه قول أبي الطّيّب:

كلّ دَمْعٍ يسيلُ منها عليْهَا ... وبِفكّ اليدين عنها تُخَلّى

والرفض: التَّرْك، وإبل رَفْض: متروكة ترعى حيث شاءت، وقوم سَفْر، أي مسافرون. وأمُّوا: قَصَدوا، والعَلَم: الجبل أو المنار في الطريق يهتدي به.

وكأنّ في هذه المواضع كهي في قوله: «كأنّك بالدنيا لم تكُنْ، وكأنّك بالآخرة لم تزل، ما أقرب ذلك وأسرعه»، وتقدير الكلام ها هنا: كأنّهم في حال كونهم غير قاطعين له قاطعون له، وكأنهم في حال كونهم غير بالغين له بالغون له، لأنه لما قرب زمان إحدى الحالتين من زمان الأخرى شُبّهوا وهم في الحال الأولى بهم أنفسِهم وهم على الحال الثانية.

قوله عليه السلام: «وكم عسى المجرِي» أجْرَى فلان فرسه إلى الغاية، إذا أرسلها، ثم نقل ذلك إلى كل مَنْ يقصِد بكلامه معنًى أو فعله غرضاً، فقيل: فلان يجرِي بقوله إلى كذا، أو يجرِي بحركته الفلانية إلى كذا، أي يقصد وينتهي بإرادته وأغراضه ولا يعدوه ولا يتجاوزه.

والحثيث: السريع. ويحدوه: يسوقه. والمنافسة: المحاسدة، ونفست عليه بكذا، أي ضَنِنت. والبُؤس: الشدّة. والنفاد: الفناء.

وما في قوله: «على أثر الماضي ما يمضي الباقي» إمّا زائدة مصدرية، وقد أخذ هذا اللفظ الوليد بن يزيد بن عبد الملك يوم مات مَسْلَمة بن عبد الملك، قيل: لما مات مسلمة بن عبد الملك، واجتمع بنو أمية ورؤساء العرب ينظرون جِنازته، خرج الوليد بن يزيد على الناس وهو نَشْوان ثَمِل يجرّ مُطْرَف خزّ، وهو يندب مسلمة ومواليه حوله، فوقف على هشام، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إن عُقْبَى مَنْ بقي لحوق مَنْ مَضَى، وقد أقفر بعد مسلمة الصّيدُ لمن رمى، واختلّ الثغر فوهَى، وارتجّ الطّود فهوى، وعلى أثرِ مَنْ سلف ما يمضي من خَلَف، فتزوّدُوا فإن خير الزاد التقوى.

قوله عليه السلام: «عند مساورة الأعمال القبيحة» العامل في «عند» قوله: «اذكروا» أي ليكن ذكرُكم الموت وقت مساورَتِكم، والمساورة: المواثبة، وسارَ إليه يَسُور سَوْراً: وثب، قال الأخطل يصف خمراً له:

لما أتوها بمصباحٍ وَمِبْزَلِهِمْ ... سَارَتْ إليهم سُؤُورَ الأبجل الضاري

أي كوثوب العِرْق الذي قد فُصِد أو قطع فلا يكاد ينقطع دمه، ويقال: إنّ لغَضَبِه لَسَوْرة، وهو سَوّار، أي وثّاب مُعَرْبِد.

٩٩ - ومن خطبة له عليه السلام يذكر محمداً وما تركه في أصحابه

الأصل: ٱلْحَمْدُ لله ٱلنَّاشِرِ فِي ٱلْخَلْقِ فَضْلَهُ، وَٱلْبَاسِطِ فِيهِمْ بِالْجُودِ يَدَهُ. نَحْمَدُهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ، وَنَسْتَعِينُهُ عَلَى رِعَايَةِ حُقُوقِهِ، وَنَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِأَمْرِهِ صَادِعاً، وَبِذِكْرِهِ نَاطِقاً، فَأَدَّىٰ أَمِيناً، وَمَضَىٰ رَشِيداً، وَخَلَّفَ فِينَا رَايَةَ ٱلْحَقِّ، مَنْ تَقَدَّمَهَا مَرَقَ، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا زَهَقَ، وَمَنْ لَزِمَهَا لَحِقَ. دَلِيلُهَا مَكِيثُ ٱلْكَلاَمِ، بَطِيءُ ٱلْقِيَامِ، سَرِيعٌ إِذَا قَامَ، فَإِذَا أَنْتُمْ أَلَنْتُمْ لَهُ رِقَابَكُمْ، وَأَشَرْتُمْ إِلَيْهِ بِأَصَابِعِكُمْ، جَاءَهُ ٱلْمَوْتُ فَذَهَبَ بِهِ، فَلَبِثْتُمْ بَعْدَهُ مَا شَاءَ ٱلله، حَتَّى يُطْلِعَ ٱلله لَكُمْ مَنْ يَجْمَعُكُمْ وَيَضُمُّ نَشْرَكُمْ، فَلاَ تَطْمَعُوا فِي غَيْرِ مُقْبِلٍ، وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ مُدْبِرٍ، فَإِنَّ ٱلْمُدْبِرَ عَسَىٰ أَنْ تَزِلَّ بِهِ إِحدىٰ قَائِمَتَيْهِ، وَتَثْبُتَ ٱلْأُخْرَىٰ فَتَرْجِعَا حَتَّىٰ تَثْبُتَا جَمِيعاً.

أَلاَ إِنَّ مَثَلَ آلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱلله عَلَيْهِ كَمَثَلِ نُجُومِ ٱلسَّمَاءِ، إِذَا خَوَىٰ نَجْمٌ طَلَعَ نَجْمٌ، فَكَأَنَّكُمْ قَدْ تَكَامَلَتْ مِنَ ٱلله فِيكُمُ ٱلصَّنَائِعُ، وَأَرَاكُمْ مَا كُنْتُمْ تَأْمُلُونَ.

الشرح: يده ها هنا: نعمته، يقال: لفلان عندي يد، أي نعمة وإحسان، قال الشاعر:

فإنْ تَرْجِعِ الأيامُ بيني وبينَها ... فإنّ لها عندي يَداً لا أُضِيعُها

وصادعاً، أي مظهراً ومجاهراً للمشركين، قال تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾[1]. وراية الحقّ: الثّقلان المخلّفان بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وهما الكتاب والعِتْرة.

ومَرَق: خرج، أي فارق الحَقّ، ومرَق السهم عن الرميّة: خرج من جانبها الآخر، وبه سُمّيت الخوارق مارقة. وزهَقَت نفسه، بالفتح زُهوقاً، أي خرجت، قال تعالى: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾[2]. وزهَقَت الناقة، إذا سبقت وتقدّمت أمام الرّكاب، وزهقَ الباطل: اضمحلّ، يقول عليه السلام: مَنْ خالفها متقدّماً لها أو متأخراً عنها فقد خرج عن الحق، ومن لازمها فقد أصابَ الحق.

ثم قال: «دليلها مَكيث الكلام»، يعني نفسَه عليه السلام، لأنه المشارُ إليه من العِتْرة، وأعلمُ

(١) سورة الحجر، الآية: ٩٤.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٨٥.

النّاس بالكتاب. وَمكِيث الكلام: بطيئه، ورجل مَكِيث، أي رزين، والمُكْث: اللُّبْث والانتظار، مَكَث ومكُث بالفتح والضم، والاسم المُكْث والمُكْثة بالضم وكسرها، يعني أنه ذو أناة وتؤدة، ثم أكّد ذلك بقوله: «بطيء القيام».

ثم قال: «سريع إذا قام»، أي هو متأنٍّ متثبّت في أحواله، فإذا نهض جَدّ وبالغ، وهذا المعنى كثير جداً، قال أبو الطيب:

وما قلتُ للبدرِ أنت اللُّجَيْنُ ... ولا قلتُ للشَّمس أنتِ الذهبْ
فَيَقْلَقَ منهُ البعيد الأناةِ ... وَيغضَبَ منه البطيء الغضبْ

يعني سيف الدولة.

ومن أمثالهم: «يريك الهوينى والأمور تطير»، يضرب لمن ظاهره الأناة وباطنُه إبرام الأمور وتنفيذها والحاضرون لا يشعرون، ويقولون لمن هو كذلك: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾(1).

ووقّع ذُو الرّياستين إلى عامل له: إنّ أسرَع النار التهاباً أسرعُها خموداً، فتأنَّ في أمرك. ويقال: إن آدم عليه السلام أوصى ولده عند موته فقال: كلّ عملٍ تريدون أن تعملوهُ فتوقّفُوا فيه ساعة، فإنّي لو توقّفت لم يصبني ما أصابني.

بعض الأعراب يوصي ولده: إياكم والعَجلة، فإن أبي كان يكنيها: أمّ الندم. وكان يقال: مَنْ ورد عَجِلاً صدر خجِلاً.

وقال ابن هانئ المغربيّ:

وكلُّ أناة في المواطن سؤدُدٌ ... ولا كأناةٍ من قديرٍ مُحَكَّم
ومنْ يَتَبَيَّنْ أنّ للصفح موضِعاً ... من السيف يَصْفَحْ عن كثير ويحلُمِ
وما الرأيُ إلا بعد طول تثبُّتٍ ... ولا الحزمُ إلا بعد طول تَلَوُّمِ

وقوله عليه السلام: «بطيء القيام، سريع إذا قام» فيه شَبَهٌ من قول الشَّنْفَرَى:

مسبل في الحيّ أحوَى رِفَلٌّ(2) ... وإذا يغزو فسِمْعٌ أزَلُّ

ومن أمثالهم في مدح الأناة وذمّ العجلة: أخطأ مستعجلٌ أو كاد، وأصاب متثبّت أو كاد.

ومنها:

وَقَدْ يَكُونُ مَعَ المُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ

(1) سورة النمل، الآية: ٨٨.

(2) الثوب الرِّفَلُّ: الواسع، والمعيشة الرفلة: الواسعة. اللسان. مادة (رفل).

ومنها: ربّ عجلة تهب رَيْثاً:

وقال البحتريّ:

حَليمٌ إذا القومُ استخفَّتْ حُلومُهُمْ وَقُورٌ إذا ما حادثُ الدهر أجْلَبا

قال الأحنف لرجل سَبّه فأفرط: يا هذا، إنّك منذ اليوم تحدو بجمل ثقال.

وقال الشّاعر:

أحلامُنا تزِنُ الجبال رَجَاحَةً وتخالنا جِنًّا إذا ما نَجْهَلُ

مدح المقلّ من الكلام وذم المكثر

فأمّا قوله عليه السلام: «مكيثُ الكلام»، فإنَّ قلة الكلام من صِفات المدح وكثرته من صفات الذمّ. قالت جارية ابن السّمّاك له: ما أحسنَ كلامَك لولا أنك تكثر ترداده! فقال: أردِّدُه حتى يفهمه من لم يفهمه، قالت: فإلى أن يفهمه مَنْ لم يفهمه قد مَلّه مَنْ فهمه.

بعث عبدُ العزيز بن مروان بن الحكم إلى ابنِ أخيه الوليد بن عبد الملك قطيفةً حمراء، وكتب إليه: أما بعدُ، فقد بعثتُ إليك بقطيفة حمراء، حمراء، حمراء، فكتب إليه الوليد: أما بعد، فقد وصلت القطيفة، وأنت يا عمّ أحمق، أحمق، أحمق.

وقال المعتضِد لأحمد بن الطيب السرخسيّ: طول لسانك دليلٌ على قِصَر عَقْلك.

قيل للعتّابيّ: ما البلاغة؟ قال: كلّ مَنْ أفهمَك حاجتَه من غير إعادة ولا خلْسة ولا استعانة فهو بليغ. قيل له: ما الاستعانة؟ قال: ألا ترى الرجل إذا حدّث قال: يا هناه، واستمِعْ إليّ، وافهم، وألست تفْهم؟.. هذا كلّه عيّ وفساد.

دخل على المأمون جماعة من بني العبّاس، فاستنطقهم فوجدهم لُكْناً[1]، مع يسارٍ وهيئة، ومَنْ تكلّم منهم أكثر وَهذر، فكانت حاله أفحش من حال الساكتين، فقال: ما أبين الخَلّة في هؤلاء! لا خَلّة الأيدي بل خَلة الألسنة والأحلام.

وسئل عليّ عليه السلام عن اللّسان فقال: معيارٌ أطاشه الجهل، وأرجحه العقل[2].

سمع خالد بن صفوان مكثاراً يتكلّم، فقال له: يا هذا، ليست البلاغة بخفّة اللّسان، ولا بكثرة الهذَيان، ولكنّها إصابة المعنى والقصد إلى الحجّة.

قال أبو سفيان بن حرب لعبد الله بن الزِّبَعرَى: ما لك لا تُسْهِب في شعرك؟ قال: حسبك من الشعر غرّة لائحة، أو وصمة فاضحة.

---

(١) اللُّكْنَةُ: عجمة في اللّسان وعيّ. لسان العرب، مادة (لكن).

(٢) أخرجه ابن شعبة الحراني في تحف العقول: ٢٠٧.

وفي خطبة كتاب «البيان والتبيين»، لشيخنا أبي عثمان: «ونَعوذ بك من شرّ السّلاطة والهذَر، كما نعوذ بك من العِيّ والحصر»، قال أُحَيحة بن الجُلاَح:

والصمتُ أجملُ بالفتى ما لم يكن عِيٌّ يَشِينُهْ
والقول ذو خَطَلٍ إذا مَا لَمْ يَكُنْ لُبٌّ يعينُهُ

وقال الشاعر يرثي رجلاً:

لَقَدْ وارى المقابرُ من شُرَيْكٍ كثيرَ تَحَلُّمٍ وقليلَ عابِ
صموتاً في المجالس غير عيٍّ جَديراً حين ينطق بالصوابِ

وكان رسول الله ﷺ: يكره التشادقَ والإطالةَ والهذَرَ، وقال: «إياكَ والتشادُقَ» وقال: «أبغضُكم إليّ الثرثارون المتفيهقون».

وروى عمرو بن عبيد رحمه الله تعالى، عن النبي ﷺ: «إنّا معاشر الأنبياء بكاءون قليلُو الكلام»[1]، رجل بَكِيٍ على «فعيل».

قال: وكانوا يكرهُون أن يزيد منطق الرجل على عَقْله.

وقيل للخليل، وقد اجتمع بابن المقفّع: كيف رأيتَه؟ فقال: لسانه أرجحُ من عقله، وقيل لابن المقفَّع: كيف رأيت الخليل؟ قال: عقله أرجحُ من لسانه. فكان عاقبتهما أن عاش الخليل مصوناً مكرَّماً، وقتِل ابن المقفع تلك القِتلة.

وسأل حفص بن سالم عمرو بن عُبيد عن البلاغة، فقال: ما بلّغك الجنّة، وباعدك عن النار، وبصّرك مواقع رشدك، وعواقب غَيّك. قال: ليس عن هذا أسأل، فقال: كانوا يخافون من فتنة القول، ومن سَقَطات الكلام، ولا يخافون من فتنة السكوت وسقطات الصمت.

قال أبو عثمان الجاحظ: وكان عمرو بن عُبيد رحمه الله تعالى: لا يكاد يتكلّم، فإن تكلّم لم يكد يطيلُ، وكان يقول: لا خير في المتكلم إذا كان كلامه لمن شهده دون نفسه، وإذا أطال المتكلّم الكلام عرضت له أسبابُ التكلّف، ولا خير في شيء يأتيك بالتكلّف.

وقال بعض الشعراء:

وإذا خطبتَ على الرِّجال فلا تَكُنْ خَطِلَ الكلام تقولُه مختالا
واعلمْ بأنّ من السكوت إبانةً ومن التكلّف ما يكون خبالا

وكان يقال: لسان العاقل من وراء قلبه، فإذا أراد الكلام تفكّر، فإن كان له قال، وإن كان عليه سكت، وقلبُ الجاهل من وراء لسانه، فإن همّ بالكلام تكلّم به.

وقال سعد بن أبي وقّاص لعمرو ابنه حين نطق مع القوم فبذّهم، وقد كان غضب عليه،

(١) أخرجه ابن الأثير في النهاية: ١/ ٢٣٣.

فكلّموه في الرضا عنه: هذا الذي أغضبني عليه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون قوم يأكلون الدنيا بألسنتهم كما تلحسُ الأرضَ البقرُ بألسنتها»[1].

وقال معاوية لعمرو بن العاص في أبي موسى: قد ضُمّ إليك رجلٌ طويل اللسان قصير الرأي فأجِد الحزّ، وطبّق المفصل، ولا تلقَه برأيك كلّه.

وكان يقال: لو كان الكلامُ من فضّة لكان السكوت من ذهب. وكان يقال: مقتل الرجل بين فكّيه، وقيل: بين لحييه. وكان يقال: ما شيء بأحقّ بسجنٍ من لسان. وقالوا: اللسان سبع عَقُور. وأخذ أبو بكر بطرف لسانه، وقال: هذا الذي أوردني الموارد.

لما أنكح ضرار بن عمرو ابنته من معبد بن زرارة، أوصاها حين أخرجها إليه فقال: أمسِكي عليك ٱلْفَضْلَيْن، قالت: وما هما؟ قال: فضل الغُلْمة، وفضل الكلام.

وسئل أعرابيّ كان يجالس الشعبيّ عن طول صمته، فقال: أسمع فأعلم، وأسكت فأسلم.

وقال النبي ﷺ: «وهل يُكبّ الناسَ في النار على مناخِرهم إلاّ حصائدُ ألسنتهم!»[2].

تكلّم رجل في مجلس النّبي ﷺ فخطِل في كلامه، فقال عليه السلام: «ماأعطِيَ العبد شرًا من ذلاقة لسان».

قال عمر بن عبد العزيز يوم بويع بالخلافة لخالد بن عبد الله القَسْريّ، وقد أنشده متمثلاً:

وإذا الـدّرّ زانَ حُـسْـنَ نُـحـورٍ ... كـان لـلـدرّ حـسـن نـحـرك زَيْـنـا

إن صاحبكم أعطِيَ مَقُولاً، وحُرِم معقولاً.

وقيل لإياس بن عمر: ادعُ لنا، فقال: اللّهم ارحمنا وعافنا وارزقنا، فقالوا: زدنا يا أبا الرحمن، فقال: أعوذ بالله من الإسهاب.

وكان القُباع - وهو الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزوميّ - مِسْهاباً، سريع الحديث كثيره، فقال فيه أبو الأسود الدؤليّ:

أميرَ المؤمنين جُزِيتَ خَيْراً ... أرِحْنَا من قُبَاع بني المغيرة

بلوناهُ ولمناه فأعْيَا ... علينا ما يمرّ لنا مريرَة

على أن الفتى نِكحٌ أكولٌ ... ومسهابٌ، مذاهبُه كثيرة

وقال أبو العتاهية:

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (٢٨٠)، والدارقطني في «العلل» (٦٢١).

(٢) أخرجه الترمذي في الإيمان، باب: ما جاء في حرمة الصلاة (٢٦١٦)، وابن ماجه في الفتن، باب: كف اللسان في الفتنة (٣٩٧٣)، وأحمد في «مسنده» (٢١٥١١).

كلّ امرئٍ في نفسه أعلى وأشرفُ من قرينهْ
والصَّمتُ أجملُ بالفَتَى مِنْ منطقٍ في غير حينهْ

وقال الشاعر:

وإيّاك إيّاك المراء فإنّه إلى الشرّ دَعّاءٌ وللشرّ جالب

وكان يقال: العجلة قَيْد الكلام.

أطال خطيب بين يدي الإسكندر فزبَره[1]، قال: ليس حُسْن الخطبة على حَسَب طاقة الخاطب، ولكن على حسب طاقة السامع.

محمد الباقر عليه السلام: إني لأكره أن يكون مقدارُ لسان الرجل فاضلاً على مقدار علمه، كما أكره أن يكونَ مقدارُ علمه فاضلاً على مقدار عقله[2].

أطال ربيعة الرأي الكلام، وعنده أعرابيّ، فلما فرغ من كلامه، قال للأعرابيّ: ما تعدُّون العيّ والفهاهة فيكم؟ قال: ما كنتَ فيه أصلحك الله منذ اليوم!

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام: إذا تمّ العقلُ نقص الكلام[3].

واصل بن عطاء: لأن يقولَ الله لي يوم القيامة: هَلاّ قلت! أحبُّ إليّ، من أن يقول لي: لِمَ قلت؟ لإني إذا قلتُ طالبني بالبرهان، وإذا سكتّ لم يطالبني بشيء.

نزل النعمان بن المنذر برابية، فقال له رجل من أصحابه: أبيت اللعن! لو ذُبح رجلٌ على رأس هذه الرابية، إلى أينَ كان يبلغ دمُه؟ فقال النعمان: المذبوح والله أنت، ولأنظرنّ إلى أين يبلغ دمُك! فذبحه. فقال رجل: ربّ كلمة تقول: دَعْني.

أعرابيّ: رب منطقٍ صَدَع جَمْعاً، وربّ سكوت شَعَب صدْعاً.

قالت امرأة لبعلها: ما لكَ إذا خرجت تطلَّقت وتحدّثتَ، وإذا دخلت قعدت وسكتَّ؟ قال: لأنّي أدِقّ عن جليلك، وتجلّين عن دقيقي.

النّخَعيّ: كانوا يتعلمون السكوت كما يتعلّمون الكلام.

عليّ بن هشام:

لعمرك إن الحلم زَيْنٌ لأهله وما الحلم إلا عادةٌ وتحلُّمُ
إذا لم يكن صمتُ الفتى من بَلادةٍ وعيٍّ، فإنَّ الصمت أهدى وأسلمُ

---

(١) زبَرَه: نَهَرَه. القاموس المحيط، مادة (زبر).

(٢) أخرجه الشيخ المحمودي في نهج السعادة: ٧/ ٣٧٥.

(٣) أخرجه الشيخ المحمودي في نهج السعادة: ٧/ ٣٨٣.

وهيب بن الورْد: إنّ الحكمة عشرة أجزاء، تسعة منها في الصمت، والعاشرة العزلة عن الناس.

مكث الربيع بنُ خثيم عشرين سنة لا يتكلّم إلى أن قُتل الحسين عليه السلام، فسُمعتْ منه كلمة واحدة، قال لما بلغه ذلك: أوَقد فعلوها! ثم قال: «اللّهمّ فاطرَ السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون». ثم عاد إلى السكوت حتى مات[1].

الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب:

زعمَ ابنُ سلْمَى أنّ حلمي ضَرّني ... ما ضَرَّ قَبْلي أهلَهُ الحِلْمُ

إنّا أناسٌ من سجيّتهمْ ... صِدْقُ الحديث ورأيهم حَتْمُ

لبِسُوا الحياء فإن نظرت حسبتهمْ ... سقموا ولم يَمْسَسْهُمُ سُقْمُ

إني وجدتُ العُذْم أكبرُهُ ... عُذْمُ العقول وذلك العُذْمُ

والمرء أكثرُ عيبه ضَرَراً ... خَطَلُ اللّسانِ وصَمْتُه حُكْمُ

جاء في الحديث المرفوع عن النبيِّ صلى الله عليه وآله: «إذا رأيتم المؤمنَ صموتاً فادنوا منه، فإنه يُلَقَّى الحكمة»[2].

سفيان بن عيينة: من حُرِم العلم فليصمت، فإن حُرِمَهما فالموت خير له.

وكان يقال: إذا طلبتَ صلاح قلبك فاستعن عليه بحفظ لسانك.

واعلم أن هذه الخطبة خطبَ بها أمير المؤمنين عليه السلام في الجمعة الثالثة من خلافته، وكَنى فيها عن حال نفسه، وأعلمهم فيها أنهم سيفارقونه ويفقدونه بعد اجتماعهم عليه، وطاعتهم له، وهكذا وقع الأمر، فإنه نقِل أنّ أهل العراق لم يكونوا أشدَّ اجتماعاً عليه من الشهر الِذي قُتِل فيه عليه السلام.

وجاء في الأخبار أنه عَقَد للحسن ابنه عليه السلام على عَشَرةِ آلاف، ولأبي أيوب الأنصاريّ على عشرة آلاف، ولفلان وفلان، حتى اجتمع له مائة ألف سَيْف، وأخرج مقدّمته أمامه يريد الشام فضربه اللعينُ ابن ملجم، وكان من أمره ما كان، وانفضّت تلك الجموع، وكانت كالغنم فقد راعيها.

ومعنى قوله: «ألنتم له رقابَكم» أطعتموه، ومعنى «أشرتم إليه بأصابعكم» أعظمتموه

---

(١) أخرجه الشيخ محمد مهدي الحائري في شجرة طوبى: ٢/ ٣٩٧.

(٢) أخرجه ابن ماجه في «سننه»، كتاب: الزهد، باب: الزهد في الدنيا (٤١٠١) بلفظ: «إذا رأيتم الرجل قد أعطي زهداً في الدنيا وقلة منطق فاقتربوا منه، فإنه يلقى الحكمة».

وأجللتموه، كالملك الذي يشار إليه بالإصبع، ولا يخاطب باللسان. ثم أخبرهم أنهم يلبثون بعده ما شاء الله، ولم يحدد ذلك بوقت معين، ثم يطلع الله لهم مَنْ يجمعهم ويضمهم، يعني من أهل البيت عليهم السلام، وهذا إشارة إلى المهدي الذي يظهر في آخر الوقت. وعند أصحابنا أنه غير موجود الآن وسيوجد، وعند الإمامية أنه موجود الآن.

قوله عليه السلام: «فلا تطمعوا في غيرِ مقبل، ولا تيأسوا من مدبر»، ظاهر هذا الكلام متناقض، وتأويله أنّه نهاهم عن أن يطمعوا في صلاح أمورهم على يد رئيس غير مستأنف الرياسة، وهو معنى مقبل، أي قادم، تقول: سوف أفعل كذا في الشهر المقبل، وفي السنة المقبلة، أي القادمة، يقول: كلّ الرياسات التي تشاهدونها فلا تطمعوا في صلاح أموركم بشيء منها، وإنما تنصلح أموركم على يد رئيس يقدم عليكم، مستأنف الرياسة خامل الذكر، ليس أبوه بخليفة، ولا كان هو ولا أبوه مشهورين بينكم برياسة، بل يتبَع ويعلو أمرُه، ولم يكن قبل معروفاً هو ولا أهله الأدنوْن، وهذه صفة المهديّ الموعود به.

ومعنى قوله: «ولا تيأسوا من مدبر»، أي وإذا مات هذا المهديّ وخلفه بنوه بعده، فاضطرب أمر أحدهم فلا تيأسوا وتتشككوا وتقولوا: لعلنا أخطأنا في اتباع هؤلاء، فإنّ المضطرب الأمر منّا ستثبتُ دعائمه وتنتظمُ أموره، وإذا زلّت إحدى رجليه ثبتت الأخرى فثبتت الأولى أيضاً. ويروى: «فلا تطعنوا في عين مقبل»، أي لا تحارِبوا أحداً منا ولا تيأسوا من إقبال مَنْ يدبر أمره منا. ثم ذكر عليه السلام أنّهم كنجوم السماء، كلّما خوى نجم طلع نجم. خوى: مال للمغيب.

ثم وعدهم بقرب الفرج، فقال: إنّ تكامل صنائع الله عندكم، ورؤية ما تأملونه أمر قد قَرُب وقته، وكأنكم به وقد حضر وكان، وهذا على نمط المواعيد الإلْهية بقيام الساعة، فإنّ الكتب المنزلة كلّها صرحت بقربها، وإن كانت بعيدة عندنا، لأنّ البعيد في معلوم الله قريب، وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾[1].

---

١٠٠ - ومن خطبة له عليه السلام
وهي من الخُطب التي تشتمل على ذكر الملاحم

الأصل: اَلْحَمْدُ للهِ اَلْأَوَّلِ قَبْلَ كُلِّ أَوَّلٍ، وَاَلْآخِرِ بَعْدَ كُلِّ آخِرٍ، وَبِأَوَّلِيَّتِهِ وَجَبَ أَنْ لاَ أَوَّلَ لَهُ، وَبِآخِرِيَّتِهِ وَجَبَ أَنْ لاَ آخِرَ لَهُ.

---

(١) سورة المعارج، الآيتان: ٦، ٧.

الشرح: يقول: الباريء تعالى موجود قبل كلّ شيء، يشير العقل إليه ويفرضه أول الموجودات، وكذلك هو موجود بعد كلّ شيء، يشير العقل إليه ويفرضه آخر ما يبقى من جميع الموجودات، فإن الباريء سبحانه بالاعتبار الأول يكون أولاً قبل كلّ ما يفرض أولاً، وبالاعتبار الثاني يكون آخراً بعد كلّ ما يفرض آخراً.

فأمّا قوله: «بأوَّلِيَّتِهِ وجب أن لا أولَ له...»، إلى آخر الكلام، فيمكن أن يفسّر على وجهين:

أحدُهما: أنّه تعالى لما فرضناه أولاً مطلقاً، تبع هذا الفرض أن يكون قديماً أزليًا، وهو المعنيُّ بقوله: «وجب أن لا أوّل» وإنما تبعه ذلك، لأنّه لو لم يكن أزلياً لكان محدَثاً فكان له محدِث، والمحدِث متقدّم على المحدَث، لكنا فرضناه أولاً مطلقاً، أي لا يتقدّم عليه شيء، فيلزم المحال والخلف. وهكذا القول في آخريّته، لأنا إذا فرضناه آخراً مطلقاً، تبع هذا الفرض أن يكون مستحيل العدم، وهو المعنيّ بقوله: «وجب أن لا آخر له» وإنما تبعه ذلك، لأنه لو لم يستحل عدمه لصح عدمه، لكن كلّ صحيح وممكن فليفرض وقوعه، لأنه لا يلزم من فرض وقوعه محال، مع فرضنا إياه صحيحاً وممكناً، لكن فرضُ تحقّق عدمه محال، لأنه لو عدم لما عدم بعد استمرار الوجوديّة إلا بضدّ، لكن الضد المعدم يبقى بعد تحقق عدم الضدّ المعدوم لاستحالة أن يعدمه، ويعدم معه في وقت واحد، لأنه لو كان وقت عدم الطاريء هو وقت عدم الضدّ المطروء عليه، لامتنع عدم الضدّ المطروء عليه، لأن حال عدمه الذي هو الأثر المتجدّد تكون العلّة الموجبة للأثر معدومة، والمعدوم يستحيل أن يكون مؤثّراً البتّة، فثبت أنّ الضدّ الطاريء لا بدّ أن يبقى بعد عدم المطروء عليه ولو وقتاً واحداً، لكن بقاءه بعده ولو وقتاً واحداً يناقض فرضنا كون المطروء عليه آخراً مطلقاً، لأن الضد الطاريء قد بقيَ بعده، فيلزم من الخلف والمحال ما لزم في المسألة الأولى.

والتفسير الثاني: ألا تكون الضمائر الأربعة راجعة إلى الباريء سبحانه، بل يكون منها ضميران راجعين إلى غيره، ويكون تقدير الكلام بأوليّة الأول الذي فرضنا كون الباريء سابقاً عليه، علمنا أن الباريء لا أول له، وبآخرية الآخر الذي فرضنا أنّ الباريء متأخر عنه، علمنا أنّ الباريء لا آخر له، وإنّما علمنا ذلك لأنه لو كان سبحانه أولاً لأول الموجودات وله مع ذلك أول لزم التسلسل، وإثبات محدِثين ومحدَثين إلى غير نهاية، وهذا محال.

ولو كان سبحانه آخراً لآخر الموجودات وله مع ذلك آخر لزم التسلسل، وإثبات أضداد تعدم ويعدمها غيرها إلى غير نهاية، وهذا أيضاً محال.

الأصل: وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ ٱللهُ شَهَادَةً يُوَافِقُ فِيهَا السِّرُّ ٱلإِعْلاَنَ، وَٱلْقَلْبُ اللِّسَانَ. أَيُّهَا النَّاسُ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي، وَلاَ يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ عِصْيَانِي، وَلاَ تَتَرَامَوْا بِالْأَبْصَارِ عِنْدَ مَا تَسْمَعُونَهُ مِنِّي، فَوَالَّذِي فَلَقَ ٱلْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، إِنَّ الَّذِي أُنَبِّئُكُمْ بِهِ عَنِ النَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ صلى الله عَلَيْهِ، وَآلهِ مَا كَذَبَ المُبَلِّغُ، وَلاَ جَهِلَ السَّامِعُ.

لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى ضِلِّيلٍ قَدْ نَعَقَ بِالشَّامِ، وَفَحَصَ بِرَايَاتِهِ فِي ضَوَاحِي كُوفَانَ، فَإِذَا فَغَرَتْ فَاغِرَتُهُ، وَٱشْتَدَّتْ شَكِيمَتُهُ، وَثَقُلَتْ فِي ٱلْأَرْضِ وَطْأَتُهُ، عَضَّتِ ٱلْفِتْنَةُ أَبْنَاءَهَا بِأَنْيَابِهَا، وَمَاجَتِ ٱلْحَرْبُ بِأَمْوَاجِهَا، وَبَدَا مِنَ ٱلْأَيَّامِ كُلُوحُهَا، وَمِنَ اللَّيَالِي كُدُوحُهَا، فَإِذَا أَيْنَعَ زَرْعُهُ، وَقَامَ عَلَى يَنْعِهِ، وَهَدَرَتْ شَقَاشِقُهُ، وَبَرَقَتْ بَوَارِقُهُ، عُقِدَتْ رَايَاتُ ٱلْفِتَنِ المُعْضِلَةِ، وَأَقْبَلْنَ كَاللَّيْلِ المُظْلِمِ، وَٱلْبَحْرِ المُلْتَطِمِ.

هٰذَا وَكَمْ يَخْرِقُ ٱلْكُوفَةَ مِنْ قَاصِفٍ، وَيَمُرُّ عَلَيْهَا مِنْ عَاصِفٍ! وَعَنْ قَلِيلٍ تَلْتَفُّ ٱلْقُرُونُ بِالْقُرُونِ، وَيُحْصَدُ ٱلْقَائِمُ، وَيُحْطَمُ المَحْصُودُ!

الشرح: في الكلام محذوف، وتقديره: «لا يجرمنكم شقاقي على أن تكذبوني»، والمفعول فضلة وحذفه كثير، نحو قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾[1]، فحذف العائد إلى الموصول، ومنها قوله سبحانه: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾[2]، أي مَنْ رحمه، ولا بد من تقدير العائد إلى الموصول، وقد قرىء قوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾[3]، مَا عَمِلَتْ أَيْدِيهِمْ، بحذف المفعول.

لا يجرمنّكم: لا يحملنّكم، وقيل: لا يكسبنّكم. وهو من الألفاظ القرآنية. ولا يستهوينكم، أي لا يستهيمنكم يجعلكم هائمين.

ولا تترامَوْا بالأبصار، أي لا يلحَظ بعضكم بعضاً، فعلَ المنكِر المكذّب.

ثم أقسم بالذي فَلَق الحبّة، وبرأ النسمة، فَلَق الحبّة من البُرّ، أي شقّها وأخرج منها الوَرق الأخضر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾[4].

وبرأ النّسمة، أي خلق الإنسان، وهذا القَسَم لا يزال أمير المؤمنين يُقسم به، وهو من مبتكراته ومبتدعاته.

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢٦.
(٢) سورة هود، الآية: ٤٣.
(٣) سورة يٓس، الآية: ٣٥.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٩٥.

والمبلّغ والسامع هو نفسه ﷺ، يقول: ما كذبتُ على الرسول تعمّداً، ولا جهلت ما قاله فأنقل عنه غلطاً.

والضِّلّيل: الكثير الضلال، كالشِّرّيب والفِسّيق ونحوهما.

وهذا كناية عن عبد الملك بن مروان، لأنّ هذه الصفات والأمارات فيه أتمّ منها في غيره، لأنه قام بالشام حين دَعَا إلى نفسه، وهو معنى نعيقه، وفَحَصت راياته بالكوفة، تارة حين شخص بنفسه إلى العراق، وقَتل مُصعباً، وتارةً لمّا استخلَف الأمراء على الكوفة كبشْر بن مروان أخيه وغيره، حتى انتهى الأمر إلى الحجّاج، وهو زمان اشتداد شكيمة عبد الملك وثِقَل وطأته، وحينئذ صَعُب الأمر جِدًّا، وتفاقمت الفتَن مع الخوارج وعبد الرحمن بن الأشعث، فلمّا كَمَلَ أمرُ عبد الملك - وهو معنى «أينع زرعه» هلك، وعقدت رايات الفتن المعضلة من بعده، كحروب أولاده مع بني المهلَّب، وكحروبهم مع زيد بن عليّ ﷺ، وكالفتن الكائِنة بالكوفة أيام يوسف بن عمر وخالد القسريّ وعمر بن هُبيرة وغيرهم، وما جرى فيها من الظلم واستئصال الأموال، وذهاب النفوس.

وقد قيل: إنه كَنَى عن معاوية وما حدَث في أيامه من الفتن، وما حدث بعده من فتنة يزيد وعبيد الله بن زياد، وواقعة الحسين ﷺ، والأوّل أرجح، لأنّ معاوية في أيام أمير المؤمنين ﷺ كان قد نَعَق بالشام، ودعاهم إلى نفسه، والكلام يدلّ على إنسان ينعق فيما بعد، ألا تراه يقولُ: لكأنّي أنظر إلى ضلّيل قد نَعَق بالشام!

ثم نعود إلى تفسير الألفاظ والغريب.

النعيق: صوت الراعِي بغنمه. وفَحَص براياته. من قولهم: ما له مفحَص قطاة، أي مجثمها، كأنهم جعلوا ضواحيَ الكوفة مفحَصاً ومجثماً لراياتهم.

وكوفان: اسم الكوفة، والكوفة في الأصل اسم الرملة الحمراء، وبها سميت الكوفة. وضواحيها: نواحيها القريبة منها البارزة عنها، يريد رُسْتاقها.

وفغرت فاغرته: فتح فاه، وهذا من باب الاستعارة، أي إذا فتك فتح فاه وقتل، كما يفتح الأسد فاه عند الافتراس والتأنيف للفتنة.

والشكيمة في الأصل: حديدة معترضة في اللجام في فم الدابّة، ثم قالوا: فلان شديدُ الشّكيمة، إذا كان شديدَ المراس شديد النفس عَسِر الانقياد.

وثقلت وطأته: عظم جَوْره وظلمه. وكلوح الأيام: عبوسها، والكدوح: الآثار من الجراحات.

والقروح، الواحد الكَدْح، أي الخدش.

والمراد من قوله: «من الأيام»، ثم قال: «ومن الليالي» أنّ هذه الفتنة مستمرة الزمان كلّه، لأن الزمان ليس إلا النهار والليل.

وأينع الزرع: أدرك ونضج، وهو اليَنْع واليُنْع، بالفتح والضم، مثل النَّضج والنُّضج، ويجوز ينع الزرع بغير همز، ينَع ينوعاً، ولم تسقط الياء في المضارع لأنها تقوّت بأختها، وزرع ينيع ويانع، مثل نضيج وناضج. وقد روي أيضاً هذا الموضع بحذف الهمز.

وقوله عليه السلام: «وقام على ينعه» الأحسن أن يكون «ينع» ها هنا جمع يانع كصاحب وصَحْب، ذكر ذلك ابن كَيْسان، ويجوز أن يكون أراد المصدر، أي وقام على صفةٍ وحالةٍ هي نضجه وإدراكه.

وهدرت شقاشِقه، قد مرّ تفسيره في الشِّقْشقيّة وبرقت بوارقه: سيوفه ورماحه. والمعضلة: العسرة العلاج داء معضل.

ويخرق الكوفة: يقطعها. والقاصف: الريح القوية تكسِر كلّ ما تمرُّ عليه وتقصفه. ثم وعد عليه السلام بظهور دولة أخرى، فقال: «وعن قليل تلتفّ القرون بالقرون»، وهذا كناية عن الدولة العباسية التي ظهرت على دولة بني أمية. والقُرون: الأجيال من الناس، واحدها قَرْنٌ، بالفتح.

وَيُحْصَدُ القائم، ويُحْطَم المحصود: كناية عن قتل الأمراء من بني أمية في الحرب، ثم قتل المأسورين منهم صَبْراً، فحصْد القائم قتل المحاربة، وحَطْم الحصِيد: القتل صبراً، وهكذا وقعت الحال مع عبد الله بن عليّ، وأبي العباس السفاح.

---

١٠١ - ومن خطبة له عليه السلام تجري هذا المجرى

الأصل: وَذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ ٱللهُ فِيهِ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ لِنِقَاشِ ٱلْحِسَابِ وَجَزَاءِ ٱلْأَعْمَالِ، خُضُوعاً قِيَاماً قَدْ أَلْجَمَهُمُ ٱلْعَرَقُ، وَرَجَفَتْ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ، فَأَحْسَنُهُمْ حَالاً مَنْ وَجَدَ لِقَدَمَيْهِ مَوْضِعاً، وَلِنَفْسِهِ مُتَّسَعاً.

الشرح: هذا شرح حال يوم القيامة، والنّقاش: مصدر ناقش، أي استقصى في الحساب، وفي الحديث: «من نوقش الحساب عذّب»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في العلم، باب: من سمع شيئاً فلم يفهمه فراجع فيه حتى يعرفه (١٠٣)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها، باب: إثبات الحساب (٢٨٧٦)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٢٦)، وأبو داود في الجنائز باب: عيادة النساء (٣٠٩٣)، وأحمد في «مسنده» (٢٣٦٨٠).

وألجمهم العَرق: سال منهم حتى بلغ إلى موضع اللِّجام من الدابة، وهو الفم. ورجفت بهم: تحرّكت واضطربت، رجف يرجُفُ بالضم، والرّجفة: الزلزلة والرجّاف من أسماء البحر، سمّي بذلك لاضطرابه.

ثم وصف الزحام الشديد الذي يكون هناك، فقال: أحسنُ الناس حالاً هناك مَنْ وَجَد لقدميْه موضعاً، ومَنْ وجد مكاناً يسعه.

الأصل: ومنها: فِتَنٌ كَقِطَعِ ٱللَّيْلِ ٱلْمُظْلِمِ، لاَ تَقُومُ لَهَا قَائِمَةٌ، وَلاَ تُرَدُّ لَهَا رَايَةٌ، تَأْتِيكُمْ مَزْمُومَةً مَرْحُولَةً يَحْفِزُهَا قَائِدُهَا، وَيَجْهَدُهَا رَاكِبُهَا، أَهْلُهَا قَوْمٌ شَدِيدٌ كَلَبُهُمْ، قَلِيلٌ سَلَبُهُمْ، يُجَاهِدُهُمْ فِي ٱللهِ قَوْمٌ أَذِلَّةٌ عِنْدَ ٱلْمُتَكَبِّرِينَ، فِي ٱلْأَرْضِ مَجْهُولُونَ، وَفِي ٱلسَّمَاءِ مَعْرُوفُونَ، فَوَيْلٌ لَكِ يَا بَصْرَةُ عِنْدَ ذٰلِكَ مِنْ جَيْشٍ مِنْ نِقَمِ ٱللهِ! لاَ رَهَجَ لَهُ وَلاَ حِسَّ، وَسَيُبْتَلَىٰ أَهْلُكِ بِالْمَوْتِ ٱلْأَحْمَرِ، وَٱلْجُوعِ ٱلْأَغْبَرِ!

الشرح: قطع الليل: جمع قِطع، وهو الظلمة، قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾[1].

قوله: «لا تقوم لها قائمة»، أي لا تنهض بحربها فئة ناهضة، أو لا تقوم لتلك الفتن قائمة من قوائم الخيل، يعني لا سبيل إلى قتال أهلها، ولا يقوم لها قلعة قائمة أو بنيَّة قائمة بل تنهدم.

قوله: «ولا يردّ لها راية»، أي لا تنهزم ولا تفرّ، لأنها إذا فرّت فقد رُدّتْ على أعقابها.

قوله: «مزمومة مرحولة»، أي تامّة الأدوات كاملة الآلات، كالناقة التي عليها رَحْلها وزمامها قد استعدّت لأن تُركب.

يحفزها: يدفعها. ويجهَدها: يحمل عليها في السَّيْر فوق طاقتها، جَهَدت دابَّتي، بالفتح، ويجوز: أجهدت، والمراد أنّ أربَاب تلك الفتن يجتهدون ويجدّون في إضرام نارِها، رُجَّلاً وفرساناً، فالرّجل كنّى عنهم بالقائد، والفرسان كنّى عنهم بالراكب.

والكَلَب: الشدّة من البرد وغيره، ومثله الكُلْبة، وقد كَلِب الشتاء، وكَلِب القحط، وكَلِب العدوّ، والكَلَب أيضاً: الشَّرّ، دفعت عنك كَلَبَ فلان، أي شرّه وأذاه.

وقوله: «قليل سَلَبُهم»، أي همُّهم القتل لا السلب، كما قال أبو تمام.

إنّ الأسودَ أسودَ الغاب هِمَّتُها ... يومَ الكريهة في المسلُوبِ لا السَّلَبِ

---

(١) سورة هود، الآية: ٨١.

ثم ذكر عليه السلام أنّ هؤلاء أرباب الفتن يجاهدهم قوم أذلة، كما قال الله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1]، وذلك من صفات المؤمنين.

ثم قال: هم مجهولون عند أهل الأرض لخمولهم قبل هذا الجهاد، ولكنهم معروفون عند أهل السماء، وهذا إنذار بملحَمةٍ تجري في آخر الزمان، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله بنحو ذلك، وقد فَسّر هذا الفصل قومٌ وقالوا إنه أشار به إلى الملائكة لأنّهم مجهولون في الأرض، معروفون في السماء، واعتذروا عن لفظة «قوم»، فقالوا: يجوز أن يقال في الملائكة قوم كما قيل في الجنّ قوم، قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾[2]، إلا أنّ لفظ «أذلةٍ عند المتكبّرين» يبعد هذا التفسير.

ثم أخبر بهلاك البصرة بجيش من نِقم الله لا رَهَج له ولاَ حسّ، الرَّهج: الغبار، وكنّى بهذا الجيش عن جَدْب وطاعون يصيب أهلَها حتى يبيدَهم. والموت الأحمر، كناية عن الوباء والجوع.

الأغبر: كناية عن المحْل، وسمّي الموت الأحمر لشدّته، ومنه الحديث: «كنا إذا احمرّ البأس اتقينا برسول الله»[3] ووصف الجوع بأنه أغبر، لأن الجائع يرى الآفاق كأنّ عليها غبرة وظلاماً، وفسر قوم هذا الكلام بوقعة صاحب الزَّنج، وهو بعيد، لأنّ جيشه كان ذا حسّ ورهَج، ولأنه أنذر البصرة بهذا الجيش عند حدوث تلك الفتن، ألا تراه قال: «فويل لكِ يابصرة عند ذلك»، ولم يكن قبل خروج صاحب الزَّنجِ فتَنٌ شديدة على الصفات التي ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام.

---

١٠٢ - ومن خطبة له عليه السلام في وصف الناس في بعض الأزمان

الأصل: **ٱنْظُرُوا إِلَى ٱلدُّنْيَا نَظَرَ ٱلزَّاهِدِينَ فِيهَا، ٱلصَّادِفِينَ عَنْهَا، فَإِنَّهَا وَٱللهِ عَمَّا قَلِيلٍ تُزِيلُ ٱلثَّاوِيَ ٱلسَّاكِنَ، وَتَفْجَعُ ٱلْمُتْرَفَ ٱلْآمِنَ، لاَ يَرْجِعُ مَا تَوَلَّى مِنْهَا فَأَدْبَرَ، وَلاَ يُدْرَىٰ مَا هُوَ آتٍ مِنْهَا فَيُنْتَظَرُ.**

سُرُورُهَا مَشُوبٌ بِالْحُزْنِ، وَجَلَدُ ٱلرِّجَالِ فِيهَا إِلَى ٱلضَّعْفِ وَٱلْوَهَنِ، فَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ كَثْرَةُ مَا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكُمْ مِنْهَا.

رَحِمَ ٱللهُ ٱمْرَءًا تَفَكَّرَ فَاعْتَبَرَ، وَٱعْتَبَرَ فَأَبْصَرَ، فَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ ٱلدُّنْيَا عَنْ قَلِيلٍ لَمْ

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٤.
(٢) سورة الأحقاف، الآية: ٢٩.
(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٣٤٩)، ونحوه الحاكم في «مستدركه» (٢٦٣٣)، وأبو يعلى في «مسنده» (٣٠٢).

يَكُنْ، وَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ ٱلْآخِرَةِ عَمَّا قَلِيلٍ لَمْ يَزَلْ، وَكُلُّ مَعْدُودٍ مُنْقَضٍ، وَكُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ، وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ دَانٍ.

الشرح: الصادفين عنها، أي المعرضين، وامرأة صدوف: التي تعرض وجهها عليك ثم تصدِف عنك. وعَمّا قليل: عن قليل، وما زائدة.

والثاوي: المقيم، ثوى يثوي ثواءً وثُويًا، مثل مضى يمضي مضاء ومُضيًا، ويجوز: ثويتُ بالبصرة وثويت البصرة، وجاء «أثويتُ بالمكان»، لغة في «ثويت، قال الأعشى:

أثـوَى وَقـصَّـر لـيـلـه لـيـزوَّدا　　　فـمَضَـتْ وأخلـف من قُتيلة مَوْعِدَا

والمترَف: الذي قد أترفتْه النعمة، أي أطغتْه، يقول عليه السلام: لا يعود على الناس ما أدبر وتولّى عنهم من أحوالهم الماضية، كالشباب والقوّة، ولا يُعلم حال المستقبل من صحّة أو مرض، أو حياة أو موت لينتظر، وينظر إلى هذا المعنى قول الشاعر:

وأضيَعَ العمرَ، لا الماضي انتفعتُ بِهِ　　　ولا حَصَلْتُ على علـمٍ من البـاقِي

ومشوب: مخلوط، شبْته أشوبه فهو مشوب، وجاء «مشيب» في قول الشاعر:

ومـاء قـدورٍ فـي الـقِـصـاع مـشـيـب

فبناه على «شِيب» لم يسمّ فاعله، وفي المثل: «هو يشوب ويروب»، يضرب لمن يخلط في القول أو العمل.

والجلَد: الصلابة والقوة. والوهَن: الضعف نفسه، وإنما عطف للتأكيد، كقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾[1]، وقوله: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[2].

ثم نهى عن الاغترار بكثرة العُجْب من الدنيا، وعلّل حسنَ هَذا النهي، وقبّح الاغترار بما نشاهده عياناً من قِلّة ما يصحب مفارقيها منها. وقال الشاعر:

فَـمَـا تَـزَوّد مـمّـا كـان يـجـمـعُـهُ　　　إلا حَـنُـوطاً غداة الـبـيـن فـي خِرَقِ

وغـيـر نـفـحـة أعـوادٍ شـبـبـن لـهُ　　　وقـلّ ذلـك مـن زادٍ لـمـنـطـلـقِ

ثم جعل التفكّر علة الاعتبار، وجعل الاعتبار علّة الإبصار، وهذا حقّ، لأنّ الفكر يوجب الاتعاظ، والاتعاظ يُوجب الكشف، والمشاهدة بالبصيرة التي نورها الاتّعاظ. ثم ذكر أنّ ما هو كائن وموجود من الدنيا سيصير عن قليل - أي بعد زمان قصير - معدوماً، والزمان القصير هاهنا: انقضاء الأجل وحضور الموت.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.　　(٢) سورة فاطر، الآية: ٣٥.

ثم قال: إنّ الذي هو كائن وموجود في الآخرة سيصير عن قليل - أي بعد زمان قصير أيضاً - كأنّه لم يزل، والزمان القصير ها هنا هو حضور القيامة، وهي وإن كانت تأتي بعد زمان طويل، إلاّ أنّ الميت لا يحسّ بطوله، ولا فرْقَ بين ألف ألف سنة عنده إذا عاد حيًّا، وبين يوم واحد، لأن الشعور بالبطء في الزمان مشروط بالعلم بالحركة، ويدلّ على ذلك حال النائم. ثم قال: كلّ معدود منقضٍ، وهذا تنبيه بطريق الاستدلال النظري على أن الدنيا زائلة ومنصرفة، وقد استدلّ المتكلّمون بهذا على أنّ حركات الفلك يستحيل ألاّ يكون لها أول، فقالوا لأنها داخلة تحت العدد، وكلّ معدود يستحيل أن يكون غير متّناهٍ، والكلام في هذا مذكور في كتبنا العقلية.

ثم ذكر أن كلّ ما يتوقع لا بد أن يأتِيَ، وكلّ ما سيأتي فهو قريب وكأنه قد أتى، وهذا مثل قول قُسّ بن ساعدة الإيادي: ما لِي أرى الناس يذهبون ثم لا يرجعون! أرَضُوا بالمقام فأقاموا، أم تُركوا هناك فناموا! أقْسَمَ قُسٌّ قسماً، إنّ في السماء لَخَبَراً، وإنّ في الأرض لَعِبراً، سقفٌ مرفوع، ومِهاد موضوع، ونجوم تمور، وبحار لا تغور. اسمعوا أيّها الناس وَعُوا! مَنْ عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت.

الأصل: ومنها: ٱلْعَالِمُ مَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ، وَكَفَىٰ بِالْمَرْءِ جَهْلاً أَلاَّ يَعْرِفَ قَدْرَهُ، وَإِنَّ مِنْ أَبْغَضِ ٱلرِّجَالِ إِلَى ٱللهِ تَعَالَى لَعَبْداً وَكَلَهُ ٱللهُ إِلَى نَفْسِهِ، جَائِراً عَنْ قَصْدِ ٱلسَّبِيلِ، سَائِراً بِغَيْرِ دَلِيلٍ، إِنْ دُعِيَ إِلَى حَرْثِ ٱلدُّنْيَا عَمِلَ، وَإِنْ دُعِيَ إِلَى حَرْثِ ٱلآخِرَةِ كَسِلَ، كَأَنَّ مَا عَمِلَ لَهُ وَاجِبٌ عَلَيْهِ، وَكَأَنَّ مَا وَنَىٰ فِيهِ سَاقِطٌ عَنْهُ.

الشرح: قوله عليه السلام: «العالم مَنْ عرف قدره»، من الأمثال المشهورة عنه عليه السلام، وقد قال الناس بعده في ذلك فأكثروا، نحو قولهم: إذا جهلت قدر نفسك فأنت لقدر غيرك أجهل. ونحو قولهم: مَنْ لم يعرف قَدْرَ نفسه، فالناس أعذَرُ منه إذا لم يعرفوه، ونحو قول الشاعر أبي الطيب:

وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُه قَدْرَهُ ... رَأى غيرُه مِنْهُ مَا لاَ يَرَى

ثم عَبّر عن هذا المعنى بعبارة أخرى، فصارت مثلاً أيضاً، وهي قوله: «كفى بالمرء جهلاً ألاّ يعرف قدره»[1]، ومن الكلام المرويّ عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام مرفوعاً: «ما هلك امرؤ عرف قدره»، رواه أبو العباس المبرد عنه في الكامل.

(١) أخرجه ابن منظور في لسان العرب: ١٥/ ٤٦٢، والعلامة المجلسي في البحار: ٧٢/ ٦٦.

قال: ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: وما إخالُ رجلاً يرفع نفسه فوق قدرها إلا من خلل في عقله.

وروى صاحب «الكامل» أيضاً عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: لما حضرت الوفاةُ عليّ بن الحسين عليه السلام أبي ضمّني إلى صدره، ثم قال: يا بنيّ أوصيك بما أوصاني به أبي يوم قُتِل، وبما ذكر لي أنّ أباه عليًا عليه السلام أوصاه به: يا بنيّ عليك ببَذْلِ نفسِك، فإنه لا يسرّ أباك بِذُلّ نفسه حمر النعم[1].

وكان يقال: مَنْ عرف قدرَه استراح[2].

وفي الحديث المرفوع: «ما رفع امرؤ نفسه في الدنيا درجة إلا حَطّهُ الله تعالى في الآخرة درجات»[3].

وكان يقال: مَنْ رضِيَ عن نفسه كَثُر الساخطون عليه. ثم ذكر عليه السلام أنّ مِنْ أبغض البَشَر إلى الله عبداً وكَلَه الله إلى نفسه، أي لم يمدّه بمعونته وألطافه، لعلمه أنه لا ينجع ذلك فيه، وأنه لا ينجذب إلى الخير والطاعة، ولا يؤثر شيء ما في تحريك دواعيه إليها، فيكِلُه الله حينئذ إلى نفسه.

والجائر: العادِل عن السَّمت، ولما كان هذا الشقيّ خابطاً فيما يعتقده ويذهب إليه مستنداً إلى الجهل وفساد النَّظر جعله كالسائر بغير دليل.

والحرث ها هنا: كلّ ما يفعل ليثمر فائدة، فحرثُ الدنيا كالتجارة والزراعة، وحرث الآخرة فعل الطاعات واجتناب المقبحات والمعاصي، وسمي حرثاً على جهة المجاز، تشبيهاً بحرْث الأرض، وهو من الألفاظ القرآنية.

وكَسِل الرجل بكسر السين، يكسَل، أي يتثاقل عن الأمور، فهو كسلان، وقوم كَسالى وكُسالى بالفتح والضم.

قال عليه السلام: حتى كأن ما عمله من أمور الدنيا هو الواجب عليه، لحرصه وجدّه فيه، وكأنّ ما وَنَى عنه - أي فتر فيه من أمور الآخرة - ساقط عنه، وغير واجب عليه لإهماله وتقصيره فيه.

الأصل: ومنها: وَذٰلِكَ زَمَانٌ لاَ يَنْجُو فِيهِ إِلاَّ كُلُّ مُؤْمِنٍ نُوَمَةٍ، إِنْ شَهِدَ لَمْ يُعْرَفْ، وَإِنْ غَابَ لَمْ يُفْتَقَدْ، أُولَئِكَ مَصَابِيحُ ٱلْهُدَىٰ وَأَعْلاَمُ ٱلسُّرَىٰ، لَيْسُوا بِالْمَسَايِيحِ وَلاَ ٱلْمَذَايِيعِ ٱلْبُذُرِ، أُوْلَئِكَ يَفْتَحُ ٱللهُ لَهُمْ أَبْوَابَ رَحْمَتِهِ، وَيَكْشِفُ عَنْهُمْ ضَرَّاءَ نِقْمَتِهِ.

---

(١) أخرجه علي الطبرسي في مشكاة الأنوار: ٤٣٠.
(٢) رواه الطبرسي في مشكاة الأنوار: ٥٨.
(٣) ذكره الميداني في «مجمع الأمثال» (٣٢٧١)، ولم أجده مرفوعاً.

أَيُّهَا ٱلنَّاسُ، سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ يُكْفَأُ فِيهِ ٱلْإِسْلَامُ كَمَا يُكْفَأُ ٱلْإِنَاءُ بِمَا فِيهِ.

أَيُّهَا ٱلنَّاسُ، إِنَّ ٱللهَ قَدْ أَعَاذَكُمْ مِنْ أَنْ يَجُورَ عَلَيْكُمْ، وَلَمْ يُعِذْكُمْ مِنْ أَنْ يَبْتَلِيَكُمْ، وَقَدْ قَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾[1].

قال الرضي رحمه الله تعالى: أمَّا قوله عليه السلام: «كُلُّ مُؤْمِنٍ نُوَمَةٍ» فإنما أرادَ به الخامِلَ الذِّكْرِ القليل الشرِّ، والمَسَايِيحُ: جمعُ مِسْيَاحٍ، وهو الذي يَسِيحُ بينَ الناسِ بِالْفِسادِ وَالنَّمائِمِ، والمَذَايِيعُ: جمعُ مِذْيَاعٍ، وهو الذي إذا سَمِعَ لغيرِهِ بِفاحِشَةٍ أذاعَها، وَنَوَّهَ بها. وَٱلْبُذُرُ: جمع بَذُورٍ، وهو الَّذِي يَكثرُ سَفَهُهُ وَيَلْغُو مَنْطِقُهُ.

الشرح: شهد: حضر، وكفأت الإناء أي قَلَبْتُهُ وكبيته. وقال ابن الأعرابيّ: يجوز أكفأته أيضاً، والبُذُر: جمع بَذُور مثل صَبُور وصُبُر، وهو الذي يذيع الأسرار، وليس كما قال الرضيّ رحمه الله تعالى، فقد يكون الإنسان بَذُوراً وإن لم يكثُر سفهه ولم يَلْغُ منطقه، بأن يكون عُلَنَةً مذياعاً من غير سفهٍ ولا لغوٍ. والضرّاء: الشدّة، ومثلها البأساء، وهما اسمان مؤنثان من غير تذكير، وأجاز الفرّاء أن يجمع على آضر وأبؤس، كما يُجمع النعماء على أَنْعم.

واعلم أنه قد جاء في التواضع وهَضْم النفس شيء كثير، ومن ذلك الحديث المرفوع: «مَنْ تواضع لله رفعه الله، ومن تكبّر على الله وضعه»[2].

ويقال: إنّ الله تعالى قال لموسى: إنما كلمتك لأن في أخلاقك خُلُقاً أحبّه الله، وهو التواضع.

ورأى محمد بن واسع ابنه يمشي الخُيَلاء، فناداه فقال: ويلَك! أتمشي هذه المِشْية، وأبوك أبوك، وأمك أمك! أما أمّك فأمَة، ابتعتُها بمائتي درهم، وأما أبوك فلا كثّر الله في الناس مثله.

ومثل قوله عليه السلام: «كل مؤمن نُوَمة إنْ شهد لم يعرَف وإن غاب لم يفتقد»، قولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رب أشعثَ أغبر ذي طِمْرين لا يُؤْبه له، لو أقسم على الله لأبرّ قسمه»[3].

وقال عمر لابنه عبد الله: التمس الرِّفعة بالتواضع والشرف بالدين، والعفو من الله بالعفو

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٣٠.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٧٢٤)، وأبو يعلى في «مسنده» (١١٠٩) والشهاب القضاعي في «مسنده» (٣٣٤).

(٣) أخرجه الترمذي في المناقب، باب البراء بن مالك (٣٨٥٤)، وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه والهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٦٥).

عن الناس، وإياك والخُيَلاء فتضَع من نفسك، ولا تحقرنّ أحداً فإنك لا تدرِي لعلّ مَنْ تزدريه عيناك أقربُ إلى الله وسيلةً منك.

وقال الأحنف: عجبت لمن جرى في مَجْرى البول مرتين، من فَرْجين، كيف يتكبّر!

وقد جاء في كلام رسول الله ﷺ ما يناسب كلام أمير المؤمنين عليه السلام هذا: «إن الله يحبُّ الأخفياء الأتقياء الأبرياء، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كلّ غبراء مظلمة»[١].

وأما إفشاء السرِّ وإذاعته، فقد ورد فيه أيضاً ما يكثر، ولو لم يرد فيه إلا قوله سبحانه: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ۝﴾[٢] لكفى.

وفي الحديث المرفوع: «مَنْ أكل بأخيه أكلة أطعمه الله مثلها من نار جهنم»[٣] قيل في تفسيره: هو أن يسعى بأخيه ويجرّ نفعاً بسعايته.

الجُنيد: سَتْر ما عاينتَ أحسنُ من إشاعة ما ظننت.

عبد الرحمن بن عوف: من سمع بفاحشة فأفشاها فهو كالذي أتاها.

قال رجل لعمرو بن عُبيد: إن عليًا الأسواري لم يزل منذ اليوم يذكُرك بسوء ويقول: الضالّ. فقال عمرو: يا هذا، ما رعيت حقّ مجالسة الرجل حين نقلتَ إلينا حديثه، ولا وفّيتني حقي حين أبلغتني عن أخي ما أكرهه! اعلم أنّ الموت يعمّنا، والبعث يحشرُنا، والقيامة تجمعنا، والله يحكم بيننا.

وكان يقال: مَنْ نَمَّ إليك نمَّ عليك.

وقالوا في السُّعاة: يكفيك أن الصدق محمود إلا منهم، وإنَّ أصْدَقَهُمْ أخبثُهُم.

وشى واشٍ برجل إلى الإسكندر، فقال له: أتحبّ أن أقبل منك ما قلتَ فيه، على أن أقبل منه ما قال فيك؟ قال: لا، قال: فكُفّ عن الشرّ يكفّ عنك.

قال رجل لفيلسوف: عابك فلان بكذا، قال: لقيتَني لِقِحتِك بما لم يلقني به لحيائه.

عاب مصعب بن الزبير الأحنف عن شيء بلغه عنه، فأنكره، فقال: أخْبَرَني بذلك الثقة، فقال: كلاّ أيها الأمير، إن الثقة لا يَنِمّ.

عرض بعضُ عمال الفضل بن سهل عليه رقعة ساع في طيّ كتاب كتبه إليه، فوقّع الفضل:

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبر: ٢٠/ ١٥٤. وأخرجه ابن ماجه في سننه رقم: ٣٩٨٩.
(٢) سورة القلم، الآيتان: ١٠، ١١.
(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧٣٤) وذكره الإمام المزي في «تهذيب الكمال» (٣٠/ ٤٥٩).

قبول السعاية شرٌّ من السعاية، لأن السعاية دلالة، والقبول إجازة، وليس مَنْ دلّ على قبيح كمن أجازه وعمل به، فاطرُد هذا الساعيَ عن عملك، وأقْصِه عن بابك، فإنه لو لم يكن في سعايته كاذباً لكان في صدقه لئيماً، إذ لم يَرْعَ الحرمة، ولم يستر العورة، والسلام.

صالح بن عبد القدوس:

مَـنْ يـخـبِّـرك بـشـتـم عـن أخٍ ... فَـهُـوَ الـشـاتِـمُ، لا مَـنْ شَـتَـمَـكْ
ذاك شـيء لـم يـواجـهْـك بـه ... إنـمـا الـلُّـوْمُ عَـلَـى مَـنْ أعْـلَـمَـكْ
كـيـف لـم يـنـصـرك إن كـان أخـاً ... ذا حـفـاظٍ عـنـد مَـنْ قـد ظـلـمـكْ!

طريح بن إسماعيل الثقفيّ:

إن يعلمُوا الخير يخفُوه وإن علموا ... شرًّا أذاعوا، وإن لم يعلموا كَذَبُوا

ومعنى قوله عليه السلام: «وإن غاب لم يُفتقَد»، أي لا يقال: ما صنع فلان، ولا أين هو؟ أي هو خامل لا يعرف.

وقوله: «أولئك يفتح الله بهم أبواب الرحمة، ويكشف بهم ضرّاء النقمة»، ورُوي: «أولئك يفتح الله بهم أبواب رحمته، ويكشف بهم ضرّاء نقمته»، أي ببركاتهم يكون الخير ويندفع الشر.

ثم ذكر عليه السلام أنه سيأتي على الناس زمانٌ تنقلب فيه الأمور الدينية إلى أضدادها ونقائضها، وقد شهدنا ذلك عياناً.

ثم أخبر عليه السلام أنّ الله لا يجور على العباد، لأنه تعالى عادل ولا يظلم ولكنه يبتلي عباده أي يختبرهم، ثم تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾[1]، والمراد أنه تعالى، إذا فسد الناس لا يلجئهم إلى الصلاح، لكن يتركهم واختيارهم امتحاناً لهم، فمن أحسن أثيب، ومن أساء عوقب.

---

١٠٣ - ومن خطبة له عليه السلام يصف فيها حال الناس

الأصل: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ ٱلْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَاباً، وَلاَ يَدَّعِي نُبُوَّةً وَلاَ وَحْياً، فَقَاتَلَ بِمَنْ أَطَاعَهُ مَنْ عَصَاهُ، يَسُوقُهُمْ إِلَى مَنْجَاتِهِمْ، وَيُبَادِرُ بِهِمُ ٱلسَّاعَةَ أَنْ تَنْزِلَ بِهِمْ، يَحْسِرُ ٱلْحَسِيرُ، وَيَقِفُ ٱلْكَسِيرُ، فَيُقِيمُ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يُلْحِقَهُ غَايَتَهُ، إِلاَّ هَالِكاً لاَ خَيْرَ فِيهِ. حَتَّىٰ أَرَاهُمْ مَنْجَاتَهُمْ، وَبَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ، فَٱسْتَدَارَتْ

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٣٠.

رَحاهُمْ، وَٱسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ. وَٱيْمُ ٱللهِ لَقَدْ كُنْتُ مِنْ سَاقَتِهَا حَتَّىٰ تَوَلَّتْ بِحَذَافِيرِهَا، وَٱسْتَوْسَقَتْ فِي قِيَادِهَا، مَا ضَعُفْتُ وَلاَ جُبُنْتُ، وَلاَ خُنْتُ وَلاَ وَهَنْتُ. وَٱيْمُ ٱللهِ لَأَبْقُرَنَّ ٱلْبَاطِلَ حَتَّىٰ أُخْرِجَ ٱلْحَقَّ مِنْ خَاصِرَتِهِ.

قال الرضيّ رحمه الله تعالى: وقد تقدَّم مختار هذه الخطبة، إلاَّ أنني وجدتها في هذه الرواية على خلاف ما سبق من زيادة ونقصان، فأوجبت الحال إثباتها ثانية.

الشرح: لقائل أن يقول: ألم يكن في العرب نبيٌّ قبل محمد، وهو خالد بن سنان العبسيّ؟ وأيضاً فقد كان فيها هود وصالح وشعيب.

ونجيب هذا القائل بأنّ مراده عليه السلام أنّه لم يكن في زمان محمد صلى الله عليه وآله وما قاربه من ادّعى النبوّة، فأما هود وصالح وشعيب، فكانوا في دَهْرٍ قديم جدًّا، وأما خالد بن سنان فلم يقرأ كتاباً، ولا يدّعي شريعة وإنما كانت نبوّة مشابهة لنبوّة جماعة من أنبياء بني إسرائيل الذين لم يكن لهم كتب ولا شرائع، وإنما ينهوْن عن الشرك، ويأمرون بالتوحيد.

ومنجاتهم: نجاتهم، نجوت من كذا نجاءً، ممدود، ونجاً مقصور. ومنجاة على «مَفْعَلة»، ومنه قولهم: «الصدق مَنْجَاة».

قوله عليه السلام: «ويبادر بهم الساعة»، كأنه كان يخاف أن تسبِقه القيامة، فهو يبادرها بهدايتهم وإرشادهم قبل أن تقوم، وهم على ضلالهم.

والحسير: المعيَا، حَسَر البعير بالفتح، يحسِر بالكسر حُسوراً، واستحسر مثله، وحسرته أنا، يتعدّى ولا يتعدّى، حَسْراً فهو حسير، ويجوز أحسرته، بالهمزة، والجمع حَسْرَى، مثل قتيل وقَتْلَى، ومنه حَسَر البصر، أي كَلَّ، يحسِر، قال تعالى: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[1]. وهذا الكلامُ من باب الاستعارة والمجاز، يقول عليه السلام: كان النبي صلى الله عليه وآله لحِرْصه على الإسلام وإشفاقه على المسلمين، ورأفته بهم، يلاحظ حال من تزلزل اعتقاده، أو عرضتْ له شبهة، أو حدَث عنده ريب، ولا يزال يوضّح له ويرشده حتى يزيل ما خامر سرَّه من وساوس الشيطان، ويلحقه بالمخلصين من المؤمنين، ولم يكن ليقصِّر في مراعاة أحد من المكلّفين في هذا المعنى إلا مَنْ كان يعلم أنّه لا خير فيه أصلاً، لعناده وإصراره على الباطل، ومكابرته للحقّ.

ومعنى قوله: «حتى يلحِقه غايتَه»، حتى يوصّله إلى الغاية التي هي الغرض بالتكليف، يعني اعتقاد الحق وسكون النفس إلى الإسلام، وهو أيضاً معنى قوله: «وبوّأهم محلّتهم».

---

(١) سورة الملك، الآية: ٤.

ومعنى قوله: «فاستدارت رحاهم»، انتظم أمرُهم، لأن الرّحا إنّما تدور إذا تكاملت أدواتها وآلاتها كلّها، وهو أيضاً معنى قوله: «واستقامت قناتُهم»، وكلُّ هذا من باب الاستعارة.

ثم أقسم أنه عليه السلام كان من ساقتها، الساقة: جمع سائق، كقادة جمع قائد، وحَاكة جمع حائك، وهذا الضمير المؤنث يرجع إلى غير مذكور لفظاً، والمراد الجاهلية، كأنه جعَلها مِثْلَ كتيبة مصادمة لكتيبة الإسلام، وجعل نفسه من الحاملين عليها بسيفه، حتى فرّت وأدبرت، واتبعها يسوقها سوقاً وهي مولّية بين يديه. حتى أدبرت بحذافيرها، أي كلّها عن آخرها.

ثم أتى بضمير آخر إلى غير مذكور لفظاً، وهو قوله: «واستوسقت في قيادها»، يعني الملّة الإسلامية أو الدعوة، أو ما يجري هذا المجرى. واستوسقت: اجتمعت، يقول: لما ولّت تلك الدعوة الجاهلية استوسقت هذه في قيادها كما تستوسق الإبل المقودة إلى أعطانها. ويجوز أن يعودَ هذا الضمير الثاني إلى المذكور الأول وهو الجاهلية، أي ولّت بحذافيرها واجتمعت كلُّها تحت ذلّ المقادة.

ثم أقسم أنّه ما ضعف يومئذ ولا وَهَن ولا جَبُن ولا خان، وليبقرنّ الباطل الآن حتى يخرج الحقّ من خاصرته، كأنّه جعل الباطل كالشيء المشتمل على الحق غالباً عليه، ومحيطاً به، فإذا بُقِر ظَهَرَ الحقُّ الكامن فيه، وقد تقدم منّا شرح ذلك.

١٠٤ - ومن خطبة له عليه السلام في شأن أهل البيت

الأصل: حَتَّىٰ بَعَثَ ٱللهُ مُحَمَّداً صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ شَهِيداً وَبَشِيراً وَنَذِيراً، خَيْرَ ٱلْبَرِيَّةِ طِفْلاً، وَأَنْجَبَهَا كَهْلاً، وَأَطْهَرَ ٱلْمُطَهَّرِينَ شِيمَةً، وَأَجْوَدَ ٱلْمُسْتَمْطَرِينَ دِيمَةً، فَمَا ٱحْلَوْلَتْ لَكُمُ ٱلدُّنْيَا فِي لَذَّتِهَا، وَلاَ تَمَكَّنْتُمْ مِنْ رَضَاعِ أَخْلاَفِهَا، إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ. صَادَفْتُمُوهَا جَائِلاً خِطَامُهَا، قَلِقاً وَضِينُهَا، قَدْ صَارَ حَرَامُهَا عِنْدَ أَقْوَامٍ بِمَنْزِلَةِ ٱلسِّدْرِ ٱلْمَخْضُودِ، وَحَلاَلُهَا بَعِيداً غَيْرَ مَوْجُودٍ، وَصَادَفْتُمُوهَا وَٱللهِ ظِلاً مَمْدُوداً إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ.

فَالأَرْضُ لَكُمْ شَاغِرَةٌ، وَأَيْدِيكُمْ فِيهَا مَبْسُوطَةٌ، وَأَيْدِي ٱلْقَادَةِ عَنْكُمْ مَكْفُوفَةٌ وَسُيُوفُكُمْ عَلَيْهِمْ مُسَلَّطَةٌ، وَسُيُوفُهُمْ عَنْكُمْ مَقْبُوضَةٌ.

أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ دَمٍ ثَائِراً، وَلِكُلِّ حَقٍّ طَالِباً، وَإِنَّ ٱلثَّائِرَ فِي دِمَائِنَا كَٱلْحَاكِمِ فِي حَقِّ نَفْسِهِ، وَهُوَ ٱللهُ ٱلَّذِي لاَ يُعْجِزُهُ مَنْ طَلَبَ، وَلاَ يَفُوتُهُ مَنْ هَرَبَ. فَأُقْسِمُ بِالله يَا بَنِي أُمَيَّةَ عَمَّا قَلِيلٍ لَتَعْرِفُنَّهَا فِي أَيْدِي غَيْرِكُمْ، وَفِي دَارِ عَدُوِّكُمْ.

الشرح: معنى كون النبيّ ﷺ شهيداً، أنّه يشهد على الأمة بما فعلته من طاعة وعصيان.

أنجبها: أكرمها، ورجل نَجيب، أي كريم بَيِّن النَّجابة، والنُّجَبة مثل الهُمَزة، ويقال: هو نُجَبَة القوم، أي النجيب منهم، وأنجب الرجل، أي ولد ولدًا نجيبًا، وامرأة منجبة ومِنْجاب، تلد النُّجَباء، ونسوة مناجيب.

والشيمة: الخُلق. والدِّيمة: مطر يدوم. والمستمطَرون: المستَجْدَوْنَ والمستماحون.

واحلولت: حلَت، وقد عدّاهُ حميد بن ثور في قوله:

فَلَمّا أتَى عَامَانِ بَعْدَ انْفِصَالِه ... عن الضَّرْعِ، واحْلَوْلَى دِماثاً يَرُودها

ولم يجئ «افعوعل» متعدّياً إلا هذا الحرف وحرف آخر، وهو اعروريت الفرس. وهو الرَّضاع، بفتح الراء: رضِع الصبيّ أمَّه، بكسر الضاد يرضعها رضاعاً، مثل سمع يسمَع سماعاً، وأهل نجد يقولون: رَضَع بالفتح يرضِع بالكسر، مثل ضرَب يضرِب ضرباً.

وقال الأصمعيّ: أخبرني عيسى بن عمر أنه سمع العرب تُنْشد هذا البيت:

وَذَمُّوا لَنَا الدُّنْيَا وَهُمْ يرضِعُونها ... أفاويقَ حتى ما يدرّ لها ثُعْلُ

بكسر الضاد. والأخْلاَف للناقة بمنزلة الأطْبَاء للكلبة، واحدها خِلْف بالكسر، وهو حَلَمة الضَّرْع. والخِطام: زمام الناقة، خطمتُ البعير: زممته، وناقة مخطومة، ونوق مخطّمة.

والوَضِين للهودج، بمنزلة البِطَان للقَتَب، والتّصدير للرَّحْل، والحِزام للسَّرْج، وهو سُيور تنسَج مضاعفة بعضها على بعض، يشدّ بها الهوْدج منه إلى بطن البعير، والجمع وُضُن.

والمخضود: الذي خُضِد شوكه، أي قطع.

وشاغرة: خالية، شغَر المكان، أي خلا، وبلدة شاغرة. إذا لم تمتنع من غارة أحد. والثائر: طالب الثأر، لا يبقي على شيء حتى يدرك ثأره.

يقول عليه السلام مخاطباً لمن في عصره من بقايا الصحابة ولغيرهم من التابعين، الذين لم يدركوا عَصْر رسول الله ﷺ: إن الله بعثَ محمداً، وهو أكرم الناس شيمة، وأنداهم يداً، وخيرهم طفلاً، وأنجبَهم كَهْلاً، فصانه الله تعالى في أيام حياته عن أن يفتح عليه الدنيا، وأكرمه عن ذلك فلم تُفْتَح عليكم البلاد، ولا دَرّت عليكم الأموال، ولا أقبلت الدنيا نحوكم، وما دالت الدولة لكم إلا بعده، فتمكّنتم من أكُلها والتمتع بها، كما يتمكّن الحالب من احتلاب الناقة فيحلبها، وحلت لذّاتها لكم، واستطبتم العيشة، ووجدتموها حُلْوة خضرة.

ثم ذكر أنّهم صادفوها - يعني الدنيا - وقد صَعُبت على مَنْ يليها ولاية حق، كما تستصعبُ الناقة على راكبها إذا كانت جائلة الخِطام، ليس زمامها بممكّن راكبها من نفسه، قلقَة الوضين، لا يثبت هودجُها تحت الراكب، حرامه سهل التناول على من يريده، كالسِّدْر الذي خُضِد عنه شوكه، فصار ناعماً أملس، وحلالها غير موجود لغلبة الحرام عليه، وكونه صار مغموراً

مستهلكاً بالنسبة إليه، وهذا إشارة إلى ما كان يقوله دائماً من استبداد الخلفاء قبله دونه بالأمر، وأنه كان الأولى والأحق.

فإن قلت: إذا كانت الدنيا قَلِقة الوضين، جائلة الخِطام، فهي صَعْبة الركوب، وهذا ضدّ قوله: «حرامها بمنزلة السدر المخضود»، لأنه من الأمثال المضروبة للسهولة!

قلت: فحوى كلامه أنّ الدنيا جمحت به عليه السلام، فألقته عن ظهرها بعد أن كان راكباً أو كالراكب لها لاستحقاقه ركوبَها، وأنها صارت بعده كالناقة التي خَلَعَتْ زمامها، أو أجالته فلا يتمكّن راكبُها من قبضه، واسترخى وَضِينُها لشدّة ما كان صدر عنها من النفار[١] والتقحّم[٢]، حتى أذرَتْ راكبها، فصارت على حالٍ لا يركبها إلا من هو موصوف بركوب غير طبيعي، لأنه ركب ما لا ينبغي أن يركب، فالذين وُلّوا أمرها وُلُّوه على غير الوجه، كما أن راكب هذه الناقة يركبها على غير الوجه، ولهذا لم يقل: «فصار» حرامها بمنزلة السدر المخضود»[٣] بل قال «عند أقوام»، فخصّص.

وهذا الكلام كلُّه محمول عند أصحابنا على التألّم من كون المتقدمين تركوا الأفضل، كما قدمناه في أول الكتاب.

ثم ذكر عليه السلام أنّ الدنيا فانية، وأنها ظِلٌّ ممدود إلى أجل معدود. ثم ذكر أنّ الأرض بهؤلاء السّكان فيها صورة خالية من معنى، كما قال الشاعر:

ما أكثرَ النَّاسَ، لا بل مَا أقلَّهُمُ ... الله يَعْلَمُ أنّي لم أقُلْ فَنَدَا[٤]

إنّي لأفْتَحُ عَيْني ثم أغمِضُها ... عَلَى كَثيرٍ، ولكنْ لا أرى أحَدَا

ثم أعاد الشكوى والتألم فقال: أيديكم في الدنيا مبسوطة، وأيدي مستحقّي الرّياسة ومُستوجبي الأمر مكفوفة، وسيوفكم مسلّطة على أهل البيت الذين هم القادة والرؤساء، وسيوفهم مقبوضة عنكم، وكأنّه كان يرمز إلى ما سيقع من قَتْل الحسين عليه السلام وأهله، وكأنّه

---

(١) نَفَرَتِ الدابة نِفاراً: جَزِعَتْ وتباعدت القاموس المحيط، مادة (نفر).

(٢) قَحَّمَتْه الفرس تقحيماً: رمته على وجهه. القاموس المحيط، مادة (قحم).

(٣) السِّدْر المخضود: هو الذي نزع شوكه فلا شوك فيه، والخَضْد: نزع الشوك عن الشجر. لسان العرب مادة (خضد).

(٤) الفَنَد: الخَرَف وإنكار العقل من الهرم أو المرض. لسان العرب، مادة (فند).

يشاهد ذلك عياناً، ويخطب عليه ويتكلّم على الخاطر الذي سَنَح له، والأمر الذي كان أخبر به، ثم قال: إنّ لكلِّ دمٍ ثائراً يطلب القَودَ، والثائر بدمائنا ليس إلا الله وحدَه، الذي لا يُعجزه مطلوب، ولا يفوته هارب.

ومعنى قوله عليه السلام: «كالحاكم في حقّ نفسه»، أنّه تعالى لا يقصّر في طلب دمائنا كالحاكم الذي يحكم لنفسه، فيكون هو القاضي وهو الخصم، فإنه إذا كان كذلك يكون مبالغاً جدًّا في استيفاء حقوقه.

ثم أقسم وخاطب بني أمية، وصرّح بذكرهم أنّهم ليعرفنّ الدنيا عن قليل في أيدي غيرهم وفي دورهم، وأنّ الملك سينتزعه منهم أعداؤهم، ووقع الأمر بموجب إخباره عليه السلام، فإنّ الأمر بقيَ في أيدي بني أمية قريباً من تسعين سنة، ثم عاد إلى البيت الهاشميّ، وانتقم الله تعالى منهم على أيدي أشدّ الناس عداوة لهم.

سار عبد الله عليّ بن عبد الله بن العباس في جَمْع عظيم للقاء مَروان بن محمد بن مروان، وهو آخر خلفاء الأمويين، فالتقيا بالزّاب من أرض الموصل، ومروان في جموع عظيمة وأعداد كثيرة، فهزِم مروان، واستولى عبد الله بن عليّ على عسكره، وقتل من أصحابه خَلْقاً عظيماً، وفرّ مروان هارباً حتى أتى الشام وعبد الله يتبعه، فصار إلى مصر، فاتبعه عبدُ الله بجنوده، فقتله ببوصير الأشمونين من صعيد مصر، وقتل خواصّه وبطانته كلّها، وقد كان عبد الله قتل من بني أمية على نهر أبي فُطرُس من بلاد فلسطين قريباً من ثمانين رجلاً، قتلهم مُثْلَة واحتذى أخوه داود بن عليّ بالحجاز فعلَه، فقتل منهم قريباً من هذه العدّة بأنواع المُثُل.

وكان مع مروان حين قُتِل ابناه عبد الله وعبيد الله - وكانا وليّي عهده - فهرَبَا في خواصّهما إلى أسْوَان من صعيد مصر ثم صارا إلى بلاد النوبة ونالهم جَهْدٌ شديد وضُرّ عظيم، فهلك عبد الله بن مروان في جماعة ممّن كان معه قتلاً وعطشاً وضُرًّا، وشاهد من بقيَ منهم أنواع الشدائد وضروب المكاره، ووقع عبيد الله في عدّة ممن معه في أرض البُجَه وقطعوا البحر إلى ساحل جُدّة، وتنقّل فيمن نجا معه من أهله ومواليه في البلاد مستترين راضين أن يعيشوا سُوقة بعد أن كانوا ملوكاً، فظُفِر بعبد الله أيام السفاح، فحبس فلم يزل في السجن بقية أيام السَّفاح، وأيام المنصور، وأيام المهديّ، وأيام الهادي وبعض أيام الرشيد، وأخرجه الرشيد وهو شيخ ضرير، فسأله عَنْ خبره، فقال: يا أميرَ المؤمنين، حُبست غلاماً بصيراً، وأخرِجْت شيخاً ضريراً! فقيل: إنّه هلك في أيام الرشيد، وقيل: عاش إلى أن أدرك خلافة الأمين.

شهد يوم الزّاب مع مَرْوان في إحدى الرّوايتين إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك المخلوع، الذي خُطِب له بالخلافة بعد أخيه يزيد بن الوليد بن عبد الملك فقتل فيمنْ قُتِل. وفي الرواية الثانية إنّ إبراهيم قتله مَرْوان الحمار قبل ذلك.

لما انهزمَ مَرْوان يوم الزّاب مضى نحو الموصل، فمنعه أهلُها من الدخول، فأتى حَرّان، وكانت داره ومقامه، وكان أهل حَرّان حين أزيل لعْن أمير المؤمنين عن المنابر في أيام الجمع امتنعوا من إزالته، وقالوا: لا صلاَةَ إلاّ بلعن أبي تراب، فاتبعه عبد الله بن عليّ بجنوده، فلما شارفه خرج مروان عن حَرّان هارباً بين يديه وعبر الفرات، ونزل عبد الله بن عليّ على حَرّان، فهدم قصر مروان بها، وكان قد أنفق على بنائه عشرة آلاف ألف درهم واحتوى على خزائن مَرْوان وأمواله، فسار مَرْوانُ بأهله وعِتْرته من بني أمية وخواصّه، حتى نزل بنهر أبي فُطْرس، وسار عبد الله بن عليّ حتى نزل دمشق، فحاصرها وعليها مِنْ قِبَل مَرْوان الوليد بن معاوية بن عبد الملك بن مَرْوان في خمسين ألف مقاتل، فألقى الله تعالى بينهم العصبية في فَضْل نزار على اليمن، وفَضْل اليمن على نزار، فقتِل الوليد - وقيل بل قُتِل في حرب عبد الله بن علي - ومَلَك عبدُ الله دمشق، فأتى يزيد بن معاوية بن عبد الملك بن مروان وعبد الجبار بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، فحملهما مأسورين إلى أبي العباس السفاح، فقتلهما وصلبهما بالحيرة، وقَتَل عبد الله بن عليّ بدمشق خلقاً كثيراً من أصحاب مَرْوان وموالي بني أمية وأتباعهم، ونزل عبد الله على نهر أبي فطرس، فقتل من بني أمية هناك بضعاً وثمانين رجلاً، وذلك في ذي القعدة من سنة ثنتين وثلاثين ومائة.

وفي قتلى نهر أبي فُطْرس وقتلى الزاب يقول أبو عديّ عبد الله بن عمرو العبليّ، وكان أمويّ الرأي:

تـقـول أمـامـةُ لـمّـا رأتْ ... نـشـوزي عـن الـمـضـجـع الأملسِ
وقـلّـةَ نـومـي عـلـى مـضـجَـعِـي ... لـدى هَـجْـعَـةِ الأعـيُـنِ الـنُّـعَّـسِ:
أبـي، مـا عـرَاكَ؟ فـقـلـت: الـهـمـومُ ... عَـرَيْـنَ أبـاكِ فـلا تُـبْـلِـسـي[1]
عَـرَيْـنَ أبـاكِ فـحَـبَّـسْـنَـهُ ... مِـنَ الـذلّ فـي شـرّ مـا مـحـبـس
لِـفَـقْـدِ الأحِـبّـةِ إذْ نـالَـهـا ... سـهـامٌ مـن الـحـدَث الـمُـبْـئِـسِ
رمـتـهـا الـمـنـون بـلا نُـكَّـلٍ ... ولا طـائـشـاتٍ ولا نُـكَّـسِ

---

(١) أبْلَسَ: يئس وتَحَيَّر. القاموس المحيط، مادة (بلس).

بأسْهُمِها المتلفاتِ النفو ... س مَتَى ما تُصِبْ مهجة تُخْلَسِ
فَصَرَّعتهُمْ بنواحي البلا ... د فملقًى بأرض ولم يُرْمَسِ
نَقيّ أصيب وأثوابُه ... مِنَ ٱلْعَيْبِ والعار لم تَدْنَسِ
وآخرُ قد رُسَّ في حفرةٍ ... وآخرُ طار فَلم يُحْسَسِ[١]
أفاض المدامع قتلى كُدًى ... وَقَتْلَى بِكُثْوةَ لم تُرْمَسِ
وَقَتْلَى بِوَجّ وبِاللاَّبتَيْـ ... ـنِ من يثرب خيرُ ما أنفُسِ
وبالزابِيَيْن نفوسٌ ثَوَتْ ... وَقَتْلَى بنهرِ أبي فُطْرُسِ
أولئك قومي أناخَتْ بهمْ ... نوائبُ من زمن مُتْعِسِ
إذا ركبوا زيّنوا الموكِبَـ ... ـيْنِ وإنْ جلسوا زينةُ المجلسِ
وإن عنّ ذِكْرُهُمُ لم ينمْ ... أبوكِ، وأوحش في المأنسِ
فذاكِ الذي غالَنِي فاعْلَمِي ... ولا تسألي بامرىء متعَسِ
هُمُ أضرعوني لريب الزما ... ن وهم ألصقوا الخدّ بالمعْطِسِ

وروى أبو الفرج الأصفهانيّ في كتاب «الأغاني»[٢]، قال: نظر عبد الله بن عليٍّ في الحرْب إلى فتى عليه أبّهة الشَّرف، وهو يحارب مستقتلاً، فناداه: يا فتى، لك الأمان، ولو كنتَ مَرْوان بن محمد! قال: إلاّ أكنه فلست بدونه! فقال: ولك الأمان، ولو كنتَ من كنت، فأطرق، ثم أنشد:

لَذُلُّ الحياة وكُرْهُ المما ... تِ وكُلاًّ أراهُ طعاماً وبيلا
وإنْ لم يكنْ غَيْرَ إحداهما ... فَسيْراً إلى الموت سَيْراً جميلا

ثم قاتل حتى قتل، فإذا هو ابن مسلمة بن عبد الملك.

وروى أبو الفرج أيضاً، عن محمد بن خلَف وكيع، قال: دخل سُدَيف مولى آل أبي لهب على أبي العباس بالحيرة، وأبو العباس جالس على سريره، وبنو هاشم دونه على الكراسيّ وبنو أمية حوله على وسائد قد ثنيت لهم، وكانوا في أيام دولتهم يجلسونهم والخليفة منهم على الأسرّة، ويجلس بنو هاشم على الكراسيّ، فدخل الحاجب، فقال: يا أميرَ المؤمنين، بالباب

---

(١) الرَّمْسُ: الدفن والقَبْر. القاموس المحيط، مادة (رمس).
(٢) الأغاني: لأبي الفرج علي بن الحسين الأصبهاني المتوفى سنة (٣٥٦)، وهو كتاب لم يؤلف مثله اتفاقاً. «كشف الظنون» (١/ ١٢٩).

رجل حجازيّ أسود راكب على نجيب متلثّم، يستأذِن ولا يخبر باسمه، ويحلف لا يحسِر اللثام عن وجهه حتى يرى أمير المؤمنين! فقال: هذا سُدَيف مولانا، أدخله، فدخل فلما نظر إلى أبي العباس وبنو أمية حوله حَسَر اللثام عن وجهه، ثم أنشد:

أصبح الملك ثابت الأساسِ ... بالبَهَاليل من بني العباس

بالصّدور المقدّمين قديماً ... والبحورِ القماقِم الرّوّاسِ[1]

يا إمامَ المَطَهّرينَ من الذمّ ... ويا رأس منتهى كلّ راسِ

أنت مهديّ هاشمٍ وفَتاها ... كم أناس رجوك بعد أناس

لا تُقيلَنّ عبد شمسٍ عِثاراً ... واقْطَعَنْ كل رَقْلةٍ وغِرَاس

أنزلوها بحَيثُ أنزلها اللـ ... ـهُ بدار الهوانِ والإتعاس

خَوْفُهَا أظهرَ التودّد منها ... وبها منكمُ كحزّ المواسي

أقصِهمْ أيّها الخليفةُ واحسِمْ ... عنك بالسّيف شأفة الأرْجاسِ

واذكُرَنْ مصرعَ الحسين وزيدٍ ... وقَتيلاً بجانب المِهْرَاسِ

والقتيلَ الذي بحرّان أمسى ... ثاوياً بين غُربةٍ وَتَنَاسِ

فَلَقَدْ ساءني وساء سوائي ... قُربُهُمْ من نمارِقٍ وكَراسي

نِعْمَ كلب الهِراش مولاك شِبْلٌ ... لو نجا من حبائل الإفلاس

قال: فتغيّر لونُ أبي العباس، وأخذه زَمَع ورعدة، فالتفت بعضُ ولد سليمان بن عبد الملك إلى آخر فيهم كان إلى جانبه، فقال: قَتَلنَا والله العبد! فأقبل أبو العباس عليهم، فقال: يا بني الزّواني، لا أرى قتلاكم من أهلي قد سلفوا وأنتم أحياء تتلذذون في الدُّنيا، خذوهم، فأخذتهم الخراسانية بالكافر كُوبات فأُهْمِدوا، إلا ما كان من عبد العزيز بن عمر بن العزيز، فإنه استجار بداود بن عليّ، وقال: إن أبي لم يكن كآبائهم، وقد علمت صنيعته إليكم فأجاره واستوهبه من السفاح وقال له: قد علمت صنيع أبيه إلينا، فوهبه له، وقال: لا يرينّي وجهه، وليكُن بحيث نأمنه، وكتب إلى عماله في الآفاق بقتل بني أمية.

فأما أبو العباس المبرّد، فإنه روى في «الكامل»[2] هذا الشعرعلى غير هذا الوجه، ولم

(١) القَمَاقِم: مفردها قَمْقَام: وهو هنا السيّد الجامع للسيادة، الواسع الخير.

(٢) الكامل في اللغة: لأبي العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد، المتوفى سنة (٢٨٥هـ). كشف الظنون» (٢/ ١٣٨٢).

ينسبه إلى سَديف، بل إلى شِبْل مولى بني هاشم.

قال أبو العباس: دخل شِبْل بن عبد الله مولى بني هاشم على عبد الله بن علي، وقد أجلس ثمانين من بني أميّة على سِمط[1] الطعام، فأنشده:

أصْبَحَ المُلكُ ثابتَ الآساسِ ... بالبهاليلِ من بني العَبَّاسِ

طَلَبُوا وِتْرَ هاشمٍ وَشَفَوْها ... بَعْدَ مَيْلٍ من الزَّمانِ وياسِ

لا تُقيلَنّ عَبْدَ شمسٍ عِثاراً ... واقْطَعَنْ كلَّ رَقْلَةٍ وأواسي

ذلّها أظهرَ التَّوَدُّدَ منها ... وبها منكُم كحزّ المواسي

وَلَقَدْ غاظَني وَغاظَ سوائي ... قُرْبُها من نمارقٍ وكَراسي

أنزِلُوها بحيثُ أنزَلَها اللـ ... ـه بدارِ الهوانِ والإتعاسِ

واذكرُا مَصْرَعَ الحسين وزيدٍ ... وَقَتلاً بجانبِ المِهْرَاسِ

والقتيلَ الَّذي بحَرَّانَ أضحى ... ثاوِياً بين غُرْبةٍ وتناسِ

نعم شِبْلُ الهراش مولاك شِبْلٌ ... لَوْ نجا من حبائل الإفلاس

فأمر بهم عبد الله فشُدِخوا بالعَمَد، وبسطت البُسطُ عليهم، وجلس عليها، ودعا بالطّعام، وإنه ليسمعُ أنينَ بعضهم حتى ماتوا جميعاً. وقال لشِبْل: لولا أنك خلطت شعرك بالمسألة لأغنمتُك أموالهم ولعقدتُ لك على جميع موالي بني هاشم.

قال أبو العباس: الرقلة: النخلة الطويلة، والأواسي: جمع آسية، وهي أصل البناء كالأساس. وقتيل المِهْراس: حمزة عليه السلام، والمِهْراس: ماء بأُحُد. وقتيل حَرّان: إبراهيم الإمام.

قال أبو العباس: فأما سُدَيف، فإنه لم يقمْ هذا المقام، وإنّما قام مقاماً آخر، دخل على أبي العباس السّفاح، وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك، وقد أعطاهُ يده فقبّلها وأدناه، فأقبل على السفاح، وقال له:

لاَ يَغُرَّنْكَ مَا ترى مِنْ رجالٍ ... إنَّ تحتَ الضُّلوع داءً دوِيّا

فضع السَّيف وارفع السوط حَتَّى ... لا ترى فَوْقَ ظهرِها أمويّا

فقال سليمان: ما لي ولك أيها الشيخ! قتلتَني قَتلك الله! فقام أبو العباس، فدخل وإذا المنديل قد ألقِي في عُنق سليمان، ثم جرّ فقتل.

فأما سليمان بن يزيد بن عبد الملك بن مرْوان فقتِل بالبلقاء، وحمل رأسه إلى عبد الله بن عليّ.

---

(١) لعل المراد بها الشاة المشوية التي تسمى سميط. ا. هـ اللسان مادة (سمط).

انتقال الملك من بني أمية إلى بني العباس

وذكر صاحب «مروج الذهب»[1] أنّه أرسَلَ عبد الله أخاه صالح بن عليّ ومعه عامر بن إسماعيل أحد الشيعة الخُراسانية إلى مصر، فلحقوا مروان ببُوصير، فقتلوه وقتلوا كلّ مَنْ كان معه من أهله وبطانته، وهجموا على الكَنِيسة التي فيها بناته ونساؤه، فوجدُوا خادماً بيده سيف مشهور يسابقهم على الدخول، فأخذُوه وسألوه عن أمره، فقال: إنّ أمير المؤمنين أمرنيَ إنْ هو قُتِل أن أقتل بناتِه ونساءه كلّهن، قبل أن تصلوا إليهنّ، فأرادوا قتله، فقال: لا تقتلوني، فإنكم إن قتلتموني فقدتُم ميراثَ رسول الله ﷺ، فقالوا: وما هو؟ فأخرجهم من القرية إلى كُثْبانٍ من الرمل، فقال: اكشفوا ها هنا، فإذا البردة والقضيب وقَعْب مخضّب قد دفنها مروان ضَنًّا بها أنْ تصيرَ إلى بني هاشم. فوجّه به عامر بن إسماعيل إلى صالح بن عليّ، فوجّه به صالح إلى أخيه عبد الله، فوجّه به عبد الله إلى أبي العباس، وتداوله خلفاء بني العباس من بعد.

وأدخِل بنات مروان وحرمه ونساؤه على صالح بن عليّ، فتكلّمت ابنة مروان الكبرى، فقالت: يا عمّ أمير المؤمنين، حفظ الله لك من أمرك ما تحبّ حفظه، وأسعدك في أحوالك كلّها، وعَمّك بخواصّ نعمه، وشمِلَك بالعافية في الدنيا والآخرة. نحن بناتُك وبنات أخيك وابن عَمّك، فلْيسعنا من عَدْلِكم ما وسعنا من جوْركم. قال: إذاً لا نستبقي منكم أحداً، لأنكم قد قتلتم إبراهيمَ الإمام، وزيد بن عليّ، ويحيى بن زيد، ومُسلم بن عقيل، وقتلتم خيرَ أهل الأرض: حسيناً وإخوته وبنيه وأهل بيته، وسقتم نساءه سبايا - كما يُساق ذراريّ الروم - على الأقْتاب إلى الشام. فقالت: يا عمّ أمير المؤمنين، فليسعْنا عفوُكم إذاً. قال: أمّا هذا فنعم، وإن أحببت زوجتك من ابني الفضل بن صالح، قالت: يا عمّ أمير المؤمنين، وأيّ ساعة عرْس ترى! بل تُلحِقنا بحرّان، فحملهنّ إلى حرّان.

كان عبد الرحمن بن حبيب بن مَسْلمة الفِهريّ، عاملَ إفريقيَة لمروان، فلمّا حدثت الحادثة، هرب عبدُ الله والعاص ابنا الوليد بن يزيد بن عبد الملك إليه، فاعتصما به فخاف على نفسه منهما، ورأى مَيْل الناس إليهما فقتلهما، وكان عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك يريد أن يقصِد ويلتجىء إليه، فلمّا علِم ما جرى لابني الوليد بن يزيد، خاف منه، فقطع المجاز بيْن إفريقيَة والأندلس، وركب البحرَ حتى حصل بالأندلس، فالأمراء الّذين وُلُّوها كانوا من ولده.

---

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر في التاريخ: لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي المتوفى سنة (٣٤٦هـ). «كشف الظنون» (٢/ ١٦٥٨).

ثم زال أمرُهم ودولتهم على أيدِي بني هاشم أيضاً، وهم بنو حَمُّود الحسنِيُّون، من ولد إدريس بن الحسن عليه السلام.

لما قتلَ عامر بن إسماعيل مَرْوانَ ببُوصِير، واحتوى على عسكره، دخل إلى الكنيسة التي كان فيها، فقعد على فِرَاشه، وأكل من طعامه، فقالت له ابنة مَرْوان الكبرى - وتُعرف بأمّ مَرْوان -: يا عامر، إنّ دهراً أنزل مَرْوان عن فُرُشه حتى أقعدك عليها، تأكل من طعامِه ليلة قَتْله، محتوياً على أمرِه، حاكماً في مُلكه وحُرَمه وأهله، لقادرٌ أن يغيّر ذلك، فأنهِيَ هذا الكلامُ إلى أبي العباس السفّاح، فاستهجَن ما فعله عامر بن إسماعيل وكتب إليه: أما كان لك في أدب الله ما يزجرك أنْ تقعد في مثل تلك الساعة على مهادِ مروان، وتأكل من طعامه! أما والله لولا أن أمير المؤمنين أنزل ما فعلته على غير اعتقاد منك [لذلك] ولانَهَم على طعامٍ، لمسّك من غضبه وأليم أدبه، ما يكون لك زاجراً، ولغيرك واعظاً. فإذا أتاك كتابُ أمير المؤمنين: فتقرَّب إلى الله بصدَقة تطفىء بها غضبَه، وصلاة تظهر فيها الخشوع والاستكانة له، وصُمْ ثلاثة أيام، وتُبْ إلى الله من جميع ما يسخطه ويغضبه، ومرْ جميعَ أصحابك أن يصوموا مثل صيامك.

ولما أُتي أبو العباس برأس مَرْوان، سجد فأطال، ثم رفع رأسه، وقال: الحمد لله الذي لم يبق ثأرنا قِبَلك وقِبَل رهطك، الحمد لله الذي أظفرنا بك، وأظهرنا عليك. ما أبالي متى طرقني الموت، وقد قتلت بالحسين عليه السلام ألفاً من بني أمية، وأحرقت شِلْوَ[1] هشام بابن عَمّي زيد بن عليّ، كما أحرقوا شِلْوه، وتمثل:

لَوْ يَشْرَبُونَ دَمِي لَم يَرْوَ شارِبُهم ... ولا دماؤهمُ جَمْعاً تروِّيني

ثم حوّل وجهه إلى القبلة فسجد ثانية ثم جلس، فتمثل:

أبى قومنا أن يُنْصِفُونا فأنصفت ... قواطعُ في أيمانِنا تَقْطُرُ الدّمَا

إذا خالطت هامَ الرجال تركتُها ... كبيض نَعامٍ في الثرى قد تحطّما

ثم قال: أمّا مَرْوان فقتلناه بأخي إبراهيم، وقتلنا سائر بني أمية بحسين، ومن قتل معه وبعده من بني عمنا أبي طالب[2].

وروى المسعوديّ في كتاب «مروج الذهب» عن الهيثم بن عديّ، قال: حدّثني عمرو بن هانىء الطائيّ، قال: خرجتُ مع عبد الله بن عليّ لنبش قبور بني أميّة في أيام أبي العباس

---

(١) الشِّلْوُ: العضو، والقطعة من اللحم، والبقية من كل شيء، وجمعه: أشلاء.

(٢) مروج الذهب: ٣٠٠٠/ ٢٧١-٢٧٢.

السَّفاح، فانتهينا إلى قبر هشام بن عبد الملك، فاستخرجناه صحيحاً، ما فقدنا منه إلا عِرْنينَ[1] أنفه، فضربه عبدُ الله بن عليّ ثمانين سوطاً ثم أحرقه، واستخرجنا سليمان بن عبد الملك من أرض دابق فلم نجد منه شيئاً إلا صُلْبه ورأسه وأضلاعه فأحرقناه، وفعلنا مثل ذلك بغيرهما من بني أميّة، وكانت قبورهم بقِنَّسرين، ثم انتهينا إلى دمشق، فاستخرجنا الوليد بن عبد الملك، فما وجدنا في قبره قليلاً ولا كثيراً، واحتفرنا عن عبد الملك فما وجدنا إلا شؤون رأسه، ثم احتفرنا عن يزيد بن معاوية فلم نجد منه إلا عظماً واحداً، ووجدنا من مَوْضع نحره إلى قدمه خطًّا واحداً أسود، كأنّما خُطّ بالرماد في طول لَحْده، وتتّبعنا قبورَهم في جميع البلدان، فأحرقنا ما وجدنا فيها منهم.

قلت: قرأت هذا الخبر على النقيب أبي جعفر يحيى بن أبي زيد العلويّ بن عبد الله في سنة خمس وستمائة، وقلتُ له: أما إحراقُ هشام بإحراق زيد فمفهوم، فما معنى جَلْده ثمانين سوطاً؟ فقال رحمه الله تعالى: أظُنّ عبد الله بن عليّ ذهب في ذلك إلى حدّ القَذْف، لأنه يقال: إنّه قال لزيد: يابن الزانية، لما سبّ أخاه محمداً الباقر عليه السلام، فسبّه زيد، وقال له: سمّاه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الباقر وتسمّيه أنت البقرة! لشدّ ما اختلفتما! ولتخالفنّه في الآخرة كما خالفتَه في الدنيا فيرد الجنة وترد النار. وهذا استنباط لطيف.

قال مرْوان لكاتبه عبد الحميد بن يحيى حين أيقن بزوال ملكه: قد احتجت إلى أن تصير مع عدوّي وتظهر الغَدْر بي! فإنّ إعجابهم ببلاغتك، وحاجتهم إلى كتابتك، تدعوهم إلى اصطناعِك وتقريبك، فإن استطعت أن تسعى لتنفعني في حياتي، وإلا فلن تعجز عن حفظ حُرَمي بعد وفاتي. فقال عبد الحميد: إنّ الذي أشرتَ به هو أنفع الأمرين لي، وأقبحهما بي، وما عندي إلا الصبر معك حتى يفتح الله لك أو أقتَل بين يديك، ثم أنشد:

أسِرّ وفاءً ثم أظهِرُ غَدْرَةً ... فمنْ لي بعُذْرٍ يوسِعُ الناس ظاهِرُهْ!

فثبَت على حاله، ولم يَصِرْ إلى بني هاشم حتى قتِل مروان، ثم قتِل هو بعده صبراً.

وقال إسماعيلُ بن عبد الله القسريّ: دعاني مَرْوان، وقد انتهت به الهزيمة إلى حَرّان، فقال: يا أبا هاشم - وما كان يكنّيني قبلها: قد ترى ما جاء من الأمر، وأنت الموثوق به، ولا عِطْرَ بعد عروس، ما الرأي عندك؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، علامَ أجمعت؟ قال: أرتحل

(١) عِرْنين الأنف: ما صلب منه.

بمواليّ ومَنْ تبعني حتى آتي الدرب، وأميل إلى بعض مدن الروم فأنزلها، وأكاتب ملكَ الروم وأستوثق منه، فقد فَعل ذلك جماعة من ملوك الأعاجم، وليس هذا عاراً على الملوك، فلا يزال يأتيني من الأصحاب الخائفُ والهارب والطامع فيَكثر مَنْ معي، ولا أزال على ذلك حتى يكشفَ الله أمري، وينصرني على عدوّي، فلما رأيتُ ما أجمعَ عليه من ذلك، وكان الرأي، ورأيت آثارَه في قومه من نِزَار وعصبيّته على قومي من قَحطان، غششتهُ، فقلت: أعيذك بالله يا أميرَ المؤمنين من هذا الرأي، أن تحكّمَ أهل الشِّرْك في بناتك وحرمك! وهم الرّوم لا وفاء لهم، ولا يُدْرَى ما تأتي به الأيام، وإن حَدَث عليك حَدَثٌ من أرض النصرانيّة - ولا يحدثنّ الله عليك إلا خيراً - ضاع مَنْ بعدك، ولكن اقطع الفرات، واستنفِر الشام جنداً جنداً، فإنّك في كَنَفٍ وعدّة، ولك في كلّ جند صنائع وأصحاب، إلى أن تأتيَ مصر، فهي أكثرُ أرضِ الله مالاً وخيلاً ورجالاً، والشام أمامك، وإفريقيّة خَلفك، فإن رأيتَ ما تحبّ انصرفت إلى الشام، وإن كانت الأخرى مضيت إلى إفريقية، فقال: صدقت وأستخير الله. فقطع الفرات والله ما قطعه معه من قيس إلا رجلان: ابن حديد السّلميّ - وكان أخاه من الرضاعة - والكوثر بن الأسود الغنوي، وغدر به سائرُ النّزارية مع تعصبه لهم، فلما اجتاز ببلاد قِنّسرين وخُنَاصرة، أوقعوا بساقته، ووثب به أهلُ حِمْص، وصار إلى دمشق، فوثب به الحارث بن عبد الرحمن الحرشيّ ثم العقيليّ، ثم أتى الأردن فوثب به هاشم بن عمرو التميميّ، ثم مَرّ بفلَسْطين، فوثب به أهلُها، وعلم مروان أن إسماعيل بن عبد الله قد غشّه في الرأي، ولم يَمْحَضه النصيحة، وأنّه فرّط في مشورته إياه إذا شاور رجلاً من قحطان موتوراً شانئاً له، وإنّ الرأيَ كان أول الذي همّ به من قطع الدّرْب والنزول ببعض مدن الروم ومكاتبته ملكها. ولله أمر هو بالغه!

لما نزل مروان بالزّاب، جَرّد من رجاله مِمّن اختاره من أهل الشام والجزيرة وغيرها مائة ألف فارس، على مائة ألف قارح[1]، ثم نظر إليهم، وقال: إنّها لعدّة ولا تنفع العدّة، إذا انقضت المدة.

لما أشرف عبد الله بن علي يوم الزّاب في المسوّدة، وفي أوائلهم البنود السُّود، تحملها الرجال على الجمال البُخت، وقد جعل لها بدلاً من القَنَا خشب الصّفصاف والغَرَب قال مَرْوان لمن قرب منه: أما ترونَ رماحهم كأنها النخلُ غلظاً! أما ترون أعلامهم فوق هذه الإبل كأنّها

(١) القارح: الفرس. والناقة.

قطع الغمام السُّود! فبينما هو ينظرها ويعجب، إذ طارت قطعة عظيمة من الغربان السود، فنزلت على أوّل عسكر عبد الله بن عليّ، واتصل سوادها بسواد تلك الرايات والبنود، ومرْوان ينظر، فازداد تعجّبه، وقال: أما تروْن إلى السواد قد اتّصل بالسواد، حتى صار الكلّ كالسحب السُّود المتكاثفة! ثم أقبل على رجل إلى جنبه فقال: ألا تعرّفُني مَنْ صاحب جيشهم؟ فقال: عبد الله بن العباس بن عبد المطلب. قال: ويحك! أمِنْ ولد العباس هو؟ قال: نعم، قال: والله لوددْتُ أنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام مكَانه في هذا الصّفّ، قال: يا أمير المؤمنين، أتقول هذا لعليٍّ مع شجاعته التي ملأ الدنيا ذكرُها! قال: ويحك! إنّ علياً مع شجاعته صاحبُ دين، وإنّ الدين غيرالملك، وإنّا نروي عن قديمنا أنّه لا شيء لعليّ ولا لولده في هذا. ثم قال: مَنْ هو من ولد العباس، فإني لا أثبت شخصه؟ قال: هو الرجل الذي كان يخاصمُ بين يديك، عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر. فقال أذكِرْني صورته وحلْيتَه، قال: هو الرجل الأقنى الحديد العَضَل، المعروق الوجه، الخفيف اللحية، الفصيح اللسان، الذي قلت لمّا سمعت كلامه يومئذ: يرزق الله البيان مَنْ يشاء، فقال: وإنه لهو! قال: نعم، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! أتعلم لم صَيّرتُ الأمرَ بعدي لولدي عبد الله، وابنى محمد أكبر سناً منه؟ قال: لا، قال: إن آباءنا أخبرُونا أنّ الأمر صائر بعدي إلى رجل اسمه عبد الله فوليته دونه.

ثم بعث مروان بعد أن حدّث صاحبه بهذا الحديث إلى عبد الله بن عليّ سرًّا، فقال: يابن عمّ، إنّ هذا الأمر صائر إليك، فاتق الله واحفظْني في حُرَمي، فبعث إليه عبد الله: إنّ الحقّ لنا في دمك، وإنّ الحق علينا في حُرَمك.

قلت: إن مروان ظنّ أن الخلافة تَكون لعبد الله بن عليّ، لأنّ اسمه عبد الله، ولم يعلم أنّها تكون لآخر اسمه عبد الله، وهو أبو العباس السفاح.

كان العَلاء بن رافع سِبْط ذي الكَلاع الحميريّ مؤنساً لسلمان بن هشام بن عبد الملك لا يكاد يفارقه، وكان أمر المسوّدة بخُراسان قد ظهر ودنوْا من العراق، واشتدّ إرجافُ الناس، ونطق العدو بما أحبّ في بني أمية وأوليائهم.

قال العلاء: فإنّي لمع سليمان وهو يشرب تجاه رُصافة أبيه، وذلك في آخر أيام يزيد الناقص، وعنده الحكَم الوادي، وهو يغنّيه بشعر العرْجيّ:

إنّ الحبيبَ تَروّحتْ أجمالُهُ ... أُصُلاً، فدمعك دائم إسبالُهُ
فاقْنِ الحياء فقد بكيتَ بعوْلَةٍ ... لو كان ينفع باكياً إعوالُهُ[1]

---

(١) رفع الصوت بالبكاء. اللسان، مادة (عول).

يا حَبّذا تلك الحمول وحَبّذا شخصٌ هناك، وحَبّذا أمثالُهُ!

فأجاد ما شاء، وشرب سليمان بن هشام بالرَّطْل، وشربنا معه حتى توسَّدْنا أيدينا، فلم أنتبه إلا بتحريك سليمان إياي، فقمت مسرعاً، وقلت: ما شأن الأمير؟ فقال: على رِسْلك، رأيت كأنّي في مسجد دمشق، وكأنّ رجلاً على يده حَجَر، وعلى رأسه تاج، أرى بصيصَ ما فيه من الجوهر، وهو رافع صوته بهذا الشعر:

أبني أميّة قد دنا تشتيتكُمْ وَذَهَاب ملككُمُ وليس براجِعِ

وينال صفوته عدوٌّ ظالمٌ كأساً لكم بسمام موت ناقع

فقلت: أعيذ الأمير بالله من وساوس الشيطان الرجيم! هذا من أضغاث الأحلام، ومما يقتضيه ويَجلبه الفكر، وسماع الأراجيف. فقال: الأمر كما قلتُ لك، ثم وَجَم ساعة، وقال: يا حميريّ، بعيدُ ما يأتي به الزمان قريب!

قال العلاء: فوالله ما اجتمعنا على شراب بعد ذلك اليوم.

سُئل بعضُ شيوخ بني أمية عَقِيب زوال الملك عنهم: ما كان سببُ زوال ملككم؟ فقال: جار عُمّالنا على رعيّتنا، فتمنّوا الراحة منّا، وتُحومل على أهل خراجنا فجلوْا عنا، وخرِبَت ضياعنا فخلَتْ بيوت أموالنا، ووثقْنا بوزرائنا، فآثروا مرافقَهم على منافعنا، وأمضوْا أموراً دوننا، أخفَوْا علمها عَنّا، وتأخّر جندنا، فزالت طاعتهم لنا، واستدعاهم عدوُّنا، فظافروه على حَرْبنا، وطلبنا أعداءنا فعجزنا عنهم لقلّة أنصارنا، وكان استتارُ الأخبار عَنّا من أوكد أسباب زوال مُلْكنا.

كان سعيد بن عمر بن جَعْدة بن هبيرة المخزوميّ، أحد وزراء مروان وسمّاره، فلمّا ظهرَ أمْر أبي العباس السفاح، انحاز إلى بني هاشم، ومتّ إليهم بأمّ هانىء بنت أبي طالب، وكانتْ تحتَ هُبيرة بن أبي وهب، فأتَتْ منه بجعْدة، فصار من خواصّ السفاح وبطانته، فجلس السَّفّاح يوماً، وأمر بإحضار رأس مروان وهو بالحيرة يومئذ، ثم قال للحاضرين: أيّكم يعرف هذا؟ فقال سعيد: أنا أعرفه، هذا رأس أبي عبد الملك مروان بن محمد بن مروان خليفتنا بالأمس، رحمه الله تعالى! قال سعيد: فحدّقت إليّ الشيعة، ورمتْني بأبصارها، فقال لي أبو العباس: في أيّ سنة كان مولده؟ قلت: سنة ست وسبعين، فقام وقد تغيَّر لونه غضباً عليّ، وتفرّق الناس من المجلس، وتحدّثوا به، فقلت: زلَّة والله لا تستقال ولا ينساها القوم أبداً! فأتيتُ منزلي، فلم أزل باقي يومي أعْهدُ وأوصي، فلما كان الليل اغتسلْتُ وتهيّأت للصلاة - وكان أبو العباس إذا

همّ بأمر بعث فيه ليلاً - فلم أزلْ ساهراً حتى أصبحتُ وركبت بغلتي، وأفكرت فيمن أقصِد في أمري، فلم أجد أحداً أوْلى من سليمان بن مجالد مولى بني زهرة، وكانت له من أبي العباس منزلة عظيمة، وكان من شيعة القوم، فأتيتُه، فقلت له: أذَكَرَني أمير المؤمنين البارحة؟ قال: نعم، جرى ذكرك، فقال: هو ابن أختنا، وفيّ لصاحبه، ونحن لو أولَيْناه خيراً لكان لنا أشكر. فشكرت لسليمان بن مجالد ما أخبرني به، وجزيتُه خيراً، وانصرفت. فلم أزل من أبي العباس على ما كنت عليه، لا أرى منه إلا خيراً.

ونما ذلك المجلس إلى عبد الله بن عليّ وإلى أبي جعفر المنصور، فأمّا عبد الله بن عليّ فكتب إلى أبي العباس يُغرِيه بي، ويعاتبه على الإمساك عَني، ويقول له: إنه ليس مثل هذا ممّا يحتمل، وكتب إليه أبو جعفر يُعْذِر لي، وضرب الدهر ضَرْبَهُ، فأتى ذات يوم عند أبي العباس، فنهض ونهضت، فقال لي: عَلَى رِسْلك يابن هبيرة! فجلست، فرفع السِّتْر، ودخل وثبتَ في مجلسه قليلاً، ثم خرج في ثَوْبَيْ وَشْي ورداء وجُبّة، فما رأيت والله أحسنَ منه ولا ممّا عليه قط، فقال لي: يابن هبيرة، إني ذاكرٌ لك أمراً، فلا يخرُجنّ من رأسك إلى أحد من الناس. قلت: نعم، قال: قد علمتَ ما جعلنا من هذا الأمر وولاية العهد لمن قتَل مروان، وإنما قتله عمّي عبد الله بجيشه وأصحابه ونفسه وتدبيره، وأنا شديد الفكر في أمر أخي أبي جعفر، في فَضْله وعلمه وسنّه وإيثاره لهذا الأمر، كيف أخرِجُه عنه! فقلت: أصلح الله أمير المؤمنين! إنّي أحدّثك حديثاً تعتبر به، وتستغني بسماعه عن مشاورتي، قال: هاته، فقلت: كنّا مع مسلمة بن عبد الملك عام الخليج بالقسطنطينية، إذ ورَدَ علينا كتاب عمر بن عبد العزيز ينعَى سليمان، ومصيرَ الأمر إليه، فدخلت إليه، فرمى الكتاب إليّ فقرأته، واسترجعت، واندفع يبكي وأطال، فقلت: أصلح الله الأمير وأطال بقاءه! إنّ البكاء على الأمر الفائت عجز، والموت منهلٌ لا بدّ من وِرْده، فقال: ويحك! إنّي لستُ أبكي على أخي، لكنّي أبكي لخروج الأمر عن ولد أبي إلى ولد عمّي! فقال أبو العباس: حسبُك، فقد فهمت عنك، ثم قال: إذا شئت فانْهَض، فلما نهضت لم أمض بعيداً حتى قال لي: يابن هبيرة! فالتفتّ إليه، فقال: أما إنّك قد كافأت أحدهما، وأخذت بثأرك من الآخر، قال سعيد: فوالله ما أدري من أيّ الأمرين أعجب! من فطنته أم من ذكره.

لما سايرَ عبدُ الله بن عليّ في آخر أيام بني أمية عبدَ الله بن حسن بن حسن، ومعهما داود بن عليّ، فقال داود لعبد الله بن الحسن: لم لا تأمرُ ابنيك بالظّهور؟ فقال عبد الله بن حسن: لم يأنِ لهما بعد، فالتفتَ إليه عبد الله بن عليّ، فقال: أظنّك ترى أنّ ابنيك قاتلا مروان! فقال عبد الله بن حسن: إنه ذلك، قال: هيهات! ثم تمثّل:

سيكفيك الجعالة مستميتٌ خفيف الحاذِ من فتيان جَرْم

أنا والله أقتل مروان، وأسلبه ملكه، لا أنت ولا ولدك!

وقد روى أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني رواية أخرى في سبب قتل السفاح لمن كان أمّنه من بني أمية، قال: حدّث الزبير بن بكّار، عن عَمّه، أنّ السفاح أنشِد يوماً قصيدة مُدِح بها، وعنده قوم من بني أمية كان آمنَهم على أنفسهم، فأقبل على بعضهم، فقال: أين هذا مما مُدِحتم به! فقال: هيهات! لا يقول والله أحد فيكم مثل قول ابن قيس الرقيّات فينا:

ما نقَموا من بني أميّة إلاّ أنهُمْ يحلُمون إن غَضِبُوا
وأنّهم معدِن الملوك فما تصلُح إلا عليهم العرب

فقال له: يا ماصّ كذا من أمّه! وإن الخلافة لفي نفسك بعد! خذوهم. فأخِذوا وقتِلوا.

وروى أبو الفرج أيضاً أنّ أبا العباس دعا بالغدَاء حين قُتِلوا، وأمر ببساط فبُسِط عليهم، وجلس فوقه يأكل وهم يضطربون تحته، فلما فرغ، قال: ما أعلم أنّي أكلتُ أكلة قطّ كانت أطيبَ ولا أهنأ في نفسي من هذه. فلما فرغ من الأكل قال: جُرُّوهم بأرجلهم، وألقوهم في الطريق، ليلعنَهم الناس أمواتاً كما لعنوهم أحياء.

قال: فلقد رأينا الكلاب تجرّهم بأرجلهم، وعليهم سراويلات الوشْي حتى أنْتَنوا، ثم حفرتْ لهم بئر فألقُوا فيها.

قال أبو الفرج: وروى عمر بن شبّة، قال: حدثني محمد بن معن الغِفَاريّ، عن معبد الأنباريّ، عن أبيه، قال: لما أقبل داود بن عليّ من مكة، أقبل معه بنو حسنٍ جميعاً، وفيهم عبد الله بن حسن بن حسن، وأخوه حسن بن الحسن، ومعهم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان - وهو أخو عبد الله بن الحسن لأمّه - فعمل داود مجلساً ببعض الطريق، جلس فيه هو والهاشميُّون كلّهم، وجلس الأمويّون تحتهم، فجاء ابن هرْمة فأنشده قصيدة يقول فيها:

فَلا عَفَا الله عن مَرْوان مظلِمةً ولا أميّة، بئس المجلس النادي!
كانوا كعادٍ فأمسى الله أهلكهمْ بمثل ما أهلك الغاوين مِنْ عَادِ
فلن يكذّبَني من هاشمٍ أحدٌ فيما أقول، ولو أكثرتُ تعدادِي

قال: فنبذ داود نحو عبد الرحمن بن عنبسة بن سعيد بن العاص ضَحْكةً كالكِشْرة، فلما قاموا قال عبد الله بن الحسن لأخيه الحسن بن الحسن: أما رأيت ضحك داود إلى ابن عنبسة! الحمد الله الذي صرَفَها عن أخي - يعني العثمانيّ - قال: فما هو إلا أن قدم المدينة، حتى قتل ابن عنبسة.

قال أبو الفرج: وحدّثني محمد بن معن قال: حدّثني محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، قال: استحلف أخي عبد الله بن الحسن داودَ بن علي - وقد حجّ معه سنة اثنتين وثلاثين ومائة - بطلاق امرأته مُلَيكة بنت داود بن الحسن، ألاّ يقتل أخويه محمداً والقاسم ابنَيْ عبد الله بن عمرو بن عثمان، قال: فكنت أختلِف إليه آمناً، وهو يقتل بني أمية، وكان يكره أنَ يراني أهل خراسان، ولا يستطيع إليّ سبيلاً ليمينه، فاستدناني يوماً، فَدَنوت منه، فقال: ما أكثر الغَفْلة، وأقلّ الحَزَمة! فأخبرت بها أخي عبدَ الله بن الحسن، فقال: يابن أمّ، تغيَّبْ عن الرجل، وأقِلّ عنه، فتغيب حتى مات.

قلت: إلاّ أنّ ذلك الدَّيْن الذي لم يقضه داود، قضاه أبو جعفر المنصور.

وروى أبو الفرج في الكتاب المذكور أن سُدَيفاً أنشد أبا العباس، وعنده رجال من بني أمية، فقال:

يابنَ عَمّ النبي أنت ضِيَاءٌ ... استبنّا بك اليقينَ الجليّا

[فلمّا بلغ قوله]:

جَرِّد السيفَ وارفع العفو حَتّى ... لا ترى فوق ظهرها أمويّا

قَطَنَ البغضُ في القديم وأضحى ... ثابتاً في قلوبهم مطويّا

وهي طويلة، فقال أبو العباس: يا سُدَيف، خُلِقَ الإنسان من عجل! ثم أنشد أبو العباس متمثّلاً:

أحيا الضغائن آباء لنا سَلَفُوا ... فلن تبيد وللآباء أبناءُ

ثم أمر بمن عنده فقتلوا.

وروى أبو الفرج أيضاً، عن عليّ بن محمد بن سليمان النوفلي، عن أبيه، عن عمومته، أنهم حضروا سليمان بن عليّ بالبصرة، وقد حضر جماعة من بني أمية عنده، عليهم الثياب الموشّاة المرتفعة - قال أحد الرواة المذكورين: فكأني أنظر إلى أحدهم وقد اسودّ شيب في عارضيه من الغالية - فأمر بهم فقتلوا وجُرّوا بأرجلهم، فألقُوا على الطريق، وإنّ عليهم لسراويلات الوَشي والكلاب تجرّهم بأرجلهم.

وروى أبو الفرج أيضاً عن طارق بن المبارك، عن أبيه، قال: جاءني رسولُ عمرو بن

معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان، قال: يقول لك [عمور]: قد جاءت هذه الدولة، وأنا حديث السنّ، كثير العيال، منتشِر الأموال، فما أكون في قبيلة إلا شُهر أمري وعرِفت. وقد عزمت على أن أخرج من الاستتار، وأفْدِيَ حُرَمي بنفسي، وأنا صائر إلى باب الأمير سليمان بن عليّ، فصرْ إليّ. فوافيتُه فإذا عليه طيلسانٌ[1] أبيض مطبَق، وسراويل وَشْيٍ مسدول، فقلت: يا سبحان الله! ما تصنع الحداثة بأهلها! أبهذا اللباس تَلْقَى هؤلاء القوم لِمَا تَريد لقاءهم [فيه]! فقال: لا والله، ولكن ليس عندي ثوب إلا أشهر ممّا تَرَى. فأعطيته طَيْلساني وأخذت طيلسانه، ولويتُ سراويله إلى ركبتيه. فدخل إليّ سليمان، ثم خرج مسروراً فقلت له: حدّثني ما جرى بينك وبين الأمير، قال: دخلت عليه ولم يرني قطّ، فقلت: أصلح الله الأمير! لفظتْني البلاد إليك ودلّني فضلُك عليك، إمّا قتلتَني [غانماً] وإمّا أمّنتني [سالماً]، فقال: ومَنْ أنت حتى أعرفك؟ فانتسبت له، فقال: مرحباً بك! اقعد فتكلّم سالماً آمناً، ثم أقبلَ عليّ فقال: حاجتك يابن أخي؟ فقلت: إن الحُرَم اللواتي أنت أقربُ الناس إليهنّ معنا، وأولى الناس بهنّ بعدنا، قد خفْن لخوفنا، ومَنْ خاف خِيف عليه. فوالله ما أجابني إلا بدموعه على خدّيه، ثم قال: يابن أخي، يحقِنُ الله دمك، ويحفظك في حُرَمك، ويوفّر عليك مالك، فوالله لو أمكنني ذلك في جميع قومك لفعلت، فكن متوارياً كظاهر، وآمناً كخائف، ولْتأتِنِي رقاعُك. قال: فوالله لقد كنتُ أكتب إليه كما يكتبُ الرجل إلى أبيه وعمه. قال: فلما فرغ من الحديث، رددت عليه طيلسانه، فقال: مهلاً، فإن ثيابنا إذا فارقتنا لم ترجع إلينا.

وروى أبو الفرج الأصفهانيّ، قال: أخبرني أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ، عن عمر بن شبّة، قال: قال سُدَيف لأبي العباس يحضّه على بني أمية، ويذكر من قتل مَرْوان وبنو أمية من أهله:

كيف بالعفو عنهمُ وقديماً ... قَتَّلوكم وهَتَّكوا الحرماتِ

أين زيدٌ وأين يحيى بن زيد! ... يا لها من مصيبة وتِرَاتِ!

والإمام الذي أصيب بحرّا ... ن إمام الهدى ورأس الثقاتِ

قتلوا آل أحمد لا عفا الذّنْبَ ... لمروان غافرُ السّيّئاتِ

قال أبو الفرج: وأخبرَني عليّ بن سليمان الأخفش، قال: أنشدني محمد بن يزيد المبرّد لرجل من شيعة بني العباس، يحضّهم على بني أمية:

---

(١) طيلسان: ضرب من الأكسية، أسود. اللسان، مادة (طلس).

إيـاكـمُ أن تـلـيـنـوا لاعـتـذارهِـمُ — فـلـيـس ذلـك إلاّ الـخـوف والـطـمـعُ
لـو أنّـهـم أمِـنُـوا أبـدوْا عـداوتـهـمْ — لـكـنّـهـم قُـمِـعوا بـالـذلّ فـانـقـمـعوا
ألـيـس في ألـف شـهـر قد مـضت لـهـمُ — سـقـيـتـمُ جُـرَعـاً مـن بـعـدهـا جُـرَعُ
حتى إذا مـا انـقـضـت أيـام مـدّتـهـمْ — متُّوا إليكـم بـالارحـام الـتـي قـطـعـوا
هـيـهـات لا بـدّ أن يـسـقـوا بـكـأسـهـمُ — رَيًّا وأن يَـحْـصُـدوا الـزرع الـذي زرعُـوا
إنّـا وإخـوانَـنـا الأنـصـارَ شـيـعـتُـكـم — إذا تـفـرقـت الأهـواء والـشّـيَـعُ

قال أبو الفرج: وروى ابن المعتز في قصة سُدَيف مثل ما ذكرناه من قبل، إلا أنّه قال فيها: فلما أنشده ذلك التفت إليه أبو الغَمْر سليمان بن هشام، فقال: يا ماصّ بَظْرامه، أتَجْبَهُنَا[1] بمثل هذا ونحن سَرَوات الناس! فغضِب أبو العباس - وكان سليمان بن هشام صديقه قديماً وحديثاً، يقضي حوائجه في أيامهم ويَبَرُّهُ - فلم يلتفت إلى ذلك، وصاح، بالخُراسانية: [خذوهم]! فقتّلوهم جميعاً إلا سليمان بن هشام، فأقبل عليه أبو العباس، فقال: يا أبا الغَمْر: ما أرى لك في الحياة بعد هؤلاء خيراً. قال: لا والله، قال: فاقتلوه، وكان إلى جنبه فقتِل وصلِبوا في بستانه، حتى تأذّى جلساؤه بريحهم، فكلّموه في ذلك، فقال: والله إن ريحهم عندي لألذّ وأطيب من ريح المسك والعنبر غيظاً عليهم [وحنقاً].

قال أبو الفرج: وكان أبو سعيد مولى فائد من مواليهم يعدّ في موالي عثمان بن عفان واسم أبي سعيد إبراهيم، وهو من شعرائهم الذين رثوْهم، وبكوا على دولتهم وأيامهم، فمن شعره بعذ زوال أمرهم:

بـكـيـتُ ومـاذا يـردُّ الـبـكـاءْ — وقَـلّ الـبُـكَـاء لـقـتـلَـى كَـدَاءْ
أصـيـبـوا مـعـاً فـتـولّـوْا مـعـاً — كـذلـك كـانـوا مـعـاً فـي رَخَـاءْ
بـكـت لـهـمُ الأرضُ مـن بـعـدِهـمْ — ونـاحـت عـلـيـهـمْ نـجـومُ الـسـمـاءْ
وكـانـوا ضـيـاءً فـلـمـا انـقـضـى — الـزّمـان بـقـومـي تـولـى الـضـيـاءْ

ومن شعره فيهم:

أثَّـر الـدّهـرُ فـي رجـالـي فَـقَـلُّـوا — بعد جَمْع فراح عظمِي مَهِيضَا[2]

---

(١) جَبَهَهُ: رده أو لقيه بما يكره. القاموس، مادة (جَبَهَ).

(٢) مهيض: هاض العظم هيضاً: كسره بعدما كاد ينجبر. اللسان، مادة (هيض).

ما تذكّرتُهمْ فتملك عيني ... فيضَ دمع، وحقّ لي أن تفيضَا

ومن شعره فيهم:

أولئك قومي بعد عِزّ وثروةٍ ... تداعوْا فإلّا تذرِف العين أكْمَد

كأنهمُ لا ناس للموت غيرهُمْ ... وإن كان فيهم منصفاً غير مُعْتدِ

وقال أبو الفرج: ركبَ المأمون بدمشق يتصيّد، حتى بلغ جبل الثلْج، فوقف في بعض الطريق على بِرْكة عظيمة، في جوانبها أربع سرَوات، لم يُرَ أحسن منها، فنزل هناك، وجعل ينظر إلى آثار بني أميّة وَيعْجَب منها، ويذكرهم. ثم دعا بطبقٍ عليه طعام، فأكل، وأمر علّويه فغنى:

أولئك قومي بعد عزّ ومنعة ... تَفَانَوْا فإلّا تذرف العين أكْمَدِ

وكان علّويه من موالي بني أمية، فغضب المأمون. وقال: يابن الفاعلة، ألم يكن لك وقت تبكي فيه على قومك إلا هذا الوقت! قال: كيف لا أبكي عليهم ومولاكم زرياب، كان في أيام دولتهم يركب معهم في مائة غلام، وأنا مولاهم معكم أموت جوعاً! فقام المأمون فركب وانصرف الناس، وغضب على علّويه عشرين يوماً، وكُلِّم فيه فرضي عنه، ووصله بعشرين ألف درهم.

لما ضرب عبد الله بن عليّ أعناق بني أميّة، قال له قائل من أصحابه: هذا والله جهد البلاء، فقال عبد الله: كلاّ، ما هذا وشَرْطة حجّام إلاّ سواء، إنما جهد البلاء فَقْر مدقع، بعد غنًى موسع.

خطب سليمان بن عليّ لما قَتَل بني أمية بالبصرة، فقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[1] قضاء فصل، وقول مبرم، فالحمد لله الذي صدق عبده، وأنجز وعده، وبعداً للقوم الظالمين، الذين اتخذوا الكعبة غرَضاً، والدين هزواً، والفيء إرثاً، والقرآن عِضِين، لقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون. وكأيّن ترى لهم من بئر معطّلة وقصر مشيد، ذلك بما قدّمت أيديهم، وما ربّك بظلام للعبيد، أمهلهم حتى اضطهدوا العِتْرَة، ونبذوا السنّة، واستفتحوا وخاب كلّ جبار عنيد، ثم أخذهم فهل تُحسُّ منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً!

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.

ضرب الوليد بن عبد الملك عَليّ بن عبد الله بن العباس بالسِّياط، وشَهَره بين الناس يُدار به على بعير، ووجهه مما يَلِي ذَنَب البعير، وصائح يصيح أمامه: هذا عليّ بن عبد الله الكذّاب، فقال له قائل، وهو على تلك الحال: ما الذي نسبوك إليه من الكذب ياأبا محمد؟ قال: بلغهم قولي: إن هذا الأمر سيكون في ولَدِي، والله ليكوننّ فيهم حتى يَمْلِكَهُ عبيدهم الصغار العيون، العراض الوجوه، الذين كأن وجوههم المجانّ المطرَّقة.

وروي أنّ عليّ بن عبد الله دخل على هشام ومعه ابنا ابنه: الخليفتان أبو العباس وأبو جعفر، فكلّمه فيما أراد، ثمّ ولّى فقال هشام: إنّ هذا الشيخ قد خرِف وأهْتَر، يقول: إن هذا الأمر سينتقل إلى ولده! فسمع عليّ بن عبد الله كلامه، فالتفت إليه، وقال: إي والله ليكوننّ ذلك، وليملكنّ هذان.

وقد روى أبو العباسَ المبرّد في كتاب «الكامل» هذا الحديث، فقال: دخل عليّ بن عبد الله بن العباس على سليمان بن عبد الملك فيما رواه محمد بن شجاع البلخيّ، ومعه ابنا ابنه الخليفتان بعد: أبو العباس وأبو جعفر، فأوسع له على سريره وبرّه، وسأله عن حاجته، فقال: ثلاثون ألف درهم عليّ دين، فأمر بقضائها، قال: واستوص بابنيّ هذين خيراً، ففعل، فشكره عليّ بن عبد الله، وقال: وصلتك رَحِم، فلما ولّى قال سليمان لأصحابه: إنّ هذا الشيخ قد اختلّ وأسنّ وخَلّط، وصار يقول: إنّ هذا الأمر سينتقل إلى ولده. فسمع ذلك عليّ بن عبد الله، فالتفت إليه، وقال: إي والله ليكوننّ ذلك، وليملكنّ هذان.

قال أبو العباس المبرِّد: وفي هذه الرواية غلط، لأنّ الخليفة في ذلك الوقت لم يكن سليمان، وإنما ينبغي أن يكون دخل على هشام، لأنّ محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس كان يحاول التزويج في بني الحارث بن كعب، ولم يكن سليمان بن عبد الملك يأذن له، فلمّا قام عمر بن عبد العزيز جاء فقال: إنّي أردت أنْ أتزوّج ابنة خالي من بني الحارث بن كعب، أتزوّج ابنة خالي من بني الحارث بن كعب، فتأذن لي! فقال عمر بن عبد العزيز: تزوجْ يرحمك الله مَنْ أحببت. فتزوّجها فأولدها أبا العباس السّفاح، وعمر بن عبد العزيز بعد سليمان، وأبو العباس ينبغي ألا يكون تهيأ لمثله أن يدخل في خليفة حتى يترعرع، ولا يتمّ مثل هذا إلا في أيام هشام بن عبد الملك[1].

قال أبو العباس المبرِّد: وقد جاءت الرواية أنّ أمير المؤمنين عليًا عليه السلام لما وُلِد لعبد الله بن العباس مولود فقده وقت صلاة الظهر، فقال: ما بالُ ابن العبّاس لم يحضُر! قالوا: وِلِد له ولد

(١) الكامل: ٣٦١ (طبع أوروبا) مع اختلاف الرواية.

ذكر، يا أمير المؤمنين. قال: فامضُوا بنا إليه، فأتاه فقال له: شكرتَ الواهب، وبُورك لك في الموهوب! ما سميّتَه؟ فقال: يا أمير المؤمنين، أو يجوز لي أن أسمِّيَه حتى تسمّيَه! فقال: أخرجه إليّ، فأخرجه، فأخذه فحنَّكه ودعا له ثم رده إليه، وقال: خذ إليك أبا الأملاك، قد سميتُه عليًّا، وكنيته أبا الحسن. قال: فلما قدم معاوية خليفة، قال لعبد الله بن العبّاس: لا أجمع لك بين الاسم والكنية، قد كنيته أبا محمد، فجرَتْ عليه[1].

قلت: سألتُ النقيب أبا جعفر يحيى بن محمد بن أبي زيد رحمه الله تعالى، فقلت له: مِنْ أيّ طريق عرف بنو أمية أنّ الأمر سينتقل عنهم، وأنّه سيليه بنو هاشم، وأوّل من يلي منهم يكون اسمه عبد الله؟ ولم منعوهم عن مناكحة بني الحارث بن كعب لعلمهم أنّ أول من يلي الأمر من بني هاشم تكون أمّه حارثيّة؟ وبأيّ طريق عرف بنو هاشم أنّ الأمر سيصير إليهم، ويملكه عبيدُ أولادهم، حتى عرفوا صاحب الأمر بعينه، كما قد جاء في هذا الخبر!

فقال: أصلُ هذا كلّه محمد بن الحنفيّة، ثم ابنه عبد الله المكنّى أبا هاشم.

قلت له: أفكان محمد بن الحنفيّة مخصوصاً من أمير المؤمنين عليه السلام بعلم يستأثر به على أخويه حسن وحسين عليهما السلام؟ قال: لا، ولكنهما كتما وأذاع. ثم قال: قد صحّت الرواية عندنا عن أسلافنا وعن غيرهم من أرباب الحديث، أنّ علياً عليه السلام لما قبِض أتى محمد ابنه أخويه حسناً وحسيناً عليهما السلام، فقال لهما: أعطياني ميراثي من أبي، فقالا له: قد عَلِمْتَ أنّ أباك لم يترك صَفْراء ولا بيضاء، فقال: قد علمت ذلك، وليس ميراث المال أطلب، إنما أطلب ميراث العلم.

قال أبو جعفر رحمه الله تعالى: فروى أبان بن عثمان عَمّن يُروى له ذلك، عن جعفر بن محمد عليه السلام، قال: فدفعا إليه صحيفة، لو أطلعاه على أكثر منها لهلك، فيها ذكر دولة بني العباس.

قال أبو جعفر: وقد رَوَى أبو الحسن عليّ بن محمد النوفليّ، قال: حدثني عيسى بن عليّ بن عبد الله بن العباس، قال: لما أردنا الهرَب من مروان بن محمد، لما قبض على إبراهيم الإمام جعلنا نسخة الصحيفة التي دفعها أبو هاشم بن محمد بن الحنفيّة إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، وهي التي كان آباؤنا يسمّونها صحيفة الدولة، في صندوق من نحاس صغير، ثم دفناه تحت زيتونات بالشّراة لم يكن بالشّراة من الزيتون غيرهنّ، فلما أفضى السلطان إلينا، وملكنا الأمر، أرسلنا إلى ذلك الموضع فبحث وحُفر، فلم يوجد فيه شيء، فأمرنا بحفر جريب من الأرض في ذلك الموضع، حتى بلغ الحفر الماء ولم نجد شيئاً.

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ١٠٢/٤٢.

قال أبو جعفر: وقد كان محمد بن الحنفيّة صرّح بالأمر لعبد الله بن العباس وعرّفه تفصيله، ولم يكن أمير المؤمنين عليه السلام قد فصّل لعبد الله بن العباس الأمر، وإنما أخبره به مجملاً، كقوله في هذا الخبر: «خذ إليك أبا الأملاك»، ونحو ذلك مما كان يعرّض له به، ولكن الذي كشف القناع، وأبرز المستور عليه هو محمد بن الحنفيّة.

وكذلك أيضاً ما وصل إلى بني أمية من علْم هذا الأمر، فإنه وصل من جهة محمد بن الحنفيّة، وأطلعهم على السرّ الذي علمه، ولكن لم يكشف لهم كشفه لبني العباس، فإنّ كشفهُ الأمر لبني العباس كان أكمل.

قال أبو جعفر: فأما أبو هاشم، فإنه قد كان أفضى بالأمر إلى محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس وأطلعه عليه، وأوضحه له، فلما حضرته الوفاة عَقيب انصرافه من عند الوليد بن عبد الملك مَرّ بالشراة، وهو مريض ومحمد بن علي بها، فدفع إليه كتبه، وجعله وصيّه، وأمر الشيعة بالاختلاف إليه.

قال أبو جعفر: وحضر وفاة أبي هاشم ثلاثة نفر من بني هاشم: محمد بن عليّ هذا، ومعاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، فلما مات خرج محمد بن معاوية بن عبد الله بن جعفر من عنده، وكلّ واحد منهما يدّعي وصايتَه، فأمّا عبد الله بن الحارث فلم يقل شيئاً.

قال أبو جعفر رحمه الله تعالى: وصدق محمد بن عليّ، أنّه إليه أوصى أبو هاشم، وإليه دفع كتاب الدولة، وكَذَب معاوية بن عبد الله بن جعفر، لكنّه قرأ الكتاب، فوجد لهم فيه ذِكْراً يسيراً، فادّعى الوصية بذلك، فمات وخرج ابنُه عبد الله بن معاوية يدّعي وصاية أبيه، ويدّعي لأبيه وصاية أبي هاشم، ويظهر الإنكار على بني أمية، وكان له في ذلك شيعة يقولون بإمامته سرًّا حتى قتل.

دخلتْ إحدى نساء بني أميّة على سليمان بن علي، وهو يقتل بني أمية بالبصرة، فقالت: أيها الأمير، إنّ العدل لَيُمَلّ من الإكثار منه، والإسراف فيه، فكيف لا تملّ أنت من الجوْر وقطيعة الرحم! فأطرق ثم قال لها:

سَنَنْتُمْ علينا القتل لا تنكِرُونه فذوقوا كما ذقْنا على سَالِف الدَّهرِ

ثم قال: يا أمَة الله.

وأول راضٍ سنّة مَنْ يَسِيرُها

ألم تحاربوا علياً وتدفعوا حقه؟ ألم تَسُمُّوا حسناً وتنقضوا شرطه؟ ألم تقتلُوا حسيناً وتسيّرا رأسه؟ ألم تقتلوا زيداً وتصلبوا جسده؟ ألم تقتلوا يحيى وتمثلوا به؟ ألم تلعنوا علياً على

منابركم؟ ألم تضربوا أبانا عليّ بن عبد الله بسياطكم؟ ألم تخنقوا الإمام بجراب النّورة[1] في حبسكم؟ ثم قال: ألكِ حاجة؟ قالت: قَبض عُمّالك أموالي، فأمر برد أموالها عليها.

لما سار مَرْوان إلى الزّاب، حفر خندقاً، فسار إليه أبو عون عبد الله بن يزيد الأزديّ، وكان قَحطبة بن شبيب قد وجّهه وأمدّ أبو سلمة الخلاّل بأمداد كثيرة، فكان بإزاء مرْوان. ثم إن أبا العباس السفاح قال لأهله وهو بالكوفة حينئذ: مَنْ يسير إلى مَرْوان من أهل بيتي وله ولاية العهد إن قتله؟ فقال عبد الله عمّه: أنا، قال: سرْ على بركة الله، فسار فقدم على أبي عَوْن، فتحول له أبو عون عن سُرادقه وخلاّه له بما فيه. ثم سأل عبد الله عن مخاضةٍ في الزّاب، فدلّ عليها، فأمر قائداً من قوّاده فعبرَها في خمسة آلاف، فانتهى إلى عسكر مَرْوان فقاتلهم، حتى أمسوْا وتحاجزوا، ورجع القائد بأصحابه، فعبرَ المخاضة إلى عسكر عبد الله بن عليّ، وأصبح مروان، فعقد جسراً، وعَبَر بالجيش كلّه إلى عبد الله بن عليّ، فكان ابنه عبد الله بن مروان في مقدمته، وعلى الميمنة الوليد بن معاوية بن عبد الملك بن مروان، وعلى الميسرة عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز بن مروان، وعبّأ عبد الله بن علي جيشه، وتراءى الجمعان، فقال مروان لعبد العزيز بن عمر: انظر، فإن زالت الشمس اليوم ولم يقاتلونا كنا نحن الذين ندعها إلى عيسى ابن مريم، وإن قاتلونا قبل الزوال، فإنا لله وإنا إليه راجعون! ثم أرسل إلى عبد الله بن علي يسأله الكفّ عن القتال نهار ذلك اليوم، فقال عبد الله: كذب ابن زربي إنما يريد المدافعة إلى الزوال، لا والله لا تزول الشمس حتى أوطئه الخيل إن شاء الله. ثم حرك أصحابه للقتال، فنادى مروان في أهل الشام: لا تبدءوهم بالحرب، فلم يسمع الوليد بن معاوية منه، وحمل على ميسرة عبد الله بن عليّ، فغضب مروان وشَتَمه، فلم يسمع له واضطرمت الحرب، فأمر عبد الله الرماة أن ينزلوا، ونادى: الأرض الأرض! فنزل الناس، ورمت الرماة، وأشرعت الرماح وجَثَوْا على الرُّكب، فاشتدّ القتال، فقال مروان لقضاعة: انزلوا، قالوا: حتى تنزل كِنْدة، فقال لكندة: انزلوا، فقالوا: حتى تنزل السَّكاسك، فقال لبني سليم: انزلوا، فقالوا: حتى تنزل عامر، فقال لتميم: احملوا، فقالوا: حتى تحمِلَ بنو أسد، فقال لهوازن: احملوا، قالوا: حَتّى تحمل غَطَفان، فقال لصاحب شرْطته: احْمِل ويلك! قال: ما كنتُ لأجعل نفسي غَرَضاً، قال: أما والله لأسوأنّك، قال: وددت أنّ أميرَ المؤمنين يقدر على ذلك! فانهزم عسكرُ مروان وانهزم مروان معهم، وقطع الجسر، فكان مَنْ هلك غرقاً أكثرَ ممنّ هلك تحت السيف، واحتوى عبد الله بن عليّ على عسكر مروان بما فيه، وكتب إلى أبي العباس يخبره الواقعة.

---

(١) النورة: من الحجر الذي يحرق ويسوى منه الكلس ويحلق به شعر العانة. اللسان، مادة (نور).

كان مَرْوان سديدَ الرأي، ميمون النقيبة، حازماً، فلما ظهرت المسوّدة، ولقيهم كان ما يدبّر أمراً إلا كان فيه خلل، ولقد وقف يوم الزّاب، وأمر بالأموال فأخرجت، وقال للناس: اصبروا وقاتلوا، وهذه الأموال لكم، فجعل ناسٌ يصيبون من ذلك المال ويشتغلون به عن الحرب، فقال لابنه عبد الله: سِرْ في أصحابك فامنع مَنْ يتعرّض لأخذ المال، فمال عبد الله برايته، ومعه أصحابه، فتنادَى الناسُ: الهزيمة! الهزيمة! فانهزموا، وركب أصحابُ عبد الله بن عليّ أكتافهم.

لما قتل مروانِ ببوصير، قال الحسن بن قحطبة: أخرجوا إليّ إحدى بنات مَرْوان، فأخرجوها إليه وهي تُرْعد، قال: لا بأس عليك! قالت: وأيّ بأس أعظمُ من إخراجك إياي حاسرة، ولم أر رجلاً قبلك قَطُّ! فأجلسها، ووضع رأس مروان في حِجْرها، فصرخت واضطربت فقيل له: ما أردت بهذا؟ قال: فعلت بهم فعلهم بزيد بن علي لمّا قتلوه، جعلوا رأسه في حجر زينب بنت عليّ بن الحسين عليه السلام.

دخلت زوجةُ مَرْوان بن محمد، وهي عجوز كبيرة، على الخيزُران في خلافة المهديّ، وعندها زينبُ بنت سليمان بن عليّ، فقالت لها زينب: الحمد لله الّذي أزال نعمتَك، وصيَّرك عِبْرة! أتذكرين يا عدوة الله، حين أتاك نساؤنا يسألْنكِ أن تكلّمي صاحبَك في أمر إبراهيم بن محمد، فلقيتهنّ ذلك اللقاء، وأخرجتِهنّ ذلك الإخراج! فضحكت، وقالت: أيْ بنتَ عَمّي! وأيّ شيء أعجبَك من حُسْن صنيع الله بي عقيب ذلك، حتى أردتِ أن تتأسَّيْ بي فيه! ثم ولّت خارجة.

بويع أبو العباس السفاح بالخلافة يوم الجمعة، لثلاث عشرة ليلة خَلَوْن من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين ومائة، فصعِد المنبر بالكوفة فخطب، فقال: الحمدُ لله الّذي اصْطَفى الإسلام لنفسه، وكَرّمه وشَرّفه وعَظّمه، واختَارَهُ لنا، وأيّده بنا، وجعلنا أهله وكهفَه، وحصْنه والقوّام به، والذّابين عنه، والناصرين له، وخَصّنا برحم رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنبتَنا من شَجَرتِه، واشتقّنا من نَبْعتِه، وأنزل بذلك كتاباً يتلى، فقال سبحانه: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[1]، فلما قُبِض رسول الله صلى الله عليه وآله، قام بالأمر أصحابه ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[2] فعلوا، وخرجوا خِمَاصاً، ثم وثبت بنو حَرْب وبنو مروان فابتزُّوها وتداولوها، واستأثروا بها، وظلموا أهلها،

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٣.　　(٢) سورة الشورى، الآية: ٣٨.

فأملى الله لهم حيناً، فلمّا آسفوه انتقم منهم بأيدينا، وردّ علينا حَقّنا، فأنا السَّفّاحُ المبيح والثائر المبير.

وكان مؤعوكاً فاشتدت عليه الوعْكة، فجلس على المنبر ولم يستطع الكلام فقام عمه داود بن عليّ وكان بين يديه، فقال:

يا أهلَ العراق، إنا والله ما خَرَجْنا لنحفِر نَهراً، ولا لنكنز لُجَيْناً ولا عِقْياناً، وإنما أخرجتْنا الأَنفة من ابتزاز الظالمين حقّنا، ولقد كانت أموركم تتصل بنا فَترْمِضُنا ونحن على فُرُشنا، لكم ذمّة الله وذمّة رسوله، وذمة العباس، أن نحكم فيكم بما أنزل الله، ونعمل فيكم بكتاب الله، ونسير فيكم بسنّة رسول الله ﷺ. واعلموا أنّ هذا الأمر ليس بخارج عنا حتى نسلِمه إلى عيسى بن مريم.

يا أهل الكوفة، إنه لم يخطب على مِنبركم هذا خليفة حقّ إلا عليّ بن أبي طالب وأمير المؤمنين هذا، فاحمَدُ الله الذي رَدّ إليكم أمورَكم. ثم نزل.

وقد روى حديث خطبة داود بن عليّ برواية أخرى، وهي الأشهر، قالوا: لما صعد أبو العباس مِنْبر الكوفة، حُصِر فلم يتكلم، فقام داود بن عليّ، وكان تحت منبره حتى قام بين يديه تحته بِمرْقاة، فاستقبل الناس، وقال:

أيها النّاس، إن أمير المؤمنين يكرَه أن يتقدّم قولُه فعلَه، ولأَثرُ الفعال أجْدَى عليكم من تشقيق المقال، وحسبكم كتاب الله تمثّلاً فيكم، وابن عمّ رسول الله ﷺ خليفةً عليكم، أقسم بالله قَسَماً بَرًّا ما قام هذا المقام أحدٌ بعد رسول الله ﷺ أحقُّ به من عليّ بن أبي طالب وأمير المؤمنين هذا فليهمسْ هامِسُكم، ولينطق ناطقكم. ثم نزل.

ومن خطب داود التي خطب بها بعد قتل مَرْوان:

شُكْراً شُكْراً! أظَنَّ عدوّ الله أن لن يُظْفَر به، أرخى له في زمامه، حتى عثر في فضل خِطامه، فالآن عاد الحقّ إلى نصابه، وطلعت الشمس من مطلعها، وأخذَ القوسَ باريها، وصار الأمر إلى النُّزَعة، ورجع الحقّ إلى مستقرّه، أهل بيت نبيكم، أهل الرأفة والرحمة.

وخطب عيسى بن عليّ بن عبد الله بن العباس لما قُتِل مَرْوان، فقال: الحمد لله الذي لا يفوقه مَنْ طلب، ولا يُعجزُه مَنْ هرب، خدعتْ والله الأشقرَ نفسُه، إذ ظنّ أن الله ممهله، ويأبى

الله إلاّ أن يُتمّ نورَه ولو كَرِهَ الكافرون، فحتى مَتَى؟ وإلى متى! أما والله لقد كَرِهَتْهُمُ ٱلْعِيدَان التي افْتَرعوها، وأمسكت السماء دَرّها، والأرض رَيْعها وقَحَلَ الضَّرْعُ وجَفَز الفنيقُ، وأسْمَل جلباب الدّين، وأُبْطِلت الحدُود، وأهدِرَت الدماء، وكان ربّك بالمرصاد، فدمّدَم عليهم ربهم بذنبهم فسوّاها، ولا يَخاف عُقباها، وملّكنا الله أمرَكم، عبادَ الله لينظر كيف تعملون، فالشكر الشكر، فإنّه من دواعِي المزيد، أعاذنا الله وإياكم من مُضِلاّت الأهواء، وبغتات الفتن فإنما نحن به وله.

لما أمعن داود بن عليّ في قَتْل بني أمية بالحجاز قال له عبد الله بن الحسن عليه السلام: يا بن عمي، إذا أفرطت في قتل أكفائك فمَنْ تُباهي بسلطانك! وما يكفيك منهم أن يروْك غادياً ورائحاً فيما يسرّك ويسوءُهم!

كان داود بن عليّ يمثِل ببني أمية، يسمُل العيون، ويبقُرُ البطون، ويَجْدَعُ الأنوف ويصطلم الآذان. وكان عبد الله بن علي بنهر أبي فُطْرُس يصلُبهم منكّسين، ويسقيهم النُّوْرة والصّبرِ، والرّماد والخلّ، ويقطع الأيدي والأرجل. وكان سليمان بن عليّ بالبصرة يضرب الأعناق.

خطب السفاح في الجمعة الثانية بالكوفة فقال:

يا أيُّها الذين آمنوا أوفوا بالعقود، والله لا أعِدكم شيئاً ولا أتوعّدكم إلا وفّيت بالوعْد والوعيد، ولأعمَلنّ اللين حتى لا تنفع إلا الشدّة، ولأغمِدَنّ السيف إلا في إقامة حَدّ، أو بلوغ حَقّ، ولأعطينّكم حتى أرى العطية ضياعاً. إنّ أهل بيت اللعنة والشَّجَرة الملعونة في القرآن، كانوا لكم أعداء لا يرجعون معكم من حالة إلا إلى ما هو أشدّ منها، ولا يلي عليكم منهم والٍ إلا تمنيتم مَنْ كان قبله، وإن كان لا خير في جميعهم، منعوكم الصّلاة في أوقاتها وطالبوكم بأدائها في غير وقتها، وأخذوا المدبِر بالمقبِل، والجار بالجار، وسلّطوا شراركم على خياركم، فقد محق الله جَوْرَهم، وأزهق باطلَهم بأهل بيت نبيكم، فما نؤخر لكم عطاء، ولا نضيع لأحد منكم حقًّا، ولا نجهزّكم في بعث، ولا نخاطر بكم في قتال، ولا نبذلكم دون أنفسنا، والله على ما نقول وكيل بالوفاء والاجتهاد، وعليكم بالسمع والطاعة. ثم نزل.

كان يقال: لو ذهبتْ دولة بني أميّة على يد غير مروان بن محمد، لقيل: لو كان لها مَرْوان لما ذهبت.

كان يقال: إنّ دولة بني أمّية آخرها خليفة أُمّه أمَة، فلذلك كانوا لا يعهدون إلى بني الإماء

منهم، ولو عَهِدُوا إلى ابن أمَة لكان مسلمة بن عبد الملك أولاهم بها، وكان انقراضُ أمرِهم على يد مروان وأمّه أمَة، كانت لمصعب بن الزبير، وُهِبَها من إبراهيم بن الأشتر، فأصابها محمد بن مروان يوم قَتَل ابنَ الأشتر، فأخذها من ثَقَله، فقيل: إنها كانت حاملاً بمرْوان، فولدته على فراش محمد بن مروان، ولذلك كان أهل خراسان ينادونه في الحرب: يابن الأشتر.

قيل أيضاً: إنها كانتْ حاملاً به من مصعب بن الزبير، وإنّه لم تَطُل مَدّتها عند إبراهيم بن الأشتر، حتى قتِل فوضعت حَمْلها على فراش محمد بن مرْوان، ولذلك كانت المسوّدة تصيح به في الحرب: يابن مصعب! ثم يقولون: يابن الأشتر! فيقول: ما أبالي أيُّ الفَحْلين غَلَب عليّ!

لما بُويع أبو العباس جاءه ابنُ عياش المنتوف، فقبّل يده وبايعه، وقال: الحمدُ لله الذي أبدلنا بحِمَار الجزيرة، وابن أمَة النَّخَع، ابن عمّ رسول الله ﷺ، وابن عبد المطلب.

لما صعِد السّفاح مِنْبر الكوفة يوم بيعته، وخطب الناس، قام إليه السيّد الحميري، فأنشده:

دونَكُموها يا بني هاشم ... فجدِّدوا من آيها الطّامِسَا
دونكُموها لا علا كعبُ مَنْ ... أمسى عليكمْ مُلكُها نافِسَا
دُونكُموها فالبسُوا تاجَها ... لا تعدمُوا منكمْ لهُ لابِسَا
خلافةُ الله وسلطانهُ ... وعُنْصُرٌ كان لكم دَارسَا
قَدْ ساسَها مِنْ قبلكم سَاسَةٌ ... لم يتركوا رَطْباً ولا يَابسَا
لو خُيِّر المنبرُ فرسانه ... ما اختارَ إلا منكمُ فارسَا
والمُلْك لو شُووِر في سائسٍ ... لما ارتضَى غيرَكم سائِسا
لم يُبْقِ عبدُ الله بالشام مِنْ ... آل أبي العاص امْرَءًا عاطِسَا
فلستُ من أنْ تملِكوها إلى ... هُبوط عيسى منكمُ آيسَا

قال داود بن عليّ لإسماعيل بن عمرو بن سعيد بن العاص بعد قَتْله مَنْ قَتلَ من بني أميّة: هل علمتَ ما فعلتُ بأصحابك؟ قال: نعم، كانوا يداً فقطعتها، وعَضداً ففتتَ فيها، ومِرّةً فنقضتها، وجنَاحاً فحصصتها، قال: إني لخليق أن ألحقك فيهم، قال: إني إذاً لسعيد!

لما استوثق الأمر لأبي العباس السفاح، وفد إليه عشرة من أمراء الشام، فحلفوا له بالله وبطلاق نسائهم، وبأيمان البيْعة بأنهم لا يعلمون - إلى أن قُتل مروان - أنّ لرسول الله ﷺ أهلاً ولا قرابة إلا بني أمية.

وروى أبو الحسن المدائنيّ، قال: حدّثني رجلٌ قال: كنت بالشام، فجعلت لا أسمع أحداً يسمِّي أحداً أو يناديه: يا عليّ أو يا حسن، أو يا حسين، وإنما أسمع: معاوية، والوليد، ويزيد، حتى مررْت برجل، فاستسقيته ماء، فجعل ينادي: يا عليّ، يا حسن، يا حسين، فقلت: يا هذا، إنّ أهلَ الشام لا يسمُّوْن بهذه الأسماء! قال: صدقت، إنهم يسمُّون أبناءهم بأسماء الخلفاء، فإذا لعن أحدُهم ولده أو شتمه فقد لعن اسمَ بعض الخلفاء، وأنا سمّيت أولادي بأسماء أعداء الله، فإذا شتمتُ أحدَهم أو لعنته، فإنما ألعن أعداء الله.

كانت أمّ إبراهيم بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس أمويّة من ولد عثمان بن عفان.

قال إبراهيم: فدخلت على جَدّي عيسى بن موسى مع أبي موسى، فقال لي جَدّي: أتحبّ بني أمية؟ فقال له موسى أبي: نعم، إنهم أخواله، فقال: والله لو رأيت جدّك عليّ بن عبد الله بن العباس يُضرب بالسياط ما أحببتهم، ولو رأيت إبراهيم بن محمد يُكْرَه على إدخال رأسه في جراب النُّورة لما أحببتهم، وسأحدّثك حديثاً إن شاء الله أن ينفعك به نفعك: لما وجّه سليمان بن عبد الملك ابنَه أيوب بن سليمان إلى الطائف وجّه معه جماعة، فكنت أنا ومحمد بن عليّ بن عبد الله جدّي معهم، وأنا حينئذ حديث السِّنّ، وكان مع أيوب مؤدّب له يؤدّبه، فدخلنا عليه يوماً أنا وجَدّي، وذلك المؤدّب يضربه، فلما رآنا الغلام أقبل على مؤدّبه فضربه فنظر بعضُنا إلى بعض وقلنا: ما له قاتله الله! حين رآنا كَرِه أن نَشْمَت به، ثم التفت أيوب إلينا، فقال: ألا أخبركم يا بني هاشم بأعقلكم وأعقلنا، أعقلنا مَنْ نشأ منّا يَبغضُكم، وأعقلكم من نشأ منكم يبغضنا، وعلامة ذلك أنكم لم تسمُّوا بمروان، ولا الوليد، ولا عبد الملك، ولم نسمِّ نحن بعليّ ولا بحسن ولا بحسين.

لما انتهى عامر بن إسماعيل - وكان صالح بن علي قد أنفذه لطلب مَرْوان - إلى بوصير مِصْر، هرب مرْوان بين يديه في نفر يسير من أهله وأصحابِهِ، ولم يكن قد تخلف معه كثير عدد، فانتهوْا في غَبش الصُّبْح إلى قنطرة هُنَاكَ على نهر عميقٍ، ليس للخيل عُبور إلا على تلك

القنطرة، وعامر بن إسماعيل من ورائهم، فصادف مروانُ على تلك القنطرة بغالاً قد استقبلته تعبرُ القنطرة، وعليها زِقَاق عسل، فحبسته عن العبُور حتى أدركه عامر بن إسماعيل ورهقه، فلوى مَرْوان دابّته إليهم، وحارب فقُتل، فلما بلغ صالح بن عليّ ذلك، قال: إن لله جنودًا من عسل.

لما نقف رأس مروان ونفض مخه، قطع لسانه وألقي مع لحم عنقه، فجاء كلب فأخذ اللسان، فقال قائل: إنّ مِن عبَر الدنيا أن رأينا لسان مروان في فم كلب.

خطب أبو مسلم بالمدينة في السّنة التي حَجّ فيها في خلافة السفّاح، فقال: الحمد لله الذي حَمِد نفسَه، واختار الإسلام ديناً لعباده، ثم أوحى إلى محمد رسول الله ﷺ من ذلك ما أوحى، واختارهُ من خلقه، نفسُه من أنفسهم، وبيتُه من بيوتهم، ثم أنزل عليه في كتابه النّاطق الذي يحفظه بعلمه، وأشهد ملائكته على حقه، قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1]، ثم جعل الحقّ بعد محمد عليه السلام في أهلِ بيته، فصبرَ مَنْ صَبَر منهم بعد وفاة رسول الله ﷺ على اللأواء والشّدّة، وأغضى على الاستبداد والأثَرة. ثم إنّ قوماً من أهل بيتِ الرسول ﷺ، جاهدوا على ملّة نبيّه وسنّته بعد عصرٍ من الزمان من عمل بطاعة الشيطان وعداوة الرحمن، بين ظهرانيْ قوْم آثروا العاجلَ على الآجل، والفانيَ على الباقي، إن رُتق جورٌ فتقوه، أو فُتق حقّ رَتقوه، أهل خمور وماخور، وطنابير ومزامير، إن ذُكّروا لم يذكُروا، أو قُدّموا إلى الحق أدبروا، وجعلوا الصدقات في الشُّبُهات، والمغانمَ في المحارم، والفيء في الغيّ، هكذا كان زمامهم، وبه كان يعمل سلطانهم. وزعموا أنّ غير آل محمد أوْلى بالأمر منهم، فَلِمَ وَبِمَ أيها الناس؟ ألكم الفضلُ بالصحابة دون ذوي القرابة، الشركاء في النسب، والورثة في السّلَب مع ضربهم على الدين جاهلكم، وإطعامِهم في الجدب جائعكُم! والله ما اخترتم من حيث اختار الله لنفسه ساعة قطّ، وما زلتم بعد نبيّه تختارون تيميًّا مرّة، وعَدَويًّا مرة، وأمويًّا مرة، وأسدِيًّا مرة، وسُفيانيًّا مَرَّة، ومَرْوانيًّا مرّة حتى جاءكم مَنْ لا تعرفون اسمَه ولا بيته، يضربكم بسيفه، فأعطيتموها عَنْوةً وأنتم صاغرون. ألا إنّ آل محمد أئمة الهدى، ومنارُ سبيل التّقى، القادة الذادة السادة، بنو عمّ رسول الله، ومنزل جبريل بالتنزيل، كَمْ قَصَم الله بهم من جَبّار طاغٍ، وفاسق باغٍ، شيّد الله بهم الهدى، وجلا بهم العَمى، لم يُسمَعْ بمثل العباس! وكيف لا تخضع له الأممُ لواجب حقّ الحرمة! أبو رسول الله بعد أبيه، وإحدى يديه، وجلْدة بين عينيه. أمينُه يوم العقَبة وناصره بمكّة، ورسوله إلى أهلها، وحاميه يوم حُنين،

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

عند ملتقى الفئتين، لا يخالف له رسماً، ولا يعصي له حكماً، الشافع يوم نِيق ٱلْعُقاب، إلى رسول الله في الأحزاب ها إنّ في هذا أيّها الناس لعبرةً لأولي الأبصار!

قلت: الأسديّ عبد الله بن الزّبير. ومَنْ لا يعرفون اسمه ولا بيته، يعني نفسه، لأنه لم يكن معلوم النّسب، وقد اختلف فيه هل هو مولًى أم عربيّ.

ويوم العقبة: يوم مبايعة الأنصار السبعين لرسول الله ﷺ بمكة. ويوم نيق العُقاب يوم فتح مكة، شفع العباس ذلك اليوم في أبي سفيان وفي أهل مكة، فعفا النبيّ ﷺ عنهم.

اجتمع عند المنصور أيام خلافته جماعة من ولد أبيه، منهم عيسى بن موسى والعباس بن محمد وغيرهما، فتذاكروا خُلفاء بني أميّة، والسبب الذي به سلبوا عزّهم، فقال المنصور: كان عبد الملك جَبّاراً لا يبالي ما صنع، وكان الوليد لحّاناً مجنوناً، وكان سليمان همّته بطنه وفرجه، وكان عمر أعْورَ بين عميان، وكان هشام رجلَ القوم، ولم يزل بنو أميّة ضابطين لما مهّد لهم من السلطان، يحوطونه ويصونونه ويحفظونه، ويحرسون ما وهب الله لهم منه، مع تسنّمهم معاليَ الأمور، ورفضهِم أدانيها، حتى أفضى أمرهم إلى أحداثٍ مترَفين من أبنائهم، فغَمطُوا النعمة، ولم يشكروا العافية، وأساءوا الرعاية، فابتدأت النّقمة منهم، باستدراج الله إياهم آمنين مكرَه. مطّرحين صيانة الخلافة، مستخفّين بحقّ الرياسة، ضعيفين عن رسوم السياسة، فسلَبهم الله العزّة، وألبسهم الذلّة، وأزال عنهم النعمة.

سأل المنصورُ ليلةً عن عبد الله بن مروان بن محمد، فقال له الربيع: إنّه في سجن أمير المؤمنين حيًّا، فقال المنصور: قد كان بلغني كلامٌ خاطَبه به ملكُ النّوبة، لما قدم دياره، وأنا أحبّ أن أسمَعه مِنْ فيه، فَلْيَؤْمَرْ بإحضاره. فأحضِر، فلما دخل خاطب المنصور بالخلافة، فأمره المنصور، بالجلوس، فجلس وللقيد في رجليه خشخشة. قال: أحِبّ أن تسمعني كلاماً قاله لك ملك النُّوبة حيث غشيت بلاده، قال: نعم، قدمت إلى بلد النُّوبة، فأقمت أياماً، فاتّصل خبرنا بالملك، فأرسل إلينا فرشاً وبسطاً وطعاماً كثيراً، وأفرد لنا منازل واسعة، ثم جاءني ومعه خمسون من أصحابه، بأيديهم الحراب، فقمت إليه فاستقبلته، وتنحّيت له عن صدر المجلس، فلم يجلس فيه، وقعد على الأرض، فقلت له: ما منعك من القعود على الفرش؟ قال: إني ملك، وحقّ الملك أن يتواضع لله ولعظمته إذا رأى نعَمه متجدّدة عنده، ولمّا رأيت تجدّد نعمة الله عندي بقصدِكم بلادي، واستجارتكم بي، بعد عزّكم وملككم، قابلت هذه النعمة بما ترى من الخضوع والتواضع. ثم سكت وسكتّ، فلبثنا ما شاء الله، لا يتكلّم ولا أتكلّم، وأصحابه

قيامٌ بالحِراب على رأسه. ثم قال لي: لماذا شربتم الخمر وهي محرّمة عليكم في كتابكم؟ فقلت: اجترأ على ذلك عبيدُنا بجهلهم، قال: فلم وَطِئتُم الزّروع بداويكم والفساد محرّم عليكم في كتابكم ودينكم؟ قلت: فَعَل ذلك أتباعُنا وعُمّالنا جهلاً منهم، قال: فَلِمَ لبستم الحرير والدّيباج والذهب، وهو محرّم عليكم في كتابكم ودينكم؟ قلت: استعنّا في أعمالنا بقوم من أبناء العجم كتّاب، دخلوا في ديننا فلبسوا ذلك اتبّاعاً لسنّة سلفهم، على كُرْه منّا. فأطرق مليًّا إلى الأرض يقلّب يده، وينكت الأرض. ثم قال: عبيدنا وأتباعنا وعُمّالُنا وكتّابنا! ما الأمر كما ذكرت، ولكنكم قوم استحللتم ما حَرّم الله عليكم، وركبتم ما عنه نُهيتُم، وظلمتم فيما مُلّكتُم، فسلبكم الله العزّ، وألبسكم الذلّ، وإن له سبحانه فيكم لنقمة لم تبلغ غايتَها بعد، وأنا خائف أنْ يَحُلّ بكم العذاب وأنتم بأرضي فينالني معكم، والضيافة ثلاث، فاطلبوا ما احتجتم إليه، وارتحلوا عن أرضي.

فأخذنا منه ما تزودنا به، وارتحلنا عن بلده. فعجب المنصور لذلك وأمر بإعادته إلى الحبس.

وقد جاءنا في بعض الروايات أنّ السفاح لما أراد أن يقتل القوم الذين انضمّوا إليه من بني أميّة جلس يوماً على سرير بهاشميّة الكوفة وجاء بنو أمية وغيرهم من بني هاشم، والقواد والكتاب، فأجلسهم في دار تتصل بداره، وبينه وبينهم سِتْر مسدول، ثم أخرج إليهم أبا الجهم بن عطية، وبيده كتابٌ ملصَق، فنادى بحيث يسمعون: أين رسول الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام؟ فلم يتكلّم أحد، فدخل ثم خرج ثانية، فنادى: أين رسول زيد بن عليّ بن الحسين؟ فلم يجبه أحد، فدخل ثم خرج ثالثة، فنادى: أين رسول يحيى بن زيد بن علي؟ فلم يردّ أحد عليه، فدخل ثم خرج رابعة، فنادى: أين رسولُ إبراهيم بن محمد الإمام؟ والقوم ينظر بعضهم إلى بعض، وقد أيقنوا بالشرّ، ثم دخل وخرج، فقال لهم: إنّ أمير المؤمنين يقول لكم: هؤلاء أهلي ولحمي، فماذا صنعتم بهم؟ ردّوهم إليّ أو فأقيدوني من أنفسكم. فلم ينطقوا بحرف، وخرجت الخراسانية بالأعمدة فشدَخوهم عن آخرهم.

قلت: وهذا المعنى مأخوذ من قول الفَضْل بن عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب لما قتل زيد بن عليّ عليه السلام في سنة اثنتين وعشرين ومائة في خلافة هشام بن عبد الملك، وذلك أنّ هشاماً كتب إلى عامله بالبصرة - وهو القاسم بن محمد الثقفيّ - أن يشخص كلّ مَنْ بالعراق من بني هاشم إلى المدينة خوفاً من خروجهم، وكتب إلى عامل

المدينة أن يحبس قوماً منهم، وأن يعرضهم في كلّ أسبوع مرة، ويقيم لهم الكفلاء، على ألا يخرجوا منها، فقال الفضل بن عبد الرحمن من قصيدة له طويلة:

كلّما حُدِّثوا بأرضٍ نقيقاً ... ضمّنونا السجون أو سيّرونا
أشخصونا إلى المدينة أسْرَى ... لا كفاهُمْ رَبّي الذي يحذرونا
خلّفوا أحمدَ المطهَّر فينا ... بالذي لا يحبّ، واستضعفونا
قَتّلونا بغير ذنبٍ إليهم ... قاتل الله أمّة قتّلونا!
ما رعَوْا حقّنا ولا حفظوا فيـ ... ـنا وَصاة الإله بالأقربينا
جعلونا أدنى عدوٍّ إليهمْ ... فهمُ في دمائنا يَسْبَحُونا
أنكَرُوا حَقّنا وجارُوا علينا ... وعَلَى غيرِ إحْنَةٍ أبغضُونا
غيرَ أنّ النبيّ مِنّا وأنّا ... لم نزل في صِلاتهم راغبينا
إن دَعَوْنا إلى الهُدى لم يجيبو ... نا، وكانوا عن الهُدَى ناكبينا
أو أمرنا بالعُرْف لم يسمعوا مـ ... ـنّا وردّوا نصيحةَ النّاصحينا
ولَقِدْماً ما رُدّ نُصحُ ذوي الرأ ... يِ فلم يتّبعهمُ الجاهلونا
فعسى الله أن يُديل أناساً ... مِنْ أناس فيصبِحُوا ظاهرِينا
فتقرّ العيون من قوم سوءٍ ... قد أخافوا وقَتّلوا المؤمنينا
ليت شعري هل تُوجِفَنّ بي الخيـ ... ـلُ عليها الكماةُ مستلئِمينا
من بني هاشمٍ ومنْ كلّ حَيٍّ ... ينصرون الإسلام مستنصرينا
في أناسٍ آباؤهم نصروا الدّيـ ... ـنَ، وكانوا لربّهم ناصرينا
تحكم المرهَفَاتُ في الهامِ منهم ... بأكفّ المعاشر الثائرينا
أين قَتْلَى مِنّا بَغيتمْ عليهم ... ثمّ قتلتموهُم ظالمينا
أرجعوا هاشماً وردُّوا أبا اليَقْـ ... ـظان وآبنَ البديل في آخرينا
وارجعوا ذا الشهادتين وقَتْلَى ... أنتمُ في قتالهمْ فاجرونا
ثم رُدُّوا حُجْراً وأصحاب حُجْرٍ ... يومَ أنتمْ في قتلهمْ معتدُونا
ثم رُدُّوا أبا عُميرٍ ورُدُّوا ... لي رشيداً وميثماً والّذينا:
قُتّلوا بالطُّفوف يوم حُسَينِ ... من بني هاشم، ورُدُّوا حسيْنَا
أين عمرو؟ وأين بِشْرٌ وقَتْلَى ... معهمُ بالعراء ما يدفنونا!
ارجِعوا عامراً وردُّوا زُهَيْراً ... ثم عثمانَ، فارجعوا عازمينا

وارجعوا الحرَّ وابن قَيْنٍ وقوماً قُتِّلوا حين جاوزوا صِفّينا
وارجعوا هانئاً وردّوا إلينا مُسلماً والرواع في آخرينا
ثم ردّوا زيداً إلينا وردّوا كلّ من قد قتلتمُ أجمعينا
لن تردّوهُم إلينا ولسنا منكمُ غيرَ ذلكمْ قابلينا[1]

الأصل: أَلاَ إِنَّ أَبْصَرَ ٱلْأَبْصَارِ مَا نَفَذَ فِي ٱلْخَيْرِ طَرْفُهُ! أَلاَ إِنَّ أَسْمَعَ ٱلْأَسْمَاعِ مَا وَعَى التَّذْكِيرَ وَقَبِلَهُ!

أَيُّهَا النَّاسُ، ٱسْتَصْبِحُوا مِنْ شُعْلَةِ مِصْبَاحٍ وَاعِظٍ مُتَّعِظٍ، وَٱمْتَاحُوا مِنْ صَفِيِّ عَيْنٍ قَدْ رُوِّقَتْ مِنَ ٱلْكَدَرِ.

عِبَادَ ٱللهِ، لاَ تَرْكَنُوا إِلَى جَهَالَتِكُمْ، وَلاَ تَنْقَادُوا إِلَى أَهْوَائِكُمْ، فَإِنَّ النَّازِلَ بِهَذَا المَنْزِلِ نَازِلٌ بِشَفَا جُرُفٍ هَارٍ، يَنْقُلُ الرَّدَى عَلَى ظَهْرِهِ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ، لِرَأْيٍ يُحْدِثُهُ بَعْدَ رَأْيٍ، يُرِيدُ أَنْ يُلْصِقَ مَا لاَ يَلْتَصِقُ، وَيُقَرِّبَ مَا لاَ يَتَقَارَبُ! فَاللهَ ٱللهَ أَنْ تَشْكُوا إِلَى مَنْ لاَ يُشْكِي شَجْوَكُمْ، وَلاَ يَنْقُضُ بِرَأْيِهِ مَا قَدْ أَبْرَمَ لَكُمْ.

إِنَّه لَيْسَ عَلَى ٱلْإِمَامِ إِلاَّ مَا حُمِّلَ مِنْ أَمْرِ رَبِّهِ: ٱلْإِبْلاَغُ فِي المَوْعِظَةِ، وَالاجْتِهَادُ فِي النَّصِيحَةِ، وَٱلْإِحْيَاءُ لِلسُّنَّةِ، وَإِقَامَةُ ٱلْحُدُودِ عَلَى مُسْتَحِقِّيهَا، وَإِصْدَارُ السُّهْمَانِ عَلَى أَهْلِهَا.

فَبَادِرُوا ٱلْعِلْمَ مِنْ قَبْلِ تَصْوِيحِ نَبْتِهِ، وَمِنْ قَبْلِ أَنْ تُشْغَلُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنْ مُسْتَثَارِ ٱلْعِلْمِ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ، وَٱنْهَوْا عَنِ المُنْكَرِ وَتَنَاهَوْا عَنْهُ، فَإِنَّمَا أُمِرْتُمْ بِالنَّهْيِ بَعْدَ التَّنَاهِي!

الشرح: هَارَ الجرف يهورُ هَوْراً وهؤوراً فهو هائر، وقالوا: «هارٍ»، خفضوه في موضع الرفع، كقاضٍ، وأرادوا «هائر»، وهو مقلوب من الثلاثيّ إلى الرباعي، كما قلبوا «شائك السلاح» إلى «شاكي السلاح». وهَوّرته، فتهوّر وانهار، أي انهدم.

وأشكيت زيداً: أزلت شكايته. والشجو: الهمّ والحزن.

وصوّح النبت، أي جفّ أعلاه، قال:

ولكنّ البلاد إذا اقشعرّت وصَوَّحَ نبتُها رُعِيَ الهَشِيمُ

(١) ذكره القمي في الكنى والألقاب: ١/ ٢٣٣.

يقول عليه السلام : أشدّ العيون إدراكاً ما نفذ طرفُها في الخير، وأشدّ الأسماع إدراكاً ما حفظ الموعظة وقَبِلها.

ثم أمر الناس أن يستصبِحوا، أي يُسرجوا مصابيحَهم من شعلة سراج. متّعِظ في نفسه واعظ لغيره، وروي بالإضافة من «شعلة مصباحِ واعظ» بإضافة «مصباح» إلى «واعظ»، وإنما جعله متّعظاً واعظاً، لأن مَنْ لم يتّعظ في نفسه فبعيد أن يتعظ به غيرُه، وذلك لأن القبول لا يحصل منه، والأنفس تكون نافرةً عنه، ويكون داخلاً في حَيّز قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[1]، وفي قول الشاعر:

لاَ تَـنْـهَ عَـنْ خُـلُـقٍ وَتَـأْتِـيَ مِـثْـلَـهُ

وعَنَى بهذا المصباح نفسَه عليه السلام.

ثم أمرهم أن يمتاحوا من عين صافية قد انتفَى عنها الكدر، كما يروّق الشراب بالراووق فيزول عنه كدره، والامتياح: نزول البئر وملء الدلاء منها، ويكني بهذا أيضاً عن نفسه عليه السلام.

ثم نهاهم عن الانقياد لأهوائهم والميل إلى جهالتهم، وقال: إنّ من يكون كذلك، فإنه على جانب جُرُفٍ متهدّم، ولفظة «هارٍ» من الألفاظ القرآنية.

ثم قال: ومَنْ يكون كذلك، فهو أيضاً ينقل الهلاك على ظهره من موضع إلى موضع، ليُحدِث رأياً فاسداً بعد رأي فاسد، أي هو ساعٍ في ضلال يروم أن يحتجّ لما لا سبيل إلى إثباته، وينصر مذهباً لا انتصار له.

ثم نهاهم وحذّرهم أن يشكُوا إلى مَنْ لا يزيل شِكايتهم ومَنْ لا رأي له في الدين ولا بصيرة. لينقض ما قد أبرمه الشيطان في صدورهم لإغوائهم. ويروى: «إلى من لا يشكي شجوَكم، ومَنْ ينقض برأيه ما قد أبرم لكم»، وهذه الرواية أليق، أي لا تشكُوا إلى مَنْ لا يدفع عنكم ما تشكون منه، وإنما ينقض برأيه الفاسد ما قد أبرمه الحقّ والشرع لكم.

ثم ذكر أنّه ليس على الإمام إلا ما قد أوضحه من الأمور الخمسة.

ثم أمرهم بمبادرة أخذ العلم من أهله - يعني نفسَه عليه السلام - قبل أن يموت، فيذهب العلم. وتصويح النَّبْت، كناية عن ذلك.

ثم قال: وقبل أن تشغَلُوا بالفتن وما يحدث عليكم من خطوب الدنيا عن استثارة العلم من معدنه واستنباطه من قرارته.

ثم أمرهم بالنّهي عن المنكر، وأن يتناهوْا عنه قبل يَنْهَوْا عنه، وقال: إنما النهيُ بعد التناهي.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٤.

وفي هذا الموضع إشكال، وذلك أنّ لقائل أن يقول: النهي عن المنكَر واجب على العدْل والفاسق، فكيف قال: «إنما أمرتم بالنهي بعد التناهي»، وقد روي أنّ الحسنَ البصريّ قال للشّعبيّ: هلاّ نهيتَ عن كذا؟ فقال: يا أبا سعيد، إني أكره أن أقولَ ما لا أفعل. قال الحسن: غفر الله لك! وأيّنا يقول ما يفعل! ودّ الشيطان لو ظفِر منكم بهذه فلم يأمر أحدٌ بمعروف ولم ينه عن منكر!

والجواب أنه عليه السلام لم يردْ أن وجود النهي عن المنكر مشروط بانتهاء ذلك الناهي عن المنكَر، وإنما أراد: أنّي لم آمركم بالنهي عن المنكر إلا بعد أن أمرتُكم بالانتهاء عن المنكر، فالترتيب إنّما هو في أمره عليه السلام لهم بالحالتين المذكورتين، لا في نهيهم وتناهيهم.

فإن قلت: فلماذا قدم أمرَهم بالانتهاء على أمرهم بالنهي؟

قلت: لأنّ إصلاح المرء نفسه أهمّ من الاعتناء بإصلاحه لغيره.

١٠٥ - ومن خطبة له عليه السلام في وصف الإسلام

الأصل: اَلْحَمْدُ لله اَلَّذِي شَرَعَ اَلْإِسْلاَمَ فَسَهَّلَ شَرَائِعَهُ لِمَنْ وَرَدَهُ. وَأَعَزَّ أَرْكَانَهُ عَلَى مَنْ غَالَبَهُ، فَجَعَلَهُ أَمْناً لِمَنْ عَلِقَهُ، وَسِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ، وَبُرْهَاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ، وَشَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ عَنْهُ، وَنُوراً لِمَنِ اَسْتَضَاءَ بِهِ، وَفَهْماً لِمَنْ عَقَلَ، وَلُبّاً لِمَنْ تَدَبَّرَ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ، وتَبْصِرَةً لِمَنْ عَزَمَ، وَعِبْرَةً لِمَنِ اتَّعَظَ، وَنَجَاةً لِمَنْ صَدَّق، وَثِقَةً لِمَنْ تَوَكَّلَ، وَرَاحَةً لِمَنْ فَوَّضَ، وَجُنَّةً لِمَنْ صَبَرَ.

فَهُوَ أَبْلَجُ المَنَاهِجِ، وَأَوْضَحُ اَلْوَلاَئِجِ، مُشْرِفُ المَنَارِ، مُشرِقُ اَلْجَوَادِّ، مُضِيءُ المَصَابِيحِ، كَرِيمُ المِضْمَارِ، رَفِيعُ اَلْغَايَةِ، جَامِعُ اَلْحَلْبَةِ، مُتَنَافِسُ السُّبقَة، شَرِيفُ اَلْفُرْسَانِ.

التَّصْدِيقُ مِنْهَاجُهُ، وَالصَّالِحَاتُ مَنَارُهُ، وَالمَوْتُ غَايَتُهُ، وَاَلدُّنْيَا مِضْمَارُهُ، وَاَلْقِيَامَةُ حَلْبَتُهُ، وَاَلْجَنَّةُ سُبْقَتُهُ.

الشرح: هذا باب من الخطابة شريف، وذلك لأنه ناط[1] بكلّ واحدة من اللفظات لفظة تناسبها وتلائمها لو نيطَتْ بغيرها لما انطبقت عليها، ولا استقرّت في قرارها، ألا تراه قال: «أمناً لمنْ عَلِقه»! فالأمنُ مرتّب على الاعتلاق، وكذلك في سائر الفِقَر كالسلّم المرتّب

(١) ناط الشيء ينوطه نوطاً: علقه. اللسان، مادة (نوط).

على الدخول، والبرهان المرتّب على الكلام، والشاهد المرتّب على الخصام، والنّور المرتّب على الاستضاءة. . . إلى آخرها، ألا ترى أنه لو قال: «وبرهاناً لمن دخله، ونوراً لمن خاصم عنه، وشاهداً لمن استضاء به»، لكان قد قرن باللفظة ما لا يناسبها، فكان قد خرج عن قانون الخطابة، ودخل في عَيْب ظاهر!

وتوسّم: تفرّس. والولائج: جمع وليجة، وهو المدخل إلى الوادي وغيره.

والجُنّة: التّرس. وأبلج المناهج: معروف الطريق.

الحَلْبة: الخيل المجموعة للمسابقة.

والمِضْمار: موضع تضمير الخيل، وزمان تضميرها. والغاية: الراية المنصوبة، وهو ها هنا خِرْقة تجعل على قَصَبة وتنصب في آخر المدَى الذي تنتهي إليه المسابقة، كأنه عليه السلام جعل الإسلام كخيل السباق التي مضمارها كريم، وغايتها رفيعة عالية، وحَلْبتها جامعة حاوية، وسُبقتها متنافس فيها، وفُرسانها أشراف. .

ثم وصفه بصفات أخرى، فقال: التصديق طريقه، والصالحات أعلامه، والموت غايته، أي أنّ الدنيا سِجْن المؤمن، وبالموت يخلُص من ذلك السجن، ويحظى بالسعادة الأبدية.

قال: والدنيا مضماره، كأن الإنسان يجري إلى غاية هي الموت، وإنما جعلها مِضْمار الإسلام، لأنّ المسلم يقْطَع دنياه لا لدنياه بل لآخرته، فالدّنيا له كالمِضْمار للفرس إلى الغاية المعيّنة.

قال: والقيامة حلْبته، أي ذات حلبته فحذف المضاف، كقوله تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾[1] أي ذوو درجات.

ثم قال: والجنّة سُبقتُه، أي جزء سُبقتِه، فحذف أيضاً.

الأصل: منها في ذكر النبي صلى الله عليه وآله: حَتَّى أَوْرَى قَبَسا لِقَابِسٍ، وَأَنَارَ عَلَماً لِحَابِسٍ، فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ، وَشَهِيدُكَ يَوْمَ ٱلدِّينِ، وَبَعِيثُكَ نِعْمَةً، وَرَسُولُكَ بِالحقِّ رَحْمَةً.

اَللَّهُمَّ اقْسِمْ لَهُ مَقْسَماً مِنْ عَدْلِكَ، وَٱجْزِهِ مُضَعَّفَاتِ ٱلْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ. ٱللَّهُمَّ وَأَعْلِ عَلَى بِنَاءِ ٱلْبَانِينَ بِنَاءَهُ، وَأَكْرِمْ لَدَيْكَ نُزُلَهُ، وَشَرِّفْ عِندَكَ مَنْزِلَهُ، وَآتِهِ ٱلْوَسِيلَةَ، وَأَعْطِهِ السَّنَاءَ وَٱلْفَضِيلَةَ، وَٱحْشُرْنَا فِي زُمْرَتِهِ، غَيْرَ خَزَايَا وَلاَ نَادِمِينَ، وَلاَ نَاكِبِينَ، وَلاَ نَاكِثِينَ، وَلاَ ضَالِّينَ، وَلاَ مُضِلِّينَ، وَلاَ مَفْتُونِينَ!

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٣.

قال الرضيّ رحمه الله تعالى: وَقَدْ مَضَى هَذَا ٱلْكَلاَمُ فِيمَا تَقَدَّمَ، إلاَّ أَنَّنَا كَرَّرْنَاهُ ها هنا لِمَا فِي الرِّوَايَتَيْنِ مِنَ الاخْتِلاَفِ.

الشرح: قبساً، منصوب بالمفعولية، أي أوْرَى رسول الله ﷺ قَبَسًا، والقَبَس: شعلة من النار، والقابس: طالب الاستصباح منها. والكلام مجاز، والمراد الهداية في الدين.

وعلَماً، منصوب أيضاً بالمفعولية، أي وأنا رَرسول الله ﷺ علماً. لحابس، أي نصب لمن قد حَبَس ناقته - ضلالاً، فهو يخبط لا يدري كيف يهتدي إلي المنهج - علماً يهتدي به.

فإن قلت: فهل يجوز أن ينصب «قبساً» و «علماً» على أن يكون كلّ واحد منهما حالاً، أي حتى أورى رسول الله في حال كونه قبساً وأنار في حال كونه عَلماً؟

قلت: لم أسمع «أوْرَى الزند» وإنما المسموع «وَرَى» و«ورّى» ولم يجئ «أوْرَى» إلا متعدّياً، أورى زيد زنده، فإن حمل ها هنا على المتعدّي احتيج إلى حذف المفعول، ويصير تقديره: حتى أورى رسول الله الزند حال كونه قبساً، فيكون فيه نوع تكلّف واستهجان. والبعيث: المبعوث. ومقسماً: نصيباً، وإن جعلته مصدراً جاز. والنُّزُول: طعام الضيف. والوسيلة: ما يتقرّب به، وقد فسر قولهم في دعاء الأذان: «اللّهم آته الوسيلة»، بأنها درجة رفيعة في الجنّة. والسّناء بالمد: الشرف. وزمرته: جماعته.

وخزايا: جمع خزيان، وهو الخَجِل المستحيي، مثل سكران وسكارى، وحيران وحيارى، وغَيْران وغَيَارَى. وناكبين، أي عادلين عن الطريق. وناكثين، أي ناقضين للعهد.

قلت: سألتُ النقيب أبا جعفر رحمه الله - وكان منصفاً بعيداً عن الهوىَ والعصبية عن هذا الموضع - فقلت له: قد وقفت على كلام الصحابة وخُطَبهم فلم أر فيها من يعظّم رسول الله ﷺ تعظيمَ هذا الرجل، ولا يدعو كدعائه، فإنا قد وقفنا من «نهج البلاغة» ومن غيره على فصول كثيرة مناسبة لهذا الفصل، تدلّ على إجلال عظيم، وتبجيل شديد منه لرسول الله ﷺ. فقال: ومن أينَ لغيره من الصحابة كلام مدوّن يتعلم منه كيفية ذكرهم للنبي ﷺ؟ وهل وُجد لهم إلا كلماتٌ مبتدرة، لا طائل تحتها! ثم قال: إن علياً عليه السلام كان قويّ الإيمان برسول الله ﷺ والتصديق له، ثابت اليقين، قاطعاً بالأمر، متحققًا له، وكان مع ذلك يحبّ رسول الله ﷺ لنسبته منه، وتربيته له، واختصاصه به من دون أصحابه. وبعد، فشرفُه له، لأنهما نفسٌ واحدة في جسمين: الأب واحد، والدار واحدة، والأخلاق متناسبة، فإذا عظّمه فقد عظّم نفسه، وإذا دعا إليه فقد دعا إلى نفسه، ولقد كان يودّ أنْ تطبّق دعوة

الإسلام مشارف الأرض ومغاربها، لأن جمال ذلك لاحقٌ به، وعائد عليه، فكيف لا يعظّمه ويبجّله ويجتهد في إعلاء كلمته!

فقلت له: قد كنتُ اليوم أنا وجعفر بن مكّي الشاعر نتجاذب هذا الحديث، فقال جعفر: لم ينصر رسول الله ﷺ أحدٌ نُصرة أبي طالب وبنيه له، أما أبو طالب فكَفَله وربّاه، ثم حَمَاه من قريش عند إظهار الدّعوة، بعد إصفاقهم وإطباقهم على قتله، وأما ابنه جعفر فهَاجَر بجماعة من المسلمين إلى أرض الحبشة، فنشَرَ دعوته بها، وأما عليّ فإنه أقام عماد الملَّة بالمدينة، ثم لم يُمْنَ أحدٌ من القتل والهوان والتشريد بما مُنِيَ به بنو أبي طالب، أما جعفر فقتل يوم مؤتة، وأما عليّ فقتل بالكوفة بعد أن شرب نقيع الحنظل، وتمنّى الموت، ولو تأخر قتلُ ابن ملجم له لمات أسفاً وكمداً، ثم قُتِل ابناه بالسمّ والسيف، وقتل بنوه الباقون مع أخيهم بالطفّ، وحُمِلت نساؤهم على الأقتاب سَبَايَا إلى الشام، ولقيت ذرّيتهم وأخلافهم بعد ذلك من القتل والصَّلْب والتشريد في البلاد والهوان والحبس والضرب ما لا يحيط الوصف بكنهه، فأيّ خير أصاب هذا البيت من نصرته، ومحبته وتعظيمه بالقول والفعل!

فقال رحمه الله - وأصاب فيما قال: - فهلاّ قلت: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1]. ثم قال: وهلاّ قلت له: فقد نصرته الأنصار، وبذلت مُهَجَهَا دونه، وقُتِلَتْ بين يديه في مواطن كثيرة، وخصوصاً يوم أُحُد ثم اهتضِمُوا بعده، واستُؤثر عليهم، ولقوا من المشاقّ والشدائد ما يطول شرحه، ولو لم يكن إلا يوم الحرّة، فإنه اليوم الذي لم يكن في العرب مثله، ولا أصيب قوم قطّ بمثل ما أصيب به الأنصار ذلك اليوم!

ثم قال: إن الله تعالى زَوَى الدنيا عن صالحي عباده وأهل الإخلاص له، لأنه لم يرها ثمناً لعبادتهم، ولا كفؤًا لإخلاصهم، وأرجأ جزاءهم إلى دار أخرى غير هذه الدار، في مثلها يتنافس المتنافسون!

الأصل: منها في خطاب أصحابه: وَقَدْ بَلَغْتُمْ مِنْ كَرَامَةِ ٱللهِ تَعَالَى لَكُمْ مَنْزِلَةً تُكْرَمُ بِهَا إِمَاؤُكُمْ، وَتُوصَلُ بِهَا جِيرَانُكُمْ وَيُعَظِّمُكُمْ مَنْ لاَ فَضْلَ لَكُمْ عَلَيْهِ، وَلاَ يَدَ لَكُمْ عِنْدَهُ، وَيَهَابُكُمْ مَنْ لاَ يَخَافُ لَكُمْ سَطْوَةً، وَلاَ لَكُمْ عَلَيْهِ إِمْرَةٌ.

وَقَدْ تَرَوْنَ عُهُودَ ٱللهِ مَنْقُوضَةً فَلاَ تَغْضَبُونَ، وَأَنْتُمْ لِنَقْضِ ذِمَمِ آبَائِكُمْ تَأْنَفُونَ، وَكَانَتْ أُمُورُ

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٧.

أَللهِ عَلَيْكُمْ تَرِدُ، وَعَنْكُمْ تَصْدُرُ، وَإِلَيْكُمْ تَرْجِعُ، فَمَكَّنْتُمُ الظَّلَمَةَ مِنْ مَنْزِلَتِكُمْ، وَأَلْقَيْتُمْ إِلَيْهِمْ أَزِمَّتَكُمْ، وَأَسْلَمْتُمْ أُمُورَ ٱللهِ في أَيْدِيهِمْ، يَعْمَلُونَ بِالشُّبُهَاتِ، وَيَسِيرُونَ فِي ٱلشَّهَوَاتِ. وَٱيْمُ ٱللهِ لَوْ فَرَّقُوكُمْ تَحْتَ كُلِّ كَوْكَبٍ، لَجَمَعَكُمُ ٱللهُ لِشَرِّ يَوْمٍ لَهُمْ!

الشرح: هذا خطاب لأصحابه الذين أسلموا مدنهم ونواحيهم إلى جيوش معاوية، التي كان يُغير بها على أطراف أعمال عليّ عليه السلام كالأنبار وغيرها، مما تقدّم ذكرنا له، قال لهم: إنّ الله أكرمكم بالإسلام بعد أن كنتم مجوساً أو عبّاد أصنام، وبلغتم من كرامته إياكم بالإسلام منزلة عظيمة، أكرِم بها إماؤكم وعبيدكم، ومن كان مَظِنّة المِهْنة والمذلّة.

ووصل بها جيرانكم، أي مَنْ التجأ إليكم من مُعاهَدٍ أو ذِميّ، فإنّ الله تعالى حفظ لهم ذمام المجاورة لكم، حتى عصمَ دماءهم وأموالهم، وصرتم إلى حال يعظّمكم بها مَنْ لا فضل لكم عليه، ولا نعمة لكم عنده، كالروم والحبشة، فإنهم عَظّموا مسلمي العرب لتقمّصهم لباس الإسلام والدين ولزومهم ناموسه، وإظهارهم شعاره.

ويهابكم من لا يخاف لكم سطوة، ولا لكم عليه إمرة، كالملوك الذين في أقاصي البلاد، نحو الهند والصين وأمثالها، وذلك لأنهم هابوا دولة الإسلام، وإن لم يخافوا سطوة سيفها، لأنه شاع وذاع أنهم قوم صالحون، إذا دعوا الله استجاب لهم، وأنهم يقهرون الأمم بالنصر السماويّ وبالملائكة، لا بسيوفهم ولا بأيديهم. قيل: إنّ العرب لما عبرت دِجْلة إلى القصر الأبيض الشرقيّ بالمدائن عبرتها في أيام مَدّها، وهي كالبحر الزاخر على خيولها وبأيديها رماحها، ولا دروع عليها ولا بَيْض، فهربت الفرس بعد رَمْي شديد منها للعرب بالسهام، وهم يقدمون ويحملون، ولا تهولُهم السهام، فقال فلاّح نَبَطيّ، بيده مسحاته[1] وهو يفتح الماء إلى زرعه لأسْوَارٍ من الأساورة معروفٍ بالبأس وجودةِ الرماية: ويلكم! أمِثْلكم في سلاحكم يهرب من هؤلاء القوم الحاسرين! ولذعَهُ باللّوم والتعنيف. فقال له: أقم مِسْحَاتك، فأقامها فرماها، فخرق الحديد حتى عبر النّصل إلى جانبها الآخر، ثم قال: انظر الآن، ثم رمى بعضَ العرب المارّين عليه عشرين سهماً لم يُصبْه ولا فرسه منها بسهم واحد، وإنه لقريب منه غير بعيد. ولقد كان بعضُ السهام يسقط بين يدي الأُسوار، فقال له بالفَارسية: أعلمت أنّ القوم مصنوع لهم! قال: نعم.

ثم قال عليه السلام: ما لكم لا تغضبون، وأنتم تروْن عهود الله منقوضة! وإن من العجب أن يغضب الإنسان ويأنف من نقض عهد أبيه، ولا يغضب ولا يأنف لنقض عهود إلٰهه وخالقه!

---

(١) المسحاة: أداة القشر والجرف يستعملها الفلاح لفتح طريق الماء ليسقي زرعه.

ثم قال لهم: كانت الأحكام الشرعية إليكم تردُ منّي ومن تعليمي إياكم، وتثقيفي لكم، ثم تصدُر عنكم إلى مَنْ تعلّمونه إياها من أتباعكم وتلامذتكم، ثم يرجع إليكم بأنْ يتعلّمها بنوكم وإخوتكم من هؤلاء الأتباع والتلامذة، ففررتم من الزّحف لما أغارت جيوش الشام عليكم، وأسلمتم منازلكم وبيوتكم وبلادكم إلى أعدائكم ومكنتم الظلمة من منزلتكم، حتى حكّموا في دين الله بأهوائهم، وعَمِلوا بالشّبْهة لا بالحجّة، واتسعوا في شهواتهم ومآرب أنفسهم.

ثم أقسم بالله: إنّ أهل الشام لو فرّقوكم تحت كل كوكب ليجمعنّكم الله ليوم، وهو شرّ يوم لهم، وكنى بذلك عن ظهور المسوّدة وانتقامها من أهل الشام وبني أمية، وكانت المسوّدة المنتقمة منهم عراقية وخراسانية.

١٠٦ - ومن كلام له عليه السلام في بعض ايام صفين

الأصل: وَقَدْ رَأَيْتُ جَوْلَتَكُم، وَٱنْحِيَازَكُمْ عَنْ صُفُوفِكُمْ، تَحُوزُكُمُ ٱلْجُفَاةُ ٱلطَّغَامُ، وَأَعْرَابُ أَهْلِ ٱلشَّامِ، وَأَنْتُمْ لَهَامِيمُ ٱلْعَرَبِ، وَيَآفِيخُ ٱلشَّرَفِ، وَٱلْأَنْفُ ٱلْمُقَدَّمُ، وَٱلسَّنَامُ ٱلْأَعْظَمُ.

وَلَقَدْ شَفَا وَحَاوِحَ صَدْرِي أَنْ رَأَيْتُكُمْ بِأَخَرَةٍ، تَحُوزُونَهُمْ كَمَا حَازُوكُمْ، وَتُزِيلُونَهُمْ عَنْ مَوَاقِفِهِمْ كَمَا أَزَالُواكُمْ، حَسًّا بِالنِّصَالِ، وَشَجْراً بِالرِّمَاحِ، تَرْكَبُ أُولاَهُمْ أُخْرَاهُمْ كَالْإِبِلِ ٱلْهِيمِ ٱلْمَطْرُودَةِ، تُرْمَىٰ عَنْ حِيَاضِهَا، وَتُذَادُ عَنْ مَوَارِدِهَا!

الشرح: جوْلتكم: هزيمتكم. فأجمل في اللفظ، وكنّى عن اللفظ المنفّر، عادلاً عنه إلى لفظ لا تنفير فيه، كما قال تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾[1]، قالوا: هو كناية عن إتيان الغائط، وإجمال في اللفظ.

وكذلك قوله: «وانحيازكم عن صفوفكم» كناية عن الهرب أيضاً، وهو من قوله تعالى: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾[2].

وهذا باب من أبواب البيان لطيف، وهو حُسْن التوصّل بإيراد كلام غير مزعج، عوضاً عن لفظ يتضمّن جُبْناً وتقريعاً.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٧٥.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ١٦.

وتحوزكم: تعدل بكم عن مراكزكم. والجفاة: جمع جافٍ، وهو الفَدْم الغليظ. والطّغام: الأوغاد. و اللهاميم: جمع لهموم وهو الجواد من الناس والخيل، قال الشاعر:

لا تحسبنَّ بياضاً فيَّ مَنقصةً إنّ اللهاميم في أقرابها بَلَقُ

واليآفيخ: جمع يافُوخ وهو معظم الشيء، تقول: قد ذهب يافوخ الليل، أي أكثره، ويجوز أن يريد به اليافوخ، وهو أعلى الرأس، وجمعه يآفيخ أيضاً. وأفخْتُ الرجُلَ: ضربت يافوخَه، وهذا أليَق، لأنه ذكر بعده الأنف والسنام، فحمْل اليافوخ على العضو إذاً أشبه.

والوحاوح: الحرق والحزازات ولقيته بأخَرة على «فَعَلة» أي أخيراً.

والحَسّ القتل، قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾[1].

وشجرت زيداً بالرمح: طعنته، والتأنيث في «أولاهم» و «أخراهم» للكتائب.

والهيم: العطاش. وتذاد تصدّ وتمنع، وقد روي: «الطغاة» عوض «الطغام».

وروي «حشأ» بالهمز من حشأت الرجل أي أصبت حشاه.

وروي «بالنضال» بالضاد المعجمة، وهو المناضلة والمراماة.

وقد ذكرنا نحن هذا الكلام فيما اقتصصناه من أخبار صِفِّين فيما تقدم من هذا الكتاب.

---

١٠٧ – ومن خطبة له عليه السلام، وهي من خطب الملاحم

الأصل: اَلْحَمْدُ للهِ اَلْمُتَجَلِّي لِخَلْقِهِ بِخَلْقِهِ، وَاَلظَّاهِرِ لِقُلُوبِهِمْ بِحُجَّتِهِ، خَلَقَ اَلْخَلْقَ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ، إِذْ كَانَتِ اَلرَّوِيَّاتُ لاَ تَلِيقُ إِلاَّ بِذَوِي اَلضَّمَائِرِ، وَلَيْسَ بِذِي ضَمِيرٍ فِي نَفْسِهِ. خَرَقَ عِلْمُهُ بَاطِنَ غَيْبِ اَلسُّتُرَاتِ، وَأَحَاطَ بِغُمُوضِ عَقَائِدِ اَلسَّرِيرَاتِ.

الشرح: الملاحم: جمع ملحمة، وهي الوقعة العظيمة في الحرْب، ولما كانت دلائل إثبات الصانع ظاهرة ظهور الشمس، وصفه عليه السلام بكونه ظهر وتجلى لخلقه، ودلّهم عليه بخلْقه إياهم وإيجاده لهم.

ثم أكد ذلك بقوله: «والظاهر لقلوبهم بحجته» ولم يقل «لعيونهم» لأنه غير مرئيّ، ولكنه ظاهر للقلوب بما أودعها من الحجج الدالة عليه.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.

ثم نفى عنه الرويّة والفكر والتمثيل بين خاطرين، ليعمل على أحدهما، لأن ذلك إنما يكون لأرباب الضمائر والقلوب أولي النوازع المختلفة والبواعث المتضادّة.

ثم وصفه بأنّ علمه محيط بالظاهر والباطن والماضي والمستقبل، فقال: إنّ علمه خرق باطن الغيوب المستورة، وأحاط بالغامض من عقائد السرائر.

منها في ذكر النبي صلى الله عليه وآله: ٱخْتَارَهُ مِنْ شَجَرَةِ ٱلْأَنْبِيَاءِ، وَمِشْكَاةِ ٱلضِّيَاءِ، وَذُؤَابَةِ ٱلْعَلْيَاءِ، وَسُرَّةِ ٱلْبَطْحَاءِ، وَمَصَابِيحِ ٱلظُّلْمَةِ، وَيَنَابِيعِ ٱلْحِكْمَةِ.

الشرح: شجرة الأنبياء أولاد إبراهيم عليه السلام، لأنّ أكثر الأنبياء منهم: والمشكاة: كُوّة غير نافذة، يجعل فيها المصباح. والذؤابة. طائفة من شعر الرأس، وسرّة البطحاء: وسطها، وبنو كعب بن لؤيّ يفخرون على بني عامر بن لؤيّ بأنهم سكنوا البطاح، وسكنت عامر بالجبال المحيطة بمكّة، وسكن معها بنو فهر بن مالك، رهط أبي عبيدة بن الجرّاح وغيره، قال الشاعر:

فَحَلَلْتَ منها بالبطا ح وحَلّ غيرُك بالظواهِرْ

وقال طريح بن إسماعيل:

أنت ابنُ مُسْلَنطِحِ البطاح ولم تُطْرَقْ عليك الحُنِيّ والوُلُجُ

وقال بعض الطالبيّين:

وأنا ابن مُعتلج البطاح إذا غدا غيري، وراح على متون ظواهِر
يفترّ عنّي ركنها وحطيمُها كالجَفْن يُفتح عن سواد الناظِر
كجبالِهَا شَرَفِي، ومثل سهولها خُلُقِي، ومثل ظبائهنّ مجاورِي

الأصل: ومنها: طَبِيبٌ دَوَّارٌ بِطِبِّهِ، قَدْ أَحْكَمَ مَرَاهِمَهُ، وَأَحْمَىٰ مَوَاسِمَهُ، يَضَعُ ذٰلِكَ حَيْثُ ٱلْحَاجَةُ إِلَيْهِ، مِنْ قُلُوبٍ عُمْيٍ، وَآذَانٍ صُمٍّ، وَأَلْسِنَةٍ بُكْمٍ، مُتَتَبِّعٌ بِدَوَائِهِ مَوَاضِعَ ٱلْغَفْلَةِ، وَمَوَاطِنَ ٱلْحَيْرَةِ.

الشرح: إنّما قال: «دوّار بطبّه»، لأنّ الطبيب الدّوار أكثر تجربة، أو يكون عَنَى به أنّه يدور عَلَى مَنْ يعالجه، لأنّ الصالحين يدورون على مرضى القلوب، فيعالجونهم ويقال:

إن المسيح رُئِيَ خارجاً من بيت مومسة، فقيل له: يا سيدنا، أمثلك يكون ها هنا! فقال: إنما يأتي الطبيبُ المرضى.

والمراهم: الأدوية المركّبة للجراحات والقروح. والمواسم: حدائِدُ يُوسَم بها الخيل وغيرها.

ثم ذكر أنّه إنما يعالج بذلك مَنْ يحتاج إليه، وهم أولو القلوب العُمْي، والآذان الصمّ، والألسنة البكم، أي الخرس. وهذا تقسيم صحيح حاصر، لأن الضلال ومخالفة الحقّ يكون بثلاثة أمور: إما بجهل القلب، أو بعدم سماع المواعظ والحجج، أو بالإمساك عن شهادة التوحيد وتلاوة الذكر، فهذه أصول الضلال، وأما أفعال المعَاصي ففروع عليها.

التقسيم وهو من أبواب علم البيان

وصحة التقسيم باب من أبواب علم البيان، ومنه قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾[1]. وهذه قسمة صحيحة، لأن المكلّفين: إما كافر، أو مؤمن، أو ذو المنزلة بين المنزلتين، هكذا قسم أصحابنا الآيةَ على مذهَبهم في الوعيد.

وغيرهم يقول: العباد إمّا عاصٍ ظالم لنفسه، أو مطيعٌ مبادرٌ إلى الخير، أو مقتصدٌ بينهما.

ومن التقسيم أيضاً قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾[2] ومثل ذلك.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[3]، لأن الناس عند رؤية البرق بين خائف وطامع.

ووقف سائل على مجلس الحسن البصريّ، فقال: رحم الله عبداً أعطى من سَعَة، أو واسَى من كفاف، أو آثَرَ مِنْ قِلَّةٍ! فقال الحسن: لم تترك لأحدٍ عذراً.

ومن التقسيمات الفاسدة في الشعر قول البحتري:

ذَاكَ وَادي الأَرَاكِ فَاحْبِسْ قليلاً ... مُقْصِراً في مَلاَمةٍ أَوْ مُطيلاَ
قِفْ مَشُوقاً، أو مُسْعِداً، أو حزيناً ... أو مُعيناً، أو عاذراً، أو عذولا

فالتقسيم في البيت الأول صحيح، وفي الثاني غير صحيح، لأنَّ المشوق يكون حزيناً، والمسعد يكون معيناً، فكذلك يكون عاذراً، ويكون مشوقاً، ويكون حزيناً.

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٢.
(٢) سورة الواقعة، الآيات: ٧ - ١٠.
(٣) سورة الرعد، الآية: ١٢.

وقد وقع المتنبي في مثل ذلك، فقال:

فافخر، فإنّ الناس فيك ثلاثة ... مستعظِمٌ أو حاسدٌ أو جاهلُ

فإن المستعظم يكون حاسداً، والحاسد يكون مستعظماً.

ومن الأبيات التي ليس تقسيمها بصحيح، ما ورد في شعر الحماسة:

وأنتَ امرؤ إمّا ائتمنتُك خالياً ... فخنْتَ، وإمَّا قلت قولاً بلا عِلْمِ

فأنْتَ من الأمر الذي قد أتيته ... بمنزلةٍ بين الخيانة والإثم

وذلك لأنَّ الخيانة أخصّ من الإثم، والإثم شامل لها، لأنه أعمّ منها، فقد دخل أحد القسمين في الآخر. ويمكن أنْ يعتذر له، فيقال: عَنَى بالإثم الكذبَ نفسه، وكذلك هو المعنيّ أيضاً بقوله: «قولاً بلا علم»، كأنه قال له: إما أن أكون أفشيت سري إليك فخنتَني، أو لم أفش فكذبت عَليّ، فأنت فيما أتيتَ بين أن تكونَ خائناً أو كاذباً.

ومما جاء من ذلك في النثر قول بعضهم: «من جريحٍ مضرّج بدمائه، أو هارب لا يلتفت إلى ورائه»، وذلك أنّ الجريح قد يكون هارباً، والهارب قد يكون جريحاً.

وقد أجاد البحتري لما قَسّم هذا المعنى، وقال:

غادرتْهُمْ أيدي المنيّة صُبْحاً ... لِلقَنَا بين ركَّعٍ وسجودِ

فهمُ فرقتانِ: بين قتيل ... قبضت نفسُه بحدّ الحديد

أو أسيرٍ غدا له السجن لَحْداً ... فهو حيٌّ في حالة الملحودِ

فرقة للسيوف ينفذ فيها الـ ... ـحُكْمُ قَسْراً وفرقةٌ للقيود

ومن ذلك قول بعض الأعراب: النِّعم ثلاث: نعمة في حال كونها، ونعمة ترجَى مستقبَلة، ونعمة تأتي غير محتَسبة، فأبقى ٱلله عليك ما أنتَ فيه، وحقّق ظنّك فيما ترتجيه، وتفضّل عليك بما لم تحتسبه. وذلك أنه أغفل النعمة الماضية. وأيضاً فإنَّ النعمةَ التي تأتي غَير محتَسَبَة داخلة في قِسْم النعمة المستقبَلة. وقد صحح القسمة أبو تمام، فقال:

جُمعتْ لنا فِرَقُ الأماني منكمُ ... بأبرَّ من رُوح الحياة وأوصلِ

كالمُزن من ماضي الرَّباب ومقبِلٍ ... متنظِّرٍ ومخيِّم متهلل

فصنيعةٌ في يومها وصنيعةٌ ... قد أحولَتْ، وصنيعةٌ لم تحولِ

فإنْ قلت: فإن ما عنيتَ به فساد التقسيم على البحتريّ والمتنبي يَلزمك مثله فيما شرحته، لأنّ الأعمى القلب قد يكون أبكم اللسان، أصمّ السمع.

قلت: إن الشاعرين ذكرا التقسيم بـ «أوْ»، وأميرُ المؤمنين عليه السلام قَسّم بالواو والواو للجمع، فغيرُ منكَرٍ أنْ تجتمع الأقسام لواحد، أو أن تعطي معنى الانفراد فقط، فافترق الموضعان.

الأصل: لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِأَضْوَاءِ ٱلْحِكْمَةِ، وَلَمْ يَقْدَحُوا بِزِنَادِ ٱلْعُلُومِ ٱلثَّاقِبَةِ، فَهُمْ فِي ذٰلِكَ كَٱلْأَنْعَامِ ٱلسَّائِمَةِ، وَٱلصُّخُورِ ٱلْقَاسِيَةِ، قَدِ ٱنْجَابَتِ ٱلسَّرَائِرُ لِأَهْلِ ٱلْبَصَائِرِ، وَوَضَحَتْ مَحَجَّةُ ٱلْحَقِّ لِخَابِطِهَا، وَأَسْفَرَتِ ٱلسَّاعَةُ عَنْ وَجْهِهَا، وَظَهَرَتِ ٱلْعَلَامَةُ لِمُتَوَسِّمِهَا.

مَالِي أَرَاكُمْ أَشْبَاحاً بِلاَ أَرْوَاحٍ، وَأَرْوَاحاً بِلاَ أَشْبَاحٍ، وَنُسَّاكاً بِلاَ صَلاَحٍ، وَتُجَّاراً بِلاَ أَرْبَاحٍ، وَأَيْقَاظاً نُوَّماً، وَشُهُوداً غُيَّباً، وَنَاظِرَةً عَمْيَاءَ، وَسَامِعَةً صَمَّاءَ، وَنَاطِقَةً بَكْمَاءَ!

الشرح: انجابت: انكشفت. والمحجّة: الطريق. والخابط: السائر على غير سبيل واضحة. وأسفرت الساعة: أضاءت وأشرقت، وعن متعلقة بمحذوف، وتقديره: كاشفة عن وجهها.

والمتوسِّم: المتفرّس. أشباحاً بلا أرواح، أي أشخاصاً لا أرواح لها ولا عقول، وأرواحاً بلا أشباح، يمكن أن يريد به الخفة والطيش، تشبيهاً بروح بلا جسد. ويمكن أن يعني به نقصهم، لأن الروح غير ذات الجسد ناقصة عن الاعتمال والتحريك اللّذيْن كانا من فعلها حيث كانت تدير الجسد.

ونسّاكاً بلا صلاح: نسبهم إلى النفاق.

وتجّاراً بلا أرباح: نسبهم إلى الرياء وإيقاع الأعمال على غير وجهها.

ثم وصفهم بالأمور المتضادة ظاهراً، وهي مجتمعة في الحقيقة، فقال: أيقاظاً نُوّماً، لأنهم أولو يقظة، وهم غفول عن الحق كالنيام، وكذلك باقيها، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[1].

الأصل: رَايَةُ ضَلاَلٍ قَدْ قَامَتْ عَلَى قُطْبِهَا، وَتَفَرَّقَتْ بِشُعَبِهَا، تَكِيلُكُمْ بِصَاعِهَا، وَتَخْبِطُكُمْ بِبَاعِهَا، قَائِدُهَا خَارِجٌ مِنَ ٱلْمِلَّةِ، قَائِمٌ عَلَى ٱلضِّلَّةِ، فَلاَ يَبْقَىٰ يَوْمَئِذٍ مِنْكُمْ إِلاَّ ثُفَالَةٌ

---

(١) سورة الحج، الآية: ٤٦.

كَثُفَالَةِ ٱلْقِدْرِ، أَوْ نُفَاضَةً كَنُفَاضَةِ ٱلْعِكْمِ، تَعْرُكُكُمْ عَرْكَ ٱلْأَدِيمِ، وَتَدُوسُكُمْ دَوْسَ ٱلْحَصِيدِ، وَتَسْتَخْلِصُ ٱلْمُؤْمِنَ مِنْ بَيْنِكُمْ ٱسْتِخْلَاصَ ٱلطَّيْرِ ٱلْحَبَّةَ ٱلْبَطِينَةَ مِنْ بَيْنِ هَزِيلِ ٱلْحَبِّ.

الشرح: هذا كلام منقطع عَمّا قبله، لأن الشريف الرضيّ رحمه الله كان يلتقط الفصول التي في الطبقة العليا من الفصاحة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام فيذكرُها، ويتخطّى ما قبلها وما بعدها، وهو عليه السلام يذكر ها هنا ما يحدُث في آخر الزمان من الفتن، كظهور السّفيانيّ وغيره.

والقطب في قوله عليه السلام: «قامت على قطبها»: الرئيس الذي عليه يدور أمرُ الجيش. والشُّعب: القبيلة العظيمة، وليس التفرّق للراية نفسها، بل لنصّارها وأصحابها، فحذف المضاف، ومعنى تفرّقهم، أنهم يدعون إلى تلك الدعوة المخصوصة في بلاد متفرقة، أي تفرق ذلك الجمع العظيم في الأقطار، داعين إلى أمرٍ واحد ويروى «بشُعَبها» جمع شُعْبَة.

وتقدير: «تكيلكم بصاعها» تكيل لكم، فحذف اللام، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾[1]، أي كالوا لهم، أو وزنوا لهم، والمعنى تحمِلكم على دينها ودعوتها، وتعاملكم بما يعامل به من استجاب لها. ويجوز أن يريد بقوله: «تكيلكم بصاعها» يقهركم أربابها على الدخول في أمرهم، ويتلاعبون بكم، ويرفعونكم ويضعونكم كما يفعل كيّال البُرّ به إذا كاله بصاعه.

وتخبطكم بباعها: تظلمكم وتعسفكم، قائدها ليس على ملّة الإسلام بل مقيم على الضلالة، يقال: ضلّة لك، وإنه ليلومني ضَلّة، إذا لم يوفّق للرشادِ في عَذله.

والثفالة: ما ثفل في القِدْر من الطبيخ. والنُّفاضة: ما سقط من الشيء المنفوض.

والعِكْم: العِدْل، والعِكْم أيضاً نمَطٌ تجعل فيه المرأة ذخيرتها.

وعركت الشيء: دلكته بقوة. والحصيد: الزرع المحصود.

ومعنى استخلاص الفتنة المؤمن أنها تخصّه بنكايتها وأذاها، كما قيل: المؤمن مُلَقّى والكافر موَقّى، وفي الخبر المرفوع: «آفات الدنيا أسرعُ إلى المؤمن من النار في يَبيس العَرْفَج».

الأصل: أَيْنَ تَذْهَبُ بِكُمُ ٱلْمَذَاهِبُ، وَتَتِيهُ بِكُمُ ٱلْغَيَاهِبُ، وَتَخْدَعُكُمُ ٱلْكَوَاذِبُ؟ وَمِنْ أَيْنَ تُؤْتَوْنَ، وَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ! فَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ، وَلِكُلِّ غَيْبَةٍ إِيَابٌ.

---

(١) سورة المطففين، الآية: ٣.

فَاسْتَمِعُوا مِنْ رَبَّانِيِّكُمْ، وَأَحْضِرُوهُ قُلُوبَكُمْ، وَاسْتَيْقِظُوا إِنْ هَتَفَ بِكُمْ. وَلْيَصْدُقْ رَائِدٌ أَهْلَهُ، وَلْيَجْمَعْ شَمْلَهُ، وَلْيُحْضِرْ ذِهْنَهُ، فَلَقَدْ فَلَقَ لَكُمُ الْأَمْرَ فَلْقَ الْخَرَزَةِ، وَقَرَفَهُ قَرْفَ الصَّمْغَةِ.

الشرح: الغياهب: الظلمات، الواحد غَيْهب. وتتيه بكم: تجعلكم تائهين، عدّى الفعل اللازم بحرف الجرّ، كما تقول في ذهب: ذهبت به. والتائه: المتحير.

والكواذب ها هنا: الأمانيّ، فحذف الموصوف وأبقى الصفة كقوله:

إلاّ بكَفَّيْ كان مِنْ أرْمَى البشر

أي بكَفَّيْ غلام هذه صفته.

وقوله: «ولكل أجل كتاب» أظنه منقطعاً أيضاً عن الأول مثل الفصل الذي تقدم، وقد كان قبله ما ينطبق عليه ويلتئم معه لا محالة. ويمكن على بعد أن يكون متصلاً بما هو مذكور ها هنا.

وقوله: «ولكل غيبة إياب» قد قاله عَبيد بن الأبرص، واستثنى من العموم الموت، فقال:

وكلّ ذي غَيْبَةٍ يَؤوبُ وغائب الموت لا يؤوب[1]

وهو رأي زنادقة العرب، فأمّا أمير المؤمنين، وهو ثاني صاحب الشريعة التي جاءت بِعَودِ الموتى، فإنه لا يستثني، ويحمّق عبيداً في استثنائه.

والربانيّ: الذي أمرهم بالاستماع منه، إنما يعني به نفسَه عليه السلام، ويقال: رجل ربانيّ أي متألّه عارف بالربّ سبحانه. وفي وصف الحسَن لأمير المؤمنين عليه السلام: «كان والله ربانيّ هذه الأمة وذَا فضلها، وذا قرابتها، وذا سابقتها».

ثم قال: وأحضروه قلوبكم، أي اجعلوا قلوبكم حاضرةً عنده، أي لا تقنعوا لأنفسكم بحضور الأجساد وغيبة القلوب، فإنكم لا تنتفعون بذلك: وهتف بكم: صاح، والرائد: الذي يتقدّم المنتجعين لينظر لهم الماء والكلأ. وفي المثل: الرائد لا يكذب أهله.

وقوله: «وليجمع شَمْلَهُ» أي وليجمع عزائمه وأفكاره لينظر، فقد فَلَق هذا الربانيّ لكم الأمر، أي شقَّ ما كان مبهماً، وفتح ما كان مغلقاً، كما تفلق الخرزة فيعرَف باطنها.

وقَرَفه، أي قشره، كما تقشر الصمغة عن عود الشجرة، وتقلع.

---

(١) رواه النعماني في شرح الأخبار: ٢/ ١٨٢ ح ٥٢٥.

الأصل: فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذَ ٱلْبَاطِلُ مَآخِذَهُ، وَرَكِبَ ٱلْجَهْلُ مَرَاكِبَهُ، وَعَظُمَتِ الطَّاغِيَةُ، وَقَلَّتِ الدَّاعِيَةُ، وَصَالَ الدَّهْرُ صِيَالَ ٱلسَّبُعِ ٱلْعَقُورِ، وَهَدَرَ فَنِيقُ ٱلْبَاطِلِ بَعْدَ كُظُوم، وَتَوَاخَى النَّاسُ عَلَى ٱلْفُجُورِ، وَتَهَاجَرُوا عَلَى الدِّينِ، وَتَحابُّوا عَلَى ٱلْكَذِبِ، وَتَبَاغَضُوا عَلَى الصِّدْقِ. فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَانَ ٱلْوَلَدُ غَيْظاً، وَالمَطَرُ قَيْظاً، وَتَفِيضُ اللِّئَامُ فَيْضاً، وَتَغِيضُ ٱلْكِرَامُ غَيْضاً، وَكَانَ أَهْلُ ذَلِكَ الزَّمَانِ ذِئَاباً، وَسَلاَطِينُهُ سِبَاعاً، وَأَوْسَاطُهُ أُكَالاً، وَفُقَرَاؤُهُ أَمْوَاتاً، وَغَارَ ٱلصِّدْقُ، وَفَاضَ ٱلْكَذِبُ، وَٱسْتُعْمِلَتِ المَوَدَّةُ بِاللِّسَانِ، وَتَشَاجَرَ النَّاسُ بِالْقُلُوبِ، وَصَارَ ٱلْفُسُوقُ نَسَباً، وَٱلْعَفَافُ عَجَباً، وَلُبِسَ الإِسْلاَمُ لُبْسَ ٱلْفَرْوِ مَقْلُوباً.

الشرح: تقول: أخذ الباطل مأخذه، كما تقول عمل عمله، أي قوي سلطانه وقهر، ومثله «ركب الجهل مراكبه».

وعظمت الطاغية، أي الطغيان، فاعلة بمعنى المصدر، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾[1]، أي تكذيب، ويجوز أن تكون الطاغية ها هنا صفة فاعل محذوف، أي عظمت الفئة الطاغية. وقلت الداعية مثله، أي الفرقة الداعية.

وصالَ: حمل ووثب، صَوْلاً وصَوْلَةً، يقال: ربّ قول أشدُّ من صَوْل، والصِّيال والمصاولة هي المواثبة، صايله صِيالاً وصيالةً، والفحلان يتصاولان، أي يتواثبان.

والفنِيق: فحل الإبل. وهدَرَ: ردّد صوته في حَنْجَرتِه، وإبل هوادر، وكذلك هدّر بالتشديد تهديراً، وفي المثل: «هو كالمهدِّر في العُنّة» يضرب للرجل يصيح ويجلب وليس وراء ذلك شيء كالبعير الذي يُحبَس في العنّة، وهي الحظيرة، ويمنَع من الضِّراب، وهو يهدر، وقال الوليد بن عقبة لمعاوية:

قَطَعْتَ الدَّهْرَ كالسَّدِمِ المعنَّى تهدِّر في دمشقَ ولا تَرِيمُ

والكُظوم: الإمساك والسكوت، كَظَم البعير يكظِم كظوماً، إذا أمسك الجِرّة، وهو كاظم، وإبل كُظُوم لا تجترّ، وقوم كُظَّم ساكتون.

وتواخى الناس: صاروا إخوة، والأصل تآخى الناس، فأبدلت الهمزة واواً، كآزرته أي أعنته، ووازرته.

يقول: اصطلحوا على الفجُور، وتهاجروا على الدين، أي تعادَوْا وتقاطعوا.

---

(١) سورة الواقعة، الآية: ٢.

فإن قلت: فإنّ من شعار الصالحين أن يهجُروا في الدين ويعادوا فيه!

قلت: لم يذهب أميرُ المؤمنين حيث ظنَنْت، وإنما أراد أنّ صاحب الدين مهجور عندهم، لأن صاحب الدين مهجور وصاحب الفجور جارٍ عندهم مجرى الأخ في الحنوّ عليه، والحبّ له، لأنه صاحب فجور.

ثم قال: «كان الولد غيظاً»، أي لكثرة عقوق الأبناء للآباء، «وصار المطر قيظاً» يقال إنه من علامات الساعة وأشراطها.

وأوساطُه أكَالاً، أي طعاماً، يقال: ما ذقتُ أكالاً، وفي هذا الموضع إشكال، لأنه لم يُقَلْ هذا الحرف إلا في الجَحْد خاصة، كقولهم: ما بها صافر، فالأجود الرواية الأخرى، وهي «آكالاً» بمدّ الهمزة على «أفعال» جمع أُكُل، وهو ما أُكِل، كقُفْل وأقفال. وقد روى «أُكَالاً» بضم الهمزة على «فُعال»، وقالوا: إنه جمع «أكل» للمأكول كعِرْق وعُراق، وظِئْر وظُؤار، إلا أنه شاذّ عن القياس، ووزن واحدهما مخالف لوزن واحد «أكال» لو كان جمعاً، يقول: صار أوساط الناس طُعْمة للولاة وأصحاب السلاطين، وكالفريسة للأسد، وغار الماء: سفل لنقصه، وفاض: سال.

وتشاجر الناس: تنازَعوا وهي المشاجرة، وشَجَر بين القوم، إذا اختلف الأمر بينهم، واشتجروا، مثل تشاجروا.

وصار الفسوق نسباً يصير الفاسق صديق الفاسق، حتى يكون ذلك كالنسب بينهم، وحتى يعجب الناس من العفاف، لقلّته وعدمه.

ولَبِس الإسلام لبس الفرو، وللعرب عادة بذلك، وهي أن تجعل الخَمْل إلى الجسد، وتظهر الجلد، والمراد انعكاس الأحكام الإسلامية في ذلك الزمان.

---

١٠٨ - ومن خطبة له عليه السلام في تمجيد الله ووصف ملائكته

الأصل: كُلُّ شَيْءٍ خَاشِعٌ لَهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَائِمٌ بِهِ، غِنَى كُلِّ فَقِيرٍ، وَعِزُّ كُلِّ ذَلِيلٍ، وَقُوَّةُ كُلِّ ضَعِيفٍ، وَمَفْزَعُ كُلِّ مَلْهُوفٍ.

مَنْ تَكَلَّمَ سَمِعَ نُطْقَهُ، وَمَنْ سَكَتَ عَلِمَ سِرَّهُ، وَمَنْ عَاشَ فَعَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَمَنْ مَاتَ فَإِلَيْهِ مُنْقَلَبُهُ.

لَمْ تَرَكَ ٱلْعُيُونُ فَتُخْبِرَ عَنْكَ، بَلْ كُنْتَ قَبْلَ ٱلْوَاصِفِينَ مِنْ خَلْقِكَ.

لَمْ تَخْلُقِ ٱلْخَلْقَ لِوَحْشَةٍ، وَلاَ ٱسْتَعْمَلْتَهُمْ لِمَنْفَعَةٍ، وَلاَ يَسْبِقُكَ مَنْ طَلَبْتَ، وَلاَ يُفْلِتُكَ مَنْ

أَخَذْتَ، وَلاَ يَنْقُصُ سُلْطَانَكَ مَنْ عَصَاكَ، وَلاَ يَزِيدُ فِي مُلْكِكَ مَنْ أَطَاعَكَ، وَلاَ يَرُدُّ أَمْرَكَ مَنْ سَخِطَ قَضَاءَكَ، وَلاَ يَسْتَغْنِي عَنْكَ مَنْ تَوَلَّى عَنْ أَمْرِكَ.

كُلُّ سِرٍّ عِنْدَكَ عَلاَنِيَةٌ، وَكُلُّ غَيْبٍ عِنْدَكَ شَهَادَةٌ.

أَنْتَ ٱلأَبَدُ فَلاَ أَمَدَ لَكَ، وَأَنْتَ المُنْتَهَى فَلاَ مَحِيصَ عَنْكَ، وَأَنْتَ المَوْعِدُ فَلاَ مَنْجَيَ مِنْكَ إلاَّ إِلَيْكَ.

بِيَدِكَ نَاصِيَةُ كُلِّ دَابَّةٍ، وَإِلَيْكَ مَصِيرُ كُلِّ نَسَمَةٍ.

سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ شَأْنَكَ! سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ مَا نَرَى مِنْ خَلْقِكَ! وَمَا أَصْغَرَ عَظِيمَةٍ فِي جَنْبِ قُدْرَتِكَ! وَمَا أَهْوَلَ مَا نَرَى مِنْ مَلَكُوتِكَ! وَمَا أَحْقَرَ ذٰلِكَ فِيمَا غَابَ عَنَّا مِنْ سُلْطَانِكَ! وَمَا أَسْبَغَ نِعَمَكَ فِي ٱلدُّنْيَا، وَمَا أَصْغَرَها فِي نِعَمِ ٱلآخِرَةِ!

الشرح: قال: كل شيء خاضع لعظمة الله سبحانه، وكلّ شيء قائم به، وهذه هي صفته الخاصة، أعني كونَه غنياً عن كل شيء، ولا شيء من الأشياء يغني عنه أصلاً.

ثم قال: «غنِي كلّ فقير، وعز كلّ ذليل، وقوة كلّ ضعيف، ومفزع كلّ ملهوف». جاء في الأثر: من اعتزّ بغير الله ذَلّ، ومن تكثَّر بغير الله قَلّ، وكان يقال: ليس فقيراً من استغنى بالله. وقال الحسن: واعجبا للوطٍ نبيّ الله! قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[1]، أتراه أراد ركناً أشدّ وأقوى من الله!

واستدلّ العلماءُ على ثبوت الصانع سبحانه بما دلّ عليه فحوى قوله عليه السلام: «ومفزع كلّ ملهوف»، وذلك أنّ النفوس ببدائهها تفزع عند الشدائد والخطوب الطارقة إلى الالتجاء إلى خالقها وبارئها، ألا ترى راكبي السفينة عند تلاطم الأمواج، كيف يجأرون إليه سبحانه اضطراراً لا اختياراً، فدلّ ذلك على أنّ العلم به مركوز في النفس، قال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[2].

ثم قال عليه السلام: «من تكلّم سَمِعَ نطقه، ومَنْ سكت علم سرّه»، يعني أنه يعلم ما ظهر وما بطن.

ثم قال: «ومن عاش فعليه رزقه، ومن مات فإليه منقلبُه»، أي هو مدبّر الدنيا والآخرة، والحاكم فيهما.

ثم انتقل عن الغيبة إلى الخطاب، فقال: «لم ترك العيون».

---

(١) سورة هود، الآية: ٨٠.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٦٧.

وعلم أنّ باب الانتقال من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة باب كبيرٌ من أبواب علم البيان، وأكثر ما يقع ذلك إذا اشتدت عناية المتكلّم بذلك المعنى المنتقل إليه، كقوله سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝﴾[1] فأخبر عن غائب، ثم انتقل إلى خطاب الحاضر فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[2]، قالوا: لأنّ منزلة الحمد دون منزلة العبادة، فإنك تحمد نظيرَك ولا تعبده، فجعل الحمد للغائب وجعل العبادة لحاضرٍ يخاطب بالكاف، لأنّ كاف الخطاب أشد تصريحاً به سبحانه من الإخبار بلفظ الغيبة. قالوا: ولما انتهى إلى آخر السورة، قال: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[3] فأسند النعمة إلى مخَاطب حاضر، وقال في الغضب: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾[4]، فأسنده إلى فاعل غير مسمّى ولا معيّن، وهو أحسن من أن يكون قال: «الم تغضب عليهم»، وفي النعمة: «الذين أنعم عليهم».

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾[5] فأخبر بـ«قالوا» عن غائبين، ثم قال: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾[6]، فأتى بلفظ الخطاب استعظاماً للأمر كالمنكر على قوم حاضرين عنده.

ومن الانتقال عن الخطاب إلى الغيبة قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾[7] الآية.

وفائدة ذلك أنّه صرف الكلام من خطاب الحاضرين إلى إخبار قوم آخرين بحالهم، كأنّه يعدّد على أولئك ذنوبهم ويشرح لهؤلاء بغيَهم وعنادهم الحق، ويقبّح عندهم ما فعلوه، ويقول: ألا تعجبون من حالهم كيف دعونا، فلمّا رحمناهم، واستجبنا دعاءهم، عادوا إلى بغيهم! وهذه الفائدة لو كانت الآية كلّها على صيغة خطاب الحاضر مفقودة.

قال عليه السلام: ما رأتك العيون فتخبر عنك، كما يخبر الإنسان عما شاهده، بل أنت أزليّ قديم موجود قبل الواصفين لك.

---

(١) سورة الفاتحة، الآيات: ٢-٤.
(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٥.
(٣) سورة الفاتحة، الآية: ٧.
(٤) سورة الفاتحة، الآية: ٧.
(٥) سورة مريم، الآية: ٨٨.
(٦) سورة مريم، الآية: ٨٩.
(٧) سورة يونس، الآية: ٢٢.

فإن قلت: فأيّ منافاة بين هذين الأمرين، أليس من الممكن أن يكون سبحانه قَبْل الواصفين له، ومع ذلك يدرك بالأبصار إذا خلق خلقه، ثم يصفونه رأي عين!

قلت: بل ها هنا منافاة ظاهرة، وذلك لأنه إذا كان قديماً لم يكن جِسْماً ولا عَرَضاً، وما ليس بجسم ولا عَرَض تستحيل رؤيته، فيستحيل أن يخبرَ عنه على سبيل المشاهدة.

ثم ذكر عليه السلام أنه لم يخلق الخلْق لاستيحاشه وتفرّده، ولا استعملهم بالعبادة لنفعه، وقد تقدم شرح هذا.

ثم قال: لا تطلب أحداً فيسبقك، أي يفوتك، ولا يفلتك من أخذته.

فإن قلت: أيّ فائدة في قوله: «ولا يفلتك من أخذته»، لأن عدم الإفلات هو الأخذ، فكأنّه قال: لا يفلتك من لم يفلتك!

قلت: المراد أنّ مَنْ أخذت لا يستطيع أن يُفْلِت، كما يستطيع المأخوذون مع ملوك الدنيا أن يفلِتُوا بحيلة من الحِيَل.

فإن قلت: أفلتَ فعل لازم، فما باله عَدّاه؟

قلت: تقدير الكلام: «لا يفلت منك» فحذف حرف الجر، كما قوال: «استجبتك» أي استجبت لك، قال:

فـلـم يـسـتـجـبْـه عـنـد ذاك مـجـيـب

وقالوا: استغفرت الله الذنوب، أي من الذنوب، وقال الشاعر:

أستـغـفـرُ الله ذنـبـاً لـسـت مـحـصِيَـهُ ربُّ الـعـبـاد إلـيـه الـوجـهُ والـعـمـلُ

قوله عليه السلام: «ولا يردّ أمرَك مَنْ سَخِط قضاءك، ولا يستغني عنك مَنْ تولّى عن أمرك»، تحته سرّ عظيم، وهو قول أصحابنا في جواب قول المجْبِرة: لو وقع منّا ما لا يريده لاقتضى ذلك نقصه: إنه لا نقص في ذلك، لأنه لا يريد الطاعات منّا إرادة قَهْر وإلجاء، ولو أرادَها إرادة قهر لوقعتْ وغلبت إرادته إرادتنا، ولكنّه تعالى أراد منّا أن نفعل نحن الطاعة اختياراً، فلا يدلّ عدم وقوعها منّا على نقصه وضعفه، كما لا يدلّ بالاتفاق بيننا وبينكم عدمُ وقوع ما أمر به على ضعفه ونقصه.

ثم قال عليه السلام: «كلّ سرّ عندك علانية»، أي لا يختلف الحال عليه في الإحاطة بالجهر والسرّ، لأنّه عالم لذاته ونسبة ذاته إلى كلّ الأمور واحدة.

ثم قال: «أنت الأبد فلا أمدَ لك»، هذا كلام عُلْويّ شريف، لا يفهمه إلا الراسخون في العلم، وفيه سِمَة من قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: «لا تسبّوا الدهر، فإن الدهر هو الله»[1]، وفي مناجاة

---

(١) أخرجه مسلم في الألفاظ من الأدب وغيرها، باب: النهي عن سب الدهر (٢٢٤٦)، وأحمد في «مسنده» (٨٨٩٢).

الحكماء لمحة منه أيضاً، وهو قولهم: «أنت الأزل السَّرْمد، وأنت الأبد الَّذي لا ينفد»، بل قولهم: «أنت الأبد الذي لا ينفد»، هو قوله: «أنت الأبد فلا أمَد لك»، بعينه، ونحن نشرحه ها هنا على موضوع هذا الكتاب، فإنه كتاب أدب لا كتاب نظر، فنقول: إن له في العربية محملَيْن: أحدهما أنّ المراد به: أنت ذو الأبد، كما قالوا: رجل خالٍ، أي ذو خالٍ، والخال الخُيَلاء، ورجل داء، أي به داء، ورجل مال، أي ذو مال. والمحمل الثاني، أنّه لما كان الأزل والأبد لا ينفكّان عن وجوده سبحانه جعله عليه السلام، كأنّه أحدهما بعينه، كقولهم: أنتِ الطلاق، لما أراد المبالغة في البينونة جعلها كأنها الطلاق نفسه، ومثله قول الشاعر:

فـإن الـمـنـدّى رِحْـلَـةٌ فَـرُكـوب

وقال أبو الفتح في «الدمشقيات» استدلّ أبو عليّ على صرف «مِنًى» للموضع المخصوص، بأنه مصدر «منى يمنى»، قال: فقلت له: أتستدلّ بهذا على أنّه مذكر، لأن المصدر إلى التذكير! فقال: نعم، فقل: فما تنكر ألاّ يكون فيه دلالة عليه، لأنه لا ينكر أن يكون مذكراً سمي به البقعة المؤنثة، فلا ينصرف، كامرأةٍ سميتها بحجر وجَبَل وشبع ومعى، فقال: إنما ذهبت إلى ذلك، لأنه جُعِل كأنّه المصدر بعينه، لكثرة ما يعاني فيه ذلك. فقلت: الآن نعم.

ومن هذا الباب قوله:

فـإنّـمـا هِـيَ إقْـبَـالٌ وإدبـار

وقوله:

وهـنّ من الإخلاف قبلك والـمطلِ

وقوله: «فلا منجي منك إلا إليك» قد أخذه الفرزدق فقال لمعاوية:

إلـيـك فـررتُ مـنـك ومـن زيـادٍ ولـم أحـسـب دَمِـي لَـكُـمَـا حـلالاً

ثم استعظم واستهول خلْقه الذي يراه، وملكوته الذي يشاهده، واستصغر واستحقر ذلك، بالإضافة إلى قدرته تعالى، وإلى ما غاب عَنّا من سلطانه. ثم تعجّب من سُبُوغ نعمه تعالى في الدنيا، واستصغر ذلك بالنسبة إلى نعم الآخرة، وهذا حقّ لأنه لا نسبة للمتناهي إلى غير المتناهي.

الأصل: منها: مِنْ مَلاَئِكَةٍ أَسْكَنْتَهُمْ سَمَاوَاتِكَ، وَرَفَعْتَهُمْ عَنْ أَرْضِكَ، هُمْ أَعْلَمُ خَلْقِكَ بِكَ، وَأَخْوَفُهُمْ لَكَ، وَأَقْرَبُهُمْ مِنْكَ، لَمْ يَسْكُنُوا ٱلْأَصْلاَبَ، وَلَمْ يُضَمَّنُوا ٱلْأَرْحَامَ، وَلَمْ يُخْلَقُوا مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ، وَلَمْ يَتَشَعَّبْهُمْ رَيْبُ المَنُون، وَإِنَّهُمْ عَلَى مَكَانِهِمْ مِنْكَ، وَمَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَكَ، وَٱسْتِجْمَاعِ أَهْوَائِهِمْ فِيكَ، وَكَثْرَةِ طاعَتِهِمْ لَكَ، وَقِلَّةِ غَفْلَتِهِمْ عَنْ أَمْرِكَ، لَوْ عَايَنُوا كُنْهَ مَا

خَفِيَ عَلَيْهِمْ مِنْكَ، لَحَقَّرُوا أَعْمَالَهُمْ، وَلَزَرَوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَلَعَرَفُوا أَنَّهُمْ لَمْ يَعْبُدُوكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، وَلَمْ يُطِيعُوكَ حَقَّ طَاعَتِكَ.

سُبْحَانَكَ خَالِقاً وَمَعْبُوداً! بِحُسْنِ بَلاَئِكَ عِنْدَ خَلْقِكَ خَلَقْتَ دَاراً، وَجَعَلْتَ فِيهَا مَأْدُبَةً، مَشْرَباً وَمَطْعَماً وَأَزْوَاجاً، وَخَدَماً وَقُصُوراً، وَأَنْهَاراً وَزُرُوعاً وَثِمَاراً.

ثُمَّ أَرْسَلْتَ دَاعِياً يَدْعُو إِلَيْها، فَلاَ الدَّاعِيَ أَجَابُوا، وَلاَ فِيمَا رَغَّبْتَ رَغِبُوا، وَلاَ إِلَى مَا شَوَّقْتَ إِلَيْهِ اشْتَاقُوا أَقْبَلُوا عَلَى جِيفَةٍ قَدِ افْتَضَحُوا بِأَكْلِها، وَاصْطَلَحُوا عَلَى حُبِّها، وَمَنْ عَشِقَ شَيْئاً أَعْشَى بَصَرَهُ، وَأَمْرَضَ قَلْبَهُ، فَهُوَ يَنْظُرُ بِعَيْنٍ غَيْرِ صَحِيحَةٍ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنٍ غَيْرِ سَمِيعَةٍ، قَدْ خَرَقَتِ الشَّهَوَاتُ عَقْلَهُ، وَأَمَاتَتِ الدُّنْيا قَلْبَهُ، وَوَلِهَتْ عَلَيْهَا نَفْسُهُ، فَهُوَ عَبْدٌ لَها، وَلِمَنْ فِي يَدَيْهِ شَيْءٌ مِنها، حَيْثُما زَالَتْ زَالَ إِلَيْهَا، وَحَيْثُما أَقْبَلَتْ أَقْبَلَ عَلَيْها، لاَ يَنْزَجِرُ مِنَ اللهِ بِزَاجِرٍ، وَلاَ يَتَّعِظُ مِنْهُ بِوَاعِظٍ، وَهُوَ يَرَى الْمَأْخُوذِينَ عَلَى الْغِرَّةِ، حَيْثُ لاَ إِقَالَةَ لَهُمْ وَلاَ رَجْعَةَ، كَيْفَ نَزَلَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَجْهَلُونَ، وَجَاءَهُمْ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا مَا كَانُوا يَأْمَنُونَ، وَقَدِمُوا مِنَ الآخِرَةِ عَلَى مَا كَانُوا يُوعَدُونَ. فَغَيْرُ مَوْصُوفٍ مَا نَزَلَ بِهِمْ، اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ، وَحَسْرَةُ الْفَوْتِ، فَفَتَرَتْ لَهَا أَطْرَافُهُمْ، وَتَغَيَّرَتْ لَهَا أَلْوَانُهُمْ، ثُمَّ ازْدَادَ المَوْتُ فيهِمْ وُلُوجاً، فَحِيلَ بَيْنَ أَحَدِهِمْ وَبَيْنَ مَنْطِقِهِ، وَإِنَّهُ لَبَيْنَ أَهْلِهِ يَنْظُرُ بِبَصَرِهِ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنِهِ عَلَى صِحَّةٍ مِنْ عَقْلِهِ، وَبَقَاءٍ مِنْ لُبِّهِ، يُفَكِّرُ فِيمَ أَفْنَى عُمُرَهُ، وَفِيمَ أَذْهَبَ دَهْرَهُ! وَيَتَذَكَّرُ أَمْوَالاً جَمَعَهَا أَغْمَضَ فِي مَطَالِبِهَا، وَأَخَذَها مِنْ مُصَرَّحَاتِهَا وَمُشْتَبِهاتِهَا، قَدْ لَزِمَتْهُ تَبِعَاتُ جَمْعِهَا، وَأَشْرَفَ عَلَى فِرَاقِهَا، تَبْقَى لِمَنْ وَرَاءَهُ يُنَعَّمُونَ فِيهَا، وَيَتَمَتَّعُونَ بِهَا، فَيَكُونُ المَهْنأُ لِغَيْرِهِ، وَالْعِبْءُ عَلَى ظَهْرِهِ، وَالمَرْءُ قَدْ غَلِقَتْ رُهُونُهُ بِهَا، فَهُوَ يَعَضُّ يَدَهُ نَدَامَةً عَلَى مَا أَصْحَرَ لَهُ عِنْدَ المَوْتِ مِنْ أَمْرِهِ، وَيَزْهَدُ فِيمَا كَانَ يَرْغَبُ فِيهِ أَيَّامَ عُمُرِهِ، وَيَتَمَنَّى أَنَّ الَّذِي كَانَ يَغْبِطُهُ بِهَا وَيَحْسُدُهُ عَلَيْهَا قَدْ حَازَهَا دُونَهُ، فَلَمْ يَزَلِ المَوْتُ يُبَالِغُ فِي جَسَدِهِ، حَتَّى خَالَطَ سَمْعَهُ، فَصَارَ بَيْنَ أَهْلِهِ لاَ يَنْطِقُ بِلِسَانِهِ، وَلاَ يَسْمَعُ بِسَمْعِهِ، يُرَدِّدُ طَرْفَهُ بِالنَّظَرِ فِي وُجُوهِهِمْ، يَرَى حَرَكَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ، وَلاَ يَسْمَعُ رَجْعَ كَلاَمِهِمْ، ثُمَّ ازْدَادَ المَوْتُ الْتِيَاطاً بِهِ، فَقُبِضَ بَصَرُهُ كَمَا قُبِضَ سَمْعُهُ، وَخَرَجَتِ الرُّوحُ مِنْ جَسَدِهِ، فَصَارَ جِيفَةً بَيْنَ أَهْلِهِ، قَدْ أَوْحَشُوا مِنْ جَانِبِهِ، وَتَبَاعَدُوا مِنْ قُرْبِهِ، لاَ يُسْعِدُ بَاكِياً، وَلاَ يُجِيبُ دَاعِياً، ثُمَّ حَمَلُوهُ إِلَى مَخَطٍّ فِي الأَرْضِ، فَأَسْلَمُوهُ فِيهِ إِلَى عَمَلِهِ، وَانْقَطَعُوا عَنْ زَوْرَتِهِ.

حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، وَالأَمْرُ مَقَادِيرَهُ، وَأُلْحِقَ آخِرُ الْخَلْقِ بِأَوَّلِهِ، وَجَاءَ مِنْ أَمْرِ اللهِ

مَا يُرِيدُهُ مِنْ تَجْدِيدِ خَلْقِهِ، أَمَادَ السَّمَاءَ وَفَطَرَهَا، وَأَرَجَّ الْأَرْضَ وَأَرْجَفَهَا، وَقَلَعَ جِبَالَهَا وَنَسَفَهَا، وَدَكَّ بَعْضُهَا بَعْضاً مِنْ هَيْبَةِ جَلاَلَتِهِ، وَمَخُوفِ سَطْوَتِهِ، وَأَخْرَجَ مَنْ فِيهَا فَجَدَّدَهُمْ بَعْدَ إِخْلاَقِهِمْ، وَجَمَعَهُمْ بَعْدَ تَفَرُّقِهِمْ، ثُمَّ مَيَّزَهُمْ لِمَا يُرِيدُهُ مِنْ مَسْأَلَتِهِمْ عَنْ خَفَايَا الْأَعْمَالِ، وَخَبَايَا الْأَفْعَالِ وَجَعَلَهُمْ فَرِيقَيْنِ: أَنْعَمَ عَلَى هَؤلاَءِ وَانْتَقَمَ مِنْ هَؤُلاَءِ. فَأَمَّا أَهْلُ الطَّاعَةِ فَأَثَابَهُمْ بِجِوَارِهِ، وَخَلَّدَهُمْ فِي دَارِهِ، حَيْثُ لاَ يَظْعَنُ النُّزَّالُ، وَلاَ تَتَغَيَّرُ بِهِمُ الْحَالُ، وَلاَ تَنُوبُهُمُ الْأَفْزَاعُ، وَلاَ تَنَالُهُمُ الْأَسْقَامُ، وَلاَ تَعْرِضُ لَهُمُ الْأَخْطَارُ، وَلاَ تُشْخِصُهُمُ الْأَسْفَارُ. وَأَمَّا أَهْلُ الْمَعْصِيَةِ، فَأَنْزَلَهُمْ شَرَّ دَارٍ، وَغَلَّ الْأَيْدِيَ إِلَى الْأَعْنَاقِ، وَقَرَنَ النَّوَاصِيَ بِالْأَقْدَامِ، وَأَلْبَسَهُمْ سَرَابِيلَ الْقَطِرَانِ، وَمُقَطَّعَاتِ النِّيرَانِ، فِي عَذَابٍ قَدِ اشْتَدَّ حَرُّهُ، وَبَابٍ قَدْ أُطْبِقَ عَلَى أَهْلِهِ، فِي نَارٍ لَهَا كَلَبٌ وَلَجَبٌ، وَلَهَبٌ سَاطِعٌ، وَقَصِيفٌ هَائِلٌ. لاَ يَظْعَنُ مُقِيمُهَا، وَلاَ يُفَادَى أَسِيرُهَا، وَلاَ تُفْصَمُ كُبُولُهَا، لاَ مُدَّةَ لِلدَّارِ فَتَفْنَى، وَلاَ أَجَلَ لِلْقَوْمِ فَيُقْضَى.

الشرح: هذا موضع المثل. «في كلّ شجرة نار، واستمجد المرْخ والعفار»، الخطب الوعظية الحسان كثيرة، ولكن هذا حديث يأكل الأحاديث:

محاسن أصناف المغنين جمّةٌ ... وما قصباتُ السَّبْق إلا لمعبد[1]

من أراد أن يتعلّم الفصاحة والبلاغة، ويعرف فضلَ الكلام بعضه على بعض، فليتأمل هذه الخطبة، فإن نسبتها إلى كلّ فصيح من الكلام - عدا كلام الله ورسوله - نسبة الكواكب المنيرة الفلكيّة إلى الحجارة المظلمة الأرضية، ثم لينظر الناظر إلى ما عليها من البهاء، والجلالة والرّواء، والديباجة، وما تحدثه من الروعة والرهبة، والمخافة والخشية، حتى لو تليتْ على زنديق ملحد مصمّم على اعتقاد نفي البعث والنّشور لهدّت قواه، وأرعبت قلبه، وأضعفت على نفسه، وزلزلت اعتقاده، فجزى الله قائلها عن الإسلام أفضل ما جزى به وليًّا من أوليائه! فما أبلغ نصرته له! تارةً بيده وسيفه، وتارة بلسانه ونطقه، وتارة بقلبه وفكره! إن قيل: جهادٌ وحرب فهو سيّد المجاهدين والمحاربين، وإن قيل: وعظٌ وتذكير، فهو أبلغُ الواعظين والمذكّرين، وإن قيل: فقهٌ وتفسير فهو رئيس الفقهاء والمفسرين، وإن قيل: عدلٌ وتوحيد، فهو إمام أهل العدل والموحّدين:

ليس على الله بمستنكَرٍ ... أن يجمع العالم في وَاحدِ

(١) قصبات السبق: الغاية التي يسبق إليها تذرع بالقصب، وتركز تلك القصبة عند منتهى الغاية فمن سبق إليها حازها، ومعبد: هو معبد بن وهب نابغة الغناء العربي في العصر الأموي.

ثم نعود إلى الشرح، فنقول: قوله عليه السلام: «أسكنتهم سماواتك»، لا يقتضي أنّ جميع الملائكة في السماوات، فإنه قد ثبت أنّ الكرام الكاتبين في الأرض، وإنما لم يقتض ذلك، لأنّ قوله: «من ملائكة» ليس من صيغ العموم، فإنه نكرة في سياق الإثبات: وقد قيل أيضاً: إنّ ملائكة الأرض تعرُج إلى السماء ومسكنها بها، ويتناوبون على أهل الأرض.

قوله: «هم أعلمُ خَلْقك بك»، ليس يعني به أنّهم يعلمون من ماهيته تعالى ما لا يعلمه البشر، أمّا على قول المتكلّمين فلأنّ ذاته تعالى معلومة للبشر، والعلم لا يقبل الأشدّ والأضعف، وأمّا على قول الحكماء، فلأنّ ذاته تعالى غيرُ معلومة للبشر ولا للملائكة، ويستحيل أن تكون معلومة لأحدٍ منهم، فلم يبق وجهٌ يحمَل عليه قوله عليه السلام: «هم أعلم خلقك بك» إلا أنهم يعلمون من تفاصيل مخلوقاته وتدبيراته ما لا يعلمه غيرهم، كما يقال: وزير الملك أعلمُ بالملِك من الرعية، ليس المراد أنّه أعلم بذاته وماهيته، بل بأفعاله وتدبيره ومراده وغرضه.

قوله: «وأخوفهم لك»، لأنّ قوّتَي الشهوة والغضب مرفوعتان عنهم، وهما منبع الشرّ، وبهما يقع الطمع والإقدام على المعاصي. وأيضاً فإنّ منهم مَنْ يشاهد الجَنّة والنار عياناً، فيكون أخوفَ لأنّه ليس الخبر كالعيان.

قوله: «وأقربهم منك» لا يريد القربَ المكانيّ لأنه تعالى منزّه عن المكان والجهة، بل المراد كثرة الثواب وزيادة التعظيم والتبجيل، وهذا يدلّ على صحة مذهب أصحابنا في أنّ الملائكة أفضلُ من الأنبياء.

ثم نَبّه على مزيّة لهم تقتضِي أفضليةَ جنسِهم على جنْس البشر، بمعنى الأشرفيّة، لا بمعنى زيادة الثواب وهو قوله «لم يسكنُوا الأصلاب، ولم يضمَّنوا الأرحام، ولم يخلقوا من ماء مَهين، ولم يتشعّبهم ريبُ المنون»، وهذه خصائص أربع:

فالأولى أنّهم لم يسكنوا الأصلاب، والبَشر سكنوا الأصلاب، ولا شبهة أنّ ما ارتفع عن مخالطة الصورة اللحميّة والدمويّة أشرف مما خالطها ومازجها.

والثانية أنّهم لم يضمَّنُوا الأرحام، ولا شبهة أنّ من لم يخرج من ذلك الموضع المستقذَر أشرفُ ممن خرج منه، وكان أحمد بن سهل بن هاشم بن الوليد بن كامكاو بن يزدَجرْد بن شهريار، يفخر على أبناء الملوك بأنّه لم يخرج من بُضع امرأة، لأن أمّه ماتت وهي حامل به، فشقّ بطنها عنه وأخرج، قال أبو الريحان البيرونيّ في كتاب «الآثار الباقية عن القرون الخالية» عن هذا الرجل: إنه كان يتيه على الناس، وإذا شَتَم أحداً، قال: ابن البُضع، قال أبو الريحان: وأوّل مَنْ اتفق له ذلك الملك المعروف بأغسطس ملك الروم، وهو أول من سمّي فيهم قيصر، لأنه تفسير «قيصر» بلغتهم، شقّ عنه، وأيامه تاريخ، كما أنّ أيام الإسكندر تاريخ لعظمه وجلالته عندهم.

والثالثة أنهم لم يخلقوا من ماء مهين، وقد نصّ القرآن العزيز على أنّه مهين، وكفى ذلك في

تحقيره وضَعته، فهم لا محالة أشرف ممَّن خلق منه، لا سيما وقد ذهب كثير من العلماء إلى نجاسته.

والرابعة أنّهم لا يتشعّبهم ريْبُ المنيّة، ولا ريب أنّ من لا تتطرّق إليه الأسقام والأمراض ولا يموت، أشرف ممن هو في كلّ ساعة ولحظة بعرض سقام، وبصدد موت وحمام.

واعلم أن مسألة تفضيل الملائكة على الأنبياء لها صورتان: إحداهما أنّ «أفضل» بمعنى كونهم أكثر ثواباً، والأخرى كونهم أفضل بمعنى أشرف، كما تقول: إنّ الفلك أفضلُ من الأرض، أي أنّ الجوهر الذي منه جسميّة الأرض.

وهذه المزايا الأربع دالة على تفضيل الملائكة بهذا الاعتبار الثاني.

قوله عليه السلام: «يتشعّبهم ريب المنون»، أي يتقسّمهم، والشَّعْب: التفريق، ومنه قيل للمنيّة: شَعوب، لأنها تفرّق الجماعات، وريْب المنون: حوادث الدهر، وأصل الرّيْب ما رابَ الإنسان، أي جاءه بما يكره، والمنون الدهر نفسه، والمنون أيضاً المنيّة، لأنّها تمنّ المدّة أي تقطعها، والمنّ: القطع، ومنه قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[1].

وقال لَبِيد:

غُبْسٌ كواسبُ لا يمنّ طعامُها[2]

ثم ذكر أنّهم على كثرة عبادتهم وإخلاصهم لو عاينوا كُنْه ما خفي عليهم من البارىء تعالى لحقروا أعمالهم. وزرَوْا على أنفسهم، أي عابوها: تقول زريت على فلان، أي عبته وأزريت بفلان أي قصرت به.

فإن قلت: ما هذا الكنه الذي خَفي عن الملائكة، حتى قال: «لو عاينوه لَحَقَرُوا عبادتهم، ولعلموا أنهم قد قصروا فيها»؟

قلت: إنّ علوم الملائكة بالبارىء تعالى نظريَّة كعلوم البشر، والعلوم النظرية دون العلوم الضرورية في الجلاء والوضوح، فأميرُ المؤمنين عليه السلام يقول: لو كانتْ علومهم بك وبصفاتك إثباتية والسلبية والإضافية ضرورية، عِوَض علومهم هذه المتحقّقة الآن، التي هي نظرية لانكشفَ لهم ما ليس الآن على حدّ ذلك الكشف والوضوح. ولا شبهةَ أنَّ العبادة والخدمة على قَدْر المعرفة بالمعبود، فكلّما كان العابد به أعرفَ، كانت عبادته له أعظَم، ولا شبهة أنّ العظيم عند الأعظم حقير.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٨.

(٢) الغُبْس: الذّئاب. لسان العرب، مادة (غبس).

فإن قلت: فما معنى قوله: «واستجماع أهوائهم فيك»، وهل للملائكة هَوًى؟ وهل تستعمل الأهواء إلا في الباطل؟

قلت: الهوى: الحبُّ وميْل النفس، وقد يكون في باطل وحق، وإنما يحمل على أحدهما بالقرينة، والأهواء تستعمل فيهما، ومعنى استجماع أهوائهم فيه: أنَّ دواعيهم إلى طاعته وخدمته لا تنازعُها الصوارف، وكانت مجتمعة مائلة إلى شقّ واحد.

فإن قلت: الباء في قوله: «بحسن بلائك» بماذا تتعلق؟

قلت: الباب هاهنا للتعليل بمعنى اللام، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم﴾[1]، أي لأنّهم، فتكون متعلقة بما في «سبحانك» من معنى الفعل، أي أسبحك لحسن بلائك. ويجوز أن تتعلق بمعبود، أي يعبد لذلك.

ثم قال: «خلقت داراً» يعني الجنة. والمأدَبة والمأدُبة، بفتح الدال وضمها: الطعام الذي يُدعَى الإنسان إليه، أدبَ زيدٌ القومَ، يأدِبهم بالكسر، أي دعاهم إلى طعامه، والآدِب الداعي إلى طعامه، قال طَرَفة:

نَحْنُ فِي الـمَشْتَاةِ نَدْعُو الجَفَلَى ... لاَ تَـرى الآدِبَ فِـيـنَـا يَـنْـتَـقِـرْ

وفي هذا الكلام دلالة على أن الجنة الآن مخلوقة، وهو مذهب أكثر أصحابنا.

ومعنى قوله: «وزروعاً» أي وغروساً من الشجر، يقال: زرعت الشجر، كما يقال: زرعه الله أي أنبته، ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾[2].
ولو قال قائل: إن في الجنة زروعاً من البرّ والْقُطْنِيَة لم يبعد.

قوله: ثم أرسلت داعياً يعني الأنبياء. وأقبلوا على جِيفة، يعني الدنيا، ومن كلام الحسن رضي الله عنه: إنّما يتهارشون على جِيفةٍ.

وإلى قوله: «ومن عشق شيئاً أعشى بصره» نظر الشاعر فقال:

وَعَيْنُ الرِّضا عن كلِّ عيب كليلةٌ ... كما أنّ عين السخط تبدي المساويا

وقيل لحكيم: ما بال الناس لا يرون عيب أنفسهم، كما يرون عَيْب غيرهم؟ قال: إنّ الإنسان عاشق لنفسه، والعاشق لا يرَى عيوب المعشوق.

قد خرقت الشهواتُ عقله، أي أفسدته كما تخرِق الثوب فيفسد.

وإلى قوله: «فهو عبد لها ولمن في يديه شيء منها» نظر ابن دريد، فقال:

عَبِيدُ ذِي المالِ وإنْ لم يَطمعُوا ... مِنْ مالِهِ في نُغْبةٍ تَشْفي الصَّدَا

---

(١) سورة غافر، الآية: ٢٢.

(٢) سورة الواقعة، الآيتان: ٦٣، ٦٤.

وهـم لـمـن أمـلـق أعـداءٌ وإن شـاركـهـم فـيـمـا أفـاد وحَـوَى

وإلى قوله: «حيثما زالت زال إليها، وحيثما أقبلت أقبل عليها» نظر الشاعر، فقال:

ما الناس إلاّ مع الدنيا وصاحِبها فكيفما انقلبتْ يوماً به انقلبُوا
يعظِّمون أخا الدنيا فإن وثبتْ يوماً عليه بما لا يشتهي وَثَبُوا

والغِرّة: الاغترار والغَفْلة، والغارّ: الغافل، وقد اغتررتُ بالرجل، واغترّه زيد، أي أتاه على غِرّة منه، ويجوز أن يعني بقوله: «المأخوذينِ على الغرّة» الحداثة والشبيبة، يقول: كان ذلك في غَرارتي وغرتي، أي في حداثتي وصبايَ.

قوله: «سكْرة الموتِ وحسرة الفَوْت»، أي الحسرة على ما فاتهم من الدنيا ولذّتها، والحسرة على ما فاتهم من التوبة والندم واستدراك فارط المعاصي.

والولوج: الدخول، وَلَج يلِج.

قوله: «وبقاء من لبّه» أي لبُّه باق لم يعدم، ويروى «ونقاء» بالنون، والنّقاء: النظافة، أي لبّه غير مغمور.

أغمض في مطالبها، أي تساهل في دينه في اكتسابه إياها، أي كان يفتي نفسَه بتأويلات ضعيفة في استحلال تلك المطالب والمكاسب، فذاك هو الإغماض، قال تعالى: ﴿وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾(١)، ويمكن أن يُحمَل على وجه آخر، وهو أنه قد كان يحتال بحيل غامضة دقيقة في تلك المطالب حتى حصلها واكتسبها.

قوله عليه السلام: «وأخذها من مصرّحاتها ومشتبهاتها»، أي من وجوه مباحة وذوات شبهة، وهذا يؤكد المحمل الأول في «أغمض».

والتبعات: الآثام، الواحدة تبعة ومثلها التباعة، قال:

لـم يـحـذَرُوا مِـنْ رَبِّـهـم سُـوءَ الـعـواقـب والـتِّـبـاعـه

والمهنأ: المصدر من هَنِيء الطعام وهَنُؤ بالكسر والضم، مثل فَقِه وفقُه، فإن كسرت قلت: «يهنَأ»، وإن ضممت قلت: «يهنُؤ»، والمصدر «هناءة» و«مهنأ»، أي صار هنيئاً، وهنَأني الطعام يَهْنَؤني» ويهنئني - ولا نظير له في المهموز - هَنأً وهَنَاء، وهنئت الطعام، أي تهنّأت به، ومنه قوله تعالى: ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾(٢).

والعبء: الحمل، والجمع أعباء.

وغَلِق الرّهن، أي استحقّه المرتهِن، وذلك إذا لم يُفْتَكَّ في الوقت المشروط، قال زهير:

وَفَـارَقَـتْـكَ بـرهـنٍ لا فـكَـاكَ لَـهُ يوم الوَدَاعِ فأمْسَى الرَّهْنُ قد غَلِقَا

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٧.
(٢) سورة النساء، الآية: ٤.

فإن قلت: فما معنى قوله عليه السلام: «قد غَلِقتْ رهونُه بها» في هذا الموضع؟ قلت: لمَّا كان قد شارفَ الرحيلَ وأشفى على الفراق، وصارت تلك الأموال التي جمعها مستحقة لغيره، ولم يبقَ له فيها تصرُّف، أشبهت الرّهن الذي غَلِق على صاحبه، فخرج عن كونه مستحقًا، وصار مستَحقًّا لغيره وهو المرتهِن.

وأصحر: انكشف، وأصله الخروج إلى الصحراء والبروزُ من المكمن.

رجْع كلامهم: ما تراجعوهُ بينهم من الكلام. ازداد الموت التياطاً به، أي التصاقاً قد أُوحِشُوا، أي جعلوا مستوحشين، والمستوحِش: المهموم الفزِع، ويروى «أَوْحشوا من جانبه»، أي خلوْا منه وأقفروا، تقول: قد أوحش المنزل من أهلِهِ، أي أقفر.

وخلا إلى مخطّ في الأرض، أي إلى خَطّ، سماه مخطًّا أو خَطًّا لدِقّته، يعني اللَّحد، ويروى: «إلى محطّ» بالحاء المهملة، وهو المنزل، وحطّ القوم، أي نزلوا.

والحق آخرُ الخلق بأوله، أي تساوى الكلّ في شمول الموت والفناء لهم، فالتحق الآخر بالأوّل.

أماد السماء: حَرّكَها، ويروى: «أمار»، والموَرَان: الحركة. وفَطَرها: شَقَّها. وأرجّ الأرض: زلزلها، تقول: رجّت الأرضُ، وأرجّها الله، ويجوز «رجّها»، وقد روي «رجَّ الأرضَ» بغير همزة، وهو الأصحّ، وعليه ورد القرآن: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾[1].

أرجفها: جعلها راجفة أي مرتعدة متزلزلة، رجفت الأرضُ، ترجُف، والرَّجَفان: الاضطراب الشديد، وسمّى البحر رَجّافاً لاضطرابه، قال الشاعر:

حتى تغيبَ الشَّمْسُ في الرَّجّاف[2]

ونسفها: قَلَعها من أصولها. ودَكّ بعضَها بعضاً: صدمه ودقّه حتى يكسره ويسوّيَه بالأرض، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾[3]. ميّزهم، أي فَصَل بينهم، فجعلهم فريقين: سعداء وأشقياء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[4]، أي انفصلوا من أهل الطاعة.

يظعَن: يرحل. تنوبُهم الأفزاع: تعاودُهم، وتعرض لهم الأخطار: جمع خَطَر، وهو ما يشرف به على الهَلَكة.

وتُشخصهم الأسفار: تخرجهم من منزل إلى منزل، شخص الرجلُ وأشخصه غيرُه. وغلّ

---

(١) سورة الواقعة، الآية: ٤.

(٢) الرَّجاف: البحر. لسان العرب، مادة (رجف).

(٣) سورة الحاقة، الآية: ١٤.

(٤) سورة يٓس، الآية: ٥٩.

الأيدي: جعلها في الأغلال، جمع غُلّ بالضم، وهو القَيْد. والقَطِران: الهِناء، قطرتُ البعير أي طَليته بالقَطِران، قال:

كَمَا قَطَرَ المهنوءَةَ الرَّجُلُ الطالي

وبعير مقطور، وهذا من الألفاظ القرآنية، قال تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾[1]، والمعنى أنّ النار إلى القَطِران سريعة جداً.

ومقطّعات النِّيران، أي ثياب من النيران، قد قطعت وفصّلت لهم، وقيل: المقطّعات: قصار الثياب. والكلَب: الشدّة. والجلَب واللّجَب: الصوت. والقصِيف: الصوت الشديد.

لا يُفْصم كُبولها: لا يكسر قيودها، الواحد كَبْل.

ثم ذكر أن عذابهم سرمديّ، وأنه لا نهاية له، نعوذ بالله من عذاب ساعة واحدة، فكيف من العذاب الأبديّ!

ونحن نذكر في هذا الموضع فصولاً من خُطب الخطيب الفاضل عبد الرحيم بن نُباتة رحمه الله، وهو الفائز بقَصَبات السبق من الخطباء، وللناس غرام عظيم بخطبه وكلامه، ليتأمّل الناظر كلامَ أمير المؤمنين عليه السلام في خطبه ومواعظه، وكلام هذا الخطيب المتأخّر الذي قد وقع الإجماع على خطابته وحسنها، وأنّ مواعظه هي الغاية التي ليس بعدها غاية. فمن ذلك قوله:

«أيها الناس، تجهّزوا فقد ضَرَب فيكم بُوق الرحيل، وابرُزوا فقد قربت لكم نوق التحويل، ودَعُوا التمسّك بخُدَعِ الأباطيل، والركون إلى التسويف والتعليل، فقد سمعتم ما كرّر الله عليكم من قِصص أبناء القُرى، وما وعظكم به من مصارع مَنْ سَلَف من الورى، مما لا يعترض لذوي البصائر فيه شكّ ولا مِرَا، وأنتم معرِضون عنه إعراضَكم عمّا يخْتَلق ويفتَرى، حتى كأنّ ما تعلمون منه أضغاثُ أحلام الكَرى، وأيدي المنايا قد فصمت من أعماركم أوثق العُرا، وهجمت بكم على هول مطلعِ كريه القِرى، فالقهقرى رحمكم الله عن حبائلَ العطب القهقرى! واقطعوا مفاوِزَ الهلكات بمواصلة السُّرى، وقفوا على أحداث المنزلين من شَناخيب الذُّرا، المنجلين بوازع أمِّ حَبَوْ كَرى، المشغولين بما عليهم من الموت جرى، واكشفوا عن الوجوه المنعمة أطباق الثرى، تجدوا ما بقي منها عِبْرَة لمن يرى. فرحِم الله امرأً رحم نفسه فبكاها، وجعل منها إليها مشتكاها! قبل أن تعلق به خطاطيف المنون، وتصدق فيه أراجيف الظنون، وتَشْرَقَ عليه بمائها مُقَل العيون، ويلحق بمن دَثَر من القرون، قبل أن يبدوَ على المناكب محمولاً، ويغدوَ إلى محلّ المصائب منقولاً، ويكونَ عن الواجب مسؤولاً، وبالقدوم على الطالب الغالب مشغولاً. هناك يرفع الحجاب، ويوضع الكتاب، وتقطع الأسباب، وتذهب

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٥٠.

الأحساب، ويمنع الإعتاب، ويجمع من حَقّ عليه العقاب، ومَنْ وجب له الثواب، فيضرب بينهم بسُورٍ له باب، باطنه فيه الرَّحمة وظاهره من قِبَله العذاب».

فلينظر المنصِف هذا الكلام وما عليه من أثر التوليد، أوّلاً بالنسبة إلى ذلك الكلام العربيّ المحض، ثم لينظُرْ فيما عليه من الكسل والرخاوة، والفتور والبلادة، حتى كأنّ ذلك الكلام لعامر بن الطفيل مستلئماً شِكّته، راكباً جواده، وهذا الكلام للدّلال المديني المخنّث، آخذاً زمّارته، متأبطاً دفّه.

والمخ ما في «بوق الرحيل» من السفسفة واللفظ العاميّ الغثّ. واعلم أنهم كلهم عابوا على أبي الطيب قوله:

فإن كان بعضُ الناس سيفاً لدولةٍ ... ففي النّاس بُوقاتٌ لها وطُبُولُ

وقالوا: لا تدخل لفظة «بوق» في كلام يفلح أبداً.

والمخ ما على قوله: «القهقرى القهقرى» متكررة من الهجْنة، وأهجَنُ منها «أم حَبَوْ كَرى». وأين هذا اللفظ الحوشيّ الذي تفوح منه روائح الشِّيح والقَيْصوم، وكأنه من أعرابيّ قح قد قدِم من نجد لا يفهم محاورة أهل الحضر، ولا أهل الحضر يفهمون حواره، من هذه الخطبة الليّنة الألفاظ التي تكاد أن تتثنّى من لينها، وتتساقط من ضَعْفِها!

ثم المخ هذه الفِقَر والسَّجعات، التي أولها «القرى» ثم «المرا» ثم «يفترى» ثم «الكرى» إلى قوله: «عبرة لمن يَرى»، هَلْ تَرَى تحت هذا الكلام معنى لطيفاً، أو مقصداً رشيقاً! أو هل تجد اللفظ نفسه لفظًا جَزْلاً فصيحاً، أو عذباً معسولاً! وإنما هي ألفاظ قد ضُمّ بعضُها إلى بعض، والطائل تحتها قليل جدًّا. وتأمل لفظة «مِرا» فإنها ممدودة في اللغة، فإن كان قصرها فقد ركب ضرورة مستهجنة، وإن أراد جمع «مِرْية» فقد خرج عن الصناعة، لأنه يكون قد عَطَف الجمع على المفرد، فيصير مثل قول القائل: «ما أخذت منه ديناراً ولا دراهم»، في أنه ليس بالمستحسن في فن البيان.

ومن ذلك قوله:

«أيها الناس، حصحصَ الحقّ، فما من الحقّ مناص، وأشخِص الخلق، فما لأحد من الخلق خَلاَص، وأنتم على ما يباعدكم من الله حِرَاص، ولكم على موارد الهَلكة اغتصاص، وفيكم عن مقاصد البركة انتكاص، كأن ليس أمامكم جزاء ولا قصاص، ولجوارح الموت في وَحْش نفوسكم اقتناص، ليس بها عليها تأبٌ ولا اعتياص».

فليتأمّلْ أهلُ المعرفة بعلم الفصاحة والبيان هذا الكلامَ بعين الإنصاف، يعلموا أن سطراً واحداً من كلام «نهج البلاغة» يساوي ألف سطر منه، بل يزيد ويُربِي على ذلك، فإنّ هذا الكلام ملزقٌ عليه آثار كُلْفة وهُجْنة ظاهرة، يعرفها العاميّ فضلاً عن العالم.

ومن هذه الخطبة:

«فاهجروا رحمكم الله وثيرَ المراقد، وادّخروا طيّب المكتسب تخلصوا من انتقاد الناقد، واغتنموا فسحة المَهَل قبل انسداد المقاصد، واقتحموا سُبُل الآخرة على قِلّة المرافق والمساعد».

فهل يجد متصفّح الكلام لهذا الفصل عُذوبة، أو معنى يُمدح الكلامُ لأجله؟ وهلْ هُوَ إلا ألفاظ مضموم بعضها إلى بعض، ليس لها حاصل، كما قيل في شعر ذي الرُّمة: «بعر ظِباء ونقط عروس»!

ومن ذلك قوله:

«فيا له من واقع في كُرَب الحشارج، مصارع لسكرات الموت معالج! حتى دَرَج على تلك المدارج، وقدم بصحيفته على ذي المعارج».

وغير خاف ما في هذا الكلام من التكلّف.

ومن ذلك قوله:

«فكأنّكم بمنادي الرحيل قد نادى في أهل الإقامة، فاقتحموا بالصّغار محجّة القيامة، يتلو الأوائل منهم الأواخر، ويتبع الأكابرُ منهم الأصاغر، ويلتحق الغوامر من ديارهم بالغوامر، حتى تبتلع جميعهم الحفر والمقابر».

فإن هذا الكلام ركيك جدًّا، لوقاله خطيب من خُطباء قُرَى السواد لم يستحسَن منه، بل ترك واسترذل.

ولعلّ عائباً يعيب علينا فيقول: شرعتم في المقايسة والموازنة بين كلام أمير المؤمنين عليه السلام، وبين كلام ابن نُباتة، وهل هذا إلا بمنزلة قول مَنْ يقول: السيف أمضى من العصا، وفي هذه غضاضة[1] على السيف!

فنقول: إنه قد اشتملت كتبُ المتكلّمين على المقايسة بين كلام الله تعالى وبين كلام البَشَر، ليبيّنوا فضل القرآن وزيادة فصاحته على فصاحة كلام العرب، نحو مقايستهم بين قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾[2] وبين قول القائل: «القتل أنفى للقتل» ونحو مقايستهم بين قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[3] وبين قول الشاعر:

فإن عرضوا بالشرّ فاصفح تكرّماً وإن كتموا عنك الحديث فلا تسلْ

(١) الغضاضة: الذّلة والمنقصة، لسان العرب، مادة (غضض).
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٩. (٣) سورة الأعراف، الآية: ١٩٩.

ونحو إيرادهم كلام مُسَيلمة، وأحمد بن سليمان المعرّي، وعبد الله بن المقفع، فصلاً فصلاً، والموازنة والمقايسة بين ذلك وبين القرآن المجيد، وإيضاح أنّه لا يبلغ ذلك إلى درجة القرآن العزيز، ولا يقاربها، فليس بمستنكَرٍ منّا أن نذكر كلام ابن نُباتة في معرض إيرادنا كلام أمير المؤمنين عليه السلام لتظهرَ فضيلة كلامه عليه السلام، بالنسبة إلى هذا الخطيب الفاضل، الذي قد اتفق الناس على أنه أوْحدُ عصره في فنّه.

واعلم أنّا لا ننكر فضَل ابن نُباتة وحُسنَ أكثر خطبِه، ولكنّ قوماً من أهل العصبيّة والعناد، يزعمون أنّ كلامه يساوي كلامَ أمير المؤمنين عليه السلام ويماثلُه، وقد ناظَر بعضُهم في ذلك، فأحببت أن أبيّن للناس في هذا الكتاب أنّه لا نسبة لكلامه إلى كلام أمير المؤمنين عليه السلام، وأنه بمنزلة شعر الأبله وابن المعلّم بالإضافة إلى زُهير والنابغة.

واعلم أنّ معرفة الفصيح والأفصح، والرشيق والأرشق، والحلو والأحلى، والعالي والأعلى من الكلام أمر لا يُدرك إلا بالذوق، ولا يمكن إقامة الدلالة المنطقية عليه، وهو بمنزلة جاريتين: إحداهما بيضاء مشرَبة حمرة دقيقة الشفتين، نقية الثّغر، كحلاء العينين، أسِيلة الخدّ، دقيقة الأنف، معتدِلة القامة، والأخرى دونها في هذه الصفات والمحاسن، لكنها أحلَى في العيون والقلوب منها، وأليق وأصلح، ولا يدرَى لأيّ سبب كان ذلك، ولكنه بالذوق والمشاهدة يُعرف، ولا يمكن تعليله، وهكذا الكلام، نعم يبقى الفرق بين الموضعين. أنّ حُسْن الوجوه وملاحتها وتفضيل بعضها على بعض يدركه كلّ من له عين صحيحة، وأما الكلام فلا يعرفه إلا أهل الذوق، وليس كلّ من اشتغل بالنحو واللغة أو بالفقه كان من أهل الذوق وممّن يصلح لانتقاد الكلام، وإنما أهل الذوق هم الذين اشتغلوا بعلْم البيان، وراضوا أنفسهم بالرسائل والخطب والكتابة والشعر، وصارت لهم بذلك دُرْبَة وملكة تامة، فإلى أولئك ينبغي أن ترجع في معرفة الكلام وفضل بعضه على بعض، إن كنت عادماً لذلك من نفسك.

الأصل: منها في ذكر النبيّ صلى الله عليه وآله: **قَدْ حَقَّرَ ٱلدُّنْيَا وَصَغَّرَها، وَأَهْوَنَ بِهَا وَهَوَّنَهَا، وَعَلِمَ أَنَّ ٱللهَ زَوَاهَا عَنْهُ ٱخْتِيَاراً، وَبَسَطَها لِغَيْرِهِ ٱحْتِقَاراً، فَأَعْرَضَ عَنِ ٱلدُّنْيَا بِقَلْبِهِ، وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ، لِكَيْلاَ يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشاً، أَوْ يَرْجُوَ فِيهَا مَقَاماً. بَلَّغَ عَنْ رَبِّهِ مُعْذِراً، وَنَصَحَ لِأُمَّتِهِ مُنْذِراً، وَدَعَا إِلَى ٱلْجَنَّةِ مُبَشِّراً، وَخَوَّفَ مِنَ ٱلنَّارِ مُحَذِّراً.**

الشرح: فَعّل، مشدّد، للتكثير، «قَتَّلْتُ» أكثر من «قَتَلْتُ»، فيقتضي قوله عليه السلام : «قد حقّر الدنيا» زيادة تحقير النبي ﷺ لها، وذلك أبلغ من الثناء عليه وتقريظه.

قوله: «وَصَغّرها»، أي وصغّرها عند غيره، ليكون قوله: «وأهْوَنَ بها وهوّنها» مطابقاً له، أي أهون هو بها وهَوّنها عند غيره.

وزواها: قبضها، قال عليه الصلاة والسلام: «زُوِيَتْ لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها»(١).

وقوله: «اختياراً»، أي قبض الدّنيا عنه باختيار ورضاً من النبي ﷺ بذلك، وعلمٍ بما فيه من رفعة قدره، ومنزلته في الآخرة.

والرياش والريش بمعنى، وهو اللباس الفاخر كالحِرْم والحرام واللّبس واللباس، وقرىء: ﴿وَرِيَشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾(٢) ويقال: الريش والرياش: المال الخِصْب والمعاش، وارتاش فلان: حسنت حاله. ومعذراً، أي مبالغاً، أعذر فلان في الأمر، أي بالغ فيه.

الأصل: نَحْنُ شَجَرَةُ النُّبُوَّةِ، وَمَحَطُّ الرِّسَالَةِ، وَمُخْتَلَفُ المَلاَئِكَةِ، وَمَعَادِنُ ٱلْعِلْمِ، وَيَنَابِيعُ ٱلْحُكْمِ، نَاصِرُنَا وَمُحِبُّنَا يَنْتَظِرُ الرَّحْمَةَ، وَعَدُوُّنَا وَمُبْغِضُنَا يَنْتَظِرُ السَّطْوَةَ.

الشرح: هذا الكلام غير ملتصِق بالأول كلّ الالتصاق، وهو من النَّمَط الذي ذكرناه مراراً، لأنّ الرضيّ رحمه الله يقتضب فصولاً من خطبة طويلة، فيوردها إيراداً واحداً، وبعضها منقطع عن البعض.

قوله عليه السلام : «نحن شجرة النبوّة»، كأنه جعل النبوّة كثمرة أخرجتها شجرة بني هاشم. ومحطّ الرسالة: منزلها. ومختلف الملائكة: موضع اختلافها في صعودها ونزولها، وإلى هذا المعنى نظر بعض الطالبيّين فقال: يفتخر على بني عمّ له ليسوا بفاطميين:

هل كان يقتعد البُرَاقَ أبوكُمُ ... أمْ كانَ جبريلٌ عليه يُنَزَّلُ

أم هَلْ يقولُ لَهُ الإلٰهُ مُشافِهاً ... بالوَحْيِ: قم يا أيّها المُزَّمِّلُ

وقال آخر يمدح قوماً فاطميين:

ويطرقه الوَحْيُ وهناً وأنتمْ ... ضَجيعانِ بين يدي جَبْرئيلا

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨٩)، وأبو داود في الفتن والملاحم (٤٢٥٢)، وابن ماجه في الفتن، باب: ما يكون من الفتن (٣٩٥٢).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٦.

يعني حسناً عليه السلام وحسيناً عليه السلام.

واعلم أنه إن أراد بقوله: «نحن مختلف الملائكة» جماعة من جملتها رسول الله ﷺ، فلا ريب في صحة القضية وصدْقها، وإن أراد بها نفسَه وابنيْه فهي أيضاً صحيحة، ولكن مدلوله مستَنْبَط، فقد جاء في الأخبار الصحيحة، أنه قال: «يا جبريل، إنه منّي وأنا منه»[(١)]، فقال جبريل: وأنا منكما. وروى أبو أيوب الأنصاريّ مرفوعاً: «لقد صلّت الملائكة عليّ وعلى عليّ سبع سنين لم تصلّ على ثالث لنا»[(٢)]، وذلك قبل أن يظهر أمرُ الإسلام ويتسامع الناس به.

وفي خطبة الحسن بن عليّ عليه السلام لما قبض أبوه: «لقد فارقكُم في هذه الليلة رجلٌ لم يسبقه الأولون، ولا يدركه الآخرون، كان يبعثه رسول الله ﷺ للحرب وجبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره».

وجاء في الحديث أنه سُمِع يوم أحد صوتٌ من الهواء من جهة السماء، يقول: «لا سيف إلا ذو الفقار، ولا فتى إلا عليّ»، وأن رسول الله ﷺ قال: «هذا صوت جبريل»[(٣)].

فأما قوله: «ومعادن العلم، وينابيع الْحُكْم» يعني الحكمة أو الحكم الشرعيّ، فإنه وإن عَنَى بها نفسه وذرّيته، فإن الأمر فيها ظاهر جدًّا، قال رسول الله ﷺ: «أنا مدينة العلم وعليّ بابها، فمن أراد المدينة فليأت الباب»[(٤)]، وقال: «أقضاكم عليّ»[(٥)] والقضاء أمر يستلزم علوماً كثيرة.

وجاء في الخبر أنّه بعثه إلى اليمن قاضياً، فقال: يا رسول الله، إنهم كهول وذوُو أسنانٍ وأنا فتًى، وربما لم أصِبْ فيما أحكُم به بينهم، فقال له: «اذهب فإنّ الله سيثبّت قلبك ويهدي لسانك»[(٦)].

وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾[(٧)]: سألت الله أن يجعلها أذنَك ففعل[(٨)].

---

(١) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠١١٦).
(٢) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (٥٣٣١).
(٣) ذكره الطبري في «تاريخه» (٢/ ٦٥).
(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤٦٣٧)، والطبراني في «الكبير» (١١٠٦١)، والديلمي في «مسند الفردوس» (١٠٥).
(٥) ذكره المناوي في «فيض القدير» (١/ ٢٢٠).
(٦) أخرجه المقدسي في الأحاديث المختارة (٦٩٧)، وأحمد في «مسنده» (٦٦٨)، والبيهقي في «سننه» (١٠/ ٨٦)، والنسائي في «الكبرى» (٨٤٢٢)، والطيالسي في «مسنده» (٩٨)، وأبو يعلى في «مسنده» (٢٩٣).
(٧) سورة الحاقة، الآية: ١٢.
(٨) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (٨٣٣٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٧٦).

وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[١] أنها أنزلت في عليّ عليه السلام وما خُصّ به من العلم[٢]. وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾[٣]: أن الشاهد عليّ عليه السلام[٤].

وروى المحدّثون أنه قال لفاطمة: «زَوّجتُكِ أقدمَهم سِلْماً، وأعظمهم حِلْماً، وأعلمهم علماً»[٥]. وروى المحدّثون أيضاً عنه عليه السلام أنه قال: «مَنْ أراد أن ينظُر إلى نوح في عزمه، وموسى في عِلْمِه، وعيسى في وَرَعِه، فلينظر إلى عليّ بن أبي طالب».

وبالجملة فحاله في العلم حال رفيعة جداً لم يلحقه أحد فيها ولا قاربه. وحقّ له أن يصف نفسَه بأنه معادن العلم وينابيع الحكم، فلا أحدَ أحقُّ بها منه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

فإن قلت: كيف قال: «عدوّنا ومبغضنا ينتظر السطوة»، ونحن نشاهد أعداءه ومبغضيه، لا ينتظرونها!

قلت: لما كانت منتظرةً لهم ومعلوماً بيقين حلولها بهم، صاروا كالمنتظرين لها. وأيضاً فإنهم ينتظرون الموت لا محالة الذي كلّ إنسان ينتظره، ولما كان الموت مقدّمة العقاب وطريقاً إليه جعل انتظاره انتظار ما يكون بعده.

١٠٩ - ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها فرائض الإسلام

الأصل: إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَوَسَّلَ بِهِ ٱلْمُتَوَسِّلُونَ إِلَى ٱللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ٱلْإِيمَانُ بِهِ وَبِرَسُولِهِ، وَٱلْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ، فَإِنَّهُ ذِرْوَةُ ٱلْإِسْلَامِ، وَكَلِمَةُ ٱلْإِخْلَاصِ، فَإِنَّهَا ٱلْفِطْرَةُ، وَإِقَامُ ٱلصَّلَاةِ فَإِنَّهَا ٱلْمِلَّةُ، وَإِيتَاءُ ٱلزَّكَاةِ فَإِنَّهَا فَرِيضَةٌ وَاجِبَةٌ، وَصَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ فَإِنَّهُ جُنَّةٌ مِنَ ٱلْعِقَابِ، وَحَجُّ ٱلْبَيْتِ وَٱعْتِمَارُهُ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ ٱلْفَقْرَ وَيَرْحَضَانِ ٱلذَّنْبَ، وَصِلَةُ ٱلرَّحِمِ فَإِنَّهَا مَثْرَاةٌ فِي ٱلْمَالِ وَمَنْسَأَةٌ فِي ٱلْأَجَلِ، وَصَدَقَةُ ٱلسِّرِّ فَإِنَّهَا تُكَفِّرُ ٱلْخَطِيئَةَ، وَصَدَقَةُ ٱلْعَلَانِيَةِ فَإِنَّهَا تَدْفَعُ مِيتَةَ ٱلسُّوءِ، وَصَنَائِعُ ٱلْمَعْرُوفِ فَإِنَّهَا تَقِي مَصَارِعَ ٱلْهَوَانِ.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٤.
(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤٠/٨٨.
(٣) سورة هود، الآية: ١٧.
(٤) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٨٢٨).
(٥) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٠٣٢٢)، والطبراني في «الكبير» (١٥٦)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ١٠١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٢١٣١).

أَفِيضُوا فِي ذِكْرِ ٱللهِ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الذِّكْرِ وَٱرْغَبُوا فِيمَا وَعَدَ الْمُتَّقِينَ فَإِنَّ وَعْدَهُ أَصْدَقُ ٱلْوَعْدِ، وَٱقْتَدُوا بِهَدْيِ نَبِيِّكُمْ فَإِنَّهُ أَفْضَلُ الهَدْيِ، وَٱسْتَنُّوا بِسُنَّتِهِ فَإِنَّهَا أَهْدَىٰ ٱلسُّنَنِ، وَتَعَلَّمُوا ٱلْقُرْآنَ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ ٱلْحَدِيثِ، وَتَفَقَّهُوا فِيهِ فَإِنَّهُ رَبِيعُ ٱلْقُلُوبِ، وَٱسْتَشْفُوا بِنُورِهِ فَإِنَّهُ شِفَاءُ ٱلصُّدُورِ، وَأَحْسِنُوا تِلاَوَتَهُ فَإِنَّهُ أَنْفَعُ ٱلْقَصَصِ وَإِنَّ ٱلْعَالِمَ ٱلْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمِهِ كَالْجَاهِلِ ٱلْحَائِرِ ٱلَّذِي لاَ يَسْتَفِيقُ مِنْ جَهْلِهِ، بَلِ ٱلْحُجَّةُ عَلَيْهِ أَعْظَمُ وَٱلْحَسْرَةُ لَهُ أَلْزَمُ، وَهُوَ عِنْدَ ٱللهِ أَلْوَمُ.

الشرح: ذَكَر عليه السلام ثانية أشياء، كلٌ منها واجب.

أولها: الإيمان بالله وبرسوله، ويعني بالإيمان ها هنا مجرَّد التصديق بالقلب، مع قَطع النظر عما عدَا ذلك من التلفّظ بالشهادة، ومن الأعمال الواجبة، وترك القبائح. وقد ذهب إلى أن ماهيّة الإيمان هو مجرد التصديق القلبيّ جماعة من المتكلمين، وهو وإن لم يكن مذهبَ أصحابنا، فإنّ لهم أن يقولوا: إن أمير المؤمنين عليه السلام جاء بهذا اللّفظ على أصل الوضع اللّغويّ، لأن الإيمان في أصل اللّغة هو التصديق، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾[1]، أي لست بمصدّق لنا، لا إن كنّا صادقين، ولا إنْ كنا كاذبين. ومجيئه عليه السلام به على أصل الوضع اللُّغوي لا يبطل مذهبنا في مسمّى الإيمان، لأنا نذهب إلى أن الشرع استجدّ لهذه اللفظة مسمًّى ثانياً، كما نذهب إليه في الصلاة والزكاة وغيرهما، فلا مُنافاة إذاً بين مذهبنا وبين ما أطلقه عليه السلام.

وثانيها: الجهاد في سبيل الله، وإنما قدّمه على التلفُّظ بكلمتَي الشهادة، لأنه من باب دفع الضّرر عن النفس، ودفع الضرر عن النفس مقدّم على سائر الأعمال المتعلقة بالجوارح، والتلّفظ بكلِمَتي الشهادة من أعمال الجوارح، وإنما أخّره عن الإيمان، لأنّ الإيمان من أفعال القلوب، فهو خارج عمّا يتقدم عليه، ودفع الضّرر عن الأفعال المختصّة بالجوارح، وأيضاً فإنّ الإيمان أصلُ الجهاد، لأنّه ما لم يعلم الإنسان على ماذا يُجاهد لا يجاهد، وإنما جعله ذِرْوة الإسلام، أي أعلاه، لأنه ما لم تتحصّن دار الإسلام بالجهاد لا يتمكّن المسلمون من القيام بوظائف الإسلام، فكان إذاً من الإسلام بمنزلة الرأس من البدن.

وثالثها: كلمة الإخلاص، يعني شهادة أنْ لا إله إلا الله وشهادة أنّ محمداً رسول الله، قال: فإنها الفطرة، يعني هي التي فطر الناس عليها، والأصل الكلمة الأولى لأنها التوحيد، وعليها فُطِر البشرُ كلّهم، والكلمة الثانية تَبَعٌ لها فأجريت مجراها، وإنما أخرت هذه الخصلة

(١) سورة يوسف، الآية: ١٧.

عن الجهاد، لأنّ الجهاد كان هو السببَ في إظهار الناس لها ونطقهم بها، فصار كالأصل بالنسبة إليها.

ورابعها: إقام الصلاة أي إدامتها، والأصل «إقامة». قال: فإنها الملّة، وهذا مثل قول النبي ﷺ: «الصّلاة عماد الدين، فمن تركها فقد هَدَم الدين»[1].

وخامسها: إيتاء الزكاة، وإنما أخّرها عن الصلاة لأنّ الصلاة آكد افتراضاً منها، وإنما قال في الزكاة «فإنها فريضة واجبة»، لأن الفريضة لفظ يطلق على الجزء المعيّن المقدر في السائمة، باعتبارٍ غير الاعتبار الذي يطلق به على صلاة الظهر لفظ الفريضة، والاعتبار الأوّل من القطع، والثاني من الوجوب، وقال: فإنها فريضة واجبة، مثل أن يقول: فإنها شيء مقتطع من المال موصوف بالوجوب.

وسادسها: صوم شهر رمضان، وهو أضعف وجوباً من الزكاة، وجعله جُنّة من العقاب، أي سترة.

وسابعها: الحجّ والعمرة، وهما دون فريضة الصّوم، وقال: إنّهما ينفيان الفقر، ويَرْحضان الذنب، أي يغسلانه، رَحَضت الثوب، وثوب رَحيض. وهذا الكلام يدلّ على وجوب العُمْرة، وقد ذهب إليه كثير من الفقهاء العلماء.

وثامنها: صِلَة الرّحم وهي واجبة، وقطيعة الرحم محرّمة، قال: فإنها مثراة في المال، أي تُثريه وتكثره.

ومَنْسأة في الأجل، أي تنسَؤه وتؤخره، ويقال: نسأ اللّه في أجلك. ويجوز أنسأه بالهمزة.

فإن قلت: فما الحجة على تقديم وجوب الصلاة، ثم الزكاة، ثم الصوم، ثم الحج؟

قلت: أما الصّلاة، فلأن تاركها يقتل، وإن لم يجحد وجوبها، وغيرها ليس كذلك، وإنما قدمت الزّكاة على الصوم لأنّ اللّه تعالى قَرَنَها بالصلاة في كثير من الكتابَ العزيز، ولم يذكر صوم شهر رمضان إلا في موضع واحد، وكثرة تأكيد الشيء وذكره دليلٌ على أنّه أهمّ، وإنما قدّم الصوم على الحجّ، لأنه يتكرر وجوبه، والحجّ لا يجب في العمر إلا مَرّة واحدة، فدلّ على أنه أهمّ عند الشارع من الحج.

ثم قال عليه السلام: «وصدقة السرّ»، فخرج من الواجبات إلى النوافل. قال: «فإنَّها تكفر الخطيئة»، والتكفير هو إسقاط عقاب مستحقّ بثواب أزيد منه أو توبة وأصله في اللُّغة السَّتْر والتغطية، ومنه الكافر، لأنّه يغطّي الحق، وسمّي البحر كافراً لتغطيته ما تحته، وسمي الفلاّح كافراً لأنّه يغطّي الحبّ في الأرض المحروثة.

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢٨٠٧) والديلمي في «مسند الفردوس» (٣٧٩٥).

ثم قال: «وصدقة العلانية»: فإنها تدفع ميتة السوء كالغرق والهدم وغيرها.

قال: «وصنائع المعروف، فإنها تقي مصارع الهوان» كأسْر الروم للمسلم، أو كأخذ الظَّلَمة لغير المستحقّ للأخذ.

ثم شرع في وصايا أُخَرَ عدّدها. والهَدْيُ: السِّيرة، وفي الحديث: «واهدوا هَدْيَ عَمّار»، يقال: هُدِيَ فلان هَدْيَ فلان، أي سار سيرته.

وسمّي القرآن حديثاً اتباعاً لقول الله تعالى: ﴿نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾[1]، واستدلّ أصحابُنا بالآية على أنه محدَث، لأنه لا فَرْق بين حديث ومُحْدَث في اللُّغة. فإن قالوا: إنما أراد أحسن الكلام، قلنا: لعمري إنه كذلك، ولكنه لا يطلق على الكلام القديم لفظة حديث، لأنه إنما سمّي الكلام والمحاورة والمخاطبة حديثاً، لأنه أمر يتجدّد حالاً فحالاً، والقديم ليس كذلك.

ثم قال: «تفقَّهوا فيه فإنه ربيع القلوب»، من هذا أخذ ابن عباس قوله: «إذا قرأت آلَم حَمَ، وقعت في روضات دمِثاتٍ».

ثم قال: «فإنه شفاء الصدور»، وهذا من الألفاظ القرآنية.

ثم سمّاه قصصاً، اتباعاً لما ورد في القرآن من قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾[2].

ثم ذكر أن العالم الذي لا يعمل بعلمه كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق من جهله.

ثم قال: «بل الحجّة عليه أعظم»، لأنه يعلم الحقّ ولا يعمل به، فالحجّة عليه أعظم من الحجّة على الجاهل، وإن كانا جميعاً محجوجَيْن، أما أحدُهما فبِعلمه، وأما الآخر فبتمكُّنه من أن يعلم.

ثم قال: «والحسرة له ألزم»، لأنه عند الموت يتأسّف ألاّ يكون عمِل بما علم، والجاهل لا يأسَف ذلك الأسف.

ثم قال: «وهو عند الله ألوم»، أي أحقّ أن يلام، لأن المتمكّن عالم بالقوة، وهذا عالم بالفعل، فاستحقاقه اللوم والعقاب أشدّ.

---

١١٠ - ومن خطبة له عليه السلام في وصف الدنيا

الأصل: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُحَذِّرُكُمْ ٱلدُّنْيَا، فَإِنَّهَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، وَتَحَبَّبَتْ بِالْعَاجِلَةِ، وَرَاقَتْ بِالْقَلِيلِ، وَتَحَلَّتْ بِالْآمَالِ، وَتَزَيَّنَتْ بِالْغُرُورِ. لاَ تَدُومُ حَبْرَتُهَا،

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٣.

وَلاَ تُؤْمَنُ فَجْعَتُهَا. غَرَّارَةٌ ضَرَّارَةٌ، حَائِلَةٌ زَائِلَةٌ، نَافِدَةٌ بَائِدَةٌ، أَكَّالَةٌ غَوَّالَةٌ، لاَ تَعْدُو - إِذَا تَنَاهَتْ إِلَى أُمْنِيَّةِ أَهْلِ الرَّغْبَةِ فِيهَا وَالرِّضَاءِ بِهَا - أَنْ تَكُونَ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾[1].

لَمْ يَكُنِ امْرُؤٌ مِنْهَا فِي حَبْرَةٍ إِلاَّ أَعْقَبَتْهُ بَعْدَهَا عَبْرَةً، وَلَمْ يَلْقَ مِنْ سَرَّائِهَا بَطْناً، إِلاَّ مَنَحَتْهُ مِنْ ضَرَّائِهَا ظَهْراً، وَلَمْ تَطُلَّهُ فِيهَا دِيمَةُ رَخَاءٍ، إِلاَّ هَتَنَتْ عَلَيْهِ مُزْنَةُ بَلاَءٍ.

وَحَرِيٌّ إِذَا أَصْبَحَتْ لَهُ مُنْتَصِرَةً، أَنْ تُمْسِيَ لَهُ مُتَنَكِّرَةً وَإِنْ جَانِبٌ مِنْهَا اعْذَوْذَبَ وَاحْلَوْلَى، أَمَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ فَأَوْبَى!

لاَ يَنَالُ امْرُؤٌ مِنْ غَضَارَتِهَا رَغَباً، إِلاَّ أَرْهَقَتْهُ مِنْ نَوَائِبِهَا تَعَباً، وَلاَ يُمْسِي مِنْهَا فِي جَنَاحِ أَمْنٍ، إِلاَّ أَصْبَحَ عَلَى قَوَادِمِ خَوْفٍ.

غَرَّارَةٌ، غُرُورٌ مَا فِيهَا، فَانِيَةٌ، فَانٍ مَنْ عَلَيْهَا، لاَ خَيْرَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَزْوَادِهَا إِلاَّ التَّقْوَى.

مَنْ أَقَلَّ مِنْهَا اسْتَكْثَرَ مِمَّا يُؤْمِنُهُ، وَمَنِ اسْتَكْثَرَ مِنْهَا اسْتَكْثَرَ مِمَّا يُوبِقُهُ، وَزَالَ عَمَّا قَلِيلٍ عَنْهُ.

كَمْ مِنْ وَاثِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعَتْهُ، وَذِي طُمَأْنِينَةٍ قَدْ صَرَعَتْهُ، وَذِي أُبَّهَةٍ قَدْ جَعَلَتْهُ حَقِيراً، وَذِي نَخْوَةٍ قَدْ رَدَّتْهُ ذَلِيلاً!

سُلْطَانُهَا دُوَلٌ، وَعَيْشُهَا رَنِقٌ، وَعَذْبُهَا أُجَاجٌ، وَحُلْوُهَا صَبِرٌ، وَغِذَاؤُهَا سِمَامٌ، وَأَسْبَابُهَا رِمَامٌ. حَيُّهَا بِعَرَضِ مَوْتٍ، وَصَحِيحُهَا بِعَرَضِ سُقْمٍ. مُلْكُهَا مَسْلُوبٌ، وَعَزِيزُهَا مَغْلُوبٌ، وَمَوْفُورُهَا مَنْكُوبٌ، وَجَارُهَا مَحْرُوبٌ.

أَلَسْتُمْ فِي مَسَاكِنِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَطْوَلَ أَعْمَاراً، وَأَبْقَى آثَاراً، وَأَبْعَدَ آمَالاً، وَأَعَدَّ عَدِيداً، وَأَكْثَفَ جُنُوداً! تَعَبَّدُوا لِلدُّنْيَا أَيَّ تَعَبُّدٍ، وَآثَرُوهَا أَيَّ إِيثَارٍ، ثُمَّ ظَعَنُوا عَنْهَا بِغَيْرِ زَادٍ مُبَلِّغٍ، وَلاَ ظَهْرٍ قَاطِعٍ. فَهَلْ بَلَغَكُمْ أَنَّ الدُّنْيَا سَخَتْ لَهُمْ نَفْساً بِفِدْيَةٍ، أَوْ أَعَانَتْهُمْ بِمَعُونَةٍ، أَوْ أَحْسَنَتْ لَهُمْ صُحْبَةً! بَلْ أَرْهَقَتْهُمْ بِالْفَوَادِحِ، وَأَوْهَقَتْهُمْ بِالْقَوَارِعِ، وَضَعْضَعَتْهُمْ بِالنَّوَائِبِ، وَعَفَّرَتْهُمْ لِلمَنَاخِرِ، وَوَطِئَتْهُمْ بِالْمَنَاسِمِ، وَأَعَانَتْ عَلَيْهِمْ رَيْبَ الْمَنُونِ. فَقَدْ رَأَيْتُمْ تَنَكُّرَهَا لِمَنْ دَانَ لَهَا، وَآثَرَهَا وَأَخْلَدَ إِلَيْهَا، حِينَ ظَعَنُوا عَنْهَا لِفِرَاقِ الأَبَدِ.

وَهَلْ زَوَّدَتْهُمْ إِلاَّ السَّغَبَ، أَو أَحَلَّتْهُمْ إِلاَّ الضَّنْكَ، أَوْ نَوَّرَتْ لَهُم إِلاَّ الظُّلْمَةَ، أَوْ أَعْقَبَتْهُمْ إِلاَّ النَّدَامَةَ!

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٥.

أَفَهٰذه تُؤْثِرُونَ، أَمْ إِلَيْهَا تَطْمَئِنُّونَ، أَمْ عَلَيْهَا تَحْرِصُونَ!

فَبِئْسَتِ ٱلدَّارُ لِمَنْ لَمْ يَتَّهِمْهَا، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا عَلَى وَجَلٍ مِنْهَا!

فاعلموا - وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ - بِأَنَّكُمْ تارِكُوهَا، وَظَاعِنُونَ عَنْهَا. وَٱتَّعِظُوا فِيها بِالَّذِينَ قالُوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[1]، حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ فَلاَ يُدْعَوْنَ رُكْباناً، وَأُنْزِلُوا الأَجْداثَ فَلاَ يُدْعُونَ ضيفاناً، وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّفِيحِ أَجْنانٌ، وَمِنَ التُّرابِ أَكْفانٌ، وَمِنَ الرُّفاتِ جِيرَانٌ. فَهُمْ جِيرَةٌ لاَ يُجِيبُونَ دَاعِياً، وَلاَ يَمْنَعُونَ ضَيْماً، وَلاَ يُبَالُونَ مَنْدَبَةً. إنْ جِيدُوا لَمْ يَفْرَحُوا، وَإِنْ قُحِطُوا لَمْ يَقْنَطُوا، جَمِيعٌ وَهُمْ آحادٌ، وَجِيرَةٌ وَهُمْ أَبْعَادٌ، مُتَدَانُونَ لاَ يَتَزَاوَرُونَ، وَقَرِيبُونَ لاَ يَتَقَارَبُونَ.

حُلَماءُ قَدْ ذَهَبَتْ أَضْغانُهُمْ، وَجُهَلاءُ قَدْ مَاتَتْ أَحْقَادُهُمْ، لاَ يُخْشَى فَجْعُهُمْ، وَلاَ يُرْجَى دَفْعُهُمْ. اسْتَبْدَلُوا بِظَهْرِ الأَرْضِ بَطْناً، وَبِالسَّعَةِ ضِيقاً، وَبِالأَهْلِ غُرْبَةً، وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً، فَجَاؤوهَا كَمَا فَارَقُوهَا، حُفَاةً عُرَاةً قَدْ ظَعَنُوا عَنها بِأَعْمالِهِمْ، إِلَى ٱلْحَياةِ الدَّائِمَةِ، والدَّارِ ٱلْباقِيَةِ، كما قال سُبْحانَهُ وتَعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[2].

الشرح: خَضِرة، أي ناضرة، وهذه اللفظة من الألفاظ النبوية، قال النبي صلى الله عليه وآله: «إنّ الدنيا حُلْوة خَضِرَة، وإن الله مستَخلِفُكم فيها، فناظر كيف تعملون!»[3].

وحُفَّت بالشهوات، كأن الشهوات مستديرة حولها، كما يحفّ الهودجُ بالثياب، وحَفَوا حوله يحفُّونَ حَفًّا: أطافوا به، قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾[4].

قوله: «وتحبّبت بالعاجلة»، أي تحبّبت إلى الناس بكونها لذّة عاجلة، والنفوس مغرمة مولَعة بحبّ العاجل، فحذف الجار والمجرور القائم مقام المفعول.

قوله: «وراقت بالقليل»، أي أعجبت أهلها، وإنما أعجبتهم بأمر قليل ليس بدائم.

قوله: «وتحلّت بالآمال» من الحِلْية، أي تزيّنت عند أهلها بما يؤمّلون منها.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ١٥.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.
(٣) أخرجه مسلم، كتاب: الذكر والدعاء، باب: أكثر أهل الجنة الفقراء (٢٧٤٢)، والترمذي كتاب: الفتن، باب: ما أخبر النبي صلى الله عليه وآله أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة (٢١٩١).
(٤) سورة الزمر، الآية: ٧٥.

والحَبْرة: السرور. وحائلة: متغيّرة. ونافدة: فانية. وبائدة: منقضية. وأكّالة: قتالة، وغوّالة: مهلكة. والغَوْل: ما غال، أي أهلك، ومنه المثل: «الغضب غُول الحلم».

ثم قال: إنها إذا تناهتْ إلى أمنيّة ذوي الرغبات فيها لا تتجاوز أن تكون كما وصفها الله تعالى به وهو قوله: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾[1].

فاختلط، أي فالتفّ بنبات الأرض. وتكاثف به، أي بسبب ذلك الماء وبنزوله عليه، ويجوز أن يكون تقديره: فاختلط بنبات الأرض، لأنه لَمّا غَذَاه وأنماه، فقد صار مختلطاً به، ولَمّا كان كلّ واحد من المختلطيْن مشاركاً لصاحبه في مسمّى الاختلاط جاز «فاختلط به نبات الأرض»، كما يجوز: فاختلط هو بنبات الأرض.

والهشيم: ما تهشّم وتحطّم، الواحدة هشيمة. وتذرُوه الرياح: تطيّره. وكان الله على ما يشاء، من الإنشاء والإفناء، مقتدراً.

قوله: «من يلق من سَرّائها بطناً» إنما خصّ السَّرّاء بالبطن، والضَرّاء بالظهر، لأن الملاقي لك بالبطن ملاقٍ بالوجه، فهو مقبل عليك، والمعطيك ظهرهَ مدبر عنك. وقيل: لأنّ التّرس بطنُه إليك وظهره إلى عدوّك، وقيل: لأنّ المشيَ في بطون الأودية أسهلُ من السير على الظِّرَاب والآكام.

وطلّه السحابُ يَطلُّه، إذا أمطره مطراً قليلاً، يقول: إذا أعطت قليلاً من الخير أعقبت ذلك بكثير من الشرّ، لأنّ التهتّان الكثير المطر، هتن يهتِن بالكسر، عَتْنا وهُتوناً وتَهْتاناً.

قوله: «وحريّ»، أي جدير وخَليق، يقال: بالْحَرى أن يكون هذا الأمر كذا، وهذا الأمر مَحْرَاة لذلك، أي مَقْمَنة، مثل مَحْجاة، وما أحراه مثل ما أحجاه، وأحْرِ به، مثل أحْجِ به، وتقول: هو حَرًى أن يفعل ذلك بالفتح، أي جدير وقمين، لا يثنّى ولا يجمع، قال الشاعر:

وَهُنّ حَرًى ألاّ يُثِبْنَكَ نقْرَةً وَأنْتَ حَرًى بالنار حين تُثيبُ

فإذا قلت: هو حرٍ بكسر الراء وحريّ بتشديدها على «فعيل» ثنيت وجمعت، فقلت: هما حَرِيَان وحَرِيّان، وحَرُون مثل عَمُون، وأحراء أيضاً، وفي المشدّد حَرِيّون وأحرياء، وهي حرية وحَرِيّة، وهنّ حَرِيّات وحَرِيات وحرايا.

فإن قلت: فهلّا قال: «وحريّة إذا أصبحت»، لأنه يخبر عن الدنيا؟

قلت: أراد شأنها، فذكّر، أي وشأنها خليق أن يفعل كذا.

واعذوذب: صار عذباً. واحْلوْلَى: صار حُلْواً، ومن ها هنا أخذ الشاعر قوله:

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٥.

ألا إنّما الدّنيا غضارةُ أيكةٍ ... إذا اخضرّ منها جانبٌ جفّ جانبُ

فلا تكتحِلْ عيناك منها بِعَبْرةٍ ... على ذاهبٍ منها فإنّك ذاهبُ

وارتفع «جانب» المذكور بعد «إن» لأنه فاعل فعل مقدّر يفسّره الظاهر، أي وإن اعذوذب جانبٌ منها، لأن «إنْ» تقتضي الفعل وتطلبه فهي: كـ«إذا» في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾(١).

أمرّ الشيءُ، أي صار مرًّا. وأوبَى: صار وبيًّا، وليَّن الهمز، لأجل السجع.

والرَّغَب: مصدر رغبت في الأمر رغْبة ورَغَباً، أي أردته.

يقول: لا ينال الإنسان منها إرادته إلا أرهقته تَعَباً، يقال: أرهقه إثماً، أي حَمّله وكلّفه. فإن قلت: لم خَصّ الأمنَ بالجناح والخوف بالقوادم؟

قلت: لأنّ القوادم مقاديمُ الريش، والراكب عليها بعرَض خطر عظيم وسقوط قريب، والجناح يستر ويقي البرد والأذى، قال أبو نُوَاس:

تَغَطَّيتُ مِنْ دَهْرِي بظلِّ جناحه ... فصرت أرى دَهْرِي وَلَيْسَ يَرَاني

فلو تسأل الأيامَ ما اسمي لما دَرَتْ ... وأيْنَ مكاني ما عرفْنَ مكانِي

والهاء في «جناحه» ترجع إلى الممدوح بهذا الشعر.

وتُوبقه: تهلكه، والأبّهة: الكِبْر. والرَّنَق، بفتح النون، مصدر رَنَق الماء، أي تكدّر وبالكسر الكدر، وقد روي ها هنا بالفتح والكسر، فالكسر ظاهر، والفتح على تقدير حذف المضاف، أي ذو رَنَق.

وماء أُجَاج: قد جمع المرارة والمُلوحة، أجّ الماءُ يؤُج أجاجاً. والصبر بكسر الباء: هذا النبات المرّ نفسه، ثم سمّيَ كلّ مرّ صَبِراً. والسمام: جمع سَمّ لهذا القاتل، يقال سَمّ وسُمّ، بالفتح والضم، والجمع سِمام وسُموم.

ورمام: بالية، وأسبابها: حبالها. وموفورها: ذو الوفْر والثروة منها، والمحروب: المسلوب، أي لا تحمي جاراً ولا تمنعه.

ثم أخذ قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾(٢) فقال: «ألستم في مساكِن مَنْ كان قبلكم أطول أعماراً»، نصب «أطول» بأنه خبر كان، وقد دلّنا الكتاب الصادق على أنهم كانوا أطول أعماراً بقوله: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾(٣)، وثبت بالعيان أنّهم أبقى آثاراً، فإنّ من آثارهم الأهرام

---

(١) سورة الانشقاق، الآية: ١.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤٥.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ١٤.

والإيوان ومنارة الإسكندرية وغير ذلك. وأمّا بُعدُ الآمال فمرتَّب على طول الأعمال، فكلّما كانت أطول كانت الآمال أبعَد، وإن عَنَى به علُوّ الهمم، فلا ريب أنهم كانوا أعلى همماً من أهل هذا الزمان، وقد كان فيهم مَنْ ملَك معمورة الأرض كلّها، وكذلك القول في «أعدّ عديداً»، وأكثَف جنوداً»، والعديد: العدوّ الكثير، وأعدّ منهم، أي أكثر.

قوله: «ولا ظهر قاطع»، أي قاطع لمسافة الطريق.

والفوادح: المثقلات، فَدَحه الدَّين أثقله، ويروى «بالقوادح» بالقاف، وهي آفة تظهر في الشجر، وصدوع تظهر في الأسنان.

وأوهقتهم: جعلتهم في الوهَق، بفتح الهاء، وهو حبل كالطِّوَل ويجوز التّسْكين، مثل نَهر ونَهَر.

والقوارع: المحن والدواهي، وسميت القيامة قارِعة في الكتاب العزيز من هذا المعنى وضَعْضَعتهم: أذلتهم، قال أبو ذؤيب:

أنـي لـرَيْـب الـدّهْـرِ لا أتـضـعـضـع

وضعضعت البناء: أهدمته.

وعفَّرتُهم للمناخر. ألصقت أنوفهم بالعَفَر، وهو التراب. والمناسم: جمع منسِم، بكسر السين وهو خُفّ البعير.

ودان لها: أطاعها، ودان لها أيضاً: ذلّ. وأخلد إليها: مال، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾(١).

والسّغَب: الجوع: يقول: إنما زودتْهم الجوع، وهذا مثَل، كما قال:

ومـدحـتُـه فـأجـازنـي الـحـرمـانـا

ومعنى قوله: «أو نوّرت لهم إلا الظلمة»، أي بالظلمة، وهذا كقوله: «هل زوّدتهم إلا السّغب». وهو من باب إقامة الضدّ مقام الضدّ، أي لم تسمح لهم بالنور بل بالظلمة. والضنك: الضيق.

ثم قال: فبئست الدار، وحذف الضمير العائد إليها وتقديره «هي» كما قال تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾(٢)، وتقديره: «هو».

ومن لم يتّهمها: من لم يسؤ ظنًّا بها. والصفيح: الحجارة. والأجنان: القبور، الواحد جَنَن، والمجنون: المقبور، ومنه قول الأعرابية: «لله درّك من مجنون في جَنَن!» والأكنان:

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.

(٢) سورة صٓ، الآية: ٤٤.

جمع كِنّ: وهو السّتر، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَـٰنًا﴾(١).

والرّفات: العظام البالية. والمندبة: الندْب على الميت. لا يبالون بذلك: لا يكترثون به. وجِيدُوا: مُطِروا. وقُحِطوا: انقطع المطر عنهم فأصابهم القَحْط، وهو الجدب وإلى معنى قوله عليه السلام: «فهم جيرة لا يجيبون داعياً، ولا يمنعون ضيماً، جميع وهم آحاد، وجيرة وهم أبعاد، متدانون لا يتزاورون، وقريبون لا يتقاربون» نظر البحتريّ، فقال:

بِنَا أنتِ من مجفوّة لم تؤنّبِ ... ومهجورة في هَجْرها لم تعتَّبِ
ونازحةٍ والدار منها قريبةٌ ... وما قُرْب ثاوٍ في التراب مغيّبِ!

وقد قال الشعراء والخطباء في هذا المعنى كثيراً، فمن ذلك قول الرضيّ أبي الحسن رحمه الله في مرثيته لأبي إسحاق الصابي:

أعْزِزْ عليّ بأنْ نزلتَ بمنزِلٍ ... متشابهِ الأمجادِ بالأوغادِ
في عصبةٍ جُنِبوا إلى آجالِهِمْ ... والدهرُ يُعْجِلُهمْ عن الإزوادِ
ضرَبوا بمدْرَجة الفناء قبابَهمْ ... من غير أطْنَابٍ ولا أوتادِ
رَكْبٌ أناخُوا لا يرجّى منهمُ ... قصدٌ لإتهامٍ ولا إنجادِ
كرهوا النزولَ فأنزلتهمْ وقعة ... للدهر نازلة بكل مَقادِ
فتهافتوا عن رَحْل كل مذلّلٍ ... وتطاوحوا عن سَرْج كلّ جواد
بادون في صُوَرِ الجميع وإنهم ... متفردون تفرّدَ الآحاد

فقوله: «بادون في صورالجمع...» البيت، هو قوله عليه السلام: «جمع وهم آحاد» بعينه. وقال الرضيّ رحمه الله تعالى أيضاً:

متوسّدين على الخدود كأنّما ... كَرَعُوا على ظمإٍ من الصَّهْباءِ
صُوَرٌ ضننتُ على العيون بحسنها ... أمسيتُ أوقرُها من ٱلبَوْغاءِ
ونواظرٍ كَحَل التراب جفونَها ... قد كنت أحْرُسُهَا من الأقذاءِ
قَرُبت ضرَائحهم على زُوّارها ... ونَأوا عن الطّلاب أيّ تناءِ

قوله: «قربت ضرائحهم...» البيت هو معنى قوله عليه السلام: «وجيرة، وهم أبعاد» بعينه.

ومن هذا المعنى قول بعض الأعراب:

لكلّ أناس مقبرٌ في ديارهم ... فهمْ ينقصون، والقبور تزيدُ
فكائنْ تَرَى من دار حَيٍّ قد أخربت ... وقبرٍ بأكناف التراب جديدُ

---

(١) سورة النحل، الآية: ٨١.

هـمُ جـيـرة الأحـيـاء، أمّـا مـزارهـم ... فـدانٍ، وأمـا الـمـلـتـقَـى فـبـعـيـدُ

ومن كلام ابن نُباتة: «وحيداً على كثرة الجيران، بعيداً على قرب المكان».

ومنه قوله: «أسير وحشة الانفراد، فقير إلى اليسير من الزاد، جارُ من لا يجير، وضيْفُ من لا يمير، حمِلُوا ولا يروْن ركباناً، وأنزلوا ولا يُدْعَون ضيفاناً، واجتمعوا ولا يُسَمَّوْن جيراناً، واحتشدوا ولا يعدّون أعواناً، وهذا كلام أمير المؤمنين عليه السلام بعينه المذكور في هذه الخطبة، وقد أخذه مصالتةً.

ومنه قوله: «طحنتهم طحن الحصيد، وغيَّبتهم تحت الصعيد، فبطون الأرض لهم أوطان، وهم في خرابها قُطّان، عمروا فأخربوا، واقتربوا فاغتربوا، واصطحبوا وما اصطحبوا».

ومنه قوله: «غُيّباً كأشهاد، عصباً كآحاد، هموداً في ظُلَم الألحاد، إلى يوم التناد».

واعلم أنّ هذه الخطبة ذكرها شيخنا أبو عثمان الجاحظ في كتاب «البيان والتبيين» ورواها لِقَطَرِيّ بن الفجاءة، والناس يروونها لأمير المؤمنين عليه السلام، وقد رأيتها في كتاب «المونق» لأبي عبيد الله المرزبانيّ مروية لأمير المؤمنين عليه السلام، وهي بكلام أمير المؤمنين أشبه، وليس يبعد عندي أن يكون قطريّ قد خطب بها بعد أن أخذها عن بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، فإن الخوارج كانوا أصحابه وأنصاره، وقد لقي قَطَرَيّ أكثرهم.

١١١ - ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها ملك الموت وتوفية الأنفس

الأصل: هَلْ يُحَسُّ بِهِ إِذَا دَخَلَ مَنْزِلاً، أَمْ هَلْ تَرَاهُ إِذَا تَوَفَّى أَحَداً! بَلْ كَيْفَ يَتَوَفَّى الْجَنِينَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ! أَيَلِجُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ جَوَارِحِهَا، أَمِ الرُّوحُ أَجَابَتْهُ بِإِذْنِ رَبِّهَا، أَمْ هُوَ سَاكِنٌ مَعَهُ فِي أَحْشَائِهَا! كَيْفَ يَصِفُ إِلٰهَهُ مَنْ يَعْجَزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ!

الشرح: أما مذهب جمهور أصحابنا، وهم النافون للنفس الناطقة، فعندهم أنّ الروح جسم لطيف بخاريّ، يتكوّن من ألطف أجزاء الأغذية، ينفذ في العروق الضوارب، والحياة عَرَض قائم بالروح وحالّ فيها، فللدماغ روح دِماغية وحياة حالّة فيها، وكذلك للقلب، وكذلك للكبد، وعندهم أن لملك الموت أعواناً تقبض الأرواح بحكم النيابة عنه، لولا ذلك لتعذّر عليه وهو جسم أن يقبضَ روحَيْنِ في وقت واحد في المشرق والمغرب، لأنّ الجسم الواحد لا يكون في مكانيْن في وقت واحد. قال أصحابنا: ولا يبعد أن يكون الحَفَظة الكاتبون هم القابضين للأرواح عند انقضاء الأجل، قالوا: وكيفية القبض وُلُوج الملك من الفَم إلى القلب،

لأنه جسم لطيف هوائيّ لا يتعذّر عليه النفوذ في المخارق الضيّقة، فيخالط الروح التي هي كالشبيهة به، لأنها جسم لطيف بخاريّ، ثم يخرج من حيث دخل وهي معه، وإنما يكون ذلك في الوقت الّذي يأذَنُ الله تعالى له فيه، وهو حضور الأجل، فألزموا على ذلك أن يغوصَ الملك في الماء مع الغريق، ليقبض روحه تحت الماء، فالتزموا ذلك، وقالوا: ليس بمستحيل أن يتخلّل الملَك الماء في مسامّ الماء، فإنّ فيه مسامّ ومنافذ، وفي كلّ جسم على قاعدتهم في إثبات الماء في الأجسام.

قالوا: ولو فرضنا أنّه لا مسامّ فيه، لم يبعد أن يلجه الملك فيوسّع لنفسه مكاناً كما يلجُهُ الحجر والسمك وغيرهما، وكالريح الشديدة التي تقرع ظاهر البحر فتقعره، وتحفره، وقوة الملَك أشدّ من قوة الرِّيح.

ثم نعود إلى الشرح فنقول:

المَلك أصله «مألَك» بالهمز، ووزنه «مفعل» والميم زائدة، لأنه من الألوكة والألُوك، وهي الرسالة، ثم قلبت الكلمة وقدمت اللام فقيل ملأك، قال الشاعر:

فلستُ لإنسيٍّ ولكن لملأكٍ تَنَزَّلَ من جَوّ السماءِ يصوب

ثم تركت همزته لكثرة الاستعمال، فقيل: «مَلَك»، فلما جمع ردت الهمزة إليه، فقالوا: ملائكة وملائك، قال أميّة بن أبي الصلت:

وَكَأنّ بِرْقِعَ والملائك حولها سَدِرٌ تواكله القوائم أجردُ

والتوفّى: الإماتة وقبض الأرواح، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[1].

والتقسيم الذي قسّمه في وفاة الجنين حاصر، لأنه مع فرضنا إيّاه جسماً يقبض الأرواح التي في الأجسام، إما أن يكون مع الجنين في جوف أمّه فيقبض روحَه عند حضور أجله، أو خارجاً عنها. والقسم الثاني ينقسم قسمين: أحدهما أن يَلِجَ جوف أمّه لقبْض روحه فيقبضها، والثاني أن يقبضَها من غير حاجة إلى الولوج إلى جوفها، وذلك بأن تطيعه الرُّوح وتكون مسخّرة إذا أراد قبضها امتدّت إليه فقبضها. وهذه القسمة لا يمكن الزيادة عليها، ولو قسمها واضع المنطق لما زاد.

ثم خرج إلى أمر آخرَ أعظم وأشرف ممّا ابتدأ به، فقال: «كيف يصف إلهه مَنْ يعجز عن وصف مخلوق مثله»! وإلى هذا الغرض كان يترامَى، وإياه كان يقصد، وإنما مهّد حديث الملك والجنين توطئة لهذا المعنى الشريف، والسرّ الدقيق.

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٢.

بعض الأشعار في التخلص

وهذا الفنّ يسميه أرباب علم البيان التخلّص، وأكثر ما يقع في الشعر، كقول أبي نواس:

تقول التي من بيتها خَفّ مركبي ... عزيزٌ علينا أن نراك تسيرُ
أما دونَ مصرٍ للغنى متطلّبُ! ... بلى، إن أسبابَ الغنى لكثيرُ
فقلت لها واستعجلتْها بوادرٌ ... جَرَت، فجرى في جريهنّ عَبِيرُ:
ذِريني أكثّر حاسديك برحلةٍ ... إلى بلدٍ فيه الخصيب أميرُ

ومن ذلك قول أبي تمام:

يَقُولُ في قُومِسٍ صحبي وقد أخذَتْ ... مِنّا السُّرَى وَخُطَا المَهْرِيَّةِ القُودِ
أَمَطْلِع الشمس تبغي أنْ تؤمّ بنا ... فقلت كَلاً ولكن مطلِع الجُودِ

ومنه قوله البحتري:

هل الشباب ملمٌّ بي فراجعةٌ ... أيامُه لِيَ في أعقاب أيامي!
لو أنه نائل غمرٌ يجادُ به ... إذن تطلّبتُه عند ابن بسطامِ

ومنه قول المتنبي، وهو يتعزّل بأعرابية، ويصف بخلها وجبنها وقلة مطعمها، وهذه كلها من الصفات الممدوحة في النساء خاصة:

فِي مُقْلَتَيْ رشأ تديرُهُما ... بدويّةٌ فُتنتْ بها الحِلَلُ
تشكُو المطاعمُ طولَ هِجْرَتِهَا ... وصدودَها، ومَنِ الذي تَصِلُ!
ما أسأرتْ في القَعْبِ من لبنٍ ... تركتْهُ، وهو المسكُ والعسلُ
قالت: ألا تصحو فقلت لها ... أعْلَمْتِنِي أنّ الهوى ثَمِلُ
لَوْ أنّ فنّاخُسْرَ صَبّحَكُمْ ... وبرزتِ وحدكِ عاقَهُ الغَزَلُ
وتفرّقتْ عنكم كتائبُه ... إنّ الملاحَ خوادعٌ قُتُلُ
ما كنتِ فاعلة وضيفكُمُ ... ملكُ الملوك وشأنُكِ البَخَلُ
أتمنّعين قِرًى فتفتضحي ... أم تبذُلين له الّذِي يَسَلُ
بل لا يحلّ بحيث حَلَّ به ... بخلٌ ولا جَوْرٌ ولا وَجَلُ

وهذا من لطيف التخلّص ورشيقه، والتخلص مذهب الشعراء، والمتأخرون يستعملونه كثيراً، ويتفاخرون فيه ويتناضلون، فأما التخلّص في الكلام المنثور فلا يكاد يظهر لمتصفّح الرسالة أو الخطبة إلا بعد تأمّل شديد، وقد وردت منه مواضع في القرآن العزيز، فمن أبينِها وأظهرها أنّه تعالى ذكر في سورة الأعراف الأمم الخالية، والأنبياء الماضين من لدن آدم عليه

الصلاة والسلام، إلى أن انتهى إلى قصة موسى، فقال في آخرها بعد أن شرحها وأوضحها: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ۖ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ۖ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) ۞ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1]. وهذا من التخلّصات اللطيفة المستحسنة.

واعلم أنّ من أنواع علم البيان نوعاً يسمّى الاستطراد، وقد يسمّى الالتفات، وهو من جنس التخلّص وشبيه به، إلاّ أنّ الاستطراد هو أن تخرج بعد أن تمهّد ما تريد أن تمهّده إلى الأمر الذي تروم ذكره فتذكره، وكأنّك غيرُ قاصد لذكره بالذّات، بل قد حصل ووقع ذكره بالعرَض عن غير قصد، ثم تدعه وتتركه، وتعود إلى الأمر الذي كنت في تمهيده، كالمقبل عليه، وكالملغي عمّا استطردت بذكره، فمن ذلك قول البحتريّ وهو يصف فرساً:

وأغرَّ فِي الزّمن البهيم مُحَجَّلٍ ... قَدْ رُحْتُ مِنْه عَلَى أغرّ مُحَجّلِ

كالهيكل المبنّي إلاّ أنه ... في الحسن جاء كصورةٍ في هيكلِ

وافِي الضلوع يشدّ عقد حزامه ... يومَ اللقاء على مُعِمٍّ مخولِ

أخواله للرستمين بفارسٍ ... وجدُوده للتُّبّعين بموكلِ

يهوِي كما هوت العُقابُ وقد رأتْ ... صيداً، وينتصب انتصابَ الأجْدَلِ

متوجس برقيقتين كأنما ... تُريانِ من ورق عليه مكلّلِ

ما إن يعاف قَذًى ولو أوردْته ... يوماً خلائق حَمْدَوَيْهِ الأحول

ذَنَبٌ كما سَحَب الرِّشاء يذبّ عن ... عُرُفٍ، وعرفٌ كالقناع المسبَلِ

جَذلانُ ينفض عُذْرةً في غُرّةٍ ... يقَقٍ تسيل حجولها في جَنْدَلِ

كالرائح النّشوان أكثر مشيه ... عرضاً على السّنن البعيد الأطولِ

ذهب الأعالي حيث تذهب مقلةٌ ... فيه بِناظرها حديد الأسفلِ

---

(١) سورة الأعراف، الآيات: ١٥٥ - ١٥٧.

هزج الصَّهيل كأنّ في نغماتهِ ... نبراتُ معبد في الثّقيل الأولِ

مَلَك القلوب، فإن بدا أعطينه ... نَظَر المحبّ إلى الحبيب المقبل

ألا تراه كيف استطرد بذكر حَمْدويه الأحول الكاتب، وكأنه لم يقصد ذلك، ولا أراده وإنما جرّته القافية، ثم ترك ذكره وعاد إلى وصف الفرس، ولو أقسم إنسان أنه ما بنى القصيدة منذ افتتحها إلاّ على ذكره، ولذلك أتى بها عَلَى رويّ اللام، لكان صادقاً. فهذا هو الاستطراد.

ومن الفرق بينه وبين التخلّص أنّك في التخلّص متى شرعتَ في ذكر الممدوح أو المهجوّ تركت ما كنت فيه من قبل بالكلّية وأقبلت على ما تخلّصت إليه من المديح والهجاء بيتاً بعد بيت، حتى تنقضي القصيدة، وفي الاستطراد تمرّ على ذكر الأمر الذي استطردت به مروراً كالبرق الخاطف، ثم تتركه وتنساه، وتعود إلى ما كنت فيه كأنك لم تقصد قَصْدَ ذاك، وإنما عرض عروضاً. وإذا فهمت الفرق فاعلم أنّ الآيات التي تلوْناها إذا حقّقتَ وأمعنت النظر، من باب الاستطراد، لا من باب التخلّص، وذلك لأنه تعالى قال بعد قوله: ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1]. فعاد إلى ما كان فيه أولاً، ثم مرّ في هذه القصّة، وفي أحوال موسى وبني إسرائيل حتى قارب الفراغ من السّورة.

ومن لطيف التخلّص الذي يكاد يكون استطراداً، لولا أنّه أفسده بالخروج إلى المدح، قولُ أبي تمّام في قصيدته التي يمدح بها محمد بن الهيثم التي أوّلها:

أسقَى طلولَهُمُ أجشُّ هَزيمُ ... وَغدَتْ عليهِمْ نَضرَةٌ ونعيمُ

ظلمتْك ظالمةُ البريء ظلومُ ... والظُّلْمُ من ذي قُدْرَةٍ مذمُومُ

زَعَمَتْ هواك عَفَا الغداةَ كما عفَتْ ... مِنها طلولٌ باللّوى ورسومُ

لا والّذي هو عالِمٌ أنّ النّوى ... صَبِرٌ وأنّ أبا الحسين كريمُ

مَا حُلْتُ عمّا تعهدين ولا غَدَتْ ... نَفسي عَلَى إلْفٍ سواكِ تحُومُ

فلو أتمّ متغزلاً لكان مستطرداً لا محالة، ولكنه نقض الاستطراد، وغمس يده في المدح، فقال بعد هذا البيت:

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧ - ١٦٠.

لمحمد بن الهيثم بن شُبَانةٍ مجدٌ إلى جَنْب السِّماك مقيمُ
ملك إذا نسِبَ النّدى من مُلْتَقَى طَرَفَيْهِ فَهُوَ أخٌ لهُ وحَمِيمُ

ومضى على ذلك إلى آخرها.

ومن الاستطراد أن يحتالَ الشاعر لذكر ما يروم ذكرَه، بوصف أمر ليس من غرضه، ويدمج الغرض الأصليّ في ضمْن ذلك وفي غضونه، وأحسنُ ما يكون ذلك إذا صرّح بأنه قد استطرد ونصّ في شعره على ذلك، كما قال أبو إسحاق الصابي في أبيات كتبها إلى أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف كاتب عضد الدولة، كتبها إليه إلى شيراز، وأبو إسحاق في بغداد، وكانت أخبار فتوح عضد الدولة بفارس وكرمان وما والاها متواصلةً مترادفة إلى العراق، وكُتُب عبد العزيز واصلة بها إلى عزّ الدولة بختيار، والصابي يجيب عنها:

يا راكبَ الْجَسْرَةِ العَيْرانةِ الأُجُدِ يَطْوِي المَهامِهَ من سهْل إلى جَلَدِ
أبلغ أبا قاسمٍ - نفسي الفداءُ له - مقالةً من أخٍ للحقّ معتمِدِ
وفي كلّ يوم لكم فتحٌ يُشَادُ به بين الأنام بذكر السّيّدِ العضُدِ
وما لنا مثله لكنّنا أبداً نجيبكم بجواب الحاسِد الكمِدِ
فأنت أكتب منّي في الفتوح وما تجري مجيباً إلى شأوِي ولا أمَدِي
وما ذممتُ ابتدائي في مكاتبةٍ ولا جوابكمُ في القرب والبُعُدِ
لكنّني رمت أن أثني على مَلِكٍ مستطرد بمديح فيه مطّرِدِ

ولقد ظَرُف وملُح أبو إسحاق في هذه الأبيات، ومتى خلا أو عَرَى عن الظرف والمَلاحة، ولقد كان ظرفاً ولباقة كلّه!

وليس من الاستطراد ما زعم ابن الأثير الموصلّي في كتابه المسمى «بالمثل السائر» أنه استطراد، وهو قول بعض شعراءِ الموصل يمدح قرواش بن المقلّد، وقد أمره أن يعبث بهجاء وزيره سليمان بن فهد، وحاجبه أبي جابر ومغنّيه المعروف بالبرقعيديّ، في ليلة من ليالي الشتاء وأراد بذلك الدّعابة والولع بهم، وهم في مجلس في شراب وأنس، فقال وأحسن فيما قال:

وليلٍ كوجهِ البرقعيديّ ظلمةً وبردِ أغانيه وطُول قُرونِهِ
سَرَيْتُ ونومي فيه نومٌ مشرَّدٌ كعقْلِ سليمانَ بن فهْدٍ ودِينِهِ
على أولَقٍ فيه التفاتٌ كأنه أبو جابر في خَبْطه وجنونه
إلى أن بدا ضوءُ الصَّباح كأنه سَنَا وَجْهِ قِرْواشٍ وَضَوْءِ جبينه

وذلك لأن الشاعر قصد إلى هجاء كلّ واحد منهم، ووضع الأبيات لذلك، وأمره قرواش رئيسهم وأميرهم بذلك، فهجاهم ومدحه ولم يستطرد. وهذه الأبيات تشبيهات كلّها مقصود بها الهجاء، لم يأت بالعرض في الشعر كما يأتي الاستطراد. وهذا غلط من مصنف الكتاب.

١١٢ - ومن خطبة له عليه السلام في التحذير من أمر الدنيا

الأصل: وَأُحَذِّرُكُمُ ٱلدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَنْزِلُ قُلْعَةٍ، وَلَيْسَتْ بِدَارِ نُجْعَةٍ، قَدْ تَزَيَّنَتْ بِغُرُورِهَا، وَغَرَّتْ بِزِينَتِهَا. دَارٌ هَانَتْ عَلَى رَبِّهَا فَخَلَطَ حَلاَلَهَا بِحَرَامِهَا، وَخَيْرَهَا بِشَرِّهَا، وَحَيَاتَهَا بِمَوْتِهَا، وَحُلْوَهَا بِمُرِّهَا. لَمْ يُصْفِهَا ٱللهُ تَعَالَىٰ لِأَوْلِيَائِهِ، وَلَمْ يَضِنَّ بِهَا عن أَعْدَائِهِ. خَيْرُهَا زَهِيدٌ، وَشَرُّهَا عَتِيدٌ، وَجَمْعُهَا يَنْفَدُ، وَمُلْكُهَا يُسْلَبُ، وَعَامِرُهَا يَخْرَبُ. فَمَا خَيْرُ دَارٍ تُنْقَضُ نَقْضَ ٱلْبِنَاءِ، وَعُمُرٍ يَفْنَىٰ فِيهَا فَنَاءَ ٱلزَّادِ، وَمُدَّةٍ تَنْقَطِعُ ٱنْقِطَاعَ ٱلسَّيْرِ!

ٱجْعَلُوا مَا ٱفْتَرَض ٱللهُ عَلَيْكُم مِنْ طَلِبَتِكُم، وَٱسْأَلُوهُ مِنْ أَدَاءِ حَقِّهِ كَمَا سَأَلَكُمْ، وَأَسْمِعُوا دَعْوَةَ ٱلْمَوْتِ آذَانَكُمْ قَبْلَ أَنْ يُدْعَىٰ بِكُمْ. إِنَّ ٱلزَّاهِدِينَ فِي ٱلدُّنْيَا تَبْكِي قُلُوبُهُمْ وَإِنْ ضَحِكُوا، وَيَشْتَدُّ حُزْنُهُمْ وَإِنْ فَرِحُوا، وَيَكْثُرُ مَقْتُهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَإِن ٱغْتَبَطُوا بِمَا رُزِقُوا. قَدْ غَابَ عَنْ قُلُوبِكُمْ ذِكْرُ ٱلآجَالِ، وَحَضَرَتْكُمْ كَوَاذِبُ ٱلآمَالِ، فَصَارَتِ ٱلدُّنْيَا أَمْلَكَ بِكُمْ مِنَ ٱلآخِرَةِ، وَٱلْعَاجِلَةُ أَذْهَبَ بِكُمْ مِنَ ٱلآجِلَةِ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ إِخْوَانٌ عَلَى دِينِ ٱللهِ، مَا فَرَّقَ بَيْنَكُمْ إِلاَّ خُبْثُ ٱلسَّرَائِرِ، وَسُوءُ ٱلضَّمَائِرِ، فَلاَ تَوَازَرُونَ وَلاَ تَنَاصَحُونَ، وَلاَ تَبَاذَلُونَ وَلاَ تَوَادُّونَ.

مَا بَالُكُمْ تَفْرَحُونَ بِٱلْيَسِيرِ مِنَ ٱلدُّنْيَا تُدْرِكُونَهُ، وَلاَ يَحْزُنُكُم ٱلْكَثِيرُ مِنَ ٱلآخِرَةِ تُحْرَمُونَهُ! وَيُقْلِقُكُمُ ٱلْيَسِيرُ مِنَ ٱلدُّنْيَا يَفُوتُكُمْ، حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ ذٰلِكَ فِي وُجُوهِكُمْ، وَقِلَّةِ صَبْرِكُمْ عَمَّا زُوِيَ مِنْهَا عَنْكُمْ! كَأَنَّهَا دَارُ مُقَامِكُم، وَكَأَنَّ مَتَاعَهَا بَاقٍ عَلَيْكُمْ. وَمَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ أَنْ يَسْتَقْبِلَ أَخَاهُ بِمَا يَخَافُ مِنْ عَيْبِهِ، إِلاَّ مَخَافَةُ أَنْ يَسْتَقْبِلَهُ بِمِثْلِهِ.

قَدْ تَصَافَيْتُمْ عَلَى رَفْضِ ٱلآجِلِ، وَحُبِّ ٱلْعَاجِلِ، وَصَارَ دِينُ أَحَدِكُمْ لُعْقَةً عَلَى لِسَانِهِ، صَنِيعَ مَنْ فَرَغَ مِنْ عَمَلِهِ، وَأَحْرَزَ رِضَا سَيِّدِهِ.

الشرح: قوله عليه السلام: «فإنها منزلُ قُلْعة» بضم القاف وسكون اللام، أي ليست بمستوطنة. ويقال: هذا مجلس قُلْعة، إذا كان صاحبه يحتاج إلى أن يقوم مرة بعد مرة. ويقال: هم على قُلْعة، أي على رحلة، ومن هذا الباب. قولهم: فلان قُلْعة، إذا كان ينقلع عن سرجه، ولا يثبت في البطش والصراع، والقلعة أيضاً: المال العاريّة، وفي الحديث: «بئس المال القلعة»[1].

---

(١) أخرجه ابن منظر في لسان العرب: ٨/ ٢٩٠.

والنّجعة: طلب الكلأ في موضعه، وفلان ينتجع الكلأ، ومنه انتجعت فلاناً، إذا أتيتَه تطلب معروفه.

ثم وصف هوان الدنيا على الله تعالى، فقال: «من هوانها أنه خَلَط حلالها بحرامها...» الكلام، مراده تفضيل الدار الآتية على هذه الحاضرة، فإنّ تلك صفو كلّها وخير كلّها، وهذه مشوبة، والكَدَر والشرّ فيها أغلب من الصَّفْوِ والخير. ومن كلام بعض الصالحين: من هوان الدّنيا على الله أنه لا يعصَى إلا فيها، ولا يُنال ما عنده إلا بتركها. ويروى: «ولم يضنّ بها على أعدائه»، والرواية المشهورة «عن أعدائه»، وكلاهما مستعمل. والزهيد: القليل، والعتيد: الحاضر. والسيْر: سير المسافر.

ثم أمرهم بأنْ يجعلوا الفرائض الواجبة عليهم من جُمْلة مطلوباتهم، وأن يسألوا الله من الإعانة والتوفيق على القيام بحقوقه الواجبة كما سألهم، أي كما ألزمهم وافترض عليهم، فسمَّى ذلك سؤالاً لأجل المقابلة بين اللفظين، كما قال سبحانه: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾[1]، وكما قال النبي ﷺ: «فإنّ الله لا يَمَلّ حتى تَمَلُّوا»[2] وكما قال الشاعر:

ألاَ لاَ يَجْهَلَنْ أحدٌ علَيْنَا ... فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا

ثم أمرهم أن يُسمعوا أنفسهم دعوة الموت قبل أن يحضر الموت، فَيحلّ بهم. ومثل قوله: «تبكي قلوبهم وإن ضحكوا» قول الشاعر، وإن لم يكن هذا المقصِد بعينه قَصَد:

كَمْ فَاقَةٍ مستورةٍ بمروءة ... وضرورةٍ قد غُطّيَتْ بتجمُّلِ

ومن ابتسامٍ تحته قلبٌ شجٍ ... قد خامرته لوعةٌ ما تنجَلِي

والمقت: البغض: واغتبطوا: فرحوا.

وقوله: «أملكَ بكم» مثل «أوْلى بكم». وقوله: «والعاجلة أذهب بكم من الآجلة» أي ذهبت العاجلةُ بكم واستولت علكيم أكثرَ مما ذهبت بكم الآخرة، واستولت عليكم.

ثم ذكر أن الناس كلهم مخلوقون على فِطْرَة واحدة، وهي دين الله وتوحيده، وإنما اختلفوا وتفرّقوا باعتبار أمر خارجيّ عن ذلك، وهو خبْث سرائرهم وسوء ضمائرهم، فصاروا إلى حالٍ لا يتوازرون، أي لا يتعاونون والأصل الهمز، آزرته، ثم تقلب الهمزة واواً، وأصل قوله: «فلا توازرون» «فلا تَتَوازرون» فحذفت إحدى التاءين، كقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ﴾[3]، أي لا تتناصرون، والتبادل: أن يجودَ بعضهم على بعض بماله ويبذله له.

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٤٠.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: أحب الدين إلى الله أدومه (٤٣)، ومسلم، كتاب: صلاة المسافرين، باب: فضيلة العمل الدائم (٧٨٢).

(٣) سورة الصافات، الآية: ٢٥.

ومثل قوله عليه السلام «ما بالكم تفرحون بكذا، ولا تحزنون لكذا، ويقلقكم اليسير من الدنيا يفوتكم» من هذا قول الرضي رحمه الله:

نَقْصُ الجديديْن من عمري يزيدُ على ... ما ينقصان على الأيام من مالِي

دهْرٌ تؤثّر في جسمي نَوَائِبُهُ ... فما اهتمامِيَ أنْ أودَى بسربالِي

والضمير في «يخاف» راجع إلى الأخ لا إلى المستقبل له، أي ما يخافه الأخ من مواجهته بعينه.

قوله: «وصارَ دينُ أحدكم لُعْقَةً على لسانه» أخذه الفرزدق، فقال للحسين بن عليّ عليه السلام، وقد لقيَه قادماً إلى العراق، وسأله عن الناس: «أمّا قلوبهمْ فمعك، وأمّا سيوفهم فعليك، والدين لُعْقَةٌ على ألسنتهم، فإذا امتحصوا قلّ الديّانون»، واللفظة مجاز، وأصل اللُّعقة شيء قليل يُؤخذ بالمِلْعقة من الإناء، يصف دينهم بالنَّزارة والقِلّة كتلك اللعقة، ولم يقنع بأن جعله لُعقة حتى جعله على ألسنتهم فقط، أي ليس في قلوبهم.

١١٣ – ومن خطبة له عليه السلام في الحض على التقوى

الأصل: ٱلْحَمْدُ لله ٱلْوَاصِلِ ٱلْحَمْدَ بِالنِّعَمِ، وَٱلنِّعَمَ بِالشُّكْرِ، نَحْمَدُهُ عَلَى آلاَئِهِ، كَمَا نَحْمَدُهُ عَلَى بَلاَئِهِ، وَنَسْتَعِينُهُ عَلَى هٰذِهِ ٱلنُّفُوسِ ٱلْبِطَاءِ عَمَّا أُمِرَتْ بِهِ، ٱلسِّرَاعِ إِلَى مَا نُهِيَتْ عَنْهُ. وَنَسْتَغْفِرُهُ مِمَّا أَحَاطَ بِهِ عِلْمُهُ، وَأَحْصَاهُ كِتَابُهُ، عِلْمٌ غَيْرُ قَاصِرٍ، وَكِتَابٌ غَيْرُ مُغَادِرٍ. وَنُؤْمِنُ بِهِ إِيمَانَ مَنْ عَايَنَ ٱلْغُيُوبَ، وَوَقَفَ عَلَى ٱلْمَوْعُودِ، إِيمَاناً نَفَىٰ إِخْلاَصُهُ ٱلشِّرْكَ، وَيَقِينُهُ ٱلشَّكَّ. وَنَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ ٱلله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً صَلَّىٰ ٱلله عَلَيْهِ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، شَهَادَتَيْنِ تُصْعِدَانِ ٱلْقَوْلَ، وَتَرْفَعَانِ ٱلْعَمَلَ، لاَ يَخِفُّ مِيزَانٌ تُوضَعَانِ فِيهِ، وَلاَ يَثْقُلُ مِيزَانٌ تُرْفَعَان مِنْهُ.

أُوصِيكُمْ عِبَادَ ٱلله بِتَقْوَىٰ ٱلله ٱلَّتِي هِيَ ٱلزَّادُ وَبِهَا ٱلْمَعَاذُ، زَادٌ مُبْلِغٌ، وَمَعَاذٌ مُنْجِحٌ، دَعَا إِلَيْهَا أَسْمَعُ دَاعٍ، وَوَعَاهَا خَيْرُ وَاعٍ، فَأَسْمَعَ دَاعِيهَا، وَفَازَ وَاعِيهَا.

عِبَادَ ٱلله، إِنَّ تَقْوَىٰ ٱلله حَمَتْ أَوْلِيَاءَ ٱلله مَحَارِمَهُ، وَأَلْزَمَتْ قُلُوبَهُمْ مَخَافَتَهُ، حَتَّى أَسْهَرَتْ لَيَالِيَهُمْ، وَأَظْمَأَتْ هَوَاجِرَهُمْ، فَأَخَذُوا ٱلرَّاحَةَ بِالنَّصَبِ، وَالرِّيَّ بِالظَّمَإِ، وَٱسْتَقْرَبُوا ٱلأَجَلَ، فَبَادَرُوا ٱلْعَمَلَ، وَكَذَّبُوا ٱلأَمَلَ، فَلاَحَظُوا ٱلأَجَلَ.

ثُمَّ إِنَّ ٱلدُّنْيَا دَارُ فَنَاءٍ وَعَنَاءٍ، وَغِيَرٍ وَعِبَرٍ، فَمِنَ ٱلْفَنَاءِ أَنَّ ٱلدَّهْرَ مُوتِرٌ قَوْسَهُ، لاَ تُخْطِىءُ سِهَامُهُ، وَلاَ تُؤْسَى جِرَاحُهُ، يَرْمِي ٱلْحَيَّ بِالْمَوْتِ، وَٱلصَّحِيحَ بِالسَّقَمِ، وَٱلنَّاجِيَ بِالْعَطَبِ،

آكِلٌ لاَ يَشْبَعُ، وَشَارِبٌ لاَ يَنْقَعُ. وَمِنَ ٱلْعَنَاءِ أَنَّ الْمَرْءَ يَجْمَعُ مَالاً يَأْكُلُ، وَيَبْنِي مَا لاَ يَسْكُنُ، ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَى ٱللهِ تَعَالَى، لاَ مَالاً حَمَلَ، وَلاَ بِنَاءً نَقَلَ.

وَمِنْ غِيَرِهَا أَنَّكَ تَرَى الْمَرْحُومَ مَغْبُوطاً، والْمَغْبُوطَ مَرْحُوماً، لَيْسَ ذٰلِكَ إِلاَّ نَعِيماً زَلَّ، وَبُؤْساً نَزَلَ.

وَمِنْ عِبَرِهَا أَنَّ الْمَرْءَ يُشْرِفُ عَلَى أَمَلِهِ، فَيَقْتَطِعُهُ حُضُورُ أَجَلِهِ، فَلاَ أَمَلٌ يُدْرَكُ، وَلاَ مُؤَمَّلٌ يُتْرَكُ. فَسُبْحَانَ ٱللهِ مَا أَعَزَّ سُرُورَهَا، وَأَظْمَأَ رِيَّهَا، وَأَضْحَى فَيْئَهَا!

لاَ جَاءٍ يُرَدُّ، وَلاَ مَاضٍ يَرْتَدُّ، فَسُبْحَانَ ٱللهِ، مَا أَقْرَبَ ٱلْحَيَّ مِنَ المَيِّتِ لِلَحَاقِهِ بِهِ، وَأَبْعَدَ المَيْتَ مِنَ ٱلْحَيِّ لاِنْقِطَاعِهِ عَنْهُ!

إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِشَرٍّ مِنَ الشَّرِّ إِلاَّ عِقَابُهُ، وَلَيْسَ شَيْءٌ بِخَيْرٍ مِنَ ٱلْخَيْرِ إِلاَّ ثَوَابُهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ ٱلدُّنْيَا سَمَاعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عِيَانِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ ٱلآخِرَةِ عِيَانُهُ أعْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ، فَلْيَكْفِكُمْ مِنَ ٱلْعِيَانِ ٱلسَّمَاعُ، وَمِنَ ٱلْغَيْبِ ٱلْخَبَرُ.

وَٱعْلَمُوا أَنَّ مَا نَقَصَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَزَادَ فِي ٱلآخِرَةِ، خَيْرٌ مِمَّا نَقَصَ مِنْ ٱلآخِرَةِ وَزَادَ فِي الدُّنْيَا، فَكَمْ مِنْ مَنْقُوصٍ رَابِحٍ، وَمَزِيدٍ خَاسِرٍ!

إِنَّ ٱلَّذِي أُمِرْتُمْ بِهِ أَوْسَعُ مِنَ ٱلَّذِي نُهِيتُمْ عَنْهُ، وَمَا أُحِلَّ لَكُمْ أَكْثَرُ مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ، فَذَرُوا مَا قَلَّ لِمَا كَثُرَ، وَمَا ضَاقَ لِمَا ٱتَّسَعَ، قَدْ تَكَفَّلَ لَكُمْ بِالرِّزْقِ، وَأُمِرْتُمْ بِالْعَمَلِ، فَلاَ يَكُونَنَّ الْمَضْمُونُ لَكُمْ طَلَبُهُ أَوْلَى بِكُمْ مِنَ الْمَفْرُوضِ عَلَيْكُمْ عَمَلُهُ، مَعَ أَنَّهُ وَٱللهِ لَقَدِ ٱعْتَرَضَ الشَّكُّ، وَدَخَلَ ٱلْيَقِينُ، حَتَّى كَأَنَّ ٱلَّذِي ضُمِنَ لَكُمْ قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ، وَكَأَنَّ ٱلَّذِي فُرِضَ عَلَيْكُمْ قَدْ وُضِعَ عَنْكُمْ. فَبَادِرُوا ٱلْعَمَلَ، وَخَافُوا بَغْتَةَ ٱلأَجَلِ، فَإِنَّهُ لاَ يُرْجَى مِنْ رَجْعَةِ ٱلْعُمُرِ، مَا يُرْجَى مِنْ رَجْعَةِ الرِّزْقِ.

مَا فَاتَ ٱلْيَوْمَ مِنَ الرِّزْقِ رُجِيَ غَداً زِيَادَتُهُ، وَمَا فَاتَ أَمْسِ مِنَ ٱلْعُمُرِ لَمْ يُرْجَ ٱلْيَوْمَ رَجْعَتُهُ. الرَّجَاءُ مَعَ ٱلْجَائِي، وَٱلْيَأْسُ مَعَ المَاضِي، فَٱتَّقُوا ٱللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ، وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ!

الشرح: لقائل أن يقول: أمّا كونُه واصلَ الحمدَ له من عباده بالنّعم منه عليهم فمعلوم، فكيف قال: إنه يصلُ النّعم المذكورة بالشكر، والشكر من أفعال العباد، وليس من أفعاله ليكون واصلاً للنّعم به!

وجواب هذا القائل، هو أنّه لما وفّق العباد للشكر بعد أن جعل وجوبه في عقولهم مقرّراً، وبعد أن أقدرهم عليه، صار كأنّه الفاعل له، فأضافه إلى نفسه توسُّعاً، كما يقال: أقام الأمير الحدّ، وقتل الوالي اللّصّ، فأمّا حمدُه سبحانه على البلاءِ كحمدِه على الآلاء فقد تقدّم القول فيه. ومن الكلام المشهور: «سبحان من لا يحمَد على المكروه سواه»[١]، والسِّرّ فيه أنه تعالى إنما يفعلُ المكروه بِنَا لمصالحنا، فإذا حَمَدْناه عليه فإنما حمدناه على نعمةٍ أنعم بها، وإن كانَتْ في الظاهر بليّة وألماً.

فإن قلت: فقد كان الأحسن في البيان أن يقول: «نحمده على بلائه، كما نحمده على آلائه».

قلت: إنما عكَس لأنه جاء باللّفظين في معرِض ذكْر النعم والشُّكر عليها، فاستهجن أن يلقِّبها بلفظة الحمد على البلاء للمنافرة التي تكون بينهما، فقال: نحمده على هذه الآلاء التي أشرنا إليها، التي هي آلاء في الحقيقة. وهذا ترتيب صحيح منتظم.

ثم سأل الله أن يعينَه على النفْس البطيئة عن المأمور به، السريعة إلى المنهيّ عنه. ومن دعاء بعض الصالحين: اللّهمّ إني أشكُو إليكَ عدوًّا بين جنبيّ قد غلب عليّ.

وفسّر قوم من أهل الطريقة والحقيقة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾[٢] قالوا: أراد مجاهدة النفوس. ومن كلام رسول الله ﷺ: «أبت الأنفس إلا حبَّ المال والشرف، وإنّ حبَّهما لأذهبُ بدين أحدِكم من ذِئْبَيْنِ ضاريَيْنِ باتا في زريبة غنم إلى الصباح، فماذا يبقيان منها!»[٣].

ثم شرع في استغفار الله سبحانه من كلّ ذنب، وعبّر عن ذلك بقوله: «ممّا أحاط به علمُه، وأحصاه كتابُه»، لأنه تعالى عالم بكلّ شيء، ومحيط بكلّ شيء، وقد أوضح ذلك بقوله: «علْم غير قاصر، وكتاب غير مغادر»، أي غير مبقٍ شيئاً لا يحصيه، قال تعالى: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾[٤].

ثم قال: «ونؤمن به إيمان مَنْ عاين وشاهد»، لأنّ إيمان العيان أخلصُ وأوثق من إيمان الخبر، فإنه ليس الخبر كالعِيان، وهذا إشارة إلى إيمان العارفين الذين هو عليه السلام سيدُهم ورئيسهم، ولذلك قال: «لو كشف الغِطاء ما ازددتُ يقيناً».

---

(١) أخرجه ابن عابدين في تكملة حاشية رد المختار: ١/ ٤١٥.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٣.

(٣) ذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (٨٥٦٢) ونسبه لسيدنا علي عليه السلام، وعزاه للعشاري في المواعظ.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

وقوله: «تُصعدان القول» إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[١] وروي: «تسعدان القول» بالسين، أي هما شهادتان بالقلب يعاضدان الشهادة باللسان، ويُسعدانها.

ثم ذكر أنّهما شهادتان لا يخفّ ميزانٌ هما فيه، ولا يثقلُ ميزان رفعا عنه، أمّا إنه لا يثقلُ ميزانٌ رُفعا عنه، فهذا لا كلام فيه، وإنما الشأن في القضية الأولى، لأنّ ظاهر هذا القول يشعر بمذهب المرجئة الخلّص، وهم أصحاب مقاتل بن سليمان، القائلون إنّه لا يضرّ مع الشهادتين معصية أصلاً، وإنه لا يدْخُل النّارَ مَنْ في قلبه ذَرّة من الإيمان، ولهم على ذلك احتجاج قد ذكرناه في كتبنا الكلامية، فنقول في تأويل ذلك إنّه لم يحكم بهذا على مجرّد الشهادتين، وإنّما حَكَم بهذا على شهادتين مقيّدتين، قد وصفهما بأنهما يصْعدان القول، ويرفعان العمل، وتانِك الشهادتان المقيّدتان بَذلك القيْد، إنما هما الشهادتان اللّتّان يقارنهما فعلُ الواجب وتجنّب القبيح، لأنه إن لم يقارنْهما ذلك لم يَرْفعا العمل، وإذا كان حكمه عليه السلام بعد خِفّة ميزان هما فيه، وإنما هو على شهادتيْن مقيّدتين لا مطلقتين، فقد بطل قولُ مَنْ يجعل هذا الكلام حجة للمرجئة.

ثم أخذ في الوصاة بالتقوى، وقال إنما الزاد في الدنيا الذي يزوّد منه لسفر الآخرة وبها المعاذ، مصدر من عذْت بكذا، أي لجأت إليه واعتصمت به.

ثم وصفهما - أعني الزاد والمعاذ - فقال: «زاد مُبْلغ»، أي يبلغُك المقصد والغاية التي تسافر إليها، ومعاذ منجح، أي يصادف عنده النجاح.

دعا إليه أسمع داع: يعني الباريء سبحانه، لأنه أشدّ الأحياء إسماعاً لما يدعوهم إليه وبناء «أفعل» ها هنا من الرباعي، كما جاء ما أعطاه للمال، وما أولاه للمعروف! وأنت أكرم لي من زيد، أي أشدّ إكراماً، وهذا المكان أقفرُ من غيره، أي أشدّ إقفاراً، وفي المثل «أفلَسُ من ابن المذلّق»[٢]، وروي: «دعا إليه أحسن داعٍ»، أي أحسن داع دعا، ولا بدّ من تقدير هذا المميّز لأنه تعالى لا توصف ذاته بالحسن، وإنما يوصف بالحسن أفعاله.

ووعاها خير واع، أي من وعاها عنه تعالى وعَقَلها وأجاب تلك الدعوة، فهو خير واع. وقيل: عنى بقوله: «أسمع داع» رسول الله صلى الله عليه وآله، وعنى بقوله: «خير واع» نفسَه، لأنه أنزل فيه: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾[٣] والأوّل أظهر.

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٠.

(٢) ابن المُذَلَّق: في القاموس: «وابنِ المذلّق من عبد شمس لم يكن يجد بيت ليلة، ولا أبوه ولا أجداده، فقيل: أفلسِ من ابن المذلّق».

(٣) سورة الحاقة، الآية: ١٢.

ثُمَّ قال: «فأسمع داعيهَا» أي لم يبق أحداً من الكلفين إلا وقد أسمعه تلك الدعوة وفازوا عليها، أفلح مَنْ فَهِمها وأجاب إليها، لا بد من تقدير هذا، وإلا فأيّ فوز يحصل لمن فهم ولم يجب! والتقوى: خشية الله سبحانه ومراقبته في السرّ والعلن، والخشية أصلُ الطاعات، وإليها وقعت الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1] وقوله سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[2].

قوله: «حتى أسهرتْ لياليَهُم، وأظمأت هواجرَهم» من قول العرب «نهاره صائم، وليله قائم»، نقلوا الفعل إلى الظرف، وهو من باب الاتساع الذي يجرون فيه الظروف مجرى المفعول به، فيقولون: الذي سرته يوم الجمعة، أي سرت فيه، وقال:

ويوم شهدناه سليماً وعامرا

أي شهدنا فيه سليماً، وقد اتسعوا فأضافوا إلى الظروف فقالوا:

يا سارق الليلة أهل الدار

وقال تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾[3] فأخرجوهما بالإضافة عن الظرفية. قوله عليه السلام: «فأخذوا الراحة النَّصَب» يروى: «فاستبدلوا الراحة» والنَّصَب: التعب. واستقربوا الأجل: رأوه قريباً.

فإن قلت: لماذا كرّر لفظة «الأجل»، وفي تكرارها مخالفة لفنّ البيان؟ قلت: إنه استعملها في الموضعين بمعنيين مختلفين، فقوله: «استقربوا الأجل» يعني المدة. وقوله: «فلاحظوا الأجل» يعني الموت نفسه.

ويروى: «موتِر» و«موتّر» بالتشديد. ولا تؤسَى جراحه: لا تطبّ ولا تصلح، أسَوْتُ الجرح، أي أصلحته. ولا ينقع: لا يروى، شَرِبَ حتى نقع، أي شفي غليله، وماء ناقع، وهو كالناجع، وما رأيتُ شَرْبة أنقع منها.

وإلى قوله عليه السلام: «يجمع ما لا يأكل، ويبني ما لا يسكن» نظر الشاعر، فقال:

أموالُنا لذَوي الميراث نجمعُها ... ودُورنا لخراب الدهر نبْنيها

وقال آخر:

ألَمْ تر حَوْشَباً أمْسَى يُبَنِّي ... بناء نفعُهُ لبني بُقَيْلَهْ

يؤمّل أن يعمّر عمر نوحٍ ... وأمر الله يطرق كل لَيْلَهْ

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.
(٢) سورة الطلاق، الآيتان: ٢، ٣.
(٣) سورة سبأ، الآية: ٣٣.

قوله: «ومن غِيَرها أنك ترى المرحوم مغبوطاً والمغبوط مرحوماً»، أي يصير الفقير غنيًا والغنيّ فقيراً، وقد فسره قوم فقالوا: أراد أنك تَرى مَنْ هو في باطن الأمر مرحوم، مغبوطاً، وترى مَنْ هو في باطن الأمر مغبوط، مرحوماً، أي تحسب ذاك وتتخيّلة، وهذا التأويل غير صحيح، لأن قوله بعده: «ليس ذلك إلا نعيماً زلّ، وبؤساً نَزَل»، يكذّبه ويصدّق التفسير الأول.

وأضحى فيئها من أضحى الرجل إذا برز للشمس. ثم قال: «لا جاءٍ يُرَدّ ولا ماضٍ يرتد» أي يسترد ويسترجع، أخذه أبو العتاهية فقال:

فلا أنا راجعٌ ما قد مضى لِي ‌‌‌ وَلا أنا دافعٌ ما سوف يأتي

وإلى قوله: «ما أقرب الحيّ من الميت للحاقه به، وما أبعد الميت من الحيّ لانقطاعه عنه» نظر الشاعر، فقال:

يا بعيداً عَنّي وليس بعيداً ‌‌‌ من لحاقي به سميع قريبُ

صِرْتُ بين الورى غريباً كما أنـ ‌‌‌ ـك تحت الثرى وحيدٌ غريبُ

فإن قلت: ما وجه تقسيمه عليه السلام الأمورَ التي عدّدها إلى الفناء والعناء، والغِيَر والعبَر؟

قلت: لقد أصاب الثّغرة وطبّق المفصِل، ألا تراه ذكَر في الفناء رَمْيَ الدهر الإنسان عن قَوْس الرّدى، وفي العناء جَمْع ما لا يأكل، وبناء ما لا يسكن وفي الغِيَر الفقر بعد الغنى والغنى بعد الفقر، وفي العِبَر اقتطاع الأجل الأمل، فقد ناط بكلّ لفظة ما يناسبها.

وقد نظر بعضُ الشعراء إلى قوله عليه السلام: «ليس شيء بشرّ من الشرّ إلا عقابُهُ، وليس شيء بخير من الخير إلا ثوابه» فقال:

خير البضائع للإنسان مكرُمَةٌ ‌‌‌ تَنْمِي وتزكُو إذا بارت بضائعُهُ

فالخير خيرٌ، وخير منه فاعلُه ‌‌‌ والشرُّ شرٌّ، وشرٌّ منه صانعُهُ

إلا أن أمير المؤمنين عليه السلام استثنى العقاب والثواب، والشاعر جعل مكانهما فاعل الخير والشرّ.

ثم ذكر أنّ كلّ شيء من أمور الدنيا المرغبة والمرهبة، سماعه أعظم من عِيانه، والآخرة بالعكس، وهذا حقّ، أما القضيّة الأولى فظاهرة، وقد قال القائل:

أهتزُّ عند تمنّي وصْلِها طرباً ‌‌‌ وربّ أمنيّة أحلَى من الظَّفَرِ

ولهذا يحرِص الواحد منّا على الأمر، فإذا بلغه بَرَد وفتر، ولم يجده كما كان يظنّ في اللذة. ويوصف لنا البلد البعيد عَنّا بالخِصب والأمن والعدل، وسماح أهله، وحسن نسائه، وظَرْف رجاله، فإذا سافرنا إليه لم نجده كما وصَفَ، بل ربما وجدنا القليل من ذلك، ويُوصف لنا الإنسان الفاضل بالعلم بفنون من الآداب والحكم، ويبالغ الواصفون في ذلك. فإذا اختبرناه

وجدناه دون ما وَصَف، وكذلك قد يخاف الإنسان حبساً أو ضرباً أو نحوهما فإذا وقع فيهما هان ما كان يتخوّفه، ووجد الأمر دون ذلك، وكذلك القتل والموت، فإنّ ما يستعظِمُه النّاس منهما دون أمرهما في الحقيقة، وقد قال أبو الطيب - وهو حكيم الشعراء:

كُلّ ما لم يكنْ من الصَّعْبِ في الأنـ ـفُس سَهْلٌ فيها إذا هو كانا

ويقال في المثل: لِجِ الخوف تأمن. وأمّا أحوالُ الآخرة فلا ريب أنّ الأمر فيها بالضدّ من ذلك، لأنّ الذي يتصوره الناس من الجنة، أنّها أشجار وأنهار ومأكول ومشروب، وجماع، وأمرها في الحقيقة أعظمُ من هذا وأشرفُ، لأنّ ملاذّها الروحانية المقارِنة لهذه الملاذّ المضادّة لها أعظم من هذه الملاذّ بطبقات عظيمة، وكذلك أكثر الناس يتوهّمون أنّ عذاب الناس يكون أياماً وينقضي، كما يذهب إليه المرجئة، أو أنه لا عذاب بالنار لمسلم أصلاً، كما هو قول الخلّص من المرجئة، وأنّ أهل النار يألفون عذابها فلا يستضرّون به إذا تطاول الأمد عليهم، وأمر العذاب أصعب مما يظنّون، خصوصاً على مذهبنا في الوعيد، ولو لم يكن إلاّ آلام النفوس باستشعارها سخط الله تعالى عليها، فإنّ ذلك أعظمُ من ملاقاة جرْم النار لبدن الحيّ.

وفي هذا الموضع أبحاث شريفة دقيقة، ليس هذا الكتاب موضوعاً لها.

ثم أمرهم بأن يكتفوا من عِيان الآخرة وغيبها بالسماع والخبَر، لأنه لا سبيل ونحن في هذه الدار إلى أكثر من ذلك.

وإلى قوله: «ما نقص من الدنيا وزاد في الآخرة، خيرٌ مما نقص من الآخرة وزاد في الدنيا» نظر أبو الطيب، فقال، إلاّ أنّه أخرجه في مخرج آخر:

بلاد ما اشتهيتَ رأيتَ فيها فليس يفوتها إلا كِرَامُ

فهلاّ كان نقصُ الأهل فيها وكان لأهلها منها التّمامُ!

ثم قال: «فكم من منقوص في دنياه وهو رابح في آخرته، وكَمْ من مزيد في دنياه وهو خاسر في آخرته». ثم قال: «إنّ الذي أُمِرتم به أوسع من الذي نهيتم عنه، وما أُحِلّ لكم أكثر مما حُرّم عليكم»، الجملة الأولى هي الجملة الثانية بعينها، وإنما أتى بالثانية تأكيداً للأولى وإيضاحاً لها، ولأنّ فنّ الخطابة والكتابة هكذا هو، وينتظم كلتا الجملتيْن معنى واحد، وهو أنّ فيما أحلّ الله غنًى عَمّا حَرّم، بل الحلالُ أوسع، ألا ترى أنّ المباح من المآكل والمشارب أكثرُ عدداً وأجناساً من المحرّمات! فإن المحرّم ليس إلا الكلب والخنزير وأشياء قليلة غيرهما، والمحرّم من المشروب الخمر ونحوها من المسكر، وما عدا ذلك حلال أكلُه وشربه، وكذلك القول في النكاح والتسرّي، فإنّهما طريقان مَهْيَعَان إلى قضاء الوطر، والسّفاح طريق واحد والطريقان أكثر من الطريق الواحد.

فإن قلت: فكيف قال: «إنّ الذي أمِرتم به» فسمّى المباح مأموراً به؟

قلت سمّى كثير من الأصوليين المباح مأموراً به، وذلك لاشتراكه مع المأمور به في أنّه لا حرج في فعله، فأطلق عليه اسمه. وأيضاً فإنه لَمّا كان كثير من الأمور التي عددناها مندوباً أطبق عليه لفظ الأمر، لأن المندوب مأمور به، وذلك كالنّكاح والتسرّي وأكل اللحوم، التي هي سبب قوة البدن، وشرب ما يصلح المزاج من الأشربة التي لا حَرَج في استعمالها. وقال بعض العقلاء لبنيه: يا بنيّ، إنه ليس كل شيء من اللّذة ناله أهلُ الخسارة بخسارتهم إلاّ ناله أهلُ المروءة والصيانة بمروءتهم وصيانتهم، فاستتروا بستر الله ودخل إنسان على عليّ بن موسى الرضا عليه السلام، وعليه ثياب مرتفعة القِيمة، فقال: يا بن رسول الله، أتلبس مثل هذا؟ فقال له: مَنْ حَرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق[1]!

ثم أمر بالعمل والعبادة، ونهى عن الحِرْص على طلب الرزق، فقال: إنّكم أمِرْتم بالأوّل وضُمِن لكم الثاني، فلا تجعلوا المضمون حصولُه لكم هو المخصوص بالحِرْص والاجتهاد، بل ينبغي أن يكون الحرص والاجتهاد فيما أمرتم بعمله وهو العبادة. وقد يتوهّم قوم أنه ارتفع «طلبه» بـ«المضنون»، كقولك: المضروب أخوه، وهذا غلط لأنه لم يضمن طلبَه، وإنما ضمن حصوله، ولكنه ارتفع، لأنه مبتدأ وخبره أولى، وهذا المبتدأ والخبر في موضع نصب، لأنه خبر «يكونَنّ» أو ارتفع لأنه بدل من «المضنون»، وهذا أحسن وأولى من الوجه الأول، وهو بدل الاشتمال.

ثم ذكر أنّ رجعة العمر غيرُ مرجوّة، ورجعة الرزق مرجوّة، أوضح ذلك بأن الإنسان قد يذهب منه اليوم درهم فيستعيضه، أي يكتسب عِوَضه في الغدِ ديناراً، وأمّا «أمس» نفسه فمستحيل أن يعود ولا مثله، لأن الغد وبَعْد الغد محسوب من عمره، وليس عوضاً من الأمس الذاهب. وهذا الكلام يقتضي أنّ العمرَ مقدور، وأن المكاسب والأرزاق إنما هي بالاجتهاد، وليست محصورة مقدّرة، وهذا يناقض في الظاهر ما تقدّم من قوله: «إنّ الرزق مضمون فلا تحرصوا عليه»، فاحتاج الكلام إلى تأويل، وهو أنّ العمر هو الظرف الذي يوقع المكلّف فيه الأعمال الموجبة له السعادة العظمى، المخلّصة له من الشقاوة العظمى، وليس له ظرف يوقعها فيه إلا هو خاصّة، فكلّ جزء منه إذا فات من غير عمل لما بعد الموت، فقد فات على الإنسان بفواتِهِ ما لا سبيل له إلى استدراكه بعينه ولا اغترام مثله، لأن المثل الذي له إنما هو زمان آخر، وليس ذلك في مقدور الإنسان، والزمان المستقبل الذي يعيش فيه الإنسان لم يكتسبه هو لينسب إليه، فيقال: إنّه حصله عوَضاً مما انقضى وذهب من عمره، وإنما هو فعل غيره، ومع ذلك فهو

(١) أخرجه ابن عساكر بما معناه في تاريخ مدينة دمشق: ٧٠/ ٢٢.

معدّ ومهيّاً من العبادة توقع فيه، كما كان الجزء الماضي معدًّا لأفعال توقع فيه، فليس أحدُهما عوضاً عن الآخر ولا قائماً مقامه، وأمّا المنافع الدنيويّة كالمآكل والمشارب والأموال، فإن الإنسان إذا فاته شيء منها قَدَر على ارتجاعه بعينه، إن كانت عينه باقية، وما لا تبقى عينه يقدر على اكتساب مثله، والرزق وإن كان مضمونا من الله إلاّ أنّ للحركة فيه نصيباً، أمّا أن يكون شَرْطاً أو أن يكون هو بذاته من أثر قدرة الإنسان، كحركته واعتماده وسائر أفعاله، ويكون الأمر بالتوكّل والنهي عن الاجتهاد في طلب الرزق على هذا القول، إنما هو نهي عن الحرص والجشع والتهالك في الطلب، فإنّ ذلك قبيح يدلّ على دناءة الهمة وسقوطها.

ثم هذه الأغراض الدنيوية إذا حصلت أمثالها بعد ذهابها قامت مقام الذاهب، لأنّ الأمر الذي يراد الذاهب له يمكن حصولُه بهذا المكتسب، وليس كذلك الزمان الذاهب من العمر، لأنّ العبادات والأعمال التي كان أمسِ متعيناً لها، لا يمكن حصولُها اليوم، على حدّ حصولها أمس، فافترق البابان: باب الأعمال، وباب الأرزاق.

وقوله: «الرجاء مع الجائي، واليأس مع الماضي»، كلام يجري مجرى المثل، وهو تأكيد للمعنى الأول، وجعل الجائي مرجوًّا لأنه لا يعلم غيبه، قال الشاعر:

مَا مَضَى فَاتَ والمقدَّرُ غَيْبٌ ... ولَكَ السَّاعةُ التي أنت فيها

وقوله: «حق تقاته»، أي حق تقيّته، أي خوفه، اتقى يتقي تقية وتقاة، ووزنها «فُعَلة» وأصلها الياء، ومثلها أتخم تخمة: واتهم تهمة.

---

١١٤ - ومن خطبة له عليه السلام في الاستسقاء

الأصل: ٱللَّهُمَّ قَدِ ٱنْصَاحَتْ جِبَالُنَا، وَٱغْبَرَّتْ أَرْضُنَا، وَهَامَتْ دَوَابُّنَا، وَتَحَيَّرَتْ فِي مَرَابِضِهَا، وَعَجَّتْ عَجِيجَ ٱلثَّكَالَى عَلَى أَوْلاَدِهَا، وَمَلَّتِ ٱلتَّرَدُّدَ فِي مَرَاتِعِهَا، وَٱلْحَنِينَ إِلَى مَوَارِدِهَا!

ٱللَّهُمَّ فَارْحَمْ أَنِينَ ٱلآنَّةِ، وَحَنِينَ ٱلْحَانَّةِ!

ٱللَّهُمَّ فَارْحَمْ حَيْرَتَهَا فِي مَذَاهِبِهَا، وَأَنِينَهَا فِي مَوَالِجِهَا!

ٱللَّهُمَّ خَرَجْنَا إِلَيْكَ حِينَ ٱعْتَكَرَتْ عَلَيْنَا حَدَابِيرُ السِّنِينَ، وَأَخْلَفَتْنَا مَخَايِلُ ٱلْجَوْدِ، فَكُنْتَ ٱلرَّجَاءَ لِلْمُبْتَئِسِ، وَٱلْبَلاَغَ لِلْمُلْتَمِسِ.

نَدْعُوكَ حِينَ قَنَطَ ٱلأَنَامُ، وَمُنِعَ ٱلْغَمَامُ، وَهَلَكَ السَّوَامُ، أَلاَّ تُؤَاخِذَنَا بِأَعْمَالِنَا، وَلاَ

تَأْخُذَنَا بِذُنُوبِنَا، وَٱنْشُرْ عَلَيْنَا رَحْمَتَكَ بِالسَّحَابِ ٱلْمُنْبَعِقِ، وَالرَّبِيعِ المُغْدِقِ، وَالنَّبَاتِ المُونِقِ، سَحّاً وَابِلاً، تُحْيِي بِهِ مَا قَدْ مَاتَ، وَتَرُدُّ بِهِ مَا قَدْ فَاتَ.

ٱللَّهُمَّ سُقْيَا مِنْكَ مُحْيِيَةً مُرْوِيَةً، تَامَّةً عَامَّةً، طَيِّبَةً مُبَارَكَةً، هَنِيئَةً مَرِيئَةً مَرِيعَةً، زَاكِياً نَبْتُهَا، ثَامِراً فَرْعُهَا، نَاضِراً وَرَقُهَا، تُنْعِشُ بِهَا الضَّعِيفَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتحْيِي بِهَا المَيِّتَ مِن بِلاَدِكَ!

ٱللَّهُمَّ سُقْيَا مِنْك تُعْشِبُ بِهَا نِجَادُنَا، وَتَجْرِي بِهَا وِهَادُنا، وَيُخْصِبُ بِهَا جَنَابُنَا، وَتُقْبِلُ بِهَا ثِمَارُنَا، وَتَعِيشُ بِها مَوَاشِينا، وَتَنْدَى بِها أَقَاصِينا، وَتَسْتَعِينُ بِها ضَوَاحِينا، مِنْ بَرَكَاتِكَ ٱلْوَاسِعَةِ، وَعَطَايَاكَ ٱلْجَزِيلَةِ، عَلَى بَرِيَّتِكَ المُرْمِلَةِ، وَوَحْشِكَ المُهْمَلَةِ. وَأَنْزِلْ عَلَيْنا سَمَاءً مُخْضِلَةً، مِدْرَاراً هَاطِلَةً، يُدَافِعُ الوَدْقُ مِنْها ٱلْوَدْق، وَيَحْفِزُ ٱلْقَطْرُ مِنْهَا ٱلْقَطْرَ، غَيْرَ خُلَّبٍ بَرْقُها، وَلاَ جَهَامٍ عَارِضُهَا، وَلاَ قَزَعٍ رَبَابُها، وَلاَ شَفَّانٍ ذِهَابُها، حَتَّى يُخْصِبَ لِإِمْرَاعِها ٱلْمُجْدِبُونَ، وَيَحْيَا بِبَرَكَتِها المُسْنِتُونَ، فَإِنَّكَ تُنْزِلُ ٱلْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا، وَتَنْشُرُ رَحْمَتَكَ وَأَنْتَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ.

قال الشريف الرضي رحمه الله تعالى:

قوله عليه السلام: «ٱنْصَاحَتْ جِبالُنَا»، أَيْ تَشَقَّقَتْ مِنَ ٱلْمحولِ، يُقَالُ: ٱنصاحَ الثَّوْبُ، إِذَا ٱنشَقَّ. وَيقالُ أَيْضاً: ٱنْصَاحَ النَّبْتُ، وَصَاحَ وَصَوَّحَ، إِذَا جَفَّ وَيَبِسَ، كُلُّهُ بِمَعْنًى.

وَقَوْلُه: «وَهَامَتْ دَوَابُّنا» أَيْ عَطِشتْ، وَٱلْهُيَامُ: الْعَطَشُ.

وَقَوْلُهُ: «حَدَابِيرُ السِّنِينَ»، جَمْعُ حِدْبَارٍ، وَهِيَ النَّاقَةُ الَّتِي أَنْضَاهَا السَّيْرُ، فَشَبَّهَ بِهَا السَّنَةَ الَّتِي فَشَا فِيهَا ٱلْجَدْبُ، قَالَ ذُو الرُّمَّةِ:

حَدَابِيرُ مَا تَنْفَكُّ إِلاَّ مُنَاخَةً ... عَلَى ٱلْخَسْفِ أَوْ نَرْمِي بِهَا بَلَداً قَفْرَا

وَقَوْلُهُ: «وَلاَ قَزَعٍ رَبَابُهَا»، ٱلْقَزَعُ: ٱلْقِطَعُ الصِّغَارُ المُتَفَرِّقَةُ مِنَ السَّحَابِ.

وَقَوْلُهُ: «وَلاَ شَفَّانٍ ذِهَابُهَا» فَإِنَّ تَقْدِيرَهُ: «وَلاَ ذَاتُ شَفَّانٍ ذِهَابُهَا»، وَالشَّفَّانُ الرِّيحُ ٱلْبَارِدَةُ، وَالذِّهَابُ: ٱلأَمْطَارُ اللَّيِّنَةُ، فَحُذِفَ «ذَاتُ» لِعِلْمِ السَّامِعِ بِهِ.

الشرح: يجوز أن يريد بقوله: «وهامت دوابُّنا» معنًى غير ما فسّره الشريف الرضيّ رحمه الله به، وهو نُدودها وذهابُها على وجوهها لشدة المحْل، يقول: هام على وجهه، يهيم هَيْماً وهَيَمَاناً.

والمرابض: مبارك الغنم، وهي لها كالمواطن للإبل، واحدها مَرْبِض، بكسر الباء مثل مجلِس. وعَجّت: صرخت. ويحتمل الضمير في «أولادها» أن يرجع إلى الثكالى، أي كعجيج الثكالى على أولادهنّ، ويحتمل أن يرجع إلى الدوابّ، أي وعَجّت على أولادها كعجيج الثكالى، وإنّما وصفها بالتَّحيُّر في مَرَابضها، لأنّها لشدّة المحْل تتحيّر في مباركها، ولا تدري ماذا تصنع، إن نهضت لترعَى لم تجد رعياً، وإن أقامت كانت إلى انقطاع المادّة أقرب!

قوله: «وملّت التردد في مراتعها، والحنين إلى مواردها»، وذلك لأنّها أكثرتْ من التردّد في الأماكن التي كانت تعهد مراتعها فيها فلم تجد مرتعاً، فملّت التَّرداد إليها، وكذلك ملّت الحنين إلى الغدران والموارد التي كانت تعتادها للشرب، فإنّها حنّت إليها لما فقدتها، حتى ضجرت ويئست فملّت مما لا فائدة لها فيه.

والآنّة والحانّة: الشاة والناقة، ويقال: ماله حانّة ولا آنّة. وأصل الأنين صوت المريض وشكواه من الوَصب، يقال: أنّ يئنّ أنيناً وأناناً وتأناناً.

والموالج: المداخل، وإنما ابتدأ عليه السلام بذكر الأنعام وما أصابها من الجدْب اقتفاءً بسنة رسول الله ﷺ، ولعادة العرب، أما سنّة رسول الله ﷺ فإنه قال: «لولا البهائم الرُّتَّع، والصبيانُ الرّضع، والشيوخُ الرّكع، لصبّ عليكم العذاب صَبًّا»[1]، وقد ذهب كثير من الفقهاء إلى استحباب إخراج البهائم في صلاة الاستسقاء. وتقدير دعائه عليه السلام: اللّهمّ إن كنتَ حرمتنا الغيث لسوء أعمالنا، فارحم هذه الحيوانات التي لا ذنْب لها، ولا تؤاخذها بذنوبنا. وأمّا عادة العرب فإنّهم كانوا إذا أصابهم المحْل استسقوْا بالبهائم، ودعوا الله بها واسترحموه لها، ومنهم من كان يجعل في أذناب البقر السّلع والعُشَر، ويصعد بها في الجبال والتلاع العالية، وكانوا يُسْقَوْن بذلك، وقال الشاعر:

أجاعلٌ أنتَ بَيْقُوراً مسلَّعةً ... ذريعةً لك بين الله والمطر

فاعتكرت: رَدِف بعضُها بعضاً، وأصل عَكَر عطف. والعكْرة. الكرّة، وفي الحديث: قال له قوم: يا رسول الله، نحن الفرّارُون. فقال: «بل أنتم العكّارون إن شاء الله»[2].

والبيت الذي ذكره الرضيّ رحمه الله لذي الرّمة، لا أعرفه إلا «حراجيج»، وهكذا رأيتُه بخط ابن الخشّاب رحمه الله، والحرجُوج: الناقة الضّامرة في طول.

---

(١) أخرجه البيهقي في «السنن» (٣/ ٣٤٥)، والطبراني في «الأوسط» (٦٥٣٩)، و«الكبير»(٧٨٥).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب الجهاد، باب: ما جاء في الفرار من الزحف (١٧١٦)، وأبو داود، كتاب: الجهاد، باب: التولي يوم الزحف (٢٦٤٧)، وأحمد في «مسنده» (٥٦٣١)، و«المنتقى» لابن الجارود (١٠٥٠).

وفيه مسألة نحوية، وهي أنه كيف نقَضَ النفي من «ما تنفكّ» وهو غير جائز، كما لا يجوز ما زال زيد إلا قائماً؟ وجوابها أنّ تنفكّ ها هنا تامّة، أي ما تنفصل، ومناخة منصوب على الحال.

قوله: «وأخلفتنا مخايل الجَوْد»، أي كلّما شِمْنا برقاً، واختلنا سحاباً، أخلَفَنا ولم يمطر. والجَوْد: المطر الغزير. ويروى: «مخايل الجُود» بالضم.

والمبتئس: ذو البؤس. والبلاغ للملتمس، أي الكفاية للطالب.

وتقول: قنَط فلان، بالفتح يقنُط ويقنِط، بالكسر والضم، فهو قانط. وفيه لغة أخرى قَنِط بالكسر، يقنَط قنَطاً، مثل تعِب يتعَب تعباً، وقناطةً أيضاً، فهو قنِط. وقرىء: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَنِطِينَ﴾[1].

وإنما قال: «ومُنِع الغمام»، فبنى الفعلَ للمفعول به، لأنه كره أن يضيف المنع إلى الله تعالى، وهو منبَع النعم، فاقتضى حسنُ الأدب أنّه لم يسمّ الفاعل. وروي «مَنَع الغمام»، أي ومَنَع الغمام القطر، فحذف المفعول. والسوام: المال الراعي.

فإن قلت: ما الفرق بين «تؤاخذنا» وبين «تأخذنا»؟

قلت: المؤاخذة دون الأخذ، لأنّ الأخذ الاستئصال، والمؤاخذة عقوبة وإن قلّت.

والسحاب المنبعِق: المتبعّج بالمطر، ومثله المتبعّق، ومثله البُعاق. والربيع المغدق: الكثير. والنبات المونق: المعجب.

وانتصب «سحًّا» على المصدر. والوابل: المطر الشديد.

ثم قال: «تُحْيِي به ما قد مات»، أي يكاد يتلف بها من الزرع. وتردّ به ما قد فات، أي يستدرك به الناس ما فاتهم من الزرع والحرث.

والسقيا مؤنثة، وهي الاسم من سَقَى. والمريعة: الخصيبة.

و«ثامراً فرعُها»: ذو ثمر، كما قالوا: لابن وتامر، ذو لبن وتمر.

وتنعش: ترفع. والنِّجاد: جمع نَجْد، وهو ما ارتفع من الأرض. والوهاد: جمع وَهْد، وهو المطمئنّ منها، وروي: «نجادَنا» بالنصب على أنه مفعول.

قوله: «وتندى بها أقاصينا»، أي الأباعد مِنّا. ويندى بها: ينتفع، ندِيت بكذا، أي انتفعت.

والضواحي: النواحي القريبة من المدينة العظمى. والمرمِلة: الفقيرة، أرمل افتقر ونفد زاده. ووحشك المهملة: التي لا راعي لها ولا صاحب ولا مشفق.

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٥٥.

وسماء مخضِلَة: تُخضِل النبت أي تبلّه، وروي: «مخضَلّة» أي ذات نبات وزروع مخضَلّة، يقال: اخضلّ النبت اخضلالاً، أي ابتلّ، وإنما أنّث السماء وهو المطر وهو مذكر، لأنه أراد الإمطار. والوَدْق: المطر. ويحفِز: يدفع بشدّة، وإذا دفع القطر القطر، كان أعظم وأغزر له.

وبرق خُلّب: لا مطر معه، وسحاب جَهام: لا ماء فيه. والمجدِبون: أهل الجدْب. والمسنِتُون الذين أصابتهم السنَة وهي المحْل والقحط الشديد.

واعلم أنّ صلاة الاستسقاء عند أكثر الفقهاء سُنّة.

وقال أبو حنيفة: لا صلاة للاستسقاء. قال أصحابه: يعني ليست سنّة في جماعة، وإنّما يجوز أن يصلّيَ الناس وُحداناً، قالوا: وإنما الاستسقاء هو الدعاء والاستغفار.

وقال باقي الفقهاء كالشافعيّ وأبي يوسف ومحمد وغيرهم بخلاف ذلك. قالوا: وقد روي أنّ رسول الله ﷺ صلّى بالناس جماعةً في الاستسقاء، فصلّى ركعتين، جَهَر بالقراءة فيهما وحوّل رداءه ورفع يديْه واستسقى. قالوا: والسنّة أنْ يكون في المصلّى، وإذا أراد الإمام الخروج لذلك وَعَظ الناس، وأمرهم بالخروج من المظالم والتوبة من المعاصي، لأنّ ذلك يمنع القطر.

قالوا: وقد روي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: إذا بُخِس المكيال حُبِس القطر.

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّٰعِنُونَ﴾[1]، قال: دوابّ الأرض تلعنهم، يقولون: مُنِعْنَا القَطْر بخطاياهم.

قالوا: ويأمر الإمام النّاس بصوم ثلاثة أيام قبل الخروج، ثم يخرج في اليوم الرابع وهم صيام ويأمرهم بالصَّدَقة، ويستسقي بالصالحين من أهل بيت رسول الله ﷺ كما فعل عمر، ويحضر معه أهل الصلاح والخير، ويستسقي بالشُّيوخ والصبيان.

واختلفوا في إخراج البهائم، فمنهم من استحبّ ذلك، ومنهم من كَرِهَه. ويُكره إخراج أهل الذمّة، فإن حضروا من عند أنفسهم لم يمنعوا. والغُسْلُ والسواك في صلاة الاستسقاء عندهم مسنونان، ولا يستحبّ فيهما التطيُّب، لأنّ الحال لا يقتضيه.

وينبغي أنْ يكونَ الخروج بتواضع وخشوع وإخبات، كما خرج رسول الله ﷺ للاستسقاء[2].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٩.

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب: الجمعة، باب: ما جاء في صلاة الاستسقاء (٥٥٨)، والنسائي، كتاب: الاستسقاء، باب: الحال التي يستحب أن يكون عليها الإمام (١٥٠٦)، وأبو داود، كتاب: الصلاة، باب: (١١٦٥).

قالوا: ولا يؤذَّن لهذه الصلاة ولا يقام، وإنما ينادَى لها: الصلاة جامعة! وهي ركعتان كصلاة العيد، يكبّر في الأولى سبع تكبيرات، وفي الثانية خمس تكبيرات.

قالوا: ويخطب بعد الصلاة خطبتين، ويكون دعاء الاستسقاء في الخطبة الأولى.

قالوا: فيقول: اللهمّ اسقنا غيثاً مغيثاً، هنيئاً مريئاً مريعاً، غَدَقاً مجللاً طَبَقاً، سَحًّا دائماً. اللهمّ اسقِنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين. اللهمّ إنّ بالعباد والبلاد من اللأواء والضَّنْك والجهد ما لا نشكوه إلاّ إليك. اللهمّ أنبت لنا الزّرع، وأدرّ لنا الضَّرْع، واسقنا من بركات السماء. اللهمّ اكشف عنّا الجهد والجوع والعُرْي، واكشف عَنّا ما لا يكشفه غيرك. اللهمّ إنا نستغفرك، إنك كنت غفاراً، فأرسِل السماء علينا مدراراً.

قالوا: ويستحبّ أن يستقبل القبلة في أثناء الخطبة الثانية، ويحوّل رداءه فيجعل ما على الأيمن على الأيسر، وما على الأيسر على الأيمن تفاؤلاً بتحوّل الحال. وكذا رُوي أنّ رسول الله ﷺ فَعل، ويستحبّ للناس أن يحوّلوا أردِيتهم مثله، ويتركوها كما هي، ولا يعيدوها إلى حالها الأولى إلاّ إذا رجعوا إلى منازلهم.

ويستَحَبّ أن يدعُوَ في الخطبة الثانية سرًّا فيجمع بين الجهر والسرّ، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾[1]، وكقوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾[2]. قالوا: ويستحبّ رفع اليد في هذا الدعاء، وأن يكثروا من الاستغفار لقوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾[3]، فإن صلّوا واستسقَوْا فلم يُسْقَوْا عادوا من الغد، وصلّوا واستسقَوْا، وإن سُقوا قبلَ الصّلاة صلوا شكراً وطلباً للزيادة.

قالوا: ويستحبُّ أن يقِفُوا تحت المطر حتى يصيبهم، وأن يحسِرُوا له عن رؤوسهم، وقد روي أن رسول الله ﷺ حَسَر عن رأسه حتى أصابه مطر الاستسقاء.

ويستحَبّ إذا سال الوادي أن يغتسلوا فيه، ويتوضّؤوا منه.

وقد استحَبّ قوم من الفقهاء أن يخرُجَ النّاس للاستسقاء حُفاة حاسرين، والأكثرون على خلاف ذلك.

فأما مذهب الشيعة في هذه المسألة فأن يستقبل الإمام القبلة بعد صلاة الركعتين، فيكبّر الله مائة تكبيرة، ويرفع بها صوته ويكبّر مَنْ حضر معه، ثم يلتفت عن يمينه فيسبّح الله مائة تسبيحة، يرفع بها صوته، ويسبّح معه مَنْ حضر ثم يلتفت عن يساره فيهلّل الله مائة مرة يرفع بها صوته،

---

(١) سورة نوح، الآية: ٩.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٥.

(٣) سورة نوح، الآيتان: ١٠، ١١.

ويقول من حضر مثل ذلك، ثم يستقبل الناس بوجهه، فيحمد الله مائة مرة، يرفع بها صوته ويقول معه مَنْ حضر مثل ذلك، ثم يخطب بهذه الخطبة المروية عن أمير المؤمنين عليه السلام في الاستسقاء، فإنْ لم يتمكّن منها اقتصر على الدعاء.

أحاديث في الاستسقاء

وجاءَ في الأخبار الصحيحة رؤيا رُقيقة في الجاهلية، وهي رقيقة بنت أبي صيفيّ بن هاشم بن عبد مناف، قالت رقيقة: تتابعتْ على قريش سنُون أقحلت الضَّرْع وأرقَّت العظم، فبينا أنا راقدة - اللهمّ - أو مُهوّمة [ومعي صِنْوي]، إذا أنا بهاتف صَيّت يصرخ بصوت صَحِل: يا معشر قريش، إنّ هذا النبيّ المبعوث فيكم قدأظلّتكم أيامه، وهذا إبّان نجومه، فحيّهلاً بالخصب والحيا. ألا فانظروا رجلاً منكم عُظاماً جُسَاماً، أبيض بَضًا، أوطفَ الأهداب سَهْل الخدين، أشمّ العِرْنين، له سُنَّة تهدي إليه. ألا فلْيخلُص هو وولده، وليدلِفْ إليه من كلّ بطْن رجل. ألا فليشُنُّوا عليهم من الماء، وليمسُّوا من الطيب، وليطوفوا بالبيت سبعاً، وليكن فيهم الطيّب الطّاهر [لداته]. فليستق الرجلُ، وليؤمّن القوم. ألا فغِثْتُم إذا ما شئتم.

قالت: فأصبحتُ - علم الله - مذعورة قَدْ قفّ جِلْدِي، وَوَلِهَ عقلي، فاقتصصت رؤياي على الناس، فذهبت في شِعَاب مكة، فو الحرْمة والحرَم، إن بقي أبطحّيٌّ إلا وقال: هذا شيبة الحمد.

فتتامّت رجال قريش، وانقضّ إليه من كلّ بطنٍ رجل، فشنُّوا عليهم ماء، ومسّوا طيباً، واستلموا واَطّوّفوا، ثم ارتقوْا أبا قُبَيْس، وطفِق القوم يَدِفُّون حول عبد المطلب، ما إن يُدْرِك سعيهم مَهْلهُ، حتى استقرّوا بذِرْوة الجبل، واستكَفُّوا جانبيه.

فقام فاعتضد ابن ابنه محمداً صلى الله عليه وآله، فرفعه على عاتقه، وهو يومئذ غلام قد أيْفع أو كَرَب، ثم قال: اللهمّ سادّ الخلَّة، وكاشفَ الكُربة، أنت عالم غير مُعَلَّم، ومسؤول غير مبخّل، وهذه عِبِدّاؤك وإماؤك بعذارات حَرَمِك، يشكون إليك سَنَتَهم التي أذهبت الخُفّ والظلْف، فاسمعنّ اللهمّ، وأمطِرَنّ علينا غيثاً مُغْدِقاً مريعاً سَحًا طَبَقا دراكاً.

قالت: فوربّ الكعبة ما راموا حتى انفجرت السَّماءُ بمائها واكتظَّ الوادي بثجيجِه[1] وانصرف الناس يقولون لعبد المطلب: هنيئاً لك سيدَ البطحاء[2]!

---

(١) الثَّجيجُ: السَّيل. القاموس المحيط، مادة (ثجج).
(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٢١٥)، وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٤/ ٢٦٠).

وفي رواية أبي عبيدة معمرَ بن المثنَّى قال: فسمعنا شِيخانَ قريش[1] وجلَّتها: عبد الله بن جُدعان وحرْب بن أمية وهشام بن المغيرة، يقولون لعبد المطلب: هنيئاً لك، أبا البطحاء!

وفي ذلك قال شاعر من قريش وقد روي هذا الشعر لرقيقة:

بشيبة الحمدِ أسْقَى الله بَلْدَتَنَا ... وقد فقدنا الْحَيَا واجلوّذ المطرُ

فجاد بالماء وسميٌّ لَهُ سَبَلٌ ... سحا، فعاشت به الأنعام والشجر

وفي الحديث من رواية أنس بن مالك: أصاب أهلَ المدينة قَحْط على عهد رسول الله ﷺ، فقام إليه رجل وهو يخطب يوم جمعة، فقال: يا رسول الله، هَلَك الشاء، هلك الزّرع، ادعُ الله لنا أن يسقينا، فمدّ عليه السلام يده، ودعا واستسقى، وإن السماء كمثل الزّجاجة، فهاجت ريح ثم أنشأت سحاباً، ثم اجتمع، ثم أرسلت عَزَاليَها، فخرجنا نخوض الماء حتى أتينا منازلَنا، ودام القَطْر، فقام إليه الرجل في اليوم الثالث. فقال يا رسول الله، تهدّمت البيوت، ادع الله أن يحبسَه عنّا. فتبسّم رسول الله ﷺ، ثم رفع يده: وقال: «اللّهم حَوَالينا ولا علينا»[2].

قال أنس: فوالذي بعث محمداً بالحقّ، لقد نظرتُ إلى السحاب، وإنه لقد انجابَ حول المدينة كالإكليل.

وفي حديث عائشة أنه عليه السلام استسقى حين بدأ قرنُ الشمس، فقعد على المنبر، وحمِد الله وكبّره، ثم قال: إنكم شكوتُم جَدْبَ دياركم، وقد أمركم الله أن تدعوه، ووعدكم أن يستجيبَ لكم فادعوه. ثم رفع صوته فقال: «اللهمّ إنك أنت الغنيّ، ونحن الفقراء، فأنزِلْ علينا الغيث، ولا تجعلنا من القانطين. اللهمّ اجعل ما تنزله علينا قوةً لنا، وبلاغاً إلى حين، برحمتك يا أرحم الراحمين». فأنشأ الله سحاباً، فرعَدَتْ وبَرَقت، ثم أمطرت، فلم يأت عليه السلام منزله، حتى سالت السيول، فلما رأى سرعَتَهم إلى الكِنّ ضحك حتى بدت نواجذه، وقال: أشهد أنّي عبد الله ورسوله، وأن الله على كلّ شيء قدير[3].

ومن دعائه عليه السلام في الاستسقاء وقد رواه الفقهاء وغيرهم: «اللهم اسقنا وأغثنا، اللهم اسقِنا غيثاً مُغيثاً، وحَياً ربيعاً، [وجَداً] طَبَقاً، غدَقاً مُغدقاً، موفقاً عامًّا، هنيئاً مريئاً، مَرِيعاً مُرْبعاً مرتعاً، وابلاً سابلاً مسيلاً، مجلّلاً، درًّا، نافعاً غير ضارّ، عاجلاً غير رائث. غيثاً - اللهمّ -

---

(١) الشّيخان: جمع شيخ.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الجمعة، باب الاستسقاء في الخطبة يوم الجمعة (٩٣٣)، ومسلم، كتاب: صلاة الاستسقاء، باب: الدعاء في الاستسقاء (٨٩٧).

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب: الصلاة، باب: رفع اليدين في الاستسقاء (١١٧٣)، والحاكم في «المستدرك» (١٢٢٥)، والبيهقي في «الكبرى» (٣/ ٣٤٩).

تحيي به العباد، وتغيث به البلاد، وتجعله بلاغاً للحاضر منّا والباد، اللهمَّ أنزل علينا في أرضنا زينتها، وأنزل علينا في أرضنا سكَنها. اللهم أنزل علينا ماء طَهوراً، فأحْيِ به بلدةً ميتاً، واسقه مما خَلَقت لنا أنعاماً وأناسيّ كثيراً».

وروى عبد الله بنُ مسعود أن عمر بن الخطاب خرج يستسقي بالعباس، فقال: اللهمّ إنا نتقرّب إليك بعمّ نبيك وقفيّة آبائه وكُبْرِ رجاله، فإنك قلت، وقولك الحق: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾[1] الآية، فحفظتَهما لصلاح أبيهما، فاحفظ اللهمّ نبيك في عمّه فقد دلَوْنا به إليك مستشفعين ومستغفرين. ثم أقبل على الناس، فقال: استغفروا ربّكم إنّه كان غفاراً.

قال ابن مسعود: رأيت العباس يومئذ وقد طال عُمَر، وعيناه تنضَحان، وسبائبُه تجول على صدره، وهو يقول: اللهمّ أنت الراعي فلا تهمل الضّالة، ولا تدع الكسير بدار مَضيعة، فقد ضَرَع الصغير، ورَقّ الكبير، وارتفعت الشكوى، وأنت تعلم السرّ وأخفى. اللهمّ أغثهمْ بغياثك من قبل أن يقنَطوا فيهلِكوا، إنه لا ييأس من رحمة الله إلا القوم الكافرون.

قال: فنشأت طُرَيرة من سحاب، وقال الناس: ترَوْنَ تَرَوْنَ! ثم تلاءمت واستتمّت ومشت فيها ريح، ثم هَدّت ودرّت، فوالله ما برحوا حتى اعتلقوا الأحذية، وقَلَّصوا المآزر، وطفِق الناس يلوذون بالعباس، يمسحون أركانه ويقولون: هنيئاً لك ساقيَ الحرَمين.

١١٥ – ومن خطبة له عليه السلام في تعظيم ما حجب عن الناس

الأصل: أَرْسَلَهُ دَاعِياً إِلَى ٱلْحَقِّ، وَشَاهِداً عَلَى ٱلْخَلْقِ، فَبَلَّغَ رِسَالاَتِ رَبِّهِ، غَيْرَ وَانٍ وَلاَ مُقَصِّر، وَجَاهَدَ فِي ٱللهِ أَعْدَاءَهُ، غَيْرَ وَاهِنٍ وَلاَ مُعَذِّرٍ، إِمَامُ ٱتَّقَى، وَبَصَرُ مَنِ ٱهْتَدَى.

الشرح: قوله: «وشاهداً على الخلق»، أي يشهد على القوم الذين بعث إليهم، وشهد لهم، فيشهد على العاصي بالعصيان والخلاف، ويشهد للمطيع بالإطاعة والإسلام، وهذا من قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾[2]، ومن قوله تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾[3].

(١) سورة الكهف، الآية: ٨٢.
(٢) سورة النساء، الآية: ٤١.
(٣) سورة المائدة، الآية: ١١٧.

فإن قلت: إذا كان الله تعالى عالماً بكلّ شيء، ومالكاً لكلّ أحد، فأيّ حاجة إلى الشهادة؟

قلت: ليس بمنكَرٍ أن يكون في ذلك مصلحة للمكلّفين في أديانهم، من حيث إنّه قد تقرّر في عقول الناس، أنّ مَنْ يقوم عليه شاهد بأمرٍ منكرٍ قد فعله، فإنه يخزَى ويخجل وتنقطع حجته، فإذا طرق أسماعهم أنّ الأنبياء تشهد عليهم، والملائكة الحافظين تكتب أعمالَهم، كانوا عن مواقعة القبيح أبعد.

والواني: الفاتر الكالّ. والواهن: الضعيف.

والمعذّر: الذي يعتذر عن تقصيره بغير عذر، قال تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾[1].

الأصل: منها: وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ مِمَّا طُوِيَ عَنْكُمْ غَيْبُهُ، إِذاً لَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ، تَبْكُونَ عَلَى أَعْمَالِكُمْ، وَتَلْتَدِمُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَتَرَكْتُمْ أَمْوَالَكُمْ لاَ حَارِسَ لَهَا، وَلاَ خَالِفَ عَلَيْهَا، وَلَهَمَّتْ كُلَّ ٱمْرِىءٍ مِنْكُمْ نَفْسُهُ، لاَ يَلْتَفِتُ إِلَى غَيْرِهَا، وَلَكِنَّكُمْ نَسِيتُمْ مَا ذُكِّرْتُمْ، وَأَمِنْتُمْ مَا حُذِّرْتُمْ، فَتَاهَ عَنْكُمْ رَأْيُكُمْ، وَتَشَتَّتَ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ.

وَلَوَدِدْتُ أَنَّ ٱللهَ فَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَأَلْحَقَنِي بِمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِي مِنْكُمْ، قَوْمٌ وَٱللهِ مَيَامِينُ الرَّأْيِ، مَرَاجِيحُ ٱلْحِلْمِ، مَقَاوِيلُ بِالْحَقِّ، مَتَارِيكُ لِلْبَغْيِ، مَضَوْا قُدُماً عَلَى الطَّرِيقَةِ، وَأَوْجَفُوا عَلَى ٱلْمَحَجَّةِ، فَظَفِرُوا بِالْعُقْبَى الدَّائِمَةِ، وَٱلْكَرَامَةِ ٱلْبَارِدَةِ.

أَمَا وَٱللهِ لَيُسَلَّطَنَّ عَلَيْكُمْ غُلاَمُ ثَقِيفٍ الذَّيَّالُ المَيَّالُ، يَأْكُلُ خَضِرَتَكُمْ، وَيُذِيبُ شَحْمَتَكُمْ. إِيهٍ أَبَا وَذَحَةَ!

قال الرضيّ رحمه الله تعالى: ٱلْوَذَحَةُ: ٱلْخُنْفَسَاءُ، وهذا الْقول يُومىءُ به إِلى الحَجَّاجِ، وَله مع ٱلْوَذَحَةِ حَدِيثٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِع ذِكْرِهِ.

الشرح: الصعيد: التراب، ويقال: وجْه الأرض، والجمع صُعُد وصُعُدات، كطريق وطُرُق وطُرُقات. والالتدام: ضرب النساء صدورَهنّ في النّياحة. ولا خالف عليها: لا مستخلف.

قوله: «ولهمّت كلَّ امرىء منكم نفسه»، أي أذابته وأنحلته، هممتُ الشحم، أي أذبته. ويروى: «ولأهمّت كلَّ امرىء» وهو أصحّ من الرواية الأولى، أهمّني الأمر، أي أحزنني.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٩٠.

وتاه عن فلان رأيه، أي عزَب وضلّ.

ثم ذكر أنه يودّ ويتمنّى أن يفرّق الله بينه وبينهم، ويلحقه بالنبيّ ﷺ وبالصالحين من أصحابه، كحمزة وجعفر عليهما السلام وأمثالهما ممَّن كان أمير المؤمنين يُثْني عليه. ويحمَد طريقته من الصحابة. فمضَوْا قُدُماً، أي متقدّمين غير معرّجين ولا معرّدين[1].

وأوجفوا: أسرعوا. ويقال: غنيمة باردة وكرامة باردة، أي لم تؤخذ بحرب ولا عسف وذلك لأن المكتسب بالحرب جارٍ في المعنى لما يلاقي ويعاني في حصوله من المشقّة.

وغلام ثقيف المشار إليه، هو الحجّاج بن يوسف. والذيّال: التائه، وأصله من «ذال» أي تبختر، وجرّ ذيله على الأرض. والميَّال: الظالم.

ويأكل خَضِرَتكم: يستأصل أموالكم. ويذيب شحمتكم مثله، وكلتا اللفظتين استعارة.

ثم قال له كالمخاطب لإنسان حاضر بين يديه: «إيهٍ أبا وَذَحة»، أيهٍ كلمة يُستزاد بها من الفعل، تقديره: زِدْ وهات أيضاً ما عندك، وضدّها إيهاً، أي كفّ وأمسك.

قال الرضيّ رحمه الله: والوَذَحَة الخنفساء، ولم أسمع هذا من شيخ من أهل الأدب، ولا وجدتُه في كتاب من كتب اللغة، ولا أدري من أين نقل الرضيّ رحمه الله ذلك!

ثم إن المفسّرين بعد الرضيّ رحمه الله قالوا في قصّة هذه الخنفساء وجوهاً:

منها أنّ الحجّاج رأى خنفساء تدِبّ إلى مصلاّه، فطردَها فعادت، ثم طردها فعادت، فأخذها بيده، وحذَف بها، فقرصته قَرْصاً وَرِمَتْ يده منها ورماً كان فيه حتفه، قالوا: وذلك لأنّ الله تعالى قتله بأهونِ مخلوقاته، كما قتل نمرود بن كنعان بالبقّة التي دخلت في أنفه، فكان فيها هلاكه.

ومنها أنّ الحجّاج كان إذا رأى خنفساء تدِبّ قريبةً منه، يأمر غلمانه بإبعادها، ويقول: هذه وَذَحة من وَذَح الشيطان، تشبيهاً لها بالبعرة، قالوا: وكان مغرًى بهذا القول، والوذَح: ما يتعلّق بأذناب الشاة من أبعارها فيجفّ.

ومنها أنّ الحجاج قال وقد رأى خنفساوات مجتمعات: واعجباً لمن يقول إن الله خلق هذه! قيل: فمن خلقها أيها الأمير؟ قال: الشيطان، إنّ ربّكم لأعظم شأناً أن يخلق هذه الوذح! قالوا: فجمعها على «فَعَلٍ» كبَدَنة وبَدَن، فنُقل قوله هذا إلى الفقهاء في عصره، فأكفروه. ومنها أنّ الحجّاج كان مثْفاراً[2]، وكان يمسك الخنفساء حيّة ليشفَى بحركتها في الموضع حكاكه.

---

(١) يقال: عرَّد الرجل عن قرنه؛ إذا أحجم ونكل.

(٢) رجل مثفار: نعت سوء.

قالوا: ولا يكون صاحب هذا الداء إلا شانئاً مبغضاً لأهل البيت. قالوا: ولسنا نقول كلّ مبغض فيه هذا الداء، وإنما قلنا: كلّ من فيه هذا الداء فهو مبغض.

قالوا: وقد روى أبو عمر الزاهد - ولم يكن من رجال الشّيعة - في أماليه وأحاديثه عن السياريّ عن أبي خزيمة الكاتب، قال: ما فتّشنا أحداً فيه هذا الداء إلا وجدناه ناصبيًا.

قال أبو عمر: وأخبرني العطافي عن رجاله، قالوا:

سئل جعفر بن محمد عليه السلام عن هذا الصّنف من الناس، فقال رحم منكوسة يُؤتَى ولا يأتي، وما كانت هذه الخصلة في وليّ لله تعالى قطّ، ولا تكون أبداً، وإنما تكون في الكفار والفساق والناصب للطاهرين.

وكان أبو جهل عمرو بن هشام المخزوميّ من القوم، وكان أشدّ الناس عداوة لرسول الله صلى الله عليه وآله، قالوا: ولذلك قال له عتبة بن ربيعة يوم بدر: يا مُصَفِّرَ استه.

فهذا مجموع ما ذكره المفسرون، وما سمعته من أفواه الناس في هذا الموضع، ويغلب على ظني أنه أراد معنًى آخر، وذلك أنّ عادة العرب أن تكني الإنسان إذا أرادتْ تعظيمه بما هو مظنّة التعظيم، كقولهم: أبو الهول، وأبو المقدام، وأبو المغوار، فإذا أرادتْ تحقيره والغضّ منه كنّتْهُ بما يستحقَر ويستهان به، كقولهم في كُنية يزيد بن معاوية: أبو زنّة، يعنون القرد، كقولهم في كنية سعيد بن حفص البخاري المحدث: أبو الفار، وكقولهم للطفيليّ: أبو لقمة، وكقولهم لعبد الملك: أبو الذّبان لبَخَره، وكقول ابن بسام لبعض الرؤساء:

فأنتَ لعمري أبو جعفرٍ ... ولكنّنا نحذف الفاء منهُ

وقال أيضاً:

لئيم دَرِنُ الثوبِ ... نظيف القعب والقِدْرِ
أبو النتن، أبو الدَّفْرِ، ... أبو البعر، أبو الجَعْرِ

فلما كان أمير المؤمنين عليه السلام يعلمُ مِن حال الحجاج نجاسته بالمعاصي والذنوب، التي لو شوهدت بالبصر لكانت بمنزلة البعر الملتصِق بشعر الشاء، كناه «أبو وذَحَة» ويمكن أيضاً أن يكنّيه بذلك لدمامته في نفسه، وحقارة منظره، وتشويه خلقته، فإنه كان قصيراً دميماً نحيفاً، أخفشَ العينين معوجّ الساقين، قصير الساعدين، مجدورَ الوجه، أصلع الرأس، فكنّاه بأحقر الأشياء، وهو البعرة.

وقد روى قوم هذه اللفظة بصيغة أخرى، فقالوا: «إيه أبا ودجة»، قالوا: واحدة الأوداج، كنّاه بذلك لأنه كان قتّالاً يقطع الأوداج بالسيف، ورواه قوم «أبا وحرة» وهي دويّبة تشبه الحِرْباء قصيرة الظهر، شبّهه بها.

وهذا وما قبله ضعيف، وما ذكرناه نحن أقرب إلى الصواب.

١١٦ – ومن كلام له عليه السلام في التوبيخ على البخل

الأصل: فَلاَ أَمْوَالَ بَذَلْتُمُوهَا لِلَّذِي رَزَقَهَا، وَلاَ أَنْفُسَ خَاطَرْتُمْ بِهَا لِلَّذِي خَلَقَهَا، تَكْرُمُونَ بِالله عَلَى عِبَادِهِ، وَلاَ تُكْرِمُونَ اللهَ فِي عِبَادِهِ!

فَاعْتَبِرُوا بِنُزُولِكُمْ مَنَازِلَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَانْقِطَاعِكُمْ عَنْ أَوْصَلِ إِخْوَانِكُمْ!

الشرح: انتصاب «الأموال» بفعل مقدّر دلّ عليه «بذلتموها» وكذلك «أنفس»، يقول: لم تبذلوا أموالكُم في رضًا من رزقكم إياها، ولم تخاطروا بأنفسكم في رضا الخالق لها، والأولَى بكم أن تبذلوا المالَ في رضا رازقه، والنفسَ في رضا خالقها، لأنه ليس أحَدٌ أحقّ منه بالمال والنفس وبذلهما في رضاه.

ثم قال: من العجب أنّكم تطلبون من عباد الله أن يكرموكم ويطيعوكم لأجل الله، وانتمائكم إلى طاعته، ثم إنكم لا تكرمون الله ولا تطيعونه في نفع عباده، والإحسان إليهم.

ومحصول هذا القول: كيف تسيمون الناس أن يطيعوكم لأجل الله، ثم إنكم أنتم لا تُطيعون الله، الذي تكلّفون الناس أن يطيعوكم لأجله!

ثم أمرهم باعتبارهم بنزولهم منازل مَنْ كان قبلهم، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[1].

وروي عن «أصل إخوانكم» وذلك بموت الأب، فإنه ينقطع أصل الأخ الواشج بينه وبين أخيه، والرواية الأولى أظهر.

١١٧ – ومن كلام له عليه السلام في حث أصحابه على مناصحته

الأصل: أَنْتُمُ ٱلْأَنْصَارُ عَلَى ٱلْحَقِّ، وَٱلْإِخْوَانُ فِي الدِّينِ، وَٱلْجُنَنُ يَوْمَ ٱلْبَأْسِ، وَٱلْبِطَانَةُ دُونَ النَّاسِ، بِكُمْ أَضْرِبُ المُدْبِرَ، وَأَرْجُو طَاعَةَ المُقْبِلِ، فَأَعِينُونِي بِمُنَاصَحَةٍ خَلِيَّةٍ مِنَ ٱلْغِشِّ، سَلِيمَةٍ مِنَ الرَّيْبِ، فَوَالله إِنِّي لَأَوْلَى النَّاسِ بالنَّاسِ!

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٥.

الشرح: الجنن جمع جُنّة، وهي ما يُستَر به. وبطانة الرجل: خواصّه وخالصته الذين لا يطوِي عنهم سرّه.

فإن قلت: أمّا ضربُه بهم المدبر فمعلوم، يعني الحرب، فما معنى قوله عليه السلام: «وأرجو طاعة المقبل»؟

قلت: لأن مَنْ ينضوِي إليه من المخالفين إذا رأى ما عليه شيعتُه وبطانتُه من الأخلاق الحميدة، والسيرة الحسنة، أطاعه بقلبه باطناً، بعد أن كان انضوى إليه ظاهراً.

واعلم أنّ هذا الكلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام للأنصار بعد فراغه من حرب الجمل، وقد ذكره المدائني والواقديّ في كتابيهما.

١١٨ - ومن كلام له عليه السلام وقد جمع الناس، وحضّهم على الجهاد، فسكتوا مليّاً، فقال عليه السلام: ما بالكم! امخرسون أنتم؟ فقال قوم منهم: يا أمير المؤمنين، إن سرت سرنا معك

الأصل: فقال عليه السلام: مَا بَالُكُمْ! لاَ سُدِّدْتُمْ لِرُشْدٍ! وَلاَ هُدِيتُمْ لِقَصْدٍ، أَفِي مِثْلِ هَذَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَخْرُجَ! وَإِنَّمَا يَخْرُجُ فِي مِثْلِ هَذَا رَجُلٌ مِمَّنْ أَرْضَاهُ مِنْ شجعانكم، وَذَوِي بَأْسِكُمْ، وَلاَ يَنْبَغِي لِي أَنْ أَدَعَ ٱلْجُنْدَ وَالمِصْرَ وَبَيْتَ المَالِ وَجِبَايَةَ ٱلْأَرْضِ، وَٱلْقَضَاءَ بَيْنَ المُسْلِمِينَ، وَالنَّظَرَ فِي حُقُوقِ المُطَالِبِينَ، ثُمَّ أَخْرُجَ فِي كَتِيبَةٍ أَتْبَعُ أُخْرَى، أَتَقَلْقَلُ تَقَلْقُلَ ٱلْقِدْحِ فِي ٱلْجَفِيرِ ٱلْفَارِغِ.

وَإِنَّمَا أَنَا قُطْبُ الرَّحَا، تَدُورُ عَلَيَّ وَأَنَا بِمكَانِي، فَإِذَا فَارَقْتُه ٱسْتَحَارَ مَدَارُهَا، وَٱضْطَرَبَ ثِفَالُهَا. هَذَا لَعَمْرُ ٱللهِ الرَّأْيُ السُّوءُ، وَٱللهِ لَوْلاَ رَجَائِي الشَّهَادَةَ عِنْدَ لِقَائِي ٱلْعَدُوَّ - وَلَوْ قَدْ حُمَّ لِي لِقَاؤُهُ - لَقَرَّبْتُ رِكَابِي، ثُمَّ شَخَصْتُ عَنْكُمْ فَلاَ أَطْلُبُكُمْ، مَا ٱخْتَلَفَ جَنُوبٌ وَشَمالٌ، طَعَّانِينَ عَيَّابِينَ، حَيَّادِين رَوَّاغِينَ.

إِنَّهُ لاَ غَنَاءَ فِي كَثْرَةِ عَدَدِكُمْ، مَعَ قِلَّةِ ٱجْتِمَاعِ قُلُوبِكُمْ، لَقَدْ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الطَّرِيقِ ٱلْوَاضِحِ الَّتِي لاَ يَهْلِكُ عَلَيْهَا إِلاَّ هَالِكٌ.

مَنِ ٱسْتَقَامَ فَإِلَى ٱلْجَنَّةِ، وَمَنْ زَلَّ فَإِلَى النَّارِ!

الشرح: سكتوا مليًّا، أي ساعة طويلة، ومضى مَليٌّ من النهار كذلك، قال الله تعالى: ﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾[1]. وأقمت عند فلان مُلاوة ومَلاوة ومِلاوة من الدهر، بالحركات الثلاث، أي حينا وبرهة، وكذلك أقمت مَلْوة ومُلوة ومِلوة، بالحركات الثلاث.

وقوله: «أمخرَسون أنتم؟» اسم المفعول من أخرسه الله، وخرس الرجل، والخرَس المصدر.

والكتيبة: قطعة من الجيش. والتقلقل: الحركة في اضطراب. والقِدْح: السهم. والجَفِير: الكنانة، وقيل وعاء للسهام أوسع من الكنانة.

واستحار مدارها: اضطرب، والمدار ها هنا مصدر. والثِّفال بكسر الثاء: جلد يبسط وتُوضع الرحا فوقه، فتطحن باليد ليسقط عليه الدقيق.

وحُمّ: أي قُدّر، والركاب: الإبل، وشخصت عنكم: خرجت:

ثم وصفهم بعيب الناس والطعن فيهم، وأنّهم يحيدون عن الحقّ وعن الحرب، أي ينحرفون ويروغون كما يروغ الثعلب.

ثم قال: إنه لا غناء عندكم وإن اجتمعتم بالأبدان مع تفرّق القلوب. والغَنَاء، بالفتح والمدّ: النفع.

وانتصب «طعانين» على الحال من الضمير المنصوب في «أطلبكم».

وهذا كلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام في بعض غارات أهل الشام على أطراف أعماله بالعراق بعد انقضاء أمر صِفّين والنهروان، وقد ذكرنا سببه ووقعته فيما تقدم.

فإن قلت: كيف قال: الطريق الواضح، فذكّره، ثم قال: «لا يهلك فيها» فأنثه؟

قلت: لأن الطريق يذكّر ويؤنث، تقول: الطريق الأعظم والطريق العظمى، فاستعمل اللغتين معاً.

---

١١٩ – ومن كلام له عليه السلام في الحث على الاستقامة

الأصل: تَاللهِ لَقَدْ عُلِّمْتُ تَبْلِيغَ ٱلرِّسَالاَتِ، وَإِتْمَامَ ٱلْعِدَاتِ، وَتَمَامَ ٱلْكَلِمَاتِ، وَعِنْدَنَا - أَهْلَ ٱلْبَيْتِ - أَبْوَابُ ٱلْحُكْمِ، وَضِيَاءُ ٱلأَمْرِ.

---

(١) سورة مريم، الآية: ٤٦.

أَلاَ وَإِنَّ شَرَائِعَ ٱلدِّينِ وَاحِدَةٌ، وَسُبُلَهُ قَاصِدَةٌ، مَنْ أَخَذَ بِهَا لَحِقَ وَغَنِمَ، وَمَنْ وَقَفَ عَنْهَا ضَلَّ وَنَدِمَ. ٱعْمَلُوا لِيَوْمٍ تُذْخَرُ لَهُ ٱلذَّخَائِرُ، وَتُبْلَى فِيهِ ٱلسَّرَائِرُ، وَمَنْ لاَ يَنْفَعُهُ حَاضِرُ لُبِّهِ فَعَازِبُهُ عَنْهُ أَعْجَزُ، وَغَائِبُهُ أَعْوَزُ. وَٱتَّقُوا نَاراً حرُّها شَدِيدٌ، وَقَعْرُهَا بَعِيدٌ، وَحِلْيَتُهَا حَدِيدٌ، وَشَرَابُهَا صَدِيدٌ.

أَلاَ وَإِنَّ ٱللِّسَانَ ٱلصَّالِحَ يَجْعَلُهُ ٱللهُ تَعَالَى لِلْمَرْءِ فِي ٱلنَّاسِ، خَيْرٌ لَهُ مِنَ ٱلْمَالِ يُورِثُهُ مَنْ لاَ يَحْمَدُهُ.

الشرح: رواها قوم «لقد عَلِمْتُ» بالتخفيف وفتح العين، والرواية الأولى أحسن، فتبليغ الرسالات تبليغ الشرائع بعد وفاة الرسول الله صلى الله عليه وآله إلى المكلّفين، وفيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾[1]، وإلى قول النبي صلى الله عليه وآله في قصة براءة: «لا يؤدّي عنّي إلا أنا ورجل منّي»[2].

وإتمام العِدات: إنجازها، وفيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾[3]، وإلى قول النبي صلى الله عليه وآله في حقه عليه السلام: «قاضي ديْني ومنجز مَوْعدي»[4].

وتمام الكلمات: تأويل القرآن، وفيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[5]، وإلى قول النبيّ صلى الله عليه وآله في حقه عليه السلام: «اللهم اهد قلبه، وثبّت لسانه»[6].

وخلاصة هذا، أنّه أقسم بالله أنه قد عَلم، أو علّم - على اختلاف الروايتين - أداء الشرائع إلى المكلّفين، والحكم بينهم بما أنزله الله، وعلِم مواعيد رسول الله التي وعد بها، فمنها ما هو يحدُث، كأخبار الملاحم والأمور المتجدّدة. وعلِم تمام كلمات الله تعالى، أي تأويلها وبيانها الذي يتمّ به، لأنّ في كلامه - تعالى - المجمَل الذي لا يستغني عن متّمم ومبيّن يوضحه.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٩.

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب: المناقب، باب: مناقب علي (٣٧١٩)، وابن ماجه، كتاب: المقدمة، باب: فضل علي بن أبي طالب (١١٩)، وأحمد في «مسنده» (١٧٠٥١).

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.

(٤) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٦٩/ ١٨٤.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ١١٥.

(٦) أخرجه أبو داود، كتاب: الأقضية، باب: كيف القضاء (٣٥٨٢)، وابن ماجه، كتاب: الأحكام، باب: ذكر القضاة (٢٣١٠)، وأحمد في «مسنده» (٨٨٤).

ثم كشف الغطاء وأوضح المراد فقال: «وعندنا - أهلَ البيت - أبواب الحكْم»، يعني الشرعيات والفتاوى. وضياء الأمر، يعني العقليات والعقائد، وهذا مقام عظيم لا يجسُر أحدٌ من المخلوقين أن يدّعيَه سواه عليه السلام، ولو أقدم أحد على ادّعائه غيره لكذب وكذبه الناس.

و«أهلَ البيت» منصوب على الاختصاص.

وسبُله قاصدة، أي قريبة سهلة، ويقال: بيننا وبين الماء ليلة قاصدة ورافهة، أي هيّنة المسير لا تَعَب فيها ولا بطء.

وتُبلَى فيه السرائر، أي تختبر.

ثم قال: من لا ينفعه لبّه الحاضر وعقله الموجود فهو بعدم الانتفاع بما هو غير حاضر ولا موجود من العقل عنده أوْلَى وأحرى، أي مَنْ لم يكن له من نفسه ومن ذاته وازع وزاجر عن البيح، فبعيد أن ينزَجر، وأن يرتدع بعقل غيره وموعظة غيره له كما قيل:

.... وزاجر من النَّفْس خيرٌ من عتاب العواذِلِ

ثم ذكر النار فحذّر منها.

وقوله: «حليتها حديد»، يعني القيود والأغلال.

ثم ذكر أنّ الذكْر الطيّب - يخلّفه الإنسان بين الناس - خير له من مالٍ يجمعه ويورّثه من لا يحمده، وجاء في الأثر أن أمير المؤمنين عليه السلام جاءه مخبرٌ فأخبرَه أن مالاً له قد انفجرت فيه عن خرَّارة، يبشِّره بذلك، فقال: بشِّر الوارث، بشِّر الوارث، يكررها، ثم وقف ذلك المال على الفقراء، وكتب به كتاباً في تلك الساعة.

---

١٢٠ - ومن كلام له عليه السلام وقد قام إليه رجل من أصحابه فقال: نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها، فما ندري أي الأمرين أرشد؟ فصفق عليه السلام إحدى يديه على الأخرى، ثم قال

الأصل: هَذا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ ٱلْعُقْدَةَ! أَمَا وَٱللهِ لَوْ أَنِّي حِينَ أَمَرْتُكُمْ بِمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ حَمَلْتُكُمْ عَلَى ٱلْمَكْرُوهِ ٱلَّذِي يَجْعَلُ ٱللهُ فِيهِ خَيْراً، فَإِنِ ٱسْتَقَمْتُمْ هَدَيْتُكُمْ، وَإِنِ ٱعْوَجَجْتُمْ قَوَّمْتُكُمْ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ تَدَارَكْتُكُمْ، لَكَانَتِ ٱلْوُثْقَى، وَلَكِنْ بِمَنْ وَإِلَى مَنْ! أُرِيدُ أَنْ أُدَاوِيَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ دَائِي، كَنَاقِشِ ٱلشَّوْكَةِ بِالشَّوْكَةِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ضَلْعَهَا مَعَهَا!

ٱللَّهُمَّ قَدْ مَلَّتْ أَطِبَّاءُ هَذَا ٱلدَّاءِ ٱلدَّوِيِّ، وَكَلَّتِ ٱلنَّزَعَةُ بِأَشْطَانِ ٱلرَّكِيِّ!

أَيْنَ ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ دُعُوا إِلَى ٱلْإِسْلَامِ فَقَبِلُوهُ، وَقَرَءُوا ٱلْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَهِيجُوا إِلَى ٱلْجِهَادِ

فَوَلِهوا وَلَهَ اللِّقَاحِ إلَى أَوْلاَدِهَا، وَسَلَبُوا السُّيُوفَ أَغْمَادَهَا، وَأَخَذُوا بِأَطْرَافِ الأَرْضِ زَحْفاً زَحْفاً، وَصَفًّا صَفًّا، بَعْضٌ هَلَكَ، وَبَعْضٌ نَجَا، لاَ يُبَشَّرُونَ بالأَحْيَاءِ، وَلاَ يُعَزَّوْنَ عَنِ المَوْتَى، مُرْهُ الْعُيُونِ مِنَ الْبُكَاءِ خُمْصُ الْبُطُونِ مِنَ الصِّيَامِ، ذُبُلُ الشِّفَاهِ مِنَ الدُّعَاءِ، صُفْرُ الأَلْوَانِ مِنَ السَّهَرِ، عَلَى وُجُوهِهِمْ غَبَرَةُ الخَاشِعِينَ، أُولئِكَ إِخْوَانِي الذَّاهِبُونَ، فَحَقٌّ لَنَا أَنْ نَظْمأَ إِلَيْهِمْ، وَنَعَضَّ الأَيْدِي عَلَى فِرَاقِهِمْ!

إِنَّ الشَّيْطَانَ يُسَنِّي لَكُمْ طُرُقَهُ، وَيُرِيدُ أَنْ يَحُلَّ دِينَكُمْ عُقْدَةً عُقْدَة، وَيُعْطِيَكُمْ بِالْجَمَاعَةِ الْفُرْقَةَ، وَبِالْفُرْقَةِ الْفِتْنَةَ، فَاصْدِفُوا عَنْ نَزَغَاتِهِ وَنَفَثَاتِهِ، وَاقْبَلُوا النَّصِيحَةَ مِمَّنْ أَهْدَاهَا إِلَيْكُمْ، وَاعْقِلُوهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ.

الشرح: هذه شبهة من شبهات الخوارج، ومعناها أنك نهيت عن الحكومة أولاً ثم أمرت بها ثانياً، فإن كانت قبيحة كنت بنهيك عنها مصيباً، وبأمرك بها مخطئاً، وإن كانت حسنة، كنتَ بنهيك عنها مخطئاً وبأمرك بها مصيباً، فلا بدّ من خطئك على كلِّ حال.

وجوابها أنّ للإمام أن يعمل بموجب ما يغلب على ظنّه من المصلحة، فهو عليه السلام لَمّا نهاهم عنها كان نهيهُ عنها مصلحة حينئذ، ولما أمرهم بها كانت المصلحة في ظنّه قد تغيّرت، فأمرهم على حسب ما تبدّل وتغيّر في ظنه، كالطبيب الذي ينهى المريض اليوم عن أمر ويأمره بمثله غداً.

وقوله: «هذا جزاء من ترك العقدة»، يعني الرأي الوثيق، وفي هذا الكلام اعتراف بأنه بان له وظهرَ فيما بعد أنّ الرأي الأصلح كان الإصرار والثبات على الحرب، وأن ذلك وإن كان مكروهاً، فإن الله تعالى كان يجعل الخيرة فيه، كما قال سبحانه: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1].

ثم قال: كنت أحملكم على الحرب وترك الالتفات إلى مكيدة معاوية وعمرو، مِنْ رفع المصاحف، فإن استقمتم لي اهتديتم بي، وإن لم تستقيموا فذلك ينقسم إلى قسمين: أحدهما أنْ تعوجوا، أي يقع منكم الالتواء، ويسيرٌ من العصيان، كفتور الهمة وقلة الجدّ في الحرب. والثاني التأني والامتناع المطلق من الحرب، فإن كان الأول قوّمْتكم بالتأديب والإرشاد وإرهاق الهمم والعزائم بالتبصير والوعظ والتحريض والتشجيع، وإن كان الثاني تداركت الأمر معكم: إمّا بالاستنجاد بغيركم من قبائل العرب وأهل خُراسان والحجاز، فكلّهم كانوا شيعتَه وقائلين بإمامته، أو بما أراه في ذلك الوقت من المصلحة التي تحكم بها الحال الحاضرة.

(١) سورة النساء، الآية: ١٩.

قال: لو فعلت ذلك لكانتْ هي العقدة الوثقى، أي الرأي الأصوب الأحزم.

فإن قلت: أفتقولون إنه أخطأ في العدول عن هذا الرأي؟

قلت: لا نقول إنه أخطأ بمعنى الإثم، لأنه إنما فعل ما تغلّب على ظنّه أنه المصلحة، وليس الواجب عليه إلا ذلك، ولكنه ترك الرأي الأصوب، كما قال الحسن: «هلاّ مضيت قُدُماً لا أبا لك!»، ولا يلحق الإثم من غلب على ظنّه في حكم السياسة أمر فاعتمده، ثم بان له أنّ الأصوب كان خلافه، وقد قيل إن قوله:

لَقَدْ عَثَرْتُ عَثْرَةً لا تَنجَبِرْ ... سَوْفَ أكِيس بَعْدَها وأستَمِرّ

وأجمع الرأي الشتيت المنتشرْ

إشارة إلى هذا المعنى، وقيل: فيه غير ذلك مما قدمنا ذكره قبل.

وقال شيخنا أبو عثمان الجاحظ رضي الله عنه: مَنْ عَرَفه عرف أنه غيرُ ملوم في الانقياد معهم إلى التحكيم، فإنّه ملّ من القتل وتجريد السيف ليلاً ونهاراً، حتى ملّت الدماءُ من إراقته لها، وملّت الخيل من تقحّمه الأهوالَ بها، وضَجِر من دوام تلك الخطوب الجليلة، والأرزاء العظيمة، واستلاب الأنفس، وتطاير الأيدي والأرجل بين يديه، وأكلت الحربُ أصحابه وأعداءه، وعُطّلت السواعد، وخَدِرت الأيدي التي سلمت من وقائع السيوف بها، ولو أنّ أهلَ الشام لم يستعفوا من الحرب، ويستقيلوا من المقارعة والمصادمة، لأدّت الحال إلى قعودِ الفيلقيْن معاً، ولزومهم الأرض وإلقائهم السلاح، فإنّ الحال أفضت بعظمها وهولها إلى ما يعجز اللسان عن وصفه.

واعلم أنه عليه السلام قال هذا القول، واستدرك بكلام آخر حذَراً أن يثبِتَ على نفسه الخطأ في الرأي، فقال: لقد كان هذا رأياً لو كان لي من يطيعني فيه، ويعمل بموجبه، وأستعين به على فعله، ولكن بمنْ كنت أعمل ذلك، وإلى مَنْ أخلد في فعله! أمّا الحاضِرون لنصري فأنتم وحالكم معلومة في الخلاف والشّقاق والعصيان، وأمّا الغائبون من شيعتي كأهل البلاد النائية فإلى أن يصلوا يكون قد بلغ العدوّ غرضه منّي، ولم يبقَ مَنْ أخلُد إليه في إصلاح الأمر وإبرام هذا الرأي الذي كان صواباً لو اعتُمِد، إلا أنْ أستعين ببعضكم على بعض، فأكون كناقش الشوكة بالشوكة، وهذا مثل مشهور: «لا تنقش الشوكة بالشوكة». فإن ضَلْعها لها، والضلع الميل، يقول: لا تستخرج الشوكة النائبة في رجلك بشوكه مثلها، فإن إحداهما في القوّة والضعف كالأخرى، فكما أنّ الأولى انكسرت لَمّا وطئتَها فدخلتْ في لحمك، فالثانية إذا حاولت استخراج الأولى بها تنكسر، وتلج في لحمك.

ثم قال: «اللّهمّ إن هذا الداء الدويّ، قد ملّت أطباؤه»، والدويّ: الشديد، كما تقول: ليلٌ أليل.

كلّت النَّزَعَة، جمع نازع، هو الذي يستقي الماء، والأشطان: جمع شطَن، وهو الحبل. والرَّكِيّ: الآبار، جمع رَكِيّة، وتجمع أيضاً على ركايا.

ثم قال: أين القوم! هذا كلام متأسّفٍ على أولئك، متحسّر على فقدهم.

والولَه: شدّة الحب حتى يذهب العقل، وَلِهَ الرجل.

واللِّقاح، بكسر اللام: الإبل، والواحدة لقوح، وهي الحلوب، مثل قِلاص وقلوص.

قوله: «وأخذوا بأطراف الأرض»، أي أخذوا على الناس بأطراف الأرض، أي حصروهم، يقال لمن استولى على غيره وضيّق عليه: قد أخذ عليه بأطراف الأرض، قال الفرزدق:

أَخَذْنَا بِأَطْرافِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمُ ... لَنَا قَمَرَاهَا والنُّجُومُ الطَّوالِعُ

وزحْفاً زحْفاً، منصوب على المصدر المحذوف الفعل، أي يزحفون زحفاً، والكلمة الثانية تأكيد للأولى. وكذلك قوله: «وصَفًّا صَفًّا».

ثم ذكر أنّ بعض هؤلاء المتأسّف عليهم هلك، وبعض نجا، وهذا ينحي قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾(1).

ثم ذكر أنّ هؤلاء قوم وقَذَتْهم العبادة، وانقطعوا عن الناس، وتجرّدوا عن العلائق الدنيوية، فإذا ولد لأحدهم مولود لم يبشّر به، وإذا مات له ميّت لم يعزَّ عنه.

ومَرِهت عين فلان، بكسر الراء، إذا فسدت لترك الكُحْل، لكنّ أمير المؤمنين عليه السلام جعل مَرَهَ عيون هؤلاء من البكاء من خوف خالقهم سبحانه. وذكر أن بطونهم ضامرة من خماص الصوم، وشفاههم ذابلة من الدعاء، ووجوههم مصفرّة من السَّهر، لأنهم يقومون الليل وعلى وجوههم غَبَرة الخشوع.

ثم قال: «أولئك إخواني الذاهبون». فإن قلت: مَنْ هؤلاء الذين يشير - عليه السلام - إليهم؟

قلت: هم قوم كانوا في نَأْناة الإسلام وفي زمان ضعفه وخموله أربابَ زهد وعبادة وجهاد شديد في سبيل الله، كمصعب بن عمير من بني عبد الدّار، وكسعد بن معاذ من الأوس، وكجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، وغيرهم، ممن استشهد من الصالحين أرباب الدين والعبادة والشجاعة في يوم أُحُد، وفي غيره من الأيام في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله، وكعمّار، وأبي ذَرّ، والمقداد، وسلمان، وخَبّاب، وجماعة من أصحاب الصُّفّة وفقراء المسلمين أرباب العبادة، الذين قد جمعوا بين الزهد والشجاعة. وقد جاء في الأخبار الصحيحة أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إن الجنة لتشتاقُ إلى أربعة: عليّ، وعمار، وأبي ذَرّ،

(1) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.

والمقداد»[1]، وجاء في الأخبار الصحيحة أيضاً، أنّ جماعة من أصحاب الصُّفّة مرّ بهم أبو سفيان بن حرب بعد إسلامه فعضُّوا أيديَهم عليه، وقالوا: وا أسفاه كيف لم تأخذ السيوف مأخذها من عُنق عدوّ الله! وكان معه أبو بكر، فقال لهم: أتقولون هذا لسيّد البطحاء؟ فرفع قولُه إلى رسول الله ﷺ فأنكره، وقال لأبي بكر: «انظر لا تكون أغضبتَهم، فتكون قد أغْضبت ربك»[2] فجاء أبو بكر إليهم وترضّاهم وسألهم أن يستغفروا له، فقالوا: غفر الله لك.

قوله: «فحَقّ لنا»، يقالُ: حَقّ له أن يفعل كذا، وهو حقيق به، وهو محقوق به، أي خليقٌ له، والجمع أحقّاء ومحقوقون.

ويسنّي: يسهّل. وصدف عن الأمر، يصدِف، أي انصرف عنه. ونزغات الشيطان: ما ينزَغ به، بالفتح، أي يفسد ويغري. ونفثاته: ما ينفِث به وينفُث، بالضم والكسر، أي يخيّل ويسحر.

واعقلوها على أنفسكم، أي اربطوها والزموها.

١٢١ - ومن كلام له عليه السلام قاله للخوارج
وقد خرج إلى معسكرهم وهم مقيمون على إنكار الحكومة، فقال عليه السلام:

الأصل: أَكُلُّكُمْ شَهِدَ مَعَنَا صِفِّينَ؟ فَقَالُوا: مِنَّا مَنْ شَهِدَ، وَمِنَّا مَنْ لَمْ يَشْهَدْ. قَالَ: فَامْتَازُوا فِرْقَتَيْنِ، فَلْيَكُنْ مَنْ شَهِدَ صِفِّينَ فِرْقَةً، وَمَنْ لَمْ يَشْهَدْهَا فِرْقَةً، حَتَّى أُكَلِّمَ كُلاًّ مِنْكُمْ بِكَلاَمِهِ. وَنَادَى النَّاسَ، فَقَالَ: أَمْسِكُوا عَنِ الْكَلاَمِ، وَأَنْصِتُوا لِقَوْلِي، وَأَقْبِلُوا بِأَفْئِدَتِكُمْ إِلَيَّ، فَمَنْ نَشَدْنَاهُ شَهَادَةً فَلْيَقُلْ بِعِلْمِهِ فِيهَا. ثُمَّ كَلَّمَهُمْ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بِكَلاَمٍ طَوِيلٍ، مِنْ جُمْلَتِهِ أَنْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ:

أَلَمْ تَقُولُوا عِنْدَ رَفْعِهِمُ الْمَصَاحِفَ حِيلَةً وَغِيلَةً، وَمَكْراً وَخَدِيعَةً: إِخْوَانُنَا وَأَهْلُ دَعْوَتِنَا، اسْتَقَالُونَا وَاسْتَرَاحُوا إِلَى كِتَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ، فَالرَّأْيُ الْقَبُولُ مِنْهُمْ، وَالتَّنْفِيسُ عَنْهُمْ، فَقُلْتُ لَكُمْ: هٰذَا أَمْرٌ ظَاهِرُهُ إِيمَانٌ، وَبَاطِنُهُ عُدْوَانٌ، وَأَوَّلُهُ رَحْمَةٌ، وَآخِرُهُ نَدَامَةٌ، فَأَقِيمُوا عَلَى شَأْنِكُمْ، وَالْزَمُوا طَرِيقَتَكُمْ، وَعَضُّوا عَلَى الْجِهَادِ بِنَوَاجِذِكُمْ، وَلاَ تَلْتَفِتُوا إِلَى نَاعِقٍ نَعَقَ، إِنْ أُجِيبَ أَضَلَّ، وَإِنْ تُرِكَ ذَلَّ.

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٦٠٤٥).
(٢) أخرجه مسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: في فضائل سلمان وصهيب وبلال (٢٥٠٤)، وأحمد في «مسنده» (٢٠١١٧).

فَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ ٱللهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ، وَإِنَّ ٱلْقَتْلَ لَيَدُورُ عَلَى ٱلْآبَاءِ وَٱلْأَبْنَاءِ وَٱلْإِخْوَانِ وَٱلْقَرَابَاتِ، فَمَا نَزْدَادُ عَلَى كُلِّ مُصِيبَةٍ وَشِدَّةٍ إِلاَّ إِيمَاناً وَمُضِيًّا عَلَى ٱلْحَقِّ، وَتَسْلِيماً لِلأَمْرِ، وَصَبْراً عَلَى مَضَضِ ٱلْجِرَاحِ.

وَلٰكِنَّا إِنَّمَا أَصْبَحْنَا نُقَاتِلُ إِخْوَانَنَا فِي ٱلْإِسْلاَمِ عَلَى مَا دَخَلَ فِيهِ مِنَ الزَّيْغِ وَالاعْوِجَاجِ، وَالشُّبْهَةِ وَالتَّأْوِيلِ، فَإِذَا طَمِعْنَا فِي خَصْلَةٍ يَلُمُّ ٱللهُ بِهَا شَعَثَنَا، وَنَتَدَانَى بِهَا إِلَى ٱلْبَقِيَّةِ فِيمَا بَيْنَنَا، رَغِبْنَا فِيهَا، وَأَمْسَكْنَا عَمَّا سِوَاهَا!

الشرح: هذا الكلام يتلُو بعضه بعضاً، ولكنه ثلاثة فصول لا يلتصِق أحدها بالآخر، وهذه عادة الرضيّ، تراه ينتخب من جملة الخطبة الطويلة كلماتٍ فصيحة، يوردها على سبيل التتالي، وليست متتالية حين تكلّم بها صاحبها، وسنقطع كلّ فصل منها عن صاحبه إذا مررنا على مَتْنها.

قوله: «إلى معسكَرهم» الكاف مفتوحة، ولا يجوز كسرها، وهو موضع العسكَر ومحطّه.

وَشِهد صفين: حَضَرها، قال تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ﴾(١).

قوله: «فامتازوا: أي انفردوا»، قال تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾(٢).

قوله: «حتى أكلّم كلًّا منكم بكلامه»، أي بالكلام الذي يليق به.

والغيلة: الخداع. والناعق: المصوّت.

قوله: «إن أجيب ضلّ، وإن ترك ذلّ. . .» هو آخر الفصل الأول. وقوله: «ضلّ»، أي ازداد ضلالاً، لأنه ضلّ قبل أن يجاب.

فأما قوله: «فلقد كنا مع رسول الله ﷺ»، فهو من كلام آخر، وهو قائم بنفسه، إلى قوله: «وصبرا على مضض الجراح»، فهذا آخر الفصل الثاني.

فأما قوله: «لكنا إنما أصبحنا»، فهو كلام ثالث غير منوط بالأولين ولا ملتصق بهما، وهو في الظاهر مخالف ومناقض للفصل الأول، لأنّ الفصل الأول فيه إنكار الإجابة إلى التحكيم، وهذا يتضمّن تصويبها، وظاهر الحال أنّه بعد كلام طويل. وقد قال الرضيّ رحمه الله في أول الفصل: إنه من جملة كلام طويل، وإنه لَمّا ذكر التحكيم، قال ما كان يقوله دائماً، وهو أنّي إنما حكّمت على أن نعمَل في هذه الواقعة بحكْم الكتاب، وإن كنت أحارب قوماً أدخلوا في

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.
(٢) سورة يٰس، الآية: ٥٩.

الإسلام زيغاً وأحدثوا به اعوجاجاً، فلمّا دعوني إلى تحكيم الكتاب أمسكْتُ عن قتلهم، وأبقيْت عليهم لأني طمعت في أمرٍ يُلَمُّ به شَعَث المسلمين، ويتقاربون بطريقه إلى البقية، وهي الإبقاء والكفّ.

فإن قلت: إنه قد قال: «نقاتل إخواننا المسلمين»، وأنتم لا تطلقون على أهل الشام المحاربين له لفظة «المسلمين»؟

قلت: إنّا وإن كنا نذهب إلى أنّ صاحب الكبيرة لا يسمى مؤمناً ولا مسلماً، فإنا نجيز أن يطلق عليه هذا إذا قصد به تمييزه عن أهل الذمّة وعابدي الأصنام، فيطلق مع قرينة حال أو لفظ يخرجه عن أن يكون مقصوداً به التعظيم والثناء والمدح، فإن لفظة «مسلم» و«مؤمن» تستعمل في أكثر الأحوال كذلك، وأمير المؤمنين عليه السلام لم يقصد بذلك إلا تمييزهم من كفار العرب وغيرهم من أهل الشِّرْك، ولم يقصد مدحَهم بذلك، فلم ينكر مع هذا القصد إطلاق لفظ المسلمين عليهم.

١٢٢ - ومن كلام له عليه السلام قاله لأصحابه في ساعة الحرب

الأصل: وَأَيُّ ٱمْرِىءٍ مِنْكُمْ أَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ رِبَاطَةَ جَأْشٍ عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَرَأَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِهِ فَشَلاً، فَلْيَذُبَّ عَنْ أَخِيهِ بِفَضْلِ نَجْدَتِهِ الَّتِي فُضِّلَ بِهَا عَلَيْهِ، كَمَا يَذُبُّ عَنْ نَفْسِهِ، فَلَوْ شَاءَ ٱللهُ لَجَعَلَهُ مِثْلَهُ.

إِنَّ الْمَوْتَ طَالِبٌ حَثِيثٌ لاَ يَفُوتُهُ الْمُقِيمُ، وَلاَ يُعْجِزُهُ ٱلْهَارِبُ.

إِنَّ أَكْرَمَ الْمَوْتِ ٱلْقَتْلُ، وَٱلَّذِي نَفْسُ ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ، لَأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مِيتَةٍ عَلَى ٱلْفِرَاشِ فِي غَيْرِ طَاعَةِ ٱللهِ!

الشرح: أحسّ: علم ووجد. ورِباطة جاش، أي شدة قَلْب: والماضي «رَبَط»، كأنه يربط نفسه عن الفرار. والمرويّ: «رِباطة» بالكسر، ولا أعرفه نقلاً وإنما القياس لا يأباه، مثل عَمِر عِمارة، وخَلَب خِلابة.

والفشل: الجبن. وذبّ الرجل عن صاحبه، أي أكثر الذبّ، وهو الدفع والمنع. والنَّجدة: الشجاعة. والحثيث: السريع، وفي بعض الروايات: «فليذبّ عن صاحبه» بالإدغام، وفي بعضها «فليذبُبْ» بفك الإدغام. والميتة، بالكسر: هيئة الميّت كالجِلْسة: والرِّكْبة هيئة الجالس

والراكب، يقال: مات فلان مِيتة حسنةً، والمرويّ في «نهج البلاغة» بالكسر في أكثر الروايات، وقد روي: «من موتة» وهو الأليق، يعني المرّة الواحدة، ليقع في مقابلة الألف.

واعلم أنّه عليه السلام أقسم أنّ القتل أهونُ من الموت حَتْف الأنف، وذلك على مقتضى ما منحه الله تعالى من الشجاعة الخارقة لعادة البشر، وهو عليه السلام يحاول أن يحضّ أصحابه، ويحرّضهم، ليجعل طباعهم مناسبة لطباعه، وإقدامَهم على الحرب مماثلاً لإقدامه، على عادة الأمراء في تحريض جندهم وعسكرهم، وهيهات! إنما هو كما قال أبو الطيب:

يكلّف سيفُ الدولة الجيشَ هَمَّهُ وَقَدْ عَجَزَتْ عَنْهُ الجيوشُ ٱلْخَضَارِمُ[1]

وَيَطْلُبُ عِنْدَ النَّاسِ مَا عِنْد نفسهِ وذلك ما لا تدَّعيهِ الضراغم

ليست النفوس كلّها من جوهر واحدٍ، ولا الطباع والأمزجة كلّها من نوع واحدٍ، وهذه خاصيّة توجد لمن يصطفيه الله تعالى من عباده، في الأوقات المتطاولة، والدهور المتباعدة، وما اتصل بنا نحن من بعد الطوفان، فإن التواريخ من قبل الطوفان - مجهولة عندنا - أنّ أحداً أعطي من الشجاعة والإقدام ما أعطيه هذا الرجل من جميع فرق العالم على اختلافها، من الترك والفرس والعرب والروم وغيرهم، والمعلوم من حاله أنه كان يؤثر الحرْب على السلم، والموت على الحياة، والموت الذي كان يطلبه ويؤثره، إنما هو القتل بالسيف، لا الموت على الفراش، كما قال الشاعر:

لو لم يمتْ بين أطرافِ الرماح إذاً لمات - إذْ لم يمتْ - من شدَّة الحَزَنِ

وكما قال الآخر:

يستعذبون مناياهم كأنّهمُ لا ييأسون من الدنيا إذا قتلوا

فإن قلت: فما قولك فيما أقسم عليه: هل ألف ضربة بالسيف أهون ألماً على المقتول من موتة واحدة على الفراش بالحقيقة، أم هذا قول قاله على سبيل المبالغة والتجوّز، ترغيباً لأصحابه في الجهاد؟

قلت: الحالف يحلف على أحد أمرين: أحدهما أن يحلِف على ظنّه واعتقاده، نحو أن يحلف أنّ زيداً في الدار، أي أنا حالف ومقسم على أنّي أظن أن زيداً في الدار، أو أني أعتقد كون زيد في الدار. والثاني أن يحلِف، لا على ظنّه، بل يحلِف على نفس الأمر في الخارج، فإن حملنا قَسَم أمير المؤمنين عليه السلام على المحمل الأول فقد اندفع السؤال، لأنه عليه السلام قد كان يعتقد ذلك، فحلف أنه يعتقد وأنّه يظن ذلك، وهذا لا كلام فيه، وإن حملناه على الثاني فالأمر في الحقيقة يختلف، لأنّ المقتول بسيف صارمٍ معجّل للزهوق لا يجد من الألم وقت الضربة ما يجده الميت دون النزع من المدّ والكفّ، نعم قد يجد المقتولُ قبل الضربة ألم التوقّع لها، وليس كلامنا في ذلك، بل في ألم الضَّرْبة نفسها، وألف سيف صارم مثل سيف واحد، إذا

فرضنا سرعة الزُّهوق. وأما في غير هذه الصورة، نحو أن يكون السيف كالاً، وتتكرر الضربات به، والحياة باقية بعد، وقايسنا بينه وبين ميّت يموت حَتْف أنفه موتاً سريعاً، إمّا بوقوف القوّة الغازية كما يموت الشيوخ، أو بإسهال ذريع تسقط معه القوة، ويبقى العقل والذهن، إلى وقت الموت، فإن الموت ها هنا أهون وأقلّ ألماً، فالواجب أن يحمَل كلام أمير المؤمنين عليه السلام إمّا على جهة التحريض، فيكون قد بالغ كعادة العرب والخطباء في المبالغات المجازية، وإما أن يكون أقسم على أنّه يعتقد ذلك، وهو صادق فيما أقسم، لأنه هكذا كان يعتقد بناء على ما هو مركوز في طبعه من محبّة القتال، وكراهية الموت على الفراش. وقد روي أنه قيل لأبي مسلم الخُراساني: إن في بعض الكتب المنزلة: مَنْ قَتَل بالسيف فبالسيف يُقتَل، فقال: القتل أحبّ إليّ من اختلاف الأطباء، والنظر في الماء، ومقاساة الدواء والداء، فذُكِر ذلك للمنصور بعد قتل أبي مسلم، فقال: قد أبلغناه محبّته!

١٢٣ – ومن كلام له عليه السلام في توبيخ أصحابه ووصفهم بالجبن

الأصل: وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكُمْ تَكِشُّونَ كَشِيشَ ٱلضِّبَابِ، لاَ تَأْخُذُونَ حَقًّا، وَلاَ تَمْنَعُونَ ضَيْماً، قَدْ خُلِّيتُمْ وَٱلطَّرِيقَ، فَالنَّجَاةُ لِلْمُقْتَحِمِ، وَٱلْهَلَكَةُ لِلْمُتَلَوِّمِ.

الشرح: الكشيش: الصوت يشوبه خَوَر، مثل الخشخشة، وكَشِيش الأفعى: صوتها من جلدها لا من فمها، وقد كشَّت تكِشّ، قال الراجز:

كَشِيش أفْعَى أجمعت لعضّ ... وهي تحكُّ بعضها ببعضِ

يقرّع عليه السلام أصحابه بالجبن والفشل، ويقول لهم: لكأنّي أنظر إليكم وأصواتكم غمغمة بينكم من الهلع الذي قد اعتراكم، فهي أشبه شيء بأصوات الضِّباب المجتمعة.

ثم أكّد وصف جبنهم حقًّا وخوفهم، فقال: لا تأخذون حقًّا، ولا تمنعون ضيماً، وهذه غاية ما يكون من الذلّ.

ثم ترك هذا الكلام وابتدأ فقال: قد خلّيتم وطريق النجاة عند الحرب، ودللتم عليها، وهي أن تقتحموا وتلجوا، ولا تهنوا، فإنكم مَتى فعلتم ذلك نَجَوْتُمْ، ومتى تلوّمتم وتثبطتم وأحجمتم هلكتم، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

تأخَّرْتُ أسْتَبْقي الحياةَ فلم أجِدْ ... لِنَفْسِي حَيَاةً مثل أن أتقدّما

وقال قَطَرِيّ بن الفُجَاءة:

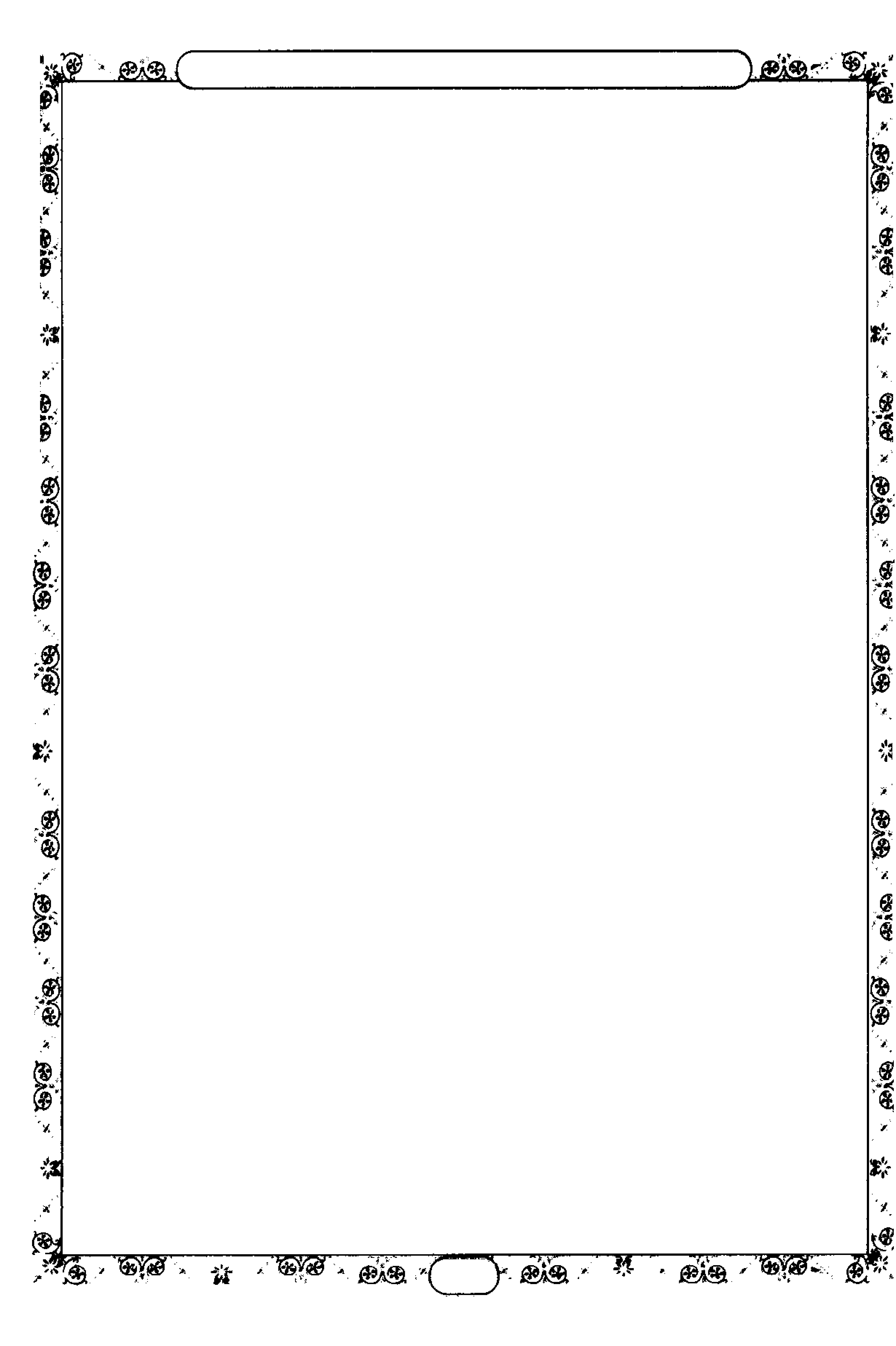
لا يـركـنَـنْ أحـدٌ إلـى الإحـجـام يـومَ الـوغـى مـتـخـوّفـاً لِـحـمـامِ
فـلـقـد أرانـي لـلـرمـاح دريـئـةً مِـنْ عـن يـمـيـنـي تـارةً وأمـامـي
حَـتّى خضبْتُ بما تحدّر من دمِي أكـنـاف سَرْجي أو عِـنـان لـجـامـي
ثم انصرفتُ وقد أصَبْتُ ولم أصبْ جَـذَع الـبـصـيـرةِ قـارحَ الإقـدام

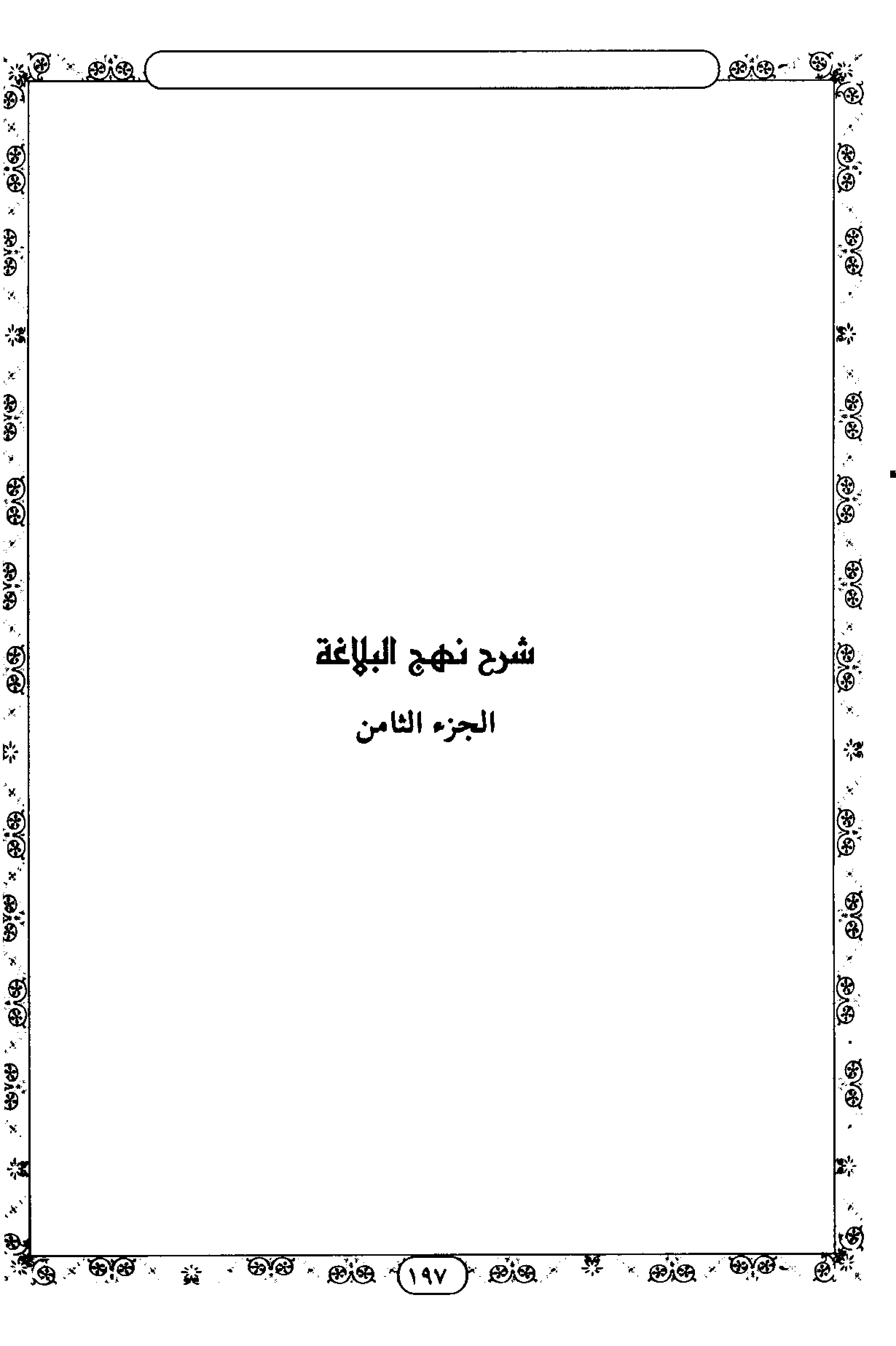
وكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد: واعلم أنّ عليك عيوناً من الله ترعاك وتراك، فإذا لقيتَ العدوّ، فاحرص على الموت تُوهب لك الحياة، ولا تغسل الشهداء من دمائهم، فإن دم الشهيد نورٌ له يوم القيامة. وقال أبو الطيب:

يُقْتَلُ العاجزُ الجبانُ وَقَدْ يَعْجَزُ عـن قَـطْـعِ بُـخْـنُـقِ الـمـولـود
ويـوقّـى الـفـتـى الـمُـخَـشُّ وقـد خَـوّضَ فـي مـاء لـبّـةِ الـصِّـنْـدِيـدِ

ولهذا المعنى الذي أشار إليه عليه السلام سبب معقول، وهو أن المقدّم على خصمه يرتاع له خصمه، وتنخذل عنه نفسه، فتكون النجاة والظفر للمقدّم، وأما المتلوّم عن خصمه، المحجم المتهيّب له، فإن نفس خصمه تقوى عليه، ويزداد طمعه فيه، فيكون الظفر له، ويكون العطب والهلاك للمتلوّم الهائب.

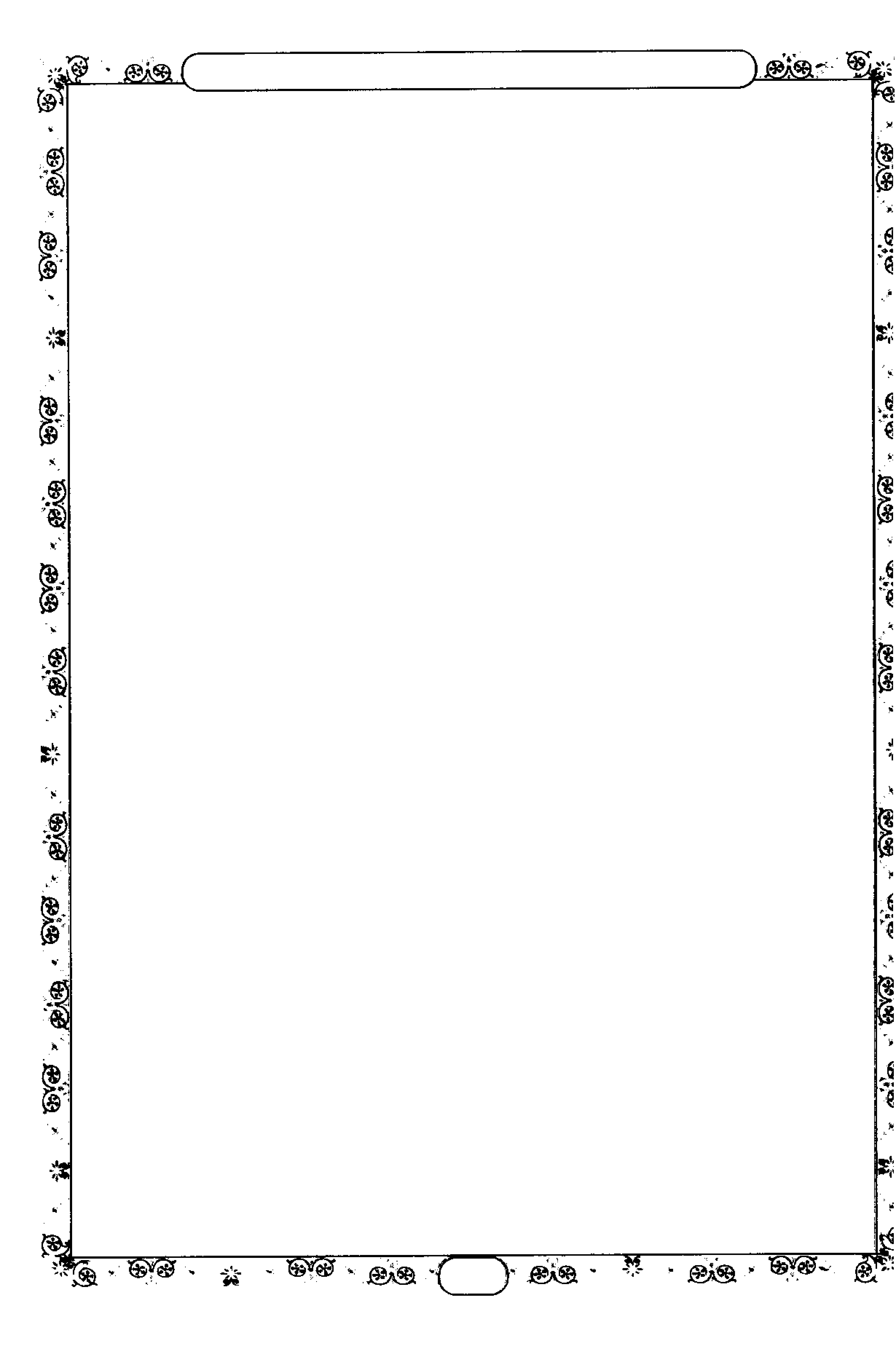
تم الجزء السابع من شرح نهج البلاغة ويليه الجزء الثامن





شرح نهج البلاغة

الجزء الثامن



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل

١٢٤ - ومن كلام له عليه السلام في حث أصحابه على القتال

الأصل: فَقَدِّمُوا الدَّارِعَ، وَأَخِّرُوا الْحَاسِرَ، وَعَضُّوا عَلَى الْأَضْرَاسِ، فَإِنَّهُ أَنْبَى لِلسُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ، وَالْتَوُوا فِي أَطْرَافِ الرِّمَاحِ، فَإِنَّهُ أَمْوَرُ لِلأَسِنَّةِ، وَغُضُّوا الْأَبْصَارَ، فَإِنَّهُ أَرْبَطُ لِلْجَأْشِ، وَأَسْكَنُ لِلْقُلُوبِ، وَأَمِيتُوا الْأَصْوَاتَ، فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشَلِ. وَرَايَتَكُمْ فَلاَ تُمِيلُوهَا وَلاَ تُخِلُّوهَا، وَلاَ تَجْعَلُوهَا إِلاَّ بِأَيْدِي شُجْعَانِكُمْ، وَالْمَانِعِينَ الذِّمَارَ مِنْكُمْ، فَإِنَّ الصَّابِرِينَ عَلَى نُزُولِ الْحَقَائِقِ هُمُ الَّذِينَ يَحُفُّونَ بِرَايَاتِهِمْ، وَيَكْتَنِفُونَهَا: حِفَافَيْهَا، وَوَرَاءَهَا، وَأَمَامَهَا، لاَ يَتَأَخَّرُونَ عَنْهَا فَيُسْلِمُوهَا، وَلاَ يَتَقَدَّمُون عَلَيْهَا فَيُفْرِدُوهَا.

الشرح: الدارع: لابس الدِّرْع، والحاسر: الذي لا دِرْع عليه ولا مِغْفَر، أمرَهم عليه السلام بتقديم المستلئِم على غير المستلئِم، لأنّ سَوْرة الحرب وشدّتها تلقى وتصادف الأوّل فالأوّل، فواجب أن يكون أوّلُ القوم مستلئماً. وأن يعضُّوا على الأضراس، وقد تقدم شرح هذا، وقلنا: إنه يجوز أن يبدَأ وهم بالحنَق والجدّ، ويجوز أن يريد أنّ العضّ على الأضراس يشدّ شؤون الدماغ ورباطاته، فلا يبلغ السيف منه مبلغه لو صادفه رِخْواً. وأمرهم بأن يلتووا إذا طعنوا، لأنهم إذا فعلوا ذلك، فبالحرَى أن يمورَ السِّنان، أيْ يتحرّك عن موضع الطعنة، فيخرج زالقاً، وإذا لم يلتووا لم يمرّ السّنان، ولم يتحرّك عن موضعه فيخرق وينفذ، فيقتل.

وأمرهم بغضّ الأبصار في الحرب، فإنه أربَطُ للجأش[1]، أي أثبت للقلب، لأن الغاضّ بصره في الحرب أحْرَى ألا يُدهش ولا يرتاع لهوْل ما ينظر.

وأمرهم بإماتة الأصوات وإخفائها، فإنه أطرد للفشل، وهو الجبن والخوف، وذلك لأن الجبان يرعد ويبرُق، والشجاع صامت.

وأمرهم بحفظ رايتهم ألاّ يميلوها، فإنّها إذا مالت انكسر العسكر، لأنهم إنما ينظرون إليها

---

(١) الجأش: رُواع القلب إذا اضطرب عند الفزع. القاموس المحيط، مادة (جاش).

وألاّ يُخلوها من محامٍ عنها، وألاّ يجعلوها بأيدي الجبناء وذوي الهلَع منهم كي لا يَخيِموا ويجبنوا عن إمساكها.

والذِّمار: ما وراء الرجل مما يحقّ عليه أن يحميَه، وسمّي ذِماراً، لأنه يجب على أهله التذمّر له، أي الغضب.

والحقائق: جمع حاقّة، وهي الأمر الصعب الشديد، ومنه قول الله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢﴾[1]، يعني الساعة.

ويكتنفونها: يحيطون بها. وحِفَافاها: جانباها، ومنه قول طَرَفة:

كأنّ جناحَيْ مَضْرَحيٍّ تَكَنَّفا حِفافَيْهِ شُكَّا في العَسيبِ بِمِسْرَدِ

الأصل: أَجْزَأَ ٱمْرُؤٌ قِرْنَهُ، وَآسَى أَخَاهُ بِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَكِلْ قِرْنَهُ إِلَى أَخِيهِ، فَيَجْتَمِعَ عَلَيْهِ قِرْنُهُ وَقِرْنُ أَخِيهِ. وَٱيْمُ ٱللهِ لَئِنْ فَرَرْتُمْ مِنْ سَيْفِ ٱلْعَاجِلَةِ، لاَ تَسْلَمُون مِنْ سَيْفِ ٱلْآخِرَةِ، وَأَنْتُمْ لَهَامِيمُ ٱلْعَرَبِ، وَٱلسَّنَامُ ٱلْأَعْظَمُ.

إِنَّ فِي ٱلْفِرَارِ مَوْجِدَةَ ٱللهِ وَٱلذُّلَّ اللاَّزِمَ، وَٱلْعَارَ ٱلْبَاقِيَ. وَإِنَّ ٱلْفَارَّ لَغَيْرُ مَزِيدٍ فِي عُمُرِهِ، وَلاَ مَحْجُوزٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَوْمِهِ.

مَنْ رائحٌ إِلَى ٱللهِ كَالظَّمْآنِ يَرِدُ المَاءَ! ٱلْجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرَافِ ٱلْعَوَالِي.

ٱلْيَوْمَ تُبْلَى ٱلْأَخْبَارُ.

وَٱللهِ لَأَنا أَشْوَقُ إِلَى لِقَائِهِمْ مِنْهُمْ إِلَى دِيَارِهِمْ. ٱللَّهُمَّ فَإِنْ رَدُّوا ٱلْحَقَّ فَافْضُضْ جَمَاعَتَهُمْ، وَشَتِّتْ كَلِمَتَهُمْ، وَأَبْسِلْهُمْ بِخَطَايَاهُمْ.

الشرح: من الناس من يجعل هذه الصيغة وهي صيغة الإخبار بالفعل الماضي، في قوله: «أجزأ امرؤ قِرْنَه» في معنى الأمر، كأنه قال: ليُجْزِئ كلّ امرئ قِرنَه، لأنه إذا جاز الأمر بصيغة الإخبار في المستقبل، جاز الأمر بصيغة الماضي، وقد جاز الأول، نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾[2]، فوجب أن يجوز الثاني. ومن النّاس من قال: معنى ذلك: هلاّ أجزأ امرؤ قرنه! فيكون تحضيضاً محذوف الصيغة للعلم بها. وأجزأ بالهمزة، أي كفى. وقِرْنك: مقارنك في القتال أو نحوه.

---

(١) سورة الحاقة، الآيتان: ١-٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

وآسى أخاه بنفسه مؤاساةً، بالهمز، أي جعله أسوة نفسِه، ويجوز: واسيتُ زيداً بالواو، وهي لغة ضعيفة. ولم يكلْ قِرنه إلى أخيه، أي لم يدع قِرْنه ينضمّ إلى قِرْن أخيه، فيصيرا معاً في مقاومة الأخ المذكور، وذلك قبيحٌ محرّم، مثاله: زيد وعمرو مسلمان، ولهما قِرْنان كافران في الحرْب، لا يجوز لزيد أن ينكُلَ عن قِرْنه فيجتمع قِرْنُه وقِرْن عمرو على عمرو.

ثم أقسم عليه السلام أنّهم إن سلموا من الألم النازل بهم لو قُتِلُوا بالسيف في الدنيا، فإنهم لم يسلموا من عقاب الله تعالى في الآخرة، على فِرارهم وتخاذُلهم، وسمّي ذلك سيفاً على وجه الاستعارة وصناعة الكلام، لأنه قد ذكر سيف الدنيا، فجعل ذلك في مقابلته.

واللهاميم: السادات الأجواد من الناس، والجياد من الخيل، الواحد لُهموم. والسَّنام الأعظم، يريد شَرَفهم وعلوّ أنسابهم، لأن السَّنام أعلى أعضاء البعير.

وموجِدة الله: غضبه وسَخَطه.

ويروى: «والذلّ اللاذم» بالذال المعجمة، وهو بمعنى اللازم أيضاً، لذِمْتُ المكان بالكسر، أي لزمتَه.

ثم ذكر أنّ الفِرار لا يزيد في العُمْر، وقال الراجز:

قَدْ عِلمتْ حَسْنَاءُ دَعْجَاءُ المُقَلْ   أن الفِرارَ لا يزيدُ في الأجَلْ

ثم قال لهم: أيُّكم يروح إلى الله فيكون كالظمآن يرد الماء!

ثم قال: الجنّة تحت أطراف العوالي، وهذا من قول رسول الله ﷺ: «الجنّة تحت ظلال السيوف»[1]. وسمع بعض الأنصار رسول الله ﷺ، يقول يوم أُحد: «الجنَّة تحت ظلال السيوف»، وفي يده تُميْرات يلُوكها، فقال: بخٍ بخٍ! ليس بيني وبين الجنة إلاّ هذه التميرات! ثم قَذَفها من يده، وكسر جَفْنَ سيفه، وحمل على قريش فقاتل حتى قُتِل[2].

ثم قال: «اليوم تُبلَى الأخبار»، هذا من قول الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ﴾[3]، أي نختبر أفعالكم.

ثم دعا على أهل الشام إن ردّوا الحق، بأن يفضّ الله جماعتهم، أي يهزمهم ويشتّت، أي يفرّق كلمتهم. وأن يُبسلهم بخطاياهم، أي يسلمهم لأجل خطاياهم التي اقترفوها ولا بنصرهم،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: الجنة تحت بارقة السيوف (٢٨١٩)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب: كراهة تمني لقاء العدو (١٧٤٢)، وأبو داود في كتاب: الجهاد، باب: كراهية تمني لقاء العدو (٢٦٣١)، وأحمد في مسنده: مسند الكوفيين، باب: بقية حديث عبد الله بن أبي أوفى (١٨٦٣٥).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده فيما معناه: ٤/ ٣٥٤.

(٣) سورة محمد، الآية: ٣١.

أبسلتَ فلاناً، إذا أسلمتَه إلى الهلكة، فهو مبسَل، قال تعالى: ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ﴾[1]، أي تُسلَم، وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ﴾[2]، أي أسلِموا للهلاك لأجل ما اكتسبوه من الإثم، وهذه الألفاظ كلّها لا يتلو بعضها بعضاً، وإنما هي منتزَعة من كلام طويل، انتزعها الرضيّ رحمه الله، واطّرح ما عداها.

الأصل: **إِنَّهُمْ لَنْ يَزُولُوا عَنْ مَوَاقِفِهِمْ دُونَ طَعْنٍ دِرَاكٍ يَخْرُجُ مِنْهُ النَّسِيمُ، وَضَرْبٍ يَفْلِقُ ٱلْهَامَ، وَيُطِيحُ ٱلْعِظَامَ، وَيُنْدِرُ السَّوَاعِدَ وَٱلأَقْدَامَ. وَحَتَّى يُرْمَوْا بِالْمَنَاسِرِ تَتْبَعُهَا الْمَنَاسِرُ، وَيُرْجَمُوا بِالْكَتَائِبِ تَقْفُوهَا ٱلحَلاَئِبُ. وَحَتَّى يُجَرَّ بِبِلاَدِهِمُ ٱلْخَمِيسُ يَتْلُوهُ ٱلْخَمِيسُ. وَحَتَّى تَدْعَقَ ٱلْخُيُولُ فِي نَوَاحِرِ أَرْضِهِمْ، وَبِأَعْنَانِ مَسَارِبِهِمْ وَمَسَارِحِهِمْ.**

قال الشريف الرضيّ رحمه الله تعالى: الدَّعْق: الدَّقُّ، أَيْ تدقُّ الخيولُ بِحَوَافِرِهَا أَرْضَهُمْ. وَنَوَاحِرُ أَرْضِهِمْ: مُتَقَابِلاَتُهَا، وَيُقَالُ: مَنَازِلُ بَنِي فُلاَنٍ تَتَنَاحَرُ، أَيْ تَتَقَابَلُ.

الشّرح: طعن دِراك، أي متابع يتلو بعضُه بعضاً. ويخرج منه النسيم، أي لسَعَتِه، ومن هذا النحو قول الشاعر:

طعنتُ ابنَ عبدِ القيس طَعْنَةَ ثائرٍ ... لها نَفَذٌ، لولا الشُّعاع أضاءَها

ملكتُ بها كفّي فأنهَرْتُ فَتْقَها ... يَرَى قائمٌ من دونها ما وَرَاءَهَا

فهذا وصف الطعنة، بأنّها لاتّساعها يرى الإنسان المقابل لها ببصره ما وراءها، وأنه لولا شَعاع الدم - وهو ما تفرّق منه - لبان منها الضوء. وأميرُ المؤمنين عليه السلام أراد من أصحابه طعناتٍ يخرُج النسيم - وهو الريحُ اللينة - منهنّ.

وفلقت الشيء، أفلِقه - بكسر اللام - فَلْقاً، أي شققتُه. ويُطِيح العظام: يسقطها، طاح الشيء، أي سقط أو هلك أو تاه في الأرض، وأطاحه غيره، وطوّحه.

ويُنْدِرُ السواعد: يسقطها أيضاً، ندرَ الشيء يندُر نَدْراً، أي سقط، ومنه النوادر، وأندره غيرُه. والساعد: من الكوع إلى المِرفق، وهو الذراع.

والمناسر: جمع مَنْسِر، وهو قطعة من الجيش تكون أمامَ الجيش الأعظم، بكسر السين وفتح الميم، ويجوز مِنْسَر بكسر الميم وفتح السين، وقيل إنها اللُّغة الفصحى.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧٠.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧٠.

ويُزْجَمُوا، أي يُغْزَوْ بالكتائب، جمع كتيبة وهي طائفة من الجيش.

تقفوها الحلائب، أي تتبعها طوائف لنصرِها والمحاماة عنها، يقال: قد أحلبوا، إذا جاؤوا من كلّ أوب للنّصرة، ورجل مُحلِب، أي ناصر، وحالبت الرجل، إذا نصرتَه وأعنته، وقال الشاعر:

أَلَهْفا بِقُرَّى سَحْبَلٍ حين أَحْلَبَتْ عَلَيْنَا الوَلَايَا والعدوّ المباسِلُ

أي أعانتْ ونصرتْ. والخميس: الجيش. والدَّعْق، قد فسَّره الرضيّ رحمه الله، ويجوز أن يفسَّر بأمر آخر، وهو الهَيْج والتنفير، دَعَقَ القومَ يَدْعَقُهم دَعْقاً، أي هاج منهم ونفّرهم.

ونواحر أرضهم، قد فسّره رحمه الله أيضاً، ويمكن أن يفسّر بأمر آخر، وهو أن يراد به أقصى أرضِهم وآخرها، من قولهم لآخر ليلة من الشهر: ناحرة.

وأعنان مسارِبهم ومسارحهم: جوانبها، والمسارب: ما يسرُب فيه المال الراعي، والمسارح: ما يسرح فيه، والفرق بين «سرَح» و«سرب»، أن السُّروح إنما يكونُ في أوّل النهار، وليس ذلك بشرط في السُّروب.

واعلم أنّ هذا الكلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام لأصحابه في صِفّين، يحرّضهم به، وقد ذكرنا من حديث صِفّين فيما تقدّم أكثره، ونحن نذكر ها هنا تتمة القصّة، ليكون مَنْ وقف على ما تقدّم وعلى هذا المذكور آنفاً هنا، قد وقف على قصّة صفين بأسرها.

اتفق النّاس كلّهم أنّ عمّاراً رضي الله عنه أصِيب مع عليّ عليه السلام بصِفّين، وقال كثيرٌ منهم، بل الأكثر: إن أويساً القَرَنيّ أصيب أيضاً مع عليّ عليه السلام بصِفّين. وذكر ذلك نصر بن مزاحم في «كتاب صِفّين» رواه عن حفص بن عمران البرجميّ، عن عطاء بن السائب، عن أبي البختريّ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أويس ما قال، وقال الناس كلّهم: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنّ الجنّة لتشتاق إلى عمّار»[1]، ورووْا عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنّ عماراً جاء يستأذن عليه، فقال: «ائذنوا له، مَرْحَباً بالطيّب المطيّب».

وروى سلمة بن كُهيل، عن مجاهد، أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم رأى عَمّاراً وهو يحمل أحجار المسجد فقال: «ما لهم ولعمار! يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار!»[2].

وروى الناس كافّة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له: «تقتلك الفئة الباغية».

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: مناقب سلمان (٣٧٩٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الصلاة، باب: التعاون في بناء المسجد (٤٤٧)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٢٢٤٧)، وابن حنبل في فضائل الصحابة (١٥٩٨).

وروى نصر بن مزاحم في كتاب صِفّين، عن عمرو بن شمِر، عن مالك بن أعْيَنَ، عن زيد بن وهب الجُهنيّ، أن عمّار بن ياسر نادى في صِفّين يوماً قبل مقتله بيوم أو يومين: أين من يبغي رضوان الله عزّ وجلّ ولا يؤوب إلى مال ولا ولد؟ فأتته عِصابة من النّاس، فقال: أيّها الناس، اقصِدوا بنا قَصْد هؤلاء القوم [الذين يتبعون دم عثمان، ويزعمون أنه قتِل مظلوماً، والله إن كان إلا ظالماً لنفسه، الحاكم بغير ما أنزل الله]. ودفع عليّ عليه السلام الراية إلى هاشم بن عُتْبة بن أبي وقّاص - وكان عليه ذلك اليوم دِرْعان - فقال له عليّ عليه السلام كهيئة المازح: أيا هاشم، أما تخشى على نفسك أن تكون أعْوَر جباناً؟ قال: ستعلم يا أميرَ المؤمنين، والله لألُفّنّ بين جماجم العرب لفَّ رجل ينوِي الآخرة. فأخذ رمحاً فهزّه فانكسر، ثم أخذ آخر فوجده جاسياً فألقاه، ثم دعا برمح ليّن فشدّ به اللواء[1].

قال نصر: وحدّثنا عمرو قال: لما دفع عليّ عليه السلام الرايةَ إلى هاشم بن عُتْبة، قال له رجل من أصحابه مِن بَكْر بن وائل: أقْدِم هاشم - يكررها - ثم قال: مالك [يا هاشم] قد انتفخ سَحْرك! أعَوَراً وجُبناً! قال: مَنْ هذا؟ قالوا: فلان، قال: أهلُها وخير منها، إذا رأيتَني قد صُرعت فخذها. ثم قال لأصحابه: شدّوا شُسوعَ نعالكم، وشدّوا أُزُرَكم، فإذا رأيتموني قد هَزَزْت الراية ثلاثاً، فاعلموا أنّ أحداً منكم لا يسبقني إلى الحملة. ثم نظر إلى عسكر معاوية، فرأى جمعاً عظيماً، فقال: مَن أولئك؟ قيل: أصحاب ذي الكَلاع، ثم نظر فرأى جنداً، فقال: من أولئك؟ قيل: قريش وقوم من أهل المدينة، فقال: قَوْمي، لا حاجة لي في قتالهم، مَنْ عند هذه القبّة البيضاء؟ قيل: معاوية وجنده، قال: فإني أرى دُونهم أسْوِدة، قيل: [ذاك] عمرو بن العاص وابناه ومواليه، فأخذ الراية فهزّها، فقال رجل من أصحابه: الْبَث قليلاً ولا تعجَل، فقال هاشم:

قَدْ أكْثَرا لَوْمي وَمَا أقَلاّ ... إني شَرَيْتُ النفس لَنْ أعتَلاّ
أعْوَرُ يبغي أهلَه محلّا ... قد عالج الحياة حَتى مَلاّ
لا بد أن يَفُلّ أو يُفَلاّ ... أشُلّهم بذي الكُعوب شَلاّ
مَعَ ابن عَمّ أحمدَ المُعَلّى ... أوّلُ مَنْ صَدّقَهُ وَصَلّى

قال نصر: وحدّثنا عبد العزيز بن سياه، عن حبيب بن أبي ثابت، قال: لما تناول هاشم الراية، جعل عمار بن ياسر يحرّضه على الحرب، ويقرعه بالرمح، ويقول: أقدم يا أعور:

لاَ خَيْرَ فِي أعْوَرَ لا يأتي الْفَزَعْ

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٣/ ٢٦.

فيستحي من عَمّار، ويتقدّم، ويركز الراية، فإذا ركزها عاوده عَمّار بالقول، فيتقدّم أيضاً. فقال عمرو بن العاص: إني لأرى لصاحب الراية السّوْدَاء عملاً، لئن دام على هذا لَتَفْنَيَنّ العرب اليوم! فاقتتلوا قتالاً شديداً، وعمّار ينادي: صبراً! والله إن الجنة تحت ظلال البِيض. فكان بإزاء هاشم وعمّارٍ أبو الأعور السُّلميّ، ولم يزل عمّار بهاشم ينخسُه وهو يزحف بالراية، حتى اشتدّ القتالُ وعظم، والتقى الزَّحْفان، واقتتلاَ قتالاً لم يسمع السامعون بمثله، وكثرت القتلى في الفريقين جميعاً.

وروى نصر، عن عمرو بن شَمِر، قال: حدَّثني مَنْ أثق به من أهل العراق، قال: لما التقينا بالقوم في ذلك اليوم، وجدناهم خمسةَ صفوف قد قيَّدوا أنفسهم بالعمائم، فقتلنا صفًّا، ثم صفًّا، ثم خلصنا إلى الرابع، ما على الأرض شاميّ ولا عِراقي يولّي دُبُرَه، وأبو الأعور يقول:

إذا مَا فَرَرْنَا كَانَ أَسْوَا فِرارِنَا ... صُدودَ الخُدودِ وازْورارَ المناكِبِ

صُدودَ الخُدودِ والقَنَا متشاجِرٌ ... ولا تبرح الأقدامُ عند التضارُبِ

قال نصر: والتقتْ في هذا اليوم هَمْدان العراق بعكّ الشام، فقال قائلهم:

هَمْدَانُ هَمْدَانُ، وعكٌّ عكُّ ... سَتَعْلَمُ اليومَ مَنِ الأَرَكُّ

وكانت على عَكّ الدروع، وليس عليهم رايات، فقالت: هَمْدان: خدِّموا القوم، أي اضربوا سوقهم - فقالت عَكّ: ابرُكوا برْكَ ٱلْكَمل، فبركوا كما يبرك الجمل ثم رموا الحجَر، وقالوا: لا نفرّ حتى يفر الحكّر.

قال نصر: واقتتل الناسُ من لدن اعتدال النهار إلى صلاة المغرب، ما كان صلاة القوم إلا التكبير عند مواقيت الصلاة.

ثم إن أهل العراق كشفوا ميمنة أهل الشام، فطاروا في سواد الليل، وكشف أهلُ الشام مَيْسَرة أهل العراق، اختلطوا في سواد الليل، وتبدّلت الرايات بعضُها ببعض، فلما أصبح الناس وجَدَ أهلُ الشام لواءهم وليس حوله إلاّ ألف رجل، فاقتلَوه وركزوه من وراء موضعه الأول وأحاطوا به، ووجَد أهلُ العراق لواءهم مركوزاً وليس حوله إلا ربيعة، وعليّ عليه السلام بينها، وهم محيطون به، وهو لا يعلم مَنْ هم، ويظنّهم غيرهم، فلما أذّن مؤذّن عليّ عليه السلام الفجر، قال عليّ عليه السلام:

يا مَرْحَباً بالقائلينَ عَدْلا ... وبالصّلاةِ مَرْحَباً وأهلا

ثم وقف وصلّى الفجر، فلما انفتل أبصر وجوهاً ليست بوجوه أصحابه بالأمس، وإذا مكانُه الذي هو فيه ما بيْن الميسرة إلى القلب، فقال: مَنِ القوم؟ قالوا: ربيعة، وإنك يا أمير المؤمنين لعندنا منذ الليلة! فقال:

فخرٌ طويلٌ لك يا ربيعة

ثم قال لهاشم بن عُتبة: خذ اللواء، فوالله ما رأيتُ مثل هذه الليلة. فخرج هاشم باللواء حتى ركزه في القلب.

قال نصر: حدثنا عمرو بن شمِر، عن الشعبيّ، قال: عبّى معاوية تلك الليلة أربعة آلاف وثلاثمائة من فارس وراجل مُعْلِمين بالخضرة، وأمرهم أن يأتوا عليًا عليه السلام مِن ورائه. ففَطِنتْ لهم هَمْدان، فواجهوهم وصَمَدوا إليهم، فباتوا تلك الليلة يتحارسون، وعليّ عليه السلام قد أفضى به ذهابه ومجيئه إلى رايات ربيعة، فوقف بينها وهو لا يعلم، ويظنّ أنه في عسكر الأشعث، فلما أصبح لم ير الأشعث ولا أصحابه، ورأى سعيد بن قيس الهمْدانيّ على مركزه، فجاء إلى سعيد رجل من ربيعة، يقال له زُفَر فقال [له]: ألست القائل بالأمس: لئنْ لم تنتهِ ربيعة لتكوننّ ربيعة ربيعة، وهَمْدان همدان؟ فما أغنتْ همدان البارحة! فنظر إليه عليٌّ عليه السلام نظر منكِر، ونادى منادِي عليّ عليه السلام: أن اتّعدوا للقتال، واغدُوا عليه، وانهَدُوا إلى عدوّكم. فكلّهم تحرّك إلا ربيعة لم تتحرّك، فبعث إليهم عليّ عليه السلام: أن انهَدُوا إلى عدوّكم، فبعث إليهم أبا ثَرْوان، فقال: إنّ أمير المؤمنين عليه السلام يُقرئكم السلام، ويقول لكم: يا معشرَ ربيعة، ما لكم لا تَنْهَدُون إلى عدوّكم وقد نَهَد الناس! قالوا: كيف نَنْهد وهذه الخيل من وراء ظهرنا! قل لأمير المؤمنين فليأمر هَمْدان أو غيرها بمناجزتهم لننْهد. فرجع أبو ثروان إلى عليّ عليه السلام، فأخبره، فبعث إليهم الأشتر، فقال: يا معشرَ ربيعة، ما منعكم أن تَنْهدوا وقد نَهد الناس - وكان جهير الصوت - وأنتم أصحاب كذا، وأصحاب كذا؟! فجعل يعدّد أيامهم. فقالوا: لسنا نفعل حتى ننظر ما تصنع هذه الخيل التي خَلف ظهورنا، وهي أربعة آلاف، قل لأمير المؤمنين: فَلْيَبْعَثْ إليهم مَنْ يكفيه أمرهم.

وراية ربيعة يومئذ مع الحُضَين بن المنذر. فقال لهم الأشتر: فإن أمير المؤمنين يقول لكم: اكفُونيها، إنّكم لو بعثتم إليهم طائفةً منكم لتركوكم في هذه الفلاة، وفرُّوا كاليعافير. فوجّهت حينئذ ربيعة إليهم تيم الله والنَّمِر بن قاسط وعَنَزَة. قالوا: فمشينا إليهم مستلئمين مقنَّعين في الحديد - وكان عامّة قتال صِفّين مشياً - قال: فلما أتيناهم هَرَبُوا وانتشروا انتشارَ الجراد، فذكرت قوله: «وفرّوا كاليعافير». ثم رجعنا إلى أصحابنا وقد نشب القتال بينهم وبين أهل الشام، وقد اقتطع أهلُ الشام طائفةً من أهل العراق، بعضها من ربيعة، فأحاطوا بها، فلم نَصلْ إليها حتى حملْنا على أهل الشام، فعلَوْناهم بالأسياف حتى انفرجوا لنا، فأفضيْنا إلى أصحابنا فاستنقذناهم، وعَرَفناهم تحت النَّقْع بسيماهم وعلامتهم. وكانت علامة أهل العراق بصِفّين الصّوف الأبيض، قد جعلوه في رؤوسهم وعلى أكتافهم، وشعارهم: «يا ألله، يا ألله! يا أحد يا صمد! يا ربّ محمد! يا رحمن يا رحيم!»، وكانت علامةُ أهل الشام خِرَقاً صُفراً، قد جعلوها على رؤوسهم وأكتافهم، وشعارهم:

نحن عبادُ الله حقًّا حقًّا

يا لثارات عثمان!

قال نصر: فاجتلدُوا بالسيوف وعُمُد الحديد، فلم يتحاجزوا حتى حَجَز بينهم الليل، وما يُرَى رجُلٌ من هؤلاء ومن هؤلاء مولِّياً.

قال نصر: حدّثنا عمر بن سعد، قال: كانوا عرباً يعرف بعضُهم بعضاً في الجاهلية، وإنّهم لحَديثو عهْد بها، فالتقوْا في الإسلام. وفيهم بقايا تلك الحميَّة، وعند بعضهم بصيرة الدّين والإسلام، فتضاربوا واستحيَوْا من الفِرار، حتى كادت الحرب تبيدهم، وكانوا إذا تحاجزوا دَخَلَ هؤلاء عسكَر هؤلاء، فيستخرجون قَتْلاَهم فيدفنونهم.

قال نصر: فحدّثنا عمر بن سعد، قال: فبينَا عليّ عليه السلام واقفاً بين جماعة من هَمْدان وحمير وغيرهم من أفناء قحطان، إذ نادى رجل من أهل الشام: من دلّ على أبي نوح الحميريّ؟ فقيل له: قد وجدته، فماذا تريد؟ قال: فَحَسر عن لِثَامة، فإذا هو ذو الكَلاع الحميريّ، ومعه جماعة من أهله ورهطه، فقال لأبي نوح: سِرْ معي، قال: إلى أين؟ قال: إلى أن نخرُجَ عن الصَّف، قال: وما شأنُك؟ قال: إنّ لي إليك لحاجة، فقال أبو نوح، معاذ الله أن أسير إليك إلاّ في كتيبة! قال ذو الكَلاع: بَلى فَسِرْ فلك ذمّة الله وذمّة رسوله وذمّة ذي الكَلاع، حتّى ترجع إلى خيلك، فإنما أريد أن أسألَك عن أمرٍ فيكم ربْنَا فيه. فسار أبو نُوح، وسار ذو الكَلاع، فقال له: إنما دعوتُك أحدّثك حديثاً حدّثنَاه عمرو بن العاص قديماً في خلافة عمر بن الخطاب، ثم أذكَرْناه الآن به فأعاده، إنه يزعم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «يلتقي أهل الشام وأهلُ العراق، وفي إحدى الكتيبتين الحقّ وإمام الهدى، ومعه عمّار بن ياسر». فقال أبو نوح: نعم والله: إنه لفينا. قال: نشدتُك الله، أجادٌّ هو على قتالنا؟ قال أبو نوح: نعم وربّ الكعبة، لهو أشدّ عَلى قتالكم منّي، ولوددت أنّكم خَلْق واحد فذبحتُه وبدأت بك قبلهم، وأنت ابن عمّي. قال ذو الكَلاع: وَيلَك! علام تمنّى ذلك مِنّا! فوالله ما قطعتُك فيما بيني وبينك قَطّ، وإنّ رحِمَك لقريبة، وما يَسُرّني أنْ أقتلك. قال أبو نوح: إنّ الله قطع بالإسلام أرحاماً قريبة، ووصل به أرحاماً متباعدة، وإني قاتلُك وأصحابك، لأنّا على الحقّ وأنتم على الباطل. قال ذو الكَلاع: فهلْ تستطيع أن تأتِيَ معي صفّ أهل الشام، فأنا لك جارٌ منهم، حتى تلقى عمرو بن العاص، فتخبرَه بحال عمّار وجِدّه في قتالنا، لعلّه أن يكونَ صلحٌ بين هذين الجندين!

قلت: واعَجَباه من قوم يعتريهم الشكّ في أمرهم لمكان عمّار، ولا يعتريهم الشكّ لمكان عليّ عليه السلام! ويستدلّون على أنّ الحقّ مع أهل العراق بكوْن عَمّار بين أظهرهم، ولا يعبؤون بمكانِ عليّ عليه السلام! ويحذرون من قول النبي صلى الله عليه وآله: «تقتُلك الفئة الباغية»، ويرتاعون لذلك،

ولا يرتاعون لقوله ﷺ في عليّ عليه السلام: «اللهمّ والِ مَنْ والاه وعاد من عاداه»[١]، ولا لقوله: «لا يحبّك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق»[٢]. وهذا يدلّك على أن علياً عليه السلام اجتهدت قريش كلّها من مبدإ الأمر في إخمال ذكره وستر فضائله، وتغطية خصائصه حتى مُحِيَ فضله ومرتبته من صدورِ الناس كافّة إلا قليلاً منهم[٣].

قال نصر: فقال له أبو نوح: إنَّك رجل غادِرٌ، وأنت في قوم غُدُر، وإنْ لم يُرِد الغدر أغدروك، وإني أن أموتَ أحبُّ إليّ من أن أدخل مع معاوية. فقال ذو الكَلاع: أنا جار لك من ذلك، ألا تقتل ولا تسلَب ولا تكرَه على بيعة، ولا تحبَسَ عن جندك، وإنما هي كلمة تبلّغها عمرو بن العاص، لعلّ الله أن يُصلِحَ بذلك بين هذين الجندَيْن، ويضع عنهم الحرب. فقال أبو نوح: إني أخاف غَدَراتِك وغَدَراتِ أصحابك. قال ذو الكَلاع: أنا لك بما قلت زعيم، قال أبو نوح: اللهمّ إنك ترى ما أعطاني ذو الكَلاع حتى أتى ما في نفسي، فاعصِمْنِي واخترْ لي وانصرني، وادْفع عَنّي. ثم سار مع ذي الكَلاع حتى أتى عمرو بن العاص وهو عند معاوية وحوله الناس، وعبد الله بن عمرو يحرّض الناس على الحرب، فلما وقفا على القوم، قال ذو الكَلاع لعمرو: يا أبا عبد الله، هلْ لك في رجل ناصح لبيب مشفِق، يخبرك عن عَمّار بن ياسر فلا يكْذبك؟ قال: ومَنْ هو؟ قال: هو ابن عمّي هذا، وهو من أهل الكوفة. فقال عمرو: أرى عليك سيما أبي تراب! فقال أبو نوح: عليّ سيما محمد وأصحابه، وعليك سيما أبي جهل وسيما فرعون! فقام أبو الأعور فسلَّ سيفَه، وقال: لا أرى هذا الكذّاب اللئيم يسبّنا بين أظهرِنا وعليه سيما أبي تراب! فقال ذو الكَلاع: أقسم بالله لئن بسطتَ يدك إليه لأحطمنّ أنفَك بالسيف، ابن عمّي وجاري، عقدت له ذمّتي، وجئت به إليكم ليخبركم عمّا تماريتُم فيه.

فقال له عمرو بن العاص: يا أبا نوح، أذكّرك بالله إلا ما صدّقتنا ولم تكْذبنا، أفيكم عَمّار بن ياسر؟ قال أبو نوح: ما أنا بمخبرِك حتى تخبرَ: لِمَ تسأل عنه ومعنا من أصحاب محمد صلى الله عليه عدّة غيره، وكلّهم جادّ على قتالكم؟ فقال عمرو: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: المقدمة، باب: فضل علي بن أبي طالب (١١٦)، وأحمد في «مسنده» في كتاب: العشرة المبشرين بالجنة، باب: ومن مسند علي بن أبي طالب (٩٥٣)، والحاكم في «المستدرك» (٤٥٧٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٩٣١).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: مناقب علي بن أبي طالب (٣٧٣٦)، وأحمد في كتاب: مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب: ومن مسند علي بن أبي طالب (٧٣٣)، والنسائي في «الكبرى» (٨٤٨٥).

(٣) لله درّك يا بن أبي الحديد ما هذه الالتفاتة الجميلة خاصة عندما نذكر أيضاً قول النبي (ص): علي مع الحق والحق مع علي.

عماراً تقتله الفئة الباغية، وإنه ليس لعمار أن يفارق الحقَّ، ولن تأكلَ النار من عَمّار شيئاً»[1]، فقال أبو نوح: لا إله إلا الله، والله أكبر، والله إنه لَقينا جادٌّ على قتالكم! فقال عمرو: الله الذي لا إله إلا هو إنه لجادّ على قتالنا! قال: نعم والله الذي لا إله إلا هو، ولقد حدّثني يوم الجمل أنّا سنظهر على أهل البصرة، ولقد قال لي أمس: إنّكم لو ضربتمونا حتى تبلغوا بنا سَعَفات هَجَر، لعلمنا أنّا على الحقّ، وأنكم على باطل، ولكنا قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار.

قال عمرو: فهل تستطيع أن تجمَع بيني وبينه؟ قال: نعم، فركب عمرو بن العاص وابناه، وعُتْبة بن أبي سفيان وذو الكَلاع، وأبو الأعور السُّلميّ، وحوشب، والوليد بن عقبة وانطلقوا، وسار أبو نوح ومعه شُرَحبيل بن ذي الكَلاع يحمِيه، حتى انتهى إلى أصحابه، فذهب أبو نوح إلى عَمّار، فوجده قاعداً مع أصحابٍ له، منهم الأشتر وهاشم وابنا بُدَيْل، وخالد بن معمر، وعبد الله بن حَجَل، وعبد الله بن العباس. فقال لهم أبو نوح: إنّه دعاني ذو الكَلاع، وهو ذو رحِم، فقال: أخبِرْني عن عمّار بن ياسر، أفيكم هو؟ فقلت: لِمَ تسأل؟ فقال: أخبرَني عمرو بن العاص في إمْرة عمر بن الخطاب أنّه مع رسول الله ﷺ، يقول: «يلتقي أهلُ الشام وأهل العراق، وعمّار مع أهل الحق وتقتله الفئة الباغية»، فقلت: نعم، إن عَمّاراً فينا، فسألني: أجادّ هو عَلَى قتالنا؟ فقلت: نعم والله، إنه لأجدّ منّي في ذلك، ولوددت أنكم خَلْق واحد فذبحته وبدأت بك يا ذا الكَلاع، فضحك عَمّار، وقال: أيسرّك ذلك؟ قال: نعم، ثم قال أبو نوح: أخبرَني الساعة عمرو بن العاص، أنّه سمِع رسول الله ﷺ يقول: «تقتل عمّاراً الفئة الباغية»، قال عمّار: أقرّرته بذلك؟ قال: نعم، لقد قَرّرته بذلك فأقرّ، فقال عمّار: صدق، وليضرّنه ما سمع ولا ينفعه.

قال أبو نوح: فإنه يريد أن يلقاك، فقال عمّار لأصحابه: اركبُوا، فركبوا وساروا. قال: فبعثنا إليهم فارساً من عبد القيس يسمى عوف بن بشر فذهب، حتى إذا كان قريباً منهم، نادى: أين عمرو بن العاص؟ قالوا: ها هنا، فأخبره بمكان عَمّار وخيله، قال عمرو: قل له: فليسرْ إلينا، قال عوف: إنه يخاف غَدراتِك وفَجَراتك، قال عمرو: ما أجراك عليّ وأنت على هذه الحال؟ قال عوف: جرّأني عليك بصرِي فيك وفي أصحابك، وإن شئت نابذتك الآن على سواء، [وإن شئت التقيت أنت وخصماؤك، وأنت كنت غادراً]، فقال عمرو: إنك لسفيهٌ، وإني باعث إليك رجلاً من أصحابي يواقفك، قال: ابعث مَنْ شئت، فلستُ بالمستوحش، وإنك لا تبعث إلا شقيًّا، فرجع عمرو، وأنفذ إليه أبا الأعور، فلمّا تواقفا تعارفا، فقال عوف: إنّي لأعرف الجسد وأنكر القلب، وإني لا أراك مؤمناً لا أراك إلا من أهل النار، قال أبو الأعور:

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى بما معناه: ٨/ ١٨٩.

يا هذا، لقد أعطِيتَ لساناً يكبّك الله به على وجهك في النار، قال عوف: كلاّ والله إنّي لأتكلّم بالحق وتتكلّم بالباطل، وإني أدعوك إلى الهدى وأقاتلك على الضلال، وأفرّ من النار، وأنت بنعمة الله ضالّ، تنطق بالكذب وتقاتل على ضلالة، وتشتري العقاب بالمغفرة، والضلالة بالهدى، انظر إلى وجوهنا ووجوهكم وسيمانا وسيماكم، واسمع دعوتَنا ودعوتكم، فليس أحدٌ مِنّا إلا وهو أوْلى بالحق وبمحمد، وأقرب إليه منكم. فقال أبو الأعور: لقد أكثرتَ الكلام، وذهب النّهار، ويحك! ادعُ أصحابَك وأدعُوا أصحابي، وليأت أصحابُك في قلّة إن شاؤوا أو كثرة، فإني أجيء من أصحابي بعدّتهم، [فإن شاء أصحابك فليقلّوا وإن شاؤوا فليكثروا. فسار عمّار في اثني عشر فارساً، حتى إذا كانوا بالمنصف سار عمرو بن العاص في اثني عشر فارساً حتى اختلفت أعناق الخيل، خيل عمار وخيل عمرو، ونزل القوم واحتبوْا بحمائل سيوفهم، فتشهّدَ عمرو بن العاص فقال له عمار: اسكت، فلقد تركتها وأنا أحقّ بها مِنْك، فإن شئتَ كانت خصومة فيدفع حقُّنا باطلَك، وإنْ شئتَ كانت خطبة، فنحن أعلم بفَضْل الخطاب منك، وإن شئتَ أخبرتُك بكلمةٍ تفصِلُ بيننا وبينك، وتكفّرك قبل القيام، وتشهد بها على نفسِك، ولا تستطيع أن تكذّبني فيها.

فقال عمرو: أيا أبا اليقظان، ليس لهذا جئتُ إنما جئتُ لأنّي رأيتك أطوع أهل هذا العسكر فيهم. أذكّرك الله إلاّ كففتَ سلاحهم، وحقَنْتَ دماءهم، وحرصتَ على ذلك، فعلام تقاتلوننا! أوَ لسنا نعبُد إلٰهاً واحداً، ونصلي إلى قبلتِكم وندعو دعوتكم، ونقرأ كتابكم، ونؤمن بنبيّكم! فقال عمّار: الحمد لله الذي أخرَجَها مِنْ فيك، إنّها لِي ولأصحابي: القبلة، والدين، وعبادة الرحمن، والنبيّ والكتاب، من دونك ودون أصحابك. الحمدُ لله الذي قَرّرك لنا بذلك، وجعلك ضالاً مضلاً أعمى، وسأخبرك على ما أقاتلك عليه وأصحابك، إنّ رسول الله ﷺ أمرني أنْ أقاتِلَ الناكثين[1]، فقد فعلت، وأمرني أن أقاتِل القاسطين وأنتم هم، وأمّا المارِقون فلا أدري أدركهم أوْ لا! أيّها الأبتر، ألست تعلم أنّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ كنتُ مولاه فعليّ مولاه، اللّهمّ والِ مَنْ وَالاه وعادِ مَنْ عاداه!» فأنا مولَى الله ورسوله وعليّ مولاي بعدهما. قال عَمْرو: لِمَ تشتِمني يا أبا اليقظان ولست أشتِمك! قال عمّار: وبِمَ تشتمني؟ أتستطيع أن تقول: إنّي عصيت الله ورسوله يوماً قط! قال عمرو: إنّ فيك لمسابَّ سوى ذلك، قال عَمّار: إن الكريمَ مَنْ أكرمه الله! كنتُ وضيعاً فرفعني الله، ومملوكاً فأعتقني الله، وضعيفاً فقوّاني الله، وفقيراً فأغناني الله! قال عمرو: فما ترى في قتل عثمان؟ قال: فتح لكم باب كلّ سوء، قال عمرو: فعَليٌّ قتله؟ قال عَمّار: بل الله ربُّ عليّ قتله وعليّ معه، قال عمرو: فكنتَ فيمنَ قَتَله؟ قال عمرو: فكنتَ فيمن قَتَله؟ قال: كنتُ مع مَنْ قتله، وأن اليوم أقاتل معهم، قال عمرو: فلم

(١) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (١٦٢٣)، والعقيلي في «الضعفاء» (١٥٣٧).

قتلتموه؟ قال عمّار: إنه أراد أن يغيّر ديننا فقتلناه، فقال عمرو: ألا تسمعون؟ قد اعترف بقتل إمامكم! فقال عمّار، قد قالها فرعون قبلك لقومه: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾[1]. فقام أهلُ الشام ولهم زَجَل فركبوا خيولهم ورجعوا، وقام عمّار وأصحابه فركبوا خيولهم ورجعوا، وبلغ معاوية ما كان بينهم فقال: هلكت العرب إن حَرّكتهم خفّة العبد الأسود - يعني عماراً.

قال نصر: فحدّثنا عمرو بن شمر، قال: فخرجت الخيول إلى القتال واصطفّت بعضُها لبعض، وتزاحف الناس، وعلى عَمّار دِرْعٌ بيضاء، وهو يقول: أيها الناس، الرَّوَاح إلى الجنّة.

فقاتل القوم قتالاً شديداً لم يَسْمَع السامعون بمثله، وكثرت القتلى حتى أنْ كان الرجل ليشدّ طُنُب فُسطاطه بيد الرجل أو برجْله. وحكى الأشعث بعد ذلك، قال: لقد رأيت أخبِيَة صِفّين وأروقتها، وما فيها خِباء ولا رواق ولا فُسطاط إلا مَرْبوطاً بيد إنسانٍ أو برجله.

قال نصر: وجعل أبو السّماك الأسديّ يأخذ إداوة من ماء وشَفْرَة حَديدة، فيطوف في القتلى، فإذا رأى رجلاً جَريحاً وبه رَمَق أقعده، فيقول له: مَنْ أمير المؤمنين؟ فإذا قال: «عليّ» غسَل الدم عنه، وسقاه من الماء، وإن سكت وجأه بالسِّكين حتى يموت ولا يسقيه.

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شَمِر، عن جابر، قال: سمعت الشعبيّ، يقول: قال الأحنف بن قيس: والله إنّي إلى جانب عمَّار بن ياسر، [بيني وبينه رجل من بني الشعيراء].

فتقدّمنا حتى دنوْنا من هاشم بن عُتْبة، فقال له عمار: احْمِلْ فداك أبي وأمّي! فقال له هاشم: يرحمك الله يا أبا اليقظان! إنّك رجل تأخذك خِفّة في الحرب، وإنّي إنما أزحفُ باللواء زحفاً، أرجو أن أنال بذلك حاجتي، وإن خَفَفْتُ لم آمن الهَلكة. وقد كان قال معاوية لعمرو: ويحك! إنّ اللواء اليوم مع هاشم بن عتبة، وقد كان من قبل يُرقِل به إرقالاً، وإنْ زحف به اليوم زحفاً إنه لَليومُ الأطول على أهل الشام، فإن زحف في عُنُق من أصحابه، إني لأطمع أن تقتطع.

فلم يزل به عمار حتى حمل، فبصُر به معاوية، فوجّه إليه حماة أصحابه ومَنْ يُزَنُّ بالبأس والنَّجْدة منهم في ناحية، وكان في ذلك الجمع عبد الله بن عمرو بن العاص، ومعه يومئذ سيفان قد تقلّد بأحدهما، وهو يضرب بالآخر، فأطافت به خيولُ عليّ عليه السلام، وجعل عمرو يقول: يا الله، يا رحمن! ابني ابني! فيقول معاوية: اصبر فلا بأس عليه. فقال عمرو: لو كان يزيد بن معاوية، أصبَرت! فلم يزل حماة أهل الشام تذبّ عن عبد الله حتى نجا هارياً على فرسه [ومن معه، وأصيب هاشم في المعركة].

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢٥.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، قال: وفي هذا اليوم قُتِل عمار بن ياسر رضي الله عنه، أصيب في المعركة، وقد كان قال حين نظر إلى راية عمرو بن العاص: والله إنّها لراية قد قاتلتُها ثلاث عركات وما هذه بأرشدهنّ، ثم قال:

نَحنُ ضربناكُمْ على تأويلِهِ ... كما ضربناكُمْ على تنزيلِهِ

ضرباً يزيلُ الهام عن مقيلِهِ ... ويُذهِلُ الخليلَ عن خليلِهِ

أو يَرجِعَ الحقُّ إلى سَبيلهِ

ثم استسقى وقد اشتدّ عطشه، فأتته امرأة طويلة اليديْن، ما أدري أعُسٌّ معها أم إداوة، فيها ضَيَاحٌ من لبن! فقال حين شرب: «الجنّة تحت الأسنّه، اليوم ألقى الأحبّه، محمداً وحزبه»[1]. والله لو ضربونا حتى يُبلغونا سَعَفات هَجَر لعلمنا أنّا على الحقّ، وأنهم على الباطل. ثم حمل وحَمَل عليه ابن حَوّى السَّكْسكي وأبو العادية، فأما أبو العادية فطعنه، وأما ابن حَوّى فاحتزّ رأسه، وقد كان ذو الكَلاع يسمع عمرو بن العاص يقول: إن النبي صلى الله عليه يقول لعمار: «تقتلك الفئة الباغية، وآخر شُرْبك ضَيَاحٌ من لبن»[2]، فقال ذو الكَلاع لعمرو: ويحك ما هذا! قال عمرو: إنه سيرجع إلينا، ويفارق أبا تراب، وذلك قبل أن يصاب عمّار، فلما أصيب عمار في هذا اليوم أصيب ذو الكَلاع، فقال عمرو لمعاوية: والله ما أدري بقتل أيّهما أنا أشدّ فرحاً! والله لو بقي ذو الكَلاع حتى يقتَل عمّار لمال بعامّة قومه إلى عليّ، ولأفسد علينا أمرينا.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، قال: لا يزال رجل يجيء فيقول لمعاوية وعمرو: أنا قتلت عَمّار، فيقول له عمرو: فما سمعته يقول؟ فيخلط، حتى أقبل ابنُ حَوّى، فقال: أنا قتلتُه، فقال عمرو: فما كان آخر منطقه؟ قال: سمعته يقول: «اليوم ألقى الأحِبَّه، محمداً وحزبه»[3]. فقال: صدقت، أنت صاحبُه، أما والله ما ظفرتْ يداك، ولقد أسخطتَ ربّك.

قال نصر: حدثنا عمرو بن شمر، قال: حدثني إسماعيل السّديّ، عن عبد خير الهَمْدانيّ،

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٥٦٨٧)، والطبراني في «الأوسط» (٦٤٧١)، وابن عبد البر في «الاستيعاب» (٣/ ١١٣٩).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٥٦٧٦)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٤٢)، والطبراني في «الأوسط» (٦٤٧١).

(٣) تقدم تخريجه.

قال: نظرتُ إلى عمّار بن ياسر يوماً من أيام صِفّين، قد رُمِيَ رميةً فأغمِي عليه، فلم يصلِّ الظهرَ ولا العصر ولا المغرب ولا العشاء ولا الفجر، ثم أفاق فقضاهنّ جميعاً، يبدأ بأوّل شيء فاته، ثم بالتي تليها.

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شمر، عن السديّ، عن أبي حُرَيث، قال: أقبل غلامٌ لعمّار بن ياسر، اسمه راشد، يحمل إليه يوم قتل بشربة من لبن، فقال عمّار: أما إنّي سمعتُ خليلي رسول الله ﷺ يقول: «إنّ آخرَ زادك من الدنيا شربة لبن»(١).

قال نصر: وروى عمرو بن شمر، عن السّديّ، أنّ رجلَين بصِفّين اختصما في سلَب عمّار وفي قتله، فأتَيا عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال: ويحكما اخرجا عَنّي! فإنّ رسول الله ﷺ قال: «ما لقريش ولعمّار! يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار قاتله وسالبُه في النار»(٢).

قال السُّدِّيّ: فبلغني أنّ معاوية قال لما سمع ذلك: إنما قتَله مَنْ أخرجه، يخدع بذلك طَغَام أهل الشام.

قال نصر: وحدثنا عمرو، عن جابر، عن أبي الزبير، قال: أتى حُذَيفةَ بنَ اليمان رهطٌ من جُهينة، فقالوا له: يا أبا عبد الله، إنّ رسول الله ﷺ استجار من أن تُصْطَلَم أمّتُه، فأجير من ذلك، واستجار من أن يُذيق أمّته بعضها بأس بعض، فمنع من ذلك، فقال حُذَيفة: إنّي سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «إنّ ابنَ سميّة لم يخيَّر بين أمرين قَطّ إلا اختار أشدَّهما - يعني عمّاراً - فالزموا سمتَه»(٣).

قال نصر: وحدثنا عمرو بن شمر، قال: حمل عمّار ذلك اليوم على صفّ أهل الشام وهو يرتجز:

كَـلاّ وربِّ الـبـيـت لا أبـرحُ أجِـي ... حـتّـى أمـوتَ أو أرى مـا أشـتـهِـي

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه بما معناه: ٨/ ٧٢٩ رقم: ٤١، وأخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى: ٣/ ٢٥٧.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الصلاة، باب: التعاون في بناء المسجد (٤٤٧)، وأحمد في كتاب: باقي مسند المكثرين، باب: مسند أبي سعيد الخدري (١١٤٥١).

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٥٦٦٥)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٢٢٤٦).

لاَ أفتأ الدّهرَ أحامي عن عَلِي ... صهر الرّسول ذي الأمانات الوفِي
ينصرنا ربّ السموات العلِي ... ويقطع الهامَ بحدّ المشرفِي
يمنحنا النَّصرَ عَلَى من يبتغي ... ظلماً علينا جاهداً ما يأتلِي

قال: فضرب أهلَ الشام حتى اضطرهم إلى الفرار.

قال نصر: وقد كان عبد الله بن سويد الحميريّ من آل ذي الكَلاع، قال لذي الكَلاع: ما حديثٌ سمعتَه من ابن العاص في عَمّار؟ فأخبره، فلما قُتِل عَمّار خرج عبد الله ليلاً يمشي، فأصبح في عسكر عليّ عليه السلام، وكان عبد الله من عُبّاد أهل زمانه، وكاد أهل الشام أن يضطربوا لولا أنّ معاوية قال لهم: إنّ علياً قتل عمّاراً، لأنه أخرجه إلى الفتنة. ثم أرسل معاوية إلى عمرو: لقد أفسَدْتَ عليّ أهل الشام، أكلّ ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله تقوله! فقال عمرو: قلتُها ولستُ أعلم الغيب، ولا أدري أنّ صِفّين تكون! قلتُها وعمّار يومئذ لك وليٌّ، وقد رويتَ أنت فيه مثل ما رويت. فغضب معاوية وتنمّر لعمرو، وعزم على منعه خيرَه، فقال عمرو لابنه وأصحابه: لا خيْر في جوار معاوية، إنْ تجلّت هذه الحرب عنه لأفارقنّه - وكان عمرو حَمِيّ الأنف، قال:

تعاتِبني أن قلتُ شيئاً سمعتُه ... وقد قلتَ لو أنصفتَنِي مثلَه قَبْلِي
أنعلُك فيما قلتَ نعلٌ ثبيتَةٌ ... وتَزْلَقُ في مثل ما قلتُه نعلِي!
وما كان لي علمٌ بصِفّين أنّها ... تكون وعَمّارٌ يحثّ على قتلِي
ولو كان لِي بالغيْبِ علمٌ كتمتُها ... وكايدتُ أقواماً مراجِلُهمْ تَغْلِي[1]
أبى الله إلا أنّ صدرَك واغرٌ ... عليّ بلا ذنبٍ جنيتُ ولا ذحْلِ
سوى أنني والراقصاتِ عشيّةً ... بنصرك مدخول الهوى ذاهلُ العقلِ
فلا وضَعَتْ عَنّي حَصانٌ قِناعها ... ولا حملتْ وجْناءُ ذِعْلَبَةٌ رَحْلِي[2]
ولا زلتُ أدْعَى في لؤيّ بن غالبٍ ... قليلاً غَنائِي لا أُمِرُّ ولا أُحْلِي
إنِ الله أرخَى من خِناقِكَ مَرّةً ... ونلتَ الذي رجّيت إن لَم أزُرْ أهلي
وأتركْ لك الشّامَ التي ضاق رُحْبُها ... عليك ولم يَهْنِكْ بها العيشُ من أجلِي

---

(١) المِرْجَل: قدر من حجارة أو نحاس. القاموس المحيط، مادة (رجل).

(٢) الوَجْنَاء: الناقة الشديدة. القاموس المحيط، مادة (وجن). والذعلبة: الناقة السريعة. القاموس المحيط، مادة (ذعلب).

فأجابه معاوية:

أألآن لما ألقت الحربُ بَرْكَها وقام بنا الأمر الجليلُ على رِجْلِ

غمزتَ قناتِي بعد ستّين حجّة تِبَاعاً كأني لا أُمِرُّ ولا أُحْلِي!

أتيتَ بأمرٍ فيه للشام فتنةٌ وفي دون ما أظهرتَه زَلّةُ النَّعْلِ

فقلت لك القول الّذي ليس ضائراً ولو ضرّ لم يضرُرْكَ حملُك لي ثقْلي

تُعاتِبني في كلّ يوم وليلةٍ كأنّ الذي أبليكَ ليس كما أبلي

فيا قبَّحَ الله العتابَ وأهله ألم ترَ ما أصبحتُ فيه من الشُّغْلِ!

فدعْ ذا ولكنِ هل لك اليومَ حيلةٌ تردّ بها قوماً مراجِلُهم تَغْلِي!

دعاهم عليٌّ فاستجابوا لِدَعْوَةٍ أحبّ إليهم من ثَرَى المال والأهلِ

إذا قلت هابوا حَوْمَةَ الموت أرْقَلُوا إلى الموت إرقال الهَلُوك إلى الفَحْلِ

قال: فلما أتى عمراً شعر معاوية أتاه، فأعتبه وصار أمرهما واحداً.

قال نصر: ثم إن علياً عليه السلام دعا في هذا اليوم هاشم بن عُتْبة ومعه لواؤه [وكان أعور] فقال له: يا هاشم حتى متى! : فقال هاشم: لأجهدنّ ألاّ أرجع إليك أبداً. فقال عليّ عليه السلام: إنَّ بإزائك ذا الكَلاع، وعنده الموت الأحمر. فتقدّم هاشم فلما أقبل، قال معاوية: مَنْ هذا المقبل؟ فقيل: هاشم المِرْقال، فقال: أعور بن زُهْرة! قاتله الله! فأقبل هاشم وهو يقول:

أعْوَرُ يبغي نفسَه خَلاصا مثل الفَنِيقِ لابساً دِلاَصا[1]

لا دِيَةٌ يخشَى ولا قِصاصا كلّ أمرىء وإن كَبَا وحَاصَا

لَيْسَ يَرَى مِنْ يَوْمِهِ مَنَاصَا

فحمل أصحاب لواء ذي الكَلاع - وهو رجل من عُذْرة - فقال:

يا أعْوَرَ العين - وما بي من عَوَرْ - اثْبُتْ فإنّي لَسْتُ من فَرْعَيْ مُضَرْ

نحن اليمانونَ وَمَا فينَا خَوَرْ كَيْفَ تَرى وَقْعَ غُلامٍ من عُذَرْ!

ينعَى ابنَ عفّان ويلحَى مَنْ غَدَرْ سِيّانِ عندي مَنْ سَعَى ومَنْ أمَرْ

فاختلفا طعنتين، فطعنه هاشم فقتله، وكثرت القتلى حول هاشم، وحمل ذو الكَلاع، واختلط الناس واجتلدوا، فقتِل هاشم وذو الكَلاع جميعاً، وأخذ عبدُ الله بن هاشم اللواء وارتجز، فقال:

يا هاشمَ بنَ عتبةَ بنِ مالِكْ أعْزِزْ بشيخٍ من قُرَيْش هالِكْ!

---

(١) الفَنِيْقُ: الفحل المكرم، لا يؤذى لكرامته على أهله ولا يركب. القاموس المحيط مادة (فنق).

تحيطه الخِيلانُ بالسنابك ... في أسودٍ من نقعهنّ حَالِك
أبشرْ بحورِ العِين في الأرائك ... والرَّوْح والريحانِ عندَ ذلك

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، عن الشعبيّ، قال: أخذ عبد الله بن هاشم بن عتبة راية أبيه، ثم قال: أيّها الناس، إن هاشماً كان عبداً من عباد الله الذي قدّر أرزاقهم، وكتب آثارهم، وأحصى أعمالهم، وقضى آجالهم، فدعاه الله ربّه فاستجاب لأمره، وسلّم لأمره، وجاهد في طاعة ابن عمّ رسوله. أول مَنْ آمن به، وأفقههم في دين الله، الشديد على أعداء الله، المستحلّين حُرم الله، الذين عملوا في البلاد بالجَوْر والفساد، واستحوَذ عليهم الشيطان، فأنساهم ذكرَ الله، وزيّن لهم الإثم والعدوان، فحقّ عليكم جهادُ مَنْ خالف الله، وعطّل حدوده، ونابذَ أولياءه. جودوا بمهجكم في طاعة الله في هذه الدنيا، تصيبوا الآخرة والمنزل الأعلى، والأبد الذي لا يفنى. فوالله لو لم يكن ثوابٌ ولا عقاب، ولا جنّة ولا نار، لكان القتالُ مع عليّ أفضلَ من القتال مع معاوية، فكيف وأنتم ترجون ما ترجون!

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شَمِر، قال: لما انقضى أمرُ صِفّين، وسلّم الحسن عليه السلام الأمرَ إلى معاوية، ووفدت عليه الوفود، أشخِص عبد الله بن هاشم إليه أسيراً، فلمّا مثَل بين يديه، وعنده عمرو بن العاص، قال: يا أميرَ المؤمنين، هذا المختال بن المرقال، فدونك الضبُّ المضبّ، المغرّ المفتون، فاقتله، فإنّ العصا من العُصيّة، وإنما تلد الحيّةُ حُيَيّة، وجزاء السيئة سيئة مثلها.

فقال عبد الله: إن تقتلني فما أنا بأوّل رجل خذله قومُه، وأسلمه يومُه. فقال عمرو: يا أميرَ المؤمنين، أمكنّي منه أشخب أوداجه على أثباجه. فقال عبد الله: فهلاّ كانت هذه الشجاعة منك يابن العاص في أيام صِفّين، ونحن ندعوك إلى النِّزال، وقد ابتلّت أقدام الرجال من نقيع الجريال، وقد تضايقت بك المسالك، وأشرفتَ منها على المهالك! وايمُ الله لولا مكانُك منه لرميتُك بأحدّ مِنْ وقع الأشافي، فإنك لا تزال تكثر في هَوَسِك، وتخبِط في دَهَسِك، وتنشِبُ في مَرسك، [تخبط العشواء، في الليلة الحِندِس الظلماء]. فأمر معاوية به إلى الحبس، فكتب عمرو إلى معاوية:

أمرتُك أمراً حازماً فعصيتَني ... وكانَ من التوفيق قتلُ ابن هاشم
وكان أبوه يا معاويةُ الذي ... رَمَاكَ على حربٍ بحزّ الغلاصِمَ[1]

---

(١) الغلاصم: مفردها غلصمة: وهي اللحم بين الرأس والعنق، أو رأس الحلقوم. القاموس المحيط مادة (غلصم).

فقتّلنا حتى جرتْ من دمائنا بصِفّين أمثالُ البحور الخضارمِ[1]
وهذا ابنُه، والمرء يشبهُ أصلَه ستقرَع - إن أبقيتَه - سِنّ نادم!

فبعث معاوية بالشعر إلى عبد الله بن هاشم، فكتب في جوابه من السجن:

معاويَ إن المرءَ عَمْراً أبتْ له ضغينةُ صَدْرٍ وُدّها غير سالم
يرى لك قتلِي يابن حَرْبٍ، وإنّما يَرَى ما يَرَى عمرو ملوكُ الأعاجم
على أنهم لا يقتلون أسِيرَهُمْ إذا كان فيه مَنْعَةٌ للمسالِمِ
وقد كان منّا يوم صِفّين نَفْرَةٌ عليك، جناها هاشمٌ وابن هاشم
قضى الله فيها ما قضى ثمّتَ انقضى وما ما مَضى إلاّ كأضغاثِ حالم
فإن تعفُ عنّي تعفُ عن ذِي قرابةٍ وإن ترَ قَتْلي تستحلّ محارمي

هذه رواية نصر بن مزاحم[2].

وروى أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى بن عبيد الله المرزبانيّ، أنّ معاوية لما تمّ له الأمر بعد وفاة عليّ عليه السلام، بعث زياداً على البصرة، وناد منادي معاوية: أمِنَ الأسودُ والأحمرُ بأمان الله، إلا عبد الله بن هاشم بن عُتْبة! فمكث معاوية يطلبه أشدّ الطلب، ولا يعرف له خبراً، حتى قدم عليه رجلٌ من أهل البصرة، فقال له: أنا أدُلُّك على عبد الله بن هاشم بن عتبة، اكتب إلى زياد، فإنه عند فلانة المخزوميّة، فدعا كاتبه فكتب: من معاوية بن أبي سفيان أمير المؤمنين إلى زياد بن أبي سفيان، أما بعد، فإذا أتاك كتابي هذا فاعمِدْ إلى حيّ بني مخزوم، ففتّشه داراً داراً، حتى تأتيَ إلى دار فلانة المخزوميّة، فاستخرج عبد الله بن هاشم المِرْقال منها، فاحْلِقْ رأسَه، وألبسه جُبّة شَعَر، وقيّده، وغُلّ يده إلى عنقه، واحملْه على قَتَب بعير بغير وطاء ولا غذاء، وانفُذْ به إليّ.

قال المرزبانيّ: فأما الزبير بن بكّار فإنه قال: إنّ معاوية قال لزياد لما بعثه إلى البصرة: إنّ عبد الله بن المِرْقال في بني ناجِية بالبصرة، عند امرأة منهم يقال لها فلانة، وأنا أعزم عليك إلا حَطَطْت رَحْلك ببابها، ثم اقتحمت الدار واستخرجتَه منها، وحملْتَه إليّ.

فلما دخل زياد إلى البصرة، سأل عن بني ناجية، وعن منزل المرأة فاقتحم الدار،

---

(١) الخَضَارم: مفردها خِضْرِم: وهو الكثير الماء، لسان العرب، مادة (خضرم).
(٢) أخرجه الشيخ الأميني في الغدير: ١/ ١٧١، وأخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق: ٣٣/ ٣٤٥.

واستخرج عبد الله منها، فأنفذه إلى معاوية فوصل إليه يوم الجمعة، وقد لاقى نَصَباً كثيراً، ومن الهجير ما غيّر جسمَه، وكان معاوية يأمر بطعام فيتّخذ في كلّ جمعة لأشراف قريش ولأشراف الشام ووفود العراق، فلم يشعر معاوية إلا وعبد الله بين يديه، وقد ذَبل وسَهَمَ وجهه، فعرفه ولم يعرفه عمرو بن العاص، فقال معاوية: يا أبا عبد الله، أتعرف هذا الفتى؟ قال: لا، قال: هذا ابن الّذي كان يقول في صِفّين:

أغـوَر يـبـغـي أهـلَـه مَـحـلاّ قَـد عـالَـجَ الـحـيـاة حـتـى مـلاّ
لا بـدّ أن يَـفُـلّ أو يُـفَـلاّ

قال عمرو: وإنه لهو! دونك الضّب المضِبّ، فاشخب أوداجَه، ولا تَرْجِعْه إلى أهل العراق فإنهم أهل فتنة ونفاق، وله مع ذلك هوًى يُرْدهيه، وبطانة تغويه، فوالذي نفسي بيده لئِنْ أفلَتَ من حَبائلك، ليُجَهّزن إليك جيشاً تكثر صواهله، لشرّ يوم لك. فقال عبد الله وهو في القيد: يابن الأبتر، هلاّ كانت هذه الحماسة عندك يوم صِفّين، ونحن ندعوك إلى البراز، وتلوذ بشمائل الخيل كالأمَة السوداء والنّعجة القوداء! أما إنه إن قتلني قَتل رجلاً كريم المخبرة، حميد المقدرة، ليس بالجِبْس المنكوس، ولا الثّلْب المركوس. فقال عمرو: دع كيتَ وكيتَ، فقد وقعت بين لَحْيَي لَهْزَم، فرُوس للأعداء، يسعطك إسعاطَ الكودَن[1] الملجم. قال عبد الله: أكثر إكثارك، فإني أعلمكَ بَطِراً في الرخاء، جباناً في اللقاء، هيّابة عند كفاح الأعداء، ترى أنْ تقيَ مهجتَك، بأن تبديَ سوءتك. أنسيتَ يوم صفّين وأنت تُدْعى إلى النزال، فتحيد عن القتال، خوفاً أن يغمرَك رجال لهم أبدان شداد، وأسنّة حداد، ينهبون السَّرح، ويذلّون العزيز.

قال عمرو: لقد علم معاوية أني شهدت تلك المواطن، فكنت فيها كمِدرَة الشوْك، ولقد رأيت أباك في بعض تلك المواطن تخفِق أحشاؤه، وتنِقّ أمعاؤه. قال: أما والله لو لقيَكَ أبي في ذلك المقام، لارتعدتْ منه فرائصك، ولم تسلَم منه مهجتُك، ولكنه قاتل غيرَك فقتل دونك.

فقال معاوية، ألا تسكت لا أمّ لك! فقال: يابن هند، أتقول لي هذا! والله لئن شئت لأعرقنّ جبينك، ولأقيمنّك وبين عينيك وَسْم يلين له أخدَعاك. أبأكثر من الموت تخوّفني! فقال معاوية: أو تكفّ يابن أخي! وأمر به إلى السجن.

فقال عمرو: وذكر الأبيات، فقال عبد الله: وذكر الأبيات أيضاً، وزاد: «فأطرق معاوية طويلاً حتى ظنّ أنه لن يتكلم»، ثم قال:

أرَى العفوَ عن عُلْيَا قريشٍ وسيلةً إلى الله في اليوم العَبُوس القماطرِ
ولستُ أرى قتلِي فتًى ذا قرابة له نسب في حيّ كَعْبٍ وعامرِ
بل العفوَ عنه بعدما خابَ قِدْحُه وزلّتْ به إحدى الجدود العواثرِ

(١) الكودن: البرذون الهجين، وقيل: البغل. لسان العرب مادة (لحدن).

وكان أبوه يوم صِفّين مُحنَقاً ... علينا، فأردته رماحُ يُحابِرِ

ثم قال له: أتراك فاعلاً ما قال عمرو من الخروج علينا! قال: لا تسل عن عَقِيدات الضمائر، لاسيما إذا أرادت جهاداً في طاعة الله. قال: إذن يقتلك الله كما قتل أباك، قال: ومَنْ لي بالشهادة!

قال: فأحسن معاوية جائزته، وأخذ عليه موثقاً ألا يساكنه بالشام فيفسد عليه أهله.

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شمِر، عن السّديّ، عن عبد خير الهمدانيّ، قال: قال هاشم بن عُتبَة يوم مقتله: أيّها الناس، إني رجل ضَخم، فلا يهولنكم مسقطي إذا سقطت، فإنه لا يفرَغ مني أقلّ من نَحر جَزور، حتى يفرُغ الجزارُ من جَزرها. ثم حمل فصرع، فمرّ عليه رجل وهو صريع بين القتلى، فناداه: اقرأ على أمير المؤمنين السلام، وقل له: بركات الله ورحمته عليك يا أمير المؤمنين، أنشُدك الله إلا أصبحت وقد ربطت معاوِدَ خيلك بأرجل القتلى، فإنّ الدبْرة تصبح غداً لمن غلَب على القتلى. فأخبَر الرجلُ علياً عليه السلام بما قاله، فسار في الليل بكتائبه حتى جعل القتلى خلْف ظهره، فأصبح والدَّبْرة له على أهل الشام.

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شمِر، عن السديّ، عن عبد خير، قال: قاتل هاشمُ الحارثَ بن المنذر التَّنوخيّ، حمل عليه بعد أن أعيا وكلّ، وقتل بيده، فطعنه بالرّمح فشقّ بطنَه فسقط، وبعث إليه عليّ عليه السلام وهو لا يعلم: أقدِم بلوائك، فقال للرسول: انظر إلى بطني، فإذا هو قد انشقّ، فجاء عليّ عليه السلام حتى وقف عليه، وحوله عصابة من أسلم قد صرِعوا معه، وقوم من القراء، فجزع عليه، وقال:

جَزى الله خيراً عُصْبَةً أسلَمِيّةً ... صِباح الوُجوه صُرِّعُوا حَوْلَ هاشمِ

يزيد وسعدان وبِشرٌ وَمَعْبدٌ ... وسفيان، وابنا معبدٍ ذي المكارم

وعُروة لا يَبْعَدْ ثَناهُ وذكْرُهُ ... إذا اخترِطت يوماً خفافُ الصوارم

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، عن الشعبيّ، عن أبي سلمة، أنَّ هاشم بن عتبة استصرخ الناس عند المساء: ألا مَنْ كان له إلى الله حاجة، ومن كان يريد الآخرة فليقبِل. فأقبل إليه ناس كثير شدّ بهم على أهل الشام مراراً، ليس من وجه يحمل عليه إلا صبروا له، فقاتل قتالاً [شديداً] ثم قال لأصحابه: لا يهولَنّكم ما ترَوْن من صبرهم، فوالله ما ترون منهم إلا حميّة العرب وصبرها تحت راياتها، وعند مراكزها، وإنَّهم لعلى الضلال، وإنكم لعلى الحق، يا قوم

اصبروا وصابروا واجتمعوا، وامشوا بنا إلى عدوّنا على تؤدة، رويداً، واذكروا الله، ولا يُسلمنّ رجل أخاه، ولا تُكثِروا الالتفات، واصمُدوا صمدهم، وجالدوهم محتسبين، حتى يحكم الله بيننا وبينهم، وهو خير الحاكمين.

قال أبو سلمة: فبينا هو وعصابة من القُرّاء يجالدون أهل الشام، إذ طلع عليهم فتًى شابٌّ، وهو يقول:

أنا ابن أرباب ملوكِ غسّانْ ... والدائنُ اليوم بدين عثمانْ

أنبأنا قراؤنا بما كان ... أنّ عليًّا قتلَ ابنَ عفانْ

ثم شدّ لا ينثني حتى يضربَ بسيفه، ثم جعل يلعن عليًّا ويشتِمه ويُسهب في ذمّه، فقال له هاشم بن عتبة: يا هذا إنّ الكلام بعده الخصام، وإنّ لعنَك سيّد الأبرار، بعده عقاب النار. فاتّق الله، فإنك راجع إلى ربك فيسألك عن هذا الموقف وعن هذا المقال. قال الفتى: إذا سألني ربّي قلت: قاتلتُ أهلَ العراق، لأن صاحبهم لا يصلّي كما ذُكِر لي، وإنهم لا يصلّون، وصاحبُهم قتل خليفتَنا، وهمْ آزروه على قتله. فقال له هاشم: يا بنيّ، وما أنت وعثمان! إنما قتله أصحابُ محمد، الذين هم أولى بالنظر في أمور المسلمين، وإنّ صاحبنا كان أبعدَ القوم عن دمه، وأما قولك: «إنه لا يصلّي»، فهو أوّل مَنْ صلّى مع رسول الله، وأوّل من آمن به. وأما قولك: إن أصحابه لا يصلّون، فكلّ مَن ترى معه قراء الكتاب، لا ينامون الليل تهجّداً، فاتّق الله واخشَ عقابه، ولا يغرُرْك من نفسك الأشقياء الضالُّون.

فقال الفتى: يا عبد الله، لقد دخل قلبي وجلٌ من كلامك، وإني لأظنّك صادقاً صالحاً، وأظنّني مخطئاً آثماً، فهل لي من توبة؟ قال: نعم، ارجع إلى ربّك وتب إليه، فإنه يقبل التوبةَ ويعفو عن السيئات، ويحبّ التوّابين ويحبّ المتطهّرين. فرجع الفتى إلى صفّه منكسراً نادماً، فقال له قوم من أهل الشام: خدعك العراقيّ! قال: لا، ولكنْ نصحني العراقيّ.

قال نصر: وفي قتل هاشم وعمار تقول امرأة من أهل الشام:

لا تعدَمُوا قوماً أذاقوا ابنَ ياسرٍ ... شَعوباً ولم يعطوكمُ بالخزائمِ[1]

فنحنُ قتلنا اليثربيّ ابن مِحْصَنٍ ... خطيبكمُ وابني بُدَيْل وهاشمِ

قال نصر: أما اليثربيّ، فهو عمرو بن مِحْصن الأنصاريّ، وقد رثاه النجاشيّ شاعر أهل العراق، فقال:

لنِعْمَ فتى الحيَّيْن عمرو بن مِحْصَنٍ ... إذا صارخُ الحيّ المصبَّحُ ثَوَّبا

(١) الشُّعُوب: المنيّة. لسان العرب، مادة (شعب).

إذا الخيل جالت بينها قِصَدُ القنا يثرن عَجَاجاً ساطِعاً متنصّبا
لقد فُجع الأنصارُ طرًّا بسيِّدٍ أخي ثقةٍ في الصَّالحات مجرَّبا
فيا رُبَّ خيرٍ قد أفدتَ، وجفنةٍ ملأتَ، وقِرْنٍ قد تركت مسلّبا
ويا ربّ خَصْمٍ قد رددتَ بغيظِهِ فآبَ ذليلاً بعد أن كان مُغْضَبا
وراية مجدٍ قد حملتَ وغَزْوَةٍ شهدتَ إذ النِّكْسُ الجبانُ تَهيَّبا
حويطاً على جلّ العشيرة ماجداً وما كنت في الأنصار نِكْساً مؤنّبا
طويلَ عمادِ المجد رَحْباً فِناؤه خَصِيباً إذا ما رائد الحيّ أجدبا
عظيمَ رمادِ النار لم يكُ فاحشاً ولا فَشِلاً يوم النِّزال مغلَّبا
وكنتَ ربيعاً ينفع الناسَ سيبُهُ وسيفاً جُرَازاً باتِكَ الحدِّ مِقضبَا
فمن يك مسروراً بقتل ابن مِخْصَنٍ فعاش شقيًّا ثم مات معذّبا
وغُودِر منكبًّا لفيهِ ووَجْهِهِ يعالج رمحاً ذا سنانٍ وثعلَبا[1]
فإن يقتلوا الحرّ الكريم ابنَ مِخْصَنٍ فنحن قتلنا ذا الكَلاع وحَوْشبا
وإن يقتلوا ابنيْ بُدَيْل وهاشماً فنحن تركنا منكُمُ القَرْن أعضَبا
ونحن تركنا حِمْيراً في صفوفكم لدَى الحرب صَرْعى كالنّخيل مُشَذّبا
وأفلتَنَا تحت الأسنّة مرثِدٌ وكان قديماً في الفرار مدرّبا
ونحن تركنا عند مختلف القنا أخاكم عُبيد الله لحماً ملحّبَا
بصفّين لما ارفضّ عنه رجالكُمْ ووجه ابن عتّاب تركناه مُلْغَبَا
وَطَلْحة من بعد الزبير ولم ندعْ لضبّةَ في الهيْجا عريفاً وَمَنْكِبَا
ونحن أحطنا بالبعير وأهلِه ونحن سقيناكُمْ سِماماً مقشَّبا[2]

قال نصر: وكان ابن مِخصن من أعلام أصحاب عليّ عليه السلام، قتل في المعركة وجزع عليٌّ عليه السلام لقتله.

قال: وفي قتل هاشم بن عتبة يقول أبو الطفيل عامر بن واثلة الكنانيّ، وهو من الصحابة - وقيل إنه آخر مَنْ بقي من صَحْب رسول الله صلى الله عليه وآله، وشهد مع عليّ صِفّين، وكان من مخلصي الشيعة:

يا هاشمَ الخيرِ جُزيت الجَنَّةْ قاتلتَ في الله عَدُوّ السُّنّةْ

(١) اللحم الملحَّب: المقطع طولاً. القاموس المحيط مادة (لحب).
(٢) المقشب: المخلوط بالطعام. لسان العرب، مادة (قشب).

والـتـاركِـي الـحـقّ وأهـل الـظّـنّـهْ   أعـظِـمْ بـمـا فـزت بـه مِـنْ مِـنّـهْ!
صَـيّـرنِـي الـدهـر كـأنّـي شَـنّـهْ   وسـوف تـعـلـو حـول قـبـري رَنّـهْ
مـن زوجـةٍ وحَـوْبَـةٍ وكَـنّـهْ

قال نصر: والحَوْبة القرابة، يقال: لي في بني فلان حَوْبَةٌ، أي قُرْبَى.

قال نصر: وقال رجلٌ من عُذْرة، من أهل الشام:

لـقـد رأيـتُ أمـوراً كـلُّـهـا عَـجَـبٌ   ومـا رأيـتُ كـأيّـامٍ بـصـفّـيـنَـا
لَـمّـا غَـدَوْا وغـدوْنَـا كـلُّـنـا حَـنِـقٌ   كما رأيتَ الجِمالَ الجِلَّةَ الجُونَا[1]
خـيـلٌ تـجـولُ وأخـرى فـي أعِـنَّـتِـهَـا   وآخـرون عـلـى غـيـظٍ يُـرَامُـونَـا
ثم ابـتـذلْـنَا سيوفاً في جماجمهمْ   وَمَـا نـسـاقِـيـهـمُ مـن ذاك يَـجْـزونـا
كـأنـهـا فـي أكـفّ الـقـوم لامـعـةً   سلاسلُ البرق يَجْدَعْنَ العرانينا[2]
ثـم انـصـرفْـنَـا كـأشـلاءٍ مـقـطّـعـةٍ   وكـلُّـهـم عـنـد قـتـلاهـم يـصـلّـونَـا

قال نصر: وقال رجل لعديّ بن حاتم الطائيّ - وكان من جملة أصحاب عليّ عليه السلام - يا أبا طَريف، ألم أسمعْك تقول يوم الدار: «والله لا تحبِقُ فيها عَنَاقٌ حَوْليّة»! وقد رأيتَ ما كان فيها! وقد كان فقئت عين عديّ، وقتل بنوه - فقال: أما والله لقد حَبَقَتْ في قتله العَنَاق والتيس الأعظم.

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شمر، قال: بعث عليّ عليه السلام خيلاً ليحبسوا عن معاوية مادّته، فبعث معاوية الضحاك بن قيس الفِهْرِيّ في خيل إلى تلك الخيل، فأزالوها، وجاءت عيون عليّ عليه السلام فأخبروه بما كان، فقال لأصحابه: ما ترون فيما ها هنا؟ فقال بعضهم: نرى كذا، وقال بعضهم: نرى كذا، فلما زاد الاختلاف، قال عليّ عليه السلام: اغدُوا إلى القتال، فغاداهم إلى القتال، فانهزمت صفوف الشام من بين يديه ذلك اليوم، حتى فَرّ عتبة بن أبي سفيان عشرين فرسخاً عن موضع المعركة، فقال النجاشيّ فيه من قصيدة أولها:

---

(١) جِلّة الإبل: مَسَانُّها. لسان العرب، مادة (جلل). والجُون من الإبل والخيل: الأدهم، القاموس المحيط، مادة (جون).

(٢) العرانين: الأنوف. القاموس المحيط مادة (عرن).

لـقـد أمـعـنـتَ يـا عـتـبُ الـفِـرارَا ... وأورثَـك الـوغَـى خِـزْيـاً وعـارا
فـلا يـحـمِـدْ خُـصـاك سـوى طِـمّـرٍ ... إذا أجـريـتَـهُ انـهـمـر انـهـمـارا

وقال كعب بن جُعيل - وهو شاعر أهل الشام - بعد رفع المصاحف، يذكر أيام صِفّين ويحرّض معاوية:

مـعـاوِيَ لا تـنـهـضْ بـغـيـر وثـيـقـةٍ ... فـإنّـكَ بـعـد الـيـوم بـالـذلّ عـارفُ
تـركـتـم عـبـيـد الله بـالـقـاع مـسـنَـداً ... يـمـجّ نـجـيـعـاً والـعـروق نـوازفُ[1]
ألا إنّـمـا تـبـكـي الـعـيـونُ لـفـارسٍ ... بصِفّين أجلَتْ خيلُهُ وهو واقفُ
يـنـوءُ وتـعـلـوهُ شـآبـيـبُ مـن دمٍ ... كما لاح في جيب القميص اللّفائفُ
تـبـدّل مـن أسـمـاءَ أسـيـافَ وائـلٍ ... وأيّ فـتـى لـو أخـطـأتـه الـمـتـالـفُ!
ألا إن شَـرّ الـنـاس في الـنـاس كـلّـهـمْ ... بـنـو أسـد، إنّـي بـمـا قـلـتُ عـارفُ
وفـرّت تـمـيـم: سـعـدُهـا وربـابُـهـا ... وخـالـفـت الـجـعـراءُ فـيـمـن يـخـالـفُ
وقـد صـبـرت حـولَ ابـن عـمّ مـحـمـدٍ ... على الموت شهباءُ المناكب شارف
فـمـا بـرحـوا حـتـى رأى الله صـبـرهـم ... وحتى أتيحت بالأكفّ المصاحفُ

وقد تقدم ذكر هذه الأبيات بزيادة على ما ذكرناه الآن.

قال نصر: وهجا كعبَ بن جُعَيل عتبةُ بن أبي سفيان وعيّره بالفرار، وكان كعب من شيعة معاوية، لكنّه هجا عتبة تحريضاً له، فهجاه عتبة جواباً، فقال له:

وَسُـمِّـيـتَ كـعـبـاً بـشـرّ الـعـظـا ... م وكـان أبـوك يُـسَـمَّـى الـجُـعَـلْ
وإنّ مـكـانـك مـن وائـلٍ ... مـكـانُ الـقُـرادِ مـن اسـت الـجَـمَـلْ

قال نصر: ثم كانت بين الفريقين الوقعة المعروفة بوقعة الخميس، حدّثنا بها عمر بن سعد، عن سليمان الأعمش عن إبراهيم النّخعِيّ، قال: حدثنا القعقاع بن الأبرد الطُّهَوِيّ، قال: والله إني لواقف قريباً من عليّ عليه السلام بصِفّين يوم وقعة الخميس، وقد التقتْ مذحِج - وكانوا في ميمنة عليّ عليه السلام - وعكّ ولخم وجُذام والأشعريّون، وكانوا مستبصرين في قتال عليّ عليه السلام، فلقد والله رأيتُ ذلك اليوم من قتالهم، وسمعت من وقع السيوف على الرؤوس وخبْط الخيول بحوافرها في الأرض وفي القتلى، ما الجبال تَهِدّ، ولا الصواعق تصعَق، بأعظم من هؤلاء في الصدور من تلك الأصوات. ونظرتُ إلى عليّ عليه السلام وهو قائم، فدنوت منه فأسمعُه يقول: لا

---

(١) النَّجيع: الدم المائل إلى السواد، أو دم الجوف. القاموس المحيط، مادة (نجع).

حول ولا قوة إلا بالله! اللهمّ إليك الشكوى وأنت المستعان! ثم نهض حين قام قائم الظهيرة وهو يقول: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾[1]. وحمل على الناس بنفسه، وسيفُه مجرّد بيده، فلا والله ما حجز بين الناس ذلك اليوم إلا الله ربُّ العالمين، في قريب من ثلث الليل الأول، وقتِلتْ يومئذ أعلام العرب، وكان في رأس عليٍّ عليه السلام ثلاثُ ضَرَبات، وفي وجهه ضربتان.

قال نصر: وقد قيل: إنّ علياً عليه السلام لم يخرج قطّ، وقتِل في هذا اليوم خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، وقتِل من أهل الشام عبد الله بن ذي الكَلاع الحميريّ، فقال معقل بن نَهِيك بن يساف الأنصاريّ:

يا لهفَ نفسِي ومَنْ يشفي حَزَازتَها ... إذ أفلتَ الفاسِقُ الضُّلّيل منطلقَا

وأفلت الخيلَ عمرو وهي شاحِبَةٌ ... تحت العجاج تحتَ الرّكْض والعَنَقَا[2]

وافت منيّة عبد الله إذ لحقتْ ... قبّ الخيول به، أعْجِزْ بمن لُحِقَا

وانساب مروانُ في الظَّلْماء مستتراً ... تحت الدجَى كلّما خافَ الردى أرقا

وقال مالك الأشتر:

نحن قتلنا حوشباً ... لمّا غدا قد أعلما

وذَا الكَلاع قبلَهُ ... ومَعْبَداً إذْ أقدما

إن تقتلوا منا أبا الـ ... يقظانِ شيخاً مسلِمَا

فقد قتلنا منكمُ ... سبعين كَهْلاً مجرِما

أضحوا بصِفّين وقدْ ... لاقوْا نَكالاً مؤثِمَا

وقالت ضُبيعة بنت خزيمة بن ثابت ذي الشهادتين ترثي أباها رحمه الله:

عيْن جودي على خزيمة بالدمْـ ... ـعِ قتيلِ الأحزاب يَوم الفُراتِ

قتلوا ذا الشّهادتين عُتوًّا ... أدرك الله منهم بالتِّراتِ!

قتلوه في فتية غير عُزْلٍ ... يسرعون الركوبَ في الدَّعَواتِ

نصروا السيّد الموفّق ذا العد ... لِ، ودانوا بذاك حتى المماتِ

لعنَ الله معشراً قتلوه ... ورماهمْ بالخزِي والآفاتِ

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٨٩.

(٢) العَنَقُ: ضرب من السير فسيح سريع. المصباح المنير، مادة (عنق).

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، عن الأعمش، قال: كتبَ معاوية إلى أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاريّ، صاحب منزل رسول الله صلى الله عليه وآله - وكان سيّداً معظماً من سادات الأنصار، وكان من شيعة عليّ عليه السلام - كتاباً، وكتب إلى زياد بن سميّة - وكان عاملاً لعليّ عليه السلام على بعض فارس - كتاباً ثانياً. فأما كتابه إلى أبي أيوب فكان سطراً واحداً: حاجيْتك! «لا تنسى الشيباء أبا عُذرها، ولا قاتل بِكْرها»، فلم يدر أبو أيوب ما هو! قال: فأتى به عليًا عليه السلام فقال: يا أميرَ المؤمنين، إن معاوية كهف المنافقين، كتب إليّ بكتاب لا أدري ما هو! قال عليّ عليه السلام: فأينَ الكتاب؟ فدفعه إليه، فقرأه، وقال: نعم، هذا مثل ضربه لك، يقول: لا تنسى الشيباء أبا عذرها. والشيباء: المرأة البِكْر ليلةَ افتضاضها، لا تنسى بعلها الذي اقترعها أبداً، ولا تنسى قاتل بِكْرها، وهو أول ولدها، كذلك لا أنسى أنا قتل عثمان.

وأما الكتابُ الذيَ كتبَه إلى زياد، فإنّه كان وعيداً وتهدُّداً، فقال زياد: ويْلِي عَلَى معاوية، كهفِ المنافقين وبقيّة الأحزاب! يتهدّدِني ويتوعّدني، وبيني وبينه ابنُ عمّ محمد، معه سبعون ألفاً، سيوفهم على عواتقهم، يطيعونه في جميع ما يأمرهم به، لا يلتفت رجل منهم وراءه حتى يموت! أما والله لو ظفِر ثم خَلَص إليّ ليجدنّني أحمرَ ضرّاباً بالسيف.

قال نصر: أحمر أي مولى. فلما ادّعاه معاوية عاد عربيًّا مَنافياً.

قال نصر: وروى عمرو بن شمِر أنّ معاوية كتب في أسفَل كتابه إلى أبي أيوب:

أبـلِـغْ لـديـك أبـا أيـوبَ مـألُـكـةً ... أنـا وقـومُـك مـثـل الـذئـب والـنَّـقَـدِ[1]

إمّا قـتـلْـتـم أمـيـر الـمـؤمـنـيـن فَـلا ... تَـرجُـوا الـهـوادة مِـنّـا آخـر الأبـد

إنّ الـذي نـلـتـمـوه ظـالـمـيـنَ لَـهُ ... أبقـتْ حَـزازتُـه صَـدْعـاً عـلـى كـبِـدي

إنّـي حـلـفـتُ يـمـيـنـاً غـيـرَ كـاذبـةٍ ... لـقـد قـتـلـتـم إمـامـاً غـيـرَ ذي أوَدِ

لا تـحـسِـبـوا أنـنـي أنـسـى مـصـيـبـتَـهُ ... وفـي الـبـلاد مـن الأنـصـار مـن أحَـدِ

قـد أبـدلَ الله مـنـكُـمْ خَـيْـر ذي كَـلَـعٍ ... والـيـحـصـبـيّـيـن أهْـل الـخـوف والـجـنَـد

إن الـعـراق لـنـا فـقـعٌ بـقـرقـرةٍ ... أو شـحـمـةٌ بـزّهـا شـاوٍ ولـم يـكَـدِ

والـشـام يـنـزلـهـا الأبـرار، بـلـدتُـهـا ... أمـنٌ وبَـيْـضـتُـهـا عِـرّيـسـةُ الأسـد

فلما قرىء الكتاب على عليّ عليه السلام، قال: لشدّ ما شحذَكم معاوية! يا معشر الأنصار أجيبوا الرجل، فقال أبو أيوب: يا أميرَ المؤمنينَ، إني ما أشاء أن أقولَ شيئاً من الشعر يعيا به الرجال إلا قلته، فقال: فأنت إذاً أنت.

---

(١) المألُكَة: الرسالة. القاموس المحيط، مادة (ألك).

فكتب أبو أيوب إلى معاوية: أمّا بعد، فإنك كتبت: «لا تنسى الشَّيباء أبا عُذْرها، ولا قاتل بِكْرها»، فضربتَها مثلاً بقتل عثمان، وما نحن وقتل عثمان! إنّ الذي تربص بعثمان وثبّط يزيد بن أسد وأهلَ الشام عن نُصرته لأنتَ، وإنّ الذين قتلوه لغيرُ الأنصار، وكتب في آخر كتابه:

لا توعِدنّا ابنَ حرب إننا نفرٌ ... لا نبتغي وُدّ ذِي البغضاء من أحدِ

واسْعَوْا جميعاً بني الأحزاب كلّكُمُ ... لسنا نريد رِضاكُمْ آخر الأبدِ

نحنُ الّذِين ضربْنَا النّاس كلّهُمُ ... حتى استقامُوا وكانوا عُرْضة الأوَدِ[1]

والعامَ قصرُك مِنّا إن ثبتّ لنا ... ضربٌ يزيّل بينَ الرُّوح والجسدِ

أمّا عليٌّ فإنا لا نفارقُه ... ما رفرفَ الآلُ في الدوّيّة الجَرَدِ

إمّا تبدّلتَ مِنّا - بعد نُصرتِنا ... دينَ الرسول - أناساً ساكِنِي الجَنَدِ

لا يعرفون أضلّ الله سعيهمُ ... إلا اتّباعكم، يا راعيَ النَّقَدِ

فقد بغى الحقّ هَضماً شرُّ ذي كَلَعٍ ... واليحصبيّونَ طُرًّا بيضةُ البلد

قال: فلّما أتى معاوية كتابُ أبي أيوب كَسَره.

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شمِر، قال: حدثني مجالد، عن الشعبيّ، عن زياد بن النَّضْر الحارثيّ، قال: شهدتُ مع عليّ عليه السلام صِفّين، فاقتتلنا مرة ثلاثة أيام، وثلاث ليال، حتى تكسّرت الرماح، ونفدَت السهام، ثم صرنا إلى المسايفة، فاجتلدنا بها إلى نصف الليل، حتى صرنا نحن وأهلَ الشام في اليوم الثالث، يعانق بعضُنا بعضاً، ولقد قاتلتُ ليلتئذٍ بجميع السلاح، فلم يبقَ شيءٌ من السلاح إلا قاتلتُ به، حتى تحاثَيْنا بالتراب، وتكادَمْنا[2] بالأفواه، حتى صرنا قياماً ينظر بعضنا إلى بعض، ما يستطيع أحدٌ من الفريقين أن ينهضَ إلى صاحبه، ولا يقاتل، فلما كان نصفُ الليل من الليلة الثالثة، انحاز معاوية وخيله من الصفّ وغلب عليّ عليه السلام على القَتْلَى، فلما أصبح أقبل على أصحابه يدفنهم وقد قتِل كثير منهم، وقتل من أصحاب معاوية أكثر، وقتِل فيهم تلك الليلة شِمر بن أبرهة.

قال نصر: وحدثنا عمرو، عن جابر عن تميم، قال: والله إنّي لمع عليّ عليه السلام، إذ أتاه علقمة بن زهير الأنصاريّ، فقال: يا أمير المؤمنين، إن عمرو بن العاص يرتجز في الصفّ بشعر، أفأسمعكه! قال: نعم، قال: إنه يقول:

---

(١) الأوَد: الاعوجاج. القاموس المحيط، مادة (أود).

(٢) كَدَمه: عضّه بأدنى فمه. القاموس المحيط، مادة (كدم).

إذا تـخـازَرْتُ ومـا بـي مـن خَـزَرْ ... ثم كَسَرْتُ العين من غير عَوَرْ[١]

ألـفـيـتَـنـي ألـوَى بـعـيـدَ الـمـسـتـمـرْ ... ذا صولةٍ في المصمئلاتِ الكُبَرْ

أحـمـل مـا حُـمّـلـتُ مـن خـيـر وشـرّ ... كالحيّة الصَّماءِ في أصل الحَجَرْ

فقال عليّ: اللهمَّ العنه، فإنّ رسولك لعنه، قال علقمة: وإنّه يا أميرَ المؤمنين يرتجز برجز آخر، فأنشدك؟ قال: قل، فقال:

أنـا الـغـلامُ الـقـرشـيّ الـمـؤتـمـنْ ... الماجدُ الأبلجُ ليثٌ كالشَّطَنْ[٢]

تـرضـى بـيَ الـشـامُ إلـى أرض عَـدَنْ ... يا قادة الكوفة، يا أهل الفِتَنْ

أضـربُـكـم ولا أرَى أبـا حَـسَـنْ ... كَفَى بهذا حَزَناً من الحَزَنْ!

فضحك عليّ عليه السلام، وقال: إنّه لكاذب، وإنّه بمكاني لعالم، كما قال العربيّ: «غير الوهْي ترقعين وأنت مبصرة»، ويَحْكم! أروني مكانه، لله أبوكم، وخلاكم ذَمّ!

وقال محمد بن عمرو بن العاص:

لو شهدت جُمْلٌ مقامي ومشهدي ... بصِفّين يوماً شاب منها الذوائبُ

غداةَ غَدَا أهلُ العراق كأنّهمْ ... من البحر موجٌ لُجّهُ متراكبُ

وجئناهُمُ نمشِي صفوفاً كأنّنا ... سحاب خريفٍ صفّفَتْهُ الجنائبُ

فطارتْ إلينا بالرماح كُماتُهُمْ ... وطِرْنَا إليهمْ والسيوفُ قواضبُ

فدارتْ رَحاناً واستدارت رحاهُمُ ... سَرَاةَ نهارٍ ما تولّى المناكبُ

إذا قلت يوماً قد ونوا برزتْ لنَا ... كتائب منهم وارجحنّت كتائبُ

وقالوا نرى من رأينا أن تُبايعوا ... عليًّا، فقلنا بل نرى أن نضاربَا

فأبْنَا وقد أردَوْا سَرَاة رجالنا ... وليس لما لاقَوْا سوى الله حاسبُ

فلم أر يوماً كان أكثر باكياً ... ولا عارضاً منهم كميًّا يكالب

كأنّ تلالي البيض فينا وفيهمُ ... تلألُؤُ برقٍ في تِهامة ثاقِب

وقال النّجاشيُّ يذكر علياً عليه السلام، وجِدّه في الأمر:

إنّي إخالُ عليًّا غير مرتدعٍ ... حَتّى تُقام حقوقُ الله والحُرَمُ

أما ترى النَّقْع معصوباً بلمّتهِ ... كأنه الصَّقْر في عِرْنينه شَمَمُ

غضبانُ يحرق نابَيْه عَلَى حَنَقٍ ... كما يغطّ الفنيقُ المصعَب القَطِمُ[٣]

---

(١) الخَزَر: كسر العين بصرها خلقة، وقيل: هو حول إحدى العينين. لسان العرب مادة (خزر).
(٢) الشطن: الحبل الطويل شديد الفتل. اللسان، مادة (شطن).
(٣) الفنيق: الفحل المكرم لا يؤذى لكرامته.

حتى يزيل ابنَ حربٍ عن إمارته ... كما تنكّب تيس الحبْلَةِ الْحُلُمُ

قال نصر: وحدّثنا عمر بن سعد عن الشعبي، قال: بلغ النجاشيّ أن معاوية تهدده فقال:

يَاأيُّها الرجلُ المبدِي عداوتَهُ ... رَوِّىءْ لنفسك أيّ الأمر تأتمِرُ!
لا تحسبنّي كأقوام ملكْتَهُمُ ... طوعَ الأعِنّة لمّا ترشح الغُدُر
وما علمتُ بما أضمرتَ من حَنَقٍ ... حتى أتتني به الركْبانُ والنّذرُ
إذا نَفَسْتَ على الأنجاد مجدَهمُ ... فابْسُط يديك، فإن الخير مبتَدَرُ
واعلم بأنَّ عليَّ الخير مِن نَفَرٍ ... شُمِّ العرانين لا يعلوهُمُ بشرُ
لا يجحد الحاسد الغضبان فضلهمُ ... ما دام بالحَزْن من صَمّائها حَجَرُ
نعم الفتى أنتَ إلاّ أنّ بينكما ... كما تفاضلَ ضوءُ الشمس والقَمَرُ
ولا إخالك إلا لستَ منتهياً ... حتى يمسّك من أظفارِهِ ظُفُرُ
لا تحمَدنّ امرأ حتى تجرِّبه ... ولا تذمنّ مَنْ لم يبلُهُ الخُبُرُ
إني امرؤٌ قلما أثنِي على أحدٍ ... حَتّى أرى بَعْضَ ما يأتِي وما يَذَرُ
وإن طوى معشرٌ عنّي عداوتَهمْ ... في الصّدر أو كان في أبصارهم خَزَرُ
أجمعتُ عَزْماً جراميزي بقافيةٍ ... لا يبرحُ الدَّهرَ منها فيهمُ أثَرُ

قال: فلمّا بلغ معاويةَ هذا الشعر، قال: ما أراه إلا قد قارب.

قال نصر: وحدّثنا عمر بن سعد، عن محمد بن إسحاق، أنّ عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، كان يحمل على الخيل يوماً، فجاءه رجل، فقال: هل من فرسٍ يابْن ذي الجناحين! قال: تلك الخيل فخذ أيّتها شئت، فلما ولّى قال ابنُ جعفر: إن تصب أفضل الخيل تقتَل، فما عَتِم أن أخذ أفضل الخيل، فركبه، ثم حمل على فارس قد كان دعاه إلى البراز، فقتله الشاميّ، وحمل غلامان آخران من أهل العراق، حتى انتهيا إلى سرادق معاوية، فقتِلا عنده، وأقبلت الكتائبُ بعضُها نحو بعض، فاقتتلت قياماً في الركب، لا يسمع السامع إلا وقْع السيوف على البيض والدّرَق.

وقال عمرو بن العاص:

أجئتم إلينا تسفِكُون دماءنا ... وما رُمتمُ وعرٌ من الأمر أعسرُ
لعمرِي لَمَا فيه يكون حِجاجُنا ... إلى الله أدْهَى لو عقلتم وأنكرُ

تعاورتمُ ضَرباً بكلّ مهنّدٍ ... إذا شدّ وَرْدَانٌ تقدّم قنبُر
كتائبكم طوراً تَشُدُّ وتارةً ... كتائبنا فيها القَنا والسَّنَوَّرُ
إذا ما ٱلتقوْا يوماً تدارك بينهمْ ... طِعَانٌ وموت في المعارك أحمرُ

وقال رجل من كلْب مع معاوية يهجو أهل العراق ويوبّخهم:

لقد ضَلّتْ معاشرُ من نزارٍ ... إذا ٱنقادوا لمثل أبي تُرابِ
وإنهمُ وبيعتَهمْ عليًّا ... كواشِمة التغضّنِ بالخضابِ
تزيّنُ من سَفاهتها يديْها ... وتحسِرُ باليدين عن النّقابِ
فإياكم وداهيةً نَؤوداً ... تسير إليكم تحتَ العُقابِ(١)
إذا ساروا سَمعتَ لحافَتَيْهمْ ... دوِيًّا مثل تصفِيقِ السَّحاب
يُجيبون الصَّريخ إذا دعاهمْ ... وقد طعن الفوارسُ بالحرابِ
عليهم كلُّ سابغة دِلاصٍ ... وأبيضَ صارم مثل الشّهاب(٢)

وقال أبو حَيّة بن غَزِيّة الأنصاريّ، وهو الذي عَقَر الجمل يوم البصرة، واسمه عمرو:

سائلْ حليلةَ معبَدٍ عن بعلِها ... وحليلةَ اللخميّ وابن كَلاَعِ
واسأل عُبَيْد الله عن فرساننا ... لَمّا ثَوَى مُتَجَدّلاً بالقاعِ
واسأل معاويةَ المولّي هارباً ... والخيل تمعَجُ وهي جِدّ سراعِ
ماذا يخَبرُك المخبر منهمُ ... عنهمْ وعَنّا عند كلّ وقاعِ
إن يصدُقوك يخبّرُوك بأنّنا ... أهل النَّدَى قِدَماً مجيبُوا الدَّاعِي
إن يصدقوك يخبّروك بأنّنا ... نحمي الحقيقة كلَّ يوم مِصاعِ
ندعو إلى التقوى ونرعَى أهلها ... برعاية المأمونِ لا المضياعِ
ونسنّ للأعداء كلّ مثقّفٍ ... لَدْنٍ وكلَّ مشطّبٍ قطّاعِ

وقال عديّ بن حاتم الطائيّ:

أقولُ لما أنْ رأيتُ المعمعَهْ ... واجتمع الجندان وسْطَ البلْقَعَهْ
هذا عليّ والهدَى حَقًّا معَهْ ... يا ربّ فاحفظه ولا تضيّعَهْ
فإنّه يخشاك ربّ فارفَعَهْ ... ومن أراد عيبَهُ فضعضِعَهْ

أو كادَهُ بالبَغْيِ منك فاقمعَهْ

---

(١) نأدت الداهية فلاناً: دهته، القاموس، مادة (نأد).

(٢) درع دلاص: ملساء لينة. القاموس، مادة (دلص).

وقال النعمان بن جعلان الأنصاريّ:

سائلْ بصِفّين عَنَّا عند غَدْوَتِنَا ... أم كيفَ كُنّا إلى العلياء نبتدرُ!

وسلْ غداةَ لقينا الأزدَ قاطِبَةً ... يَوْمَ البصيرة لما استجمعتْ مُضَرُ

لولا الإلٰهُ وعَفْوٌ من أبي حسن ... عنهم، وما زال منه العفو يُنتظرُ

لما تداعتْ لهم بالمِصْرِ داعيةٌ ... إلاّ الكلابُ، وإلاّ الشاءُ والحُمُرُ

كم مُقْعَصٍ قد تركناهُ بمقْفرَةٍ ... تعوي السباعُ عليه وهو منعفِرُ

ما إن يؤوب ولا ترجوه أسرته ... إلى القيامة حتى ينفخ الصُّوَرُ

قال عمرو بن الحمِق الخُزاعيّ:

تقولُ عِرْسِيَ لما أنْ رأت أرَقِي ... ماذا يهيجكَ من أصحاب صِفِّينا

ألستَ في عُصْبَةٍ يهدي الإلٰهُ بهمْ ... لا يظلمون، ولا بغياً يريدونَا!

فقلت إني عَلَى ما كان من رَشَدٍ ... أخشى عواقبَ أمرٍ سوف يأتينا

إدالةَ القومِ في أمرٍ يرادُ بنا ... فاقْنَيْ حياءً وكفّي ما تقولينا

وقال حُجْر بن عدي الكنديّ.

يا ربَّنَا سلّم لنا عليّا ... سلّم لنا المهذّب التَّقِيّا

المؤمنَ المسترشِدَ الرضيّا ... واجعله هادي أمةٍ مهديّا

واحفظه ربّ حفظك النبيّا ... لا خَطِلَ الرأيِ ولا غبيّا

فإنه كان لنا وليًّا ... ثم ارتضيه بعده وصيّا

قال نصر: وحدّثنا عمر بن سعد، عن الشعبي، قال: قال الأحنف بن قيس في صِفّين لأصحابه: هلَكت العرب! قالوا له: وإن غَلبْنا يا أبا بحر؟ قال: نعم، قالوا: وإن غُلِبنا؟ قال: نعم، قالوا: والله ما جَعَلْتَ لنا مخرجاً. فقال الأحنف: إنّا إنْ غلبناهم لم نترك بالشام رئيساً إلا ضربنا عنقه، وإن غلبونا لم يعرّج بعدها رئيس عن معصية الله أبداً.

قال نصر: وحدّثنا عمر بن سعد، عن الشعبي، قال: ذكر معاوية يومَ صِفّين بعد عام الجماعة، وتسليم الحسن عليه السلام الأمرَ إليه، فقال الوليد بن عُقْبة: أيُّ بني عمِّك كان أفضلَ يوم صفّين [يا وليد]، عند وَقَدان الحرب، واستشاطة لَظَاها حين قاتلَت الرجال على الأحساب؟ قال: كلّهم قد وصل كَنَفَيْها عند انتشار وَقْعتها، حتى ابتلّت أثباجُ[1] الرّجال من

---

(١) ما بين الكاهل إلى الظهر، ووسط الشيء القاموس، مادة (ثَبَج).

الجِرْيال[١]، بكلّ لَدْن[٢] عَسّال، وبكلّ عَضْب[٣] قَصّال. فقال عبد الرحمن بن خالد بن الوليد: أما والله لقد رأيْتُنا يوماً من الأيام، وقد غشيَنا ثعبان في مثل الطَّوْد الأرعن، قد أثار قسطلاً حال بيننا وبين الأفق، وهو على أدهم شائل الغرّة، - يعني علياً عليه السلام - يضربهم بسيفه ضربَ غرائب الإبل، كاشراً عن نابه كشر المُخْدر الحرِب، فقال معاوية: نعم إنه كان يقاتل عن تِرَةٍ له وعليه.

قال نصر: وحدّثنا عمر بن سعد، عن الشعبيّ، قال: أرسل عليّ عليه السلام إلى معاوية: أن أبرُز إليّ وأعْفِ الفريقين من القتال، فأيّنا قتل صاحبه كان الأمر له. فقال عمرو: لقد أنصفك الرجل، فقال معاوية: أنا أبارز الشجاع الأخرق! أظنك يا عمرو طمِعت فيها. فلمّا لم يجب عليّ عليه السلام: وانفْساه! أيطاع معاوية وأعصى! ما قاتلت أمة قطّ أهلَ بيتِ نبيها وهي مقرّة بنبيّها غير هذه الأمّة!

ثم إنّ عليًا عليه السلام أمرَ الناس أن يحملُوا على أهل الشام، فحملوا، فنقضوا صفوف الشام، فقال عمرو: عَلى مَنْ هذا الرّهج الساطع؟ قالوا: على ابنيْك عبد الله ومحمد، فقال عمرو: يا وردان، قدّم لوائي، فأرسل إليه معاوية: إنه ليس على ابنيْك بأس فلا تنقض الصفّ، والزم موقفك، فقال عمرو: هيهات هيهات.

اللّيثُ يَحْمِي شِبْلَيْهِ ما خيرُهُ بَعْدَ ابْنَيْهِ!

ثم تقدّم باللواء، فأدركه رسول معاوية [فقال]: إنه ليس على ابنيك بأس، فلا تحمِلنّ، فقال: قل له: إنك لم تلدهما، وإني أنا ولدتُهما، وبلغ مقدّم الصفوف، فقال له الناس: مكانَك! إنّه لا بأس على ابنيك، إنّهما في مكان حريز. فقال: أسمعوني أصواتَهما حتى أعلمَ أحيّان هما أم قتيلان! ونادى: يا وَرْدان، قدم لواءك قَيْد قوس، فقدّم لواءه، فأرسل عليّ عليه السلام إلى أهل الكوفة: أن احملوا، وإلى أهل البصرة: أن احملوا. فحمل الناس من كلّ جانب، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وخرج رجل من أهل الشام، فقال: مَنْ يبارز؟ فبرز إليه رجلٌ من أهل العراق، فاقتتلا ساعةً، وضرب العراقيّ الشاميّ عَلَى رجله، فأسقط قدَمَه، فقاتل ولم يسقط إلى الأرض، فضرَبه العراقيّ أخرى، فأسقط يده، فرمى الشاميّ سيفه إلى أهل الشام، وقال: دونكم سيفي هذا، فاستعينوا به على قتال عدوّكم. فاشتراه معاوية من أوليائه بعشرة آلاف درهم.

---

(١) الجِريال: صبغ أحمر، القاموس مادة (جرل).
(٢) اللّدْن: اللّين من كل شيء. القاموس، مادة (لدن).
(٣) العضب: القطع والضرب والطعن. القاموس، مادة (عضب).

قال نصر: وحدّثنا مالك الجُهَنيّ، عن زيد بن وهب، أنّ عليًا عَلَيْتَلاِ مرّ عَلَى جماعة من أهل الشام بصِفّين، منهم الوليد بن عقبة، وهم يشتِمونه ويقصِبونه، فأخبر بذلك، فوقف على ناسٍ من أصحابه، وقال: انهَدُوا إليهم، وعليكم السكينة والوقار وسيما الصالحين، أقرِبْ بقومٍ من الجهل، قائدهم ومؤدّبهم معاوية، وابن النابغة، وأبو الأعور [السُّلَميّ]، وابن أبي مُعيط شارب الحرام، والمحدود في الإسلام! [وهم أولاء]، يقصِبونني[1] ويشتمونني، وقبل اليوم ما قاتلوني وشتَموني، وأنا إذ ذاك أدعوهم إلى الإسلام، وهم يدعونني إلى عبادة الأصنام، فالحمد لله، ولا إله إلا الله! لقديماً ما عاداني الفاسقون، إنّ هذا لهو الخطب الجلل، إنّ فساقاً كانوا عند غير مرضيّين، وعَلَى الإسلام وأهله متخوّفين، أصبحوا وقد خدعوا شَطْر هذه الأمة، وأشربوا في قلوبهم حبّ الفتنة، واستمالوا أهواءهم بالإفك والبهتان، ونَصَبُوا لنا الحرب، وجَدُّوا في إطفاء نور الله، والله متمّ نوره ولو كره الكافرون. اللهمّ فإنهم قد رَدّوا الحق فافضُضْ جمعَهم، وشتّت كلمتَهم، وأبلسْهم بخطاياهم، فإنه لا يَذلّ مَنْ واليت، ولا يَعِزّ من عاديت.

قال نصر: وكان عليّ عَلَيْتَلاِ، إذا أراد الحمْلة هلّل وكَبّر ثم قال:

مـن أيِّ يـومـيّ مـن الـموتِ أفـرّ أيـومَ لـم يـقـدر أو يـوم قُـدِرْ!

فجعل معاوية لواءه الأعظم مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فأمر عليّ عَلَيْتَلاِ جارية بن قُدامة السعديّ أن يلقاه بأصحابه، وأقبل عمرو بن العاص بعده في خيل، ومعه لواء ثانٍ، فتقدّم حتى خالط صفوفَ العراق، فقال عليّ عَلَيْتَلاِ لابنه محمد: امش نحو هذا اللواء رويداً، حتى إذا أشرَعْت الرماح في صدورهم فأمسك يدك حتى يأتيك أمري. ففعل - وقد كان أعدّ عَلَيْتَلاِ مثلَهم مع الأشتر - فلما أشرَع محمد الرماح في صدورِ القوم، أمر عليٌّ عَلَيْتَلاِ الأشترَ أن يحمل فحمل، فأزالهم عن مواقفهم، وأصاب منهم رجالاً، واقتتل الناس قتالاً شدِيداً، فما صلى مَنْ أراد الصلاة إلا إيماء، فقال النجاشيّ في ذلك اليوم يذكر الأشتر:

ولـمـا رأيـنـا الـلّـواء الـعُـقـاب يـقـحّـمـه الـشـانـئُ الأخـزرُ
كـلـيـث الـعـريـنِ خـلال الـعجاج وأقـبـل فـي خـيـلِـه الأبـتـرُ
دَعَـوْنـا لـهـا الـكـبش كَـبْشَ العراق وقـد أضـمـر الـفـشلَ الـعـسكـرُ
فـردّ الـلـواء عَـلَـى عَـقْـبِـهِ وفـاز بـحـظـوتـهـا الأشـتـرُ
كـمـا كـان يـفـعـل فـي مِـثـلـهـا إذا نـاب مـعْـصَـوْصِـبٌ مـنـكـر
فـإن يـدفـع الله عـن نـفـسِـه فـحـظّ الـعـراق بـه الأوفـرُ

---

(١) قصبه: شتمه وعابه ووقع فيه. اللسان، مادة (قصب).

إذا الأشتر الخيرُ خلّى العراق فقد ذهب العُرْفُ والمنكَرُ
وتلك العراق ومن عرفت كفَقْع تضمّنه القَرْقَرُ[1]

قال نصر: وحدّثنا محمد بن عتبة الكنديّ، قال: حدثني شيخ من حَضرموت شَهِد مع عليّ عليه السلام صِفّين، قال: كان مِنَّا رجل يعرف بهانىء بن فهد، وكان شجاعاً، فخرج رجل من أهل الشام يدعو إلى البراز فلم يخرج إليه أحد، فقال هانىء: سبحان الله! ما يمنعكم أن يخرج منكم رجل إلى هذا! فوالله لولا أنّي موعوك، وأنّي أجدُ ضعفاً شديداً لخرجت إليه. فما ردّ أحدٌ عليه، فقام وشدّ عليه سلاحه ليخرج، فقال له أصحابهُ: يا سبحان الله! أنت موعوك وَعْكَةً شديدة، فكيف تخرج! قال: والله لأخرجنّ ولو قتَلني، فخرج، فلما رآه عرفه، وإذا الرجل من قومه من حَضرموت، يقال: له يعمر بن أسد الحضرميّ، فقال: يا هانىء، ارجع فإنّه إن يخرج إليّ رجلٌ غيرُك أحبُّ إليّ، فإنّي لا أحبّ قتلك. قال هانىء: سبحان الله! أرجع وقد خرجت، لا والله لأقاتلن اليوم حتى أقتل، ولا أبالي قتلتَني أنت أو غيرك! ثم مشى نحوه، وقال: اللهمّ في سبيلك ونصراً لابن عمّ رسولك. واختلفا ضربتيْن، فقتله هانىء، وشدّ أصحاب يعمر بن أسد عَلَى هانىء، فشدّ أصحاب هانىء عليهم، فاقتتلوا وانفرجوا عن اثنين وثلاثين قتيلاً. ثم إنّ عليًا عليه السلام أرسل إلى جميع العسكر: أن احملوا، فحمل الناس كلُّهم عَلَى راياتهم، كلٌّ منهم يحمل عَلَى مَنْ بإزائه، فتجالَدُوا بالسيوف، وعُمُد الحديد، لا يُسمع إلاّ صوت ضرب الهامات، كوقع المطارق على السنَّادِين، ومرّت الصلوات كلّها، فلم يصلّ أحدٌ إلا تكبيراً عند مواقيت الصلاة، حتى تفانَوْا، ورقّ الناس، وخرج رجل من بين الصّفّين، لا يُعلَم مَنْ هو، فقال: أيّها الناس، أخرَج فيكم المحلّقون؟ فقيل: لا، فقال: إنّهم سيخرُجون، ألسنتُهم أحلَى من العسل، وقلوبهم أمرّ من الصَّبِر، لهم حُمَة كحُمَة الحيات. ثم غاب الرجل فلم يُعلم مَنْ هو!

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شمر، عن السدي، قال: اختلط أمر الناس تلك الليلة، وزال أهلُ الرايات عن مراكزهم، وتفرّق أصحابُ عليّ عليه السلام عنه، فأتى ربيعة ليلاً، فكان فيهم، وتعاظم الأمر جدًا، وأقبل عديّ بن حاتم يطلبُ عليًا عليه السلام في موضعه الذي تركه فيه فلم يجده، فطاف يطلبه، فأصابه بين رماح ربيعة، فقال: يا أمير المؤمنين، أمّا إذْ كنت حيًا، فالأمر أمَمٌ، ما مشيتُ إليك إلاّ عَلَى قتيل، وما أبقت هذه الوقعة لهم عميداً، فقاتِل حتى يفتح الله عليك، فإنّ في الناس بقيّة بعد وأقبل الأشعث يلهث جزعاً، فلما رأى عليًا عليه السلام هلّل فكبّر، وقال: يا أمير المؤمنين، خيل كخيلٍ ورجال كرجال، ولنا الفضلُ عليهم إلى ساعتنا هذه، فعدْ

---

(١) الفَقْع: البيضاء الرخوة من الكمأة. القاموس، مادة (فقع). والقرقر: أرض مطمئنة لينة. القاموس، مادة (قرر).

إلى مكانك الذي كنتَ فيه، فإنّ الناس إنما يظنّونك حيث تركوك. وأرسل سعيد بن قيس الهمْدَانيّ إلى عليّ عليه السلام: إنّا مشتغلون بأمرنا مع القوم، وفينا فضل، فإن أردت أن نمِدّ أحداً أمددنا. فأقبل عليٌّ عليه السلام عَلَى ربيعة، فقال: أنتم دِرْعي ورمحي - قال: فربيعة تفخَر بهذا الكلام إلى اليوم - فقال عديّ بن حاتم. يا أمير المؤمنين، إنّ قوماً أنِسْت بهم، وكنت في هذه الجولة فيهم، لعظيمٌ حقّهم، والله إنّهم لصُبُر عند الموت، أشدّاء عند القتال - فدعا علي عليه السلام بفرَس رسول الله صلى الله عليه وآله الذي كان يقال له المرتجز، فركبه، ثم تقدّم أمام الصفوف، ثم قال: بل البغلة، بل البغلة، فقدِّمت له بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله، وكانت الشهباء، فركبها، ثم تعصّب بعمامة رسول الله صلى الله عليه وآله، وكانت سوداء، ثم نادى: أيّها الناس، مَنْ يَشْرِ نفسه الله يربح، إنّ هذا ليومٌ له ما بعده، إنّ عدوّكم قد مسّه القَرْح كما مسكم، فانتدبوا لِنصرة دين الله. فانتدب له ما بين عشرة آلاف إلى اثني عشر ألفاً، قد وضعوا سيوفَهم عَلَى عواتقهم، فشدّ بهم على أهل الشام، وهو يقول:

دبّوا دبيب النمل لا تفوتُوا ... وأصبِحُوا في حربكم وبيتُوا

حتى تنالوا الثأر أو تموتُوا ... أو لاَ فإني طالما عُصِيتُ

قد قلتُمو لو جئتنا! فجيتُ ... ليس لكم ما شئتمُ وشيتُ

بل ما يريد المُحْيِيُ المميتُ

وتبعه عديّ بن حاتم بلوائه، وهو يقول:

أبعد عمّارٍ وبعد هاشمِ ... وابن بُديلٍ فارس الملاحِمِ

نرجو البقاء، ضلّ حُلْم الحالِمِ ... لقد عَضَضْنا أمسِ بالأباهمِ!

فاليوم لا نقرعُ سنّ نادِمِ ... ليس امرؤ من حتفِهِ بسالِمِ

وحمل وحمل الأشتر بعدَهما في أهل العراق كافّة، فلم يبق لأهل الشام صفّ إلا انتقض، وأهمد أهل العراق ما أتوْا عليه حتّى أفضى الأمر مضرِب معاوية، وعليٌّ عليه السلام يضرب الناس بسيفه قُدُماً قُدُماً، ويقول:

أضربُهمْ ولا أرى معاويهْ ... الأخزَرَ العينِ العَظِيمَ الحاويَهْ[1]

هوتْ به النار أمُّ هاويهْ

فدعا معاوية بفرسه لينجوَ عليه، فلما وضع رجله في الرّكاب توقّف وتلوّم قليلاً، ثم أنشد قول عمرو بن الإطنابة:

أبتْ لي عِفّتي وأبَى بلائِي ... وأخذِي الحمدَ بالثمن الرَّبيحِ

---

(١) الحاوية: ما تحوّى من الأمعاء. اللسان، مادة (حوي).

وإقدامي على المكروه نفسي ... وضربي هامة البطل المشيحِ
وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانَك تُحمَدي أو تستريحي
لأدفعَ عن مآثرَ صالحاتٍ ... وأحمِي بعدُ عن عِرْضٍ صحيح
بذي شُطَبٍ كلوْن الملح صافٍ ... ونفسٍ ما تَقَرّ عَلَى ٱلْقَبِيح

ثم قال: يا عمرو بن العاص، اليوم صبر وغداً فخر، قال: صدقت، إنك وما أنت فيه، كقول القائل:

ما علّتي وأنا جَلْدٌ نابلُ ... والقوس فيها وَتَرٌ عُنابِلُ[1]
تَزلّ عن صَفْحتها المعابلُ ... الموتُ حقٌّ والحياة باطلُ

فَثَنَى معاوية رجلَهَ من الركاب، ونزل واستصرخ بعكّ والأشعريّين، فوقفوا دونه، وجالدُوا عنه، حتى كَره كلٌّ من الفريقين صاحبَه، وتحاجز الناس.

قال نصر: جاء رجل إلى معاوية بعد انقضاء صِفّين وخلوص الأمر له، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنّ لي عليك حقًّا، قال: وما هو؟ قال: حق عظيم! قال ويحك! ما هو؟ قال: أتذكر يوماً قدّمت فرسك لتفرّ، وقد غشيَك أبو تراب والأشتر، فلما أردت أن تستوثبه وأنت على ظهره، أمسكتُ بعِنانك وقلت لك: أين تذهب! إنه للؤمٌ بك أن تسمَح العرب بنفوسها لك شهرين، ولا تسمح لها بنفسك ساعة، وأنت ابن ستين! وكم عسى أن تعيش في الدنيا بعد هذه السنّ إذا نجوت! فتلوّمتَ في نفسك ساعة، ثم أنشدتَ شعراً لا أحفظه ثم نزلت! فقال: ويحك! فإنك لأنت هو! والله ما أحلّني هذا المحل إلا أنت، وأمر له بثلاثين ألف درهم.

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شمر، عن النخعيّ، عن ابن عباس، قال: تعرّض عمرو بن العاص لعليّ عليه السلام يوماً من أيام صِفّين، وظنّ أنه يطمع منه في غرّة فيصيبُه، فحمل عليه عليٌّ عليه السلام فلما كاد أن يخالطه أذرى نفسه عن فرسه، ورفع ثوبَه وشغر[2] برجلِه، فبدت عورتُه، فصرف عليه السلام وجهه عنه، [وارتُثّ]، وقام معفراً بالتراب، هارباً على رجليه، معتصِماً بصفوفه. فقال أهل العراق: يا أميرَ المؤمنين: أفلت الرجل! فقال أتدرون مَنْ هو؟ قالوا: لا، قال: فإنه عمرو بن العاص، تلقّاني بسوأته فصرفت وجهي عنه. ورجع عمرو إلى معاوية، فقال: ما

---

(١) وتر عنابل: أي غليظ. القاموس، مادة (عنبل).
(٢) رفعها. القاموس، مادة (شغر).

صنعتَ يا أبا عبد الله؟ فقال: لقيَني عليّ فَصرعني، قال: احمَد الله وعورتك، والله إنّي لأظنّك لو عرفتَه لما أقحمتَ عليه، وقال معاوية في ذلك:

ألا لله مــــن هــــفــــواتِ عــــمـــرٍو   يــعــاتــبــنــي عــلــى تــركــي بــرازي
فــقــد لاقــى أبــا حــســن عــلــيًّــا   فــآب الــوائــلــيُّ مــآبَ خــازِي
فــلــو لــم يُــبْــدِ عــورتَــهُ لــطــارت   بــمــهــجــتِــهِ قــوادمُ أيّ بــازي
فــإن تــكــن الــمــنــيّــة أخــطــأتــهُ   فــقــد غــنّــى بــهــا أهــل الــحــجــازا!

فغضب عمرو وقال: ما أشدّ تعظيمك [عليًا] أبا تراب في أمري! هل أنا إلا رجل لقيَه ابن عمّه فصرعه! أفترى السماء قاطرةً لذلك دماً! قال: لا، ولكنها معقِبة لك خزياً.

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، قال: لما اشتدّ الأمر، وعظُم على أهل الشام، قال معاوية لأخيه عُتبة بن أبي سفيان: القَ الأشعث، فإنه إن رضي رضيتِ العامّة - وكان عُتْبة فصيحاً - فخرج فنادى الأشعث، فقال الأشعث: سَلُوا مَنْ هو المنادي؟ قالوا: عُتْبة بن أبي سفيان، قال: غلام مُتْرَفٌ ولا بدّ من لقائه! فخرج إليه، فقال، ما عندك يا عتبة؟ فقال: أيّها الرجل، إنّ معاوية لو كان لاقياً رجلاً غير عليّ للقيَك، إنّك رأسُ أهل العراق، وسيّد أهل اليمن، وقد سَلَفَ من عثمان إليك ما سلف من الصِّهر والعمل، ولستَ كأصحابك، أمّا الأشتر فقتَل عثمان، وأما عديّ فحرّض عليه، وأما سعيد بن قيس فقلّد عليًّا ديتَهُ، وأما شُريح وزحر بن قيس فلا يعرفان غيرَ الهوى، وإنك حاميت عن أهل العراق تكرّماً، وحاربت أهل الشام حميّة، وقد بلغْنا منك وبلغت منا ما أردت، وإنّا لا ندعوك إلى ترك عليّ ونصرة معاوية، ولكنا ندعوك إلى البقيّة التي فيها صلاحُك وصلاحنا. فتكلّم الأشعث، فقال: يا عُتْبة، أمّا قولك: «إن معاوية لا يلقى إلا عليًّا»، فلو لقيَني والله لما عظُم عنّي، ولا صَغُرْتُ عنه، وإن أحبّ أن أجمع بينه وبين عليّ فعلت. وأما قولك: «إنّي رأسُ أهل العراق، وسيّد أهل اليمن»، فإن الرأس المتّبَع والسيّد المطاع، هو عليّ بن أبي طالب، وأما ما سلَف من عثمان إليّ، فوالله ما زادني صهرهُ شرفاً، ولا عمله عزًّا. وأما عيبُك أصحابي، فإنه لا يقرّبك مني، ولا يباعدني عنهم، وأما محاماتي عن أهل العراق، فمن نزل بيتا حماه، وأما البقية فلستُم بأحوجَ إليها منّا، وسنرى رأينا فيها.

فلما عاد عتبة إلى معاوية، وأبلغه قوله قال له: لا تلقَهُ بعدها، فإنّ الرجل عظيم عند نفسه، وإن كان قد جَنح للسّلم. وشاع في أهل العراق ما قاله عُتْبة للأشعث وما ردّه الأشعث عليه، فقال النجاشيّ يمدحه:

يــابــن قــيــس وحــارثٍ ويــزيــدِ   أنــتَ والله رأسُ أهــلِ الــعــراقِ

أنت والله حيّة تنفث السُّـ ـمّ قليلٌ منها غَناء الراقي
أنت كالشمس والرجال نجومٌ لا يُرى ضوءُها مع الإشراقِ
قد حَمَيْتَ العراق بالأسَلِ السُّمْـ ـرِ وبالبيض كالبروق الرِّقاق
وسَعَرت القتال في الشام بالبيـ ـض المواضي وبالرّماح الدّقاق
لا ترى غير أذرع وأكفٌ ورؤوسٍ بهامِها أفلاقِ[1]
كُلَّمَا قلت قد تصرّمت الهيـ ـجا سقيتهمْ بكأسٍ دِهاقِ[2]
قد قضيتَ الذي عليك من الحقّ وسارتْ به القِلاص المناقي
أنت حلوٌ لمن تقرّب بالو دّ وللشانئين مرّ المذاقِ
بئسما ظنّه ابن هندٍ ومَنْ مثـ ـلُكَ في الناس عند ضِيق الخناقِ!

قال نصر: فقال معاوية لما يئس من جهة الأشعث لعمرو بن العاص: إن رأس الناس بعد عليّ هو عبد الله بن العباس، فلو كتبتَ إليه كتاباً لعلك ترقّقه، ولعلّه لو قال شيئاً لم يخرج عليّ منه، وقد أكلَتْنا الحرب، ولا أرانا نصلُ إلى العراق إلا بهلاك أهل الشام. فقال عمرو: إن ابن عباس لا يُخدَع، ولو طمعت فيه لطمعت في عليّ، قال معاوية: على ذلك فاكتب، فكتب عمرو إليه:

أمّا بعد، فإنّ الذي نحن فيه وأنتم ليس بأوّل أمر قاده البلاء، وأنت رأسُ هذا الجمع بعد عليّ، فانظر فيما بقي، ودعْ ما مضى، فوالله ما أبقت هذه الحرب لنا ولا لكم حياةً ولا صبراً، فاعلم أنّ الشام لا تهلِك إلاّ بهلاك العراق، وأنّ العراق لا تهلِك إلا بهلاك الشام، فما خيرُنا بعد هلاك أعدادنا منكم، وما خيركم بعد هلاك أعدادِكم منّا! ولسنا نقول: ليت الحرب عادت، ولكنا نقول: ليتها لم تكن، وإنّ فينا مَنْ يكره اللقاء، كما أنّ فيكم مَنْ يكرهه، وإنما هو أمير مطاع، ومأمور مطيع، أو مؤتمَن مشاوَر وهو أنت، فأما الأشتر الغليظ الطبع، القاسي القلب، فليس بأهل أن يدعَى في الشورى ولا في خواصّ أهل النجوى. وكتب في أسفل الكتاب:

طال البلاءُ وما يرجَى له آسي بعد الإله سوى رِفْقِ ابن عباسِ
قولاً له قول من يرجو مودّته: لا تَنس حظَّك إنّ الخاصر الناسِي
انظر فدًى لكَ نفسي قبل قاصمةٍ للظهر ليس لها راقٍ ولا آسِ
إنّ العراق وأهل الشام لن يجدوا طعم الحياة مع المستغلِق القاسي
يابن الذي زمزمٌ سقيا الحجيج له أعظمْ بذلك من فخرٍ عَلَى الناس!
إني أرى الخير في سلم الشآم لكمْ والله يعلم ما بالسلّمِ من باس

---

(١) الأفلاق: الشقوق. القاموس، مادة (فلق).
(٢) دهاق: ممتلئة. القاموس، مادة (دهق).

فيها التّقى وأمور ليس يجهلها إلا الجهول ومَانوكى كأكياس

فلما وصل الكتاب إلى ابن عباس، عرضه على أمير المؤمنين عليه السلام، فضحك، وقال: قاتل الله ابنَ العاص! ما أغرَاه بك يا عبد الله. أجبه وليردّ عليه شعرَه الفضل بن العباس، فإنه شاعر، فكتب ابن عباس إلى عمرو:

أما بعد، فإني لا أعلمُ أحداً من العرب أقلّ حياء منك، إنه مالَ بك معاوية إلى الهوى فبعتَه دينَك بالثمن اليسير، ثم خبطت الناس في عَشوة، طمعاً في الدنيا فأعظمتَها إعظام أهلِ الدنيا، ثم تزعم أنّك تتنزّه عنها تنَزُّه أهل الورع، فإن كنت صادقاً فارجع إلى بيتك، ودعْ الطمع في مصر والركون إلى الدنيا الفانية، واعلم أنّ هذه الحرب ما معاوية فيها كعليّ، بدأها عليّ بالحق، وانتهى إلى العذر، وبدأها معاوية بالبغي وانتهى فيها إلى السرف، وليس أهلُ العراق فيها كأهل الشام، بايعَ أهلُ العراق عليًّا، وهو خيرٌ منهم، وبايع أهل الشام معاويةَ وهم خير منه، ولست أنا وأنت فيها سواء، أردتُ الله وأردتَ مصر، وقد عرفتَ الشيء الذي باعدَك منّي، ولا أعرف الشيء الذي قرّبك من معاوية، فإن تُرِدْ شرًّا لا نسبقك به، وإن ترد خيراً لا تسبقنا إليه. والسلام.

ثم دعا أخاه الفضل، فقال: يابنَ أمّ، أجب عَمْراً، فقال الفضل:

يا عمرُو حسبُكَ من مَكْرٍ وَوَسْوَاسِ فاذهبْ فليس لداءِ الجهل من آسِ

إلا تواتُرُ طعنٍ في نحوركمُ يُشْجي النّفوس وَيَشْفِي نخوة الرّاسِ

أمّا عليٌّ فإن الله فَضّله بفضلِ ذي شرفٍ عالٍ على النّاسِ

إن تعقلوا الحربَ نعقلْها مخيّسةً أو تبعثوها فإنّا غير أنكاس[1]

قَتْلَى العراق بقتلَى الشام ذاهبةٌ هذا بهذا، وما بالحقّ من باس

ثم عرض الشعرَ والكتاب على عليّ عليه السلام، فقال: لا أراه يُجيبك بعدها أبداً بشيء إن كان يعقل، وإن عاد عُدْتَ عليه. فلما انتهى الكتاب إلى عمرو بن العاص عَرَضه على معاوية، فقال: إنّ قلْب ابن عباس وقلْب عليّ قلب واحد، وكلاهما ولَد عبد المطلب، وإن كان خَشُن فلقدْ لان، وإن كان قد تعظّم أوْ عَظّم صاحبه، فلقد قارب وجنح إلى السّلم.

قال نصر: وقال معاوية: لأكْتُبَنَّ إلى ابن عباس كتاباً أستعرض فيه عقله، وأنظر ما في نفسه، فكتب إليه:

أما بعد، فإنّكم معشرَ بني هاشم لستم إلى أحدٍ أسرعَ بالمساءة منكم إلى أنصار ابن عَفّان، حتى إنّكم قتلتم طلحةَ والزبير، لطلبهما دَمه، واستعظامِهما ما نيلَ منه، فإن كان ذلك منافسةً

(١) المخيَّس: السجن. القاموس، مادة (خيس).

لبني أميّة في السلطان، فقد وَلِيهَا عديّ وتَيْم فلمْ تنافسوهم، وأظهرتم لهم الطاعة، وقد وقع من الأمر ما ترى، وأكلتْ هذه الحروبُ بعضُها بعضاً، حتى استوينا فيها، فما يطمِعكم فينا يطمِعُنا فيكم، وما يؤيسنا منكم يؤيسكم منّا، ولقد رجونا غير ما كان، وخشِينا دونَ ما وقع، ولست ملاقينا اليومَ بأحدّ من حَدّ أمس، ولا غداً بأحدّ من حَدّ اليوم، وقد قنعْنا بما في أيدينا من مُلك الشام، فاقنعوا بما في أيديكم من مُلْك العراق، وأبقُوا على قريش، فإنّما بَقِي من رجالها ستة: رجلان بالشام، ورجلان بالعراق، ورجلان بالحجاز، فأمّا اللذان بالشام فأنا وعمرو، وأمّا اللّذان بالعراق فأنت وعليّ، وأما اللّذان بالحجاز، فسعد وابن عمر، فاثنان من الستّة ناصبان لك، واثنان واقفان فيك، وأنت رأسُ هذا الجمع، ولو بايعَ لك النّاسُ بعد عثمان كُنّا إليك أسرعَ مِنّا إلى عليّ.

فلما وصل الكتابُ إلى ابن عباس أسخطه، وقال: حتّى مَتَى يخطب ابنُ هندٍ إليّ عقلي! وحتّى متى أجمجم على ما في نفسِي! وكتب إليه:

أما بعد [فقد] أتاني كتابك، وقرأته. فأما ما ذكرتَ من سرعتنا إليك بالمساءة إلى أنصار ابن عفّان، وكراهتنا لسلطان بني أمية، فلَعمري لقد أدركتَ في عثمان حاجتَك حين استنصرك فلم تنصره، حتى صرت إلى ما صرتَ إليه. وبيني وبينك في ذلك ابنُ عمّك وأخو عثمان، وهو الوليد بن عقبة. وأما طلحة والزبير، فإنّهما أجلبا عليه وضيّقا خناقه، ثم خرجا ينقُضان البَيْعة، ويطلبان المُلْك، فقاتلناهما على النكث، كما قاتلناكَ على البغْي. وأما قولك: إنه لم يبقَ من قريش غيرُ ستة، فما أكثرَ رجالها، وأحسن بقيّتها! وقد قاتلك من خيارها مَنْ قاتلك، ولم يخذلنا إلا من خَذَلك، وأما إغراؤك إيانا بعديّ وتَيْم، فإن أبا بكر وعمر خيرٌ من عثمان، كما أن عثمان خير منك، وقد بقِيَ لك مِنّا ما ينسيك ما قبله، وتخاف ما بعده. وأمّا قولك: لو بايع الناس لِي لاستقامُوا، فقد بايع النّاس عليًّا وهو خيرٌ منّي فلم يستقيموا له. وما أنت والخلافةَ يا معاوية! وإنما أنت طليق وابن طليق! والخلافة للمهاجرين الأولين، وليس الطُلقاء منها في شيء! والسلام.

فلما وصل الكتاب إلى معاوية، قال: هذا عملي بنفسي، لا أكتب والله إليه كتاباً سنة كاملة. وقال:

دعوتُ ابنَ عَبّاس إلى جلّ حظّه ... وكان امرأً أهدي إليه رسائلي

فأخلَف ظنّي والحوادث جَمّةٌ ... وما زاد أن أغلَى عليه مراجِلي

فقل لابن عباس: أراك مخوِّفاً ... بجهلك حلمي، إنني غير غافل

فأبرِق وأرعِد ما استطعت فإنّني ... إليك بما يشجيك سَبْطُ الأنامل

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، قال: عقد معاوية يوماً من أيام صفّين الرياسة على اليمن من قريش، قصد بذلك إكرامهم ورفع منازلهم، منهم عبيد الله بن عمر بن الخطاب، ومحمد وعتبة ابنا أبي سفيان، وبُسْر بن أبي أرطاة، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وذلك في الوقعات الأولى من صِفّين، فغمّ ذلك أهلَ اليمن، وأرادوا ألاّ يتأمَّرَ عليهم أحدٌ إلاّ منهم. فقام إليه رجل من كِنْدة، يقال له عبد الله بن الحارث السَّكونيّ، فقال: أيّها الأمير، إنّي قد قلت شيئاً فاسمعه، وضعه منّي على النصيحة، قال: هات، فأنشده:

مُعاويَ أحييتَ فينَا الإحَنْ ... وأحدثت بالشام ما لم يكُنْ
عقدتَ لبُسْرٍ وأصحابه ... وما النّاس حولَكَ إلاّ اليمَنْ
فلا تُخلِطنّ بنا غيرَنا ... كما شيب بالماء صَفْو اللَّبَنْ
وإلاّ فدعْنا عَلَى حالنا ... فإنّا وإنّا إذا لم نُهَنْ
ستعلم إن جاشَ بحرُ العراقِ ... وأبدى نواجذَه في الفتَنْ
وشدّ عليٌّ بأصحابِهِ ... ونفسُك إذ ذَاكَ عند الذَّقَنْ
بأنا شعارُك دونُ الدِّثارِ ... وأنّا الرماحُ وأنّا الجُنَنْ[1]
وأنّا السيوفُ، وأنّا الحتوفُ ... وأنّا الدُّروع، وأنّا المِجَنّ[2]

قال: فبكى لها معاوية، ونظر إلى وجوه أهل اليمن، فقال: أعن رضاكم يقول ما قال؟ قالوا: لا مرحباً بما قال، إنّما الأمرُ إليك فاصْنع ما أحببت. فقال معاوية: إنما خلطتُ بكم أهلَ ثقتي، ومَنْ كان لي فهو لكم، ومنْ كان لكم فهو لي. فرضي القومُ وسكتوا، فلمّا بلغ أهلَ الكوفة مقالُ عبد الله بن الحارث لمعاوية [فيمن عقد له من رؤوس أهل الشام]، قام الأعور الشّنيّ إلى عليّ عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين، إنا لا نقول لك كما قال صاحب أهل الشام لمعاوية، ولكن نقول: زاد الله في سرورك وهداك! نظرت بنور الله، فقدّمت رجالاً، وأخرتَ رجالاً. عليك أن تقول، وعلينا أن نفعل. أنت الإمام، فإن هلكتَ فهذان من بعدك - يعني حسناً وحسيناً عليهما السلام - وقد قلتُ شيئاً فاسمعه، قال: هات، فأنشده:

أبا حَسَنٍ أنت شمسُ النّهـ ... ـارِ وهذانِ في الحادثاتِ القَمَرْ
وأنت وهذان حَتى المـ ... ـماتِ بمنزلةِ السَّمْعِ بَعْدَ البصَرْ
وأنتمْ أناس لكم سَوْرَةٌ ... تقصّر عنها أكفّ البَشَرْ
يخبِّرُنا النّاس عن فضلكمْ ... وفضلكُمُ اليومَ فوق الخَبَرْ

(١) الجنن: القبر والكفن. القاموس مادة (جنن).
(٢) المجن: الترس. القاموس، مادة (جنن).

عـقـدت لـقـومٍ أولـي نـجـدَةٍ ... مـن أهْـلِ الـحـيـاءِ وأهـل الـخـطَـرْ
مـسـاميـحُ بـالـموت عـنـد الـلـقـا ... ءِ مِـنّـا وإخـوانـنـا مـن مُـضَـرْ
ومـن حـيّ ذي يَـمَـن جِـلّـةٌ ... يـقـيـمـون فـي الـنّـائـبـات الـصَّـعَـرْ
فـكـلٌّ يـسـرّك فـي قـومِـه ... ومـن قـال لا، فـبـفـيـهِ الـحَـجَـرْ
ونـحـنُ الـفـوارس يـوم الـزبـيـر ... وطـلـحـة إذ قـيـل أودى غُـدَرْ
ضـربـنـاهـمُ قـبـلَ نـصـفِ الـنّـهـار ... إلـى الـلـيـل حـتـى قـضـيْـنَـا الـوطَـرْ
ولـم يـأخـذ الـضـرب إلا الـر ... ؤوسَ ولـم يـأخـذ الـطـعـنُ إلا الـثُّـغَـرْ
فـنـحـنُ أولـئـك فـي أمـسـنَـا ... ونـحـن كـذلـك فـيـمـا غَـبَـرْ

قال: فلم يبق أحدٌ من الرؤساء إلا وأهدى إلى الشَّنّيّ، [أو أتحفه].

قال نصر: وحدّثنا عمر بن سعد، قال: لما تعاظمت الأمور على معاوية قبل قتل عبيد الله بن عمر بن الخطاب، دعا عمرو بن العاص، وبُسْر بن أبي أرطاة، وعُبيد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فقال لهم: إنّه قد غمّني مقامُ رجال من أصحاب عليّ، منهم سعيد بن قيس الهمْدانيّ في قومه، والأشتر في قومه، والمِرْقال، وعديّ بن حاتم، وقيس بن سعد في الأنصار، وقد علمتم أنّ يمانيّتكم وقتكم بأنفسها أياماً كثيرة، حتى لقد استحييتُ لكم، وأنتم عُدّتهم من قريش، وأنا أحِبّ أن يعلم النّاس أنكم أهلُ غَنَاءٍ، وقد عبّأت لكلّ رجلٍ منهم رَجُلاً منكم، فاجعلوا ذلك إليّ، قالوا: ذاك إليك، قال: فأنا أكفيكم غداً سعيد بن قيس وقومَه، وأنت يا عمرو للمرقال أعور بني زهرة، وأنت يا بسرُ لقيس بن سعيد، وأنت يا عُبيد الله للأشتر، وأنت يا عبد الرحمن لأعور طيِّئ - يعني عديّ بن حاتم - وقد جعلتها نُوباً في خمسة أيام، لكلّ رجلٌ منكم يوم، فكونوا على أعِنّة الخيل، قالوا: نعم، فأصبح معاوية في غدِه، فلم يدعْ فارساً إلا حَشَده، ثم قصد لهمْدان بنفسه، وارتجز فقال:

لـن تـمـنَـع الـحـرمـة بـعـد الـعـامِ ... بـيـن قـتـيـل وجـريـح دامِ
سـأمـلـك الـعـرَاق بـالـشـآمِ ... أنـعَـى ابـنَ عـفـانٍ مَـدَى الأيـامِ

فطعن في أعرض الخيل مليًّا. ثم إن همدان تنادتْ بشعارها، وأقحم سعيد بن قيس فرسَه على معاوية، واشتدّ القتال حتى حجز بينهم الليل، فهمْدان تذكر أنّ سعيداً كاد يقتنِصه، إلا أنه فاته ركْضاً، وقال سعيد في ذلك:

يـا لَـهـفَ نـفـسِـي فـاتـنـي مـعـاويـهْ ... فـوق طِـمِـرٌ كـالـعُـقـاب هَـاوِيَـهْ
والـراقـصـاتِ لا يـعـودُ ثـانـيَـهْ

قال نصر: وانصرف معاوية ذلك اليوم، ولم يصنع شيئاً، وغدا عمرو بن العاص في اليوم الثاني في حُماة الخيل، فقصد المرقال، ومع المرقال لواء عليّ عليه السلام الأعظم في حماة الناس، [وكان عمرو من فرسان قريش]، فارتجز عمرو، فقال:

لاَ عَيْشَ إن لم ألْقَ يوماً هاشما ذاك الذي جَشّمني المجاشما[1]

ذاكَ الّذِي يشتِم عِرْضي ظالِما ذاك الّذِي إن يَنْجُ منّي سالما

يَكُنْ شَجًى حَتّى المماتِ لازما

فطعن في أعراض الخيل مُزْبداً، وحمل المرقال عليه، وارتجز فقال:

لاَ عَيْشَ إن لم ألقَ يوماً عَمْرَا ذاك الّذي أحدث فينا الغَدْرَا

أو يبدل الله بأمرٍ أمرا لا تجزعي يا نفسُ صَبْراً صَبْرَا

ضَرْباً هَذَاذَيْكَ وطَعْناً شَزْرَا يا ليت ما تجنِي يكونُ القبرا!

فطاعن عمراً حتى رجع، وانصرف الفريقان بعد شدّة القتال، ولم يسرّ معاوية ذلك، وغَدَا بُسر بن أبي أرطاة في اليوم الثالث في حماة الخيل، فلقي قيس بن سعد بن عبادة في كُماة الأنصار، فاشتدّت الحرب بينهما، وبَرَزَ قيس كأنه فَنيقٌ مُقْرَم، وهو يقول:

أنا ابنُ سعدٍ زانهُ عُبَادَهْ والخزرجيّون كماةٌ سادَهْ

ليس فرارِي في الوغى بعادَهْ إنّ الفِرار للفتى قِلادَهْ

يا ربّ أنت لقّنِي الشهادَهْ فالقتلُ خير من عناقِ غَادة

حتّى متى تُثْنَى لي الوِسَادَهْ

وطاعن خيل بُسر، وبرز بُسْر فارتجز وقال:

أنا ابن أرطاةَ العظيمُ القَدْرِ مُرَدَّدٌ في غالبٍ وفهرِ

ليس الفِرَار من طباع بُسْرِ إن أرجِع اليوم بغيرِ وِترِ

وقد قضيتُ في العدوّ نذرِي يا ليت شعري كم بَقِي من عمري!

ويطعن بُسرٌ قيساً، ويضربه قيس بالسيف، فردّه على عقِبيْه، ورجع القوم جميعاً، ولقيس الفضل، وتقدّم عبيد الله بن عمر بن الخطاب في اليوم الرابع، لم يترك فارساً مذكوراً إلا جمعه، واستكثر ما استطاع، فقال له معاوية: إنّك اليوم تلقى أفعى أهل العراق، فارفق واتّئد، فلقيَه الأشتر أمام الخيل مُزبداً - وكان الأشتر إذا أراد القتال أزبد - وهو يقول:

يا ربّ قيِّض لِي سيوف الكفَرَهْ واجعل وفاتي بأكفّ الفَجَره

---

(١) جَشَّمه: تكلفه على مشقة. القاموس، مادة (جشم).

فالقتل خيرٌ من ثياب الحِبَرَهْ   لا تعدلُ الدّنيا جميعاً وَبَرَهْ
ولا بعوضاً في ثواب البرَرَهْ

وشدّ على الخيل خيل الشام، فردّها. فاستحيَا عبيد الله وبرز أمام الخيل - وكان فارساً شجاعاً، وقال:

أنعى ابن عفانٍ وأرجو ربِّي   ذاك الّذي يخرجني من ذَنْبي
ذاك الّذِي يكشف عنِّي كَرْبي   إنّ ابنَ عفّان عظيمُ الخطبِ
يأبَى له حُبّي بكلّ قلبي   إلا طِعانِي دونه وضَرْبِي
حَسْبي الذي أنويه حَسْبي حَسْبي

فحمل عليه الأشتر، وطعنه واشتدّ الأمر، وانصرف القوم، وللأشتر الفضل. فغمّ ذلك معاويةَ، وغدا عبد الرحمن بن خالد في اليوم الخامس، وكان رجاء معاوية أن ينال حاجتَه، فقوّاه بالخيل والسلاح، وكان معاوية يعدّه ولداً، فلقيَه عديّ بن حاتم في كُماة مَذحِج وقُضاعة، فبرز عبد الرحمن أمام الخيل، وقال:

قُلْ لعديٍّ ذَهَبَ الوعيدُ   أنا ابن سيفِ الله لا مزيدُ
وخالدٌ يزينه الوليدُ   ذاك الّذي قيل له الوحيد

ثم حمل فطعن الناس، فقصده عديّ بن حاتم، وسدد إليه الرمح، وقال:

أرجُو إلهي وأخافُ ذَنْبي   ولستُ أرجو غيرَ عَفْوِ ربّي
يابنَ الوليد بغضكم في قَلْبي   كالهَضْب بل فوق قِنان الهَضْبِ

فلما كاد أن يخالطه بالرمح، توارى عبد الرحمن في العَجاج، واستتر بأسنّة أصحابه واختلط القوم، ثم تحاجزوا، ورجع عبد الرحمن مقهوراً، وانكسر معاوية، وبلغ أيمن بن خزيم ما لقيَ معاوية وأصحابه، فشمِت بهم - وكان ناسكاً من أنسك أهل الشام وكان معتزلاً للحرب في ناحية عنها، فقال:

معاويَ إنّ الأمرَ لله وحدَهُ   وإنّك لا تستطيع ضُرّا ولا نَفْعَا
عَبأتَ رجالاً من قُريشٍ لعُصْبَةٍ   يمَانيَةٍ لا تستطيع لها دَفْعَا
فكيف رأيتَ الأمر إذ جدّ جِدّه   لقد زادك الأمر الذي جئته جَدْعَا
تعبِّي لقيسٍ أو عديّ بن حاتم   والاشتَرِ، ياللنّاس أغمارك الْجُذْعا
وتجعلُ للمرقالِ عمراً وإنه   لليثٌ لَقِي من دون غايَته ضَبْعَا
وإنّ سعيداً إذ برزتَ لرمحِه   لفارس هَمْدَان الذي يشعَب الصَّدْعَا
مليٌّ بضرْب الدارعين بسيفِه   إذا الخيل أبدَتْ من سنابكها نَقْعَا

رجعتَ فلم تظفرْ بشيء تُريدُه ... سوى فرسٍ أعيت وأبتَ بها ظَلْعَا
فدعهمْ فلا والله لا تستطيعهمْ ... مجاهرةً، فاعمل لقهرهمُ خَدْعا

قال: وإنّ معاوية أظهر لعمرو شماتة، وجعل يقرّعه ويوبّخه، وقال: لقد أنصفتكم، إذ لقيت سعيد بن قيس في هَمْدان، وفررتم. وإنك لجبان يا عمروا فغضب عمرو، وقال: فهلاّ برزت إلى عليّ إذ دعاك إن كنت شجاعاً كما تزعم! وقال:

تسير إلى ابنِ ذي يزنٍ سعيدٍ ... وتترك في العجاجة مَنْ دَعَاكا
فهلْ لك في أبي حسنٍ عليٍّ ... لعلّ الله يُمْكِنُ مِنْ قفاكا!
دعاك إلى البرازِ فلم تجبْهُ ... ولو نازلْته تربَتْ يَدَاكا
وكنت أصمّ، إذ ناداك عنها ... وكان سكوتُه عنها مُناكا
فآب الكبْش قد طَحَنَتْ رَحَاهُ ... بنجْدتِه وما طَحَنَتْ رَحاكا
فما أنصفتَ صحبَك يابنَ هندٍ ... أتَفْرَقُهُ وتغضب مَنْ كفاكا
فلا والله ما أضمرْتَ خيراً ... ولا أظهرتَ لِي إلاّ هواكا

قال: وإن القرشيِّين استحيَوْا ما صنعوا، وشمِت بهم اليمانيةُ من أهل الشام، فقال معاوية: يا معشر قريش، والله لقد قرّبكم لقاء القوم إلى الفتح، ولكن لا مَرَدَّ لأمرِ الله، ومِمَّ تستحيون! إنما لقيتم كباش العراق، فقتلتم منهم وقتلوا منكم، وما لكم عليّ من حجة. لقد عبأت نفسي لسيّدهم وشجاعهم سعيد بن قيس. فانقطعوا عن معاوية أياماً، فقال معاوية [في ذلك]:

لعمري لقد أنصفتُ والنَّصْف عادتي ... وعاين طعناً في العَجاج المعاينُ
ولولا رجائي أن تؤوبوا بُنهزةٍ ... وأنْ تغسِلوا عاراً وَعَتْهُ الكنائنُ[1]
لناديت للهيجا رجالاً سواكمُ ... ولكنّما تَحمي الملوكَ البطائنُ
أتدرونَ مَنْ لاقيتُم، فُلَّ جيشكمْ! ... لقيتمْ لُيوثاً أصحرتْها العرائن
لقيتمْ صناديد العِراق ومَنْ بهم ... إذا جاشت الهيجاءُ تُحْمَى الظعائنُ
وما كان منكم فارسٌ دون فارسٍ ... ولكنّه ما قدّر الله كائن!

فلما سمع القوم ما قاله معاوية، أتوْه فاعتذروا إليه، واستقاموا إليه على ما يحبّ.

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شمر، قال: لما اشتدّ القتال وعظُم الخطب، أرسل معاوية إلى عمرو بن العاص: أن قَدّم عكًّا والأشعريين إلى مَنْ بإزائهم. فبعث عمرو إليه أنّ بإزاء عَكّ

(١) النهرة: الفرصة، وانتهزها: اغتنمها. القاموس، مادة (نهز).

هَمْدان. فبعث إليه معاوية: أنْ قدّم عَكًا، فأتاهم عمرو، فقال: يا معشر عَكّ، إنّ عليًا قد عرف أنّكم حيّ أهل الشام، فعبأ لكم حَيّ أهل العراق هَمْدان، فاصبروا وهَبُوا إليّ جماجمكم ساعة من النهار، فقد بلغ الحقّ مقطعَه. فقال ابن مسروق العكيّ: أمهلني حتى آتِيَ معاوية، فأتاه فقال: يا معاوية، اجعلْ لنا فريضةَ ألفيْ رجل في ألفين ألفين، ومَنْ هلك فابنُ عَمّه مكانه، لنقرّ اليوم عينَك. فقال: لك ذلك، فرجع ابنُ مسروق إلى أصحابه، فأخبرَهم الخبر، فقالت عكّ: نحن لهمْدان، ثم تقدّمت عكّ، ونادى سعيد بن قيس: يا همْدان، أن تقدّموا! فشدّت هَمْدان على عكّ رجّالة، فأخذت السيوفُ أرجُلَ عكّ، فنادى ابن مسروق:

يا لعكٍّ بَرْكاً كبرك الكَمَلْ

فبركوا تحت الحجف، فشجرتْهم همْدان بالرماح، وتقدّم شيخ من هَمْدان، وهو يقول:

يا لبَكِيلٍ لخمُها وحَاشِدُ ... نفسي فداكمْ طاعِنُوا وجالِدُوا
حتى تخرّ منكم القماجِدُ ... وأرجلٌ يتبعها سواعدُ
بذاك أوصى جدّكم والوالدُ

وقام رجل من عكّ، فارتجز فقال:

تدعون هَمْدان وندعو عكّا ... بكّوا الرجالَ يا لعكٌّ بكّا
إن خدّم القومُ فبركاً بَرْكَا ... لا تدخِلوا اليومَ عليكم شكّا
قد مَحَك القومُ فزيدُوا مَحْكَا[1]

قال: فالتقى القومُ جميعاً بالرماح، وصاروا إلى السيوف، وتجالدوا حتى أدركهم الليل فقالت همدان: يا معشر عَكّ، نحن نقسم بالله إننا لا ننصرف حتى تنصرفوا. وقالت عكّ مثل ذلك، فأرسل معاوية إلى عكّ أن أبِرّوا قَسَم إخوتكم وهلمّوا. فانصرفت عكّ، فلما انصرفت انصرفت هَمْدان، فقال عمرو: يا معاوية، والله لقد لقيتُ أسْد أسْداً، لم أرَ والله كهذا اليوم قطّ لو أنّ معك حيّا كعك، أو مع عليّ حيّ كهمدان لكان الفناء.

وقال عمرو في ذلك:

إنّ عكّا وحاشداً وبَكيلاً ... كأسود الضّراءِ لاقتْ أسودَا
وجَثا القومُ بالقنا وتساقوْا ... بظُباةِ السيوف موتاً عتيدا
ازورار المناكب الغلب بالشُّـ ... ـمّ وضربِ المسوّمين الخدودا
ليس يدرون ما الفرار ولو كا ... ن فراراً لكان ذاك سديدا

(١) المحك: اللّجوج. القاموس، مادة (محك).

يـعـلـم الله مـا رأيـت مـن الـقـو ... مِ ازوراراً، ولا رأيـت صـدودا
غير ضرب فوق الطُّلى، وعلى الها ... م وقرع الحديد يعلو الحديدا
ولقد قال قائل خدّموا السُّو ... ق، فخرّت هناك عكٌّ قعودا
كبُروك الجمال أثقلها الحِمْـ ... ـلُ فما تستقلّ إلا وئيدا

قال: ولما اشترطت عكّ والأشعريون على معاوية ما اشترطوا من الفريضة والعطاء فأعطاهم، لم يبقَ من أهل العراق أحدٌ في قلبه مرض إلا طمع في معاوية، وشخص ببصره إليه، حتى فشا في الناس، وبلغ عليًا عليه السلام، فساءه.

قال نصر: وجاء عديّ بن حاتم يلتمس عليًا عليه السلام، ما يطأ إلا على قتيل أو قَدَم أو ساعِد، فوجده تحت رايات بكْر بن وائل، فقال: يا أميرَ المؤمنين، ألا تقومُ حتى نقاتلَ إلى أن نموت! فقال له عليّ عليه السلام: ادنُ، فدنا حتى وضع أذنه عند أنفه، فقال: ويحك! إن عامّة مَنْ معي اليوم يعصيني، وإنّ معاوية فيمن يطيعه ولا يعصيه!

قال نصر: وجاء المنذر بن أبي حَميصة الوداعيّ - وكان شاعر همْدان وفارسها - عليًا عليه السلام فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنّ عكًّا والأشعريّين طلبوا إلى معاوية الفرائض والعطاء فأعطاهم، فباعوا الدين بالدنيا، وإنّا قد رضينا بالآخرة من الدنيا، وبالعراق من الشام، وبكَ من معاوية، والله لآخرتُنا خيرٌ من دنياهم، ولعراقنا خيرٌ من شآمهم، ولإمامنا أهدى من إمامهم، فاستفْتِحنا بالحرب، وثقْ منّا بالنصر، واحمِلنا على الموت، وأنشده:

إن عكًّا سألوا الفرائض والأشـ ... ـعَرَ سألوا جوائزاً بَثَنِيَّهْ[1]
تركوا الدّين للعطاء ولِلْفَرْ ... ض، فكانوا بذاك شرَّ البريّهْ
وَسَأَلْنا حُسْنَ الثواب من الله ... وصبراً على الجهاد ونيّهْ
فلكلٌّ ما سالَه ونواهُ ... كلّنا يحسب الخلافَ خَطيّهْ
وَلأهلُ العراق أحسن في الحَرْ ... ب إذا ما تدانَتِ السَّمْهريّهْ[2]
ولأهلُ العراق أحمل للثّقْلِ ... إذا عمّت البلادَ بليّهْ
ليس منّا من لم يكن في الله ... وليًّا يا ذا الولاَ والوصيّهْ

فقال علي عليه السلام: حسبك الله! يرحمك الله! وأثنى عليه وعلى قومه خيراً. وانتهى شعره إلى معاوية، فقال: والله لأستميلنّ بالدنيا ثقات عليّ، ولأقسمنّ فيهم الأموال حتى تغلِب دنياي آخرتَه.

قال نصر: فلما أصبح النّاس غدوْا على مصافهم، وأصبح معاوية يدورُ في أحياء اليمن،

---

(١) البثنية: بلاد الشام. لسان العرب، مادة (بثن).
(٢) السمهريّة: القناة الصلبة الشديدة. اللسان، مادة (سمهر).

وقال: عبُّوا إليّ كلَّ فارس مذكور فيكم، أتقوّى به على هذا الحيّ من هَمْدان فخرجت خيل عظيمة، فلما رآها عليّ عليه السلام وعرف أنها عيونُ الرجال، فنادى: يا لَهْمدان! فأجابه سعيد بن قيس، فقال له عليّ عليه السلام: احمل، فحمل حتى خالط الخيل بالخيل، واشتدّ القتال، وحطّمتهم هَمْدان حتى ألحقتْهم بمعاوية، فقال معاوية: ما لقيت من همدان! وجزع جزعاً شديداً، وأسرع القتل في فرسان الشام، وجمع عليّ عليه السلام هَمْدان، فقال لهم: يا معشر هَمْدان، أنتم درْعي ورمحي ومِجَنّي، يا همدان ما نصرتم إلا الله، ولا أجبتم غيرَه. فقال سعيد بن قيس: أجَبْنَا الله وأجَبْنَاك، ونصرنا رسول الله في قبره، وقاتلنا معك مَنْ ليس مثلك، فارمِنا حيث شئت.

قال نصر: وفي هذا اليوم قال عليّ عليه السلام:

ولو كنتُ بوّاباً على بابِ جَنّةٍ لقلتُ لهَمْدانَ ادخلي بسلامِ

فقال عليّ عليه السلام لصاحب لواء همْدان: اكفِني أهل حِمْص، فإني لم ألقَ من أحدٍ ما لقيت منهم. فتقدّم وتقدّمت هَمْدان، وشدّوا شدّةً واحدة على أهل حِمْص، فضربوهم ضرباً شديداً متداركاً، بالسيوف وعُمُد الحديد، حتى ألجؤوهم إلى قبّة معاوية، وارتجز من هَمْدان رجل، عِدَادُه في أرْحب، فقال:

قد قتلَ اللهُ رجالَ حِمْصِ غُرُّوا بقولٍ كذِبٍ وخَرْصِ[1]

حِرْصاً على المال وأيّ حِرصِ! قد نكص القوم وأيّ نَكْصِ!

عن طاعةِ الله وفحوى النَّصّ

قال نصر: فحدثنا عمر بن سعدٍ، قال: لما رُدَّت خيول معاوية أسف فجرّد سيفه وحمل في كُماة أصحابه، فحملت عليه فوارس هَمْدان، ففاز منها ركضاً، وانكسرت كُماته ورجعت هَمْدان إلى مراكزها، فقال حُجر بن قحطان الهمْدانيّ، يخاطب سعيد بن قيس:

ألاَ ابنَ قيس قَرّت العينُ إذا رأتْ فوارسَ هَمْدان بن زيد بن مالكِ

عَلَى عارفاتٍ للّقاءِ عوابس طوالَ الهوادِي مشرفاتِ الحواركِ[2]

معوّدة للطعن في ثُغراتها يَجُلْنَ فيحطمن الحَصى بالسَّنابكِ

عَبَاها عليّ لابن هند وخيله فلو لم يفتها كانَ أوّل هالك

وكانت له في يومه عند ظنّه وفي كلّ يوم كاسِف الشمس حالك

وكانتْ بحمد الله في كلّ كُرْبَةٍ حُصوناً وعزًّا للرِّجالِ الصَّعَالِكِ

---

(١) الخرص: الكذب وكل قول بالظن. اللسان، مادة (خرص).

(٢) الحوارك: جمع حارك وهو أعلى الكاهل. القاموس، مادة (حرك).

فقل لأمير المؤمنين: أن ادعُنا ... متى شئت إنّا عُرْضة للمهالك
ونحن حَطَمْنَا السُّمْور في حيّ حمير ... وكِندة والحيّ الخفاف السكاسك
وعكّ ولخْم شائلينَ سِيَاطَهُمْ ... حذارَ العوالي كالإماء العوارك[1]

قال: نصر: وحدّثنا عمر بن سعد عن رجاله، أنَّ معاوية دعا يوماً بصفّين مروان بن الحكم، فقال له: إنّ الأشتر قد غمّني وأقلقني، فاخرج بهذه الخيل في يحصُب والكَلاَعيين، فالقه: فقال مَرْوان: ادعُ لهما عمراً، فإنه شعارك دون دِثارك قال: فأنت نفسي دون وريدي. قال: لو كنتُ كذلك ألحقْتَني به في العطاء وألحقْتَه بي في الحِرْمان، ولكنك أعطيتَه ما في يدك، ومنّيته ما في يد غيرك، فإن غَلَبْتَ طاب له المقام، وإن غُلِبتَ خَفَّ عليه الهرب. فقال معاوية: سيغني الله عنك. قال: أمّا إلى اليوم فلم يغنِ. فدعا معاوية عمراً، فأمره بالخروج إلى الأشتر، فقال: أما إني لا أقول لك ما قال مروان، قال: وكيف نقوله وقد قدّمتُك وأخّرته، وأدخلتُك وأخرجته! قال: أما والله إن كنتَ فعلتَ، لقد قدّمتني كافياً، وأدخلتَني ناصحاً، وقد أكثر القوم عليك في أمر مصر، وإن كان لا يرضيهم إلاّ رجوعُك فيما وثِقت لي به منها فارجع فيه. ثم قام فخرج في تلك الخيل، فلقيَه الأشتر أمام القوم، وقد علم أنه سيلقاه، وهو يرتجز ويقول:

يا ليتَ شعرِي كيف لي بعمرِو ... ذاكَ الذي أوجبتُ فيه نَذْرِي!
ذَاكَ الّذِي أطلبه بوِتْرِي ... ذاكَ الذي فيه شفاءُ صدرِي
مَنْ بائِعي يوماً بكلّ عمري ... يُغْلِي به عند اللّقاء قَدْرِي
أجعله فيه طعام النّسرِ ... أو لا فربّي عاذِرِي بعذري

فلما سمع عمرو هذا الرجز، فشل وجَبُن، واستحيا أن يرجع، وأقبل نحو الصوت، وقال:

يا ليت شعري كيف لي بمالكِ؟ ... كم كاهلٍ جببتُه وحارِكِ!
وفارسٍ قتلته وفاتكِ ... ومُقْدِمٍ آبَ بوجهٍ حالكِ
ما زلت دهري عرضة المهالك

فغشيَه الأشتر بالرمح، فراغ عمرو عنه، فلم يصنع الرمح شيئاً، ولوَى عَمْرو عِنَان فرسه، وجعل يده على وجهه، وجعل يرجع راكضاً نحو عسكره. فنادى غلامٌ من يَحْصُب: يا عمرو، عليك العَفَا ما هبّت الصبا، يا آل حمير [إنّا لكم ما كان معكم]، هاتوا اللواء، فأخذه وتقدّم، وكان غلاماً حَدَثاً، فقال:

---

(١) عركت المرأة: حاضت. القاموس، مادة (عرك).

إن يَـكُ عـمـروٌ قـد عـلاه الأشـتـرُ ... بـأسـمـرٍ فـيـه سِـنـانٌ أزهـرُ
فـذاك والله لـعـمـري مـفـخـرُ ... يـا عـمـرو تـكـفيـك الطّعـانَ حِـمْـيَـرُ
والـيـحـصـبـيّ بـالـطـعـان أمـهـرُ ... دون الـلّـواء الـيـوم مـوتٌ أحـمـرُ

فنادى الأشترُ ابنَه إبراهيم: خذ اللّواء، فغلام لغلام. وتقدم فأخذ إبراهيم اللّواء، وقال:

يـا أيُّـهـا الـسـائـلُ عَـنّـي لا تُـرَعْ ... أقـدِمْ فـإنـي مِـنْ عَـرانـيـن الـنَّـخَـعْ
كـيـف تَـرى طـعـن الـعـراقيّ الـجَـذَعْ ... أطـيـرُ فـي يـوم الـوَغـى ولا أقَـعْ
مـا سـاءكـم سَـرَّ، ومـا ضـرَّ نَـفَـعْ ... أعـددْتُ ذا الـيـومَ لـهـول الـمـطَّـلَـعْ

ويحمل على الْحِمْيرِيّ، فالتقاه الحميريّ بلوائه ورمحه، فلم يبرحا يطعَن كلّ واحدٍ منهما صاحبَه، حتى سقط الحميريّ قتيلاً، وشمت مروان بعمرو، وغضب القحطانيون على معاوية، وقالوا: تولي علينا مَنْ لا يقاتل معنا. ولّ رجلاً مِنّا، وإلا فلا حاجة لنا فيك. وقال شاعرهم:

مُـعَـاوِيَ إمّـا تـدْعُـنـا لـعـظـيـمـةٍ ... يُلَبَّسُ مِنْ نكرائِها الغَرْضُ بالحقَبْ
فـولّ عـلـيـنـا مَـنْ يـحـوطُ ذمـارَنـا ... من الحميريّينَ الملوكِ على العَرَبْ[1]
ولا تـأمـرنّـا بـالّـتـي لا نـريـدُهـا ... ولا تجعلنّا بالهوى موضع الذَّنَبْ
ولا تـغـضـبـنّـا والـحـوادث جَـمّـةٌ ... عليك، فيفشو اليوم في يحصُبَ الغَضَبْ
فـإن لـنـا حـقـاً عـظـيـمـاً وطـاعـةً ... وحُبًّا دخيلاً في المُشاشِ وفي العَصَبْ[2]

فقال لهم معاوية: والله لا أولي عليكم بعد هذا اليوم إلا رجلاً منكم.

قال نصر: وحدّثنا عمر بن سعد، قال: لما أسرع أهلُ العراق في أهل الشام، قال لهم معاوية: هذا يوم تمحيص، وإنّ لهذا اليوم ما بعده، وقد أسرعتم في القوم كما أسرعوا فيكم، فاصبروا وموتوا كراماً. وحرّض عليّ عليه السلام أصحابَه، فقام إليه الأصبغ بن نباتة، وقال: يا أمير المؤمنين، قدّمني في البقيّة من الناس، فإنك لا تفقد لي اليوم صبراً ولا نصراً، أما أهل الشام فقد أصبنا، وأما نحن ففينا بعض البقية، ائذن لي فأتقدّم، فقال له: تقدّم على اسم الله والبركة، فتقدم وأخذ الراية ومضى بها، وهو يقول:

إنّ الـرجـاء بـالـقـنـوط يُـدْمَـغُ ... حتى متى يرجو البقاءَ الأصبغُ!
أمـا تـرى أحـداث دهـر تَـنْـبُـغُ ... فـادبـغ هـواك، والأديـمُ يـدبَـغُ

---

(١) الذّمار: ما يلزمك حفظه وحمايته. القاموس، مادة (ذمر).
(٢) المشاش: رأس العظم الممكن المضغ. القاموس، مادة (مشش).

والـرفـق فـيـمـا قـد تـريـد أبـلـغُ ... الـيـوم شـغـل، وغـدا لا تـفـرُغُ

فما رجع إلى عليّ عليه السلام حتى خضب سيفه دماً ورمحه. وكان شيخاً ناسكاً عابداً، وكان إذا لقيَ القومُ بعضُهم بعضاً يغمِد سيفه، وكان من ذخائر عليّ عليه السلام ممّن قد بايعه على الموت، وكان عليّ عليه السلام يضنّ به عن الحرب والقتال.

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شَمِر، عن جابر، قال: نادَى الأشتر يوماً أصحابَه، فقال: أما من رجل يشرِي نفسه لله! فخرج أثال بن حَجْل بن عامر المذحجِي فنادى بين العسكرين: هلْ من مبارز؟ فدعا معاوية - وهو لا يعرفه - أباه حَجْلَ بن عامر المذحجِيّ، فقال: دونك الرجل - قال: وكانا مستبصرين في رأيهما - فبرز كلّ واحد منهما إلى صاحبه، فبدره بطعنة، وطعنه الغلام، وانتسبا فإذا هو ابنه، فنزلا فاعتنَق كلّ واحد منهما صاحبَه، وبكيا. فقال له الأب: يا بنيّ، هلمّ إلى الدنيا. فقال له الغلام: يا أبي هلمّ إلى الآخرة. ثم قال: يا أبتِ والله لو كان من رأيي الانصراف إلى أهل الشام لوجبَ عليك أن يكون من رأيك لي أن تنهاني، واسوأتاه! فماذا أقول لعليّ وللمؤمنين الصالحين! كنْ على ما أنت عليه، وأنا على ما أنا عليه. فانصرف حَجْل إلى صفّ الشام، وانصرف ابنه أثال إلى أهل العراق، فخبّر كلّ واحد منهما أصحابَه، وقال في ذلك حَجْل:

إنّ حَـجْـل بـن عـامـرٍ وأثـالاً ... أصـبـحـا يـضـرَبـان فـي الأمـثـالِ

أقـبـل الـفـارس الـمـدجّـج فـي الـنـقـ ... ـع أثـالٌ يـدعـو يـريـد نـزالِـي[1]

دون أهـل الـعـراق يـخـطـر كـالـفـحـ ... ـل عـلـى ظـهـر هـيـكـلٍ ذيّـالِ

فـدعـانـي لـه ابـنُ هـنـد ومـا زا ... لَ قـلـيـلاً فـي صـحـبِـه أمـثـالِـي

فـتـنـاولـتُـه بـبـادرة الـرُّمْـحِ ... وأهـوَى بـأسـمـرٍ عَـسّـال

فـاطّـعـنّـا وذاك مـن حـدث الـدهـ ... ـر عـظـيـمٌ، فـتـى لـشـيـخ بـجـالِ

شـاجـراً بـالـقـنـاة صـدرَ أبـيـه ... وعـزيـزٌ عـلـيّ طـعـنُ أثـال

لا أبـالـي حـيـنَ اعـتـرضـتُ أثـالاً ... وأثـالٌ كـذاك لـيـس يُـبَـالِـي

فـافـتـرقـنـا عـلـى الـسـلامـة، والـنّـفـ ... ـسُ يـقـيـهـا مـؤخَّـرُ الآجـالِ

لا يـرانـي عـلـى الـهـدى وأراه ... مِـنْ هُـدَايَ عـلـى سـبـيـل ضـلال

فلما انتهى شعره إلى أهل العراق، قال أثال ابنه مجيباً له:

---

(١) الأثال: المجد والشرف. القاموس، مادة (أثل).

إن طعنِي وسْطَ العجاجة حَجْلاً ... لم يكن في الّذي نويتُ عُقوقا
كنت أرجو به الثواب من اللّـ ... ـهِ وكَوْني مع النبيّ رفيقًا
لم أزل أنصر العراق على الشا ... م أرانِي بفعلٍ ذاك حَقِيقًا
قال أهل العراق إذ عَظُم الخط ... بُ ونقّ المبارزون نَقِيقا:
مَنْ فتًى يسلك الطريق إلى اللّـ ... ـهِ، فكنتُ الذي سلكتُ الطريقا
حاسرَ الرأس لا أريد سوى المَوْ ... تِ أرى الأعظم الجليل دقيقا
فإذا فارس تقحّم في الرو ... ع خِدَبًّا مثل السَّحوق عتيقا[1]
فبداني حَجْلٌ ببادِرَة الطَّعْـ ... ـنِ وما كنت قبلها مسبوقًا
فتلقَّيْتُه بعالية الرّمْحِ ... كِلانا يطاولُ العَيّوقا[2]
أحمد الله ذا الجلالة والقد ... رة حمداً يزيدني توفيقا
إذْ كففتُ السنان عنه ولم أد ... ن قتيلاً مِنْهُ ولا تُغروقا
قلتُ للشّيْخ لستُ أكفر نعما ... ك لطيف الغذاء والتفنِيقا[3]
غير أني أخاف أن تدخل النا ... رَ فلا تَعْصِنِي وكنْ لي رفيقا
وكذا قال لي فغرّب تغريبـ ... ـاً، وشرّقتُ راجعاً تشريقا

قال نصر: وحدّثنا عمرو بن شمِر بالإسناد المذكور، أنّ معاويةَ دعا النّعمان بن بشير بن سعد الأنصاريّ، ومسلَمة بن مخلَدٍ الأنصاريّ - ولم يكن معه من الأنصار غيرهما - فقال: يا هذان، لقد غمّني ما لقيت من الأوْس والخزرَج، واضعِي سيوفِهم عَلَى عواتقهم يدعُون إلى النزال، حتى لقد جَبّنُوا أصحابي الشجاع منهم والجبان، وحتى والله ما أسأل عن فارس من أهلِ الشام إلا قيل قتله الأنصار، أما والله لألقينّهم بحدّي وحديدِي، ولأعبينّ لكلّ فارس منهم فارساً ينشَبُ في حَلْقِه، ولأرمينّهم بأعدادِهم من قريش، رجال لم يغذِهم التَّمْر والطَّفَيْشل، يقولون: نحن الأنصار، قد والله آوَوْا ونصروا، ولكن أفسدوا حَقّهم بباطلهم!

فغضِب النعمان، وقال: يا معاوية لا تلومَنّ الأنصار في حبّ الحرب والسرعة نحوها، فإنهم كذلك كانوا في الجاهلية. وأمّا دُعاؤهم إلى النزال فقد رأيتهم مع رسول الله صلى الله عليه وآله يفعلون ذلك كثيراً. وأما لقاؤك إياهم في أعدادهم من قريش فقد علمت ما لقيتْ قريش منهم قديماً،

---

(١) الخِدَبُّ: العظيم. القاموس، مادة (خدب).

(٢) العَيُّوق: نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن يتلو الثريا لا يتقدمها. القاموس، مادة (عيق).

(٣) التفنيق: التَّنعُّم. اللسان، مادة (فنق).

فإن أحبَبت أن تَرَى فيه مثلَ ذلك آنفاً فافعل. وأما التّمر والطَّفَيْشَل، فإنّ التمر كان لنا فلما ذقتُموه شارَكتمونا فيه. وأما الطَّفَيْشَل، فكان لليهود، فلما أكلناه غلبناهم عليه، كما غلبت قريش عَلَى السَّخينة.

ثم تكلّم مسلمة بن مخلد، فقال: يا معاوية، إنّ الأنصار لا تعاب أحسابُها ولا نَجَاداتها. وأما غمّهم إياك فقد والله غمّونا، ولو رضِينا ما فارقونا ولا فارقْنا جماعَتهم، وإنّ في ذلك ما فيه من مباينة العشيرة، ولكنا حملنا ذلك لك، ورجونا منك عِوَضه. وأما التّمر ولطَّفَيْشَل، فإنهما يجرّان عليك السخينة والخرنوب.

قال: وانتهى هذا الكلام إلى الأنصار، فجمع قيس بن سعد الأنصار، ثم قام فيهم خطيباً فقال: إنّ معاوية قال ما بلغكم، وأجابه عنكم صاحِبَاكم، ولَعَمْرِي إن غظتُم معاوية اليوم، لقد غظتُموه أمس، وإن وترتموه في الإسلام، فلقد وترتموه في الشِّرْك، وما لكم إليه من ذنب أعظم من نصر هذا الدين، فجدُّوا اليومَ جدًّا تُنْسونه به ما كان أمس، وجِدّوا غداً جدًّا تنسُونه به ما كان اليوم، فأنتم مع هذا اللواءِ الذي كان يقاتل عن يمينِه جبريل، وعن يساره ميكائيل، والقوم مع لواء أبي جهل والأحزابِ فأمّا التمر فإنا لم نغرِسْه، ولكن غلَبنا عليه مَنْ غرسه، وأما الطَّفَيْشَل، فلو كان طعامنا لسُمِّينا به، كما سمّيت قريش بسخِينة، ثم قال سعد في ذلك:

يابن هندٍ دع التَّوَثُّبَ في الحرْ ... بِ إذا نحن بالجِيادِ سَرَيْنَا
نحنُ مَنْ قد علمتَ فاذنُ إذا شئتَ ... بمنْ شِئتَ في العجاج إلينا
إن تشأ فارس له فارس منّا ... وإنْ شئتَ باللّفيف التقينا
أيّ هذين ما أردت فخذه ... ليس مِنّا وليس منك الهوينَى
ثم لا نسلخ العجاجة حتّى ... تنجلي حربُنَا، لَنَا أو عَلَيْنَا
لَيْتَ ما تطلبُ الغَدَاةَ أتانَا ... أنعَمَ الله بالشهادة عَيْنَنا

فلما أتى شعرهُ وكلامُه معاويةَ، دعا عمرَو بن العاص، فقال: ما ترى في شتم الأنصار؟ قال: أرى أن تُوعِدَهم، ولا تشتِمهم. ما عسى أن تقولَ لهم إذا أردتَ ذمّهم! فذُمّ أبدانَهم ولا تذمّ أحسابهم. فقال: إن قيس بن سعد يقوم كلّ يوم خطيباً، وأظنّه والله يُفْنينا غداً إن لم يحبسْه عنّا حابس الفيل، فما الرأيُ؟ قال: الصبر والتوكّل، وأرسل إلى رؤوس الأنصار مع عليّ، فعاتبهم وأمرهم أن يعاتبوه، فأرسل معاوية إلى أبي مسعود والبَرَاءَ بن عازب، وخُزيمة بن ثابت، والحجّاج بن غزية، وأبي أيّوب، فعاتبهم فمشوا إلى قيس بن سعد، وقالوا له: إنّ معاوية لا يحبّ الشتم، فكُفَّ عن شتمه، فقال: إنّ مثلِي لا يشتم، ولكنّي لا أكفُّ عن حربه حتى ألقى الله. قال: وتحرّكت الخيل غُدْوة، فظنّ قيس أنّ فيها معاوية، فحمل على رجل يشبِهه، فضربه بالسيف فإذا هو ليس به، ثم حملَ على آخر يشبهه أيضاً فقنّعه بالسيف.

فلما تحاجَزَ الفريقانِ شتَمه معاوية شتماً قبيحاً، وشتَم الأنصار فغضِب النعمان ومسلَمة، فأرضاهما بعد أنْ همَّا أن ينصرفا إلى قومهما.

ثم إنّ معاوية سأل النعمان أن يخرج إلى قيس فيعاتبه ويسأله السِّلْم. فخرج النعمان، فوقف بين الصَّفين، ونادى: يا قيس بن سعد، أنا النعمان بن بشير، فخرج إليه، وقال: هيه يا نعمان! ما حاجتُك؟ قال: يا قيس، إنّه قد أنصفكم مَنْ دعاكم إلى ما رضيَ لنفسه. يا معشرَ الأنصار، إنكم أخطأتم في خَذْل عثمان يوم الدار، وقتلتم أنصارَه يوم الجمل، وأقحمتُم خيولَكم على أهلِ الشام بصِفّين، فلو كنتم إذْ خذلتم عثمان خذلتُم عليًا، لكانت واحدةً بواحدة، ولكنكم لم ترضَوْا أن تكونوا كالنّاس، حتى أعلمتُم في الحرب، ودعوْتم إلى البراز. ثم لم ينزل بعليّ خطبٌ قط إلا هَوّنتم عليه المصيبةَ، ووعدتموه الظفر. وقد أخذت الحربُ منّا ومنكم ما قد رأيتم، فاتّقوا الله في البقيّة.

فضحك قيس، وقال: ما كنتُ أظنّك يا نعمان محتوياً على هذه المقالة، إنه لا ينصحُ أخاه من غشَّ نفسه، وأنت الغاشّ الضالّ المضِلّ. أما ذكرُك عثمان، فإن كانت الأخبار تكفِيك فخذ منّي واحدة، قَتل عثمان مَنْ لستَ خيراً منه، وخَذَله مَنْ هو خيرٌ منك. وأمّا أصحابُ الجمل فقاتلناهم على النكث. وأما معاوية، فوالله لو اجتمعتْ عليه العرب قاطبة لقاتلتْه الأنصار، وأما قولك إنّا لسنَا كالناس، فنحن في هذه الحرب كما كنّا مع رسول الله، نتقي السيوف بوجوهنا، والرماحَ بنحورنا، حتى جاء الحقّ وظهر أمر الله وهم كارهون. ولكن انظر يا نعمان، هل تَرَى مع معاوية إلا طليقاً، أو أعرابيّاً، أو يمانياً مستدرجاً بغرور! انظرْ أين المهاجرون والأنصار والتّابعون لهم بإحسان، الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه! ثم انظر، هل تَرى مع معاوية أنصاريًا غيرك وغير صويحبك، ولستما والله ببدريين ولا عَقَبيّين لا أُحُديّين، ولا لكما سابقة في الإسلام، ولا آية في القرآن. ولعمرِي لئن شغِبتَ علينا لقد شغب علينا أبوك[1]!

قال نصر: وحدّثنا عمر بن سعد، عن مالك بن أعين، عن زيد بن وهب، قال: كان فارسَ أهل الشام الذي لا ينازَع عوفُ بن مجزأة المراديّ، المكني أبا أحمر، وكان فارسَ أهل الكوفة العكبرُ بن جدير الأسديّ، فقام العكبر إلى عليّ عليه السلام، وكان مِنْطيقاً فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنّ في أيدينا عهداً من الله لا نحتاج فيه إلى الناس، قد ظننا بأهلِ الشام الصبر وظنّوا بنا، فصبرنا وصبروا، وقد عجبت من صبر أهل الدنيا [لأهل الآخرة، وصبر أهلِ الحقّ على أهل الباطل، ورغبة أهل الدنيا]، ثم قرأتُ آية من كتاب الله فعلمت أنهم مفتونون: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٢/٥١٨ ح ٤٣٧.

﴿ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾[1]. فقال له عليه السلام خيراً، وخرج الناس إلى مصافّهم، وخرج عوف بن مجزأة المراديّ نادراً من الناس، وكذا كان يصنع، وقد كان قتل نفراً من أهلِ العراق مبارزةً، فنادى: يا أهل العراق، هلْ من رجل عَصَاه سيفُه يبارزني! ولا أغرّكم من نفسي! أنا عوف بن مجزأة. فنادى النّاس بالعكْبَر، فخرج إليه منقطعاً عن أصحابه ليبارزه، فقال عوف:

بالشّامِ أمْنٌ ليس فيه خوفْ ... بالشّام عَدْلٌ ليس فيه حَيْفْ[2]

بالشام جُودٌ ليس فيه سَوْفْ ... أنا ابن مجزاةٍ واسمي عوفْ

هل من عراقيّ عصاه سَيْفْ ... يَبْرُزْ لي وكَيْفَ لِي وكَيْفْ!

فقال له العكْبَرُ:

الشّام مَحْلٌ والعراق ممطرْ ... بها إمامٌ طاهِرٌ مطَهّرْ

والشام فيها أعورٌ ومُعْوِرْ ... أنا العراقيّ واسمي عَكْبَرْ

ابن جُدير وأبوه المنذِرْ ... ادن، فإنّي في البراز قَسْوَرْ[3]

فاطّعنا، فصرعه العكبر وقتله، ومعاوية على التلّ في وجوه قريش ونفر قليل من الناس، فوجه العكْبَر فرسَه، يملأ فروجه ركضاً، ويضربه بالسوط مسرعاً نحو التلّ. فنظر معاوية إليه فقال: هذا الرجلُ مغلوبٌ عَلَى عقله أو مستأمن، فاسألوه، فأتاه رجل وهو في حَمْوِ فرسه، فناداه فلم يجبه، ومضى مبادراً، حتى انتهى إلى معاوية، فجعل يطعن في أعراض الخيل ورجا أن ينفرد بمعاوية فيقتله، فاستقبله رجال، قتل منهم قوماً، وحال الباقون بينه وبين معاوية بسيوفهم ورماحهم، فلما لم يصل إليه قال: أَوْلى لك يابن هند! أنا الغلام الأسديّ، ورجع إلى صفّ العراق ولم يكلّم، فقال له عليّ عليه السلام: ما دعاك إلى ما صنعت؟ لا تُلْقِ نفسَك إلى التهلُكة، قال: يا أمير المؤمنين أردت غِرّة ابن هِند فحيل بيني وبينه، وكان العكبر شاعراً فقال:

قتلتُ المراديّ الذي كان باغياً ... ينادِي وقد ثار العَجَاجُ: نَزَالِ

يقولُ: أنا عوفُ بن مجزاة والمُنَى ... لقاءُ ابن مجزاةٍ بيوم قتالِ

فقلت له لَمّا علا القومَ صَوْتُه: ... مُنِيتَ بمشبوح اليدين طُوالِ

فأوْجَرْتُه في ملتقى الحرْب صَعْدَةً ... ملأتْ بها رعباً صدورَ رجالِ[4]

فغادرتُه يكبو صريعاً لوجهِهِ ... ينوء مِراراً في مَكَرّ مجَالِ

---

(١) سورة العنكبوت، الآيات: ١-٣.

(٢) الحيف: الظلم والجور. القاموس، مادة (حيف).

(٣) القَسْوَرُ: الأسد. القاموس، مادة (قسر).

(٤) الصعدة: القناة المستقيمة. اللسان، مادة (صعد).

وقدّمت مُهْرِي راكضاً نحو صفِّهِمْ أصَرّفه في جَرْيِهِ بشِمَالِي
أريدُ به التلّ الذي فوق رأسِهِ معاويةُ الجانِي لكلّ خَبَالِ
فقامَ رجالٌ دونَهُ بسيوفهمْ وقام رجالٌ دونَهُ بعوالِي
فلو نلتُه نلتُ التي ليس بعدها وفزت بذكر صالح وفعالِ
ولو متّ في نيلِ المُنَى ألف مَوْتَةٍ لقلت إذا ما متّ: لست أبالِي

قال: فانكسر أهل الشام لقتل عَوْف المراديّ، وهدر معاوية دم العكبر، فقال العكبر: يد الله فوق يده، فأين الله جلّ جلاله ودفاعه عن المؤمنين!

قال نصر: ورَوَى عمر بن سعد، عن الحارث بن حصين، عن أبي الكَنود، قال: جزع أهلُ الشام عَلَى قَتْلاهم جزعاً شديداً، وقال معاوية بن خديج: قَبّح الله ملكاً يملكه المرء بعد حَوْشَبٍ وذي الكَلاع، والله لو ظفِرْنا بأهل الدنيا بعد قتلهما بغير مؤونة ما كان ظفراً. وقال يزيد بن أسد لمعاوية: لا خيرَ في أمرٍ لا يشبه آخرُه أوله، لا يدمى جريح ولا يبكى قتيل حتى تنجليَ هذه الفتنة، فإن يكن الأمر لك أدميت وبكيت عَلَى قرار، وإن يكن لغيرك فما أصِبت به أعظم. فقال معاوية: يا أهل الشام، ما جعلكم أحقّ بالجزع عَلَى قتلاكم من أهل العراق على قتلاهم، والله ما ذو الكَلاع فيكم بأعظَم من عَمّار بن ياسر فيهم، ولا حَوْشب فيكم بأعظم من هاشم فيهم، وما عبيد الله بن عمر فيكم بأعظَم من ابن بُدَيل فيهم، وما الرجال إلاّ أشباه، وما التمحيص إلا من عند الله، فأبشرُوا فإنّ الله قد قتل من القوم ثلاثة: قتَل عماراً وكان فتاهم، وقتل هاشِماً وكان حمزتَهم، وقتل ابنَ بُدَيل وهو الذي فعل الأفاعيل، وبقي الأشتر، والأشعث، وعديّ بن حاتم، فأمّا الأشعث فإنما حمى عنه مصره، وأمّا الأشتر وعديّ فغضبا والله [للفتنة]، قاتلهما غداً إن شاء الله تعالى، فقال معاوية بن خَديج: إن يكن الرجال عندك أشباها فليست كذلك، وغضب. وقال شاعر اليمن يرثي ذا الكَلاع وحوشباً:

مُعَاوِيَ قد نلنا ونيلتْ سَرَاتُنَا وجُدِّع أحياءُ الكَلاع ويحصُبِ[1]
فذو كَلَعٍ لا يُبْعِدِ الله دارَه وكلّ يمان قد أصيبَ بحَوْشَبِ
هما ما هما كانا - معاويَ - عصمةً متى قلتُ كانا عصمةً لا أكذَّبِ
ولو قُبِلَتْ في هالكٍ بَذْلُ فِدْيَةٍ فديتُهما بالنَّفس والأمّ والأب

---

(١) السَّراة: أعلى كل شيء. القاموس، مادة (سري).

وروى نصر، عن عمر بن سعد، عن عبيد الرحمن بن كعب، قال: لما قتل عبد الله بن بُدَيْل يوم صِفِّين مَرّ به الأسود بن طَهْمَان الخُزاعيّ، وهو بآخر رَمق، فقال له: عَزّ عَليَّ والله مصرعُك! أما والله لو شهدتُك لآسيتُك، ولدافعتُ عنك، ولو رأيت الذي أشعَرك لأحببت ألاّ أزايلَه ولا يزايلني حتى أقتله، أو يلحقني بك. ثم نزل إليه، فقال: رحمك الله يا عَبد الله، [والله] إن كان جارك لَيأمَنُ بوائقك، وإن كنتَ لمِن الذّاكرين الله كثيراً. أوْصني رحمك الله. قال: أوصِيك بتقوى الله، وأن تناصحَ أميرَ المؤمنين، وتقاتل معه حتى يظهر الحقّ أو تلحق بالله، وأبلغ أميرَ المؤمنينَ عنّي السلام، وقل له: قاتلْ عَلَى المعركة حتى تجعلَها خَلْف ظهرك، فإنه مَنْ أصبَحَ والمعركة خلف ظهره، كان الغالب.

ثم لم يلبث أن مات.

فأقبل أبو الأسود إلى عليّ عليه السلام، فأخبره، فقال: رحمه الله! جاهَدَ معنا عدوّنا في الحياة، ونصح لنا في الوفاة.

قال نصر: وقد رُوي نحو هذا عن عبد الرحمن بن كَلَدة، حدثني محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي بحر، عن عبد الرحمن بن حاطب، قال: خرجتُ ألتمس أخي سويداً في قَتْلَى صِفّين، فإذا رجل صريع في القَتْلَى، قد أخذ بثوبي فالتفتّ، فإذا هو عبد الرحمن بن كَلَدة، فقلت: إنّا لله وإنا إليه راجعون! هل لك في الماء ومعي إداوة؟ فقال: لا حاجة لي فيه، قد أنفِذ فيّ السلاح وخرقني، فلست أقدر على الشراب، هل أنت مُبلِغٌ عنّي أميرَ المؤمنين رسالةً أرسلُك بها؟ قلت: نعم، قال: إذا رأيته فاقرأ عليه السلام، وقل له: يا أميرَ المؤمنين، احمِلْ جرحَاك إلى عسكرك حتى تجعلهم من وراءِ ظهرك، فإنّ الغلَبة لمن فعل ذلك، ثم لم أبرح حتى مات. فخرجتُ حتى أتيتُ أميرَ المؤمنين عليه السلام فقلت له: إنّ عبد الرحمن بن كَلَدة يقرأ عليكَ السّلام، قال: وأين هو؟ قلت: وجدته وقد أنفذه السّلاح وخَرّقه، فلم يستطع شرب الماء، ولم أبرح حتى مات. فاسترجع عليه السلام، فقلت: قد أرسلني إليك برسالةٍ، قال: وما هي؟ قلت: إنّه يقول: احمِلْ جرحاك إلى عسكرك، واجعلْهم وراءَ ظهرك، فإنّ الغَلبة لمن فعل ذلك، فقال: صدَق، فنادى مناديه في العسكر أن احمِلوا جرحاكم من بيْن القتلى إلى معسكركم، ففعلوا.

قال نصر: وحدّثني عمرو بن شَمِر، عن جابر، عن عامر، عن صعصعة بن صُوحان، أنّ أبرهَة بن الصَّبّاح الحميريّ قام بصِفّين، فقال: ويحكم يا معشر أهل اليمن! إنّي لأظنّ الله قد أذنَ بفنائكم! ويْحكم خَلّوا بين الرجلين، فليقتتلا، فأيّهما قَتَل صاحبَه مِلْنا معه جميعاً - وكان أبْرهة من رؤساء أصحاب معاوية - فبلغ قولُه عليًا عليه السلام، فقال: صدق أبرهة! والله ما سمعتُ بخطبة منذ وردتُ الشام أنا بها أشدّ سروراً منّي بهذه الخطبة!

قال: وبلغ معاويةَ كلامُ أبرهة، فتأخر آخر الصفوف، وقال لمن حوله: إنّي لأظنّ أبرهة مصاباً في عقله. فأقبلَ أهلُ الشام يقولون: والله إنّ أبرهة لأكملُنا ديناً وعقلاً، ورأياً وبأساً، ولكن الأمير كرِه مبارزة عليّ، وسمع ما دار من الكلام أبو داود عروة بن داود العامريّ - وكان من فرسان معاوية - فقال: إن كان معاوية كَرِه مبارزة أبي حسن، فأنا أبارزه، ثم خرج بين الصفّين، فنادى: أنا أبو داود فأبرز إليّ يا أبا حسن، فتقدم عليّ عليه السلام نحوه، فناداه الناس: ارجعْ يا أميرَ المؤمنين عن هذا الكلب فليس لك بخطر، فقال: والله ما معاوية اليوم بأغيظَ لي منه، دعوني وإياه، ثم حَملَ عليه فضربه فقطعه قطعتين، سقطت إحداهما يمنيّةً والأخرى شامية، فارتجّ العسكران لهوْل الضربة، وصرخ ابن عمّ لأبي داود: واسوء صباحاه! وقبّح الله البقاء بعد أبي داود! وحمل على عليّ عليه السلام، فطعنه فضرب الرمح فبراه، ثم قنّعه ضربةً فألحقه بأبي داود، ومعاوية واقف على التلّ، يبصِر ويشاهد، فقال: تبًّا لهذه الرجال وقبحاً، أما فيهم من يقتلُ هذا مبارزَة أو غيلة، أو في اختلاط الفيلق وثَوَران النّقع. فقال الوليد بن عقبة: ابرزْ إليه أنت فإنّك أولى الناسَ بمبارزته، فقال: والله لقد دعاني إلى البراز حتى لقد استحييتُ من قريش، وإني والله لا أبرز إليه، ما جعل العسكرُ بين يدَي الرئيس إلا وقاية له. فقال عتبة بن أبي سفيان: الهوا عن هذا كأنكم لم تسمعوا نداءه، فقد علمتم أنه قتل حريثاً، وفضح عمراً ولا أرى أحداً يتحكّك به إلا قتله. فقال معاوية لبُسْر بن أرطاة: أتقوم لمبارزته؟ فقال: ما أحدٌ أولى بها منك، أما إذ بيتموه فأنا له، قال معاوية: إنك ستلقاه غداً في أوّل الخيل، وكان عند بُسْر ابن عمّ له، قدِم من الحجاز يخطب ابنته، فأتى بسراً، فقال له: إني سمعتُ أنك وعدتَ من نفسك أن تبارز عليًّا، أما تعلم أنّ الوالي من بعد معاوية عتبة ثم بعده محمد أخوه، وكلّ من هؤلاء قِرْن عليّ، فما يدعوك إلى ما أرى! قال: الحياء، خرج مني كلام، فأنا أستحيي أن أرجع عنه. فضحك الغلام، وقال:

تنازِلُه يا بُسْر إن كنتَ مثلَه ... وإلا فإنّ الليث للشاء آكل

كأنك يا بُسْر بن أرطاةَ جاهلٌ ... بآثاره في الحرب أو متجاهلُ

معاوية الوالي وصِنْواه بعدَهُ ... وليس سواء مستعارٌ وثاكلُ[1]

أولئك هم أولى به منك إنّه ... عليٌّ فلا تقربْه، أمّك هابلُ؟

مَتى تَلْقَهُ فالموت في رأس رمحه ... وفي سيفِهِ شغلٌ لنفسك شاغلُ

وما بعده في آخر الخيل عاطفٌ ... ولا قبله في أوّل الخيل حَامل

فقال بُسْر: هل هو إلا الموت، لا بدّ من لقاء الله فغدا عليّ عليه السلام منقطعاً من خيله، ويده

---

(١) الصِّنْوُ: الأخ الشقيق والعم والابن. اللسان، مادة (صنو).

في يد الأشتر، وهما يتسايران رويداً، ويطلبان التلّ ليقفا عليه، إذ برز له بُسْر مقنعاً في الحديد، لا يعرف، فناداه: ابرز إليّ أبا حسن، فانحدر إليه على تُؤدة غير مكترِث به حتى إذا قاربه طعنه وهو دارعٌ فألقاه إلى الأرض، ومنع الدّرع السنان أن يصلَ إليه، فاتقاه بسرٌ بعورته، وقصد أن يكشفها، يستدفع بأسه، فانصرف عنه عليه السلام مستدبراً له فعرفه الأشتر حين سقط فقال: يا أميرَ المؤمنين، هذا بُسْر بن أرطاة، هذا عدو الله وعدوك، فقال: دعه عليه لعنة الله، أبعد أن فعلها؟

فحمل ابنُ عَمّ بُسر من أهل الشام، شاب، على عليّ عليه السلام. وقال:

أرديتَ بُسْرًا والغلامُ ثائرُهْ ... أرْدَيْتَ شيخاً غاب عنه ناصرُهْ

وكلُّنا حامٍ لبُسْرٍ واترُه

فلم يلتفت إليه علي عليه السلام وتلقّاه الأشتر فقال له:

في كل يومٍ رجُلُ شيخٍ شاغِرَهْ ... وعورةٌ وسطَ العَجَاج ظاهِرهْ

تبرزُها طعنةُ كفٍّ واترَهْ ... عمروٌ وُبسرٌ مُنِيا بالفاقِرهْ[(١)]

فطعنه الأشتر، فكسر صُلْبه، وقام بُسْرٌ من طعنة علي عليه السلام مولّيا، وفرّت خيله، وناداه عليّ عليه السلام: يا بُسْر، معاوية كان أحقّ بها منك، فرجع بُسر إلى معاوية، فقال له معاوية: ارفع طرفك، فقد أدال الله عمراً منك، قال الشاعر في ذلك:

أفِي كلّ يومٍ فارسٌ تندبونه ... له عورةٌ تَحْتَ العجاجة بادِيَهْ

يكفّ بها عنه عليٌّ سنانَهُ ... ويضحَكُ منها في الخَلاء معاوِيَهْ

بدت أمسِ من عمرو فقنّع رأسَه ... وعورةُ بسْرٍ مثلُها حَذْو حاذِيَهْ

فقولاً لعمرو وابن أرطاةَ أبصرَا ... سَبِيلَيْكُما، لا تلقيَا اللّيْث ثانيَهْ

ولا تحمَدا إلا الحيا وخُصاكما ... هما كانتَا للنَّفس - والله - واقيَهْ

فلولاهما لم تنجُوَا من سِنَانهِ ... وتلك بما فيها عن العَوْدِ ناهِيَهْ

متى تلقيَا الخيْلَ المغيرة صُبْحةً ... وفيها عليّ فاتركا الخيل ناحِيَهْ

وكونا بعيداً حيث لا تبلغ القَنَا ... ونار الوغَى، إن التجارب كافِيَهْ

وإنْ كان منه بعدُ للنفس حاجةٌ ... فعودَا إلى ما شئتما هِيَ ماهيَهْ

قال: فكان بُسْر بعد ذلك اليوم، إذا لقِيَ الخيل الّتي فيها عليّ يتنحّي ناحية، وتحامى فرسانُ الشام بعدها عليًا عليه السلام.

---

(١) الفاقرة: الدّاهية الكاسرة للفِقار. اللسان، مادة (فقر).

قال نصر: وحدّثنا عمر بن سعد، عن الأجلح بن عبد الله الكنديّ، عن أبي جُحيفة، قال: جمع معاوية كلّ قرشيٍّ بالشام، وقال لهم: العجَب يا معشر قريش! أنّه ليس لأحد منكم في هذه الحرب فِعالٌ يطول بها لسانه غداً ما عدا عمراً، فما بالكم! أين حميّة قريش؟ فغضب الوليد بن عُقْبة، وقال: أيَّ فعال تريد؟ والله ما نعرف في أكفائنا من قريش العراق مَنْ يُغني غناءنا باللسان ولا باليد. فقال معاوية: بلى إنّ أولئك، وقَوْا عليًّا بأنفسهم. قال الوليد: كلاّ، بل وقاهم عليّ بنفسه. قال: ويحكم! أمَا فيكم مَنْ يقوم لقِرْنه منهم مبارزة ومفاخرة! فقال مروان: أما البراز فإنّ عليًّا لا يأذنُ لحسن ولا لحُسين ولا لمحمّد بنيه فيه، ولا لابن عباس وإخوته، ويصلَى بالحرب دونهم، فلأيّهم نبارز! وأمّا المفاخرة، فبماذا نفاخرهم! بالإسلام أم بالجاهلية! فإن كان بالإسلام، فالفخر لهم بالنبوّة، وإن كان بالجاهلية فالملك فيه لليمن، فإن قلنا قريش، قالوا لنا: عبد المطلب.

فقال عُتْبة بن أبي سفيان: الهوا عن هذا، فإني لاق بالغداة جَعْدة بن هُبيرة، فقال معاوية: بخٍ بخٍ! قومُه بنو مخزوم، وأمّه أمّ هانيء بنت أبي طالب، كفء كريم!

وكثر العتاب والخصام بين القوم، حتى أغلظوا لمروان وأغلظ لهم، فقال مرْوان: أما والله، لولا ما كان منّي إلى عليٍّ عليه السلام في أيام عثمان، ومشهدي بالبصرة، لكان لي في عليّ رأيٌ يكفي امرأً ذا حسب ودين، ولكنّ ولعلّ. ونابذ معاوية الوليد بن عُقْبة [دون القوم]، فأغلظ له الوليد، فقال معاوية: إنّك إنّما تجترىء عليّ بنسبك من عثمان، ولقد ضربك الحدَّ وعزلك عن الكوفة.

ثم إنهم ما أمسوا حتى اصطلحوا، وأرضاهم معاوية من نفسه، ووصلهم بأموال جليلة. وبعث معاوية إلى عُتْبة، فقال: ما أنت صانعٌ في جَعْدة! قال: ألقاه اليوم وأقاتله غداً، وكان لجعدة في قريش شرفٌ عظيم، وكان له لسانٌ، وكان من أحبّ الناس إلى عليّ عليه السلام، فغدا عليه عُتْبة، فنادى: أبا جَعْدة أبا جعدة! فاستأذن عليًّا عليه السلام في الخروج إليه، فأذِن له، واجتمع الناس، فقال عُتْبة: يا جَعْدة، والله ما أخرجك علينا إلا حبّ خالك وعمّك عامل البحرين، وإنّا والله ما نزعم أنّ معاوية أحقُّ بالخلافة من عليّ، لولا أمره في عثمان، ولكن معاوية أحقّ بالشام لرضا أهلِها به، فاعفوا لنا عنها، فوالله ما بالشام رجلٌ به طِرْق إلا وهو أجدُّ من معاوية في القتال، وليس بالعراق رجل له مثل جدّ عليّ في الحرب، ونحن أطوع لصاحبنا منكم لصاحبكم، وما أقبح بعليّ أن يكون في قلوب المسلمين أوْلَى الناس بالنّاس، حتى إذا أصابَ سلطاناً أفنى العرب. فقال جعدة: أما حُبّي لخالي، فلو كان لك خالٌ مثله لنسيتَ أباك، وأما ابن أبي سلمة فلم يصب أعظمَ من قدره، والجهاد أحبّ إليّ من العمل، وأما فضل عليّ عَلَى معاوية، فهذا ما لا يختلف فيه اثنان. وأمّا رضاكم اليوم بالشام، فقد رضيتم بها أمسِ فلم

نقبل. وأمّا قولك: «ليس بالشام أحدٌ إلاّ وهو أجدّ من معاوية، وليس بالعراق رجل مثل جدّ عليّ»، فهكذا ينبغي أن يكون، مضى بعليّ يقينُه، وقصّر بمعاوية شكّه، وقصْدُ أهل الحقّ خيرٌ من جهد أهل الباطل. وأمّا قولُك: «نحن أطوع لمعاوية منكم لعليّ» فوالله ما نَسأله إن سكتَ، ولا نردّ عليه إن قال. وأما قتلُ العرب، فإنّ الله كتب القتل والقتال، فمن قتله الحقُّ فإلى الله.

فغضب عُتْبة، وفَحَش على جَعْدة فلم يجبه، وأعرض عنه، فلما انصرف عنه، جمع خيله فلم يستبقِ [منها] شيئاً، وجلّ أصحابه السَّكون والأزْد والصَّدِف، وتهيّأ جَعْدة بما استطاع، والتقوْا، فصَبر القوم جميعاً، وباشر جَعْدة يومئذ القتال بنفسه، وجزع عتبة، فأسلم خيله، وأسرع هارباً إلى معاوية، فقال له: فَضَحك جَعْدة وهَزَمتك، لا تغسِل رأسَك منها أبداً! فقال: والله لقد أعذرت، ولكن أبَى الله أنْ يديلنا منهم، فما أصنع؟ وحَظِي جَعْدَةُ بعدها عند عليّ عليه السلام!

وقال النّجاشيّ فيما كان من فُحْش عتبة عَلَى جَعْدة:

إن شتْمَ الكريم يا عُتْب خطبٌ ... فاعْلَمَنْهُ من الخطوب عظيمُ
أمّه أمّ هانىء وأبوهُ ... من معدٍّ ومن لؤيٍّ صميمُ
ذاكَ منها هبيرة بن أبي وهـ ... ـبٍ أقرّتْ بفضله مخزومُ
كان في حربكم يعدّ بألفٍ ... حين يلْقى بها القُرومَ القرومُ
وابنُه جَعْدَةُ الخليفة منه ... هكذا تنبت الفروع الأرومُ[1]
كلّ شيء تريده فهو فيهِ ... حَسَبٌ ثاقبٌ ودين قويمُ
وخطيب إذا تمعّرت الأوْ ... جُهُ يشجَى بهِ الألدّ الخصيمُ[2]
وَحَليمٌ إذا الحُبَى حَلّها الجَهْـ ... ـلُ، وخفّت من الرجال الحلومُ
وشَكِيمُ الحروب قد علم النّا ... سُ إذا حَلّ في الحروبِ الشكيمُ[3]
وصحيح الأديم من نَغَل العيـ ... ـبِ إذا كان لا يصحّ الأدِيمُ
حامل للعظيم في طلب الحمـ ... ـدِ إذا عظّم الصغيرَ اللئيمُ
ما عسى أن تقول للذهب الأحمـ ... ـر عيباً، هيهات منك النجوم!
كلّ هذا بحمْدِ ربّك فيهِ ... وسوى ذاك كانَ وهو فطيمُ

(١) الأروم: الأصول، القاموس، مادة (أرم).
(٢) تَمَعَّرَت الأوجه: تغيرت غيظاً. القاموس، مادة (معر).
(٣) الشكيم: الأبيُّ الأنِف شديد النفس. اللسان، مادة (شكم).

وقال الأعور الشَّنّي في ذلك، يخاطب عُتْبة بن أبي سفيان:

ما زلتَ تظهرُ في عِطْفيك أبّهةً ... لا يرفع الطَّرْف منك التيهُ والصَّلَفُ[1]

لا تحسبِ القومَ إلاّ فقع قَرْقَرَةٍ ... أو شحمةً بزّها شاوٍ لها نُطَفُ

حتى لقيت ابنَ مخزومٍ، وأيّ فتى ... أحيا مآثر آباء له سَلَفُوا!

إن كان رهط أبي وهب جحاجحةً ... في الأولين، فهذا منهمُ خَلَفُ[2]

أشجاك جَعْدَة إذ نادى فوارسَه ... حاموا عن الدّين والدنيا فما وقفوا

هلاّ عطفت على قومٍ بمصرعةٍ ... فيها السَّكُون وفيها الأزد والصَّدِف

قال نصر: وحدثنا عمر بن سعد، عن الشعبيّ، قال كان رجلٌ من أهل الشام، يقال له الأصبغ بن ضرار الأزديّ، من مسالح معاوية وطلائعه، فندَب له عليٌّ عليه السلام الأشتر، فأخذه أسيراً من غير قتال، فجاء به ليلاً فشدّه وثاقاً، وألقاه عند أصحابهِ ينتظر به الصباح، وكان الأصبغ شاعراً مفوّهاً، فأيقن بالقتل، ونام أصحابُه، فرفع صوته فأسمع الأشتر، وقال:

ألا ليتَ هذا اللّيلَ أصبح سرمداً ... عَلَى الناس لا يأتيهمُ بنهارِ

يكونُ كذا حتى القيامة إنّني ... أحاذرُ في الإصباح يوم بواري

فيا ليل أطبق، إن في الليل راحةً ... وفي الصبح قتلي أو فكاك أسارِي

ولو كنتُ تحت الأرض ستين وادياً ... لما رَدّ عنّي ما أخاف حِذاري

فيا نفسُ مهلاً إن للموت غاية ... فصبراً على ما ناب يابنَ ضرارِ

أأخشَى ولي في القوم رِحْمٌ قريبة ... أبَى الله أن أخشى ومالك جاري

ولو أنّه كَانَ الأسير ببلدةٍ ... أطاعُ بها، شمّرت ذيلَ إزاري

ولو كنت جاراً لأشعثِ الخير فكّنِي ... وقلّ من الأمر المخوفِ فراري

وجارَ سعيد أو عديّ بن حاتم ... وجارَ شُريحِ الخير قَرّ قرارِي

وجار المراديّ الكريم وهانىء ... وزحْرِ بن قيس ما كرهت نهارِي

ولو أنني كنتُ الأسير لبعضهم ... دعوتُ فتى منهم ففكّ إساري

أولئك قومي لا عدمتُ حياتَهم ... وعفوهمُ عنّي وسَتْر عواري

قال: فغدا بهِ الأشتر إلى عليّ عليه السلام، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنّ هذا رجل من مسالح معاوية، أصبته أمس، وبات عندنا الليل، فحرّكنا بشعره، وله رَحِمٌ، فإن كان فيه القتل فاقتله،

---

(١) الصَّلَفُ: الغُلُوّ في الظَّرْف والزيادة على المقدار مع تكبر. اللسان، مادة (صلف).

(٢) جحاجحة: جمع جحجاح وهو السيد. القاموس، مادة (جحح).

وإن ساغ لك العفو عنه فهبْه لنا، فقال: هو لك يا مالك، وإذا أصبت منهم أسيراً فلا تقتله، فإنّ أسير أهل القبلة لا يقتل.

فرجع به الأشتر إلى منزله وخلى سبيله[1].

١٢٥ - ومن كلام له عليه السلام في الخوارج لما أنكروا تحكيم الرجال، ويذم فيه أصحابه في التحكيم

الأصل: إِنَّا لَمْ نُحَكِّمِ الرِّجَالَ، وَإِنَّمَا حَكَّمْنَا ٱلْقُرْآنَ. هَذَا ٱلْقُرْآنُ، إنمَا هُوَ خَطٌّ مَسْطُورٌ بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ، لاَ يَنْطِقُ بِلِسَانٍ، وَلاَ بُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ، وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَالُ. وَلَمَّا دَعَانَا ٱلْقَوْمُ إِلَى أَنْ نُحَكِّمَ بَيْنَنَا ٱلْقُرْآنَ، لَمْ نَكُنِ ٱلْفَرِيقَ الْمُتَوَلِّيَ عَنْ كِتَابِ ٱللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَقَدْ قَالَ ٱللهُ تَعَالَى عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[2]، فَرَدُّهُ إِلَى ٱللهِ أَنْ نَحْكُمَ بِكِتَابِهِ، وَرَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ أَنْ نَأْخُذَ بِسُنَّتِهِ، فَإِذَا حُكِمَ بِالصِّدْقِ فِي كِتَابِ ٱللهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ، وَإِنْ حُكِمَ بِسُنَّةِ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ وَأَوْلاَهُمْ بِهَا.

وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: لِمَ جَعَلْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ أَجَلاً فِي التَّحْكِيمِ؟ فَإِنَّمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ لِيَتَبَيَّنَ ٱلْجَاهِلُ، وَيَتَثَبَّتَ ٱلْعَالِمُ، وَلَعَلَّ ٱللهَ أَنْ يُصْلِحَ فِي هَذِهِ ٱلْهُدْنَةِ أَمْرَ هَذِهِ ٱلْأُمَّةِ، وَلاَ تُؤْخَذَ بِأَكْظَامِهَا، فَتَعْجَلَ عَنْ تَبَيُّنِ ٱلْحَقِّ، وَتَنْقَادَ لِأَوَّلِ ٱلْغَيِّ.

إِنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ عِنْدَ ٱللهِ مَنْ كَانَ ٱلْعَمَلُ بِالْحَقِّ أَحَبَّ إِلَيْهِ، وَإِنْ نَقَصَهُ وَكَرَثَهُ، مِنَ ٱلْبَاطِلِ، وَإِنْ جَرَّ إِلَيْهِ وَزَادَهُ. فَأَيْنَ يُتَاهُ بِكُمْ! وَمِنْ أَيْنَ أُتِيتُمْ! ٱسْتَعِدُّوا لِلْمَسِيرِ إِلَى قَوْمٍ حَيَارَى عَنِ ٱلْحَقِّ لاَ يُبْصِرُونَهُ، وَمُوزَعِينَ بِالْجَوْرِ لاَ يَعْدِلُونَ عَنْهُ، جُفَاةٍ عَنِ ٱلْكِتَابِ، نُكُبٍ عَنِ الطَّرِيقِ.

مَا أَنْتُمْ بِوَثِيقَةٍ يُعْلَقُ بِهَا، وَلاَ زَوَافِرِ عِزٍّ يُعْتَصَمُ إِلَيْهَا، لَبِئْسَ حُشَاشُ نَارِ ٱلْحَرْبِ أَنْتُمْ!

أُفٍّ لَكُمْ! لَقَدْ لَقِيتُ مِنْكُمْ بَرْحاً يَوْماً أُنَادِيكُمْ، وَيَوْماً أُنَاجِيكُمْ، فَلاَ أَحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ النِّدَاءِ، وَلاَ إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ النَّجَاءِ!

(١) أخرجه ابن مزاحم المنقري في وقعة صفين: ٤٦٧.
(٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.

الشرح: دَفّتا المصحف: جانباه اللّذان يكنُفانه، وكان الناس يعملونَهما قديماً من خشب، ويعملونَهما الآن من جلد، يقول عليه السلام: لا اعتراضَ عليّ في التحكيم، وقول الخوارج: «حكّمتَ الرجال» دَعْوَى غير صحيحة، وإنّما حكّمت القرآن، ولكنّ القرآن لا ينطق بنفسه، ولا بدّ له مَن يترجم عنه. والتَّرْجُمان بفتح التاء وضم الجيم، هو مفسّر اللغة بلسان آخر، ويجوز ضمّ التاء لضمة الجيم، قال الراجز:

كالتُّرْجُمانِ لُقّيَ الأنباطا

ثم قال: لمّا دعينا إلى تحكيم الكتاب، لم نكن القوم الذين قال الله تعالى في حقّهم: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾[1]، بل أجبنا إلى ذلك، وعملنا بقول الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[2]. وقال: معنى ذلك أنْ نحكم بالكتاب والسنّة، فإذا عمل الناس بالحقّ في هذه الواقعة، واطّرحوا الهوى والعصبية، كنّا أحقّ بتدبير الأمّة وبولاية الخلافة من المنازِع لنا عليها.

فإن قلت: إنّه عليه السلام لم يقل هكذا، وإنما قال: إذا حُكِم بالصدق في كتاب الله، فنحن أولى به، وإذا حُكِم بالسنة فنحن أحقّ بها!

قلت: إنه رفع نفسه عليه السلام أن يصرّح بذكر الخلافة فكنّى عنها، وقال: نحنُ إذا حُكِم بالكتاب والسنة أولى بالكتاب والسنّة، ويلزم من كونه أَوْلى بالكتاب والسنة من جميع الناس أن يكون أولى بالخلافة من جميع الناس، فدلّ على ما كنّى عنه بالأمر المستلزم له.

فإن قلت: إذا كان الرجال الذين يترجمون القرآن ويفسّرونه، وقد كُلِّفُوا أن يحكموا في واقعة أهل العراق وأهل الشام، بما يدلّهم القرآن عليه، يجوز أن يختلفوا في تفسير القرآن وتأويله، فيدّعي صاحب أهل العراق من تفسيره ما يستدلّ به على مراده، ويدّعي وكيل أهل الشام ما يقابل ذلك ويناقضه، بطريق الشبهة الّتي تمسكوا بها من دم عثمان، ومن كون الإجماع لم يحصل على بيعة أمير المؤمنين عليه السلام، احتاجَ الحكمان حينئذ إلى أنْ يحكُم بينهما حَكَمان آخران، والقول فيهما كالقول في الأول إلى ما لا نهاية له، وإنما كان يكون التحكيم قاطعاً للشَّغَب لو كان القرآن ينصّ بالصريح الذي لا تأويل فيه، إمّا عَلَى أمير المؤمنين عليه السلام وإمّا على معاوية، ولا نصّ صريح فيه، بل الذي فيه يحتمل التأويل والتجاذب، فما الذي يفيد التحكيم والحال تعود لا محالة جَذَعة!

قلت: لو تأمّل الحكمان الكتاب حقّ التأمّل، لوجدا فيه النصّ الصريح على صحة خلافة أمير المؤمنين عليه السلام، لأنّ فيه النصّ الصريح على أنّ الإجماع حجّة، ومعاوية لم يكن مخالفاً

(١) سورة النور، الآية: ٤٨.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.

في هذه المقدمة ولا أهل الشام، وإذا كان الإجماع حجّة، فقد وقع الإجماع لما توفّي رسول الله ﷺ، على أنّ اختيار خمسةٍ من صلحاء المسلمين لواحد منهم وبيعتِه توجب لزوم طاعته وصحة خلافته، وقد بايع أميرَ المؤمنين عليه السلام خمسةٌ من صلحاء الصحابة بل خمسون، فوجب أنْ تصحّ خلافته، وإذا صحّت خلافته نفذت أحكامه، ولم يجب عليه أن يقِيد بعثمان، إلا إن حضر أولياؤه عنده، طائعين له مبايعين، ملتزمين لأحكامه، ثم بعد ذلك يطلبون القصاص من أقوام بأعيانهم، يدّعون عليهم دمَ المقتول، فقد ثبت أنّ الكتاب لو تؤمّلَ حقّ التأمّل، لكان الحق مع أهل العراق، ولم يكن لأهل الشام من الشبهة ما يقدح في استنباطهم الذكور.

ثم قال عليه السلام: فأمّا ضربي للأجل في التّحكيم فإنما فعلته لأن الأناة والتثبّت من الأمور المحمودة، أما الجاهل فيعلم فيه ما جهله، وأما العالم فيثبُت فيه على ما علِمه، فرجوتُ أن يصلح الله في ذلك الأجلِ أمرَ هذه الأمّة المفتونة.

ولا تؤخذ بأكْظامها: جمع كَظْم، وهو مخرج النَّفَس، يقول: كرهت أن أعْجِل القوم عن التبيّن والاهتداء، فيكون إرهاقي لهم، وتركي للتنفيس عن خناقهم، وعدُولي عن ضرب الأجل بيني وبينهم أدْعَى إلى استِفسادهم، وأحْرَى أن يركبوا غيَّهم وضلالهم، ولا يُقْلِعوا عن القبيح عنهم.

ثم قال: أفضلُ الناس مَنْ آثرَ الحقّ وإن كرثه - أي اشتدّ عليه، وبلغ منه المشقة ويجوز «أكرثه» بالألف - على الباطل وإن انتفع به وأورثه زيادة.

ثم قال: «فأين يتاه بكم؟»، أي أين تذهبون في التيه؟ يعني في الحَيْرة. وروي: «فأنى يُتاهُ بكم؟».

ومن أين أُتيتم؟ أي كيفَ دخل عليكم الشيطان أو الشبهة، ومن أيّ المداخل دخل اللّبس عليكم!

ثم أمرهم بالاستعداد للمسير إلى حرب أهل الشام، وذكَر أنهم مُوزَعُون بالجَوْر، أي ملهَمون، قال تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾[1] أي ألهمني، أوزعته بكذا وهو موزَع به، والاسم والمصدر جميعاً الوزع بالفتح، واستوزعت إليه تعالى شكره فأوزَعني، أي استلهمته فألهمني.

ولا يعدِلون عنه، لا يتركونه إلى غيره، وروي «لا يعدلون به»، أي لا يعدلون بالجَوْر شيئاً آخر، أي لا يرضون إلاّ بالظلم ولا يختارون عليهما غيرهما.

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٩.

قوله: «جفاة عن الكتاب»: جمع جافٍ وهو النابي عن الشيء، أي قد نَبَوْا عن الكتاب لا يلائمهم ولا يناسبونه، تقول: جفَا السرجُ عن ظهرِ الفرس إذا نبا وارتفع، وأجفيتُه أنا، ويجوز أن يريد أنّهم أعراب جفاة، أي أجْلافٌ لا أفهام لهم.

قوله: «نُكُبٌ عن الطريق»، أي عادلون، جمع ناكب، نكَب ينكُب عن السبيل، بضم الكاف، نكُوباً.

قوله: «وما أنتم بوثيقة»، أي بذي وثيقة، فحذف المضاف، والوثيقة: الثقة، يقال: قد أخذت في أمر فلان بالوثيقة، أي بالثقة، والثقة مصدر.

والزوافر: العشيرة والأنصار، ويقال: هم زافرتهم عند السلطان، للذين يقومون بأمره عنده.

وقوله: «يعتصم إليها»، أي بها، فأناب «إلى» مناب الباء، كقول طرفة:

وإن يَلْتَقِ الحيّ الجميع تلاقِني   إلى ذِرْوة البيت الرفيع المصمّدِ

وحُشاش النار: ما تُحشّ به، أي توقد، قال الشاعر:

أفِي أن أحُشّ الحرب فيمن يُحشّها   ألامُ، وفي ألاّ أقرّ المخازيا!

وروي «حَشاش» بالفتح كالشّياع، وهو الحطب الذي يلقى في النار قبل الجزل، وروي: «حُشّاش» بضم الحاء وتشديد الشين، جمع حاشّ، وهو الموقد للنار.

قوله: «أفّ لكم» من الألفاظ القرآنية، وفيها لغات «أفّ» بالكسر وبالضم وبالفتح و«أفٌّ» منوناً بالثلاث أيضاً، ويقال: أفًّا وتفًّا، وهو إتباع له، وأفّة وتفّة، والمعنى استقذار المعنى بالتأفيف.

قوله: «لقد لقيت منكم بَرْحاً»، أي شدّة، يقال: لقيت منكم بَرْحاً بارحاً، أي شدّة وأذى، قال الشاعر:

أجِدّك هذا عمرَك الله كلّما   دَعاكَ الهوى بَرْحٌ لعينك بارح!

ويروى: «ترحاً»، أي حزناً.

ثم ذكر أنه يناديهم جهاراً طوراً، ويناجيهم سِرًّا طوراً، فلا يجدُهم أحراراً عند ندائه، أي لا ينصرون ولا يجيبون، ولا يجدهم ثقاتاً وذوي أمانة عند المناجاة، أي لا يكتمون السرّ.

والنّجاء: المناجاة، مصدر ناجيته نجاء، مثل ضاربته ضِراباً، وصارعته صِراعاً.

١٢٦ - ومن كلام له عليه السلام لما عوقب على التسوية في العطاء وتصييره الناس أسوة في العطاء من غير تفضيل أولى السابقات والشرف

الأصل: أَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ! وَٱللهِ لاَ أَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ، وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْماً! وَلَوْ كَانَ المَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا المَالُ مَالُ ٱللهِ!

ثم قال عليه السلام: أَلاَ وَإِنَّ إِعْطَاءَ المَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ تَبْذِيرٌ وَإِسْرَافٌ، وَهُوَ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ فِي الدُّنْيَا، وَيَضَعُهُ فِي ٱلآخِرَةِ، وَيُكْرِمُهُ فِي النَّاسِ، وَيُهِينُهُ عِنْدَ ٱللهِ، وَلَمْ يَضَعِ ٱمْرُؤٌ مَالَهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، وَعِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ، إِلاَّ حَرَمَهُ ٱللهُ شُكْرَهُمْ، وَكَانَ لِغَيْرِهِ وُدُّهُمْ، فَإِنْ زَلَّتْ بِهِ النَّعْلُ يَوْماً فَٱحْتَاجَ إِلَى مَعُونَتِهِمْ فَشَرُّ خَلِيلٍ، وَأَلأَمُ خَدِينٍ.

الشرح: أصل «تأمروني»: تأمرونني، بنونين، فأسكن الأولى وادغم، قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾[1].

ولا أطور به: لا أقرّ به ولا تَطُرْ حَوْلنا، أي لا تقرب ما حولنا، وأصله من طَوار الدار، وهو ما كان ممتدًا معها من الفناء.

وقوله: «ما سمر سمير» يعني الدهر، أي ما أقام الدهر وما بقي، والأشهر في المثل: «ما سمر ابنا سمير»، قالوا: السمير الدهر، وابناه الليل والنهار. وقيل: ابنا سمير الليل والنهار، لأنه يُسمَر فيهما، ويقولون: لا أفعله السَّمَر والقمر، أي ما دام الناس يسمرون في ليلة قمْراء ولا أفعله سميرَ الليالي، أي أبداً، قال الشَّنْفَرَى:

هنالِكَ لاَ أرْجُو حياةً تَسُرُّنِي ... سميرَ الليَّالي مُبسلاً بالجرائر

قوله: «وما أمّ نجم في السماء نجماً»، أي قصد وتقدّم، لأن النجوم يتبع بعضها بعضاً، فلا بدّ من تقدُّم وتأخُّر، فلا يزال النجم يقصد نجماً غيره، ولا يزال النجم يتقدم نجماً غيره.

والخدين: الصديق، يقول عليه السلام: كيف تأمرونني أن أطلب النصر من الله بأن أجور على قوم ولّيت عليهم! يعني الذين لا سوابق لهم ولا شرف، وكان عُمَر ينقصهم في العطاء عن غيرهم.

ثم قال عليه السلام: لو كان المال لي وأنا أفرّقه بينهم لسوّيت، فكيف وإنما هو مال الله وفيئه!

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٤.

ثم ذكر أنّ إعطاء المال في غير حقّه تبذير وإسراف، وقد نهى الله عنه وأنه يرفع صاحبه عند الناس، ويضعه عند الله، وأنه لم يسلك أحد هذه المسلك إلاّ حرمه الله ودّ الذين يتحبب إليهم بالمال، ولو احتاج إليهم يوماً عند عثرة يعثرها لم يجدهم.

واعلم أن هذه مسألة فقهية ورأيُ عليّ عليه السلام وأبي بكر فيها واحد، وهو التسوية بين المسلمين في قسمة الفيء والصدقات، وإلى هذا ذهب الشافعيّ رحمه الله، وأما عمر فإنه لمّا وَلِيَ الخلافة فضّل بعض الناس على بعض، ففضّل السابقين على غيرهم، وفضل المهاجرين من قريش على غيرهم من المهاجرين، وفضّل المهاجرين كافة على الأنصار كافة، وفضّل العرب على العجم، وفضّل الصريح على المولى، وقد كان أشار على أبي بكر أيام خِلافته بذلك، فلم يقبل، وقال: إنّ الله لم يفضّل أحداً على أحد، ولكنه قال: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾[1]، ولم يخصّ قوماً دون قوم، فلما أفضت إليه الخلافة عمل بما كان أشار به أولاً. وقد ذهب كثير من فقهاء المسلمين إلى قوله، والمسألة محلّ اجتهاد، وللإمام أن يعمل بما يؤديه إليه اجتهاده، وإن كان اتّباع عليّ عليه السلام عندنا أَوْلى، لا سيما إذا عضده موافقة أبي بكر على المسألة، وإن صحّ الخبر أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله سوّى، فقد صارت المسألة منصوصاً عليها، لأن فعله عليه السلام كقوله[2].

---

١٢٧ - ومن كلام له عليه السلام قاله للخوارج أيضاً

الأصل: فَإِنْ أَبَيْتُمْ إِلاَّ أَنْ تَزْعُمُوا أَنِّي أَخْطَأْتُ وَضَلَلْتُ، فَلِمَ تُضَلِّلُونَ عَامَّةَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ - صَلَى ٱللهُ عَلَيْهِ - بِضَلاَلِي، وَتَأْخُذُونَهُمْ بخطئي، وَتُكَفِّرُونَهُمْ بِذُنُوبِي! سُيُوفُكُمْ عَلَى عَوَاتِقِكُمْ تَضَعُونَهَا مَوَاضِعَ ٱلْبُرْءِ وَالسُّقْمِ، وَتَخْلِطُونَ مَنْ أَذْنَبَ بِمَنْ لَمْ يُذْنِبْ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ رَجَمَ الزَّانِيَ الْمُحْصَنَ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ وَرَّثَهُ أَهْلَهُ، وَقَتَلَ ٱلْقَاتِلَ وَوَرَّثَ مِيرَاثَهُ أَهْلَهُ، وَقَطَعَ يَدَ السَّارِقِ وَجَلَدَ الزَّانِيَ غَيْرَ الْمُحْصَنِ، ثُمَّ قَسَمَ عَلَيْهِمَا مِنَ ٱلْفَيْءِ، وَنَكَحَا الْمُسْلِمَاتِ، فَأَخَذَهُمْ رَسُولُ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ بِذُنُوبِهِمْ، وَأَقَامَ حَقَّ ٱللهِ فِيهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ سَهْمَهُمْ مِنَ ٱلْإِسْلاَمِ، وَلَمْ يُخْرِجْ أَسْمَاءَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ. ثُمَّ أَنْتُمْ شِرَارُ النَّاسِ، وَمَنْ

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٠.

(٢) وقد قال عمر في آخر حياته أنه سوف يعيد العطاء كما كان في أيام أبي بكر.

رَمَى بِهِ الشَّيْطَانُ مَرَامِيَهُ وَضَرَبَ بِهِ تِيهَهُ. وَسَيَهْلِكُ فِيَّ صِنْفَانِ: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ ٱلْحُبُّ إِلَى غَيْرِ ٱلْحَقِّ، وَمُبْغِضٌ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ ٱلْبُغْضُ إِلَى غَيْرِ ٱلْحَقِّ. وَخَيْرُ النَّاسِ فِيَّ حَالاً النَّمَطُ ٱلأَوْسَطُ فَالْزَمُوهُ، وَٱلْزَمُوا السَّوَادَ ٱلأَعْظَمَ، فَإِنَّ يَدَ ٱللهِ عَلَى ٱلْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَٱلْفُرْقَةَ، فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ، كَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ ٱلْغَنَمِ لِلذِّئْبِ.

أَلاَ مَنْ دَعَا إِلَى هَذَا الشِّعَارِ فَاقْتُلُوهُ، وَلَوْ كَانَ تَحْتَ عِمَامَتِي هٰذِهِ، فَإِنَّمَا حُكِّمَ الْحَكَمَانِ لِيُحْيِيَا مَا أَحْيَا ٱلْقُرْآنُ، وَيُمِيتَا مَا أَمَاتَ ٱلْقُرْآنُ، وَإِحْيَاؤُهُ ٱلاجْتِمَاعُ عَلَيْهِ، وَإِمَاتَتُهُ ٱلافْتِرَاقُ عَنْهُ، فَإِنْ جَرَّنَا ٱلْقُرْآنُ إِلَيْهِمْ ٱتَّبَعْنَاهُمْ وَإِنْ جَرَّهُمْ إِلَيْنَا ٱتَّبَعُونَا، فَلَمْ آتِ لاَ أَبَا لَكُمْ بُجْراً، وَلاَ خَتَلْتُكُمْ عَنْ أَمْرِكُمْ، وَلاَ لَبَّسْتُهُ عَلَيْكُمْ.

إِنَّمَا ٱجْتَمَعَ رَأْيُ مَلَئِكُمْ عَلَى ٱخْتِيَارِ رَجُلَيْنِ، أَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَلاَّ يَتَعَدَّيَا ٱلْقُرْآنَ، فَتَاهَا عَنْهُ، وَتَرَكَا ٱلْحَقَّ وَهُمَا يُبْصِرَانِهِ، وَكَانَ ٱلْجَوْرُ هَوَاهُمَا، فَمَضَيَا عَلَيْهِ، وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا فِي ٱلْحُكُومَةِ بِالْعَدْلِ، وَالصَّمْدِ لِلْحَقِّ سُوءَ رَأْيِهِمَا، وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا.

الشرح: ليس لقائل أن يقول له عليه السلام معتذراً عن الخوارج: إنهم إنما ضلّلوا عامّة أمة محمد صلى الله عليه وآله، وحكّموا بخطئهم وكفرهم بالسيف خبطاً، لأنهم وافقوك في تصويب التحكيم، وهو عندهم كفر فلم يؤاخذوهم بذنبك كما قلت لهم؟ وذلك لأن أمير المؤمنين عليه السلام ما قال هذه المقالة إلاّ لمن رَأى منهم استعراض العامّة، وقتل الأطفال حتى البهائم، فقد كان منهم قوم فعلوا ذلك. وقد سبق مِنّا شرح أفعالهم ووقائعهم بالناسِ، وقالوا: إن الدار دار كفر لا يجوز الكفّ عن أحد من أهلها، فهؤلاء هم الذين وجّه أميرُ المؤمنين عليه السلام إليهم خطابه وإنكاره، دون غيرهم من فرق الخوارج.

واعلم أن الخوارج كلّها تذهب إلى تكفير أهل الكبائر، ولذلك كفّروا عليًّا عليه السلام ومَن اتّبعه على تصويب التحكيم، وهذا الاحتجاج الذي احتجّ به عليهم لازم وصحيح، لأنه لو كان صاحبُ الكبيرة كافراً لما صلّى الله عليه وآله، ولا ورّثه من المسلم، ولا مكّنه من نكاح المسلمات، ولا قسم عليه من الفيء ولأخرجه عن لفظ الإسلام.

وقد احتجت الخوارج لمذهبها بوجوه:

منها قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ

عَنِ﴾[1]، قالوا: فجَعل تارك الحجّ كافِراً.

والجواب أن هذه الآية مجملة، لأنه تعالى لم يبيّن ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ بماذا؟ فيحتمل أن يريد تارك الحج، ويحتمل أن يريد تاركَ اعتقاد وجوبه على ما استطاع إليه سبيلاً، فلا بدّ من الرجوع إلى دلالة، والظاهر أنه أراد لزومَ الكفر لمن كفر باعتقاد كون الحج غيرَ واجب، ألا تراه في أول الآية قال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾، فأنبأ عن اللزوم، ثم قال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ بلزوم ذلك! ونحن نقول: إنّ مَنْ لم يقل: لله على الناس حج البيت، فهو كافر.

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْئَسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[2]، قالوا: والفاسق لفسقه وإصراره عليه آيسٌ من رَوْح الله، فكان كافراً.

والجواب أنّا لا نسلّم أن الفاسقَ آيسٌ من رَوْح الله مع تجويزه تَلافِي أمرِه بالتوبة والإقلاع، وإنما يكون اليأس مع القطع، وليس هذه صفة الفاسق، فأمّا الكافر الذي يجحد الثواب والعقاب، فإنه آيسٌ من رَوْح الله، لأنه لا تخطُر له التوبة والإقلاع، ويقطع على حسن معتقده.

ومنها قولُه تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[3] وكلّ مرتكبٍ للذنوب فقد حكَم بغير ما أنزل الله. ولم يحكم بما أنزل الله.

والجواب أنّ هذا مقصورٌ على اليهود، لأن ذكرهم هو المقدّم في الآية، قال سبحانه وتعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾[4] ثم قال عقيب قوله: ﴿هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾[5] فدلّ عَلَى أنّها مقصورة على اليهود.

ومنها قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾[6]، قالوا: وقد اتفقنا مع المعتزِلة على أنَّ الفاسق يصلَى النارَ، فوجب أنْ يسمَّى كافراً.

والجواب، أنّ قوله تعالى: ﴿نَارًا﴾ نكرة في سياق الإثبات فلا تعمّ، وإنّما تعمّ النكرة في سياق النفي، نحو قولك: «ما في الدار من رجل»، وغير ممتنع أن يكون في الآخرة نار مخصوصة لا يصلاَها إلاّ الّذين كذّبوا وتولّوْا، ويكون للفسّاق نار أخرَى غيرها.

منها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾[7]، قالوا: والفاسق تحيط به جهنّم، فوجب أن يكون كافراً.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٧.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٤.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٤٢.
(٥) سورة المائدة، الآية: ٤٦.
(٦) سورة الليل، الآيات: ١٤-١٦.
(٧) سورة التوبة، الآية: ٤٩.

والجواب أنه لم يقل سبحانه: «وإنّ جهنم لا تحيط إلاّ بالكافرينَ» وليس يلزم من كونها محيطةً بقوم ألاّ تحيط بقوم سواهم.

ومنها قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[1]. قالوا: والفاسق لا يجوز أن يكونَ ممّن ابيضّت وجوههم، فوجب أن يكونَ ممّن اسودّت، ووجب أن يسمّى كافراً، لقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

والجواب أنّ هذه القسمة ليست متقابلة، فيجوز أن يكونَ المكلّفون ثلاثة أقسام: بيضُ الوجوه، وسود الوجوه، وصنف آخر ثالث بين اللونين، وهم الفساق.

ومنها قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢)﴾[2]. قالوا: والفاسق على وجهه غبَرة، فوجب أن يكونَ من الكفرة والفجرة.

والجواب، أنّه يجوز أن يكون الفسّاق قسماً ثالثاً لا غبرة على وجوههم، ولا هي مسفِرة ضاحكة، بل عَلَى ما كانت عليه في دار الدنيا.

ومنها قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾[3]. قالوا: والفاسق لا بدّ أن يجازَى، فوجب أن يكون كفوراً.

والجواب، أنّ المرادَ بذلك: «وهل نجازي بعقاب الاستئصال إلا الكفور»! لأنّ الآية وردت في قصّة أهل سَبأ، لكونهم استُؤصِلوا بالعقوبة.

ومنها أنّه تعالى قال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[4]، وقال في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾[5]، فجعل الغاوي الذي يتبعه مشركاً.

والجواب أنّا لا نسلّم أنّ لفظة «إنما» تفيد الحصر، وأيضاً فإنه عطف قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ على قوله: ﴿الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾، فوجب أن يثبت التّغاير بين الفريقين، وهذا مذهبنا، لأنّ الذين يتولّونه هم الفسّاق، والذين هم به مشركون هم الكفار.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾[6] فجعل الفاسق مكذّباً.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٦.
(٢) سورة عبس، الآيات: ٣٨-٤١.
(٣) سورة سبأ، الآية: ١٧.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٤٢.
(٥) سورة النحل، الآية: ١٠٠.
(٦) سورة السجدة، الآية: ٢٠.

والجواب، أن المراد به الذين فسقوا عن الدين، أي خرجوا عنه بكفرهم، ولا شُبْهة أنّ مَنْ كان فسقه من هذا الوجه فهو كافر مكذّب، ولا يلزم منه أنّ كل فاسق على الإطلاق فهو مكذّب وكافر.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[1]، قالوا: فأثبت الظالم جاحداً، وهذه صفة الكفار.

والجواب أنّ المكلّف قد يكون ظالماً بالسرقة والزنى، وإن كان عارفاً بالله تعالى، وإذا جاز إثبات ظالم ليس بكافر ولا جاحد بآيات الله تعالى، جاز إثباتُ فاسق ليس بكافر.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[2].

والجواب، أنّ هذه الآية تَدلّ على أنّ الكافر فاسق، ولا تدلّ على أنّ الفاسق كافر.

ومنها قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾[3]. فنصّ سبحانه على أن مَنْ تخفّ موازينه يكون مكذّباً، والفاسق تخفّ موازينه، فكان مكذّباً، وكلّ مكذّب كافر.

والجواب أنّ ذلك لا يمنع من قسم ثالث، وهم الذين لا تخفّ موازينهم ولا تثقل، وهم الفساق، ولا يلزم من كون كلّ مَنْ خفّت موازينه يدخل النار ألاّ يدخل النار إلا من خَفّت موازينه.

ومنها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾[4]، وهذا يقتضي أنّ من لا يكون مؤمناً فهو كافر والفاسق ليس بمؤمن، فوجب أن يكون كافراً.

والجواب أنّ «منْ» ها هنا للتبعيض، وليس في ذكر التبعيض نفي الثالث، كما أن قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾[5]، لا ينفي وجود دابّة تمشي على أكثر من أربع كبعض الحشرات.

ثم نعود إلى الشرح: قوله عليه السلام: «ومن رَمَى به الشيطان مراميَه»، أي أضلّه كأنّه رمَى به مرمًى بعيداً، فضلّ عن الطريق، ولم يهتدِ إليها.

قوله: «وضرب به تيهَه» أي حيّره وجعله تائهاً.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٣.
(٢) سورة النور، الآية: ٥٥.
(٣) سورة المؤمنون، الآيات: ١٠٢-١٠٥.
(٤) سورة التغابن، الآية: ٢.
(٥) سورة النور، الآية: ٤٥.

ثم قال عليه السلام: يهلك فيّ رجُلان، فأحدهما مَنْ أفرط حبّه له واعتقاده فيه حتى ادّعى له الحلول كما ادّعت النصارى ذلك في المسيح عليه السلام، والثاني مَنْ أفرط بغضه له، حتى حارَبَه، أو لعنه، أو برىء منه، أو أبغضه، هذه المراتب الأربع، والبغض أدناها، وهو مُوبِقٌ مهلك، وفي الخبر الصّحيح المتّفق عليه أنه لا يحبّه إلا مؤمن، ولا يُبغضه إلاّ منافق[1]، وحسبك بهذا الخبر، ففيه وحده كفاية.

غلاة الشيعة والنصيرية وغيرهم

فأما الغُلاة فيه فهالكون كما هلك الغلاة في عيسى عليه السلام. وقد روى المحدّثون أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال له عليه السلام: «فيك مُثُلٌ من عيسى بن مريم، أبغضتْه اليهود فبهتَت أمّه، وأحبّته النصارى فرفعته فوق قدره»[2]، وقد كان أمير المؤمنين عثر على قوم من أصحابه خرجوا من حدّ محبته باستحواذ الشيطان عليهم أن كفروا بربهم، وجحدوا ما جاء به نبيُّهم، فاتخذوه ربًا وادّعوه إلٰهاً، وقالوا له: أنت خالقنا، ورازقنا، فاستتابهم، واستأنى وتوعّدهم فأقاموا على قولهم، فحفر لهم حفراً دخّن عليهم فيها، طمعاً في رجوعهم، فأبوا فحرقهم، وقال:

ألاَ تَـرَوْنِـي قَـدْ حَـفَـرْتُ حَـفَـرَا   إنّـي إذا رأيـتُ أمـراً مـنـكَـرَا

أوقـدتُ نـاري وَدَعَـوْتُ قَـنْـبَـرَا

وروى أبو العباس أحمد بن عبيد الله بن عمار الثقفيّ، عن محمد بن سليمان بن حبيب المصيصيّ، المعروف بنوين، وروى أيضاً عن عليّ بن محمد النوفليّ عن مشيخته، أن عليًا عليه السلام مرّ بقوم وهم يأكلون في شهر رمضان نهاراً، فقال: أسفر أم مرضى؟ قالوا: لا ولا واحدة منهما، قال: فمن أهل الكتاب أنتم فتعصمكم الذمّة والجزية؟ قالوا: لا، قال: فما بالُ الأكل في نهار رمضان! فقاموا إليه، فقالوا: أنت أنت! يومون إلى ربوبيته، فنزل عليه السلام عن فرسه، فألصق خدّه بالأرض، وقال: ويلكم! إنما أنا عبدٌ من عبيد الله، فاتقوا الله وارجعوا إلى الإسلام. فأبَوْا فدعاهم مراراً، فأقاموا على كفرهم، فنهض إليهم، وقال: شدُّوهم وثاقاً، وعليّ بالفَعَلة والنار والحطب، ثم أمر بحفر بئرين فحفِرتا، إحداهما سَرَباً والأخرى مكشوفة، وألقى الحطب في المكشوفة، وفتح بينهما فتحاً، وألقى النار في الحطب، فدخن عليهم، وجعل يهتف بهم، ويناشدهم ليرجعوا إلى الإسلام، فأبَوْا، فأمر بالحطب والنار فألقَى عليهم، فأحرِقوا، فقال الشاعر:

---

(١) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال رقم: ٣٣٠٢٩.

(٢) أخرجه أحمد في كتاب: العشرة المبشرين بالجنة، باب: ومن مسند علي (٢٧٢٠٢)، والنسائي في «الكبرى» (٨٤٨٨)، وأبو يعلى في «مسنده» (٥٣٤).

لترمِ المنيّةُ حيثُ شاءَتْ ... إذا لم ترمِني في الحفرتَيْنِ
إذَا ما حُشّتا حطباً بنار ... فذاك الموت نقداً غير دَينِ

قال: فلم يبرحْ عليه السلام حتى صارُوا حُمَماً.

ثم استترت هذه المقالة سنة أو نحوها، ثم ظهر عبد الله بن سبأ وكان يهوديًا يتستّر بالإسلام بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام فأظهرها، واتّبعه قومٌ فسمّوا السَّبَئيّة، وقالوا: إنّ علياً عليه السلام لم يمتْ، وإنّه في السماء، والرعد صوته والبرق صورته، وإذا سمعوا صوت الرعد، قالوا: السلام عليك يا أمير المؤمنين! وقالوا في رسول الله صلى الله عليه وآله أغلَظ قول، وافتروْا عليه أعظم فرْية، فقالوا: كَتَم تسعة أعشار الوحي، فنعَى عليهم قولَهم الحسنُ بن عليّ بن محمد بن الحنفيّة رضي الله عنه في رسالته، التي يذكر فيها الإرجاء، رواها عنه سليمان بن أبي شيخ، عن الهيثم بن معاوية، عن عبد العزيز بن أبان، عن عبد الواحد بن أيمن المكيّ، قال: شهدتُ الحسن بن عليّ بن محمد بن الحنفيّة يُمْلِي هذه الرسالة، فذكرهاوقال فيها: ومِنْ قول هذه السبئيّة: هدِينا لوحي ضلّ عنه الناس، وعِلْم خفي عنهم، وزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وآله كَتم تسعة أعشار الوحي، ولو كتم صلى الله عليه وآله شيئاً مما أنزل الله عليه لكَتَم شأن أمرأة زيد، وقوله تعالى: ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾(١).

ثم ظهر المغيرة بن سعيد، مولى بَجِيلة، فأراد أن يحدِثَ لنفسه مقالةً يستهوي بها قوماً، وينال بها ما يريد الظَّفَر به من الدنيا، فغَلا فِي عليّ عليه السلام، وقال: لو شاء عليّ لأحيا عاداً وثمودَ وقروناً بين ذلك كثيراً.

وروى علي بن محمد النوفلِيّ، قال: جاء المغيرة بن سعيد، فاستأذنَ عَلَى أبي جعفر محمد بن عليّ بن الحسين، وقال له: أخبر الناس أني أعلمُ الغيب، وأنا أطعمك العراق، فزجره أبو جعفر زجْراً شديداً، وأسمعه ما كرِهَ، فانصرف عنه، فأتى أبا هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفيّة رحمه الله، فقال له مثل ذلك - وكان أبو هاشم أيْداً - فوثب عليه فضربه ضرباً شديداً أشفى به على الموت، فتعالج حتى برىء، ثم أتى محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن رحمه الله - وكان محمد سُكَيْتاً - فقال له كما قال للرجلين، فسكت محمد فلم يجبْه، فخرج وقد طمع فيه بسكوته، وقال: أشهد أنّ هذا هو المهديّ الذي بَشّر به رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنه قائمُ أهل البيت، وادّعى أنّ عليّ بن الحسين عليه السلام أوصى إلى محمد بن عبد الله بن الحسن. ثم قدم المغيرةُ الكوفة، وكان مشعبذاً، فدعا الناس إلى قوله، واستهواهم واستغواهم، فاتّبعه خلق كثير، وادّعى عَلَى محمد بن عبد الله أنّه أذِنَ له في خَنْق الناس وإسقائهم السموم، وبثّ أصحابَه في الأسفار يفعلون ذلك بالناس، فقال له بعضُ أصحابه: إنّا

(١) سورة التحريم، الآية: ١.

نخنُق مَن لا نعرف، فقال: لا عليكم! إنْ كان من أصحابكم عجّلتموه إلى الجنة، وإن كان من عدوّكم عجلتموه إلى النار، ولهذا السبب كان المنصور يسمَّى محمد بن عبد الله الخنّاق، وينحله[1] ما ادّعاه عليه المغيرة.

ثم تفاقم أمرُ الغُلاة بعد المغيرة، وأمعنوا في الغلوّ، فادعَوْا حلول الذات الإلٰهية المقدّسة في قوم سلالة أمير المؤمنين عليه السلام، وقالوا بالتناسخ، وجحدوا البعث والنشور، وأسقطوا الثواب والعقاب، وقال قوم منهم: إن الثواب والعقاب إنّما هو ملاذُّ هذه الدنيا ومشاقّها، وتولَّدت من هذه المذاهب القديمة التي قال بها سلفهم مذاهبُ أفحش منها قال بها خَلَفُهم، حتى صاروا إلى المقالة المعروفة بالنّصيريّة، وهي التي أحدثها محمد بن نصير النميريّ، وكان من أصحاب الحسن العسكريّ عليه السلام، والمقالة المعروفة بالإسحاقية وهي التي أحدثها إسحاق بن زيد بن الحارث، وكان من أصحاب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، كان يقول بالإباحة وإسقاط التكاليف، ويثبت لعليّ عليه السلام شركة مع رسول الله صلى الله عليه وآله في النبوّة على وجهٍ غير هذا الظاهر الذي يعرفه الناس، وكان محمد بن نصير من أصحاب الحسن بن عليّ بن محمد بن الرّضا، فلما مات ادّعى وكالة لابن الحسن الذي تقول الإماميّة بإمامته، ففضحه الله تعالى بما أظهره من الإلحاد والغلوّ والقول بتناسخ الأرواح، ثم ادّعى أنه رسول الله ونبيٌّ من قِبَل الله تعالى، وأنه أرسله عليّ بن محمد بن الرضا، وجحد إمامة الحسن العسكريّ وإمامة ابنه، وادعى بعد ذلك الربوبية، وقال بإباحة المحارم.

وللغلاة أقوال كثيرة طويلة عريضة، وقد رأيتُ أنا جماعةً منهم، وسمعت أقوالهم، ولم أر فيهم محصّلاً، ولا مَنْ يستحقّ أن يخاطَب، وسوف أستقصي ذِكْرَ فِرَقِ الغلاة وأقوالهم في الكتاب الذي كنت متشاغلاً بجمعه، وقطعني عنه اهتمامي بهذا الشرح، وهو الكتاب المسمى «بمقالات الشيعة» إن شاء الله تعالى.

قوله عليه السلام: «والزموا السَّواد الأعظم»[2]، وهو الجماعة، وقد جاء في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله هذه اللفظة التي ذكرها عليه السلام، وهي: «يد الله على الجماعة ولا يبالَى بشذوذِ مَنْ شذّ»[3]، وجاء في معناها كثير، نحو قوله عليه السلام: «الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين

---

(١) نحله القول: نسبه إليه. القاموس، مادة (نحل).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» كتاب: أول مسند الكوفيين، باب: حديث النعمان بن بشير (١٧٩٨٢)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢١٧)، وابن ماجه في كتاب الفتن، باب السواد الأعظم (٣٩٥٠)، بلفظ: عليكم بالسواد.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما جاء في لزوم الجماعة (٢١٦٧)، والنسائي في كتاب: تحريم الدم، باب: قتل من فارق الجماعة (٤٠٢٠).

أبعد»[1]، وقوله: «لا تجتمع أمتي على خطأ»[2]، وقوله: «سألت الله ألاّ تجتمع أمتي على خطأ، فأعطانيها»[3]، وقوله: «ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن»[4]، وقوله: «لا تجتمع أمّتي على ضلالة»[5]، و«سألت ربّي ألاّ تجتمع أمتي على ضلالة فأعطانيها»[6]. و«لم يكن الله ليجمع أمّتي على ضلال ولا خطأ»[7].

وقوله عليه السلام: «عليكم بالسّواد الأعظم»[8]، وقوله: «مَنْ خرج من الجماعة قِيدَ شبر فقد خلع ربقة الإسلام عن عنقه»[9].

وقوله: «مَنْ فارق الجماعة مات ميتة جاهليّة»، وقوله: «مَنْ سرّه بحبوحة الجنة فيلزم الجماعة»[10].

والأخبار في هذا المعنى كثيرة جداً.

ثم قال عليه السلام: «مَنْ دعا إلى هذا الشعار فاقتلوه»، يعني الخوارج، وكان شعارهم أنّهم يحلِقُون وسط رؤوسهم ويبقى الشعر مستديراً حوله كالإكليل.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما جاء في لزوم الجماعة (٢١٦٥)، وأحمد في كتاب: مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب: أول مسند عمر بن الخطاب (١١٥).

(٢) ذكره ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (١/ ٢٠)، بنفس اللفظ، وأخرج ابن ماجه في كتاب: الفتن، باب السواد الأعظم (٣٩٥٠)، والطبراني في «الكبير» (١٣٦٢٣)، وابن عدي في «الكامل» (٨٨٠)، كلهم بلفظ: «إن أمتي لا تجتمع على ضلالة».

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٦٦٨٢)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٧٧)، والطبراني في «الكبير» (٢١٧١)، كلهم بلفظ: ضلالة بدل قوله: خطأ.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده»، باب: مسند عبد الله بن مسعود (٣٥٨٩)، والحاكم في «المستدرك» (٤٤٦٥)، والطبراني في «الأوسط» (٣٦٠٢).

(٥) أخرجه ابن ماجه، باب السواد الأعظم (٣٩٥٠)، والطبراني (١٣٦٢٣)، وابن عدي في «الكامل» (٨٨٠).

(٦) أخرجه أحمد (٢٦٦٨٢)، والطبراني (٢١٧١)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٧٧).

(٧) أخرجه الزمخشري في الفايق في غريب الحديث: ٣/ ٣٠.

(٨) أخرجه أحمد في «المسند» (١٧٩٨٢)، وابن ماجه في كتاب: الفتن، باب السواد الأعظم (٣٩٥٠)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢١٧).

(٩) أخرجه الترمذي في كتاب: الأمثال، باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة (٢٨٦٣)، وأبو داود في كتاب: السنة، باب في قتل الخوارج (٤٧٥٨)، وأحمد (١٦٧١٨).

(١٠) أخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة (٢١٦٥)، وأحمد في كتاب: مسند العشرة المبشرين بالجنة باب: مسند عمر بن الخطاب (١٧٨).

قال: «ولو كان تحت عمامتي هذه - أي لو اعتصم واحتمى بأعظم الأشياء حُرْمة - فلا تكفّوا عن قتله».

ثم ذكر أنه إنما حُكِّم الحكمان ليُحييا ما أحياه القرآن، أي ليجتمعا على ما شهد القرآن باستصوابه واستصلاحه، ويميتا ما أماته القرآن، أي ليفترقا ويصدًّا وينكلا عَمّا كرهه القرآن، وشهد بضلاله.

والبُجْر، بضم الباء: الشرُّ العظيم، قال الراجز:

أرمـي عـلـيـهـا وهـي شـيء بُـجْـرُ

أي داهية.

ولا خَتَلْتُكم، أي خدعتكم، خَتَلَهُ وخاتله: أي خدعه، والتخاتل: التخادع. ولا لبّسته عليكم، أي جعلته مشتبهاً ملتبساً، ألبستُ عليهم الأمر ألبسه بالكسر.

والملأ: الجماعة من الناس. والصَّمْد: القصد.

قال: سبق شرطُنا سوءَ رأيهما، لأنا اشترطنا عليهما في كتاب الحكومة ما لا مضرّة علينا، مع تأمّله فيما فعلاه من اتّباع الهوى وترك النصيحة للمسلمين.

١٢٨ - ومن كلام له عليه السلام فيما يخبر به عن الملاحم بالبصرة

الأصل: يا أَحْنَفُ، كأنّي بِهِ وَقَدْ سارَ بِالْجَيْشِ ٱلَّذِي لاَ يَكُونُ لَهُ غُبَارٌ وَلاَ لَجَبٌ، وَلاَ قَعْقَعَةُ لُجُمٍ، وَلاَ حَمْحَمَةُ خَيْلٍ، يُثِيرُونَ ٱلْأَرْضَ بِأَقْدَامِهِمْ كأَنَّهَا أَقْدَامُ ٱلنَّعامِ.

قال الشريف الرضيّ أبو الحسن رحمه الله تعالى: يُومِئ بِذَلِكَ إلى صاحِبِ ٱلزَّنْجِ.

ثم قال عليه السلام: وَيْلٌ لِسَكَكِكُمُ ٱلْعَامِرَةِ، وَٱلدُّورِ الْمُزَخْرَفَةِ، الَّتِي لَهَا أَجْنِحَة كأَجْنِحَةِ ٱلنُّسُورِ، وَخَرَاطِيمُ كَخَرَاطِيم ٱلْفِيَلَةِ، مِنْ أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ لاَ يُنْدَبُ قَتِيلُهُمْ، وَلاَ يُفْقَدُ غائِبُهُمْ.

أَنا كَابُّ ٱلدُّنْيَا لِوَجْهِها، وقادِرُها بِقَدْرِها، وَناظِرُها بِعَيْنِها!

الشرح: اللّجَب: الصوت. والدُّور المزخرفة: المزيّنة المموّهة بالزُّخرف، وهو الذهب. وأجنحة الدور التي شبّهها بأجنحة النسور: رواشينها. والخراطيم: ميازيبها.

وقوله: «لا يندب قتيلُهم»: ليس يريد به مَنْ يقتلونه، بل القتيل منهم، وذلك لأنّ أكثرَ الزّنج

الذين أشار إليهم، كانوا عبيد دهاقين البصرة وبناتها، ولم يكونوا ذوي زوجات وأولاد، بل كانوا على هيئة الشطّار عُزّاباً فَلا نادبةَ لهم.

وقوله: «ولا يفقد غائبهم» يريد به كثرتَهم وأنّهم كلما قتِل منهم قتيل سدّ مسدّه غيره، فلا يظهر أثر فقده.

وقوله: «أنا كابّ الدنيا لوجهها»، مثل الكلمات المحكيّة عن عيسى عليه السلام: أنا الذي كببت الدنيا على وجهها، ليس لي زوجة تموت، ولا بيت يخرب. وِسادِي الحجَر وفراشي المدَر[1]، وسراجي القمر.

اخبار صاحب الزنج

فأما صاحب الزّنج هذا فإنه ظهر في فُرات البصرة في سنة خمس وخمسين ومائتين رجل زعم أنّه عليّ بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فتبِعه الزّنج الذين كانوا يكسَحون السّباخ في البصرة.

وأكثرُ الناس يقدحون في نسبه وخصوصاً الطالبيين.. وجمهور النسّابين اتفقوا على أنّه من عبد القيس، وأنّه عليّ بن محمد بن عبد الرحيم، وأمّه أسديّة من أسد بن خزيمة، جدّها محمد بن حكيم الأسديّ، من أهل الكوفة، أحد الخارجين مع زيد بن عليّ بن الحسين عليه السلام عَلَى هشَام بن عبد الملك، فلما قتِل زيد، هرب فلحق بالرَّيّ وجاء إلى القرية التي يقال لها وَرْزَنين، فأقام بها مُدّة، وبهذه القرية ولد عليّ بن محمد صاحب الزَّنج، وبها منشؤه، وكان أبو أبيه المسمّى عبد الرحيم رجلاً من عبد القيس، كان مولده بِالطالِقان، فقدِم العراق، واشترى جارية سِنْديّة، فأولدها محمداً أباه.

وكان عليّ هذا متّصلاً بجماعة من حاشية السلطان وخَوَل بني العباس، منهم غانم الشّطرنجيّ، وسعيد الصغير، وبشير، خادم المنتصر، وكان منهم معاشُه ومن قومٍ من كتّاب الدولة يمدحهم ويستمنحهم بشعره، ويعلّم الصبيان الخطّ والنّحو والنجوم، وكان حسن الشعر مطبوعاً عليه، فصيحَ اللهجة، بعيد الهمة، تسمو نفسه إلى معالي الأمور، ولا يجد إليها سبيلاً، ومن شعره القصيدة المشهورة التي أولها:

رأيتُ المقامَ على الاقتصادِ ... قُنوعاً بهِ ذِلّةً في العِبَادِ

ومن جملتها:

إذا النّجار ضاقَ بهَا زَنْدُهَا ... ففسحتُها في فِراق الزنّادِ

(١) المدر: قطع الطين اليابس. القاموس، مادة (مدر).

إذا صارمٌ قرّ في غِمْدِهِ حَوَى غيرُهُ السَّبْقَ يوم الجلادِ

ومن الشعر المنسوب إليه:

وإنّا لتصبغُ أسيافنا إذا ما انتضين ليوم سَفُوكِ[1]

منابرهنّ بطونُ الأكفّ وأغمادهُنّ رؤوسُ الملوكِ

ومن شعره في الغزل:

ولمّا تبينت المنازل بالحمى ولم أقضِ منها حاجة المتورّدِ

زفرت إليها زفرةً لو حشوتُها سرابيل أبدانِ الحديد المسرّدِ[2]

لرقّت حواشِيها، وظلّت متونُها تَلِين كما لانَتْ لداود في اليدِ

ومن شعره أيضاً:

وإذا تُنازعني أقولُ لها قري موتٌ يريحُك أو صعود المنبرِ

ما قد قُضِي سيكونُ فاصطبري له ولك الأمان مِنَ الَّذِي لم يقدرِ

وقد ذكر المسعوديّ في كتابه المسمى «مروج الذهب»، أن أفعال عليّ بن محمد صاحب الزّنج، تدلّ على أنّه لم يكن طالبيًّا، وتصدّق ما رُمي به من دعوته في النسب، لأنّ ظاهر حاله كان ذَهابه إلى مذهب الأزارقة، في قتل النساء والأطفال والشيخ الفاني والمريض، وقد روي أنه خطب مَرّة، فقال في أول خطبته: «لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر لا حُكم إلا لله»، وكان يرى الذنوب كلّها شِرْكاً.

ومن الناس من يطعن في دينه ويرميه بالزّندقة والإلحاد، وهذا هو الظاهر من أمره، لأنه كان متشاغلاً في بدايته بالتنجيم والسحر والاصطرلابات[3].

وذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، أن عليّ بن محمد شَخَص من سامُرّاء وكان يعلّم الصبيان بها، ويمدح الكتّاب، ويستميح الناس، في سنة تسع وأربعين ومائتين إلى البحرين، فادّعى بها أنّه عليّ بن محمد بن الفضل بن الحسن بن عبيد الله بن العباس بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ودعا النّاس بهجَر إلى طاعته، فاتّبعه جماعة كثيرة من أهلها، واتّبعه جماعة أخرى، فكانت بسببه بين الذين اتّبعوه والذين أبوْه عصبيّة، قتل فيها بينهم جماعة، فانتقل عنهم

(١) السفك: صب الدم. اللسان، مادة (سفك).

(٢) السرد: اسم جامع للدروع وسائر الحَلَق وما أشبهها. اللسان، مادة (سرد).

(٣) أخرجه ابن شيبة في مصنفه رقم: ٢٧.

لمّا حدث ذلك إلى الأحساء، وضَوَى إلى حيّ من بني تميم، ثم من بني سعد يقال لهم بنو الشّماس، فكان بينهم مقامه، وقد كان أهل البحرين أحلّوه من أنفسهم محلّ النبيّ ﷺ - فيما ذكر - حتى جُبِيَ له الخراج هنالك، ونفذ حُكْمُه فيهم، وقاتلوا أسبابَ السلطان لأجله، ووترَ منهم جماعةً كثيرة، فتنكّروا له، فتحوّل عنهم إلى البادية. ولما انتقل إلى البادية صحبَه جماعة من أهل البحرين، منهم رجل كيّال من أهل الأحساء، يقال له يحيى بن محمد الأزرق، مولَى بني دارم، ويحيى بن أبي ثعلب وكان تاجراً من أهل هَجَر، وبعض موالي بني حنظلة أسود يقال له سليمان بن جامع، وكان قائد جيشه حيث كان بالبحرين.

ثم تنقّل في البادية من حيّ إلى حيّ، فذكر عنه أنه كان يقول: أوتيتُ في تلك الأيام آياتٍ من آياتِ إمامتي، منها أنّي لقِّيت سوراً من القرآن لم أكن أحفظها، فجرى بها لساني في ساعة واحدة، منها «سبحان» و«الكهف» و«صاد»، ومنها أنّي ألقيْتُ نفسي على فراشي، وجعلت أفكّر في الموضع الذي أقصِد له، وأجعل مُقامي به إذا نبت البادية بي. وضِقْتُ ذَرْعاً بسوء طاعة أهلها، فأظلّتْني سحابة، فبرقت ورعدت، واتّصل صوتُ الرعد منها بسمعي، فخوطبت فقيل له: اقصِد البصرة، فقلت لأصحابي وهم يكتنفونني: إني أمِرْت بصوت من هذا الرعد بالمصير إلى البصرة.

وذكر عنه أنّه عند مصيره إلى البادية أوْهَم أهلَها أنه يحيى بن عمر أبو الحسين المقتول بناحية الكوفة في أيام المستعين، فاختدَع بذلك قوماً منهم، حتى اجتمع عليه منهم جماعة، فزحف بهمْ إلى موضع من البحرين، يقال له الرّدْم، فكانت بينه وبين أهله وقعة عظيمة، كانت الدَّبَرَة فيها عليه وعلى أصحابه، قتِلوا فيها قتلاً ذريعاً، فتفرّقت عنه العرب وكرهته، وتجنّبتْ صحبتَه.

فلما تفرّقت العرب عنه ونبتْ به البادية، شخص عنها إلى البصرة، فنزل بها في بني ضُبَيعة، فاتّبعه بها جماعة، منهم عليّ بن أبان المعروف بالمهلبيّ، من ولد المهلّب بن أبي صُفْرة، وأخواه محمد والخليل وغيرهم، وكان قدومه البصرة في سنة أربع وخمسين ومائتين وعاملُ السلطان بها يومئذ محمد بن رجاء، ووافق ذلك فتنة أهل البصرة بالبِلالية والسّعدية، فطمع في أحد الفريقين أن يميلَ إليه، فأرسل أربعةً من أصحابه يَدْعُون إليه، وهم محمد بن سَلْم القصّاب الهجَريّ وبُرَيش القُرَيعيّ وعليّ الضرّاب، والحسين الصيدنانيّ، وهم الذين كانوا صحِبوه بالبحرين، فلم يستجب لهم أحد من أهل البلد، وثار عليهم الجند، فتفرّقوا، وخرج عليّ بن محمد من البصرة هارباً، وطلبه ابنُ رجاء فلم يقدر عليه. وأخبِر ابنُ رجاء بميل جماعة من أهل البصرة إليه، فأخذهم فحبسهم، وحبس معهم زوجة عليّ بن محمد، وابنه الأكبر، وجارية له كانت حاملاً، ومضى عليّ بن محمد لوجهه يريد بغداد ومعه قوم من خاصّته، منهم محمد بن

سلْم، ويحيى بن محمد، وسليمان بن جامع، وبُريش القُريعيّ، فلما صاروا بالبطيحة، نذِر بهم بعضُ موالي الباهليّين، كان يلي أمر البطيحة، فأخذهم وحمَلهم إلى محمد بن أبي عوْن وهو عامل السلطان بواسط، فاحتال لابن أبي عوْن حتى تخلّص هو وأصحابه من يده، ثم صار إلى بغداد فأقام بها سنة. وانتسب في هذه السنة إلى محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد، وكان يزعم أنه ظهر له أيّام مقامه ببغداد في هذه السنة آيات، وعرف ما في ضمائر أصحابه وما يفعله كلّ واحد منهم، وأنه سأل ربّه أن يعلِمه حقيقة أمور كانت في نفسه، فرأى كتاباً يكتَب له على حائط، ولا يرى شخص كاتبه.

قال أبو جعفر: واستمال ببغداد جماعة، منهم جعفر بن محمد الصُّوحانيّ، من ولدزيد بن صُوحان العبديّ، ومحمد بن القاسم، وغلامان لبني خاقان، وهما مُشرق ورفيق، فسمّى مشرقاً حمزة وكنّاه أبا أحمد، وسمى رفيقاً جعفراً وكنّاه أبا الفضل، فلما انقضى عامة ذلك ببغداد، عُزل محمد بن رجاء عن البصرة، فوثبتْ رؤساء الفتنة بها من البِلاليّة والسّعدية، ففتحوا المحبس، وأطلقوا مَنْ كان فيها، فتخلَّص أهله وولده فيمن تخلّص، فلمّا بلغه ذلك شخص عن بغداد، فكان رجوعه إلى البصرة في شهر رمضان من سنة خمس وخمسين ومائتين، ومعه عليّ بن أبان المهلبيّ، وقد كان لحق به وهو بمدينة السلام مشرق ورفيق، وأربعة أُخَر من خواصّه، وهم يحيى بن محمد، ومحمد بن سلم، وسليمان بن جامع، وأبو يعقوب المعروف بجرْبان، فساروا جميعاً حتى نزلوا بالموضع المعروف ببرنخل من أرض البصرة في قصر هناك يعرف بقصر القرشيّ على نهر يعرف بعمود ابن المنجم، كان بنو موسى بن المنجّم احتفروه، وأظهر أنه وكيل لولد الواثق في بيع ما يملكونه هناك من السِّباخ.

قال أبو جعفر: فذكر عن ريحان بن صالح، أحد غلمان الشّورجيّين الزُّنوج، وهو أوّل مَنْ صحبه منهم، قال: كنت موكَّلاً بغلمان مولاي، أنقل الدقيق إليهم، فمررت به وهو مقيم بقصر القرشيّ يظهر الوَكالة لأولاد الواثق، فأخذني أصحابه وصاروا بي إليه، وأمروني بالتسليم عليه بالإمْرة، ففعلت ذلك، فسألني عن الموضع الذي جئت منه، فأخبرته أني أقبلت من البصرة، فقال: هل سمعت لنا بالبصرة خبراً؟ قلت: لا، قال: فخبر البلالية والسّعدية؟ قلت: لم أسمع لهم خبراً، فسألني عن غلمان الشورجيّين وما يجرى لكلّ جماعة منهم من الدقيق والسويق والتمر، وعمّن يعمل في الشّورج من الأحرار والعبيد، فأعلمتُه ذلك، فدعاني إلى ما هو عليه، فأجبتُه فقال لي: احْتَل فيمن قدرتَ عليه من الغلمان، فأقبلْ بهم إليّ. ووعدني أن يقوّدني على من آتيه به منهم، وأن يحسِن إليّ، واستحلفني ألاّ أعلِم أحداً بموضعه، وأن أرجع إليه. فخلى سبيلي.

فأتيتُ بالدقيق الذي معي إلى غلمان مولاي، وأخبرتهم خبره، وأخذت له البيعة عليهم،

ووعدتهم عنه بالإحسان والغنى، ورجعت إليه من غد ذلك اليوم، وقد وافاه رفيق غلام الخاقانية وقد كان وجّهه إلى البصرة، يدعو إليه غلمان الشُّورج، ووافى إليه صاحب له آخر يعرف بشبل بن سالم، قد كان دعا إليه قوماً منهم أيضاً، وأحضر معه حريرة كان أمره بابتياعها، ليتخذها لواء، فكتب فيها بالحمرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1] الآية، وكتب اسمه واسم أبيه عليها، وعلّقها في رأس مُرْدِيّ، وخرج وقت السّحر من ليلة السبت لليلتين بقيتا من شهر رمضان، فلما صار إلى مؤخّر القصر الذي كان فيه، لقيَه غلمان رجلٍ من الشورجيين، يعرف بالعطار [متوجهين إلى أعمالهم]، فأمر بأخذِ وكيلهم، فأخِذ وكُتّف، واستضم غلمانه إلى غلمانه، وكانوا خمسين غلاماً، ثم صار إلى الموضع المعروف بِالسُّنائيّ فاتّبعه الغلمان الذين كانوا فيه، وهم خمسمائة غلام فيهم الغلام المعروف بأبي حُديد، وأمر بأخذ وكيلهم، وكتّفه ثم مضى إلى الموضع المعروف بالسيرافِيّ، فاتّبعه مَنْ كان فيه من غلمان، وهم مائة وخمسون غلاماً، منهم زُرَيق وأبو الخنجر، ثم صار إلى الموضع المعروف بسَبَخة ابن عطاء، فأخذ طريفاً، وصبيحاً الأعسر، وراشد المغربيّ، وراشد القرمطيّ، وكلّ هؤلاء من وجوه الزَّنج وأعيانهم الذين صاروا قوّاداً وأمراء في جيوشهم، وأخذ معهم ثمانين غلاماً.

ثم أتى الموضع المعروف بغلام سَهْل الطَّحّان، فاستضافَ مَنْ كان به من الغلمان، ثم لم يزل بفعل مثل ذلك في يومه حتى اجتمع إليه بشر كثير من الزَّنج، ثم قام فيهم آخرَ الليل خطيباً، فمنّاهم ووعَدهم أن يقوّدهم ويرئِّسهم ويملّكهم الأموال والضّياع، وحلف له بالأيمان الغليظة ألاّ يغدرَ بهم، ولا يخذُلَهم، ولا يدعَ شيئاً من الإحسان إلاّ أتى إليهم.

ثم دعا وكلاءهم، فقال: قد أردتُ ضرب أعناقكم لما كنتم تأتون إلى هؤلاء الغلمان الذين استضعفتموهم وقهرتموهم، وفعلتم بهم ما حرّم الله عليكم أن تفعلُوه بهم، وكلّفتموهم ما لا يطيقونه، فكلّمني أصحابي فيكم، فرأيت إطلاقكم.

فقالوا له: أصلحك الله! إن هؤلاء الغلمان أُبّاق، وإنهم سيهربون منك فلا يُبقُون عليك ولا علينا، فخذ من مواليهم مالاً، وأطلِقْهم.

فأمرَ الغلمان فأحضَروا شطوباً، ثم بطح كلَّ قوم وكيلَهم، فضرَب كلُّ رجلٍ منهم خمسمائة شطبة، [وأحلفهم بطلاق نسائهم ألاّ يعلموا أحداً بموضعه]، ثم أطلقهم، فمضوا نحو البصرة ومضى رجل منهم حتى عَبَر دُجَيل الأهواز، فأنذر الشُّورجيين ليحفظوا غِلْمانهم، وكان هناك خمسة عشر ألف غلام زنجيّ، ثم سار، وعَبَر دُجَيْلاً، وسار إلى نهر ميمون بأصحابه، واجتمع إليه السُّودان من كلّ جهة.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١١.

فلما كان يوم الفطر، جمعهم وخطب خطبة ذكَر فيها ما كانوا عليه من سوء الحال، وأنّ الله تعالى قد استنقذهم من ذلك، وأنه يريد أن يرفَع أقدارَهم، ويملّكم العبيدَ والأموال والمنازل، ويبلُغَ بهم أعلَى الأمور، ثم حلف لهم على ذلك. فلما فرغَ من خطبته أمرَ الّذِين فهموا عنه قوله أن يُفهِمُوه مَنْ لاَ فهمَ له من عَجَمهم، لتطيبَ بذلك أنفسهم، ففعلوا ذلك.

قال أبو جعفر: فلمّا كان في اليوم الثالث من شوال، وافاه الحميريّ أحد عمال السلطان بتلك النواحي، في عدد كثير، فخرج إليه صاحب الزّنج في أصحابه، فطرده وهزم أصحابَه، حتى صاروا في بطن دجْلة، واستأمن إلى صاحب الزّنج رجل من رؤساء السودان، يعرف بأبي صالح القصير في ثلاثمائة من الزنج، فلما كثر من اجتمع إليه من الزّنج قوّد قواده، وقال لهم: مَنْ أتى منكم برجلٍ من السودان فهو مضموم إليه.

قال أبو جعفر: وانتهى إليه أن قوماً من أعوان السلطان هناك، منهم خليفة بن أبي عون على الأبُلّة، ومنهم الحميريّ قد أقبلوا نحوه، فأمر أصحابه بالاستعداد لهم، فاجتمعوا للحرب، وليس في عسكره يومئذ إلا ثلاثةُ أسياف: سيفه، وسيف عليّ بن أبان، وسيف محمد بن سلْم، ولحقه القوم، ونادى الزّنج، فبدر مُفَرّج النوبيّ والمكنّى بأبي صالح، وريحان بن صالح، وفتْح الحجام، وقد كان فتْح حينئذ يأكل وبين يديه طبق، فلما نهض تناول ذلك الطبق، وتقدم أمام أصحابه، فلقيه رجل من عسكر أصحاب السلطان، فلما رآه فتح حمل عليه وحذفه بالطبق الذي كان في يده، فرمى الرجل سلاحَه، وولّى هارباً، وانهزم القوم كلّهم، وكانوا أربعة آلاف، فذهبوا على وجوههم، وقُتِل مَنْ قتل منهم، ومات بعضُهم عطشاً، وأسِرَ كثير منهم، فأتى بهم صاحب الزّنج، فأمر بضرب أعناقهم، فضرِبت، وحملت الرؤوس على بغال كان أخذها من الشورجيّين، كانت تنقل الشُّورَج.

قال أبو جعفر: ومرّ في طريقه بالقرية المعروفة بالمحمدية فخرج منها رجلٌ من موالي الهاشميّين، فحمل على بعض السودان فقتله، ودخل القرية، فقال له أصحابه: ائذنْ لنا في انتهاب القرية وطلب قاتل صاحِبنا، فقال: لا سبيل إلى ذلك دون أن نعرف ما عند أهلها، وهل فعل القاتل ما فعل عن رأيهم، ونسائلهم أن يدفعوه إلينا، فإنْ فعلوا وإلا حلَّ لنا قتالهم، وعجّل المسير من القرية، فتركها وسار.

قال أبو جعفر: ثم مرّ على القرية المعروفة بالكرخ، فأتاه كبراؤها، وأقاموا له الأنزال،

وبات ليلَته تلك عندهم، فلمّا أصبح أهدى له رجلٌ من أهل القرية المسمّاة جُبَّى فرساً كميتاً، فلم يجد سرجاً ولا لجاماً، فركبه بحبل وسنفه بحبل ليف[1].

قلت: هذا تصديق قول أمير المؤمنين عليه السلام: «كأنه به قد سار في الجيش الذي ليس لهُ غبار ولا لجب[2]، ولا قعقعة لجم[3]، ولا حمحمة خيل، يثيرون الأرض بأقدامهم كأنّها أقدامُ النعام»[4].

قال أبو جعفر: وأوّل مالٍ صار إليه مائتا دينار وألف درهم، لما نزل القرية المعروفة بالجعفرية، أحضر بعض رؤسائها، وسأله عن المال فجحَد، فأمر بضرْب عنقِه، فلما خاف أحضَر له هذا القدرَ، وأحضر له ثلاثةَ براذِين: كميتاً وأشقر وأشهَب، فدفع أحدَها إلى محمد بن سلم، والآخر إلى يحيى بن محمد، والآخر إلى مشرق غلام الخاقانية، ووجدوا في دارٍ لبعض الهاشميين سلاحاً فانتهبوه، فصار ذلك اليوم بأيدي بعض الزّنج سيوف وآلات وأتراس.

قال أبو جعفر: ثم كانتْ بينه وبين مَنْ يليه من أعوان السلطان، كالحميريّ، ورُميس وعقيل وغيرهم وقعات، كان الظفر فيها كلّها له، وكان يأمر بقتل الأسرى، ويجمع الرؤوس معه، وينقلها من منزل إلى منزل، وينصبها أمامه إذا نزل، وأوقعَ الهيبة والرّهبةَ في صدور الناس بكثرة القتْلى، وقلة العفو، وعلى الخصوص المأسورين، فإنه كان يضرب أعناقَهم ولا يستبقي منهم أحداً.

قال أبو جعفر: ثم كان له مع أهل البصرة وقعة بعد ذلك سار يريدها في ستة آلاف زنجي، فاتّبعه أهل الناحية المعروفة بالجعفرية ليحاربوه، فعسكر عليهم، فقتلَ منهم مقتلةً عظيمة، أكثر من خمسمائة رجل، فلما فرغ منهم صمد نحو البصرة، واجتمع أهلها ومَنْ بها من الجند، وحاربوه حرباً شديداً، فكانت الدائرة عليه، وانهزم أصحابه، ووقع كثير منهم في النّهرين المعروفين بنهر كثير ونهر شيطان، وجعل يهتف بهم ويردّهم ولا يرجعون، وغرق مِنْ أعيان جنده وقوّاده جماعة، منهم أبو الجون، ومبارك البحرانيّ، وعطاء البربريّ، وسلاّم الشامي، فلحقه قوم من جند البصرة، وهو على قنطرة نهر كثير فرجع إليهم بنفسه، وسيفُه في يده، فرجعوا عنه، حتى صاروا إلى الأرض وهو يومئذ في دُرّاعة وعمامة ونعل وسيف، وفي يده اليسرى ترس، ونزل عن القنطرة، فصعدها البصريون يطلبونه، فرجع إليهم، فقتل منهم رجلاً

---

(١) انظر تاريخ الطبري: ٧/ ٥٤٩.
(٢) اللَّجب: محركة: الجلبة والصياح والاضطراب. القاموس، مادة (لجب).
(٣) الجم: الكثير. اللسان، مادة (جمم).
(٤) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٢/ ٢٥٠ ح: ١٩٧.

بيده على خمس مراقٍ من القنطرة، وجعل يهتف بأصحابه، ويعرّفهم مكانه، ولم يكن بقي معه في ذلك الموضع من أصحابه إلا أبو الشوك ومصلح ورفيق ومشرق غلاما الخاقانية، وضلّ أصحابه عنه، وانحلّتْ عمامته، فبقي على رأسه كُور منها أو كَوران، فجعل يسحبها من ورائه، ويعجله المشي عن رفعها، وأسرع غلاما الخاقانية في الانصراف، وقصّر عنهما فغابا عنه، فاتّبعه رجلان من أهل البصرة بسيفيهما، فرجع إليهما، فانصرفا عنه، وخرج إلى الموضع الذي فيه مجمع أصحابه، وقد كانوا تحيّروا، فلما رأوهُ سكنوا.

قال أبو جعفر: ثم سأل عن رجاله وإذا قد هرب كثير منهم، ونظر فإذا هو مِنْ جميع أصحابه في مقدار خمسمائة رجل، فأمر بالنفخ في البوق الذي كانوا يجتمعون لصوته، فنفخ فيه فلم يرجع إليه أحد.

قال: وانتهب أهلُ البصرة سفناً كانت معه، وظفروا بمتاع من متاعه، وكتب من كتبه واصطرلابات كانت معه، ثم تلاحق به جماعة ممن كان هرب، فأصبح وإذا معه ألف رجل. فأرسل محمد بن سلم وسليمان بن جامع ويحيى بن محمد إلى أهل البصرة يعظهم ويعلمهم أنّه لم يخرج إلاّ غضباً لله وللدين، ونهياً عن المنكر، فعبر محمد بن سلم حتى توسّط أهل البصرة، وجعل يكلّمهم ويخاطبهم، فرأوا منه غِرّة[1]، فوثبوا عليه فقتلوه، ورجع سليمان ويحيى إلى صاحب الزّنج، فأخبراه، فأمرهما بطيّ ذلك عن أصحابه، حتى يكون هو الذي يخبرهم.

فلما صلى بهم العصر، نعى إليهم محمد بن سلم، وقال لهم: إنكم تقتلُون به في غدٍ عشرة آلاف من أهل البصرة.

وقال أبو جعفر: وكانت الوقعة التي كانت الدَّبرَة عليه فيها يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلوْن من ذي القعدة سنة خمس وخمسين ومائتين، فلما كان يوم الاثنين جمع له أهل البصرة وحشدوا لما رأوا من ظهورهم عليه يوم الأحد، وانتدب لذلك رجلٌ من أهل البصرة يعرف بحمّاد الساجيّ، وكان من غزاة البحر في الشّذا، وله علم بركوبها، والحرب فيها، فجمع المطوّعة ورماة الأهداف وأهل المسجد الجامع ومن خَفّ معه من حزبي البلالية والسعدية، ومن غير هذه الأصناف من الهاشميّين والقرشيّين ومن يحبّ النظر ومشاهدة الحرب من سائر أصناف الناس، وشحنَ ثلاثة مراكب من الشّذا بالرماة، وجعل الناس يزدحمون في الشّذا حِرْصاً على حضور ذلك المشهد، ومضى جمهورُ الناس رَجّالة، منهم من معه سلاح ومنهم من لا سلاحَ معه بل نظّارة، فدخلت السفن النهر المعروف بأمّ حبيب بعد زوال الشمس من ذلك

---

(١) غَرّه غَرّاً وغروراً: خدعه. القاموس، مادة (غرر).

اليوم في المدّ، ومرّت الرجالة والنظارة على شاطىء النهر، قد سدُّوا ما ينفذ فيه البصر كثرةً وتكاثفاً، فوجّه صاحب الزنج صاحبيه زُرَيقاً وأبا الليث الأصبهانيّ، فجعلهم كميناً من الجانب الشرقيّ من نهر شيطان، وكان مقيماً بموضع منه، ووجّه صاحبيْه شبلاً وحسيناً الحماميّ، فجعلهما كميناً في غربيّه، ومع كلٍّ من الكمينين جماعة، وأمر عليّ بن أبان المهلبي أن يتلقى القوم فيمنْ بقي معه مِنْ جمعه، وأمره أن يستتر هو وأصحابه بتراسهم، ولا يثور إليهم منه ثائر، حتى يوافيَهم القوم ويخالطوهم بأسيافهم، فإذا فعلوا ذلك ثاروا إليهم وتقدّم إلى الكمينيْن إذا جاوزهما الجمع، وأحسّا بثورة أصحابهم إليهم أن يخرجا من جنبي النهر، ويصيحا بالناس.

وكان يقول لأصحابه بعد ذلك: لمّا أقبل إليّ جمعُ البصرة وعاينتُه، رأيت أمراً هائلاً راعني، وملأ صدري رهبةً وجزعاً، ففزعت إلى الدعاء، وليس معي من أصحابي إلا نفر يسير، منهم مصلح، وليس منّا أحد إلا وقد خُيّل إليه مصرعه، فجعل مصلح يعجّبني من كثرة ذلك الجمع، وجعلت أومئ إليه أن اسكت، فلما قرب القوم منّي قلت: اللهمّ إن هذه ساعة العُسْرة، فأعنّي، فرأيت طيوراً بيضاً أقبلتْ فتلقّت ذلك الجمع، فلم أستتم دعائي حتى بصرت سُمَيْرِيةً من سفنهم قد انقلبتْ بمن فيها، فغرقوا، ثم تلتها، الشذا فغرِقت واحدة بعد واحدة، وثار أصحابي إلى القوم، وخرج الكمينان من جَنْبَي النهر، وصاحوا وخبطوا الناس، فغرقَت طائفة، وقتلت طائفة، وهربت طائفة نحو الشّط طمعاً، فأدركها السيف، فمن ثبت قتل، ومن رجع إلى الماء غرق، حتى أبيد أكثرُ ذلك الجمع، ولم ينج منهم إلاّ الشريد، وكثر المفودون بالبصرة، وعلا العويل من نسائهم.

قال أبو جعفر: وهذا يوم الشّذا الذي ذكره الناس في أشعارهم، وعظّموا ما فيه من القتل، فكان ممن قتل من بني هاشم، جماعة من ولد جعفر بن سليمان وانصرف صاحب الزّنج وجمع الرؤوس وملأ بها سفناً، وأخرجها من النهر المعروف بأم حبيب في الجزر وأطلقها، فوافت البصرة، فوقفت في مشرعة تعرف بمشرعة القيّار، فجعل الناس يأتون تلك الرؤوس، فيأخذ رأسَ كلّ رجل أولياؤه، وقوي صاحب الزنج بعد هذا اليوم، وسكن الرّعبُ قلوبَ أهلِ البصرة منه، وأمسكوا عن حربه، وكتب إلى السلطان بخبره، فوجّه جُعْلان التركيّ مدداً لأهل البصرة، في جيش ذوي عدّة وأسلحة.

قال أبو جعفر: وقال أصحاب عليّ بن محمد له: إنّا قد قتلنا مقاتلة أهل البصرة، ولم يبق فيها إلا ضعفاؤهم، ومَنْ لا حَراك به، فأذنْ لنا في تقحّمها، فنهاهم وهجّن آراءهم وقال: بل نبعد عنها، فقد رعبناهم وأخفناهم، ولنقتحمها وقتاً آخر، وانصرف بأصحابه إلى سَبَخة في آخر أنهار البصرة، تعرف بسبخة أبي قُرّة، قريبة من النهر المعروف بالحاجر فأقام هناك، وأمر

أصحابَه باتخاذ الأكواخ، وهذه السَّبَخة متوسطة النّخل والقرى والعمارات، وبثّ أصحابَه يميناً وشمالاً، يعيثون[١] ويُغيرون على القرى، ويقتلون الأكرة، وينهبون أموالَهم، ويسرقون مواشيهم.

وجاءه شخص من أهل الكتاب من اليهود، يعرف بماروَيه، فقبّل يدَه وسجَد له، وسأله عن مسائل كثيرة، فأجابه عنها، فزعم اليهوديّ أنه يجد صفتَه في التوراة، وأنه يرى القتال معه، وسأل عن علامات في يده وجسده ذكر أنها مذكورة في الكتب، فأقام معه.

قال أبو جعفر: ولما صار جعْلان التركي إلى البصرة بعسكره، أقام ستة أشهر يحارب صاحب الزّنج، فإذا التقوا لم يكن بينهم إلا الرمي بالحجارة والنُّشّاب، ولم يجد جعلان إلى لقائه سبيلاً، لضيق الموضع بما فيه من النخل والدَّغَل عن مجال الخيل، ولأن صاحبَ الزنج قد كان خندق على نفسه وأصحابه.

ثم إنّ صاحب الزّنج بيَّت جعلان، فقتل جماعة من أصحابه، ورُوِّع الباقون رَوْعاً شديداً، فانصرف جعلان إلى البصرة ووجّه إليه مقاتلة السّعْدية والبلالية في جمع كثيف، فواقعهم صاحب الزنج، فقهرهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وانصرفوا مفلولين، ورجع جعلان بأصحابه إلى البصرة، فأقام بها معتصماً بجدرانها، وظهر عجزه للسلطان فصرفه عن حرب الزنج، وأمر سعيداً الحاجب بالشُّخوص إلى البصرة لحربهم.

قال أبو جعفر: واتفق لصاحب الزنج من السعادة أن أربعاً وعشرين مركباً من مراكب البحر كانت اجتمعت تريد البصرة، وانتهى إلى أصحابها خبرُ الزنج وقطعُهم السبل، وفيها أموال عظيمة للتجار، فاجتمعت آراؤهم على أن شدّوا المراكب بعضَها إلى بعض، حتى صارت كالجزيرة، يتصل أولها بآخرها، وسارت في دَجْلة، فكان صاحب الزّنج يقول: نهضت ليلة إلى الصلاة وأخذت في الدعاء والتضرّع، فخوطبت بأن قيل لي: قد أظلّك فتحٌ عظيم، فالتفتّ فلم ألبث أنْ طلعت المراكبُ، فنهض أصحابي إليها في شذاتها فلم يلبثوا أن حَوَوْها وقتلوا مقاتلتها، وسَبَوْا ما فيها من الرقيق، وغنموا منها أموالاً لا تحصى، ولا يعرف قدرها فأنهبتُ ذلك أصحابي ثلاثة أيام، وأمرت بما بقي منها فحِيزَ لي.

(١) العيث: الإفساد. القاموس، مادة (عيث).

قال أبو جعفر: ثم دخل الزّنج الأبلة في شهر رجب من سنة ست وخمسين ومائتين، وذلك أن جُعْلان لما تنحّى إلى البصرة، ألحّ صاحبُ الزنج بالسّرايا على أهل الأبلّة، فجعل يحاربهم من ناحية شَطّ عثمان بالرجّالة، وبما خَفّ له من السفن من ناحية دَجْلة، وجعلت سراياه تضرِب إلى ناحية معقِل.

فذكِر عن صاحب الزنج أنه قال: ميّلت بين عَبّادان والأبلّة، فمِلْتُ إلى التوجّه. إلى عَبّادان فندبت الرجال إلى ذلك، فخوطبتُ وقيل لي: إنّ أقرب عدوٌ داراً، وأولاه ألا يتشاغل عنه بغيرِه أهلُ الأبلّة، فرددت بالجيش الذي كنت سيّرته نحو عبّادان إلى الأبلّة، ولم يزالوا يحاربون أهلَها إلى أنْ اقتحموها وأضرموها ناراً، وكانت مبنيّة بالساج بناءً متكاثِفاً، فأسرعت فيها النار، ونشأت ريح عاصفِ، فأطارتْ شرَر ذلك الحريق إلى أن انتهى إلى شطّ عثمان، وقتل بالأبلّة خَلْق كثير، وحُوِيت الأسلاب والأموال، على أن الذي أحرق منها كان أكثر مما انتهب، واستسلم أهل عبّادان بعدها لصاحب الزّنج، فإن قلوبهم ضعفت، وخافوه على أنفسِهم وحُرمهم، فأعْطَوا بأيديهم، وسلّموا إليه بلدهم، فدخلها أصحابه، فأخذوا مَنْ كان فيها من العبيد، وحملوا ما كان فيها من السلاح، ففرّقه على أصحابه، وصانعه أهلها بمالٍ كفّ به عنهم.

قال أبو جعفر: ثم دخل الزَّنج بعد عَبّادان إلى الأهواز ولم يثبت لهم أهلُها، فأحرقوا ما فيها، وقتلوا ونهبوا، وأخربوا، فكان بالأهواز إبراهيم بن محمد المدبّر الكاتب، وإليه خراجها وضياعها، فأسروه بعد أن ضربوه ضربة على وجهه، وحوَوْا كلّ ما كان يملكه من مال وأثاث ورقيق وكراع، واشتدّ خوفُ أهله البصرة، وانتقل كثير من أهلها عنها، وتفرّقوا في بلاد شتّى، وكثرت الأراجيف[1] من عوامّها.

قال أبو جعفر: فلمّا دخلت سنة سبع وخمسين أنفذ السلطان بغُراج التركي على حرب البصرة وسعيد بن صالح الحاجب للقاء صاحب الزنج، وأمر بُغراج بإمداده بالرجال، فلما صار سعيد إلى نهر معقِل، وجد هناك جيشاً لصاحب الزَّنج في النّهر المعروف بالمُرْغاب، فأوقع بهم سعيد فهزمهم، واستنقذ ما في أيديهم من النساء والنهب، وأصابت سعيداً في تلك الوقعة جراحات، منها جراحة في فيه.

---

(١) الأراجيف: الأخبار، وقد أرجفوا في الشيء: أي خاضوا فيه. اللسان، مادة (رجف).

ثم بلغه أنّ جيشاً لصاحب الزنج في الموضع المعروف بالفرات، فتوجّه إليه فهزَمه، واستأمن إليه بعض قواد صاحب الزنج، حتى لقد كانت المرأة من سكّان ذلك الموضع تجد الزنجيّ مستتراً بتلك الأدغال فتقبض عليه، حتى تأتي به عسكر سعيد، ما به عنها امتناع.

ثم قصد سعيد حرب صاحب الزّنج، فَعبر إليه إلى غربيّ دجْلة، فأوْقَع به وَقَعَاتٍ متتالية، كلّها يكونُ الظّفَر فيها لسعيد، إلى أنْ تهيّأ لصاحب الزّنج عليه أن وجّه إلى يحيى بن محمد البحرانيّ صاحبه، وهو إذ ذاك مقيم بنهر معقِل، في جيش من الزّنج، فأمره بتوجيه ألف رجل من أصحابه، عليهم سليمان بن جامع وأبو الليث القائدان، ويأمرهما بقصد عسكر سعيد ليلاً، حتى يوقعا به وقت طلوع الفجر، من ليلة عيّنها لهم، ففعلا ذلك، وصارا إلى عسكر سعيد في ذلك الوقت، فصادَفا منه غِرّة وغفلة، فأوقعا بِهِ وبأصحابه، وقت طلوع الفجر، فقتل منهم مقتلة عظيمة، وأصبح سعيد وقد ضعف أمرُه، واتّصل بالسلطان خبره، فأمره بالانصراف إلى باب السلطان، وتسليم الجيش الذي معه إلى منصور بن جعفر الخيّاط، وكان إليه يومئذ حرب الأهواز وكوتب بحرب صاحب الزنج، وأنْ يصمد له، فكانت بينهم وقعة كان الظّفَر فيها للزنج، فقتِل من أصحاب منصور خلق كثير عظيم، وحمل من الرؤوس خمسمائة رأس إلى عسكر يحيى بن البحرانيّ القائد، فنصبت على نهر معقِل.

قال أبو جعفر: ثم كانت بين الزّنج وبين أصحاب السلطان بالأهواز وقعات كثيرة، تولاّها عليّ بن أبان المهلبيّ، فقتل شاهين بن بِسْطام، وكان من أكابر أصحاب السلطان، وهزم إبراهيم بن سيما، وكان أيضاً من الأمراء المشهورين، واستولى الزّنج على عسكره.

قال أبو جعفر: ثم كانت الواقعة العظمى بالبصرة في هذه السنة، وذلك أنّ صاحب الزّنج قطعَ الميرة عنهم، فأضرّ ذلك بهم، وألحّ بجيوشه وزنوجه عليهم بالحرب صباحاً ومساء، فلما كان في شوّال من هذه السنة، أزمع عَلَى جَمْع أصحابه للهجوم على البصرة، والجدّ في خراجها، وذلك لعلمه بضعف أهلها وتفرّقهم، وإضرار الحصار بهم، وخراب ما حولَها من القرى. وكان قد نظر في حِساب النجوم، ووقف على انكساف القمر، الليلة الرابعة عشرة من هذا الشهر، فذكر محمد بن الحسن بن سهل أنه قال: سمعته يقول: اجتهدت في الدعاء على أهل البصرة، وابتهلت إلى الله تعالى في تعجيل خرابها، فخوطبت وقيل لي: إنّما البصرة خبزة [لك] تأكلها من جوانبها، فإذا انكسر نصف الرغيف خربت البصرة. فأوّلتُ انكِسار نصف الرغيف بانكساف نصف القمر المتوقّع في هذه الليالي، وما أخلق أمرَ أهل البصرة أن يكون بعده!

قال: فكان يحدّث بهذا حتى أفاض فيه أصحابه، وكثُر تردّده في أسماعهم وإجالتهم إياه بينهم.

ثم ندب محمد بن يزيد الدارميّ - وهو أحد مَنْ كان صحِبَه بالبحرين للخروج إلى الأعراف واستنفار مَنْ قَدَر عليه منهم - فأتاه منهم - بخلْق كثير، ووجّه إلى البصرة سليمان بن موسى الشعرانيّ، فأمره بتطرّق البصرة، والإيقاع بأهلها، وتقدم إلى سليمان [بن موسى] بتمرين الأعراب على ذلك. فلما وقع الكسوف، أنهض إليها عليّ بن أبان، وضمّ إليه جيشاً من الزنج وطائفة من الأعراب، وأمره بإتيان البصرة مما يَلِي بني سعد، وكتب إلى يحيى بن محمد البحرانيّ في إتيانها مما يلِي نهر عديّ، وضمّ باقي الأعراب إليه، فكان أوّل مَنْ واقَع أهل البصرة عليّ بن أبان بغراج التركيّ يومئذ بالبصرة في جماعة من الجند، فأقام يقاتلهم يومين، وأقبل يحيى بن محمد مما يَلِي قصر أنس، قاصداً نحو الجسر، فدخل عليّ بن أبان البلد وقت صلاة الجمعة، لثلاثَ عشرة بقين من شوّال. فأقبل يقتل الناس، ويحرّق المنازل والأسواق بالنار، فتلقّاه بغراج وإبراهيم بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن سليمان الهاشميّ، المعروف بِبُرَيْهِ وكان وجيهاً مقدّماً مطاعاً - في جمْع عظيم، فردّاه، فرجع فأقام ليلته تلك. ثم غاداهم وقد تفرق جند البصرة فلم يكن في وجهه أحد يدافعه، وانحاز بغراج بمن معه، وهرب إبراهيم بن محمد الهاشميّ المعروف ببُرَيه، فوضع عليُّ بن أبان السيف في الناس، وجاء إليه إبراهيم بن محمد المهلبيّ - ابن عمّه - فاستأمنه لأهل البصرة، فحضر أهلُ البصرة قاطبة، فأمّنهم، ونادى مناديه: مَنْ أراد الأمان فليحضُر دارَ إبراهيم بن محمد المهلبيّ. فحضر أهلُ البصرة قاطبةً، حتى ملؤوا الأزّقة. فلما رأى اجتماعهم انتهز الفرصة، فأمر بأخذ السِّكك والطرق عليهم، وغَدَر بهم، وأمر الزنوج بوضع السيف فيهم، فقتِل كلّ مَنْ شهد المشهد.

ثم انصرف آخرَ نهار يومه ذلك فأقام بقصر عيسى بن جعفر بالخُريبة.

وروى أبو جعفر، قال: حدثني محمد بن الحسن بن سهل، قال: حدثني محمد بن سمعان، قال: كنت يومئذ بالبصرة، فمضيت مبادراً إلى منزلي لأتحصّن به، وهو في سكة المِرْبد، فلقيتُ أهلَ البصرة هاربين، يدعون بالويل والثبور، وفي آخرهم القاسم بن جعفر بن سليمان الهاشميّ على بَغْلٍ متقلّداً سيفاً، يصيح بالناس: ويحكم! تُسلِمون بَلَدكم وحَرَمكم! هذا عدوّكم قد دخل البلد. فلم يلْوُوا عليه، ولم يسمعوا منه، فمضى هارباً، ودخلت أنا منزلي، وأغلقت بابي، وأشرفت فمرّ بي الأعراب ورجّالة الزنج، يقدمُهم رجل على حصان كُمَيْت، بيده رمح، وعليه عَذَبة صفراء، فسألت بعد ذلك عنه فقيل لي: إنّه عليّ بن أبان.

قال: ونادى منادي عليّ بن أبان: مَنْ كان من آل المهلّب فلْيدخل دارَ إبراهيم بن يحيى المهلبيّ، فدخلتْ جماعة قليلة، وأغلِق الباب دونَهم، ثم قيل للزنج: دونكم الناس فاقتلوهم، ولا تُبقوا منهم أحداً، وخرج إليهم أبو الليث الأصفهاني، أحد قوّاد الزنج، فقال للزنج:

كيلوا، وهي العلامة التي كانوا يعرفونها فيمن يؤمَرُون بقتله، فأخذ الناسَ السيف، قال: فوالله إنّي لأسمع تشهُّدهم وضجيجهم وهم يقتلون، وقد ارتفعت أصواتهم بالتشهّد، حتى سُمِعت بالطّفَاوة، وهو عَلَى بعدٍ من الموضع الذي كانوا فيه.

قال: ثم انتشر الزّنج في سِكَك البصرة وشوارعها، يقتلون مَنْ وجدوا. ودخل عليّ بن أبان يومئذ المسجد فأحرقه، وبلغ إلى الكلاّءِ فأحرقه إلى الجسر، وأخذت النار كلّ ما مرّت به من إنسان وبهيمة وأثاث ومتاع، ثم ألحّوا بالغدوّ والروّاح عَلَى مَنْ وجدوه، ويسوقونهم إلى يحيى بن محمد البحرانيّ، وهو نازل ببعض سِكَك البصرة، فَمنْ كان ذامال قرّره حتى يستخرج ماله ثم يقتله، ومَنْ كان مختلاً قتله معجّلاً.

قال أبو جعفر: وقد كان عليّ بن أبان كفّ بعض الكفّ عن العَيْث بناحية بني سعد، وراقب قوماً من المهلبيّين وأتباعهم، فانتهى ذلك إلى عليّ بن محمد صاحب الزنج، فصرفه عن البصرة، وأقرّ يحيى بن محمد البحرانيّ بها لموافقته عَلَى رأيه في الإثخان في القتل، ووقوع ذلك بمحبّته، وكتب إلى يحيى بن محمد يأمره بإظهار الكفّ ليسكن الناس، ويظهرَ المستخفي، ومَنْ قد عرِف باليسار والثورة، فإذا ظهر فليؤخذوا بالدلالة عَلَى ما دفعوه وأخفوه من أموالهم، ففعل يحيى بن محمد ذلك، وكان لا يخلو من اليوم من الأيام من جماعة يؤتَى بهم، فمن عرف منهم باليسار استنزف ما عنده ثم قتله، ومَنْ ظهرت له خلّته عاجله بالقتل حتى لم يدعْ أحداً ظهر له إلاّ قتله.

قال أبو جعفر: وحدّثني محمد بن الحسن، قال: لما انتهى إلى عليّ بن محمد عظيم ما فعل أصحابه بالبصرة سمعته يقول: دعوت عَلَى أهل البصرة في غَدَاة اليوم الذي دخل فيه أصحابي إليها، واجتهدت في الدّعاء، وسجدت وجعلت أدعو في سجُودي، فرفعتْ إليَّ البصرة، فرأيتها ورأيت أصحابي يقاتِلون فيها، ورأيت بين السماء والأرض رجلاً واقفاً في صورة جَعْفر المعلوف المتولّي كان للاستخراج في ديوان الخراج بسامُرّاء، وهو قائم قد خَفَض يده اليسرى، ورفع يده اليمنى، يريد قلْب البصرة، فعلمتُ أنّ الملائكة تولّت إخرابها دون أصحابي، ولو كان أصحابي تولّوْا ذلك ما بلغوا هذا الأمر العظيم الذي يحكى عنها، ولكن الله تعالى نصرني بالملائكة، وأيّدني في حُروبي، وثبّتَ بهم مَنْ ضعُف قلبُه من أصحابي.

قال أبو جعفر وانتسب صاحب الزّنج في هذه الأيام إلى محمد بن محمد بن زيد بن عليّ بن الحسين، بعد انتسابه الذي كان إلى أحمد بن عيسى بن زيد، وذلك لأنه بعد إخرابه البصرة، جاء إليه جماعة من العلويّة الذين كانوا بالبصرة، وأتاه فيمن أتاه منهم قوم من ولد أحمد بن

عيسى بن زيد، في جماعة من نسائهم وحُرَمهم، فلما خافهم ترك الانتساب إلى أحمد بن عيسى، وانتسب إلى محمد بن محمد بن زيد.

قال أبو جعفر: فحدثني محمد بن الحسن بن سهل، قال: كنت حاضراً عنده وقد حضر جماعة من النوفليّين، فقال له القاسم بن إسحاق النوفليّ: إنه انتهى إلينا أن الأمير من ولد أحمد بن عيسى بن زيد، فقال: لست من ولد عيسى، أنا من ولد يحيى بن زيد.

قال محمد بن الحسن: فانتقل من أحمد بن عيسى بن زيد إلى محمد بن محمد بن زيد، ثم انتقل من محمد إلى يحيى بن زيد، وهو كاذب لأنّ الإجماع واقع على أنّ يحيى بن زيد مات ولم يعقِبْ ولم يولَدْ له إلاّ بنت واحدة ماتت، وهي ترضع[1].

فهذا ما ذكره أبو جعفر الطبري في «التاريخ الكبير»[2].

وذكر عليّ بن الحسن المسعودي في «مروج الذهب»[3] أن هذه الواقعة بالبصرة، هلك فيها مِنْ أهلها ثلاثمائة ألف إنسان، وأنّ عليّ بن أبان المهلبي بعد فراغه من الواقعة، نصب منبراً في الموضع المعروف ببني يشكُر، صلّى فيه يوم الجمعة، وخطب لعليّ بن محمد صاحب الزنج، وترحّم بعد ذلك على أبي بكر وعمر، ولم يذكر عثمان ولا عليًا عليه السلام في خطبته، ولعن أبا موسى الأشعريّ وعَمْرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان، قال: وهذا يؤكّد ما ذكرناه وحكيناه من رأيه، وأنه كان يذهب إلى قول الأزارقة.

قال: وآستخفى مَنْ سَلم من أهل البصرة في آبار الدور، فكانوا يظهرون ليلاً، فيطلبون الكِلاَب فيذبحونها ويأكلونها، والفار والسنانير، فأفنوْها حتى لم يقدروا على شيء منها، فصاروا إذا مات الواحد منهم أكلُوه، فكان يراعي بعضُهم موتَ بعض، ومَنْ قدر على صاحبه قتلَه وأكله، وعدموا مع ذلك الماء، وذكر عن امرأة منهم أنها حضرت امرأة قد احتضرت، وعندها أختها وقد احتوشوها ينتظرون أن تموتَ فيأكلوا لحمها، قالت المرأة: فما ماتت حسناء

---

(١) تاريخ الطبري: أخرجه الطبري، تاريخه: ٧/٦٠٨.
(٢) تاريخ الطبري: للإمام أبو جعفر محمد بن جرير المتوفى سنة (٣١٠هـ)، وهو من التواريخ المشهورة الجامعة لأخبار العالم. «كشف الظنون» (٢٩٧٨).
(٣) مروج الذهب ومعادن الجوهر في التاريخ: لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي المتوفى سنة (٣٤٦هـ). «كشف الظنون» (٢/١٦٥٨).

حتى ابتدرناها فقطعنا لحمها فأكلناه، ولقد حضرت أختها ونحن على شريعة عيسى بن حرب وهي تبكي ومعها رأس الميت، فقال لها قائل: ويحك! ما لك تبكين! فقالت: اجتمع هؤلاء على أختي فما تركوها تموت حسناء حتى قطّعوها، وظلموني فلم يعطوني من لحمها شيئاً إلا الرأس، وإذا هي تبكي شاكية من ظُلْمهم لها في أختها.

قال: وكان مثل هذا وأكثر منه وأضعافه، وبلغ منْ أمر عسكره أنه ينادي فيه على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس وغيرهم من أشراف قريش، فكانت الجارية تباع منهم بدرهمين وبثلاثة دراهم، وينادَى عليها بنسبها: هذه ابنة فلان بن فلان، وأخذ كلّ زنجيّ منهم العشرين والثلاثين يطؤهنّ الزّنج ويخدمْن النساء الزنجيات كما تخدم الوصائف، ولقد استغاثت إلى صاحب الزنج امرأة من ولد الحسن بن عليّ عليه السلام، وكانت عند بعض الزنج وسألته: أن يعتقها مما هي فيه، أو ينقلها من عنده إلى غيره، فقال لها: هو مولاك، وهو أولى بك.

قال أبو جعفر: وأشخص السلطان لحرب صاحب الزنج محمداً المعروف بالمولد، في جيش كثيف، فجاء حتى نزل الأبُلّة، وكتب صاحب الزّنج إلى يحيى بن محمد البحرانيّ يأمره بالمصير إليه، فصار إليه بزنوجه، وأقام على محاربته عشرة أيام، ثم فتَر المولد عن الحرب، وكتب عليّ بن محمد إلى يحيى، يأمره أن يبيّته، فبيّته فهزمه، ودخل الزّنج عسكره فغنِموا ما فيه، وكتب يحيى إلى صاحب الزّنج يخبره، فأمره باتباعه، فاتبعه إلى الحوانيت، ثم انصرف عنه، فمرّ بالجامدة، وأوقع بأهلها، وانتهب كلّ ما كان في تلك القرى، وسفَك مَا قَدَر على سفكه من الدماء، ثم عاد إلى نهر معقل.

قال أبو جعفر: واتّصلت الأخبار بسامراء وبغداد وبالقوّاد الموالي وأهلِ الحضرة، بما جرى على أهلِ البصرة، فقامت عليهم القيامة، وعلم المعتمد أنه لا يرتق هذا الفتق إلا بأخيه أبي أحمد طلحة بن المتوكل - وكان منصوراً مؤيداً عارفاً بالحرب وقيادة الجيوش، وهو الذي أخذ بغداد للمعتز، وكسر جيوش المستعين، وخلعه من الخلافة، ولم يكن لبني العباس في هذا الباب مثله ومثل ابنه أبي العباس - فعقَد له المعتمد على ديار مضَر وقنّسرين والعواصم، وجلس له مستهلّ شهر ربيع الآخر من سنة سبع وخمسين، فخلع عليه وعلى مفلح، وشَخَصا نحو البصرة لحرب علي بن محمد وإصلاح ما أفسده من الأعمال، وركب المعتمد ركوباً ظاهراً يشيّع أخاه أبا أحمد إلى القرية المعروفة ببركوارا، وعاد.

قال أبو جعفر: وأما صاحب الزّنج فإنه بعد هزيمة محمد المولد أنفذ عليّ بن أبان المهلبيّ إلى حرب منصور بن جعفر والي الأهواز، فكانت بينهما حروب كثيرة في أيام متفرّقة حتى كان آخرها اليوم الذي انهزم فيه أصحاب منصور، وتفرّقوا عنه، وأدركت منصوراً طائفة من الزّنج، فلم يزل يكرّ عليهم حتى انقصف رمحه، ونفدت سهامه، ولم يبق معه سلاح، وانتهى إلى نهر يعرف بنهر ابن مَرْوان، فصاح بحصان كان تحته ليعبُر، فوثب فقصّر فانغمس في الماء.

وقيل: إنّ الحصان لم يقصّر في الوثْبة، ولكنّ رجلاً من الزّنج سبقه إلى النهر، فألقى نفسَه فيه، لعلمه أنه لا محيص لمنصور عن النهر، فلما وثب الفرس تلقّاه الأسود، فنكص فغاصَ الفرس ومنصور، ثم أطلع منصور رأسه، فنزل إليه غلام من السودان من عُرَفاء مصلح، يقال له أبرون، فاحتزّ رأسه، وأخذ سلَبه، فولّى يارجوخ التركي صاحب حرب خوزستان، ما كان مع منصور من العمل أصفجون التركي.

وقال أبو جعفر: وأما أبو أحمد، فإنّه شخَص عن سامُرّاء في جيش لم يسمَع السامعون بمثله، كثرةً وعُدة، قال: وقد عاينتُ أنا ذلك الجيش، وأنا يومئذ ببغداد بباب الطاق، فسمعتُ جماعة من مشايخ أهل بغداد يقولون: قد رأينا جيوشاً كثيرة للخلفاء، فما رأينا مثل هذا الجيش أحسن عُدّة وأكمل عَتاداً وسلاحاً، وأكثر عدداً وجمعاً، واتبع ذلك الجيشَ مِنْ متسوّقة أهلِ بغداد خلق كثير.

قال أبو جعفر: فحدّثني محمد بن الحسن بن سهل، أن يحيى بن محمد البحرانيّ كان مقيماً بنهر معقل قبل موافاة أبي أحمد، فاستأذن صاحبَ الزّنج في المصير إلى نهر العباس، فكرِه ذلك، وخاف أن يوافيَه جيشٌ من قِبَل السلطان، وأصحابه متفرّقون، فألحّ عليه يحيى حتى أذن له، فخرج واتّبعه أكثرُ أهلِ عسكر صاحب الزّنج، وكان عليّ بن أبان مقيماً بجُبّى في جمع كثير من الزّنج، والبصرة قد صارت مغنماً لأهل عسكر صاحب الزّنج، يغادونها ويراوحونها لنقْلِ ما نالته أيديهم منها إلى منازلهم، فليس بمعسكر عليّ بن محمد يومئذ من أصحابه إلاّ القليل، فهو على ذلك من حاله، حتى وافى أبو أحمد في الجيش ومعه مفلح، فورد جيشٌ عظيم لم يرد على الزّنج مثلُه، فلما وصل إلى نهر معقل، انصرف مَنْ كان هناك من الزّنج، فالتحقوا بصاحبهم مرعوبين، فراعه ذلك، ودعا برئيسين منهما، فسألهما عن السبب الذي له تركا موضعهما، فأخبراه بما عاينا من عظم أمر الجيش الوارد، وكثرة عدد أهله وإحكام عدّتهم، وأنّ الذي عايناه من ذلك لم يكن في قوّتهما الوقوف له في العُدّة التي كانا فيها، فسألهما: هل عَلمَا مَنْ يقود هذا الجيش؟ فقالا: قد اجتهدنا في علم ذلك، فلم نجد مَنْ يصدُقنا عنه.

فوجّه صاحب الزّنج طلائعه في سُمَيْريّات ليعرف الخبَر، فرجعت طلائعه إليه بتعظيم أمر

الجيش وتفخيمه، ولم يقف أحدٌ منهم على مَنْ يقوده، فزاد ذلك في جَزَعِه وارتياعه، فأمر بالإرسال إلى عليّ بن أبان يعلِمه خبرَ الجيش الوارد، ويأمره بالمصير إليه فيمن معه، ووافَى جيش أبي أحمد، فأناخ بإزاء صاحب الزَّنج فلما كان اليوم الذي كانت فيه الواقعة، خرج عليّ بن محمد يطوف في عسكره ماشياً، ويتأمّل الحال فيمن هو من حزبه ومَنْ هو [مقيم] بإزائه على حزبه، وقد كانت السماء مطرت ذلك اليوم مطراً خفيفاً، والأرض ثرِيّة تزلّ عنها الأقدام، فطوّف ساعة من أوّل النهار ورجع، فدعا بدواة وقرطاس ليكتب كتاباً إلى عليّ بن أبان، ليعلمه ما قد أظلّه من الجيش، ويأمرَه بتقديم مَنْ قَدَر على تقديمه من الرجال، فإنّه لف ذلك، إذ أتاه أبو دُلَفٍ القائد أحد قوّاد الزّنج، فقال له: إنّ القوم قد غَشَوك ورهقوك، وانهزم الزّنج من بين أيديهم، وليس في وجوههم مَنْ يردّهم، فانْظر لنفسك، فإنهم قد انتهوا إليك. فصاح به وانتهره وقال: اغْرُبْ عنّي فإنك كاذبٌ فيما حكيت، إنما ذلك جزعٌ داخَل قلبَك لكثرة مَنْ رأيت من الجمع، فانخلع قلبُك، فلستَ تدرِي ما تقول!

فخرج أبو دُلَفٍ من بين يديه، وأقبل يكتب، وقال لجعفر بن إبراهيم السجّان: ناد في الزّنج، وحرّكهم للخروج إلى موضع الحرب، فقال له: إنّهم قد خرجوا، وقد ظفروا بسُمَيريّتين من سفن أصحاب السلطان، فأمره بالرجوع لتحريك الرّجالة، وكان من القضاء والقدر أن أصيب مفلح - وهو القائد الجليل، المرشّح لقيادة الجيش بعد أبي أحمد - بسهم غَرْب لا يدرى من رماه، فمات لوقته، ووقعت الهزيمة على أصحاب أبي أحمد، وقوِيَ الزّنج على حربهم، فقتلوا منهم جمعاً كثيراً. ووافى عليّ بن محمد زَنْجه بالرؤوس قابضين عليها بأسنانهم حتى ألقوْها بين يديه، فكثرت الرؤوس يومئذٍ حتى ملأت الفضاء، وجعل الزّنج يقتسِمون لحوم القتلى، ويتهادونها بينهم، وأتِيَ بأسيرٍ من الجيش فسأله عن رأس العسكر، فذكر أبا أحمد ومفلحاً، فارتاع لذكر أبي أحمد، وكان إذا راعه أمرٌ كذّب به، وقال: ليس في الجيش إلا مُفْلح، لأني لست أسمع الذِّكر إلا له، ولو كان في الجيش مَنْ ذكر هذا الأسير لكان صوته أبعد، ولَمّا كان مُفْلح إلا تابعاً له، ومضافاً إليه.

قال أبو جعفر: وقد كان قبل أن يصيب السهمُ مفلحاً، انهزم الزّنج لما خرج عليهم جيش أبي أحمد، وجزِعُوا جزعاً شديداً، ولجؤوا إلى النهر المعروف بنهر أبي الخصيب، ولا جسرَ يومئذ عليه، فغرق منهم خلق كثير، ولم يلبثْ صاحبُ الزنج إلا يسيراً حتى وافاه عليّ بن أبان في أصحابه، فوافاه وقد استغنى عنه بهزيمة الجيش السلطاني، وتحيَّز أبو أحمد بالجيش إلى الأبُلّة، ليجمع ما فرّقت الهزيمة منه، ويجدّد الاستعداد للحرب، ثم صار إلى نهر أبي الأسد فأقام به.

قال أبو جعفر: فحدّثني محمد بن الحسن، قال: فإن صاحب الزنج لا يدري كيف قُتل مفلح؛ فلما لم يرَ أحداً ينتحل رميَه ادّعى أنّه كان الرامي له، قال: فسمعته يقول: سقط بين يديّ سَهْمٌ من السماء، فأتاني به واح خادمي، فدفعه إليّ، فرميتُ به فأصاب مُفلِحاً فقتله، قال محمد: وكذَب في ذلك، لأنّي كنتُ حاضراً معه ذلك المشهد، ما زال عن فرسه حتى أتاه خبرُ الهزيمة.

قال أبو جعفر: ثم إن الله تعالى أصاب صاحب الزَّنج بمصيبة تعادِل فرحَه وسروره بقتل مُفلح عقيب قَتل مُفلح، وذلك أنّ قائده الجليل يحيى بن محمد البحرانيّ أسِرَ وقتل، وصورة ذلك أن صاحب الزنج كان قد كتب إلى يحيى بن محمد، يعلمُه ورودَ هذا الجيش عليه، ويأمُره بالقدوم والتحرّز في منصرفه من أنْ يلقاه أحدٌ منهم وقد كان يحيى غَنِمَ سفناً فيها متاعٌ وأموال، لتجّار الأهواز جليلة، وحامي عنها أصحابُ أصغجون التركي فلم يُغْن، وهزمهم يحيى، ومضى الزنج بالسفن المذكورة يمدُّونها متوجّهين نحو معسكر صاحب الزَّنج على سَمْت البطيحة المعروفة بَبطيحة الصّحناة، وهي طريقة متعسّقة[1] وعرة، فيها مشاقّ متعبة، وإنما سلكها يحيى وأصحابه، وتركوا الطريقَ الواضح، للتحاسد الذي كان بين يحيى بن محمد وعليّ بن أبان، فإن أصحاب يحيى أشارُوا عليه ألا يسلك الطريق التي يمرّ فيها على أصحاب عليّ بن أبان، فأصغى إلى مشورتهم فشرَعُوا له الطريق المؤدي إلى البطيحة المذكورة فسلكها، وهذه البطيحة ينتهي السائر فيها إلى نهر أبي الأسد، وقد كان أبو أحمد انحاز إليه، لأن أهلَ القرى والسواد كاتبوه يعرّفونه خبر يحيى بن محمد البحرانيّ، وشدة بأسه، وكثرة جمعه، وأنّه ربما خرج من البطيحة إلى نهر أبي الأسد، فعسكر به، ومنع أبا أحمد المِيرة، وحال بينه وبين مَن يأتيه من الأعراب وغيرهم، فسبقه أبو أحمد إلى نهر أبي الأسد، وسار يحيى حتى إذا قرب من نهر أبي الأسد، وافته طلائعه، فأخبرته بالجيش، وعظّمت أمره، وخوّفته منه، فرجع من الطريق الذي كان سلكه بمشقّة شديدة نالته، ونالت أصحابه، وأصابهم مرض لتردّدهم في تلك البطيحة، وجعل يحيى على مقدّمته سليمان بن جامع، وسار حتى وقف على قنطرة فورج نهر العباس، في موضع ضيّق تشتدّ فيه جرية الماء، وهو مشرف ينظر أصحابه الزنج: كيف يُجرون تلك السفن التي فيها الغنائم، فمنها ما يغرق وما يسلم.

قال أبو جعفر: فحدّثني محمد بن سمعان قال: كنتُ في تلك الحال واقفاً مع يحيى على القنطرة، وقد أقبل عليّ متعجّباً من شدّة جرية الماء، وشدّة ما يلقَى أصحابُه من تلقّيه بالسفن، فقال: أرأيت لو هجم علينا عدوّ في هذه الحال مَن كان يكون أسوأ حالاً مِنّا! فوالله ما انقضى

(١) العسق: الضيق والالتواء. اللسان، مادة (عسق).

كلامُه حتى وافَى كاشهم التركي في جيش، قد أنفذه معه أبو أحمد عند رجوعه من الأبُلّة إلى نهر أبي الأسد، يتلّقى به يحيى، فوقعت الصيحة، واضطربت الزنج، فنهضتُ متشوّقاً للنظر، فإذا الأعلام الحمر قد أقبلت في الجانب الغربيّ من نهر العباس ويحيى به، فلما رآها الزنج ألْقَوْا أنفسهم جملةً في الماء، فعبروا إلى الجانب الشرقيّ وخلا الموضع الذي فيه يحيى، فلم يبق معه إلا بضعة عشر رجلاً منهم، فنهض عند ذلك فأخذ درَقته[1] وسيفه، واحتزم بمنديل، ثم تلقى القوم في النفر الذين تخلّفوا معه، فرشقهم أصحاب كاشهم التركيّ بالسهام، حتى كثرت فيهم الجراح، وجرح يحيى بأسهم ثلاثة في عضُده اليمنى وساقه اليسرى، فلما رآه أصحابُه جريحاً، تفرّقوا عنه ولم يعرف فيقصد له، فرجع حتى دخل بعض تلك السفن، وعبر به إلى الجانب الشرقيّ من النهر، وذلك وقت الضحى، وأثقلته الجراحات التي أصابته، فلما رأت الزّنج شدّة ما نزل به، اشتدّ جزعهم، وضعفتْ قلوبهم، فتركوا القتال، وكانت همّتهم النجاة بأنفسهم، وحاز أصحاب السلطان تلك الغنائم التي كانتْ في السفن في الجانب الغربيّ من النهر، وانفضّ الزنج بالجانب الشرقيّ عن يحيى، فجعلوا يتسلّلون بقيّة نهارهم بعد قتل ذريع فيهم، وأسْرٍ كثير، فلما أمسوا وأسدَف الليل، طاروا على وجوههم. فلما رأى يحيى تفرّقَ أصحابه ركب سُميريّة كانت هناك، وأقعد معه فيها متطبّباً، يقال له عباد، وطمع في الخلاص إلى عسكر صاحب الزنج، فسار حتى قرب من فُوّهة النهر، فأبصر سميريّات وشذايات لأصحاب السلطان في فوّهة النهر، فخاف أنْ تعترض سميريته، وجزع من المرور بها، فعبر به الملاّح إلى الجانب الغربيّ من النهر، فألقاه وطبيبه على الأرض في زرع هناك، فخرج يمشي وهو مثقل حتى ألقى نفسَه في بعض تلك المواضع، فأقام هناك ليلته تلك. فلما أصبح نزفه الدم، ونهض عبّاد الطبيب، فجعل يمشي متشوّفاً أن يرى إنساناً، فرأى بعضَ أصحاب السلطان، فأشار لهم إلى موضع يحيى، فجاؤوا، حتى وقفوا عليه، فأخذوه، وانتهى خبره إلى [الخبيث] صاحب الزنج فجزع عليه جزعاً شديداً، وعظم عليه توجّعه.

ثم حُمِل يحيى إلى أبي أحمد، فحمله أبو أحمد إلى المعتمد، فأدخل إلى سامُرّاء راكبَ جمل، والناس مجتمعون ينظرونه، ثم أمر المعتمد ببناء دكّة عالية بحضرة مجرى الحلبة، فبنيتْ، ورفع للناس عليها حتى أبصره الخلائق كافّة، ثم ضرب بين يدي المعتمد وقد جلس له مائتي سوط بثمارها ثم قُطعت يداه ورجلاه من خلاف، [ثم خبط بالسيوف] ثم ذبح وأحرق.

قال أبو جعفر: فحدّثني محمد بن الحسن، قال: لما قتِل يحيى البحرانيّ، فانتهى خبرُه إلى

(١) الدرقة: الحجفة، وهي ترس من جلود ليس فيه خشب ولا عقب. اللسان، مادة (درق).

صاحب الزَّنج، قال لأصحابه. لما عظم عليّ قتلُه، واشتدّ اهتمامي به، خوطبت فقيل لي: قتْله خيرٌ لك! إنه كان شرهاً. ثم أقبل على جماعة أنا فيهم، فقال: مِنْ شَرَهه أنّا غنمنا غنيمة من بعض ما كنا نغنمه وكان فيها عِقْدان، فوقعا في يد يحيى، فأخفى عنّي أعظمهما خطراً، وعرض عليّ أخسَّهما، ثم استوهبه فوهبته له، فرفِع إليّ العِقْد الذي أخفاه حتى رأيته، فدعوته فقلت: أحضِرْ لي العقد الذي أخفيتَه، فأتاني بالعِقْد الذي وهبتُه له، وجحد أن يكون أخذ غيرَه، فرُفِع إليّ العقد ثانية، فجعلت أصفه له وأنا أراه وهو لا يراه، فبُهت وذهب، فأتاني، ثم استوهبنيه فوهبتُه له، وأمرته بالاستغفار.

قال أبو جعفر: وذكر محمد بن الحسن، أنّ محمد بن سمعان حدّثه أن صاحب الزَّنج، قال في بعض أيّامه: لقد عُرِضَتْ عليّ النبوّة فأبيتها. فقيل له: ولم ذاك؟ قال: إنّ لها أعباء خِفْت ألاّ أطيق حملها.

قال أبو جعفر: فأمّا الأميرُ أبو أحمد، فإنّه لما صار إلى نهر أبي الأسد وأقام به، كثرت العلل فيمن معه من جُنْده وغيرهم، وفشا فيهم الموت، فلم يزل مقيماً هنالك حتى أبَلّ مَنْ نَجا مِنهم من عِلّته، ثم انصرف، راجعاً إلى بَاذاوَرْد، فعسكر به، وأمر بتجديد الآلات وغِلْمانه، ونهض نحو عسكر الناجم، وأمر جماعة من قوّاده بقصد مواضع سَمّاها لهم، من نهر أبي الخصيب وغيره، وأمر الباقين بملازمته والمحاربة معه، في الموضع الذي يكون فيه، وهم الأقلّون، وعرف الزنج تفرّق أصحاب أبي أحمد عنه، فكثروا في جهته، واستعرت الحرب بينه وبينهم، وكثرت القتلى والجراح بين الفريقين، وأحرق أصحابُ أبي أحمد قُصوراً ومنازل كان الزّنج ابتنوها، واستنقذوا من نساء أهل البصرة جَمْعاً كثيراً. ثم صرف الزّنج سورتَهم وشدّة حملتهم إلى الموضع الذي به أبو أحمد، فجاءه منهم جمعٌ لا يقاوَم، بمثل العدّة اليسيرة التي كان فيها، فرأى أنّ الحزم في محازتهم، فأمر أصحابه بالرجوع إلى سفنهم على تُؤدة وتمهّل، ففعلوا، وبقيت طائفة من جنده وَلَجُوا تلك الأدغال والمضايق، فخرج عليهم كمين للزنج فأوقعوا بهم، فحاموا عن أنفسهم، وقتلوا عدداً كثيراً من الزنج إلى أن قتلُوا بأجمعهم، وحملت رُؤوسهم إلى الناجم، فزاد ذلك في قوّته وعتوّه وعُجْبه بنفسه، وانصرف أبو أحمد بالجيش إلى باذاورد، وأقام يعبّي أصحابه للرجوع إلى الزنج، فوقعت نار في طرف من أطراف عسكره، وذلك في أيام عُصُوف الرياح، فاحترق العسكر، ورحل أبو أحمد منصرفاً وذلك في شعبان من هذه السنة إلى واسط.

فأقام بها إلى ربيع الأول، ثم انصرف عنها إلى سامرّاء، وذلك أنّ المعتمد كاتبه واستقدمه لحرب يعقوب بن الليث الصفّار أمير خراسان، فاستخلف على حرْب الناجم محمداً المولد،

وأمّا الناجم فإنه لم يعلم خبر الحريق الذي وقع في عسكر أبي أحمد، حتى وَرد عليه رجلان من أهل عَبّادان، فأخبراه، فأظهر أن ذلك من صُنْع الله تعالى له ونصره على أعدائه، وأنه دعا الله على أبي أحمد وجيشه، فنزلت نارٌ من السماء فأحرقتهم.

وعاد إلى العبث، واشتد طغيانه وعتوّه، وأنهض عليّ بن أبان المهلبيّ، وضم إليه أكثر الجيش، وجعل على مقدمته سليمان بن جامع، وأضاف إليه الجيش الذي كان مع يحيى بن محمد البحراني وسليمان بن موسى الشعرانيّ، وأمرهم بأن يقصِدوا الأهواز وبها حينئذ أصغجون التركي، ومعه نيزك القائد، فالتقى العسكران بصحراء تعرف بدشت ميسان، واقتتلوا، فظهرتْ الزنج، وقتل نيزك في كثير من أصحابه، وغرق أصغجون التركي، وأسر كثير من قُوّاد السلطان، منهم الحسن بن هرثمة المعروف بالشاري، والحسن بن جعفر. وكتب عليّ بن أبان بالخبر إلى النّاجم، وحمل إليه أعلاماً ورؤوساً كثيرة وأسرى، ودخل عليّ بن أبان الأهواز، وأقام بها بزنوجه يعيث وينهب القُرى والسواد، إلى أن ندب المعتمد على الله موسى بن بغا لحرْبه، فشخص عن سامُرّا، في ذي القعدة من هذه السنة، وشيّعه المعتمد بنفسه إلى خلف الحائطين، وخلع عليه هنالك فقدم أمامه عبد الرحمن بن مفلح إلى الأهواز وإسحاق بن كنداج إلى البصرة، وإبراهيم بن سيما إلى الباذاورْد.

قال أبو جعفر: فلما ورد عبد الرحمن بن مفلح على الأهواز أناخ بقنطرة أربق عشرة أيام، ثم مضى إلى عليّ بن أبان المهلبي فواقعه فهزمه عليّ بن أبان، فانصرف فاستعدّ ثم عاد لمحاربته، فأوقع به وقعة عظيمة، وقتَل من الزّنج قتلاً ذريعاً وأسر أسرى كثيرة، وانهزم عليّ بن أبان ومَنْ معه من الزّنج حتى أتوا الموضع المعروف ببَيان، فأراد النّاجم ردّهم فلم يرجعوا، للذّعر الذي خالطَ قلوبهم. فلما رأى ذلك أذِنَ لهم في دخول عسكره، فدخلوا جميعاً، فأقاموا معه بالمدينة التي كان بناها، ووافَى عبد الرحمن بن مفلح حصن مهديّ ليعَسِكر به، فوجّه إليه النّاجم عليّ بن أبان فواقعه فلم يقدر عليه، ومضى عليّ بن أبان إلى قريب من الباذاورد، وهناك إبراهيم بن سيما، فواقعه إبراهيم، فهزِم عليّ بن أبان، فعاوده فهزمه إبراهيم، فمضى في اللّيل، وسلك الأدغال والآجام، حتى وافَى نهرَ يحيى، فانتهى خبره إلى عبد الرحمن بن مفلح، فوجّه إليه طاشْتِمُر التركيّ في جمعٍ من الموالي، فلم يصلْ إلى عليّ بن أبان ومن معه، لوعورة الموضع الذي كانوا فيه، وامتناعه بالقصب والحُلافيّ، فأضرمه عليهم ناراً، فخرجوا منه هاربين، وأسرَ منهم أسْرَى، وانصرف إلى عبد الرحمن بن مفلح، فصار إلى العمود، فأقام به، وصار عليّ بن أبان إلى نهر السِّدْرة، وكتب إلى النّاجم يستمدّه ويسأله التوجيه إليه بالشّذا، فوجّه إليه ثلاث عشرة شَذَاة، فيها جمعٌ كثير من أصحابه، فسار عليّ بن أبان ومَنْ معه في الشّذَا، ووافَى عبد الرحمن بمن معه، فلم يكن بينهما قتال، وتواقف الجيشان يومَهما ذلك.

فلما كان الليل انتخَب عليّ بن أبان من أصحابه جماعةً يثق بجلَدهم وصبرهم، ومضى ومعه سليمان بن موسى المعروف بالشّعراني، وترك سائرَ عسكره مكانه ليخفى أمرُه، فصار من وراء عبد الرحمن، ثم بيَّته وعسكره، فنال منه ومن أصحابه نيلاً ما، وانحاز عبدُ الرحمن عنه وترك أربع شَذَوَات من شَذَوَاته، فغنِمها علي بن أبان، وانصرف ومضى عبد الرحمن لوجهه، حتى وافى دُولاب، فأقام بها، وأعدّ رجالاً من رجاله، وولّى عليهم طاشتمر التركيّ، وأنفذهم إلى عليّ بن أبان، فوافَوْه وهو في الموضع المعروف بباب آزر، فأوقعوا به وَقْعةً انهزم منها إلى نهر السِّدرة، وكتب طاشتمر إلى عبد الرحمن بانهزامه عنه، فأقبل عبد الرحمن بجيشه حتى وافى العمود، فأقام به واستعدّ أصحابه للحرب، وهيّأ شذواتِه[1]، وولّى عليها طاشتمر، وسار إلى فُوّهة نهر السِّدرة، فواقع عليّ بن أبان وقعة عظيمة، انهزم منها عليّ بن أبان، وأخذ منه عشر شَذَوات، ورجع عليّ بن أبان إلى الناجم مفلولاً مهزوماً، وسار عبد الرحمن من فوره، فعسكر ببيان، فكان عبد الرحمن بن مفلح وإبراهيم بن سيما يتناوبان المصير إلى عسكر النّاجم، فيوقِعان به، ويخيفان مَنْ فيه وإسحاق بن كنداجيق يومئذ بالبصرة، وقد قطع المِيرة[2] عن عسكر الناجم، فكان الناجم يجمع أصحابه في اليوم الذي يخاف فيه موافاة عبد الرحمن بن مفلح وإبراهيم بن سيما، حتى ينقضِيَ الحرب، ثم يصرف فريقاً منهم إلى ناحية البصرة، فيواقع بهم إسحاق بن كندجيق، فأقاموا على هذه الحال بضعَة عشر شهراً إلى أن صرف موسى بن بغا عن حرب الزّنج.

قال أبو جعفر: وسبب ذلك أنّ المعتمد ردّ أمرَ فارس والأهواز والبصرة وغيرها من النواحي والأقطار إلى أخيه أبي أحمد، بعد فراغه من حرب يعقوب بن الليث الصفّار وهزيمته له، فاستخلف أبو أحمد على حرب صاحب الزنج مسروراً البلخيّ، وصرف موسى بن بغا عن ذلك، واتفق أنّ ابن واصل حاربَ عبد الرحمن بن مفلح، فأسره وقتله، وقتل طاشتمر التركيّ أيضاً، وذلك بناحية رَامَهُرْمز، فاستخلف مسرورٌ البلخيّ على الحربِ أبا الساج وولي الأهواز، فكانت بينه وبين عليّ بن أبان المهلبيّ وقعة بناحية دولاب، قتل فيها عبد الرحمن صهر أبي الساج، وانحاز أبو الساج إلى عسكر مُكْرَم، ودخل الزّنج الأهواز، فقتلوا أهلَها وسَبَوْا وأحرقوا [دورها].

قال أبو جعفر: ثم وجّه صاحب الزّنج جيوشه بعد هزيمة أبي الساج إلى ناحية البطيحة

(١) الشذا: حَدُّ كل شيء. اللسان، مادة (شذو).
(٢) الميرة: الطعام. اللسان، مادة (مور).

والحوانيت ودستُميسان، قال: وذلك لأنّ واسطاً خلتْ من أكثر الجند في وقعة أبي أحمد ويعقوب بن الليث التي كانت عند دير العاقول، فطمع الزنج فيها، فتوجّه إليها سليمان بن جامع في عسكر من الزّنج، وأردفه الناجم بجيش آخر مع أحمد بن مهديّ في سُميريّات، فيها رماة من أصحابه، أنفذه إلى نهر المرأة، وأنفذ عسكراً آخر فيه سليمان بن موسى، فأمره أن يعسكر بالنهر المعروف بالهيوديّ، فكانت بين هؤلاء وبين من تخلّف بهذه الأعمال من عساكر السلطان حروب شديدة، وكانت سجالاً لهم وعليهم، حتى ملَكوا البَطيحة والحوانيت، وشارفوا واسطاً، وبها يومئذ محمد المولّد من قِبَل السلطان فكانت بينه وبين سليمان بن جامع حروب كثيرة يطولُ شرحها وتعداده، وأمدّه الناجم بالخليل بن أبان - أخي عليّ بن أبان المهلبيّ - في ألف وخمسمائة فارس، ومعه أبو عبد الله الزنجي المعروف بالمذوّب، أحد قُوّادهم المشهورين، فقوِيَ سليمان بهم، وأوقع بمحمد المولّد، فهزمه، ودخل واسطاً في ذي الحجة سنة أربع وستين ومائتين بزنوجه وقوّاده، فقتل منها خلقاً كَثيراً، ونهبها وأحرق دورها وأسواقها، وأخرب كثيراً من منازل أهلها، وثبت للمحاماة عنها قائدٌ كان بها من جانب محمد بن المولّد، يقال له كنجور البخاريّ، فحامَى يومه ذلك إلى العصر، ثم قتِل. وكان الذي يقود الخيل يومئذ في عسكر سليمان بن جامع الخليل بن أبان وعبد الله المعروف بالمذوّب، وكان أحمد بن مهديّ الجبائيّ في السميريّات، وكان مهربان الزنجي في الشَّذَوات، وكان سليمان بن موسى الشعرانيّ وأخوه في ميمنته وميسرته، وكان سليمان بن جامع، وهو الأمير على الجماعة في قواده السّودان ورجالته منهم، وكان الجميع يداً واحدة، فلما قضوْا وطَرَهم من نهب واسط وقتل أهلها، خرجوا بأجمعهم عنها، فمضوا إلى جُنْبُلاء، وأقاموا هناك يعيثون ويخربون.

وفي أوائل سنة خمس وستين، دخلوا إلى النُّعمانية، وجَرْجَرايا وجَبُّل، فنهبوا وأخربوا وقتلوا وأحرقوا، وهرب منهم أهل السّواد فدخلوا إلى بغداد.

قال أبو جعفر: فأمّا عليّ بن أبان المهلبيّ فإنه استولى على معظم أعمال الأهواز، وعاث هناك وأخرب وأحرق، وكانت بينه وبين عمّال السلطان وقواده مثل أحمد بن ليثويْه، ومحمد بن عبد الله الكرديّ، وتكين البخاري، ومطر بن جامع، وأغرتمش التركي وغيرهم، وبينه وبين عُمّال يعقوب بن الليث الصفار، مثل خضر بن العنبر وغيره حروبٌ عظيمة، ووقعات كثيرة، وكانت سِجَالاً، تارة له وتارة عليه، وهو في أكثرها المستظهر عليهم. وكثرت أموال الزنج والغنائم التي حَوَوْها من البلاد والنواحي، وعَظُم أمرهم، وأهمّ الناسَ شأنُهم، وعظم على المعتمد وأخيه أبي أحمد خَطْبُهم، واقتسموا الدنيا، فكان عليّ بن محمد الناجم صاحب الزنج

وإمامهم مقيماً بنهر أبي الخصيب، قد بنى مدينة عظيمة سمّاها المختارة، وحصّنها بالخنادق، واجتمع إليه فيها من النّاس ما لا ينتهي العدّ والحصر إليه، رغبة ورهبة، وصارتْ مدينة تضاهي سامُرّاء وبغداد، وتزيد عليهما، وأمراؤه وقواده بالبصرة وأعمالها يجبُون الخراج على عادة السلطان لَمّا كانت البصرة في يده، وكان عليّ بن أبان المهلّبيّ - وهو أكبر أمرائه وقوّاده - قد استولى على الأهواز وأعمالها، ودوّخ بلادها كرامهرمز وتسْتَر وغيرهما، ودَان له الناس، وجبى الخراج، ومَلَك أموالاً لا تحصى.

وكان سليمان بن جامع وسليمان بن موسى الشعرانيّ، ومعهما أحمد بن مهديّ الجبائيّ في الأعمال الواسطية، قد ملكوها وبنوْا بها المدن الحصينة، وفازوا بأموالها وارتفاعها، وجَبَوْا خراجها، ورتّبوا عمالهم وقوّادهم فيها، إلى أن دخلت سنة سبع وستين ومائتين، وقد عظم الخطب وجلّ، وخيف على مُلْك بني العباس أن يذهب وينقرض، فلم يجد أبو أحمد الموفّق - وهو طلحة بن المتوكّل على الله - بدًّا من التوجّه بنفسه ومباشرته هذا الأمر الجلل برأيه وتدبيره، وحضوره معارك الحرب، فندب أمامه ابنه أبا العباس، وركب أبو أحمد إلى بستان الهادي ببغداد، وعَرَض أصحاب أبي العباس، وذلك في شهر ربيع الآخر من هذه السنة، فكانوا عشرة آلاف، فرساناً ورجّالة في أحسن زِيّ وأجمل هيئة، وأكمل عدّة، ومعهم الشّذَوات والسميريّات والمعابر برسم الرجّالة، كلُّ ذلك قد أحكمت صنعته. فركب أبو العباس من بستان الهادي، وركب أبو أحمد مشيّعاً له حتى نزل القرية المعروفة بالفِرْك، ثم عاد وأقام أبو العباس بالفِرْك أياماً، حتى تكامل عدده وتلاحق به أصحابه.

ثم رحل إلى المدائن، فأقام بها أياماً، ثم رحل إلى دير العاقول، فورَدَ عليه كتاب نُصَير المعروف بأبي حمزة، وهو من جلّة أصحابه، وكان صاحب الشّذَا والسميريّات، وقد كان قدّمه على مقدّمته بدجْلة يعلمه فيه أنّ سليمان بن جامع قد وافَى لمّا علم بشخوص أبي العباس، والجبائيّ يقدمه، في خيلهما ورجالهما وسفنهما حتى نزلا الجزيرة التي بحضرة بردودا، فوق واسط بأربعة فراسخ، وأن سليمان بن موسى الشعرانيّ قد وافى نهر أبان بعسكره، عسكر البرّ وعسكر الماء، فرحَل أبو العباس لَمّا قرأ هذا الكتاب حتى وافى جَرْجَرَايا، ثم منها إلى فم الصّلح، ثم ركب الظهر وسار حتى وافى الصّلح، ووجّه طلائعه ليتعرّف الخبر، فأتاه منهم مَنْ أخبره بموافاة القوم، وأن أوّلهم قريب من الصّلح، وآخرهم ببستان موسى بن بغا، أسفل واسط، فلما عرف ذلك عَدَل عن سنَنَ الطريق، ولقيَ أصحابه أوائل القوم، فتطاردوا لهم عن وصيّةٍ أوصاهم أبو العباس بها، حتى طمِع الزّنج فيهم، واغترّوا وأمعنوا في اتّباعهم، وجعلوا يصيحون بهم: اطلبوا أميراً للحرب، فإن أميرَكم مشغول بالصّيد!

فلما قربوا من أبي العباس بالصّلح، خرج إليهم فيمن معه من الخيل والرَّجل، وأمَرَ فصِيح

بأبي حمزة: يا نُصَير، إلى أين تتأخر عن هؤلاء الكلاب! ارجع إليهم. فرجع نُصَير بشذَواته وسُميريّاته، وفيها الرجال، وركب أبو العباس في سُميريّة، ومعه محمد بن شعيب، وحفّ أصحابُه بالزنج مِن جميع جهاتهم، فانهزموا، ومنح الله أبا العباس وأصحابه أكتافَهم، يقتلونهم ويطردونهم، إلى أن وافوْا قرية عبد الله، وهي على ستة فراسخ، من الموضع الذي لقُوهم فيه، وأخذوا منهم خمس شذوات وعشر سميريّات، واستأمن منهم قوم، وأسِر منهم أسرى، وغرِق مِن سفنهم كثير، فكان هذا اليوم أوّلَ الفتح على أبي العباس.

قال أبو جعفر: فلما انقضى هذا اليوم، أشار على أبي العباس قوّاده وأولياؤه، أن يجعل معسكره بالموضع الذي كان انتهى إليه، إشفاقاً عليه من مقاربة القوم، فأبى إلا نزول واسط بنفسه، ولما انهزم سليمان بن جامع ومَن معه، وضرب الله وجوهَهم، انهزم سليمان بن موسى الشعرانيّ عن نهر أبان، حتى وافَى سوق الخميس، ولحق سليمان بن جامع بنهر الأمير، وقد كان القوم حين لَقُوا أبا العباس، أجالوا الرأي بينهم فقالوا: هذا فتًى حَدَث لم تطل ممارسته الحرب وتدرّبه بها، والرأي أن نرميَه بحدّنا كلّه، ونجتهد في أوّل لَقْية نَلْقاه في إزالته، فلعلّ ذلك أن يروعَه، فيكون سبباً لانصرافه ففعلوا ذلك وحشدوا واجتهدوا، فأوقع الله تعالى بهم بأسه ونقمته، ولم يتمّ لهم ما قدّروه، وركب أبو العباس من غدِ يوم الوقعة، حتى دخل واسطاً في أحسن زيّ، وكان ذلك يوم جُمعة، فأقام حتى صلّى بها صلاة الجمعة، واستأمن إليه خلق كثير من أتباع الزّنج وأصحابهم، ثم انحدر إلى العُمْر، وهو على فرسخ واحد من واسط، فاتّخذه معسكراً، وقد كان أبو حمزة نُصَير وغيره أشاروا عليه أن يجعلَ معسكره فوق واسط، حذراً عليه من الزّنج فامتنع، وقال: لست نازلاً إلا العُمْر، وأمر أبا حمزة أن ينزل فُوّهة بردُودا فوق واسط، وأعرض أبو العباس عن مشاورة أصحابه واستماع شيء من آرائهم، واستبدّ برأي نفسه، فنزل العُمْر وأخذ في بناء الشّذَوات والسُّميريّات، وجعل يراوح الزّنج القتال ويغاديهم، وقد رتّب خاصة غلمانه ومواليه في سميريّات، فجعل في كلّ سميريّة أميراً منهم.

ثم إنّ سليمان استعدّ وحشد وفَرّق أصحابه، فجعلهم في ثلاثة أوجه: فرقة أتت من نهر أبان، وفرقة من برّ تمرتا، وفرقة من بردُودا، فلقيَهم أبو العباس، فلم يلبثوا أن انهزموا، فلحقت طائفة منهم بسوق الخميس، وطائفة بما زروان، وطائفة ببرّتمرتا، وسلك آخرون نهر الماذيان، واعتصم قوم منهم ببردودا، وتبعهم أصحابُ أبي العباس، وجعل أبو العباس قَصْده القوم الذين سلكوا نهر الماذيان، فلم يرجع عنهم حتى وافَى بهم بَرْمساور، ثم انصرف، فجعل يقف على القُرى والمسالك ويسأل عنها ويتعرّفها، ومعه الأدلاء وأرباب الخِبْرة، حتى عرف جميع تلك الأرض ومنافذها، وما ينتهي إليه من البطائح والآجام وغيرها، وعاد إلى مُعَسكره بالعُمْر، فأقام به أياماً مريحاً نفسه وأصحابه.

ثم أتاه مخبِر فأخبره أنّ الزّنج قد اجتمعوا واستعدُّوا لكبس[1] عسكره، وأنهم على إتيانه من ثلاثة أوجه، وأنهم قالوا: إن أبا العباس غلام يغرّر بنفسه، وأجمع رأيهم على تكمين الكُمنَاء، والمصيرِ إليه من الجهات الثلاث، فحذِر أبو العباس من ذلك واستعدّ له، وأقبلوا إليه وقد كمنوا زهاء عشرة آلاف في برتمرتا، ونحواً من العدّة في قسّ هثا وتقدّم منها عشرون سميريّة إلى عسكر أبي العباس، على أن يخرج إليهم فيهربوا بعد مناوشة يسيرة، فيُجيزوا أبا العباس وأصحابه إلى أن يجاوزوا الكُمناء، ثم يخرج الكمين عليهم من ورائهم.

فمنع أبو العباس أصحابَه من اتباعهم لما واقعوهم، وأظهروا الكَسْرة والعَوْد، فعلموا أنّ كيدهم لم ينفذ فيه، وخرج حينئذ سليمان والجبائيّ في الشُّذا والسميريّات العظيمة، وقد كان أبو العباس أحسن تعِبئة أصحابه، فأمر أبا حمزة نُصيراً أن يخرُج إليهم في الشذا والسميريّات المرتّبة، فخرج إليهم، ونزل أبو العباس في شَذَاة من شَذَوَاتٍ قد كان سمّاها الغزال، واختار لها جَذّافين، وأخذ معه محمد بن شعيب الاشتيان، واختار من خاصّة أصحابه وغلمانه جماعة، دفع إليهم الرماح، وأمر الخيّالة بالمسير بإزائه على شاطىء النهر، وقال لهم: لا تَدَعُوا المسيرَ ما أمكنكم، إلى أن تقطعكم الأنهار. ونَشِبت الحرب بين الفريقين، فكانت معركة القتال من حَدّ قرية الرمل إلى الرُّصافة، حتى أذن الله في هزيمة الزّنج، فانهزموا، وحاز أصحاب أبي العباس منهم أربع عشرة شذاة، وأفلت سليمان والجبائيّ في ذلك اليوم بعد أن أشفَيَا على الهلاك راجلَيْن، وأخذِت دوابّهما، ومضى جيشُ الزّنج بأجمعه، لا ينثني أحدٌ منهم حتى وافَوْا بطهيثا، وأسلَموا ما كان معهم من أثاث وآلة، ورجع أبو العباس، فأقام بمعسكره بالعُمْر، وأصلح ما كان أخذ منهم من الشُّذا والسفن، ورتّب الرجال فيها، وأقام الزّنج بعد ذلك عشرين يوماً لا يظهر منهم أحد.

قال أبو جعفر: ثم إن الجبائيّ صار بعد ذلك يجيء في الطلائع كلّ ثلاثة أيام وينصرف، وحفر في طريق عسكر أبي العباس آباراً، وصيّر فيها سفافيد حديد، وغشّاها بالبواريّ، وأخفى مواضعها، وجعلها على سنن مسير الخيل ليتهوّر فيها المجتازون بها، كان تطلبه، فقطر فرس رجل من قُوّاد الفراغنة في بعض تلك الآبار، فوقف أصحابُ أبي العباس بما ناله من ذلك على ما كان دبّره الجبّائيّ، فحذِروا ذلك، وتنكّبوا سلوك تلك الطريق.

قال أبو جعفر: وألحّ الزّنج في مغاداة العسكر في كلّ يوم بالحرب، وعسكروا بنهر الأمير في جمع كثير، وكتب سليمان إلى النّاجم يسأله إمداده بسميريّات، لكلّ واحدة منهن أربعون

---

(١) الكبس: الاقتحام. القاموس المحيط، مادة (كبس).

مجدافاً، فوافاه من ذلك في مقدار عشرين يوماً أربعون سميريّة، فيها الرجال والسيوف والتّراس والرماح، فكانت لأبي العبّاس معهم وقعات عظيمة، وفي أكثرها الظَّفَر لأصحابه والخذلان على الزنج، ولجّ أبو العباس في دخول الأنهار والمضايق، حتى انتهى إلى مدينة سليمان بن موسى الشعرانيّ بنهر الخميس التي بناها وسمّاها المنيعة، وخاطر أبو العباس بنفسه مراراً، وسلم بعد أن شارف العطب، واستأمن إليه جماعةٌ من قوّاد الزّنج فأمّنهم، وخلع عليهم وضمّهم إلى عسكره، وقتل من قوّاد الزّنج جماعة، وتمادت الأيام بينه وبينهم، واتّصل بأبي أحمد الموفّق أنّ سليمان بن موسى الشعراني والجبائيّ ومَنْ بالأعمال الواسطيّة من قُوّاد صاحب الزّنج، كاتبوا صاحبَهم، وسألوه إمدادَهم بعليّ بن أبان المهلبيّ، وهو المقيم حينئذ بأعمال الأهواز، والمستولي عليها، وكان عليّ بن أبان قائد القواد وأمير الأمراء فيهم، فكتب النّاجم إلى عليّ بن أبان يأمره بالمصير بجميع مَنْ معه إلى ناحية سليمان بن جامع، ليجتمعا على حرب أبي العباس.

فصحّ عزمُ أبي أحمد على الشخوص إلى واسط وحضور الحرب بنفسه، فخرج عن بغداد في صَفَر من هذه السنة، وعسكر بالفِرْك وأقام بها أياماً، حتى تلاحق به عسكرُهُ، ومن أراد المسيرَ معه، وقد أعدّ آلة الماء ورحل من الفرْك إلى المدائن، ثم إلى دير العاقُول، ثم إلى جَرْجَرايا، ثم قُنّى، ثم جَبُل، ثم نزل الصُّلح، ثم نزل على فرسخ من واسط.

وتلقاه ابنه أبو العباس في جَريدة خيل فيها وجوه قوّاده، فسأله أبوه عن خبرهم، فوصف له بلاءهم ونصحَهم، فخلع أبو أحمد عَلَى أبي العباس، ثم عَلَى القوّاد الذين كانوا معه. وانصرفَ أبو العباس إلى معسكره بالعُمْر فبات به، فلما كان صبيحة الغد، رحل أبو أحمد منحدراً في الماء، وتلقّاه ابنه أبو العباس في آلات الماء بجميع العسكر في هيئة الحرب، على الوضع الذي كانوا يحاربون الزّنج عليه، فاستحسن أبو أحمد هيئتهم، وسُرّ بذلك، وسار أبو أحمد حتى نزل بإزاء القرية المعروفة بقرية عبد الله، ووضع العطاء، فأعطى الجيش كلّه أرزاقهم، وقدم ابنه أبا العباس أمامه في السُّفن، وسار وراءه. فتلقّاه أبو العباس برؤوس وأسرى من أصحاب الشّعرانيّ، وكان لقيهم، فأمر أبو أحمد بالأسرى فضرِبت أعناقهم، ورحل يريد المدينة التي بناها الشعرانيّ بسوق الخميس، وسمّاها المنيعة.

وإنما بدأ أبو أحمد بحرب الشّعرانيّ قبل حرب سليمان بن جامع، لأنّ الشعرانيّ كان وراءه، فخاف إن بدأ بابن جامع، أن يأتيَه الشعرانيّ من ورائه، فيشغله عَمَّنْ هو أمامه، فلما قَرُب من المدينة، خرج إليه الزّنج، فحاربوه حرباً ضعيفة، وانهزموا، فعلاً أصحاب أبي العباس السُّور، ووضعوا السيف فيمنْ لقيهم، وتفرّق الزنج، ودخل أبو العباس المدينة، فقتلوا وأسروا، وحَوَوْا ما كان فيها، وأفلت الشعرانيّ هارباً ومعه خواصّه، فاتّبعهم أصحاب أبي

العباس، حتى وافَوْا بهم البطائح، فغرِق منهم خَلْق كثير، ولجأ الباقون إلى الآجام، وانصرف الناس، وقد استنقذ من المسلمات اللّواتي كنّ بأيدي الزّنج في هذه المدينة خاصة خمسة آلاف امرأة، سوى مَن ظُفِر به من الزنجيات.

فأمر أبو أحمد بحمْل النساء اللّواتي سباهنّ الزّنج إلى واسط، وأنْ يدفعنَ إلى أوليائهن، وبات أبو أحمد بحيال المدينة، ثم باكرها، وأذن للناس في نَهْب ما فيها من أمتعة الزنج، فدخلت ونهب كلّ ما كان بها، وأمر بهدْم سورها، وطمّ خندقِها وإحراق ما كان بقي منها، وظفر في تلك القرى التي كانت في يد الشعرانيّ بما لا يحصى من الأرز والحنطة والشعير، وقد كان الشعرانيّ استولى على ذلك كلّه، وقتل أصحابه، فأمر أبو أحمد ببيعه وصرف ثمنه في أعطيات مواليه وغلمانه وجنده.

وأما الشعرانيّ فإنه التحق هو وأخوه بالمذار، وكتب إلى النّاجم يعرّفه ذلك وأنه معتصِمٌ بالمذار.

قال أبو جعفر: فحدّثني محمد بن الحسن بن سهل، قال: حدّثني محمد بن هشام الكرنبائيّ المعروف بأبي واثلة، قال: كنت بين يدي النّاجم ذلك اليوم وهو يتحدّث، إذْ وَرَد عليه كتابُ سليمان بخبر الواقعة وما نزل به، وانهزامِه إلى المذار، فما كان إلاّ أنْ فضّ الكتاب، ووقعت عينه على ذكر الهزيمة، حتى انحلّ وكاء بطنه، فنهض لحاجته ثم عاد. فلما استوى به مجلسه، أخذ الكتاب وتأمّله، فوقعت عينُه على الموضع الذي أنهضه أولاً، فنهض لحاجته حتى فعل ذلك مراراً، فلم أشكّ في عِظَم المصيبة، وكرهت أنْ أسأله، فلما طال الأمرُ تجاسرتُ، فقلت: أليس هذا كتاب سليمان بن موسى؟ قال: بَلَى، ورد بقاصمة الظهر، ذكر أنّ الّذين أناخُوا عليه أوقعوا به وقعةً لم تُبْق منه ولم تَذَرْ، فكتب كتابه هذا وهو بالمذار، ولم يسلم بشيء غير نفسه. قال: فأكبرتُ ذلك - والله يعلم ما أخفي من السرور الذي وصل إلى قلبي - قال: وصبرَ عليّ بن محمد على مكروه ما وصل إليه، وجعل يظهر الجلَد، وكتب إلى سليمان بن جامع يحذّره مثل الذي نزل بالشعرانيّ، ويأمره بالتيقّظ في أمره وحفظ ما قِبله.

قال أبو جعفر: ثم لم يكن لأبي أحمد بعد ذلك همٌّ إلا في طلب سليمان بن جامع، فأتَتْه طلائعه، فأخبرته أنّه بالحوانيت، فقدّم أمامه ابنَه أبا العباس في عشرة آلاف، فانتهى إلى الحوانيت، فلم يجد سليمان بن جامع بها، وألفَى هناك من قوّاد السودان المشتهرين بالبأس والنجدة القائدين، المعروف أحدهما بشبْل، والآخر بأبي الندى، وهما من قدماء أصحاب النّاجم الذين كان قوّدهم في بدء مخرَجه، وكان سليمان قد خلّف هذين القائدين بالحوانيت،

لحفظ غلاّتٍ كثيرة كانوا قد أخذوها، فحاربهما أبو العباس، فقتَل من رجالهما وجرح بالسهام خلقاً كثيراً - وكانوا أجْلَدَ رجالِ سليمان بن جامع ونخبتَهم الذين يعتمد عليهم - ودامت الحرب بين أبي العباس وبينهم ذلك اليوم إلى أن حَجَز الليل بين الفريقين. ورمى أبو العباس في ذلك اليوم كُرْكيًا طائراً، فوقع بين الزّنج والسهمُ فيه، فقالوا: هذا سهم أبي العباس، وأصابهم منه ذُعر، واستأمن في هذا اليوم بعضُهم إلى أبي العباس فسأله عن الموضع الذي فيه سليمان بن جامع، فأخبره أنه مقيم بمدينته التي بناها بطهيثا، فانصرف أبو العباس حينئذ إلى أبيه بحقيقة مقام سليمان، وأن معه هنالك جميعَ أصحابه إلا شبلاً وأبا الندى، فإنهما بالحوانيت لحفظ الغلاّت التي حَوَوْها. فأمر حينئذٍ أبو أحمد أصحابه بالتوجّه إلى طهيثا، ووضع العطاء، فأعطى عسكره، وشخص مصاعداً إلى بردودا، ليخرج منها إلى طهيثا، إذ كان لا سبيلَ له إليها إلاّ بذلك، فظنّ عسكره أنّه هارب، وكادوا ينفضّون لولا أنّهم عرفوا حقيقة الحال، فانتهى إلى القرية بالحوذية، وعقد جسراً على النهر المعروف بمَهْروذ، وعبَر عليه الخيل، وسار إلى أن صار بينه وبين مدينة سليمان التي سمّاها المنصورة بطهيثا ميلان، فأقام هناك بعسكره، ومطرت السماء مطراً جَوْداً، واشتدّ البرد أيام مُقامه هنالك، فشغل بالمطر والبرد عن الحرب فلم يحارب، فلما فَتَر ركب في نفر من قُوّاده ومواليه لارتياد موضع لمجال الخيل، فانتهى إلى قريب من سُور تلك المدينة، فتلقّاه منهم خلْق كثير وخرج عليه كُمناءُ من مواضع شَتّى، ونشبت الحرب واشتدّت، فترجّل جماعةٌ من الفرسان، ودافعوا حتى خرجوا عن المضايق التي كانوا أوغلوها، وأسِر من غلمان أبي أحمد غلامٌ يقال له وصيف العَلمدار وعدّة من قواد زيرك، وقتِل في هذا اليوم أحمد بن مهدي الجبائيّ أحد القوّاد العظماء من الزّنج، رماه أبو العباس بسهْم فأصاب أحدَ منخريه حتى خالط دِماغه، فخّر صريعاً، وحمِل من المعركة وهو حيّ، فسأل أن يحمل إلى الناجم، فحمِل من هناك إلى نهر أبي الخصيب إلى مدينة النّاجم التي سماها المختارة، فوضع بين يديه، وهو على ما به، فعظُمت المصيبة عليهَ به إذ كانَ من أعظم أصحابه غناء، وأشدّهم تصبّراً لإطاعته، فمكث الجبائيّ يعالَج هنالك أياماً ثم هلك، فاشتدّ جزع الناجم عليه، وصار إليه، فوليَ غسله وتكفينَه والصلاة عليه، والوقوف على قبره إلى أن دفن، ثم أقبل على أصحابه فوعظهم، وذكر موت الجبائيّ. وكانت وفاته في ليلة ذات رُعود وبروق.

فقال فيما ذكر عنه: لقد سمعتُ وقتَ قبض روحه زَجَل[1] الملائكة بالدّعاء له، والترحّم عليه. وانصرف من دفنه منكسراً، عليه الكآبة.

---

(١) الزجل: الصوت. القاموس، مادة (زجل).

قال أبو جعفر: فلما انصرف أبو أحمد ذلك اليوم من الوقعة، غاداهم بكْرة الغد، وعبّأ أصحابه كتائب فرساناً ورجّالة، وأمر بالشّذا والسميريّات أن يسارَ بها معه في النهر الذي يشقّ مدينة طهيثا، وهو النهر المعروف بنهر المنذر، وسار نحو الزّنج، حتى انتهى إلى سور المدينة قريب قوّاد غلمانه في المواضع التي يخاف خروج الزّنج عليه منها، وقدم الرجّالة أمام الفرسان، ونزل فصلّى أربع ركعات، وابتهل إلى الله تعالى في النَّصْر والدعاء للمسلمين، ثم دعا بسلاحه فلبسه، وأمَر ابنَه أبا العباس أنْ يتقدّم إلى السُّور ويحضّ الغلمان على الحرْب ففعل، وقد كان سليمان بن جامع أعدّ أمامَ سور المدينة التي سماها المنصورة خَندقاً، فلما انتهى الغلمان إليه تهيّبوا عُبورَه، وأحجموا عنه، فحرّضهم قوادهم، وترجّلوا معهم فاقتحموه متجاسرين عليه، فعبروه وانتهوْا إلى الزنج وهم مشرفون من سُور مدينتهم، فوضعوا السلاح فيهم، وعبَرت شِرْذمة من الفرسان الخندق خوضاً، فلما رأى الزنج خبَر هؤلاء الذين لقوهم وجراءتَهم عليهم، ولّوْا منهزمين، واتبعهم أصحابُ أبي أحمد، ودخلوا المدينة من جوانبها، وكان الزّنج قد حصّنوها بخمسة خنادق، وجعلوا أمام كلّ خندق منها سوراً يمتنعون به، فجعلوا يقفون عند كلّ سور وخندقٍ انتهَوْا إليه، وأصحاب أبي أحمد يكشفونهم في كلّ موقف وقفوه، ودخلت الشذَا والسميرّيات مدينتهم مشحونة بالغلمان المقاتلة من النهر الذي يشقّها بعد انهزامهم، فأغرقَت كلّ ما مرّت به لهم من شذاة أو سميريّة، واتّبعوا مَنْ تجافَى النهر منهم، يقتلون ويأسِرون، حتى أجلوْهم عن المدينة وعمّا يتصل بها، وكان ذلك زُهاء فرسخ، فحوى أبو أحمد ذلك كلَّه، وأفلت سليمان بن جامع في نفرٍ من أصحابه، واستحرّ القتلُ فيهم والأسر، واستنقذ من نساء أهل واسط وصِبْيانهم وما اتصل بذلك من القرى ونواحي الكوفة زُهاء عشرة آلاف، فأمر أبو أحمد بحياطتهم والإنفاق عليهم، وحملوا إلى واسط فدفعوا إلى أهليهم، واحتوى أبو أحمد على كلّ ما كان في تلك المدينة من الذخائر والأموال والأطعمة والمواشي، فكان شيئاً جليلَ القدر، فأمر ببيع الغلاّت وغيرها من العُروض، وصَرَفه في أعطيات عسكره ومواليه وأسر من نساء سليمان وأولاده عِدّة، واستنقِذ يومئذ وصيف العَلمدار ومَنْ كان أسره الزّنج معه.

فأخرِجوا من الحبس وقد كان الزّنج أعجلَهم الأمر عن قتله وقتلهم، وأقام أبو أحمد بطهيثا سبعةَ عشر يوماً، وأمر بهدْم سورِ المدينة، وطمّ خنادقها، ففعِل ذلك، وأمر بتتبُّع مَنْ لجأ منهم إلى الآجام[1]، وجعل لكلّ مَن أتاه برجل منهم جُعْلاً، فسارع الناس إلى طلبهم، فكان إذا أتِيَ بالواحد منهم خَلَع عليه وأحسن إليه، وضمّه إلى قُوّاد غلمانه لما دبّر من استمالتهم، وصرَفهم عن طاعة صاحبهم، وندب نُصَيراً صاحبَ الماء في شَذًا وسميريّات لطلب سليمان بن جامع

(١) الآجام: الحصون. اللسان، مادة (أجم).

والهاربين معه من الزّنج وغيرهم، وأمره بالجدّ في اتباعهم، حتى يجاوز البطائح، وحتى يلج دَجْلة المعروفة بالعوراء، وتقدم إليه في فتح الشُكور[1] التي كان سليمان أحدثها ليقطع بها الشذا عن دَجْلة فيما بينه وبين النهر المعروف بأبي الخصيب، وتقدّم إلى زيرك في المقام بطهيثا في جمع كثير من العسكر، ليتراجع إليها الذين كان سليمان أجْلاَهم عنها من أهلها، فلما أحكم ما أراد إحكامه، تراجع بعسكره مزمعاً على التوجّه إلى الأهواز ليصلحها، وقد كان قدّم أمامه ابنه أبا العباس، وقد تقدّم ذكر عليّ بن أبان المهلبيّ، وكونه استولَى على معظم كُور الأهواز، ودوّخ جيوشَ السلطان هناك، وأوقعَ بهم، وغلَب على معظم تلك النواحي والأعمال.

فلما تراجع أبو أحمد وافَى بردودا، فأقام بها أياماً، وأمر بإعداد ما يحتاج إليه للمسير على الظّهر إلى الأهواز، وقدّم أمامه مَنْ يصلِح الطرق والمنازل، ويعدّ فيها المِيرَة للجيوش التي معه، ووافاه قبل أن يرحل عن واسط زيرك منصرفاً عن طهيثا، بعد أن تراجع إلى النواحي التي كان بها الزّنج أهلُها، وخلّفهم آمنين، فأمره أبو أحمد بالاستعداد والانحدار في الشّذا والسميريّات في نخبة عسكره وأنجادهم، فيصير بهم إلى دَجْلة العوراء، فتجتمع يده ويد نصير صاحب الماء على نقض دجلة، واتباع المنهزمين من الزّنج والإيقاع بكلّ من لقوا من أصحاب سليمان إلى أن ينتهِيَ بهم المسير إلى مدينة الناجم بنهر أبي الخصيب، فإن رأوْا موضعَ حرب حاربوه في مدينة، وكتبوا بما يكون منهم إلى أبي أحمد، ليرد عليهم من أمره ما يعملون بحسبه.

واستخلف أبو أحمد عَلَى مَنْ خَلَفه من عسكره بواسط ابنَه هارونَ، وأزمع على الشخوص في خِفّ من رجاله وأصحابه، ففعل ذلك بعد أن تقدّم إلى ابنِهِ هارون في أن يحدِر الجيشَ الذي خلّفه معه في السفن إلى مستقرّه بِدجْلة، إذا وافاه كتابُه بذلك، وارتحل شاخصاً من واسط الأهواز وكُورها، فنزل باذِبين، إلى الطِّيب، إلى قُرْقُوب إلى وادي السوس، وقد كان عقِد له عليه جسْرٌ، فأقام به من أول النهار إلى وقت الظهر، حتى عَبَر عسكره أجمع. ثم سار حتى وافى السُّوس فنزلها، وقد كان أمر مسروراً البلخيّ وهو عامله على الأهَواز بالقدُوم، عليه فوافاهم في جيشه وقوّاده من غدِ اليوم الذي نزل فيه السُّوس، فخلع عليه وعليهم، وأقام بالسُّوس ثلاثاً، وكان ممنّ أسِر من الزنج بطهيثا أحمد بن موسى بن سعيد البصريّ المعروف بالقَلوص، وكان قائداً جليلاً عندهم، وأحد عُدَد النّاجم، من قدماء أصحابه، أسِر بعد أن أثخن جراحات كانت فيها منيّته، فأمر أبو أحمد باحتزاز رأسه ونصبه على جسر واسط.

قال أبو جعفر: واتّصل بالناجم خبرُ هذه الوقعة بطهيثا، وعلم ما نيلَ من أصحابه، فانتقض عليه تدبيرهُ وضلّتْ حيلته، فحمله الهلع إلى أن كتب إلى عليّ بن أبان المهلبيّ، - وهو يومئذ مقيم بالأهواز في زُهاء ثلاثين ألفاً - يأمره بترك كل ما كان قِبَله من المِيرَة والأثاث، والإقبال

إليه بجميع جيوشه، فوصل الكتاب إلى المهلّبيّ، وقد أتاه الخبر بإقدام أبي أحمد إلى الأهواز وكُوَرها، فهو لذلك طائر العقل. فقرأ الكتاب، وهو يحفزُه فيه حفزاً بالمصير إليه، فترك جميع ما كان قبله، واستخلف عليه محمد بن يحيى بن سعيد الكرنبائيّ. فلما شخص المهلّبي عنه لم يثبُت ولم يقِمْ، لما عنده من الوجل وترادُف الأخبار بوصول أبي أحمد إليه، فأخلَى ما استخلِف عليه، وتبعَ المهلبي - وبالأهواز وكتب الناجم أيضاً إلى بهبوذ بن عبد الوهاب القائد - وإليه يومئذ الأعمال التي بين الأهواز وفارس - يأمره بالقدوم عليه بعسكره، فترك بهبوذ ما كان قِبَله من الطعام والتمر والمواشي، فكان ذلك شيئاً عظيماً، فحوى جمعَ ذلك أبو أحمد، فكان قوةً له على الناجم، وضعفاً للناجم.

ولما رحل المهلبيّ عن الأهواز بثّ أصحابه في القُرى التي بينه وبين مدينة الناجم، فانتهبوها وأجلوْا عنها أهلها، وكانوا في سِلْمهم، وتخلّف خلقٌ كثير ممن كان مع المهلبيّ من الفرسان والرجالة عن اللّحاق به، وأقاموا بنواحي الأهواز، وكتبوا يسألون أبا أحمد الأمان لما انتهى عنه إليهم من عفوه عمّن ظفر به من أصحاب الناجم، وكان الذي دعا النّاجم إلى أمر المهلبيّ وبهبوذ بسرعة المصير إليه، خوفه موافاة أبي أحمد بجيوشه إليه، على الحالة الّتي كان الزّنج عليها من الوجَل وشدّة الرعب، مع انقطاع المهلبيّ وبهبوذ فيمن كان معهما عنه. ولم يكن الأمر كما قدّر، فإنّ أبا أحمد إنما كان قاصداً إلى الأهواز، فلو أقام المهلبيّ بالأهواز وبهبوذ بمكانه في جيوشهما، لكان أقربَ إلى دفاع جيش أبي أحمد عن الأهواز، وأحفظ للأموال والغَلاّت التي تُركت بعد أن كانت اليد قابضةً عليها.

قال أبو جعفر: وأقام أبو أحمد حتى أحرز الأموال التي كان المهلبيّ وبهبوذ وخلفاؤهما تركوها، وفتحت السكور التي كان النّاجم أحدثها في دجلة، وأصلِحت له طرقه ومسالكه ورحل أبو أحمد عن السّوس إلى جُنْدَيْسابور فأقام بها ثلاثاً، وقد كانت الأعلاف ضاقت على أهل العسكر، فوجّه في طلبها وحملها، ورحَلَ عن جُنْدَيْسابور إلى تستَر، فأقام بها لجبابة الأموال من كُور الأهواز، وأنفذ إلى كلّ كُورة قائداً ليروّج بذلك حملَ المال، ووجه أحمد بن أبي الأصبغ إلى محمد بن عبد الله الكرديّ، صاحب رَامَهُرْمُز وما يليها من القِلاع والأعمال، وقد كان مالأ المهلبيّ، وحمل إلى الناجم أموالاً كثيرة، وأمره بإيناسه وإعلامه ما عليه رأيه في العفو عنه، والتغمّد لزلته، وأن يتقدّم إليه في حمل الأموال والمسير إلى سوق الأهواز بجميع مَنْ معه من الموالي والغلمان والجند، ليعرضهم ويأمر بإعطائهم الأرزاق، وينهضهم معه لحرب النّاجم.

ففعل وأحضرهم، وعُرِضوا رجلاً رجلاً، وأعطوا ثم رحل إلى عسكر مُكرَم، فجعله منزلَه

أياماً، ثم رحل منه فوافَى الأهوازَ وهو يرى أنّه قد تقدّمه إليها من المِيرَة ما يحمل عساكره، فلم يكن كذلك، وغلُظ الأمر في ذلك اليوم، واضطرب الناس اضطراباً شديداً، فأقام ثلاثة أيام ينتظر ورودَ المِيرَة فلم ترد، فساءت أحوالُ الناس، وكاد ذلك يفرّق جماعتهم، فبحث عن السبب المؤخر لورودها، فوُجد الزّنج قد كانوا قطعوا قنطرة قديمة أعجمية، كانت بين سوق الأهواز ورَامَهُرْمز، يقال لها قنطرة أربق، فامتنع التجّار ومَنْ كان يحمل المِيرة من الورود، لقطع تلك القنطرة.

فركب أبو أحمد إليها، وهي على فرسخين من سوق الأهواز، فجمع مَنْ كان في العسكر من السودان، وأخذهم بنقل الصخر والحجارة لإصلاح هذه القنطرة، وبذل لهم من أموال الرعيّة، فلم يرِمْ حتى أصلحت في يومه ذلك، وردّت إلى ما كانت عليه، فسلكها الناس، ووافت القوافِل بالمِيرة، فحيِيَ أهلُ العسكر، وحسُنت أحوالُهم، وأمر بجمع السفن لعقد الجسر على دُجيل الأهواز، فجمعت من جميع الكُور، وأقام بالأهواز أياماً حتى أصلح أصحابه أمورَهم، وما احتاجوا إليه من آلاتهم، وحسُنت أحوال دوابّهم، وذهَب عنها ما كان بها من الضرّ بتأخر الأعلاف، ووافَتْ كتبُ القوم الّذين تخلّفوا عن المهلّبيّ، وأقاموا بعدَه بسوق الأهواز يسألون أبا أحمد الأمان، فأمّنهم، فأتاه منهم نحو ألف رجل، فأحسن إليهم، وضمّهم إلى قوّاد غلمانه، وأجرى لهم الأرزاق، وعقد الجسر على دُجَيل الأهواز، ورحل بعد أن قدّم جيوشه أمامه، وعَبَر دُجَيْلاً، فأقام بالموضع المعروف بقصر المأمون ثلاثاً، وقد كان قدّم ابنه أبا العباس إلى نهر المبارك، من فرات البصرة، وكتب إلى ابنه هارون بالانحدار إليه ليجتمع العساكر هنالكَ، ورحل أبو أحمد عن قصر المأمون إلى قُورَج العباس، ووافاه أحمد بن أبي الأصبغ هنالك بهدايا محمد بن عبد الله الكرديّ صاحب رامهرمز من دوابّ ومال. ثم رحل عن القُورَج فنزل الجعفرية، ولم يكن بها ماء، وقد كان أنفذ إليها وهو بعد في القُورَج من حفر آبارها، فأقام بها يوماً وليلة، وألفَى بها ميرا مجموعة، فاتّسع الجند بها، وتزوّدوا منها، ثم رحل إلى المنزل المعروف بالبشير، فألفى فيه غديراً من ماء المطر، فأقام به يوماً وليلة، ورحل إلى المبارك وكان منزلاً بعيد المسافة، فتلقّاه ابناه أبو العباس وهارون في طريقه، وسلّما عليه، وسارا بسيْره، حتى وَرَد بهم المبارك، وذلك يوم السّبت للنّصف من رجب سنة سبع وستين.

قال أبو جعفر، فأما نُصير وزيرَك، فقد كانا اجتمعا بدَجْلة العوراء، وانحدرا حتى وافيا الأبُلّة بسفنهما وشذاهما، فاستأمن إليهما رجلٌ من أصحاب الناجم، فأعلمهما أنّه قد أنفذ عدداً كثيراً من السميريّات والزواريق مشحونة بالزّنج، يرأسهم قائدٌ من قوّاده، يقال له محمد بن إبراهيم، ويكنَى أبا عيسى.

قال أبو جعفر: ومحمد بن إبراهيم هذا، رجل من أهلِ البَصْرة، جاء به إلى الناجم صاحب شُرطته المعروف بيَسار، واستصلحه لكتابته فكان يكتب له حتى مات، وقد كانت ارتفعت حالُ أحمد بن مهديّ الجُبّائيّ عند الناجم، وولاّه أكثرَ أعمالِه، فضمّ محمد بن إبراهيم هذا إليه، فكان كاتبه، فلما قتل الجبّائيّ في وقعة سليمان الشعرانيّ، طمع محمد بن إبراهيم هذا في مرتبته، وأنْ يحلّه الناجم محلّه، فنبذ القلم والدواة، ولبِس آلة الحرب، وتجرّد للقتال، فأنهضه النّاجم في هذا الجيش، وأمره بالاعتراض في دِجْلة لمدافعة مَنْ يردُها من الجيوش، فكان يدخله أحياناً، وأحياناً يأتي بالجمع الذي معه إلى النّهر المعروف بنهر يزيد، وكان معه في ذلك الجيش من قُوّاد الزّنج شبل بن سالم وعمرو المعروف بغلا بُوذي وأخلاط من السودان وغيرهم، فاستأمن رجلٌ منهم كان في ذلك الجيش إلى زيرك ونصير، وأخبرهما خبره، وأعلمهما أنه على القصد لسواد عسكر نُصير. وكان نصَير يومئذ معسكراً بنهر المرأة، وإنّهم على أن يسلكوا الأنهار المعترضة على نهر معقِل، وبَثْق شِيرين حتى يوافُوا الشرطة، ويخرجوا من وراء العسكر، فيكبّوا على مَنْ فيه، فرجع نُصَير عند وصول هذا الخبر إليه من الأبُلّة، مبارزاً إلى عسكره وسار زيرك قاصداً بثق شيرين، معارضاً لمحمد بن إبراهيم، فلقيَه في الطريق، فوهب الله له العلوّ عليه بعد صبر من الزّنج له، ومجاهدة شديدة، فانهزموا ولجؤوا إلى النهر الذي فيه كمينُهم، وهو نهر يزيد، فدلّ زيرك عليهم، فتوغّلت إليهم سمَيريّاته، فقتل منهم طائفة وأسر طائفة، فكان محمد بن إبراهيم فيمن أسِرغ وعمرو وغلام بوذي، وأخِذ ما كان معهم من السميريّات، وهي نحو ثلاثين سميريّة، وأفلت شبل بن سالم في الذين نجوْا معه، فلحق بعسكر الناجم، وخرج زيرك في بَثْق شِيرين سالماً ظافراً، ومعه الأسارى ورؤوس القتلى، مع ما حوى من السميريّات والسفن، وانصرف من دِجْلة العوراء إلى واسط، وكتب إلى أبي أحمد بالفَتْحِ وعظم الجزَع على كلّ من كان بدجْلة وكُورها من أتباع الناجم، فاستأمن إلى نصير صاحب الماء، وهو مقيم حينئذ بنهر المرأة زُهاء ألفي رجل من الزّنج وأتباعهم.

فكتب إلى أبي أحمد بخبرهم، فأمره بقبولهم وإقرارهم على الأمان، وإجراء الأرزاق عليهم، وخلَطهم بأصحابه، ومناهضة العدوّ بهم، ثم كتب إلى نُصير يأمره بالإقبال إليه إلى نهر المبارك، فوافاه هنالك.

وقد كان أبو العباس عند منصَرَفه إلى نهر المبارك، انحدر إلى عسكر الناجم في الشَّذَا، فأوقع بهم في مدينته بنهر أبي الخصيب، فكانت الحرب بينهما من أوّل النهار إلى آخر وقت الظهر.

واستأمن إليه قائد جليل من قوّاد الناجم من المضمومين، كانوا إلى سليمان بن جامع، يقال له منتاب، ومعه جماعة من أصحابه، فكان ذلك مما كسر من الناجم وانصرف أبو العباس بالظَّفَر، وخلَع على منتاب الزنجيّ، ووصله وحمله، فلما لقي أباه أخبَره خبَره، وذكر إليه

خروجَه إليه في الأمان، فأمر أبو أحمد له بِخلَع وصلَةٍ وحُملان، وكان منتاب أوّل من استأمن من جملة قواد النّاجم.

قال أبو جعفر: ولما نزل أبو أحمد نهر المبارك كان أوّل ما عمل به في أمر الناجم أن كتبَ إليه كتاباً يدعوه فيه إلى التوبة والإنابة إلى الله تعالى، مما ارتكب من سَفْك الدماء، وانتهاك المحارم، وإخراب البلدان والأمصار، واستحلال الفُروج والأموال، وانتحال ما لم يجعله الله له أهلاً من النبوّة والإمامية، ويعلمه أنّ التوبة له مبسوطة، والأمان له موجود، فإنْ نَزَع عَمّا هو عليه من الأمور التي يسخطها الله تعالى، ودخل في جماعة المسلمين، محا ذلك ما سلَف من عظيم جرائمه، وكان له به الحظّ الجزيل في دنياه وآخرته، وأنفذ ذلك إليه مع رسول، فالتمس الرسول إيصاله إليه، فامتنع الزّنج من قَبُول الكتاب، ومن إيصاله إلى صاحبهم، فألقى الرسول الكتاب إليهم إلقاء، فأخذوه وأتوْا به صاحبَهم، فقرأه ولم يجب عنه بشيء، ورجع الرّسول إلى أبي أحمد، فأخبره، فأقام خمسة أيام متشاغلاً بعرض السفن، وترتيب القوّاد والموالي والغلمان فيها، وتخيّر الرماة، وانتخابهم للمسير بها.

ثم سار في اليوم السادس في أصحابه ومعه ابنه أبو العباس إلى مدينة النّاجم التي سَمّاها المختارة، من نهر أبي الخصيب فأشرف عليها، وتأمّلها فرأى منَعتها وحَصَانتها بالسُّور والخنادق المحيطة بها، وغَوّر الطرِيق المؤدّى إليها، وما قد أعدّ من المجانيق والعرّادات والقسيّ الناوكيّة، وسائر الآلات على سُورها، فرأى ما لم ير مثله ممن تقدّم من منازِعي السلطان. ورأى من كثرة عدد مقاتلتهم واجتماعهم ما استغلَظ أمره

ولما عاين الزّنج أبا أحمد وأصحابَه، ارتفعت أصواتهم بما ارتجّت له الأرض، فأمر أبو أحمد عند ذلك ابنَه أبا العباس بالتقدّم إلى سور المدينة، ورَشْق مَنْ عليه بالسهام، ففعل ودنا، حتى ألصق شذواته بمسنّاة قصر النّاجم، وانحاز الزنج بأسرهم إلى الموضع الذي دنتْ منه الشذا. وتحاشدوا، وتتابعت سهامُهم وحجارة منجنيقاتهم وعرَّاداتهم[1] ومقاليعهم، ورمى عوامُّهم بالحجارة عن أيديهم، حتى ما يقع طرف ناظر على موضع إلا رأى فيه سهماً أو حجراً.

وثبت أبو العباس، فرأى الناجم وأشياعُه من جَهْدهم واجتهادهم وصَبْرهم ما لا عهدَ لهم بمثله من أحدٍ ممّن حاربهم، وحينئذٍ أمر أبو أحمد ابنَه أبا العباس بالرّجوع بمن معه إلى مواقفهم ليروّحوا عن أنفسهم، ويداووا جروحهم، ففعلوا ذلك، واستأمن في هذه الحال إلى أبي أحمد مقاتلان من مقاتلة السميريّات من الزّنج، فأتياه بسُميريّاتهما وما فيهما من الملاّحين

(١) العَرَّادات: شيء أصغر من المنجنيق. القاموس المحيط، مادة (عرد).

والآلات، فأمر لهما بخلَع ديباج ومناطق محلاّة بالذهب، ووصلَهما بمال، وأمر للملاحين بخلَع من الحرير الأحمر والأخضر الذي حسُن موقعه منهم، وعمّهم جميعاً بصِلاته، وأمر بإدنائهم من الموضع الذي يراهم فيه نظراؤهم، فكان ذلك من أنجع المكايد التي كِيد بها صاحب الزنج.

فلما رأى الباقون ما صار إليه أصحابهم من العفو عنهم والإحسان إليهم رغبوا في الأمان، وتنافسوا فيه، فابتدر منهم جمع كثير مسرعين نحوه، راغبين فيما شرَع لهم منه. فأمر أبو أحمد لهم بمثل ما أمر به لأصحابهم، فلمّا رأى الناجم ركونَ أصحاب السميريّات إلى الأمان، ورغبتهم فيه، أمر بردّ من كان منهم في دِجْلة إلى نهر أبي الخصيب، ووكّل بفوّهة النهر مَنْ يمنعهم الخروج، وأمر بإظهار شذاوته الخاصّة، وندب لهم بهبوذ بن عبد الوهاب - وهو من أشدّ كُماته بأساً، وأكثرهم عَدداً وعُدّة - فانتدب بهبوذ لذلك، وخرج في جمع كثيف من الزَّنْج فكانت بينه وبين أبي حمزة نُصَيْر صاحب الماء وبين أبي العباس بن أبي أحمد وقعات شديدة، في كلّها يظهر عليه أصحاب السلطان، ثم يعدو فيرتاش ويحتشد، فيخرج فيواقعهم، حتى صَدَقُوه الحرب، وهزموه وألجؤوه إلى فناء قصر الناجم، وأصابتْه طعنتان، وجرح بالسهام، وأوهنتْ أعضاءه الحجارة، وأولجوه نهر أبي الخصيب وقد أشفى على الموت، وقتِل قائد جليل معه من قُوّاد الزنج ذو بأس ونجدة، وتقدُّمٍ في الحرب، يقال له عميرة.

واستأمن إلى أبي أحمد جماعة أخرى، فوصلهم وحَبَاهم وخَلَع عليهم، وركب أبو أحمد في جميع جيشه وهو يومئذ في خمسين ألف رجل، والناجم في ثلاثمائة ألف رجل، كلهم يقاتل ويدافع، فمن ضاربٍ بسيف، وطاعن برمح، ورامٍ بقوس، وقاذفٍ بمقلاع، ورامٍ بعرّادة ومِنْجَنيق، وأضعفهم أمرُ الرماة بالحجارة عَنْ أيديهم، وهم النظّارة المكثرون للسواد، والمعيّنون بالنّعير والصياح، والنساء يَشْرَكنهَمُ في ذلك أيضاً، فأقام أبو أحمد بإزاء عسكر الناجم إلى أن أضحى، وأمر فنودي: الأمانُ مبسوطٌ للناس: أسودِهم وأحمرِهم، إلا لعدوّ الله الدّعيّ عليّ بن محمد. وأمر بسهام فَعُلِّقَتْ فيها رقاع مكتوب فيها من الأمان، مثل الذي نُودي به، ووعد الناس فيها الإحسان ورمي بها إلى عسكر الناجم، فمالت إليه قلوب خَلق كثير من أولئك، ممّن لم يكن له بصيرة في اتباع الناجم.

فأتاه في ذلك اليوم جمع كثير تحملهم الشّذَا والسُّميريّات، فوصلهم وحَبَاهم، وقدم عليه قائدان من قوّاده، وكلاهما من مواليه ببغداد، أحدهما يكتمر والآخر بغرا في جمع من أصحابهما، فكان ورودهما زيادةً في قوّته. ثم رحل في غدِ هذا اليوم بجميع جيشه، فنزل متاخماً لمدينة النّاجم في موضع كان تخيّره للنزول، فأوطن هذا الموضع، وجعله معسكراً له وأقام به، ورتّب قوّاده ورؤساء أصحابه مراتبهم، فجعل نُصَيْرا صاحب الماء في أول العسكر،

وجعل زيرك التركيّ في موضع آخر، وعليّ بن جهشيار حاجبه في موضع آخر وراشداً مولاه في مواليه وغلمانه الأتراك والخزر والروم والديالمة والطبرية والمغاربة والزّنج والفراغنة والعجم والأكراد، محيطاً هو وأصحابه بمضارب أبي أحمد وفساطيطه وسُرادقاته.

وجعل صاعد بن مخلد وزيرَه وكاتبه في جيش آخر من الموالي والغِلْمان، فوق عسكر راشد، وأنزل مسروراً البلخيّ القائد صاحب الأهواز في جيش آخر على جانب من جوانب عسكره، وأنزل الفضلَ ومحمداً بني موسى بن بغا في جانب آخر بجيش آخر، وتلاهما القائد المعروف بموسى، ولَجُّوا في جيشه وأصحابه، وجعل بُغْراجَ التركيّ على ساقته في جيش كثيف بعدّة عظيمة، وعدد جمّ. ورأى أبو أحمد من حال النّاجم وحصانة موضعه وكثرة جمعه ما علم معه أنه لا بدّ له من الصبر عليه، وطول الأيام في محاصرته، وتفريق جموعه، وبذل الأمان لهم، والإحسان إلى مَنْ أناب منهم، والغلظة على مَنْ أقام عَلَى غيّه منهم، واحتاج إلى الاستكثار من الشّذا وما يحارب به في الماء، وشَرَع في بناء مدينة مماثلة لمدينة النّاجم، وأمر بإنفاذ الرسل في حَمْل الآلات والصنّاع من البرّ والبحر، وإنفاذ المِيَر والأزواد والأقوات وإيرادها إلى عسكره بالمدينة التي شرع فيها، وسماها الموفقيّة. وكتب إلى عمّاله بالنّواحي في حَمْل الأموال إلى بيت ماله في هذه المدينة، وألاّ يحمَل إلى بيت المال بالحضْرة درهمٌ واحد، وأنفذ رسلاً إلى سيراف وجَنّابة في بناء الشّذا والاستكثار منها لحاجته إلى أن يبثّها ويفرّقها في المواضع التي يقطع بها المِيرَة عن النّاجم وأصحابه، وأمر بالكتاب إلى عمّاله في إنفاذ كلّ مَنْ يصلح للإثبات والعَرْض في الدواوين، من الجند والمقاتلة، وأقام ينتظر ذلك شهراً أو نحوه، فوردت المِيَر متتابعة، يتلو بعضها بعضاً، ووردت الآلات والصّناع وبُنِيتْ المدينة، وجهّز التّجر صنوف التجارات في الأمتعة، وحملوها إليها، واتخذت بها الأسواق، وكَثُر بها التّجّار والمجهّزون من كلّ بلد، ووردت إليها مراكب من البحر، وقد كانت انقطعت لقطع الناجم وأصحابه سُبُلَها قبل ذلك بأكثر من عشر سنين، وبنى أبو أحمد في هذه المدينة المسجد الجامع، وصلّى بالناس فيه واتخذ دور الضّرب، فضرب بها الدنّانير والدراهم، فجمعت هذه المدينة جميعَ المرافق وسيق إليها صنوف المنافع، حتى كان ساكنوها لا يفقدون فيها شيئاً، مما يوجد في الأمصار العظيمة القديمة، وحملت الأموال وأدرّ العطاء على الناس في أوقاته، فاتّسعوا وحسنت أحوالهم، ورغب الناس جميعاً في المصير إلى هذه والمقام بها.

قال أبو جعفر: وأمر النّاجم بهبوذ بن عبد الوهاب، فعبر والنّاس غارّون في سميريّات إلى طرف عسكر أبي حمزة صاحب الماء، فأوقع به، وقتل جماعةً من أصحابه، وأسر جماعة، وأحرق أكواخاً كانت لهم، وأرسل إبراهيم بن جعفر الهمْدانيّ - وهو من جملة قوّاد النّاجم -

في أربعة آلاف زنجيّ، ومحمد بن أبان المكني أبا الحسين - أخا عليّ بن أبان المهلّبي - في ثلاثة آلاف والقائد المعروف بالدّور في ألف وخمسمائة، ليُغيروا على أطراف عسكر أبي أحمد ويُوقعوا بهم. فنذِر بهم أبو العبّاس، فنهد إليهم في جمْع كثيف من أصحابه، وكانت بينه وبينهم حروب كان الاستظهار فيها كلّها له، واستأمَن إليه جماعة منهم، فخلع عليهم، وأمر أن يوقفوا بإزاء مدينة النّاجم ليعاينهم أصحابُه، وأقام أبو أحمد يكايد النّاجم، ويبذل الأموال لأصحابه تارةً، ويواقعهم ويحاربهم تارة، ويقطع المِيرة عنهم، فسَرَى بهبوذ الزنجي في الأجلاد المنتخبين من رجاله ليلة من الليالي، وقد تأدّى إليه خبر قَيْرَوان ورد للتجّار، فيه صنوف التجارات والأمتعة والمِيَر، فكمن في النخل، فلما ورد القيروان، خرج إلى أهله وهم غارّون، فقتل منهم وأسر، وأخذ ما شاء أن يأخذ من الأموال.

وقد كان أبو أحمد علم بورود ذلك القيْروان، وأنفذ قائداً من قُوّاده لبَذرقته[1] في جمع خفيف، فلم يكن لذلك القائد بيهبوذ طاقة، فانصرف عنه منهزماً.

فلما انتهى إلى أبي أحمد ذلك، غَلظ عليه ما نال الناس في أموالم وتجاراتهم، فأمر بتعويضهم. وأخلف عليهم مثل الذي ذهب منهم، ورتّب على فوهة النهر المعروف بنهر بيان، وهو الذي دخل القيروان فيه جيشاً قوياً لحراسته.

قال أبو جعفر: ثم أنفذ النّاجم جيشاً عليه القائد المعروف بصندل الزنجيّ، وكان صندل هذا - فيما ذكر - يكشف وجوه الحرائر المسلمات ورؤوسهن ويقلبهنّ تقليب الإماء، فإن امتنعت منهنّ امرأة لطم وجهها، ودفعها إلى بعض علوج[2] الزنّج يواقعها، ثم يخرجها بعد ذلك إلى سوق الرقيق فيبيعها بأوكس الثمن، فيسّر الله تعالى قتلَه في وقعة جرت بينه وبين أبي العباس، أسر وأحضِر بين يدي أبي أحمد، فشدّه كتافاً، ورماه بالسهام حتى هلك.

قال أبو جعفر: ثم ندب الناجم جيشاً آخر، وأمره أن يغير على طرف من أطراف عسكر أبي أحمد وهم غارُّون، فاستأمن من ذلك الجيش زنجيّ مذكور، يقال له مهذّب، كان من فرسان الزّنج وشجعانهم، فأتى به إلى أبي أحمد وقت إفطاره، فأعلمَه أنه جاء راغباً في الطاعة والأمان، وأن الزّنج على العبور في ساعتهم تلك إلى عسكره للبيات، وأن المندوبين لذلك

(١) البذرقة: الحراس يتقدمون القافلة. فارسي معرب. المعجم الوسيط، مادة (بذرق).
(٢) العلج: الرجل من كفار العجم. القاموس المحيط، مادة (علج).

أنجادُهم وأبطالُهم، فأمر أبو أحمد أبا العباس ابنَه أن ينهض إليهم في قوّاد عيَّنهم له، فنهضوا، فلما أحسَّ ذلك الجيش بأنهم قد نذِروا بهم، وعرفوا استئمان صاحبهم، رجعوا إلى مدينتهم.

قال أبو جعفر: ثم إن الناجم ندَب أجلّ قوّاده وأكبرهم قدْراً عنده، وهو عليّ بن أبان المهلبيّ، وانتخَب له أهل البأس والجلَد، وأمره أن يبيِّت عسكر أبي أحمد، فعبر في زهاء خمسة آلاف رجل، أكثرهم من الزنج، وفيهم نحو مائتي قائد من مذكوريهم وعظمائهم، فعبَر ليلاً إلى شرقيّ دجْلة، وعزموا على أن يفترقوا قسمين: أحدهما خلف عسكر أبي أحمد والثاني أمَامه، ويغير الّذين أمامه على أصحاب أبي أحمد، فإذا ثاروا إليهم، واستعرت الحرب، أكبَّ أولئك الذين من وراء العسكر على مَن يليهم، وهم مشاغيل بحرب مَن بإزائهم. وقدّر الناجم وعليّ بن أبان أن يتهيّأ لهما من ذلك ما أحبّا، فاستأمن منهم إلى أبي أحمد غلام كان معهم من الملاحين ليلاً، فأخبره خبرهم، وما اجتمعت عليه آراؤهم، فأمر ابنَه أبا العباس والغلمان والقوّاد بالحذر والاحتياط والجدّ، وفرّقهم في الجهتين المذكورتين.

فلمّا رأى الزّنج أنّ تدبيرَهم قد انتقض، وأنه قد فُطِن لهم ونُذِر بهم، كرُّوا راجعين في الطريق الذي أقبلوا فيه، طالبين التخلّص. فسبقهم أبو العباس وزيرك إلى فوّهة النهر له قيادة على السودان الذين بعسكر الموفّق - فأمره أن يعترضَهم، ويقف لهم في طريقهم بأصحابه، فأدركهم وهو في خمسمائة رجل، فواقَعهم وشدّ عَضُده أبو العباس وزيرك بمن معهما، فقتِل من الزنج أصحاب الناجم خلْق كثير، وأسِر منهم كثير، وأفلت الباقون فلحقوا بمدينتهم، وانصرف أبو العباس بالفتح وقد علق رؤوس الزنج في الشَّذَا وصلب الأسارى أحياءً فيها، فاعترضوا بهم مدينتهم ليُرهبوا أصحابهم، فلما رأوهم رعبوا وانكسروا. واتصل بأبي أحمد أن النّاجم مَوّه على أصحابه، وأوهم أن الرؤوس المرفوعة مُثُلٌ مثَّلها لهم أبو أحمد ليراعوا، وأن الأسارى من المستأمنة. فأمر أبو أحمد عند ذلك بجميع الرؤوس والمسير بها إلى إزاء قصر الناجم، والقذف بها في منجنيق منصوب في سفينة إلى عسكره، ففعل ذلك، فلما سقطت الرؤوس في مدينتهم، عرف أولياء القتلى رؤوس أصحابهم، فظهر بكاؤهم وصُراخهم.

قال أبو جعفر: وكانت لهم وقعات كثيرة بعد هذه، في أكثرها ينهزم الزنج ويُظفَر بهم، وطلب وجوهُهم الأمان، فكان ممّن استأمن محمد بن الحارث القائد، وإليه كان حفظ النهر المعروف بَمْنكي، والسور الذي يلي عسكر أبي أحمد، كان خروجه ليلاً مع عدّة من أصحابه، فوصله أبو أحمد بصِلاتٍ كثيرة، وخلع عليه، وحملَه على عدّة دوابّ بحليتها وآلاتها، وأسنى له الرزق.

وكان محمد هذا حاول إخراجَ زوجته معه - وهي إحدى بنات عَمّه - فعجزت المرأة عن اللّحاق به، فأخذها الزّنج فردّوها إلى الناجم، فحبسها مدة، ثم أمر بإخراجها والنّداء عليها في السوق، فبيعت.

وممن استأمن، القائد المعروف بأحمد البرذعيّ كان من أشجع رجالهم، وكان يكون أبداً مع المهلّبيّ.

وكان ممن استأمن مريداً القائد وبرنكوبة وبيلويه، فخلِعت عليهم الخِلَع ووُصلوا بالصلات الكثيرة، وحملوا على الخيول المحلّاة، وأحسن إلى كلّ من جاء معهم من أصحابهم.

قال أبو جعفر: فضاقت المِيَرُ على الناجم وأصحابه، فندب شبلاً القائد وأبا الندى - وهما من رؤساء قوّاده، وقدما أصحابه الّذين يعتمد عليهم ويثق بمناصحتهم - وأمرهما بالخروج في عشرة آلاف من الزنج وغيرهم، والقصدِ إلى نهر الدير ونهر المرأة ونهر أبي الأسد، والخروج مِن هذه الأنهار إلى البطيحة، والغارة على المسلمين وأهل القرى وقطع الطرقات، وأخذ جميع ما يقدرون عليه من الطعام والمِيرَة وحمله إلى مدينته، وقطعه عن الوصول إلى عسكر أبي أحمد. فندَب أبو أحمد لقصدهم مولاه زيرك في جيش كثيف، بعضه في الماء، وبعضه على الظهر، فواقعهم في الموضع المعروف بنهر عمر، فكانت بينه وبينهم حرب شديدة، أسفرت عن انكسارهم وخذلان الله لهم، فأخذ منهم أربعمائة سفينة وأسرى كثيرين، وأقبل بها وبهم، وبالرؤوس إلى عسكر أبي أحمد.

قال أبو جعفر: وندب أبو أحمد ابنه أبا العباس لقصْد مدينة الناجم، والعلوّ عليها، فقصدها من النهر المعروف بالغربي، وقد أعد النّاجم به عليّ بن أبان المهلبيّ، فاستعرت الحرب بين الفريقين، فأمدّ النّاجم علياً بسليمان بن جامع في جمْع كثير من قوّاد الزنج، واتّصلت الحرب، واستأمن كثير من قواد الزنج إلى أبي العباس وامتدّت الحرب إلى بعد العصر، ثم انصرف أبو العباس، فاجتاز في منصرفه بمدينة الناجم، وقد انتهى إلى الموضع المعروف بنهر الأتراك، فرأى في ذلك النهر قلّة من الزّنج الذين يحرسونه، فطمِع فيهم، فقصد نحوهم، وصعد جماعة من أصحابه سورَ المدينة، وعليه فريق من الزّنج، فقتلوا مَنْ أصابوا هناك، ونذِر الناجم بهم، فأنجدَهم بقوّاد من قوّاده، فأرسلَ أبو العباس إلى أبيه يستمدُّه، فوافَى من عسكر أبي أحمد مَنْ خَفّ من الغلمان، فقِويَ بهم عسكرُ أبي العباس.

وقد كان سليمان بن جامع لمّا رأى أنّ أبا العباس قد أوْغَلَ في نهر الأتراك، صَعِد في جمع كثير من الزّنج، ثم استدبرَ أصحاب أبي العباس وهم متشاغلون بحرْب مَن بإزائهم على سور

المدينة، فخرج عليهم من ورائهم وخَفَقَتْ طبولهم، فانكشف أصحابُ أبي العباس وحملت الزّنج عليهم من أمامهم، فأصيب في هذه الوقعة جماعةٌ من غلمان أبي أحمد وقوّاده، وصار في أيدي الزّنج عدّة أعلام ومطارد، وحامَى أبو العباس عن نفسه حتى انصرف سالماً، فأطمعت هذه الوقعة الزّنج وأتباعهم، وشدّت قلوبهم، فأجمع أبو أحمدَ على العبور بجيشه أجمع، وأمر بالاستعداد والتأهُّب، فلما تهيّأ له ذلك عَبَر في آخر ذي الحجة من سنة سبع وستين، في أكثف جمع، وأكمل عُدّة، وفرّق قوّاده على أقطار مدينة الناجم وقصد هو بنفسه ركناً من أركانها، وقد كان النّاجم حَصّنه بابنه الذي يقال له أنكلاي، وكَنَفه بعليّ بن أبان، وسليمان بن جامع، وإبراهيم بن جعفر الهمدانيّ وحفّه بالمجانيق والعرّادات والقسيّ الناوكيّة، وأعدّ فيه الناشبة وجمع فيه أكثر جيشه، فلما التقى الجمعان أمر أبو أحمد غلمانه النّاشبة والرامحة والسُّودان بالدنوّ من هذا الركن، وبينه وبينهم النهر المعروف بنهر الأتراك، وهو نهر عريض غزير الماء، فلما انتهوْا إليه أحجموا عنه، فصِيح بهم، وحُرّضوا على العبور، فعبروه سباحةً، والزّنج ترميهم بالمجانيق والعرّادات والمقاليع والحجارة عن الأيدي، والسهام عن قسيّ اليد، وقسيّ الرِّجْل، وصنوف الآلات التي يرمى عنها، فصبروا على جميع ذلك حتى جاوزوا النهر وانتهوْا إلى السور، ولم يكن لِحقَهم من الفَعَلة مَنْ كان أعدّه لهدمه. فتولّى الغلمان تشعيث السور بما كان معهم من السلاح، ويسّر الله تعالى ذلك، وسهلوا لأنفسهم السبيل إلى علوّه، وحضرهم بعضُ السلاليم التي كانت اتخذت لذلك، فعلوا الركنَ ونصبوا عليه عَلماً عليه مكتوب: «الموفق بالله»، وأكبّت الزنج، فحاربوا أشدّ حرب، وقتل من قوّاد أبي أحمد القائد المعروف بثابت الأسود، رُمِيَ بسهم في بطنه فمات، وكان من جلّة القوّاد، وأحرق أصحابُ الموفق ما على ذلك الركن من المنجنيقات والعرّادات.

وقصد أبو العباس بأصحابه جهةً أخرى من جهات المدينة ليدْخلها من النهر المعروف بمَنْكي، فعارضه عليّ بن أبان في جمع من الزّنج، فظهر أبو العباس عليه، وهزمه، وقتل قوماً من أصابه، وأفلت عليّ بن أبان المهلّبيّ راجعاً، وانتهى أبو العباس إلى نهر مَنْكي وهو يرى أنّ المدخل من ذلك الموضع سهل، فوصل إلى الخندق، فوجده عريضاً منيعاً، فحمل أصحابه أن يعبروه فعبروه، وعبرته الرجّالة سباحة، ووافوا السور فثلمُوا ثُلْمَةً واتسع لهم دخولها فدخلوا، فلقي أوّلهم سليمان بن جامع وقد أقبل للمدافعة عن تلك الناحية، فحاربوه وكشفوه، وانتهوْا إلى النهر المعروف بابن سمعان، وهو نهر سِيق بالمدينة، وصارت الدار المعروفة بدار ابن سمعان في أيديهم، فأحرقوا ما كان فيها وهدموها.

فوقفت الزّنج على نهر ابن سَمْعان، وقوفاً طويلاً ودافعوا مدافعةً شديدة، وشد بعض موالي الموفق على عليّ بن أبان فأدبر عنه هارباً فقبض على مئزره، فحل علي المئزر ونبذه إلى الغلام،

ونجا بعد أنْ أشرف على الهلكة، وحمل أصحاب أبي أحمد على الزنج، فكشفوهم عن نهر ابن سمعان، حتى وافوْا بهم طرَفَ المدينة، وركب النّاجم بنفسه في جمع من خواصّه، فتلقّاه أصحاب الموفّق، فعرفوه وحملوا عليه، وكشفوا مَنْ كان معه حتى أفرد، وقرب منه بعضُ الرجّالة حتى ضرب وجه فرسه بتُرْسِه، وكان ذلك وقتَ غروب الشمس، وحَجَز اللّيل بينهم وبينه وأظلم، وهبّت ريح شمال عاصف، وقوِيَ الجَزْرُ، فلصق أكثر سفن الموفّق بالطين، وحرّض الناجم أصحابه، فثاب[1] منهم جَمْعٌ كثير، فشدّوا على سفن الموفّق، فنالوا منها نيلاً، وقتلوا نفراً، وصمد بهبوذ الزنجيّ لمسرور البلخيّ بنهر الغربيّ فأوقع به، وقتل جماعة من أصحابه، وأسر أسرى، وصار في يده دوابّ من دوابّهم، فكسر ذلك من نشاط أصحاب الموفّق، وقد كان هرب في هذا اليوم كثير من قوّاد صاحب الزّنج، وتفرّقوا على وجوههم نحو نهر الأمير وعبّادان وَغيرهما، وكان ممّن هرب ذلك اليوم منهم أخو سليمان بن موسى الشعرانيّ ومحمد وعيسى، فمضيا يؤمّان البادية، حتى انتهى إليهما رجوعُ أصحاب الموفّق، وما نيل منهم فرجعا، وهرب جماعة من العرب الذين كانوا في عسكر النّاجم، وصاروا إلى البصرة، وبعثوا يطلبون الأمان من أبي أحمد، فأمّنهم، ووجّه إليهم السفُن، وحملهم إلى الموفقيّة، وخلع عليهم، وأجرى لهم الأرزاق والأنزال.

وكان ممن رغب في الأمان من قوّاد الناجم القائد المعروف بريحان بن صالح المغربيّ، وكانت له رياسة وقيادة، وكان يتولّى حجبة أكلانيّ بن الناجم. فكتب ريحان يطلب الأمان لنفسه ولجماعة من أصحابه، فأجيب إلى ذلك، وأنفِذ إليه عدد كثير من الشّذَا والسُّميريّات والمعابر مع زيرك القائد، صاحب مقدّمة أبي العباس، فسلك نهر اليهودي إلى آخره، فألفَى به ريحان القائد ومَنْ كان معه من أصحابه، وقد كان الموعد تقدّم منه في موافاة ذلك الموضع. فسار زيرك به وبهم إلى دار الموفّق، فأمر لريحان بخلع جليلة، وحمِل على عدّة أفراس بآلتها وحليتها، وأجيز بجائزة سنيّة، وخَلع على أصحابه، وأجيزوا على أقدارهم ومراتبهم، وضمّ ريحان إلى أبي العباس، وأمر بحمله وحمل أصحابه والمصير بهم إلى إزاء دار النّاجم، فوقفوا هنالك في الشّذَا، عليهم الخلع الملوّنة بصنوف الألوان والذّهب حتى عاينوهم مشاهدة، فاستأمن في هذا اليوم من أصحاب ريحان الذين كانوا تخلّفوا عنه ومن غيرهم جماعة، فألحِقوا في البرّ والإحسان بأصحابهم.

ثم استأمن جعفر بن إبراهيم المعروف بالسّجّان في أول يوم من سنة ثمان وستين ومائتين،

---

(١) ثاب: رجع. القاموس المحيط، مادة (ثوب).

وكان أحدَ ثقات الناجم، ففعل به من الخلَع والإحسان ما فعل بريحان، وحُمِل في سُميريّة حتى وقف بإزاء قصر الناجم، حتى يراه أصحابه، وكلّمهم وأخبرهم أنهم في غرورٍ من صاحبهم، وأعلمهم ما وقف عليه من كذبه وفجوره، فاستأمن في هذا اليوم خلقٌ كثير من قوّاد الزنج وغيرهم، وتتابع النّاس في طلب الأمان، وأقام أبوأحمد يُجِمّ[1] أصحابَه، ويُداوِي جراحهم، ولا يحارب ولا يعبُر إلى الزّنج إلى شهر ربيع الآخر.

ثم عبر جيشه في هذا الشهر المذكور مرتّباً على ما استصلحه من تفريقه في جهاتٍ مختلفة، وأمرهم بهدْم سور المدينة، وتقدّم إليهم أن يقتصرُوا على الهدْم، ولا يدخلوا المدينة، ووكَّلَ بكلّ ناحية من النواحي الّتي وجّه إليها قوّاده سفناً فيها الرّماة، وأمرهم أن يحمُوا بالسهام من يهدِم السّور من الفَعَلة، فثلمت في هذا اليوم من السور ثلَمٌ كثيرة، واقتحم أصحاب أبي أحمد المدينة من جميع تلك الثّلَم وهزموا مَنْ كان عليها من الزّنج، وأوْغلوا في طلَبهم، واختلف بهم طرق المدينة، وتفرّقت بهم السّكَك والفِجَاج، وانتهوْا إلى أبعد من المواضع التي كانوا وصلوا إليها في المرّة التي قبلها، فتراجعت إليهم الزّنج، وخَرَج عليهم كمناؤهم من نواحٍ يهتدون إليها، ولا يعرفها جيش أبي أحمد. فتحيّر جيش أبي أحمد، فقتِل منهم خلق كثير، وأصاب الزّنج منهم أسلحة وأسلاباً، وأقام ثلاثون ديلميًا من أصحاب أبي أحمد يُدافعون عن النّاس ويحمونهم، حتّى خَلَص إلى السفن مَنْ خَلَص، وقتلت الديالمة عن آخرها، وعظُم على الناس ما أصابهم في هذا اليوم، وانصرف أبو أحمد إلى مدينته الموفقيّة، فجمع قوّاده، وعَذَلهم على ما كان منهم من مخالفة أمره، والإفساد عليه في رأيه وتدبيره، وتوعّدهم بأغلظ العقوبة إن عادوا لمثل ذلك، وأمر بإحصاء المقتولين من أصحابه، فأتِيَ بأسمائهم، فأقرّ ما كان جارياً لهم على أولادهم وأهاليهم، فحسُن موقع ذلك، وزاد في صحة نيّات أصحابه، لما رأوا من حياطته خلف مَنْ أصِيب في طاعته.

قال أبو جعفر: وشرع أبو أحمد في قطع المِيرة عن مدينة النّاجم من جميع الجهات، وقد كان يجلَب إليهم من السّمك الشيء العظيم من مواضع كثيرة، فمنِع ذلك عنهم، وقتِل القومُ الّذين كانوا يجلبونه، وأخذِتْ عليهم الطُّرق، وانسدّ عليهم كلّ مسلَكٍ كان لهم، وأضرّ بهم الحصار، وأضعف أبدانَهم وطالت المدّة، فكان الأسير منهم يؤسَر، والمستأمِن يستأمِن، فيُسأل عن عهده بالخبز، فيقول: مذ سنة أو سنتين، واحتاج مَنْ كان منهم مقيماً في مدينة النّاجم إلى الحيلة لقوّته، فتفرقوا في الأنهار النائية عن عسكرهم طلباً للقوت، وكَثُرت الأسارى منهم في عسكر أبي أحمد، لأنه كان يلتقطهم بأصحابه يوماً فيوماً، فأمر باعتراضهم لمّا رأى

---

(١) جَمَّ يَجِمُّ: كثر واجتمع. القاموس المحيط، مادة (جمم).

كثرتهم، فَمنْ كان منهم ذاقوّة وجَلَدٍ ونهوضٍ بالسّلاح منّ عليه، وأحسن إليه، وخلَطه بغِلْمانه السّودان، وعرّفهم ما لهم عنده من البرّ والإحسان ومَنْ كان منهم ضعيفاً لا حراك به، أو شيخاً فانياً لا يُطيق حَمْل السلاح، أو مجروحاً جراحة قد أزمنتْه، أمرَ بأن يكسَى ثوبين، ويوصَل بدراهم، ويزوّد ويحمل إلى عسكر النّاجم، فيلقى هناك بعد أن يوصى بوصف ما عاين من إحسان أبي أحمد إلى كلّ مَنْ يصير إليه، وأنّ ذلك رأيه في جميع مَنْ يأتيه مستأمناً، أو يأسره، فتهيّأ له بذلك ما أراد من استمالة الزّنج، حتى استشعروا الميلَ إلى ناحيته، والدخولَ في سِلْمه وطاعته.

قال أبو جعفر: ثم كانت الوقعة التي قتِل فيها بهبوذ الزنجي القائد وجرح أبو العباس، وذلك أن بهبوذ كان أكثرَ أصحاب الناجم غاراتٍ، وأشدّهم تعرّضاً لقطع السُّبل، وأخذ الأموال، وكان قد جمع من ذلك لنفسه مالاً جليلاً، وكان كثير الخروج في السُّميريّات الخِفَاف، فيخترق بها الأنهار المؤدّية إلى دجْلة، فإذا صادف سفينةً لأصحاب أبي أحمد أخذَها واستولَى على أهلها، وأدخلها النّهر الذي خرج منه، فإنْ تبعه تابع حتى توغّل في طلبه، خرج عليه من ذلك النّهر قومٌ من أصحابه، قد أعدّهم لذلك، فأقطعوه وأوقعوا به.

فوقع التحرُّز حينئذ منه، والاستعداد لغاراته، فركب شذاةً، وشبّهها بشذوات أبي أحمد، ونصب عليها علماً مثل أعلامه، وسار بها ومعه كثير من الزّنج، فأوقع بكثير من أصحاب أبي أحمد، وقَتَل وأسر. فندَب له أبو أحمد ابنَه أبا العباس في جمعٍ كثيف، فكانت بينهما وَقْعةٌ شديدة، ورُمِي فيها أبو العباس بسهْم فأصابه، وأصابت بهبوذ طَعنةٌ في بطنه من يدِ غلام من بعض سُميريّات أبي العباس، فهوَى إلَى الماء، فابتدره أصحابه، فحملوه ورجعوا به إلى عسكر النّاجم، فلم يصلوا به إلاّ وهو ميت، فعظمت الفجيعة به على الناجم وأوليائه، واشتدّ عليه جزعهم، وخفيَ موته على أبي أحمد، حتى استأمن إليه رجلٌ من الملاحين، فأخبره بذلك، فسرّ، وأمر بإحضار الغلام الذي طعنه، فوصله وكساه وطوّقه، وزاد في رزقه. وأمر لجميع مَنْ كان في تلك السُّميريّة بصِلات وخِلعَ، وعولج أبو العباس مِنْ جُرْحِه مدّة حتى برأ، وأقام أبو أحمد في مدينته الموفقيّة ممسِكاً، عن حرب الزّنج، محاصراً لهم بسدّ الأنهار وسَكْرِها، واعتراض من يخرج منهم لجلب الميرة، ومنتظراً برء ولده، حتى كَمَل بعد شهور كثيرة، وانقضت سنة ثمان وستين.

ونُقل إسحاق بن كنداجيق عن البصرة وأعمالها، فوُلّي الموصلَ والجزيرة وديار ربيعة وديار مُضر.

ودخلت سنة تسع وستين وأبو أحمد مقيمٌ على الحصار، فلما أمِنَ على أبي العباس، وركب على عادته، عاود النهوضَ إلى حرب النّاجم.

قال أبو جعفر: وقد كان بهبوذ لَمّا هلك طمِعَ الناجم في أمواله لكثرتها ووفورها، وصحَّ عنده أنه تركَ مائتي ألف دينار عيناً، ومن الجواهر وغيرها بمثلِ ذلك، فطلب المالَ المذكور بكلّ حيلة، وحبَسَ أولياء بهبوذ وقرابته وأصحابَه، وضربهم بالسياط، وأثار دوراً من دوره، وهدم أبنيةً من أبنيته، طمعاً في أن يجد في شيء منها دفيناً، فلم يجد من ذلك شيئاً، فكان فعله هذا أحدَ ما أفسدَ قلوب أصحابه عليه، ودعاهم إلى الهرب منه، والزهد في صحبته، فاستأمَن منهم إلى أبي أحمد خلقٌ كثير، فوصَلَهم وخلع عليهم، ورأى أن يعبُر دجلة من الجانب الشرقيّ إلى الجانب الغربيّ، فيجعل لنفسه هناك معسكراً، ويبني به مدينةً أخرى، ويضيق خناق الناجم، ويتمكّن من مغاداته ومراوحته بالحرب، فقد كانت الريح العاصف تحولُ بينه وبين عبور دجْلة في كثير من الأيام بالجيش، فأمر بقطع النخل المقارب لمدينة النّاجم لذلك، وإصلاح موضع يتخذه معكسراً، وأن يحفّ بالخنادق، ويحصر بالسور ليأمن بَيّات الزّنج، وجعل على قوّاده نوائب لذلك، ومعهم الفعلة والرجال، فقابل الناجم ذلك، بأن جعلَ عليّ بن أبان المهلبي وسليمان بن جامع وإبراهيم بن جعفر الهمدانيّ نُوَباً للحرب والمدافعة عن ذلك، وكان أنكلانيّ بن الناجم ربّما حضر في نَوْبة أيضاً، وضمّ إليه سليمان بن موسى بن الشعرانيّ، وقد كان صار إليه من المذار بعد الوقعة التي انهزم فيها، وعلم الناجم أنّ أبا أحمد إذا جاوره صعُب أمره، وقرُب على مَنْ يريد اللّحاق به من الزّنج المسافة مع ما يدخل قلوب أصحابه بمجاورته من الرّعب والرهبة، وفي ذلك انتقاض تدبيره، وفساد جميع أموره، فكانت الحرب بين قوّاد أبي أحمد وقوّاد الناجم متّصلة، على إصلاح هذا الموضع، ومدافعة الزّنج عنه.

واتفق أن عصفت الرياح يوماً وجماعة من قوّاد أبي أحمد بالجانب الغربي للعمل الذي يريدونه، فانتهز الناجم الفرصة في امتناع العبور بدَجْلة، لعصف الريح، فرماهم بجميع جيشه، وكاثرهم برَجله، فلم تجد الشّذوات التي مع قوّاد أبي أحمدَ سبيلاً إلى الوقوف بحيث كانت واقفة به، لحمل الرياح إياها على الحجارة، وخوّف أصحابها عليها من التكسّر، ولم يجدوا سبيلاً إلى العبور في دِجْلة، لشدّة الريح واضطراب الأمواج، فأوقعت الزّنج بهم، فقتلوهم عن آخرهم، وأفلت منهم نفر، فعبَرُوا إلى الموفقيّة، فاشتدّ جزع أبي أحمد وأصحابه لما نالهم، ولما تهيّأ للزّنج عليهم، وعظُم بذلك اهتمامهم. وتعقّب أبو أحمد الراي، فرأى أنّ نزوله ومقامه بالجانب الغربيّ، مجاور مدينة النّاجم خطأ، وأنه لا يؤمن منه حيلة، وانتهاز فرصة، فيوقع بالعسكر بياتاً، أو يجد مساغاً إلى ما يكون له قوة، لكثرة الأدغال في ذلك الموضع، وصعوبة المسالك، وأنّ الزّنج على التوغّل في تلك المواضع الوعرة الموحشة أقدَرُ وهو عليهم أسهل من أصحابه، فانصرف عن رأيه نزول الجانب الغربيّ، وصرف همّه وقصده إلى هدم سور مدينة الناجم، وتوسِعة الطريق والمسالك لأصحابه في دخولها، فندب القوّاد لذلك، وندب الناجم قوّاده للمدافعة عنها، وطال الأمَد، وتمادت الأيّام.

فلما رأى أبو أحمد تحاشُد الزَّنج وتعاوُنَهم على المنع من هدم السُّور، أزمَع على مباشرة ذلك بنفسه، وحضوره إياه، ليستدعيَ بذلك جِدّ أصحابه واجتهادهم، ويزيد في عنايتهم وهِمَمِهم، فحضر بنفسه، واتّصلت الحرب، وغلُظت على الفريقين، وكَثُرَ القتل والجراح في الحزبين، وأقام أبو أحمد أياماً كثيرة يُغاديهم الحرب ويراوحهم، فكانوا لا يفتُرون يوماً من الأيام، وصعُب على أصحاب أبي أحمد ما كانوا يرومونه، واشتدّت حماية الزنج عن مدينتهم، وباشر النّاجم الحرب بنفسه، ومعه نخبة أصحابه وأبطالهم، والمؤمّنون أنفسَهم على الصَّبْر معه، فحامَوْا جهدَهم، حتى لقد كانوا يقفون الموقف فيصيب أحداً منهم السَّهم أو الطعنة أو الضَّربة فيسقط، فيجذبه الّذي إلى جانبه، فينحّيه، ويقف موقفه إشفاقاً من أن يخلُوَ موقفُ رجلٍ منهم، فيدخِل الخللَ عليهم.

واتفق في بعض الأيّام شدّة ضباب ستر بعضَ الناس عن بعض، فما يكاد الرجل يبصر صاحبه، وظهر أصحاب أبي أحمد، ولاحتْ تباشيرُ الفتح، ودخل الجندُ إلى المدينة وولَجوها، وملكوا مواضع منها، وإنّهم لعلى ذلك، حتى وصل سهم من سهام الزَّنج إلى أبي أحمد، رماه به روميّ كان مع الناجم، يقال له قِرْطاس، فأصابه في صدره وذلك لخمس بقين من جمادى الأولى سنة تسع وستين ومائتين. فستر أبو أحمد وخواصّه ما ناله من ذلك عن الناس، وانصرف إلى الموفقيّة آخرَ نهار يومه هذا، فعولج في ليلته تلك وشدّت الجراحة، وغدا على الحرب على ما ناله من ألمها ليشدّ بذلك قلوبَ أصحابه من أن يدخلها وهنٌ أو ضعف، فزاد في قوّة علّته، بما حمل على نفسه من الحركة، فغلظت وعظم أمرها، حتى خيف عليه العَطَب، واحتاج إلى علاج نفسه بأعظم ما يعالَج به الجراح، واضطرب لذلك العسكرُ والجند والرعيّة، وخافوا قوّة الزّنج عليهم، حتى خرج عن الموفّقيّة جماعة من التجّار كانوا مقيمين بها لما وصل إلى قلوبهم من الرهبة.

قال أبو جعفر: وحدثت على أبي أحمد في حال صعوبة علّته، حادثة في سلطانه وأمور متعلّقة بما بينه وبين أخيه المعتمد، فأشار عليه مشيرون من أصحابه وثقاته بالرّحلة عن معسكره إلى بغداد، وأن يخلّف مَنْ يقوم مقامه، فأبى ذلك، وحاذر أن يكون فيه تلافي ما قد فُرّق من شمل صاحب الزّنج، فأقام على صعوبة علّته، وغلظ الأمر الحادث في سلطانه وصبر إلى أن عُوفِيَ، فظهر لقوّاده وخاصّته، وقد كان أطال الاحتجابَ عنهم، فقويتْ برؤيته مُنّتُهم، وأقام متماثلاً مودّعاً نفسه إلى شعبان من هذه السنة، فلما أبَلّ[1] وقوِيَ على الركوب والنهوض،

(١) أبل من مرضه: حَسُنَت حاله بعد الهزال. القاموس المحيط، مادة (بلل).

نهض وعاود ما كان مواظباً عليه من الحرب، وجعل النّاجم لما صحّ عنده الخبر بما أصاب أبا أحمد يَعِدُ أصحابَه العِدَات، ويمنّيهم الأمانيّ، واشتدّت شوكتهم، وقويَتْ آمالهم، فلما اتّصل به ظهور أبي أحمد، جعل يحلِف للزّنج على منبره، أنّ ذلك باطل لا أصلَ له، وأنّ الذي رأوْه في الشّذا مثالٌ مُوّه وشبّه عليهم.

قلت: الحادث الذي حدث على أبي أحمد من جهة سلطانه، أنّ أخاه المعتمد، وهو الخليفة يومئذ، فارقَ دار ملكه، ومستقرّ خِلافته مغاضِباً له متجنّياً عليه، زاعماً أنه مستبدٌّ بأموال المملكة وجبايتها، مضطهد له مستأثر عليه، فكاتب ابن طولون صاحب مصر، وسأله أن يأذنَ له في اللّحاق به، فأجابه ابنُ طولون إلى ذلك، فخرج من سامُرّاء في جماعة من قوّاده ومواليه، قاصداً مصر. وكان أبو أحمد هو الخليفة في المعنى، وإنّما المعتمد صورةٌ خالية من معاني الخلافة، لا أمرَ له ولا نهي، ولا حلّ ولا عَقْد، وأبو أحمد هو الذي يرتّب الوزراء والكتّاب، ويقوّد القوّاد، ويقطع الأقطاع، ولا يراجِع المعتمدَ في شيء من الأمور أصلاً، فاتّصل به خبر المعتمد في شخوصه عن سامُرّاء، وقصده ابن طولون، فكاتب إسحاق بن كنداجيق وهو يومئذ على الموصل والجزيرة، فأمره أن يعترضَ المعتمد، ويقبض عليه وعلى القوّاد والموالي الذين معه ويعيدَهم إلى سامُرّاء، وكتب لإسحاق بإقطاعه ضِياع أولئك القوّاد والموالي بأجمعهم، فاعترضهم إسحاق، وقد قَرُبوا من الرّقة، فأخذهم وقبض عليهم، وقيّدهم بالقيود الثقيلة، ودخل على المعتمد فعنّفه، وهجّنه وعَذَله في شخوصه عن دار ملكه وملك آبائه، ومفارقة أخيه على الحال التي هو بها، وحرب مَنْ يحاول قتلَه، وقتْل أهلِ بيته وزوال ملكهم.

ثم حملهم في قيودهم حتى وافَى بهم سامراء، فأقرّ المعتمد على خلافته، ومنعه عن الخروج، وأرسل أبو أحمد ابنَه هارون، وكاتبه صاعد بن مخلد من الموفقية إلى سامراء فخلعا على ابن كنداجيق، خِلعاً جليلة، وقلّد بسيفين من ذهب، ولُقّب ذا السيفين، وهو أول مَنْ قُلّد بسيفين، ثم خلع عليه بعد ذلك بيوم قباء دِيباج أسود، ووِشاحيْن مرصّعين بالجوهر الثمين، وتوّج بتاج من ذهب مرصع بنفيس الجوهر، وقلّد سيفاً من ذهب مرصّع بالجواهر العظيمة، وشيّعه إلى منزله هارون وصاعداً، وقعدا على طعامه، كلّ ذلك مكافأة له عن صنيعه في أمر المعتمد، فليعجب المتعجّب من همّة الموفق أبي أحمد، وقوّة نفسه، وشدّة شكيمته! أن يكون بإزاء ذلك العدوّ، ويقتل من أصحابه كلّ وقتٍ مَنْ يقتل، ثم يصاب ولده بسهم، ويصاب هو بسهم آخر في صدره يشارف منه على الموت، ويحدث من أخيه وهو الخليفة ما يحدُث، ولا تنكسِر نفسه ولا يَهِي عزمُه، ولا تضعف قوّته. ويحقّ ما سمّيَ المنصورَ الثاني! ولولا قيامُه في حرب الزّنج، لانقرض مُلْك أهلِ بيته، ولكنّ الله تعالى ثبّته لما يريده من بقاء هذه الدولة.

قال أبو جعفر: ثم جدّ الموفّق في تخريب السّور، وإحراق المدينة، وجدّ الناجم إعداد المقاتلة والدفاع عن سُورِه ومدينته، فكانت بين الفريقين حروب عظيمة تجلّ عن الوصف، ورمى النّاجم سفنَ الموفّق المقاربة لسور مدينته بالرّصاص المذاب، والمجانيق والعرّادات، وأمر أبو أحمد بإعداد ظلّة من خشب [للشذا] وإلباسها جلودَ الجواميس، وتغطية ذلك بالخيوش المطليّة بصنوف العقاقير والأدوية التي تمنع النار من الإحراق، ففعل ذلك، وحُورب صاحب الزنج من تحتها، فلم تعمل نارُه ورصاصُه المذاب فيها شيئاً، واستأمن إلى أبي أحمد محمدُ بن سمعان، كاتب الناجم ووزيره في شعبان من هذه السنة، فهدّ باستئمانه أركانَ الناجم، وأضعف قوّته، وانتدب أبو العباس لقصد دار محمد بن يحيى الكرنبائيّ، وكانت بإزاء دار الناجم، وشرع في الحيلة في إحراقها، وأحرق الموفّق كثيراً من الرواشين[1] المظِلّة على سور المدينة وشعثها، وعلا غلمانُ أبي أحمد على دار النّاجم وولجوها وانتهبوها، وأضرموا النّار فيها، وفعل أبو العباس بدار الكرنبائي مثلَ ذلك، وجرح أنكلاني بن النّاجم في بطنه جراحة شديدة، أشفى منها على التّلف، واتّفق مع هذا الظفر العظيم أن غرِق أبو حمزة نُصَيْر صاحب جيش الماء عند ازدحام الشّذَوات وإكباب الزّنج على الحرب، فصعُب ذلك على أبي أحمد، وقوِيَ بغرقه أمر الزّنج، وانصرف أبو أحمد آخر نهار هذا اليوم، وعَرَضت له عِلّة أقام فيها بقيّة شعبان وشهر رمضان، وأيّاماً من شوال ممسِكاً عن حَرْب الزّنج، إلى أن استبلّ من علته.

قال أبو جعفر: فلما أحرقت دار النّاجم ودُور أصحابه، وشارفَ أن يؤخذ، وعرضت لأبي أحمد هذه العلّة، فأمسك فيها عن الحرب، انتقل النّاجم من مدينته التي بناها بغربيّ نهر أبي الخصيب إلى شرقيّه إلى منزل وَعْرٍ لا يخلُص إليه أحد لاشتباك القَصب والأدغال والأحطاب فيه، وعليه خنادق من أنها قاطعة معترضة، فقطن هناك في خواصّ ومَنْ تخلّف معه من جلّة أصحابه وثقاته، ومَنْ بقي في نُصْرته من الزّنج، وهم حدود عشرين ألف مقاتل، وانقطعت المِيرّة عنهم، وبان للناس ضعف أمرهم، فتأخرّ الجلَب الذي كان يصل إليهم، فبلغ الرطل من خبز البُرّ عندهم عشرة دراهم، فأكلوا الشعير، ثم أكلوا أصناف الحبوب، ثم لم يزل الأمر كذلك إلى أن كانوا يتبّعون الناس، فإذا خلا أحدٌ منهم بصبيّ أو امرأة أو رجل ذبحوه وأكلوه. ثم صار قويّ الزّنج يعدُو على ضعيفِهم، فإذا خلا به ذبحه وأكل لحمه، ثم ذبحوا أولادَهم، فأكلوا لحومَهم، وكان النّاجم لا يعاقب أحداً ممن فعل شيئاً من ذلك إلا بالحبس، وإذا تطاول حبسُه أطلقه.

---

(١) الروشن: الكوة. القاموس المحيط، مادة (رشن).

ولما أبلّ الموفّق من علّته، وعلم انتقال الناجم إلى شرقي نَهر أبي الخصيب واعتصامه به، أعمل فكرَه في تخريب الجانب الشرقيّ عليه، كما فعل بالجانب الغربيّ، ليتمكّن من قتله أو أسره، فكانت له آثار عظيمة من قطع الأدغال والدِّحال[1] وسدّ الأنهار، وطمّ الخنادق، وتوسيع المسالك وإحراق الأسوار المبنية، وإدخال الشّذَا، وفيها المقاتلة إلى حريم الناجم، وفي كلّ ذلك يدافع الزّنجُ عن أنفسهم بحرب شديدة، وقتال عظيم تذهب فيها النفوس، وتُراق فيها الدماء، وكان الظّفر في ذلك كلّه لأبي أحمد، وأمْر الزّنج يزداد ضعفاً وطالت الأيام على ذلك، إلى أن استأمن سليمان بن موسى الشعرانيّ، وهو من عظمائهم، وقد تقدّم ذكره، فوجّه يطلب الأمان من أبي أحمد، فمنعه ذلك لما كان سَلفَ منه من العيْثِ وسفْك الدماء بنواحي واسِط.

ثم اتّصل بأبي أحمد أنّ جماعةً من رؤساء الزّنج قد استوحشوا لمنعه الشّعرانيّ من الأمان، فأجاب إلى إعطائه الأمان استصلاحاً بذلك غيرَه من رؤساء الزّنج، وأمر بتوجيه الشّذا إلى موضِع وَقّع الميعاد عليه، فخرج سليمان الشعرانيّ وأخوه، وجماعة من قوّاده، فنزلوا الشّذا، فصاروا إلى أبي العباس، فحملهم إلى أبي أحمد، فخلع على سليمان ومَنْ معه، وحَمَله على عِدّة أفراس بسروجها وآلتها، وأنزل له ولأصحابه أنزالاً سنيّة، ووصله بمال جليل، ووصل أصحابه، وضمّه وضمّهم إلى أبي العباس، وأمر بإظهاره وإظهارهم في الشذا لأصحاب النّاجم، ليزدادوا ثقة بأمانته، فلم تبرح الشّذَا ذلك اليوم من موضعها، حتى استأمن جمع كثير من قواد الزّنج فوصلوا وألحقوا بإخوانهم، في الحِبَاء والبِرّ والخلع، والجوائز، فلما استأمن الشعرانيّ اختلّ ما كان النّاجم قد ضبطه به من مؤخر عسكره، وقد كان جعله على مؤخر نهر أبي الخصيب، فوهَى أمره وضعف، وقلّد ما كان سليمان يتولاّه القائد المعروف بشبل بن سالم - وهو من قوّادهم المشهورين - فلم يمسِ أبو أحمد حتى وافاه رسول شِبْل بن سالم يطلب الأمان، ويسأل أن يوقف له شَذَوات عند دار ابن سمعان، ليكون قصده فيَ الليل إليها، ومعه مَنْ يثقُ به من أصحابه، فأجيب إلى سؤاله، ووافَى آخر الليل ومعه عياله وولده، وجماعة من قُوّاده، فصاروا إلى أبي أحمد، فوصَله بصِلةٍ جليلة، وخلعَ عليه خِلَعاً كثيرة، وحمله على عِدّة أفراس بسروجها وآلتها، ووصل أصحابه، وخلَع عليهم، وأحسن إليهم، وأرسله في الشّذَوات، فوقفوا بحيث يراهم النّاجم وأصحابه نهاراً، فعظُم ذلك عليه وعلى أوليائه، وأخلص شبل في مناصحة أبي أحمد، فسأل أنْ يضمّ إليه عسكراً يبيّت به عسكر النّاجم، ويسلك إليه مِنْ مسالكَ يعرفها هو ولا يعرفها أصحاب أبي أحمد، ففعل وكَبَس عسكر النّاجم سَحَراً، فأوقع بهم وهم غارُّون، فقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر جمْعاً من قوّاد الزّنج وانصرف

(١) الدحل: ثقب ضيق فمه متّسع أسفله حتى يُمشى فيه. القاموس المحيط، مادة (دحل).

بهم إلى الموفّق، وذُعر الزّنج من شبل وما فعله، فامتنعوا من النّوم، وخافوا خوفاً شديداً، فكانوا يتحارسون بعد ذلك في كلّ ليلة، ولا تزال النُّفْرة تقع في عسكرهم، لما استشعروا من الخوف، ووصل إلى قلوبهم من الوحشة، حتى لقد كان ضجيجُهم وتحارُسهم يسمع بالموفقيّة.

وصحّ عزم الموفّق على العبور لمحاربة الناجم في الجانب الشرقيّ من نهر أبي الخصيب، فجلس مجلساً عاماً، وأمر بإحضار قوّاد المستأمنة ووجوه فرسانهم ورجّالتهم من الزّنج والبيضان فأدخلوا إليه، وعرّفهم ما كانوا عليه من الضلالة والجهل، وانتهاك المحارم، وما كان صاحبهم زيّنه لهم من معاصي الله سبحانه، وأنّ ذلك قد كان أحلّ له دماءهم، وأنه قد غفر الزّلّة وعفا عن العقوبة، وبذل الأمان، وعاد على من لجأ إليه بالفضل والإحسان فأجزل الصّلاتِ، وأسنى الأرزاق، وألحقهم بالأولياء وأهل الطاعة، وأنّ ما كان منه من ذلك يُوجب عليهم حقّه وطاعته، وأنهم لن يأتوا بشيء يتعرّضون به لطاعة ربِّهم، والاستدعاء لرضا سلطانهم أوْلَى بهم من الجدّ في مجاهدة الناجم وأصحابه، وأنّهم من الخبرة بمسالك عسكر النّاجم ومضايق طرق مدينته، والمعاقل التي أعدّها للحرب على ما ليس عليه غيرُهم، فهم أحرى أن يمحَضُوه نصحَهم، ويجهدوا على الولوج إلى الناجم، والتوغّل إليه في حصونه، حتى يمكّنَهم الله منه ومن أشياعه، فإذا فعلوا ذلك فلهم الإحسان والمزيد، ومن قصّر منهم استدعى من سلطانه إسقاط حاله، وتصغيرَ منزلته ووضعَ مرتبته.

فارتفعت أصواتهم جميعاً بالدّعاء للموفّق والإقرار بإحسانه، وبما همّ عليه من صحّة الضمائر من السّمْع والطاعة والجدّ في مجاهدة عدوّه، وبذل دمائهم ومُهَجهم في كلّ ما يقرِّبهم منه، وأنّ ما دعاهم إليه قد قوّى مِنَنهم، ودلّهم على ثقته بهم، وإحلاله إياهم محلّ أوليائه، وسألوه أن يفردهم ناحيةً، ولا يخلطهم بعسكره، ليظهر من حُسْن جهادهم بين يديه، وخلوص نياتهم في الحرب، ونكايتهم في العدوّ ما يعرف به طاعتهم، وإقلاعهم عَمّا كانوا عليه من جهلهم.

فأجابهم إلى ذلك، وعرّفهم حسنَ ما ظهر له من طاعتهم فخرجوا من عنده مبتهجين بما أجيبوا به من حسن القول وجميل الوعد.

قال أبو جعفر: ثم استعدّ أبو أحمد ورتّب جيشه، ودخل إلى عسكر النّاجم بشرقيّ نهر أبي الخصيب في خمسين ألف مقاتل، من البرّ والبحر، فرساناً ورجّالة، يكبّرون ويهلّلون ويقرؤون القرآن، ولهم ضجيج وأصوات هائلة. فرأى الناجم منهم ما هاله وتلقّاهم بنفسه وجيشه، وذلك في ذي القعدة سنة تسع وستين ومائتين.

واشتبكت الحرب، وكثر القتل والجراح، وحامَى الزّنج عن صاحبهم وأنفسهم أشد محاماة، واستماتوا، وصبر أصحاب أبي أحمد، وصدقوا القتال، فمنّ الله عليهم بالنصر، وانهزم الزّنج، وقتِل منهم خَلقٌ عظيم، وأسِر منهم أسرى كثيرة، فضرب أبو أحمد أعناق الأسارى في المعركة، وقصد بنفسه دار النّاجم، فوافاها وقد لجأ الناجم إليها، ومعه أمجاد أصحابه للمدافعة عنه.

فلما لم يُغنوا شيئاً أسلموها، وتفرّقوا عنها، ودخلها غلمان الموفّق، وبها بقايا ما كان سلم له من مال وأثاث، فأخذوه وانتهبوه، وأخذوا حُرَمه وولده الذكور والإناث، وتخلّص الناجم بنفسه، ومضى هارباً نحو دار عليّ بن أبان المهلبيّ، لا يلوي على أهل ولا ولدٍ ولا مالٍ، وأحرقت دارُه، وحمل أولاده ونساؤه إلى الموفّقية في التوكيل، وقصد أصحاب أبي أحمد دار المهلبي، وقد لجأ إليها الناجم وأكثر الزّنج، وتشاغل أصحاب أبي أحمد بنهب الأموال من دور الزنج، فاغتنم الناجم تشاغلَهم بالنهب، فأمر قوّاده بانتهاز الفرصة، والإكباب عليهم، فخرجوا عليهم من عدّة مواضع، وخرج عليهم كُمناء أيضاً قد كانوا كمنوهم لهم، فكشفوهم واتّبعوهم حتى وافوْا بهم نهر أبي الخصيب، فقتلوا من فُرسانهم ورجّالتهم جماعة، وارتجعوا بعض ما كانوا أخذوه من المال والمتاع.

ثم تراجع الناس، ودامت الحرب إلى وقت العصر، فرأى أبو أحمد عند ذلك أن يصرِفَ أصحابه، فأمرهم بالرّجوع فرجعوا على هدوء وسكون، كي لا تكون هزيمة، حتى دخلوا سفنهم، وأحجم الزنج عن اتّباعهم، وعاد أبو أحمد بالجيش إلى مراكزهم.

قال أبو جعفر: ووافَى إلى أبي أحمد في هذا الشهر كاتبُه صاعد بن مخلد من سامُرّاء في عشرة آلاف، ووافَى إليه لؤلؤ صاحب ابن طولون - وكان إليه أمرُ الرَّقة وديار مُضَر - في عشرة آلاف من نُخبة الفرسان وأنجادهم، فأمر أبو أحمد لؤلؤاً أن يخرج في عسكره فيحارب الزنج، فخرج بهم ومعه من أصحاب أبي أحمد مَنْ يدلّه على الطرق والمضايق، فكانت بين لؤلؤ وبين الزنج حرب شديدة في ذي الحجّة من هذه السنة، استظهر فيها لؤلؤ عليهم، وبان مِن نجدته وشجاعته وإقدام أصحابه، وصبرهم على ألم الجراح وثبات قلوبهم ما سرّ أبا أحمد وملأ قلبه.

قال أبو جعفر: فلما دخلت سنة سبعين ومائتين، تتابعت الأمداد إلى أبي أحمد من سائر الجهات، فوصل إليه أحمدُ بن دينار في جَمْع عظيم من المطّوعة، من كُور الأهواز ونواحيها، وقدِم بعده من أهل البحرين جمعٌ كثير من المطّوعة زُهاء ألفي رجل، يقودهم رجلٌ من عبد القيْس، وورد بعد ذلك زُهاء ألف رجل من فارس، ورئيسهم شيخ من المطّوعة يكنى أبا سلمة،

وكان أبو أحمد يجلس لكلّ مَنْ يرد ويخلَع عليه، ويقيم لأصحابه الأنزال الكثيرة، ويصلهم بالصِّلات، فعظُم جيشه جدًّا، وامتلأت بهم الأرض، وصحّ عزمه على لقاء النّاجم بجميع عسكره، فرتّب جيوشه، وقسَّمهم على القوّاد، وأمر كلّ واحدٍ من القوّاد أن يقصد جهة من جهات معكسر الناجم عيّنها له، وركب بنفسه، وركب جيشه، وتوغلّوا في مسالك شرقيّ نهر أبي الخصيب، ولقيَهم الزنج، وقد حشدوا واستقبلوا، فكانت بينهم وَقعة شديدة، منحهم الله تعالى فيها أكتاف الزنج، فولّوا منهزمين، فاتّبعهم أصحابُ أبي أحمد يقتلُون ويأسِرون، فقتِلَ منهم كثير، وغرِق كثير، وحوَى أصحابُ أبي أحمد معسكر الناجم ومدينته، وظفروا بعيال عليّ بن أبان المهلبيّ وداره وأمواله، فاحتَوَوْا عليه، وعَبَر أهلُه وأولادُه إلى الموفّقية مع كلابهم، ومضى النّاجم ومعه المهلبيّ وابنه أنكلانيّ، وسليمان بن جامع، والهمدانيّ وجماعة من أكابر القوّاد، عامدين إلى موضع كان النّاجم قد أعدّه لنفسه ملجأ إذا غُلِب على مدينته وداره في النهر المعروف بالسفيانيّ، فتقدم أبو أحمد ومعه لؤلؤ قاصدين هذا النهر، لأن أبا أحمد دلّ عليه، فأوْغل في الدّخول وفقده أصحابه، فظنوا أنه رجع، فرجعوا كلهم، وعَبَرُوا دجْلة في الشّذَا ظانّين أنه عبر راجعاً، وانتهى أبو أحمد ومعه لؤلؤ، قاصدين هذا النهر، فاقتحمه لؤلؤ بفَرَسه، وعبَر أصحاب لؤلؤ خلْفه.

ووقف أبو أحمد في جماعة من أصحابه عند النّهر، ومضى النّاجم هارباً، ولؤلؤ يتبعه في أصحابه، حتى انتهى إلى النهر المعروف بالقريري، فوصل إليه لؤلؤ وأصحابه، فأوقعوا به وبمن معه فكشفوهم، فولوا هاربين حتى عبروا النهر المذكور، ولُؤلؤ وأصحابه يطردونهم من ورائهم، حتى ألجؤوهم إلى نهر آخر، فعبروه واعتصموا بِدِحالٍ وراءه، فولجوها، وأشرف لؤلؤ وأصحابه عليها فأرسل إليه الموفق ينهاه عن اقتحامها، ويشكر سعيَه، ويأمره بالانصراف، فانفرد لؤلؤ هذا اليوم وأصحابُه بهذا الفعل، دون أصحاب الموفّق، فانصرف لؤلؤ محمودَ الفِعْل، فحمله الموفّق معه في شَذَاته وجدّد له من البرّ والكرامة ورَفْع المنزلة لِمَا كان منه في أمر النّاجم، حَسْبَما كان مستحقًّا له، ولهذا نادى أهلُ بغداد لما أدخل إليهم رأس الناجم بين يدي أبي العباس: ما شئتم قولوا، كان الفتح للؤلؤ.

قال أبو جعفر: فجمع الموفّق في غَدِ هذا اليوم قوّاده وهو حنِقٌ عليهم لانصرافهم عنه، وإفرادهم إياه، وكان لؤلؤ وأصحابه تولّوْا طلب النّاجم دونهم، فعنَّفهم وعَذَلهم ووبّخهم على ما كان منهم، وعجّزهم وأغلظ لهم، فاعتذروا إليه بما توهّموه من انصرافه، وأنهم لم يعلموا أنه قد لجّج وأوْغَل في طلب الناجم، وأنهم لو علموا ذلك لأسرعوا نحوه.

ثم تحالفوا بين يديه، وتعاقدوا ألا يبرحوا في غدٍ موضعَهم إذا توجّهوا نحو الزّنج، حتى

يُظفرهم الله تعالى به، فإنْ أعياهم ذلك أقاموا حيث انتهى بهم النهار في أيّ موضع كان حتى يحكم الله بينهم وبينه. وسألوا الموفق أن يردّ السُّفن إلى الموفقية، بحيث لا يطمع طامع من العسكر في الالتجاء إليها والعبور فيها.

فقبِل أبو أحمد عذرَهم، وجزاهم الخير عن تنصُّلهم(١)، ووعدهم بالإحسان، وأمرهم بالتأهّب للعبور، ثم عَبَر بهم على ترتيب ونظام قد أحكمه وقرره، وذلك في يوم السبْت لليلتين خلَتا من صفر من سنة سبعين ومائتين، وقد كان النّاجم عاد من تلك الأنهار إلى معسكره بعد انصراف الجيش عنه، فأقام به، وأمّل أن تتطاول به وبهم الأيام، وتتدفع عنه المُناجزة، فلقيَه في هذا اليوم سَرَعان العسكر، وهم مَغِيظون محنَقون من التقريع والتوبيخ اللاّحقينّ بهم بالأمس، فأوقعوا به وبأصحابه وقعةً شديدة، أزالوهم عن مواقفهم فتفرّقوا لا يلوِي بعضهم على بعض، واتّبعهم الجيش يقتلُون ويأسرونَ مَنْ لحقُوا منهم، وانقطع النّاجم في جماعة من كُمَاته من قُوّاد الزنج، منهم المهلّبيّ، وفارقه ابنه أنكلانيّ وسليمان بن جامع، فكانا في أوّل الأمر مجتمعين، ثم افترقا في الهزيمة، فصادف سليمانَ بن جامع قومٌ من قوّاد الموفّق، فحاربوه وهو في جَمْع كثيف من الزّنج، فقتِل جماعة من كُمَاته، وظُفِرَ به فأسر، وحُمِل إلى الموفّق بغير عهد ولا عَقْد، فاستبشر النّاس بأسر سليمان، وكثر التكبير والضجيج، وأيقنوا بالفتح إذ كان أكثر أصحابه غناء، وأسِرَ بعده إبراهيم بن جعفر الهمدانيّ، وكان من عظماء قوّاده وأكابر أمراء جيوشه، وأسِرَ نادر الأسود المعروف بالحفَّار، وهو من قدماء قوّاد النّاجم، فأمر الموفّق بتقييدهم بالحديد، وتصييرهم في شَذَاةٍ لأبي العباس، ومعهم الرّجال بالسلاح، وجدّ الموفّق في طلب النّاجم، وأمعن في نهر أبي الخصيب، حتى انتهى إلى آخره.

فبينا هو كذلك، أتاه البشير بقتل النّاجم فلم يصدق، فوافاه بشيرٌ آخر، ومعه كفٌّ زَعَم أنها كفّه، فقويَ الخبرُ عنده بعض القوّة، فلم يلبث أن أتاه غلام من غلمان لؤلؤ يركضُ ومعه رأسُ الناجم، فوضعه بين يديه، فعرضَه الموفّق على مَنْ كان حاضراً تلك الحال معه من قوّاد المستأمنة، فعَرفوه، وشهدوا أنّه رأس صاحبه فخرّ ساجداً، وسجَد ابنهُ أبو العباس، وسجَد القوّاد كلهم شكْراً لله تعالى، ورفعوا أصواتَهم بالتهليل والتكبير، وأمر برفع الرأس على قناة، ونصبه بين يديه فرآه الناس، وارتفعت الأصوات والضجيج.

قال أبو جعفر: وقد قيل: إنه لما أحِيطَ بالناجم، لم يبق معه من رؤساء أصحابه إلا المهلّبيّ، فلما علما أنّهما مقتولان افترقا، فوقف النّاجم حتى وصل إليه هذا الغُلام ومعه

(١) تنصل إليه من الجناية: خرج وتبرأ. القاموس المحيط، مادة (نصل).

جماعة من غلمان لؤلؤ، فمانَع عن نفسِه بسَيفه حتى عجز عن الممانعة، فأحاطوا به وضربوه بسيوفهم حتى سقط، ونزل هذا الغلام فاحتزّ رأسه، وأما المهلبيّ فإنّه قصد النهر المعروف بنهر الأمير، فقذف بنفسه يرومُ النّجاة، وقبْل ذلك كان ابن الناجم وهو المعروف بأنكلاني فارق أباه، ومضى يؤمّ النهر المعروف بالدِيناريّ، متحصناً فيه بالأدغال والآجام، فلم يظفر بهما ذلك اليوم، ودلّ الموفّق عليهما بعد ذلك.

وقيل له: إنّ معهما جَمْعاً من الزّنج وجماعة من جِلّة قوّادهم، فأرسل غلمانه في طلبهما، وأمرهم بالتّضييق عليهما، فلما أحاطت الغلمان بهم أيقنوا أن لا ملجأ لهم، وأعطوْا بأيديهم. فظفر بهم الغلمان، وحملوهم إلى الموفّق، فقتل منهم جماعة، وأمَرَ بالاستيثاق من المهلبيّ وأنكلاني بالحديد والرجال الموكّلين بهما.

قال أبو جعفر: وانصرف في هذا اليوم وهو يوم السبت، لليلتين خلَتا من صفر أبو أحمد من نهر أبي الخصيب، ورأس النّاجم منصوب بين يديه على قَناةٍ في شذاة يُخْترقُ به في النهر، والناس من جانبي النهر ينظرون إليه حتى وافَى دِجْلة، فخرج إليها، والرأس بين يديه، وسليمان بن جامع والهمدانيّ مصلوبان أحياءً في شذاتين عن جانبيه، حتى وافَى قصره بالموفقيّة. هذه رواية أبي جعفر وأكثر الناس عليها.

وذكر المسعوديّ في كتاب «مروج الذهب» أن الناجم ارتُثّ. وحُمِل إلى أبي أحمد وهو حيّ، فسلّمه إلى ابنه أبي العباس، وأمر بتعذيبه، فجعله كردناجاً[1] على النار وجلده ينتفخ، ويتفرقع حتى هلك.

والرواية الأولى هي الصحيحة، والذي جعل كردناجاً هو قرطاس الذي رمى أبا أحمد بالسهم، ذكر ذلك التنوخي في «نشوار المحاضرة»[2]، قال: كان الزّنج يصيحون لما رمى أبو أحمد بالسهم، وتأخر لعِلاج جراحته عن الحرب: ملّحوه ملّحوه، أي قد مات وأنتم تكتمون موته، فاجعلوه كاللحم المكْسُود.

قال: وكان قرطاس الرامي لأبي أحمد يصيح بأبي العباس في الحرب إذا أخذتني فاجعلني كردناجاً، يهزأ به.

---

(١) الكردناج: السَّفود الذي يُشوى به اللحم على النار. معجم المصطلحات الفارسية، مادة (كرد).
(٢) نشوان المحاضرة: لأبي علي محسن بن علي القاضي التنوخي المتوفى سنة (٣٨٤هـ). «كشف الظنون» (٢/١٩٥٣).

قال: فلما ظفر به أدخل في دُبُره سيخاً من حديد، فأخرجه منْ فيه، وجعله على النار كردناجاً.

قال أبو جعفر: ثم تتابع مجيء الزّنج إلى أبي أحمد في الأمان، فحضر منهم في ثلاثة أيام نحو سبعة آلاف زنجيّ، لما عرفوا قتلَ صاحبهم، ورأى أبو أحمد بذلَ الأمان لهم، كي لا يبقى منهم بقيّة يخاف معرتّها في الإسلام وأهله، وانقطعت منهم قطعة نحو ألف زنجيّ مالت نحو البرّ، فمات أكثرها عطشاً، وظفر الأعراب بمَن سلِم منهم، فاسترقّوهم، وأقام الموفّق بالموفقية، بعد قتل الناجم مدّة، ليزداد الناس بمقامه أنساً وأماناً، ويتراجع أهلُ البلاد إليها، فقد كان الناجم أجلاهم عنها. وقدِم ابنه أبو العباس إلى بغداد، ومعه رأس الناجم، فدخلَها يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة بقين من جُمادى الأولى من هذه السنّة، ورأس الناجم بين يديه على قَنَاة، والناس مجتمعون يشاهدونه.

وقد روى غير أبي جعفر، وذكره الآبي في مجموعه المسمى «نثر الدرر»[1] عن العلاء بن صاعد بن مخلد، قال: لما حُمِل رأس صاحب الزنج ودخل به المعتضد إلى بغداد دَخَلَ في جيش لم يُرَ مثله، واشتقّ أسواقَ بغداد، والرأس بين يديه، فلما صرنا بباب الطاق، صاح قوم من دَرْبٍ من تلك الدُّروب: رحم الله معاوية وزاد! حتى علَتْ أصواتُ العامّة بذلك فتغيّر وجهُ المعتضد، وقال: ألا تسمع يا أبا عيسى! ما أعجبَ هذا! وما الذي اقتضى ذكر معاوية في هذا الوقت! والله لقد بلغَ أبي إلى الموت وما أفلتّ أنا إلا بعد مشارفته، ولقينا كلّ جهد وبلاء، حتى أنجينا هؤلاء الكِلاب من عدوّهم، وحصّنّا حُرمَهم وأولادهم، فتركوا أن يترحموا على العبّاس وعبد الله ابنه ومَنْ وَلَد من الخلفاء، وتركوا الترحّم على عليّ بن أبي طالب، وحمزة وجعفر، والحسن والحسين، والله لا برحت أو أؤثّر في تأديب هؤلاء أثراً لايعاودون بعد هذا الفعل مثله! ثم أمر بجمع النفّاطين ليحرِق الناحية، فقلت له: أيّها الأمير، أطال الله بقاءك! إنّ هذا اليوم من أشرف أيام الإسلام فلا تفسِدْه بجهل عامّة لا أخلاق لهم. ولم أزل أداريه وأرفّق به حتى سار.

فأما الّذي يرويه الناسُ من أن صاحب الزنج ملك سواد بغداد، ونزل بالمدائن، وأن الموفّق أرسل إليه من بغداد عسكراً، وأصحبهم دنان النبيذ، وأمَرهم أن ينهزموا من بين يدي الزنج عند اللقاء، ويتركوا خيامهم وأثقالهم لينتهبها الزنج وأنهم فعلوا ذلك، فظفر الزنج فيما ظفروا به من

---

(١) «نثر الدرر في المحاضرات»: لأبي سعيد منصور بن الحسين الآبي الوزير، المتوفى سنة (٤٢٢هـ) في سبع مجلدات، «كشف الظنون» (٢/ ١٩٢٧).

أمتعتهم بتلك الدِّنان، وكانت كثيرة جداً، فشربوا تلك الليلة وسكروا، وباتوا على غِرّة، فكبسهم الموفق وبيّتهم ليلاً وهم سكارَى، فأصاب منهم ما أراد - فباطل موضوع لا أصل له، والذي بيّتهم وهم سكارى فَنال منهم نيلاً تكين البخاري، وكان على الأهواز بيت أصحاب عليّ بن أبان في سنة خمس وستين ومائتين، وقد أتاه الخبر بأنّهم تلك الليلة قد عمِل النّبيذ فيهم، والصحيح أنه لم يتجاوز نهبَهم ودخولهم البلاد النُّعمانية. هكذا رواه الناس كلهم.

قال أبو جعفر: فأمّا عليّ بن أبان وأنكلانيّ بن الناجم ومَنْ أسِرَ معهما، فإنّهم حملوا إلى بغداد في الحديد والقِدّ[1]، فجعِلوا بيد محمد بن عبد الله بن طاهر، ومعه غلام للموفّق يقال له فتح السعيديّ، فكانوا كذلك إلى شوال من سنة اثنتين وسبعين ومائتين، فكانت للزنج حركة بواسط، وصاحوا: أنكلاني، يا منصورا! وكان الموفق يومئذ بواسط! فكتب إلى محمد بن عبد الله، وإلى فتح السعيدي يأمرهما بتوجيه رؤوس الزنج الذين في الأسر إليه، فدخل فتح السعيديّ إليهم، فجعل يخرج الأوّل فالأوّل فيذبحه على البالوعة كما تذبح الشاة، وكانوا خمسة: أنكلاني بن الناجم، وعليّ بن أبان المهلبي، وسليمان بن جامع، وإبراهيم بن جعفر الهمذانيّ، ونادر الأسود، وقلَع رأس البالوعة وطرحت فيها أبدانهم، وسدّ رأسها، ووجّه برؤوسهم إلى الموفق فنصبها بواسط، وانقطعت حركة الزّنج، ويئس منهم.

ثم كتب الموفق إلى محمد بن عبد الله بن طاهر في جُثث هؤلاء الخمسة، فأمر بصلبهم بحضرة الجسْر، فأخرِجوا من البالوعة، وقد انتفخوا وتغيّرت روائحهم، وتقشّرت جلودهم، فصلِب اثنان منهم على جانب الجسر الشرقيّ وثلاثة على الجانب الغربيّ، وذاك لسبع بقين من شوال من هذه السنة، وركب محمد بن عبد الله بن طاهر، وهو أمير بغداد يومئذ بنفسه حتى صُلِبوا بحضرته.

وقد قال الشعراء في وقائع الزنج فأكثروا كالبحتريّ وابن الرومي وغيرهما، فمن أراد ذلك فليأخذه من مظانه.

الأصل: منها في وصف الأتراك: **كَأَنّي أَرَاهُمْ قَوْماً كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ المِجَانُّ المُطْرَقَةُ، يَلْبَسُونَ السَّرَقَ وَالدِّيبَاجَ، وَيَعْتَقِبُونَ الْخَيْلَ الْعِتَاقَ، وَيَكُونُ هُنَاكَ اسْتِحْرَارُ قَتْلٍ حَتَّى يَمْشِيَ المَجْرُوحُ عَلَى المَقْتُولِ، وَيَكُونَ المُفْلِتُ أَقَلَّ مِنَ المَأْسُورِ.**

فقال له بعض أصحابه: لقد أعطيتَ يا أمير المؤمنين علم الغيب! فضحك عليه السلام وقال

للرجل - وكان كلبيًا: يا أخا كَلْبٍ، لَيْسَ هُوَ بِعِلْمِ غَيْبٍ، وَإِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْمٍ، وَإِنَّمَا عِلْمُ ٱلْغَيْبِ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَمَا عَدَّدَهُ ٱللهُ سُبْحانَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[1] الآيَةَ، فَيَعْلَمُ ٱللهُ سُبْحانَهُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ، مِنْ ذَكَرٍ أَو أُنْثَى، وَقَبِيحٍ أَوْ جَمِيلٍ، وَسَخِيٍّ أَوْ بَخِيلٍ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، وَمَنْ يَكُونُ للنَّارِ حطباً أَوْ فِي ٱلْجِنَانِ لِلنَّبِيِّينَ مُرَافِقاً، فَهَذَا عِلْمُ ٱلْغَيْبِ ٱلَّذِي لاَ يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلاَّ ٱللهُ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَعِلْمٌ عَلَّمَهُ ٱللهُ نَبِيَّهُ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ فَعَلَّمَنِيهِ، وَدَعَا لِي بِأَنْ يَعِيَهُ صَدْرِي، وَتَضْطَمَّ عَلَيْهِ جَوَانِحِي.

الشرح: المِجانّ: جمع مِجنّ بكسر الميم، وهو التُّرس، وإنما سمي مَجنًا، لأنه يُستَر به، والجُنَّة: السُّترة والجمع جُنَن، يقال استجنّ بِجُنّة، أي استتر بسترة.

المُطْرَقة، بسكون الطاء: التي قد أطرق بعضُها إلى بعض، أي ضُمّتْ طبقاتها، فجعل بعضُها يتلو بعضاً، يقال: جاءت الإبل مطاريق، أي يتلُو بعضها بعضاً. والنعل المطرَقة: المخصوفة، وأطرِقَتْ بالجلْد والعَصَب، أي ألبست، وتُرْسٌ مطرَق، وطِراق النعل: ما أطرقت وخرزت به. وريش طِراق، إذا كان بعضه فوقَ بعض، وطارق الرجلُ بين الثَّوْبَيْن، إذا لبس أحدَهما على الآخر، وكلّ هذا يرجع إلى مفهوم واحد وهو مظاهرة الشيء بعضه بعضاً. ويروى: «المجانّ المطرَّقة»، بتشديد الراء، أي كالتّرسة المتَّخذة من حديد مطرَقٍ بالمطرَقة.

والسَّرَق: شُقَق الحرير، وقيل: لا تسمَّى سَرَقاً إلا إذا كانت بِيضاً، الواحدة سَرَقة.

ويعتقبون الخيل، أي يجنبونها لينتقلوا من غيرها إليها. واستحرار القتل: شدّته، استحرّ وحَرّ بمعنى، قال ابن الزِّبَعْرَى:

حيث ألقت بِقُبَاءٍ بَرْكَها واستحرّ القتل في عبد الأشَلّ

والمفلِت: الهاربَ.

يقول عَلَيْتَكِلاِ: إنّ الأمورَ المستقبلة على قسميْن:

أحدهما ما تفرّد الله تعالى بعلمه، ولم يطلِعْ عليه أحداً من خلقه، وهي الأمور الخمسة المعدودة في الآية المذكورة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾.

---

(١) سورة لقمان، الآية: ٣٤.

والقسم الثاني ما يعلمُه بعضُ البشر بإعلام الله تعالى إيّاه، وهو ما عدا هذه الخمسة، والإخبار بملحَمة الأتراك من جُمْلة ذلك.

وتضطمّ عليه جوانحي: تفتعل، من الضمّ، وهو الجمع، أي تجتمع عليه جوانح صدري، ويروى: «جوارحي»، وقد روي أنّ إنساناً قال لموسى بن جعفر عليه السلام: إنّي رأيت الليلة في منامي أنّي سألتك: كم بقي من عمري؟ فرفعتَ يدك اليمنى، وفتحتَ أصابعها في وجهي مشيراً إليّ، فلم أعلم خمس سنين، أم خمسة أشهر، أم خمسة أيام! فقال: ولا واحدة منهنّ، بل ذاك إشارة إلى الغيوب الخمسة التي استأثر الله تعالى بها في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾(١) الآية.

فإن قلت: لم ضَحِك عليه السلام لمّا قال له الرجل: «لقد أوتيت علم الغيب»؟ وهل هذا إلا زهو في النّفس، وعُجْب بالحال!

قلت: قد روِيَ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ضحِك في مناسب هذه الحال، لما استسقَى فسُقِيَ وأشرف درورُ المطر، فقام إليه الناس، فسألوه أن يسأل الله تعالى أن يحبِسه عنهم، فدعا، وأشار بيده إلى السحاب، فانجاب حول المدينة كالإكليل، وهو عليه السلام يخطب على المنبر، فضحك حتى بدت نواجذُه، وقال: أشهد أني رسول الله، وسرّ هذا الأمر أنّ النبيّ أو الوليّ إذا تَحْدُثُ عنده نعمة الله سبحانه، أو عرف الناسُ وجاهتَه عند الله، فلا بد أن يسرّ بذلك. وقد يحدُث الضحك من السرور، وليس ذلك بمذموم إذا خلا من التّيه والعُجب، وكان محضَ السّرور والابتهاج، وقد قال تعالى في صفة أوليائه: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾(٢).

فإن قلت: فإنّ من جملة الخمسة: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾(٣)، وقد أعلم الله تعالى نبيّه بأمور يكسبها في غده، نحو قوله: «ستفتح مكة»، وأعلم نبيُّه وصيّه عليه السلام بما يكسبه في غده، نحو قوله له: «ستقاتل بعدي الناكثين. . .»(٤)، الخبر.

قلت: المراد بالآية أنّه لا تدري نفس جميع ما تكسبه في مستقبَل زمانها، وذلك لا ينفي جوازَ أن يعلم الإنسان بعضَ ما يكسبه في مستقبل زمانه.

---

(١) سورة لقمان، الآية: ٣٤.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧٠.
(٣) سورة لقمان، الآية: ٣٤.
(٤) أخرجه بمعناه الحاكم في «المستدرك» (٤٦٧٤)، والطبراني في «الأوسط» (٨٤٣٣)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ١٨٦).

واعلم أنّ هذا الغيب الذي أخبر ﷺ عنه قد رأيناه نحن عِياناً، ووقع في زماننا، وكان الناس ينتظرونه من أوّل الإسلام، حتى ساقه القضاء والقدر إلى عصرنا، وهم التتار الذين خرجُوا من أقاصي المشرق، حتى وردت خيلُهم العراق والشام، وفعلوا بملوك الخطا وقفجاق، وببلاد ما وراء النهر وبخُراسان وما والاها من بلاد العجم، ما لم تحتو التواريخ منذ خلق الله آدم إلى عصرنا هذا على مثله، فإنّ بابك الخُرّميّ لم تكن نكايتُه وإن طالتْ مدّته نحو عشرين سنة إلا في إقليم واحد وهو أذربيجان، وهؤلاء دَوّخُوا المشرق كلّه، وتعدّت نِكايتهم إلى بلاد إرمينيّة وإلى الشام، ووردت خيلهم إلى العراق، وبُخْتَ نصّر الذي قتل اليهود إنما أخرب بيتَ المقدس، وقتل من كان بالشام من بني إسرائيل، وأيّ نسبة بين مَنْ كان بالبيت المقدس من بني إسرائيل إلى البلاد والأمصار التي أخربها هؤلاء، وإلى الناس الذين قتلوهم من المسلمين وغيرهم!

ونحن نذكر طرفاً من أخبارهم وابتداء ظهورهم على سبيل الاختصار، فنقول: إنّا على كثرة اشتغالنا بالتواريخ وبالكتب المتضمّنة أصناف الأمم، لم نجد ذكر هذه الأمّة أصلاً، ولكنا وجدنا ذكر أصناف الترك، ثم القِفْجاق، واليمك، والبرلو، والتفريه، واليتبه، والروس، والخطا، والقرغز، والتركمان، ولم يمرّ بنا في كتاب ذكر هذه الأمة سوى كتاب واحد، وهو كتاب «مروج الذهب» للمسعودي فإنّه ذكَرهم هكذا بهذا اللفظ «التتر»، والنّاس اليوم يقولون: «التتار» بألف، وهذه الأمة كانتْ في أقاصي بلاد المشرق في جبال «طمغاج» من حدود الصين، وبينهم وبين بلاد الإسلام التي ما وراء النهر ما يزيدُ على مسير ستة أشهر، وقد كان خوارزمشاه، وهو محمد بن تكش استولَى على بلاد ما وراء النّهر، وقَتَل ملوكها من الخطا الذين كانوا ببُخارَى وسَمَرْقَنْد وبلاد تركستان، نحو كاشغر، وبلاساغون، وأفناهم، وكانوا حِجاباً بينه وبين هذه الأمّة، وشَحَن هذه البلاد بقوّاده وجنوده، وكان في ذلك غالطاً، لأن ملوك الخطا كانوا وقايةً له ومَجِنًّا من هؤلاء، فلما أفناهم، صار هو المتولّي لحرب هؤلاء أو سِلْمِهِم، فأساء قوّاده وأمراؤه الّذين بتركستان السِّيرة معهم، وسدُّوا طرقَ التجارة عنهم، فانتدبتْ منهم طائفة نحو عشرين ألفاً مجتمعة، كلّ بيت منها له رئيس مفرَد، فهم متسانِدُون، وخرجوا إلى بلاد تركِسْتان، فأوقعوا بقوّاد خوارز مشاه وعمّاله هناك، وملكوا البلادَ، وتراجع مَنْ بقِيَ من عسكر خُوارزمشاه، وسلِم من سيف التتار إلى خوارزمشاه، فأغضى على ذلك، ورأى أنّ سعة ملكه تمنعه عن مباشرة حربهم بنفسه، وأنّ غيرَه من قوّاده لا يقوم مقامه في ذلك، وترك بلاد تُرْكِسْتان لهم، واستقرّ الأمر على أنّ تركستان لهم، وما عدَاها من بلاد ما وراء النهر كسمرْقَنْد وبُخارى وغيرهما لخوارزمشاه، فمكثوا كذلك نحو أربع سنين.

ثم إن المعروف بجنكزخان - والناس يلفظونَهُ بالراء، وذكر لي جماعة من أهل المعرفة بأحوال التّتر أنه «جنكز» بالزاي المعجمة - عنّ له رأي في النّهوض إلى بلاد تركستان، وذلك أنّ جنكزخان هذا هو رئيس التّتار الأقصين في المشرق، وابن رئيسهم، وما زال سلفه رؤساء تلك الجهة، وكان شجاعاً عاقلاً موفّقاً منصوراً في الحرب، وإنّما عَنّ له هذا الرأي، لأنّه رأى أنّ طائفةً من التّتار - لا ملك لهم، وإنّما يقوم بكلّ فرقة منهم مدبّرٌ لها من أنفسها - قد نهضت فملكتْ بلادَ تركستان على جلالتها، غار من ذلك، وأراد الرّياسة العامة لنفسه، وأحبّ المُلْك، وطمِع في البلاد، فنهض بمنْ معه من أقاصي الصين، حتى صار إلى حدود أعمال تركستان، فحاربه التّتار الذين هناك، ومنعوه عن تطرّق البلاد، فلم يكن لهم به طاقة، وهزمهم وقتَل كثيراً منهم، وملك بلاد تركستان بأجمعها، وصار كالمجاور لبلاد خوارزمشاه، وإن كان بينهما مسافةٌ بعيدة، وصار بينه وبين خُوارِزْمشاه سِلْمٌ ومهادنة، إلا أنّها هُدْنة على دَخَن.

فمكثت الحال على ذلك يسيراً، ثم فسدتْ بما كان يصلُ إلى خوارزمشاه على ألسنة التّجار من الأخبار، وأنّ جنكزخان على عَزْم النّهوض إلى سَمَرْقَنْد وما يليها، وأنه في التأهّب والاستعداد، فلو دَارَاه لكان أوْلَى له، لكنّه شرَع فسدّ طرق التجار القاصدين إليهم، فتعذّرَتْ عليهم الكسوات، ومُنِع عنهم المِيرة والأقوات التي تجلب وتحمَل من أعمال ما وراء النهر إلى تركستان، فلو اقتنع بذلك لكان قريباً، لكِنّه أنْهى إليه نائبه بالمدينة المعروفة بأوتران، وهي آخر ولايته بما وراء النهر، أنّ جنكزخان قد سيّر جماعة من تجّار التّتار، ومعهم شيء عظيم من الفِضّة إلى سَمَرْقَنْد، ليشتروا له ولأهله وبني عمّه كُسْوةً وثياباً وغير ذلك.

فبعث إليه خوارزمشاه يأمره بقتل أولئك التجّار، وأخذِ ما معهم من الفضّة وإنفاذها إليه، فقتلَهم وسيَّر إليه الفِضّة. وكان ذلك شيئاً كثيراً جدًّا، ففرّقه خوارزمشاه على تجّار سَمْرقَنْد وبُخارى، وأخذ ثمنه منهم لنفسه. ثم علم أنّه قد أخطأ، فأرسل إلى نائبه بأوتران، يأمره أن ينفذ جواسيس من عنده إليهم، ليخبروه بعدّتهم، فمضت الجواسيسُ، وسلكت مفاوز وجبالاً كثيرة، وعادوا إليه بعد مدّة، فأخبروه، بكثرة عددهم، وأنهم لا يبلغهم الإحصاء ولا يدركهم، وأنهم من أصْبَر الناس على القتال، لا يعرفون الفرار، ويعملون ما يحتاجون إليه من السلاح بأيديهم، وأنّ خيلَهم لا تحتاج إلى الشعير، بل تأكل نبات الأرض وعروق المراعي، وأن عندهم من الخيل والبقر ما لا يُحصى، وأنهم يأكلون الميتة والكلاب والخنازير، وهم أصبرُ خَلْق الله على الجوع والعطش والشّقَاء، وثيابُهم من أخشن الثّياب مسًّا، ومنهم مَنْ يلبس جلود الكلاب والدوابّ الميّتة، وأنهم أشبهُ شيء بالوحش والسباع.

فأُنهيَ ذلك كلُّه إلى خُوارزمشاه، فندمَ على قتل أصحابهم، وعلى خَرْق الحجاب بينه وبينهم، وأخذ أموالهم، وغلَب عليه الفِكْر والوَجَل، فأحضر الشهاب الخيوفيّ، وهو فقيه

فاضل كبير المحلّ عنده، لا يخالف ما يشير به، فقال له: قد حَدَث أمرٌ عظيم لابدّ من الفكر فيه، وإجالة الرأي فيما نفعل، وذلك أنّه قد تحرّك إلينا خَصْمٌ من الترك في عدد لا يحصى، فقال له: عساكرك كثيرة، وتكاتِبُ الأطراف، وتجمع الجنود، ويكون من ذلك نفيرٌ عام، فإنّه يجب على المسلمين كافّة مساعدتُك بالأموال والرجال، ثم تذهب بجميع العساكر إلى جانب سَيْحُون، وهو نهر كبير يفصِلُ بين بلاد الترك وبين بلاد خوارِزْ مشاه، فتكون هناك، فإذا جاء العدوّ وقد سار مسافة بعيدة، لقيناه ونحن جامُّون[1] مستريحون، وقد مسّه وعساكرَه النصبُ واللُّغوب.

فجمع خُوارِزْمشاه أمراءه، ومَنْ عنده من أرباب المشورة، فاستشارهم فقالوا: لا بل الرأيُ أن نتركهم ليعبُروا سيحون إلينا، ويسلُكوا هذه الجبال والمضايق، فإنهم جاهلون بطرقها، ونحن عارفون بها، فنظهرُ عليهم، ونهلِكُهم عن آخرهم.

فكانوا على ذلك حتى وصل رسول من جنكزخان ومعه جماعة، يتهدّد خُوارِزْمشاه، ويقول: تقتلُ أصحابي وتجاري، وتأخذ مالي منهم! استعدّ للحرب، فإني واصل إليك بجمْع لا قِبَل لك به.

فلما أدّى هذه الرسالة إلى خُوارِزْمشاه أمر بقتل الرسول فقتِل، وحلق لِحَى الجماعة الذين كانوا معه، وأعادَهم إلى صاحبهم جنكزخان ليخبِرُوه بما فعل بالرسول، ويقولوا له: إنَّ خُوارزمشاه يقول لك: إني سائر إليك، فلا حاجة لك أن تسير إليّ، فلو كنتَ في آخر الدّنيا لطلبتك حتى أقتلك، وأفعل بك وبأصحابك ما فعلتُ برسلك.

وتجهّز خُوارزمشاه، وسار بعد نفوذ الرّسول، مبادراً لسبْق خبرِه، ويكبس التتار على غِرّة، فقطع مسيرةَ أربعة أشهر في شهر واحد، ووصل إلى بيوتهم وخَرْكاواتهم[2] فلم يرَ فيها إلاّ النّساء والصّبْيان والأثقال، فأوقَع بهم، وغَنِم الجميع، وسبَى النّساء والذرّية.

وكان سبب غيبوبة التّتار عن بيوتهم أنهم سارُوا إلى محاربة ملك من ملوك التّرك، يقال له «كشلوخان»، فقاتلوه فهزموه، وغَنِمُوا أمواله، وعادوا، فلقِيَهم الخبر في طريقهم بما فَعَل خوارزمشاه بمخلّفيهم، فأغذُّوا السيرَ فأدركوه، وهو على الخروج من بيوتهم، بعد فراغه من الغنيمة، فواقعوه وتصافُّوا للحرب ثلاثة أيام بلياليها، لا يفترون نهاراً ولا ليلاً، فقتِل من الفريقين ما لا يعدّ، ولم ينهزم منهم أحد.

---

(١) جُمَّ الفرس: تُرِك فلم يُركب فَعَفَا من تعبه. القاموس، مادة (جمم).
(٢) خركاه: الخيمة الضخمة. معجم المصطلحات الفارسية، مادة (خرك).

أما المسلمون فصبَرُوا حَمِيّةً للدين، وعلمُوا أنهم إن انهزموا لم يبقَ للإسلام باقية، ثم إنّهم لا ينجُون، بل يؤخَذون ويؤسَرون لبعدهم عن بلادٍ يمتنعون بها، وأما التّتار فصبروا لاستنقاذ أموالهم وأهلهم، واشتد الخطب بين الطائفتين، حتى إنّ أحدَهم كان ينزل عن فرسه، ويقاتل قِرْنه راجلاً، مضارَبةً بالسكاكين، وجرى الدَّمُ على الأرض، حتى كانت الخيل تزلق فيه لكثرته، ولم يحضر جنكزخان بنفسِه هذه الوقعة، وإنما كان فيها قاآن ولدُه، فأحصِيَ مَنْ قُتِل من المسلمين فكانوا عشرين ألفاً، ولم يحصَ عِدّةُ مَنْ قتِل من التتار.

فلما جاءت اللَّيلةُ الرابعة افترقوا، فنزل بعضُهم مقابل بعض، فلما أظلم الليل، أوقد التتار نيرانَهم، وتركوها بحالها، وساروا راجعين إلى جنكزخان ملكهم، وأمّا المسلمون فرجعوا ومعهم محمد خوارزمشاه، فلم يزالوا سائرين حتى وافَوْا بُخارى، وعلم خوارزمشاه أنه لا طاقة له بجنكزخان، لأنَّ طائفة من عسكره لم يلقوا خوارزمشاه بجميع عساكره بهم، فكيف إذا حشدوا وجاؤوا على بكرة أبيهم، وملكهم جنكزخان بينهم.

فاستعدّ للحصار، وأرسل إلى سمرقند يأمرُ قُوّاده المقيمين بها بالاستعداد للحصار، وجَمَع الذخائر للامتناع والمقام من وراء الأسوار، وجعل في بخارى عشرين ألف فارس يحمونها، وفي سمرقند خسمين ألفاً، وتقدّم إليهم بحفظ البلاد حتى يَعبر هو إلى خوارزم وخراسان، فيجمع العساكر، ويستنجد بالمسلمين والغزاة المطّوّعة ويعود إليهم.

ثم رحل إلى خُراسان، فعبَر جيحُون، وكانت هذه الوقعة في سنة ست عشرة وستمائة فنزل بالقرب من بَلْخ، فعسكر هناك، واستنفر النّاس.

وأما التتار فإنّهم رحلوا بعد أن استعدُّوا يطلبون بلاد ما وراء النهر، فوصلوا إلى بخارى بعد خمسة أشهر من رحيل خوارزمشاه عنها، وحصروها، فقاتلوا العسكر المرابط بها ثلاثة أيام قتالاً متتابعاً، فلم يكن للعسكر الخوارزميّ بهم قوة، ففتحوا أبواب المدينة ليلاً، وخرجوا بأجمعهم عائدين إلى خراسان، فأصبح أهلُ بخارى وليس عندهم من العسكر أحد أصلاً، فضعفت نفوسهم، فأرسلوا قاضي بخارى ليطلُب الأمان للرعيّة، فأعطاه التّتار الأمان، وقد كان بقي في قلعة بخارى خاصة طائفة من عسكر خوازمشاه معتصمون بها.

فلمّا رأى أهلُ بخارى بذلَهم للأمان، فتحوا أبوابَ المدينة، وذلك في رابع ذي الحجة من سنة ست عشرة وستمائة فدخل التتار بُخارَى، ولم يتعرّضوا لأحدٍ من الرعيّة، بل قالوا لهم: كلّ ما لخوارِزْمشاه عندكم من وديعةٍ أو ذخيرةٍ أخرجوه إلينا، وساعدونا على قتال مَنْ بالقلعة، ولا بأس عليكم. وأظهروا فيهم العدلَ وحسنَ السّيرة ودخل جنكزخان بنفسِه إلى البلد، وأحاط بالقلعة، ونادى مناديه في البلدان: لا يتخلّف أحدٌ، ومَنْ تخلّف قُتِل. فحضر النّاسُ بأسرهم، فأمرهم بطمّ الخندق فطمّوه بالأخشاب والأحطاب والتراب، ثم زحفوا نحو القلْعة، وكان عدّةُ

مَن بها من الجند الخوارزمية أربعمائة إنسان، فبذلوا جهدَهم، ومنعوا القلعة عشرة أيام إلى أنْ وصل النقّابون إلى سور القلعة، فنقبوه ودخلوا القلعة، فقتلوا كلَّ مَن بها من الْجند وغيرهم.

فلما فرغوا منها أمَر جنكزخان أن يكتُبَ له وجوهُ البلد ورؤساؤهم، ففعل ذلك، فلما عَرَضُوا عليه أمر بإحضارهم، فأحضَرُوا، فقال لهم: أريد منكم الفضّة النُّقْرة[1] التي باعها إياكم خوارزْمشاه، فإنّها لي، ومِنْ أصحابي أخِذَتْ. فكان كلّ مَنْ عنده شيء منها يحضِره، فلما فرغ من ذلك أمرهم بالخروج عن البلد بأنفسهم خاصّة، فخرجوا مجرّدين عن أموالهم، ليس مع كلِّ واحد منهم إلا ثيابُه الّتِي على جسده، فأمرَ بقتلهم، فقتِلُوا عن آخرهم، وأمر حينئذٍ بنهب البلد، فنهب كلُّ ما فيه، وسبِيَت النساء والأطفال، وعذَّبُوا الناس بأنواع العذاب في طلب المال. ثم رحلوا عنه نحو سَمَرْقَنْد، وقَد تحققُوا عَجزَ خوارزمشاه عنهم، واستصحبوا معهم مَنْ سَلِمَ من أهل بخارى، أسارى مشاةً على أقبح صورة، وكلُّ مَنْ أعيا وعجز عن المشي قتلوه.

فلما قاربوا سَمَرْقند، قدّموا الخيّالة، وتركوا الرجّالة والأسارى والأثقال وراءهم، حتى يلتحقوا بهم شيئاً فشيئاً، ليرعِبوا قلوبَ أهل البلد، فلمّا رأى أهلُ سَمَرْقند سوادَهم، استعظموهم، فلمّا كان اليوم الثاني وصل الأسارى والرجّالة والأثقال، ومع كلِّ عشرة من الأسارى عَلَم، فظنَّ أهلُ البلد أنّ الجميع عسكر مقاتلة، فأحاطوا بسَمَرْقَنْد، وفيها خمسون ألفاً من الخوارزمية، وما لا يحصى كثرة من عوامّ البلد، فأحجم العسكر الخوارزميّ عن الخروج إليهم، وخرجت العامّة بالسلاح، فأطمعهم التتار في أنفسهم، وتقهقروا عنهم، وقد كمّنوا لهم كُمناء: فلما جاوزوا الكمين خرج عليهم منْ ورائهم، وشدّ عليهم مِنْ ورائهم جمهورُ التتار، فقتلوهم عن آخرهم.

فلما رأى مَنْ تخلّف بالبلد ذلك، ضعفت قلوبهم، وخيّلَت للجند الخوارزمي أنفسهم أنّهم إن استأمنوا إلى التتار أبْقَوْا عليهم للمشاركة في جنسية التركيّة، فخرجوا بأموالهم وأهليهم إليهم مستأمنين، فأخذوا سلاحهم وخيلهم، ثم وضعوا السيف فيهم، فقتلوهم كلّهم، ثم نادوْا في البلد: برئت الذمّة ممّن لم يخرج، ومن خرج فهو آمن. فخرج الناس إليهم بأجمعهم، فاختلطوا عليهم، ووضعوا فيهم السيف، وعذّبوا الأغنياء منهم، واستصفَوْا أموالهم، ودخلوا سَمَرْقَنْد، فأخربوها، ونقضوا دورها، وكانت هذه الوقعة في المحرّم سنة سبع عشرة وستمائة.

وكان خوارزمشاه مقيماً بمنزله الأوّل، كلّما اجتمع له جيش سَيّره إلى سمرقند، فيرجع ولا يقدم على الوصول إليها، فلما قضوا وطراً من سَمَرْقند، سيّر جنكزخان عشرين ألف فارس، وقال لهم: اطلبوا خوارزمشاه أينَ كان، ولو تعلّق بالسماء، حتى تدركوه وتأخذوه!

---

(١) النقرة: القطعة المذابة من الذهب والفضة. القاموس، مادة (نقر).

وهذه الطائفة تُسمّيها التتار المغرّبة، لأنّها سارت نحو غرب خراسان، وهم الّذين أوغلوا في البلاد، ومقدّمهم جرماغون، نسيب جنكزخان.

وحكي أنّ جنكزخان كانَ قد أمّر على هذا الجيش ابنَ عمّ له شديد الاختصاص به، يقال له متكلي نويرة، وأمَره بالجدّ وسرعة المسير، فلما ودّعه، عطف متكلي نويرة هذا، فدخل إلى خركاة، فيها امرأة له كان يهواها ليودّعها، فاتصل ذلك بجنكزخان، فصرفه في تلك الساعة عن إمارة الجيش، وقال: مَنْ يَثْنِي عزمَه امرأة لا يصلح لقيادة الجيوش. ورتّب مكانه جرماغون، فساروا وقصدوا من جيحون موضعاً يسمى «بنج آب» أي خمسة مياه، وهو يمنع العبور، فلم يجدوا به سفناً، فعملوا من الخشب مثل الأحواض الكبار، ولبّسوه جلود البقر، ووضعوا فيه أسلحتهم، وأقحموا خيولهم الماء، وأمسكوا بأذنابها، وتلك الأحواض مشدودة إليها، فكان الفرَس يجذب الرجل، والرجُل يجذب الحوض، فعبروا كُلُّهم ذلك الماء دَفْعَةً واحدة، فلم يشعر خوارزمشاه بهم إلاّ وهم معه على أرض واحدة، وكان جيشه قد مليء رعباً منهم، فلم يقدروا على الثّبات، فتفرّقوا أيدي سَبَا، وطلبَ كلّ فريق منهم جهة، ورحل خوارزمشاه في نفرٍ من خواصّه، لا يلوِي على شيء، وقصد نيسابور، فلمّا دخلها اجتمع عليه بعضُ عسكره فلم يستقرّ، حتى وصل جرماغون إليه، وكان لا يتعرّض في مسيره بنهب ولا قتل، بل يطوي المنازل طيًّا، يطلب خوارزمشاه ولا يمهله ليجمع عسكراً. فلما عرف قرب التّتار منه، هرب من نيسابور إلى مازندران، فدخلها ورحل جرماغون خلْفه، ولم يعرّج على نيسابور، بل قصد مازندران، فخرج خوارزم شاه عنها، فكان كلّما رحل عن منزل نزله التتار، حتى وصل إلى بحر طَبَرِسْتَان، فنزل هو وأصحابه في سفن، ووصل التّتار، فلما عرفوا نزوله البحر، رجعوا وأيسوا منه.

وهؤلاء الّذين ملكوا عراق العجم وأذْرَبِيجان، فأقاموا بناحيةِ تِبْرِيز إلى يومنا هذا.

ثم اختلِف في أمر خوارزمشاه، فقوْمٌ يحكون أنّه أقام بقلعة له في بحر طَبَرِسْتان منيعة، فتوفِّيَ بها، وقوم يحكون أنه غرِق في البحر، وقوم يحكون أنّه غرق ونجا عُرياناً، فصعد إلى قرية من قرى طَبَرِستان، فعرَفه أهلها، فجاؤوا وقبّلوا الأرض بين يديه، وأعلموا عاملَهم به، فجاء إليه وخدَمه، فقال له خوارزم شاه: احْمِلْنِي في مركبٍ إلى الهند، فحمله إلى شمس الدين أنليمش ملك الهند، وهو نسيبه من جهة زوجته والدة منكبوني بن خوارزم شاه الملك جلال الدين، فإنّها هندية من أهل بيت الملك، فيقال إنه وصل إلى أنليمش، وقد تغيّر عقله مِمّا اعتراه من خوف التتار، أو لأمر سلّطه الله تعالى عليه، فكان يهذِي بالتّتار بكرةً وعشية، وكلّ وقت وكلّ ساعة، ويقول: هو ذا هم قد خرجوا من هذا الباب، قد هجموا من هذه الدرجة، ويُرْعَد ويحول لونه، ويختلّ كلامه وحركاته.

وحكى لي فقيه خُرَاسَاني وصل إلى بغداد يعرف بالبرهان، قال: كان أخي معه، وكان ممّن يثق خوارزمشاه به، ويختصُّه، قال: له خوارزمشاه لما تغيّر عقله بكلمة كان يقولها : «قراتتر كلدي» يكرّرها، وتفسيرها : «التتر السّود قد جاؤوا»، وفي التّتر صِنْف سود يشبهون الزّنج، لهم سيوف عريضة جداً على غير صورة هذه السيوف، يأكلون لحوم الناس، فكان خوارزم شاه قد أُهتِرَ[1] وأغْرِيَ بذكرهم.

وحدّثني البرهان، قال: رَقِيَ به شمسُ الدّين أنليمش إلى قلعة من قلاع الهند، حصينة عالية شاهقة لا يعلوها الغيم أبداً، وإنما تمطر السحب من تحتها. وقال له: هذه القلعة لك وذخائرها أموالك، فكن فيها وادعاً آمناً إلى أن يستقيم طالعك، فالملوك ما زالوا هكذا، يُدْبِرُ طالعُهم ثم يقبل، فقال له: لا أقدر على الثّبات فيها، والمقام بها، لأنّ التتر سوف يطلبونني، ويقدمون إلى ها هنا، ولو شاؤوا لوضعوا سروج خيلهم واحداً على واحد تحت القلعة، فبلغت إلى ذروتها، وصعِدوا عليها، فأخذوني قبضاً باليد، فعلم أنليمش أنَّ عقله قد تغير، وأنّ الله تعالى قد بدّل ما به من نعمة، فقال: فما الّذي تريد؟ قال: أريد أن تحمِلني في البحر المعروف ببحر المعبر إلى كِرْمان، فحمله في نفر يسير من مماليكه إلى كِرْمان، ثم خرج منها إلى أطراف بلاد فارس، فمات هناك في قرية من قرى فارس، وأخفِيَ موتُه، لئلا يقصدَه التتر، وتطلبَ جثّته.

وجملة الأمر أنّ حاله مشتبهة ملتبِسة لم يتحقّق على يقين، وبقِيَ النّاس بعد هلاكه نحو سبع سنين ينتظرونه.

ويذهب كثير منهم إلى أنّه حيّ مستتر، إلى أن ثبت عند الناس كافّة أنه هلَك.

فأمّا جرماغون فإنّه لما يئس من الظّفَر بخُوارزمشاه، عاد من ساحل البحر إلى ما زندران، فملَكها في أسرع وقت، مع حصانتها وصعوبة الدُّخول إليها وامتناع قلاعها، فإنّها لم تزل ممتنعة على قديم الوقت، حتى إنّ المسلمين لما ملكوا بلاد الأكاسرة من العراق إلى أقصى خُراسان، بقيت أعمال مازندران بحالها تؤدّي الخراج، ولا يقدر المسلمون على دخولها، إلى أيّام سليمان بن عبد الملك.

ولما ملكت التّتار مازندران، قتلوا فيها ونهبوا وسلبوا، ثم سلكوا نحو الريّ فصادفوا في الطريق والدة خوارزم شاه ونساءه، ومعهنّ أموال بيت خوارزمشاه وذخائرهم، التي ما لا يسمع بمثلها من الأعلاق النفيسة، وهنّ قاصداتٌ نحو الرّيّ، ليعتصمن ببعض القلاع المنيعة،

(١) أهتر: أولع بالقول في الشيء. القاموس المحيط، مادة (هتر).

فاستولَى التّتار عليهنّ وعلى ما معهنّ بأسره، وسيّروه كلّه إلى جنكزخان بسمرْقَنْد وصمدوا صَمْد الرّيّ، وقد كان اتّصل بهم أنّ محمداً خوارزمشاه قَصَده كما يتسامع النّاس بالأراجيف الصحيحة والباطلة، فوصلوها على حين غفلة من أهلها، فلم يشعرْ بهم عسكر الرّيّ إلا وقد ملكوها ونهبوها، وسبوا الحرم، واسترقّوا الغلمان، وفعلوا كلّ قبيح منكر فيها، ولم يقيموا بها، ومضوْا مسرعين في طلب خُوارزمشاه، فنهبوا في طريقهم ما مرُّوا به من المدن والقرى، وأحرقوا وخربوا، وقتلوا الذّكران والإناث، ولم يبقوا على شيء، وقصدوا نحو هَمذان، فخرج إليهم رئيسها، ومعه أموال جليلة قد جمعها من أهل هَمَذان، عيْناً وعُروضاً وخيلاً، وطلب منهم الأمان لأهل البلد، فأمّنوهم، ولم يعرِضوا لهم وساروا إلى زَنْجان، واستباحوها، وإلى قزوين فاعتصم أهلها منهم بقصَبة مدينتهم، فدخلوها بالسيف عَنْوةً، وقاتلهم أهلها قتالاً شديداً بالسّكاكين - وهم معتادون بقتال السِّكين من حروبهم مع الإسماعيلية - فقتِل من الفريقين ما لا يحصى. ويقال: إنَّ القتلَى بلغت أربعين ألفاً من أهل قَزْوين خاصة.

ثم هجم على التّتار البردُ الشديد والثّلج المتراكم، فساروا إلى أذربيجانَ، فنهبوا القرى، وقتلوا مَنْ وقف بين أيديهم، وأخربوا وأحرقوا، حتى وصلوا إلى تِبْرِيز، وبها صاحب أذرَبيجان أزبك بن البهلوان بن أيلدكر، فلم يخرج إليهم، ولا حدّث نفسه بقتالهم، لاشتغاله بما كان عليه من اللّهْو وإدمان الشرب ليلاً ونهاراً. فأرسل إليهم، وصالح لهم على مال وثياب ودوابّ، وحمل الجميع إليهم، فساروا من عنده يطلبون ساحل البحر، لأنه مشتّى صالح لهم، والمراعي به كثيرة، فوصلوا إلى مُوقان، وهي المنزل الذي نزلته الخرَّميّة في أيام المعتصم، وقد ذكره الطائيّان في أشعارهما في غير موضع، والناس اليوم يقولون بالغين المعجمة عوض القاف، وقد كانوا تطرّقُوا في طريقهم بعضَ أعمال الكرْج، فخرج إليهم منهم عشرة آلاف مقاتل، فحاربوهم، وقتلوا أكثرَهم.

فلما استقرُّوا بمُوقان، راسلت الكرج أزبك بن البهلوان في الاتّفاق على حربهم، وراسلوا موسى بن أيوب المعروف بالأشرف، وكان صاحب خِلاَط وإرمينيّة بمثل ذلك، وظنُّوا أنهم يصبرون إلى أيام الربيع وانحسار الثلوج، فلم يصبروا، وصاروا من مُوقان في صميم الشتاء نحو بلاد الكُرْج، فخرجت إليهم الكُرْج، واقتتلوا قتالاً شديداً، فلم يثبتوا للتتار، وانهزموا أقبح هزيمة، وقتل منهم مَنْ لا يحصى، فكانت هذه الوقعة في ذي الحجة من سنة سبع عشرة وستمائة.

ثم توجّهوا إلى المراغة في أوّل سنة ثماني عشرة، فملَكُوها في صفر، وكانت لامرأةٍ من بقايا ملوك المراغة تدبرها هي ووزراؤها، فنصَبُوا عليها المجانيق، وقدّموا أسارى المسلمين

بين أيديهم، وهذه عادتهم يتترّسون بهم في الحروب، فيصيبهم حدّها، ويسلَمُون هم من مضرّتها، فملكوها عَنْوَةً، ووضعوا السيف في أهلها، ونهبوا ما يصلح لهم، وأحرقوا ما لا يصلح لهم، وخذّل الناس عنهم، حتى كان الواحد منهم يقتل بيده مائة إنسان، والسيوف في أيديهم لا يقدرُ أحدٌ منهم أن يحرّك يده بسيفه نحو ذلك التتريّ، خذلانٌ صبّ على الناس، وأمر سمائيّ اقتضاه.

ثم عادوا إلى هَمَذَان، فطالبوا أهلها بمثل المال الذي بذلوه لهم في الدّفعة الأولى، فلم يكن في الناس فضل لذلك، لأنه كان عظيماً جدًّا، فقام إلى رئيس هَمَذَان جماعة من أهلها، وأسمعوه كلاماً غليظاً، فقالوا: أفقرتنا أوّلاً، وتريد أن تَسْتَصْفِينا دفعة ثانية! ثم لا بدّ للتتار أن يقتلونا، فدعْنا نجاهدهم بالسيف، ونموت كراماً. ثم وثبوا على شحنة كان للتتار بهمذان فقتلوه، واعتصموا بالبلد فحصرّهم التّتار فيه، فقلّت عليهم الميرة، وعدِمت الأقوات. وأضرّ ذلك بأهل همذان، ولم ينل التتار مضرَّة من عدم القوت، لأنهم لا يأكلون إلا اللحم، والخيل معهم كثيرة، ومعهم غنم عظيمة يسوقونها حيث شاؤوا، خيلهم لا تأكل الشعير، ولا تأكل إلاّ نبات الأرض، تحفر بحوافرها الأرض عن العروق، فتأكلها.

فاضطرّ رئيس همذان وأهلُها إلى الخروج إليهم، فخرجوا، والتحمت الحرب بينهم أياماً، وفُقِد رئيس همذان، هَرَب في سَرَب[1] قد كان أعدّه إلى موضع اعتصم به ظاهر البلد، ولم يُعْلم حقيقة حاله، فتحيّر أهلَ هَمَذان بعد فقده ودخلوا المدينة، واجتمعت كلمتهم على القتال في قَصَبة البلد إلى أن يموتوا. وكان التتار قَد عَزمُوا على الرّحيل عنهم لكثرة مَنْ قُتل منهم. فلمّا لم يروْا أحداً يخرج إليهم من البلد، طمِعُوا واستدلُّوا على ضعف أهله، فقصدوهم وقاتلوهم وذلك في شهر رجب من سنة ثماني عشرة وستمائة، ودخلوا المدينة بالسيف، وقاتلهم النّاس في الدُّروب، وبطل السلاح للازدحام، واقتتلوا بالسّكاكين، فقتِلَ من الفريقين ما لا يحصى، وظهر التّتار على المسلمين فأفنوْهم قتلاً، ولم يسلم منهم إلاّ من كان له نَفَقٌ في الأرض يستخفي فيه. ثم ألقوا النار في البلد فأحرقوها، ورحلوا إلى مدينة أرْدَبِيل وأعمال أذربيجان، فملكوا أردِبيل، وقتلوا فيها، فأكثروا.

ثم ساروا إلى تِبْريز، وكان بها شمس الدين عثمان الطّغرائيّ، قد جمع كلمة أهلها بعد مفارقة صاحب أذربيجان أزبك بن البهلوان للبلاد، خوفاً من التّتار، ومقامه بنقْجُوان، فقوّى الطغرائيّ نفوسَ الناس على الامتناع، وحذّرهم عاقبةَ التخاذل، وحَصّن البلد. فلما وصل التّتار، ورأوْا اجتماع كلمة المسلمين وحصانة البلد، طلبوا منهم مالاً وثياباً، فاستقرَّ الأمرُ بينهم

---

(١) السرب: الطريق. القاموس، مادة (سرب).

على شيء معلوم، فسيَّرُوه إليهم، فلما أخذوه رحلُوا إلى بَيْلَقَان. فقاتلهم أهلُها. فملكها التتار في شهر رمضان من هذه السنة، ووضعوا فيهم السيف حتى أفْنَوْهم أجمعين.

ثـم سـاروا إلى مدينة كَنْجَة، وهي أم بلاد أرّان، وأهلُها ذوو شجاعة وبأس وجلَد، لمقاومتهم الكُرْج، وتدرّبهم بالحرب، فلم يقدر التتار عليهم وأرسلوا إليهم يطلبون مالاً وثياباً، فأرسلوه إليهم. فساروا عنهم، فقصدوا الكُرْج، وقد أعدُّوا لهم، فلما صافّوهم هرب الكُرج، وأخذهم السيف، فلم يسلَم إلا الشريد، ونهبت بلادهم وأخربت ولم يُوغل التتار في بلاد الكُرْج، لكثرة مضايقها ودَرْبنداتها[1]، فقصدوا دَرْبَنْد شروان فحصروا مدينة شمَاخِي، وصعدوا سورَها في السّلاليم، وملكوا البلد بعد حَرْبٍ شديدة، وقتلوا فيه فأكثروا.

فلما فرغوا، أرادوا عبورَ الدّربَنْد، فلم يقدموا عليه، فأرسلوا إلى شروان شاه ملك الدربند، فطالبوه بإنفاذ رسولٍ يسعى بينه وبينهم في الصُّلح، فأرسل إليهم عشرة من ثقاته، فلمّا وصلوا إليهم جمعوهم، ثم قتلوا واحداً منهم بحضور الباقين، وقالوا للتسعة: إنْ أنتم عرّفتمونا طريقاً نعبرُ فيه فلكم الأمان، وإلاّ قتلناكم كما قتَلنا صاحبَكم، فقالوا لهم: لا طريق في هذا الدَّربند، ولكن نعرّفكم موضعاً هو أسهل المواضع لعبور الخيل.

وساروا بين أيديهم إليه، فعَبروا الدربند، وتركوه وراء ظهورهم، وساروا في تلك البلاد، وهي مملوءة من طرائق مختلفة منهم اللاّن واللّكز وأصناف من الترْك، فنهبوها وقتلوا الكثير من ساكنيها، ورحلوا إلى اللاّن - وهم أمم كثيرة - وقد وصلهم خبرُهم، وجمعوا وحذروا، وانضاف إليهم جموعٌ من قفجاق، فقاتلوهم فلم يظفرْ أحدُ العسكرين بالآخر، فأرسل التّتار إلى قفجاق: أنتم إخواننا، وجنسنا واحد، واللاّن ليسُوا من جنسكم لتنصروهم، ولا دينُهم دينكم، ونحن نعاهدكم ألا نعرِض لكم، ونحمل إليكم من المال والثيّاب ما يستقرّ بيننا وبينكم، على أن تنصرفوا إلى بلادكم.

فاستقرّ الأمر بينهم على مالٍ وثياب حَمَلها التتار إليهم، وفارقت قفجاق اللّان، فأوقع التتار باللاّن، فقتلوهم، ونهبوا أموالهم، وسبوْا نساءهم. فلما فرغوا منهم سارُوا إلى بلاد قفجاق وهم آمنون متفرِّقون، لما استقرّ بينهم وبين التتار من الصُّلح، فلم يشعروا بهم إلا وقد طرقُوهم، ودخلوا بلادَهم، فأوقعوا بهم الأول فالأول، وأخذوا منهم أضعاف ما حملوا إليهم، وسمع ما كان بعيد الدار من قفجاق بما جرى.

ففرُّوا عن غير قتال، فأبعدوا، فبعضهم بالغياض وبعضهم بالجبال، وبعضهم لحقوا ببلاد

---

(١) دَرْبَنْد: زقاق مغلق الآخر، أو مضيق في جبل. معجم المصطلحات الفارسية، مادة (درب).

الروس. وأقام التّتار في بلاد قَفْجاق، وهي أرض كثيرة المراعي في الشّتاء، وفيها أيضاً أماكن باردة في الصّيف، كثيرة المراعي، وهي غياضٌ[1] على ساحل البحر.

ثم سارت طائفة منهم إلى بلاد الرُّوس، وهي بلاد كثيرة عظيمة، وأهلها نصارى، وذلك في سنة عشرين وستمائة. فاجتمع الرُّوس وقفجاق عن منعهم عن البلاد، فلما قاربهم التتار، وعرفوا اجتماعهم، رجعوا القهقرى إيهاماً للروس، أنّ ذلك عن خوفٍ وحَذَر، فجدّوا في اتّباعهم، ولم يزل التتار راجعين، وأولئك يقْفُون آثارهم اثني عشر يوماً.

ثم رجعت التّتار على الرُّوس وقفجاق، فأثخنوا فيهم قتلاً وأسْراً، ولم يسلم منهم إلاّ القليل، ومن سلِم نزل في المراكب، وخرج في البحر إلى الساحل الشاميّ، وغرق بعض المراكب.

وهذه الوقائع كلّها تولاّها التّتر المغرّبة، الذين قادهم جرماغون، فأمّا ملكهم الأكبر جنكزخان، فإنه كان في هذه المدة بسمَرْقند ما وراء النهر، فقسم أصحابه أقساماً، فبعث قسماً منهم إلى فَرْغانة وأعمالها، فملكوها، وبعث قسماً آخر إلى تَرْمِذ وما يليها فملكُوها، وبعث قسماً آخر إلى بَلْخ وما يليها من أعمال خراسان.

فأمّا بلْخ، فإنهم أمّنوا أهلها، ولم يتعرّضوا لها بنهب ولا قتل، وجعلوا فيها شَحْنَة وكذلك فاريات وكثير من المدن، إلا أنهم أخذوا أهلها، يقاتلون بهم من يمتنع عليهم، حتى وصلوا إلى الطّالِقان، وهي عدّة بلاد، وفيها قلعة حصينة، وبها رجال أنجاد[2]، فأقاموا على حصارها شهوراً فلم يفتحوها، فأرسلوا إلى جنكزخان يعرّفونه عجزهم عنها، فسار بنفسه، وعَبَر جَيْحون، ومعه من الخلائق ما لا يحصى، فنزل على هذه القلعة، وبنى حَوْلها شِبْهَ قلعة أخرى من طين وتراب وخشب وحطب، ونَصَب عليها المنجنيقات، ورمى القلعة بها، فلما رأى أهلُها ذلك فتحوها، وخرجوا وحملوا حَمْلَةً واحدة، فقتِل منهم مَنْ قتل، وسلم مَنْ سَلم، وخرج السالمون فسلَكُوا تلك الجبال والشّعاب، ناجين بأنفسهم، ودخل التّتار القلعة، فنهبوا الأموال والأمتعة، وسَبَوُا النّساء والأطفال.

ثم سيّرجنكزخان جيشاً عظيماً مع أحد أولاده إلى مدينة مَرْو، وبها مائتا ألف من المسلمين، فكانت بين التتار وبينهم حروب عظيمة شديدة، صبَر فيها المسلمون ثم انهزموا، ودخلوا البلد، وأغلقوا أبوابه، فحاصره التتار حصاراً طويلاً، ثم أمّنوا متقدم البلد، فلما خرج

---

(١) الغيضة: جمع غياض، مجتمع الشجر في مغيض ماء. القاموس، مادة (غاض).
(٢) النجيد: الأسد. القاموس، مادة (نجد).

إليهم في الأمان، خلع عليه ابن جنكزخان وأكرمه، وعاهده ألاّ يتعرض لأحدٍ من أهل مَرْو، ففتح الناس الأبواب فلما تمكنوا منهم استعرضوهم بالسيف عن آخرهم، فلم يُبْقُوا منهم باقية، بعد أن استصفوْا أرباب الأموال عقيب عذاب شديد عذّبوهم به.

ثم ساروا إلى نيسابور، ففعلوا به ما فعلوا بمرْوَ من القتل والاستئصال، ثم عمدوا إلى طوس فنهبوها وقتلوا أهلها، وأخرجوا المشهد الذي فيه علي بن موسى الرضا عليه السلام والرشيد هارون بن المهديّ، وساروا إلى هَرَاة فحصروها، ثم أمّنوا أهلها، فلما فتحوها قتلوا بعضهم، وجعلوا على الباقين شِحْنة، فلما بعدُوا وثب أهلُ هَراة على الشّحنة فقتلوه، فعاد عليهم عسكر من التتار، فاستعرضوهم بالسيف، فقتلوهم عن آخرهم.

ثم عادوا إلى طالَقان، وبها ملكهم الأكبر جنكزخان، فسيّر طائفةً منهم إلى خُوارزم، وجعل فيها مقدّم أصحابه وكبراءهم، لأن خوارزم حينئذ كانت مدينة الملك، وبها عسكر كثير من الخوارزميّة، وعوامّ البلد معروفون بالبأس والشجاعة، فساروا ووصلوا إليها، فالتقى الفئتان، واقتتلوا أشد قتال سُمِع به، ودخل المسلمون البلد، وحصرتهم التتار خمسة أشهر، وأرسل التتار إلى جنكزخان يطلبون المدَد، فأمدهم بجيش من جيوشه، فلما وصل قويَتْ منّتهم به وزحَفُوا إلى البلد زحفاً متتابعاً، فملكوا طرَفاً منه، وولجوا المدينة، فقاتلهم المسلمون داخل البلد، فلم يكن لهم به طاقة، فملكوه وقتلوا كلَّ مَنْ فيه، فلما فرغوا منه وقضَوا وطرَهم من القتل والنهب، فتحوا السِّكْر الذي يمنع ماء جيحون عن خوارزم، فدخل الماء البلد، فغرق كله، وانهدمت الأبنية، فبقي بحراً، ولم يسلم من أهل خوارزم أحد البتّة، فإنّ غيره من البلاد كان يسلم نفرٌ يسير من أهلها، وأما خوارزم فمن وقَف للسيف قُتِل، ومن استخفَى غرّقه الماء أو أهلكه الهدْم، فأصبحت خوارزم يبابا[1].

فلما فرغ التّتر من هذه البلاد، سيّروا جيشاً إلى غزنة، وبها حينئذ جلال الدين منكبري بن محمد خوارزم شاه مالكها، وقد اجتمع إليه من سَلِمَ من عسكر أبيه وغيرهم، فكانوا نحو ستين ألفاً، وكان الجيش الذي سار إليهم من التتار اثني عشر ألفاً، فالتقَوْا في حدود غَزْنة، واقتتلوا قتالاً شديداً ثلاثة أيام، ثم أنزل الله النصر على المسلمين، فانهزم التتر وقتلهم المسلمون كيف شاءوا وتحيّز الناجون منهم إلى الطالقان، وبها جنكزخان، وأرسل جلال الدين إليه رسولاً يطلب منه أن يعين موضعاً للحرب، فاتّفقوا على أن يكون الحرب بكابُل، فأرسل جنكزخان إليها جيشاً، وسار جلال الدين إليها بنفسه، وتصافُّوا هناك، فكان الظفر للمسلمين، وهرب

(١) أرض يباب: أي خراب. القاموس، مادة (يبب).

التتار فالتجؤوا إلى الطالقان، وجنكزخان مقيم بها أيضاً، وغَنِم المسلمون منهم غنائمَ عظيمة، فجرت بينهم فتنة عظيمة في الغنائم، وذلك لأنّ أميراً من أمرائهم اسمه بغراق، كان قد أبلى في حرب التّتَر هذه، جَرَتْ بينه وبين أمير يعرف بملك خان نسيب خوارزم شاه مقاولَةٌ أفضتْ إلى أن قتل أخ لبغراق، فغضب وفارق جلال الدين في ثلاثين ألفاً، فتبعه جلال الدين واسترضاه واستعطفه، فلم يرجع، فضعُف جانب جلال الدين بذلك، فبينا هو كذلك وصلَه الخبر أنّ جنكزخان قد سار إليه من الطالقان بنفسه وجيوشه، فعجز عن مقاومته، وعلم أنه لا طاقة له به، فسار نحو بلاد الهند وعَبَر نهر السند، وترك غَزْنة شاغرة كالفريسة للأسد، فوصل إليها جنكزخان فملكها، وقتل أهلها وسَبَى نساءها، وأخرب القصور، وتركها كأمس الغابر.

ثم كانت لهم بعد ملك غزنة واستباحتها وقائعُ كثيرةٌ مع ملوك الروم بني قلج أرسلان لم يوغلوا فيها، في البلاد وإنما كانوا يتطرّقونها وينهبون ما تاخمهم منها، وأذعن لهم ملوك فارس وكِرْمان والتِّيز ومُكران بالطاعة، وحملوا إليهم الإتاوة، ولم يبق في البلاد الناطقة باللسان الأعجميّ بلد إلا حكم فيه سيفُهم أو كتابهم، فأكثر البلاد قتلوا أهلها، وسبق السيف فيهم العذَل، والباقي أدّى الإتاوة إليهم رغماً، وأعطى الطاعة صاغراً، ورجع جنكزخان إلى ما وراء النهر، وتوفي هناك.

وقام بعده ابنه قاآن مقامه، وثبت جرماغون في مكانه بأذرَبيجان. ولم يبقَ لهم إلا أصبهان، فإنهم نزلوا عليها مراراً في سنة سبع وعشرين وستمائة. وحاربهم أهلها. وقتل من الفريقين مقتلة عظيمة، ولم يبلغوا منها غرضاً، حتى اختلَف أهلُ أصبهان في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة وهم طائفتان: حنفيّة وشافعيَّة، وبينهم حروب متَّصِلة وعصبيّة ظاهرة فخرج قومٌ من أصحاب الشافعيّ إلى من يجاورهم ويتاخمهم من ممالك التتار، فقالوا لهم: اقصدوا البلد حتى نسلّمه إليكم، فنقِل ذلك إلى قاآن بن جنكزخان بعد وفاة أبيه، والملْك يومئذ منوطٌ بتدبيره، فأرسل جيوشاً من المدينة المستجدّة التي بنوْها وسمّوها قراحرم، فعبرت جيحون مغرّبة، وانضمّ إليها قوم ممّن أرسله جرماغون على هيئة المددِ لهم، فنزلوا على أصفهان في سنة ثلاث وثلاثين المذكورة وحصروها، فاختلف سيفاً الشافعية والحنفيّة في المدينة، حتى قتِل كثير منهم، وفتحت أبوابُ المدينة، وفتحَها الشافعيّة على عهد بينهم وبين التّتار أن يقتلوا الحنفيّة، ويعفوا عن الشافعيّة، فلمّا دخلوا البلد بدأوا بالشافعية، فقتلوهم قتلاً ذريعاً، ولم يقفوا مع العهد الذي عهدوه لهم، ثم قتلوا الحنفيّة، ثم قتلوا سائر الناس، وسَبَوُا النساء، وشقُّوا بطونَ الحبالى، ونهبوا الأموال، وصادروا الأغنياء، ثم أضرموا النار، فأحرقوا أصبهان، حتى صارت تلولاً من الرماد.

فلمّا لم يبق لهم بلدٌ من بلاد العجم إلا وقدْ دوّخوه، صمدوا نحو إربل في سنة أربع وثلاثين وستمائة، وقد كانوا طرقوها مراراً، وتحيّفوا بعضَ نواحيها فلم يُوغِلوا فيها، والأمير المرتّب

بها يومئذ باتكين الروميّ، فنزل عليها في ذي القعدة من هذه السنة منهم نحو ثلاثين ألف فارس، أرسلهم جرماغون، وعليهم مقدَّم كبير من رؤسائهم يعرف بجكتاي، فغاداها القتال وراوَحها، وبها عسكر جمّ من عساكر الإسلام، فقتِل من الفريقين خلق كثير، واستظهر التتار، ودخلوا المدينة، وهَرَب الناس إلى القلعة، فاعتصمُوا بها، وحصرهم التّتار، وطال الحصار حتى هلك الناس في القلعة عطشاً، وطلب باتكين منهم أن يصالحوه عن المسلمين بمالٍ يؤديه إليهم، فأظهروا الإجابة، فلما أرسل إليهم ما تقرّر بينهم وبينه، أخذوا المال وغدرُوا به، وحملوا على القلعة بعد ذلك حملاتٍ عظيمة، وزحفوا إليها زحفاً متتابعاً، وعلّقوا عليها المنجنيقات الكثيرة، وسيّر المستنصر بالله الخليفة جيوشَه مع مملوكه وخادم حضرته وأخصّ مماليكه به شرف الدين إقبال الشرامي، فساروا إلى تكْرِيت، فلما عرف التّتر شخوصَهم رَحَلوا عن إربل، بعد أن قتلوا منها ما لا يُحصى، وأخربوها وتركوها كجوْف حمار، وعادوا إلى تِبريز، وبها مقام جرماغون، وقد جعلها دارَ مُلْكه.

فلما رَحَلُوا عن إربل، عاد العسكر البغداديّ إلى بغداد، وكانت للتتار بعد ذلك نهضات وسرايا كثيرة إلى بلاد الشام، قتلوا ونهبُوا وسَبَوْا فيها، حتى انتهت خيولهم إلى حلَب، فأوقعوا بها، وصانعهم عنها أهلُها وسلطانها، ثم عمدوا إلى بلاد كَيْ خِسْرُو صاحب الروم، وذلك بعد أن هلك جرماغون، وقام عوضه المعروف ببايايسيجو، وكان قد جمع لهم ملك الروم قضَّه وقضيضَه، وجيشه ولفيفَه، واستكثر من الأكراد العتمرية، ومن عساكر الشام وجُنْد حلب، فيقال: إنه جمع مائة ألف فارس وراجل، فلقيَه التّتار في عشرين ألفاً، فجرت بينه وبينهم حروب شديدة، قتلوا فيها مقدّمته، وكانت المقدمة كلُّها أو أكثرها من رجال حلب، وهم أنجاد أبطال، فقتِلوا عن آخرهم، وانكسر العسكر الروميّ، وهرب صاحب الروم حتى انتهى إلى قلعة له على البحر تعرف بأنطاكيّة، فاعتصم بها وتمزّقت جموعه، وقتِل منهم عدد لا يحصى، ودخلت التّتار إلى المدينة المعروفة بقيْساريّة، ففعلوا فيها أفاعيل منكَرة من القتل والنهب والتحريق، وكذلك بالمدينة المعروفة بسيواس وغيرها من كبار المدن الروميَّة، وبَخَع[1] لهم صاحب الروم بالطاعة، وأرسل إليهم يسألهم قبولَ المال والمصانعة، فضربوا عليه ضريبةً يؤدّيها إليهم كلّ سنة، ورجعوا عن بلاده.

وأقاموا على جُملة السّكون والموادعة للبلاد الإسلامية كلّها، إلى أن دخلت سنة ثلاث وأربعين وستمائة. فاتفّق أنّ بعض أمراء بغداد وهو سليمان بن برجم، وهو مقدّم الطائفة المعروفة بالإيواء، وهي من التركمان، قتلَ شِحْنة من شِحنهم في بعض قلاع الجبل يعرف

(١) بخع له: خضع له. القاموس، مادة (بخع).

بخليل بن بدر، فأثار قتلُه أن سار من تِبريز عشرة آلاف غلام منهم، يطوون المنازل، ويسبِقُون خبرهم، ومقدّمهم المعروف بجكتاي الصغير، فلم يشعر الناس ببغداد إلا وهم على البلد، وذلك في شهر ربيع الآخر من هذه السنة في فصل الخريف، وقد كان الخليفة المستعصم بالله، أخرَج عسكره إلى ظاهر سُور بغداد على سبيل الاحتياط، وكان التتر قد بلغهم ذلك، إلاّ أنّ جواسيسهم غرّتهم، وأوقعت في أذهانهم أنه ليس خارج السُّور إلا خيام مضروبة وفساطيطُ مضروبة، لا رجالَ تحتها، وأنكم متى أشرْفتم عليهم ملكْتم سوادَهم وثَقَلهم، ويكون قُصارَى أمر قوم قليلين تحتها أن ينهزمُوا إلى البلد، ويعتصموا بجدرانه، فأقبلت التتر على هذا الظنّ، وسارت على هذا الوهم.

فلما قربوا من بغداد، وشارفوا الوصول إلى المعسكر، أخرج المستعصم بالله الخليفة مملوكه وقائد جيوشه شرف الدين إقبالاً الشرابيّ إلى ظاهر السور، وكان خروجه في ذلك اليوم من لطف الله تعالى بالمسلمين، فإنّ التتار لو وصلُوا وهو بعد لم يخرج، لاضطرب العسكرُ، لأنّهم كانوا يكونون بغير قائد ولا زعيم، بل كلّ واحد منهم أمير نفسه، وآراؤهم مختلفة، لا يجمعهم رأي واحد، ولا يحكم عليها حاكم واحد، فكانوا في مظنّة الاختلاف والتفرّق، والاضطراب والتشتت، فكانَ خروج شرف الدين إقبال الشرابيّ في اليوم السادس عشر من هذا الشهر المذكور، ووصلت التّتر إلى سور البلد في اليوم السابع عشر، فوقفوا بإزاء عساكر بغداد صفًّا واحداً، وترتب العسكر البغداديّ ترتيباً منتظماً، ورأى التتر من كثرتهم وجودة سلاحهم وعددهم وخيولهم، ما لم يكونوا يظنُّونه ولا يحسبونه، وانكشف ذلك الوَهْم الذي أوهمهم جواسيسهم عن الفساد والبطلان.

وكان مدبّر أمر الدولة والوزارة في هذا الوقت، هو الوزير مؤيد الدين محمد بن أحمد بن العلقميّ، ولم يحضر الحرْب، بل كان ملازماً ديوانَ الخلافة بالحضرة، لكِنه كان يمدّ العسكر الإسلاميّ من آرائه وتدبيراته بما ينتهون إليه ويقفون عنده، فحملت التّتار على عسكر بغداد حملات متتابعة، ظنوا أنّ واحدةً منها تهزمهم، لأنهم قد اعتادوا أنه لا يقف عسكر من العساكر بين أيديهم، وأنّ الرعب والخوف منهم يكفي ويغني عن مباشرتهم الحرب بأنفسهم، فثبت لهم عسكر بغداد أحسن ثُبوت، ورشقوهم بالسهام، ورشقت التتار أيضاً بسهامها، وأنزل الله سكينتَه على عسكر بغداد، وأنزل بعد السكينة نصره، فما زال العسكر البغداديّ تظهر عليه أمارات القوّة، وتظهر على التّتار أمارات الضعف والخذلان إلى أن حَجَز اللّيْلُ بين الفريقين، ولم يصطدم الفيلقّان وإنما كانت مناوشاتٌ وحَمَلات خفيفة لا تقتضِي الاتصال والممازجة، ورشْقٌ بالنُّشّاب شديد.

فلما أظلم الليل، أوقد التتار نيراناً عظيمة، وأوهموا أنّهم مقيمون عندها، وارتحلوا في

الليل راجعين إلى جهة بلادهم، فأصبح العسكر البغداديّ، فلم ير منهم عيناً ولا أثراً، وما زالوا يطوُون المنازل، ويقطعون القُرى عائدين حتى دخلوا الدربند[١]، ولحقوا ببلادهم.

وكان ما جرى من دلائل النبوّة، لأن الرسول صلى الله عليه وآله وَعَد هذه الملّة بالظهور والبقاء إلى يوم القيامة، ولو حَدَث على بغداد منهم حادثة، كما جرى على غيرها من البلاد، لانقرضت ملّة الإسلام، ولم يبق لها باقية.

وإلى أن بلغْنَا من هذا الشرح إلى هذا الموضع، لم يذعَر العراق منهم ذاعر بعد تلك النَّوْبة التي قدّمنا ذكرها.

قلت: وقد لاح لي من فحوى كلام أمير المؤمنين عليه السلام أنه لا بأس على بغداد والعراق منهم، وأن الله تعالى يكفي هذه المملكة شرّهم، ويردّ عنها كيدَهم، وذلك من قوله عليه السلام: «ويكون هناك استحرار قتل»، فأتي بالكاف، وهي إذا وقعت عقيب الإشارة أفادت البعد، تقول للقريب: هنا، وللبعيد هناك، وهذا منصوص عليه في العربية، ولو كان لهم استحرار قتل في العراق لما قال: «هناك» بل كان يقول: «هنا»، لأنه عليه السلام خطب بهذه الخطبة في البَصْرة، ومعلوم أن البصرة وبغداد شيء واحدٌ وبلد واحد، لأنهما جميعاً من إقليم العراق، وملكهما ملك واحد، فيلمح هذا الموضع، فإنه لطيف.

وكتبتُ إلى مؤيد الدين الوزير عقيب هذه الوقعة التي نصر فيها الإسلام، ورجع التتر مخذولين ناكصين على أعقابهم أبياتاً أنسِب إليه الفَتْح، وأشير إلى أنه هو الذي قام بذلك وإن لم يكن حاضراً له بنفسه، وأعتذر إليه عن الإغباب بمديحه، فقد كانت الشواغل والقواطع تصدّ عن الانتصاب لذلك:

أبْقَى لَنَا اللهُ الوزيرَ وحاطَهُ ... بكتائبٍ من نصرِه ومقانبِ[٢]
وامتدّ وارفُ ظِلّه لنزيله ... وصفتْ متُونُ غديرِه للشاربِ
يا كالىءَ الإسلام إذ نزلَتْ به ... فرغَاءُ تشهق بالنّجيع السالبِ
في خُطّة بَهْمَاءَ دَيْمُومِيّةٍ ... لا يهدي فيها السُّلَيْكُ للاحبِ

---

(١) الدربند: المضيق في الجبل. معجم المصطلحات الفارسية، مادة (درب).
(٢) المقانب: الذئاب الضارية. القاموس، مادة (قنب).

لا يَمتطي سَلِسَاتُهَا مرهوبة الـ ـإبساسِ جَلْسٌ لا تدرّ لعاصبِ
فرّجْتَ غمرتَها بقلب ثابتٍ في حملة ذعرى ورأى ثاقب
ما غبتَ ذاك اليومَ عن تدبيرها كم حاضرٍ يُغْضَى بسيف الغائبِ!
عُمَرُ الَّذِي فتحَ العراق وإنّما سَعْدٌ حسام في يمين الضارب
أثني عليك ثناء غيرِ موارِبِ وأجيدُ فيك المدحَ غير مراقبِ
وأنا الذي يهواك حبًّا صادقاً متقادماً، ولربّ حبٌّ كاذبِ
حُبًّا ملأتُ به شعاب جوانحي يفعاً، وها أنا ذو عِذار شائبِ
إنّ القريض وإن أغبّ متيّمٌ بكُمُ، وربّ مجانبٍ كمواظبِ
ولقد يخالِطُك القَصِيّ وربّما يُمْنَى بودّ مماذقٍ متقاربِ
سدّت مسالِكه همومٌ جَعجعتْ بالفِكر حتّى لا يبضّ لحالبِ
ومن العناء مغلب في حَظّه يبغي مغالَبة القضاء الغالبِ

وهي طويلة، وإنما ذكرنا منها ما اقتضته الحال.

١٢٩ - ومن خطبة له عليه السلام في ذكر المكاييل والموازين

الأصل: عِبَادَ ٱللهِ، إِنَّكُمْ وَمَا تَأْمُلُونَ مِنْ هَذِهِ ٱلدُّنْيَا أَثْوِيَاءُ مُؤَجَّلُونَ، وَمَدِينُونَ مُقْتَضَوْنَ، أَجَلٌ مَنْقُوصٌ، وَعَمَلٌ مَحْفُوظٌ، فَرُبَّ دَائِبٍ مُضَيَّعٌ، وَرُبَّ كَادِحٍ خَاسِرٌ، وَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي زَمَنٍ لاَ يَزْدَادُ ٱلْخَيْرُ فِيهِ إِلاَّ إِدْبَاراً، وَالشَّرُّ إِلاَّ إِقْبَالاً، وَالشَّيْطَانُ فِي هَلاَكِ النَّاسِ إِلاَّ طَمَعاً، فَهَذَا أَوَانٌ قَوِيَتْ عُدَّتُهُ، وَعَمَّتْ مَكِيدَتُهُ، وَأَمْكَنَتْ فَرِيسَتُهُ.

ٱضْرِبْ بِطَرْفِكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ النَّاسِ، فَهَلْ تُبْصِرُ إِلاَّ فَقِيراً يُكَابِدُ فَقْراً، أَوْ غَنِيًّا بَدَّلَ نِعْمَةَ ٱللهِ كُفْراً، أَوْ بَخِيلاً ٱتَّخَذَ ٱلْبُخْلَ بِحَقِّ ٱللهِ وَفْراً، أَوْ مُتَمَرِّداً كَأَنَّ بِأُذُنِهِ عَنْ سَمْعِ الْمَوَاعِظِ وَقْراً!

أَيْنَ أَخْيَارُكُمْ وَصُلَحَاؤُكُمْ، وَأَيْنَ أَحْرَارُكُمْ وَسُمَحَاؤُكُمْ، وَأَيْنَ الْمُتَوَرِّعُونَ فِي مَكَاسِبِهِمْ، وَالْمُتَنَزِّهُونَ فِي مَذَاهِبِهِمْ! أَلَيْسَ قَدْ ظَعَنُوا جَمِيعاً عَنْ هَذِهِ ٱلدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ، وَالْعَاجِلَةِ الْمُنَغِّصَةِ!

وَهَلْ خُلِّفْتُمْ إِلاَّ فِي حُثَالَةٍ لاَ تَلْتَقِي بِذَمِّهِمُ الشَّفَتَانِ، ٱسْتِصْغَاراً لِقَدْرِهِمْ، وَذَهَاباً عَنْ ذِكْرِهِمْ! فَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ!

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فَلاَ مُنْكِرٌ مُغَيِّرٌ، وَلاَ زَاجِرٌ مُزْدَجِرٌ. أَفَبِهَذَا تُرِيدُونَ أَنْ تُجَاوِرُوا ٱللهَ فِي دَارِ

قُدْسِهِ، وَتَكُونُوا أَعَزَّ أَوْلِيَائِهِ عِنْدَهُ! هَيْهَاتَ لاَ يُخْدَعُ ٱللهُ عَنْ جَنَّتِهِ، وَلاَ تُنَالُ مَرْضَاتُهُ إِلاَّ بِطَاعَتِهِ.

لَعَنَ ٱللهُ ٱلآمِرِينَ بِالْمَعْرُوفِ التَّارِكِينَ لَهُ، وَالنَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ ٱلْعَامِلِينَ بِهِ!

الشرح: أثوياء: جمع ثوِيّ، وهو الضيف، كقويّ وأقوياء. ومؤجّلون: مؤخّرون إلى أجَل، أي وقت معلوم.

ومدينُون: مُقْرَضُون، دِنْتُ الرجل أقرضتُه، فهو مدين ومديون، ودنت أيضاً، إذا استقرضت، وصار عليّ دين، فأنا دائن، وأنشد:

نَدِينُ ويقضِي الله عَنَّا، وقَدْ نَرَى ... مصارعَ قومٍ لا يدينُون ضُيَّعا

ومقتضَوْن: جمع مقتضًى، أي مطالَب بأداء الدين، كمرتَضَوْن جمع مرتَضى، ومُصْطَفَوْن جمع مصطفًى.

وقوله: «أجَل منقوص»، أي عمر، وقد جاء عنهم: أطالَ الله أجَلك، أي عمرَك وبقاءك.

والدائب: المجتهد ذو الجِدّ والتعب. والكادح: الساعي.

ومثل قوله: «فربّ دائب مضيّع، وربّ كادح خاسر»، قول الشاعر:

إذا لم يكنْ عونٌ من الله للفتى ... فأكثَرُ ما يجني عليهِ اجتهادُهُ

ومثله:

إذا لم يكنْ عونٌ من الله للفتى ... أتتْهُ الرَّزايا من وجوه الفوائدِ

وهو كثير، والأصل فيه قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝﴾[1] ويروى: «فربّ دائب مضِيع»، بغير تشديد.

وقوله: «وأمكنت فريستُه»، أي وأمكنته، فحذِف المفعول.

وقوله: «فاضرب بطرفك» لفظة فصيحة، وقد أخذَها الشاعر فقال:

فاضرِبْ بطرْفِك حيث شئت فلن ترى ... إلاّ بخيلاً...............

والوفر: المال الكثير، أي بخِل ولم يؤدّ حق الله سبحانه، فكثر مالُه.

والوَقْر، بفتح الواو: الثِّقَل في الأذن. ورُوي «المنغَصة»، بفتح الغين.

الحُثالة: السّاقط الرديء من كلّ شيء.

(١) سورة الغاشية، الآيات: ٢-٤.

وقوله: «لا تلتقي بذمّهم الشفتان»، أي يأنَف الإنسان أن يذمّهم، لأنه لا بدّ في الذمّ من إطباق إحدى الشفتين على الأخرى، وكذلك في كلّ الكلام.

وذهاباً عن ذكرهم، أي ترفّعاً، يقال: فلان يذهب بنفسه عن كذا، أي يرفعها.

ولا زاجر مزدجِر، أي ليس في الناس مَنْ يزجُر عن القبيح وينزجر هو عنه.

ودار القدْس: هي الجنّة. ولا يُخْدَع الله عنها، لأنه لا تَخفى عليه خافية، ولا يجوز عليه النّفاق والتمويه. ثم لعن الآمر بالمعروف ولا يفعله، والناهيَ عن المنكر ويرتكبه، وهذا من قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾(١).

ولست أرى في هذه الخطبة ذكراً للموازين والمكاييل، التي أشار إليها الرضيّ رحمه الله، اللّهم إلا أن يكون قوله عليه السلام: «وأين المتورّعون في مكاسبهم»، أو قوله: «ظهر الفساد»، ودلالتهما على الموازين والمكاييل بعيدة.

من أقوال الحكماء والصالحين

واعلم أنّ هذه الخطبة قد اشتملتْ عَلَى كلام فصيح، وموعظة بالغة من ذكر الدنيا وذكر أهلها، ونحن نذكر كلماتٍ وردت عن الحكماء والصالحين تناسبها: عَلَى عادتنا في إيراد الأشباه والنظائر.

قال بعضُ الصالحين: ما أدرِي كيف أعجب من الدنيا، أمِنْ حُسْن منظرِها وقبح مخبرِها، أم من ذمّ الناس لها، وتناحُرِهم عليها!

قيل لبعضهم: كيف أصبحت؟ قال: آسفاً عَلَى أمسِي، كارهاً ليومي، متّهِماً لِغدي.

قيل لأعرابيّ: كيف ترى الدهر؟ قال: خَدُوعاً خلوباً، وَثُوباً غَلُوباً.

قيل لصوفيّ: لم ترَكْتَ الدنيا؟ قال: لأني مُنِعْتُ صفوَها، وامتنعت منْ كدرها.

وقيل لآخر: لم تركتَ الدّنيا؟ قال: لأنّي عدمت الوسيلة إليها إلا بعشقها، وأعشَقُ ما أكون لها أغدرُ ما تكون بي. وأنشد لبشر الحافي:

قرير العين لا ولدٌ يموتُ ... ولا حذِرٌ يبادِرُ ما يفوتُ
رخيّ البال ليس له عيالٌ ... خليٌّ من حُرِبت ومن دُهِيتُ
قضى وطر الصّبا وأفاد عِلماً ... فعاتبه التفرّد والسُّكُوتُ
وأكبر همّه مما عليه ... تذابحَ مَنْ ترى خلقٌ وقُوتُ

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٤.

قال أبو حيّان: سمعت ابن القصّاب الصوفي، يقول: اسمعْ واسكت، وانظر واعجب، قال ابن المعتز:

مَـلَّ سـقـامـي عـوّدُهْ ... وخـان دَمْـعِـي مُـسْـعِـدُهْ
وضـاعَ مـن لـيـلـى غـدُهْ ... طـوبَـى لِـعَـيْـنٍ تَـجِـدُهْ
قـلَّـت مـن الـدَّهْـرِ يـدُهْ ... يـفـنَـى ويـبـقـى أبَـدُهْ
والـمـوت ضـارٍ أسَـدُهْ ... وقـاتـلٌ مَـنْ يـلِـدُهْ

ومن الشّعر القديم المختلف في قائله:

قَـصْـرُ الـجـديـد إلَـى بِـلَـى ... والـوصـل فـي الـدُّنـيـا انـقـطـاعُـهْ
أيّ اجـتـمـاعٍ لـم يَـعُـدْ ... بـتـفـرّقٍ مـنـهـا اجـتـمـاعُـهْ
أم أيّ شَـعْـبٍ ذي الـتـئـا ... مٍ لـم يـبـدِّدْهُ انـصـداعُـهْ
أم أيّ مـنـتـفـعٍ بـشـي ... ءٍ ثـم تَـمّ لـه انـتـفـاعُـهْ
يـا بـؤسَ لـلـدّهـر الّـذِي ... مـا زال مـخـتـلـفـاً طـبـاعُـهْ
قـد قـيـل فـي مـثَـلٍ خَـلاَ: ... «يـكـفِـيـكَ مِـنْ شَـرٍّ سَـمـاعُـهْ»

قيل لصوفيّ: كيف ترى الدّنيا؟ قال: وما الدّنيا؟ لا أعرف لها وجوداً، قيل له: فأين قلبُك؟ قال: عند ربّي، قيل: فأين ربك؟ قال: وأين ليس هو!

قال ابن عائشة: كان يقال: مجالسةُ أهل الدّيانة تجلُو عن القلوب صدأ الذنوب، ومجالسة ذوي المروءات تدلُّ على مكارم الأخلاق، ومجالسة العلماء تزكّي النفوس.

ومن كلام بعض الحكماء الفصحاء: كُنْ لنفسك نصيحاً، واستقبل توبةً نصوحاً، وازهَدْ في دارٍ سمّها ناقع، وطائرها واقع، وارغب في دارِ طالبها مُنْجِح، وصاحبها مفلح. ومتى حقّقت وآثرت الصدق، بانَ لك أنّهما لا يجتمعان، وأنّهما كالضّدّين لا يصطلحان، فجرِّدْ هَمّك في تحصيل الباقية، فإنّ الأخرى أنت فانٍ عنها وهي فانية عنك، وقد عرفت آثارَها في أصحابها ورفقائها، وصُنْعَها بطلاّبها وعشقائها معرِفة عيان، فأيّ حجة تبقى لك، وأيّ حجة لا تثبت عليك!

ومن كلام هذا الحكيم: فإنّا قد أصبحْنَا في دارٍ رابحها خاسر، ونائلها قاصر، وعزيزها ذليل، وصحيحُها عليل، والداخل إليها مخرَج، والمطمئنّ فيها مزعَج، والذائق من شرابِها سكران، والواثق بسرابها ظمآن، ظاهرها غُرور، وباطنها شرور، وطالبها مكدود، وعاشقها مجهود، وتاركها محمود. العاقل مَنْ قَلاَها وَسَلا عنها، والظريفُ مَنْ عافها وأنِفَ منها، والسعيد مَنْ غَمّض بصره عن زهرتها، وصرفه عن نَضْرتها، وليس لها فضيلة إلا دلاَلتُها على نفسها، وإشارتُها إلى نقصها، ولعمري إنّها لفضيلة لو صادفتْ قلباً عقولاً، لا لساناً قؤولاً،

وعملاً مقبولاً، لا لفظاً منقولاً، فإلى الله الشكوى منْ هوًى مُطاع، وعمر مضاع! فبِيَدِه الداء والدواء، والمرض والشفاء.

قال أبو حرّة: أتينا بكْر بن عبد الله المرّي نعوده، فدخلنا عليه وقد قام لحاجته، فجلسنا ننتظره، فأقبَل إلينا يتهادَى بين رجلين، فلما نظر إلينَا سلّم علينا، ثم قال: رحِم الله عبداً أعطِيَ قُوةً فعمِل بها في طاعة الله، أو قصّر به ضعف فكفّ عن محارم الله.

وقال بَكْر بن عبد الله: مثلُ الرّجل في الدنيا مثل رجل له ثلاثة خلاّن، قال له أحدهم: أنا خازنك خُذْ مِنّي ما شئت، فاعمل به ما شئت، وقال الآخر: أنا معك أحمِلك وأضَعُك، فإذا متّ تركتك، وقال الآخر: أنا أصحبك أبداً، حياتك وموتَك. فأما الأوّل فمالُه، وأما الثاني فعشيرتُه، وأما الثالث فعمله.

قيل للزّهريّ: مَن الزّاهد في الدنيا؟ قال: مَنْ لم يمنع الحلال شكرَه، ومن لم يمنع الحرام صَبْرَه.

وقال سفيانُ الثوريّ: ما عبِد الله بمثل العقل، ولا يكون الرّجل عاقلاً حتى تكون فيه عشر خصال: يكون الكِبْر منه مأموناً، والخيْر منه مأمولاً، يقْتدِي بمنْ قبله، ويكون إماماً لمن بعده، وحتى يكون الذلّ في طاعة الله أحبَّ إليه من العزّ في معصية الله، وحتّى يكون الفقر في الحلال، أحبّ إليه من الغنى في الحرام، وحتّى يكون عيشه القوت، وحتّى يستقلّ الكثير من عمله، ويستكثر القليل من عمل غيره، وحتى لا يتبرّم بطلب الحوائج قِبله، والعاشرة وما العاشرة! بها شادَ مجدَه، وعلا ذكره، أن يخرج من بيته فلا يستقبله أحدٌ من الناس إلاّ رأى أنّه دونه.

قال يونس بن حبيب: كان عندنا بالبصرة جنديّ عابد، فأحبّ الغزو، فلما خرج شيَّعتُه، فقلت: أوصني، فقال: أوصيك بتقوى الله، وأوصيك بالقرآن، فإنّه نور الليل المظلم، وهُدَى النّهار المشرق، فاعمل به عَلَى ما كان من جهدٍ وفَاقة، فإن عَرَض بلاء فقدّم مالَك دون نفسِك، فإن تجاوز البلاء فقدّم مالَك ونفسَك دون دينك. واعلم أنّ المحروب من حُرِبَ دينه، والمسلوبَ مَنْ سُلِبَ يقينه. إنه لا غنى مع النار، ولا فقر مع الجنّة، وإنّ جهنم لا يفكّ أسيرها، ولا يَستغني فقيرها.

ابن المبارك، كان فيما مضى جَبَّار يقتل الناس على أكل لحوم الخنازير، فلم يزل الأمر يترقّى حتى بلغ إلى عابد مشهور، فأراده على أكلها، وهدّده بالقتل، فشقّ ذلك على الناس. فقال له صاحب شرطته: إنّي ذابح لك غداً جَدْياً، فإذا دعاك هذا الجبّار لتأكل، فكلْ فإنّما هو

(١) الماج من يسيل لعابه كِبَراً وهرماً. القاموس، مادة (مجج).

جَذْي، فلما دعاهُ ليأكل أبى أن يأكُل، فقال: أخرجوه واضربوا عنقَه فقال له الشرطيّ: ما منعك أنْ تأكلَ من لحم جذْي؟ قال: إنّي رجل منظور إليّ، وإني كرهت أنْ يتأسّى بيَ النّاس في معاصي الله. فقدّمه فقتله.

سفيان الثوريّ، كان رجل يبكي كثيراً، فقال له أهله: لو قتلتَ قتيلاً ثم أتيت وليّه فرآك تبكي هذا البكاء لعفا عنك، فقال: قد قتلتُ نفسي، فلعلّ وليَّها يعفو عني.

وكان أيّوب السَّختيانيّ كثيرَ البكاء، وكان يغالط الناس عن بكائه، يبكي مرة فيأخذ أنفه، ويقول: الزكمة ربما عرضت لي، ويبكي مَرّة فإذا استبان مَنْ حوله بكاءه، قال: إن الشيخ إذا كبر مجّ.

ومن كلام أبي حيان التوحيدي في «البَصائر»[1]: ما أقول في عالَم! الساكن فيه وَجل، والصاحي بين أهله ثَمِل، والمقيم على ذنوبه خَجِل، والراحل عنه مع تماديه عَجِل. وإن داراً هذه من آفاتها وصروفها لمحقوقة بهجرانها وتركها، والصُّدُوف منها خاصّة، ولا سبيل لساكنها إلى دار القرار إلاّ بالزهد فيها، والرضا بالطفيف منها، كبُلْغة الثاوي، وزاد المنطلق.

١٣٠ - ومن كلام له عليه السلام لأبي ذرّ رحمه الله لما أخرج إلى الرّبَذة

الأصل: يا أبا ذَرّ، إنّكَ غَضِبْتَ لله فَارْجُ مَنْ غَضِبْتَ لَهُ. إِنَّ ٱلْقَوْمَ خَافُوكَ عَلَى دُنْيَاهُمْ وَخِفْتَهُمْ عَلَى دِينِكَ، فَاتْرُكْ فِي أَيْدِيهِمْ مَا خَافُوكَ عَلَيْهِ، وَاهْرَبْ مِنْهُمْ بِمَا خِفْتَهُمْ عَلَيْهِ، فَمَا أَحْوَجَهُمْ إِلَى مَا مَنَعْتَهُمْ، وَأَغْنَاكَ عَمَّا مَنَعُوكَ!

وَسَتَعْلَمُ مَنِ الرَّابِحُ غَداً، وَٱلْأَكْثَرُ حَسَداً، وَلَوْ أَنّ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ كَانَتَا عَلَى عَبْدٍ رَتْقاً، ثُمَّ ٱتَّقَى ٱللهَ لَجَعَلَ ٱللهُ لَه مِنْهُمَا مَخْرَجاً.

لاَ يُؤْنِسَنَّكَ إِلاَّ ٱلْحَقُّ، وَلاَ يُوحِشَنَّكَ إِلاَّ ٱلْبَاطِلُ، فَلَوْ قَبِلْتَ دُنْيَاهُمْ لأَحَبُّوكَ، وَلَوْ قَرَضْتَ مِنْهَا لأَمَّنُوكَ.

الشرح: واقعة أبي ذرّ رحمه الله وإخراجه إلى الرَّبَذة، أحدُ الأحداث التي نُقِمَتْ على عثمان: وقد رَوَى هذا الكلامَ أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ في كتاب «السقيفة» عن

(١) «بصائر القدماء وبشائر الحكماء»: للشيخ أبي حيان علي بن محمد التوحيدي البغدادي المتوفى سنة (٣٨٠هـ)، ويقال له «البصائر والذخائر»، «كشف الظنون» (١/ ٢٤٦).

عبد الرزّاق، عن أبيه، عن عِكْرِمة، عن ابن عبّاس، قال: لمّا أُخْرِج أبو ذَرّ إلى الرَّبَذة، أمر عثمان، فنودي في الناس: ألاّ يُكَلِّم أحد أبا ذَرّ ولا يشيّعه. وأمر مَرْوان بن الحَكم أن يخرُج به. فخرج به، وتحاماه النّاس إلا عليّ بن أبي طالب عليه السلام وعَقِيلاً أخاه، وحسناً وحسيناً عليهما السلام، وعمّاراً، فإنهم خرجوا معه يشيّعونه، فجعل الحسن عليه السلام يكلّم أبا ذَرّ، فقال له مرْوان: إيهاً يا حسن! ألا تَعلم أنّ أميرَ المؤمنين قد نهى عن كلام هذا الرجل! فإن كنت لا تعلم فاعلم ذلك، فحمل عليّ عليه السلام عَلَى مَروان، فضرب بالسوط بين أذُنيْ راحلته، وقال: تنحَّ لحاك الله إلى النار!

فرجع مَرْوان مغضَباً إلى عثمان، فأخبره الخبَر، فتلظّى على عليّ عليه السلام، ووقف أبو ذَرّ فودعه القوم، ومعه ذكوان مولى أمّ هانيء بنت أبي طالب.

قال ذكْوان: فحفظت كلام القوم - وكان حافظاً - فقال عليّ عليه السلام: يا أبا ذرّ، إنّك غضبتَ لله، إنّ القوم خافوك على دنياهم، وخفتَهم على دينك. فامتحنوك بالقِلَى، ونَفَوْك إلى الفلا، والله لو كانت السموات والأرض على عبدٍ رَتْقاً، ثمّ اتقى الله لجعل له منها مخرجاً. يا أبا ذرّ لا يؤنسنّك إلا الحقّ، ولا يوحشنّك إلاّ الباطل. ثم قال لأصحابه: ودّعوا عَمّكم، وقال لعقِيل: ودّع أخاك.

فتكلّم عَقِيل، فقال: ما عسى أن نقول يا أبا ذرّ، وأنت تعلم أنّا نحبك، وأنت تحبّنا! فاتّق الله، فإنّ التقوى نجَاة، واصبر فإنّ الصبر كرَم. واعلم أن استثقالك الصّبر من الجزع، واستبطاءك العافيةَ من اليأس، فدع اليأس والجزع.

ثم تكلّم الحسن، فقال: يا عمّاه، لولا أنه لا ينبغي للمودّع أن يسكت، وللمشيّع أن ينصرف، لقصر الكلام وإن طال الأسف، وقد أتى القوم إليك ما ترى، فضع عنك الدنيا بتذكّر فراغها، وشدّة ما اشتدّ منها برجاء ما بعدها، واصبر حتى تَلْقَى نبيّك صلى الله عليه وآله وهو عنك راضٍ.

ثم تكلم الحُسين عليه السلام، فقال: يا عمّاه، إنّ الله تعالى قادر أن يغير ما قَدْ ترى، والله كلَّ يوم هو في شأن، وقد منعك القوم دنياهم، ومنعتَهم دينك، فما أغناك عمّا منعوك، وأحوجَهم إلى ما منعتهم! فاسأل الله الصبر والنصر، واستعِذْ به من الجشع والجزَع، فإنّ الصبر من الدين والكرم، وإنّ الجَشع لا يقدّم رزقاً، والجزع لا يؤخّر أجلاً.

ثم تكلّم عمّار رحمه الله مغضباً، فقال: لا آنس الله مَنْ أوحَشَك، ولا آمن مَنْ أخافك، أما والله لو أردتَ دنياهم لأمّنوك، ولو رضيت أعمالَهم لأحبُّوك، وما منع الناس أن يقولوا بقولك إلا الرضا بالدنيا، والجزع من الموت. مالوا إلى ما سلطان جماعتهم عليه، والملك لمنْ غلَب، فوهبوا لهم دينهم، ومنحهم القوم دنياهم، فخسرُوا الدّنيا والآخرة، ألا ذلك هو الخسران المبين!

فبكى أبو ذرّ رحمه الله - وكان شيخاً كبيراً - وقال: رحمكم الله يا أهل بيت الرحمة! إذا رأيتُكم ذكرتُ بكم رسول الله صلى الله عليه وآله، ما لي بالمدينة سَكَنٌ ولا شَجَنٌ غيركم، إنّي ثَقُلت على عثمان بالحجاز، كما ثقُلت على معاوية بالشام، وكره أن أجاور أخاه وابنَ خاله بالمصرين، فأفسد الناس عليهما، فسيّرني إلى بلدٍ ليس لي به ناصر ولا دافع إلا الله، والله ما أريد إلا الله صاحباً، وما أخشى مع الله وحشة.

ورجع القوم إلى المدينة، فجاء عليّ عليه السلام إلى عثمان، فقال له: ما حملك على ردّ رسولي، وتصغير أمري! فقال عليّ عليه السلام: أمّا رسولُك، فأراد أن يردّ وجهي فرددته، وأمّا أمرك فأصغِّره.

قال: أما بلغكَ نهيي عن كلام أبي ذرّ! قال: أو كلّما أمرت بأمْرٍ معصية أطعناك فيه! قال عثمان: أقِدْ مروان من نفسك، قال: ممّ ذا؟ قال: من شتمه وجذْب راحلته، قال: أمّا راحلتُه فراحلتي بها، وأما شتمُه إياي، فوالله لا يشتمني شَتْمة إلا شتمتُك مثلها، لا أكذب عليك.

فغضب عثمان، وقال: لم لا يشتِمك! كأنّك خير منه! قال عليّ: إي والله ومنك! ثم قام فخرج.

فأرسل عثمان إلى وجوه المهاجرين والأنصار وإلى بني أميّة، يشكو إليهم عليًّا عليه السلام، فقال القوم: أنت الوالي عليه، وإصلاحه أجمل. قال: ودِدْت ذاك، فأتوْا عليًّا عليه السلام، فقالوا: لو اعتذرتَ إلى مروان وأتيته! فقال: كلاّ، أمّا مروان فلا آتيه ولا أعتذر منه، ولكن إنْ أحبّ عثمان أتيته.

فرجعوا إلى عثمان، فأخبروه، فأرسل عثمان إليه، فأتاه ومعه بنو هاشم، فتكلّم عليّ عليه السلام، فحمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: أمّا ما وجدْتَ عليّ فيه من كلام أبي ذرّ ووداعه، فوالله ما أردت مَساءتك ولا الخلاف عليك، ولكن أردتُ به قضاء حقّه. وأمّا مرْوان فإنه اعترض، يريد ردّي عن قضاء حقّ الله عزّ وجلّ، فرددته ردَّ مثلي مثْله، وأمّا ما كان منّي إليك، فإنك أغضبتَني، فأخرج الغضب مني ما لم أرِده.

فتكلّم عثمان، فحمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: أمّا ما كان منك إليّ فقد وهبتُه لك، وأما ما كان منك إلى مروان، فقد عَفَا الله عنك، وأمّا ما حلَفْتَ عليه فأنت البَرّ الصادق، فأدنِ يدَك، فأخذ يده فضمّها إلى صدره.

فلما نهضَ قالت قريش وبنو أميّة لمرْوان: أأنتَ رجلٌ! جَبَهك عليّ، وضرب راحلتَك، وقد تفانت وائلٌ في ضَرْع ناقة، وذُبيان وعَبْس في لَطْمة فرس، والأوس والخزرج في نَسْعة! أفتحمل لعليّ عليه السلام ما أتاه إليك!

فقال مروان: والله لو أردت ذلك لما قدرت عليه[١].

واعلم أنّ الذي عليه أكثر أرباب السِّيرة وعلماء الأخبار والنّقل، أنّ عثمان نفى أبا ذرّ أولاً إلى الشام، ثم استقدمه إلى المدينة لما شَكَا منه معاوية، ثم نفاه من المدينة إلى الرَّبَذة لَمّا عمل بالمدينة نظير ما كان يعمل بالشام.

أصل هذه الواقعة أنّ عثمان لـمّا أعطى مروان بن الحكم وغيره بيوتَ الأموال، واختصّ زيد بن ثابت بشيء منها، جعل أبو ذرّ يقول بين الناس وفي الطرقات والشوارع: بشّر الكافرين بعذاب أليم، ويرفع بذلك صوتَه، ويتلُو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٢]، فرُفِع ذلك إلى عثمان مراراً وهو ساكت.

ثم إنّه أرسل إليه مولًى من مواليه: أن انْتَهِ عَمَّا بلغني عنك، فقال أبو ذرّ: أوَينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله تعالى، وعيبِ مَنْ تَرَكَ أمر الله تعالى! فوالله لأن أرضِيَ الله بسخط عثمان أحبُّ إليّ وخيرٌ لي من أن أسخط الله برضا عثمان.

فأغضب عثمانَ ذلك وأحفظه، فتصابر وتماسك، إلى أن قال عثمان يوماً، والناس حوله: أيجوزُ للإمام أن يأخذ من المال شيئاً قَرْضاً، فإذا أيْسَرَ قضى؟ فقال كعب الأحبار: لا بأس بذلك، فقال أبو ذرّ: يابن اليهوديّين، أتعلِّمنا ديننا!

فقال عثمان: قد كَثُر أذاك لي وتولّعك بأصحابي، الحقْ بالشّام. فأخرجه إليها.

فكان أبو ذرّ ينكِر على معاوية أشياءَ يفعلها، فبعث إليه معاوية يوماً ثلاثمائة دينار، فقال أبو ذرّ لرسوله: إن كانتْ مِنْ عطائي الَّذِي حرَمتمونيه عامِي هذا أقبَلُها، وإن كانت صلة فلا حاجة لي فيها، وردّها عليه.

ثم بنى معاوية الخضراء بدمشق، فقال أبو ذرّ: يا معاوية، إن كانت هذه من مال الله فهي الخيانة، وإن كانت من مالِك فهي الإسراف. وكان أبو ذرّ يقول بالشام: والله لقد حدثَتْ أعمالٌ ما أعرِفها، والله ما هي في كتاب الله ولا سنّة نبيه صلى الله عليه وسلم، والله إني لأرى حقًّا يُطْفَأ، وباطلاً يحيا، وصادقاً مكذَّباً، وأثَرةً بغير تقى، وصالحاً مستأثَراً عليه.

قال حبيبُ بن مسلمة الفِهْريّ لمعاوية: إن أبا ذرّ لمفسِد عليكم الشام، فتدارك أهلَه إن كان لك فيه حاجة.

وروى شيخنا أبو عثمان الجاحظ في كتاب «السفيانية» عن جلاّم بن جندل الغِفاريّ، قال:

---

(١) أخرجه الشيخ الأميني في الغدير: ٨/ ٣٠٣.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٤.

كنت غلاماً لمعاوية على قنَّسرين والعواصم، في خلافة عثمان، فجئت إليه يوماً أسأله عن حال عملي، إذْ سمعت صارخاً على باب داره يقول: أتتكم القِطَار تحمل النار! اللهمّ العن الآمرين بالمعروف، التاركين له. اللهمّ العن الناهين عن المنكر المرتكبين له. فَازْبأرّ[1] معاوية وتغَيَّر لونه وقال: يا جلاّم أتعرف الصارخ؟ فقلت: اللهم لا. قال: مَنْ عذيري من جُندَب بن جنادة! يأتينا كلَّ يوم فيصرخ على باب قصرنا بما سمعت! ثم قال: أدخِلوه عليّ، فجيء بأبي ذرّ بين قوم يقودونه، حتى وقف بين يديه، فقال له معاوية: يا عدوّ الله وعدوّ رسوله! تأتينا في كلّ يوم فتصنع ما تصنع! أما إني لو كنت قاتل رجل من أصحاب محمد من غير إذن أمير المؤمنين عثمان لقتلتُك، ولكني أستأذن فيك.

قال جلاَّم: وكنت أحبُّ أن أرى أبا ذرّ، لأنه رجلٌ من قومي، فالتفتّ إليه فإذا رجل أسمرُ ضَرْبٌ من الرّجال، خفيف العارضين، في ظهره جَنَأ، فأقبل على معاوية، وقال: ما أنا بعَدوٍّ لله ولا لرسوله، بل أنت وأبوك عدوّان لله ولرسوله، أظهرتما الإسلام وأبطنتما الكفر، ولقد لعنك رسول الله ﷺ، ودعا عليك مرّاتٍ ألاّ تشبع. سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «إذا وليَ الأمّة الأعْيَنُ، الواسع البُلعوم، الذي يأكل ولا يشبع، فلتأخذ الأمة حِذْرَها منه»[2]. فقال معاوية: ما أنا ذاك الرجل، قال أبو ذرّ: بل أنت ذلك الرجل، أخبرَني بذلك رسول الله ﷺ، وسمعته يقول - وقد مررتَ به -: «اللهم العنه ولا تشبِعْه إلا بالتراب»[3]، وسمعته صلى الله عليه يقول: «است معاوية في النار»[4]. فضحك معاوية وأمر بحبسه، وكتب إلى عثمان فيه.

فكتب عثمان إلى معاوية: أن احمل جندباً إليّ، عَلَى أغلظِ مركب وأوعره. فوجّه به مع مَنْ سار به الليل والنهار، وحمله على شارفٍ ليس عليها إلا قَتَب، حتى قدِم به المدينة، وقد سقط لحم فخذَيْه من الجَهْد.

فلما قِدم بعَث إليه عثمان: الحقْ بأيّ أرض شئت. قال: بمكة؟ قال: لا، قال: بيت المقدس؟ قال: لا، قال: بأحد المصريْن؟ قال: لا، ولكنّي مسيّرك إلى رَبَذة، فسيّره إليها، فلم يزل بها حتى مات. وفي رواية الواقديّ، أنّ أبا ذرّ لما دخل على عثمان، قال له:

لا أنعم الله بِقَيْنٍ عينَا ... نعم ولا لقّاه يوماً زيْنَا
تحيةَ السُّخطِ إذا التقيْنَا

فقال أبو ذرّ: ما عرفتُ اسمي «قيناً» قطّ. وفي رواية أخرى: لا أنعم الله بك عيناً يا

---

(١) ازبأر الرجل للشر: تهيأ. القاموس، مادة (زبر).
(٢) أخرجه الشيخ الأميني في الغدير: ٨/ ٣٠٤.
(٣) أخرجه الشيخ الأميني في الغدير: ٨/ ٣٠٥.
(٤) أخرجه الشيخ الأميني في الغدير: ٨/ ٣٠٥.

جُنَيْدب! فقال أبو ذرّ: أنا جندُب، وسمّاني رسول الله ﷺ «عبد الله»، فاخترتُ اسمَ رسولِ الله ﷺ الّذي سمّاني به على اسمِي. فقال له عثمان: أنت الذي تزعُم أنّا نقول: يد الله مغلولة، وإن الله فقير ونحن أغنياء! فقال أبو ذرّ: لو كنتُم لا تقولون هذا لأنفقتم مالَ الله على عباده، ولكنّي أشهدُ أنّي سمعتُ رسول الله ﷺ، يقول: «إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً، جعلوا مال الله دُوَلاً، وعبادَه خَوَلاً، ودينه دَخَلا»[1]. فقال عثمان لمن حضر: أسمعتموها من رسول الله؟ قالوا: لا، قال عثمان: ويلك يا أبا ذرّ! أتكذِب على رسول الله! فقال أبو ذَرّ لمن حضر: أمَا تدرُون أنّي صدقت! قالوا: لا والله ما ندري، فقال عثمان: ادعُوا لي عليًا، فلما جاء قال عثمان لأبي ذرّ: اقصُصْ عليه حديثَك في بني أبي العاص، فأعاده، فقال عثمان لعليّ عليه السلام: أسمعت هذا من رسول الله ﷺ! قال: لا، وقد صدق أبو ذَرّ. فقال: كيف عرفتَ صدقه؟ قال: لأنّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما أظلّت الخضراءُ، ولا أقلّتِ الغبراء من ذي لَهْجَةٍ أصدَقَ من أبي ذرّ»[2]، فقال مَنْ حضر: أمّا هذا فسمعناه كلُّنا من رسول الله، فقال أبو ذَرّ: أحدِّثُكم أنّي سمعتُ هذا من رسول الله ﷺ فتتّهمونني! ما كنتُ أظنّ أنّي أعيش حتى أسمعَ هذا من أصحاب محمد ﷺ!

ورُوي الواقديّ في خبر آخرَ بإسناده، عن صَهْبان، مولَى الأسلميّين، قال: رأيت أبا ذرّ يوم دُخِل به على عثمان، فقال له: أنت الّذي فعلت وفعلت! فقال أبو ذرّ: نصحتُك فاستغشَشْتني، ونصحت صاحبك فاستغشّني! قال عثمان: كذبْت، ولكنّك تريد الفتنة وتحبّها، قد أنْغَلت الشّام علينا، فقال له أبو ذرّ: اتّبعْ سنّة صاحبيْك لا يكنْ لأحدٍ عليك كلام، فقال عثمان: مَا لك وذلك لا أمّ لك! قال أبو ذرّ: والله ما وجدت لي عذراً إلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فغضب عثمان، وقال: أشيرُوا عليّ في هذا الشَّيْخ الكذّاب، إمّا أن أضرِبَه، أو أحبسَه، أو أقتله، فإنه قد فرق جماعة المسلمين، أو أنفيَه من أرض الإسلام. فتكلّم عليّ عليه السلام - وكان حاضراً - فقال: أشيرُ عليك بما قال مؤمن آل فرعون: ﴿وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَـٰدِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[3]، فأجابه عثمان بجواب غليظ، وأجابه عليّ عليه السلام بمثله، ولم نذكر الجوابين تذمّماً منهما.

---

(١) أخرجه الحاكم في «مستدركه» (٨٤٧٩)، وأبو يعلى في «مسنده» (٦٥٢٣).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: «المناقب» (٣٨٠١)، وابن ماجه في كتاب: المقدمة (١٥٦)، وأحمد في كتاب: مسند المكثرين من الصحابة (٦٤٨٣).

(٣) سورة غافر، الآية: ٢٨.

قال الواقديّ: ثم إن عثمان حَظَر على النّاس أن يقاعِدُوا أبا ذرّ، أو يكلّموه. فمكث كذلك أياماً، ثم أتى به فوقف بين يديه، فقال أبو ذرّ: ويحكَ يا عثمان! أما رأيتَ رسول الله ﷺ، ورأيت أبا بكر وعمر! هل هديُك كهديهم! أما إنّك لتبطشُ بي بطش جبّار، فقال عثمان: اخْرُجْ عنّا من بلادنا، فقال أبو ذَرّ: ما أبغض إليّ جوارك! فإلى أين أخرج؟ قال: حيث شئت، قال: أخرج إلى الشام أرض الجهاد؟ قال: إنما جلبتُك من الشام لِمَا قد أفسدتها، أفأردّك إليها! قال: أفأخرُج إلى العراق؟ قال: لا، إنّك إن تخرج إليها تقدُم على قوم أولي شُبَهٍ وطعنٍ على الأئمة والولاة، قال: أفأخرج إلى مصر؟ قال: لا، قال: فإلى أين أخرج؟ قال: إلى البادية، قال أبو ذرّ: أصير بعد الهجرة أعرابيًّا! قال: نعم، قال أبو ذَرّ: فأخرج إلى بادية نجد؟ قال عثمان: بل إلى الشرق الأبعد، أقصَى فأقصى، امض عَلَى وجهك هذا فلا تعدوَنَّ الرَّبَذَة. فخرج إليها.

وروي الواقديّ أيضاً عن مالك بن أبي الرّجال، عن موسى بن ميسرة، أنّ أبا الأسود الدّؤليّ، قال: كنت أحبّ لقاء أبي ذرّ لأسأله عن سبب خروجه إلى الرَّبذَة، فجئته فقلت له: ألا تخبرني، أخرِجْتَ من المدينة طائعاً، أم أخرِجت كرهاً؟ فقال: كنتُ في ثَغْر من ثغور المسلمين أغنِي عنهم، فأخرِجت إلى المدينة، فقلت: دار هجرتي وأصحابي، فأخرِجْت من المدينة إلى ما ترى. ثم قال: بينا أنا ذاتَ ليلةٍ نائمٌ في المسجد عَلَى عهد رسول الله ﷺ، إذْ مرّ بي عليه السلام فضرَبني برجْله، وقال: لا أراك نائماً في المسجد، فقلت: بأبي أنت وأمي! غلبتْنِي عيني، فنمت فيه. قال: فكيف تصنَعُ إذا أخرجوك منه؟ قلت: إذاً ألحق بالشام، فإنّها أرضٌ مقدّسة، وأرضُ الجهاد. قال: فكيف تصنع إذا أخرِجت منها؟ قلت: أرجع إلى المسجد، قال: فكيفَ تصنعُ إذا أخرجوك منه؟ قلت: آخذُ سيفي فأضربهم به. فقال: ألا أدُلّك عَلَى خيرٍ من ذلك؟ انسَقْ معهم حيث ساقوك، وتسمعُ وتطيع. فسمعتُ وأطعتُ وأنا أسمع وأطيع، والله ليلقينّ الله عثمانُ وهو آثم في جَنْبِي.

واعلم أن أصحابنا رحمهم الله قد روَوْا أخباراً كثيرة، معناها أنه أخرِج إلى الرَّبَذَة باختياره.

وحكى قاضي القضاة رحمه الله في «المغني» عن شيخنا أبي عليّ رحمه الله، أنّ الناس اختلفُوا في أمرِ أبي ذَرّ، وأنّ الرواية وردت بأنه قيل له: أعثمانُ أنزلَك الرَّبَذَة؟ فقال: لا بل أنا اخترتُ لنفسي ذلك.

وروَى أبو عليّ أيضاً أنّ معاوية كتب يشكُوه وهو بالشام، فكتب إليه عثمانُ: أن صِرْ إلى المدينة. فلما صار إليها، قال له: ما أخرجك إلى الشام؟ قال: إنّي سمعتُ رسول الله ﷺ

يقول: «إذَا بلغتْ عِمارة المدينة موضعَ كذا فاخرُجْ منها»[1]، فلذلك خرجت. فقال: أيّ البلاد أحبُّ إليك بعد الشام؟ قال الرَّبَذة، فقال: صِرْ إليها.

وروى الشيخ أبو عليّ أيضاً عن زيد بن وهب، قال: قلت لأبي ذرّ وهو بالرّبَذة، ما أنزلَك هذا المنزل؟ قال: أخبرك أني كنت بالشام، فذكرت قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾[2]. فقال لي معاوية: هذه نزلتْ في أهلِ الكتاب، فقلت: فيهم وفينا. فكتب معاوية إلى عثمان في ذلك، فكتب إليّ: أن أقدِمْ، فقدمتُ عليه، فانثال النّاس إليّ كأنّهم لم يعرفوني، فشكوت ذلك إلى عثمان، فخيَّرني وقال: انزل حيث شئت، فنزلت الرَّبَذة[3].

ونحن نقول: هذه الأخبارُ وإن كانت قد رُوِيَتْ، لكنّها ليست في الاشتهار والكثرة كتلك الأخبار، والوجه أنْ يقال في الاعتذار عن عثمان وحسن الظنّ بفعله: إنّه خاف الفتنة واختلاف كلمة المسلمين، فغلب على ظنّه أنّ إخراجَ أبي ذَرّ إلى الرَّبَذَة أحْسَمُ للشَّغَب، وأقطع لأطماع مَنْ يشرئبّ إلى شقّ العصا، فأخرجه مراعاةً للمصلحة، ومثل ذلك يجوز للإمام. هكذا يقول أصحابنا المعتزلة، وهو الأليَق بمكارم الأخلاق، فقد قال الشاعر:

إذَا مـا أتَـتْ مِـنْ صـاحـبٍ لَـكَ زلّـةٌ ... فـكـنْ أنـتَ مـحـتـالاً لـزلّـتِـه عُـذْرَا

وإنّما يتأوّل أصابُنا لمن يحتمِل حاله التأويل كعثمان، فأما من لم يحتمل حاله التأويل، - وإن كانت له صحبة سالفة - كمعاوية وأضرابه، فإنهم لا يتأوّلون لهم إذا كانت أفعالهم وأحوالهم لا وَجه لتأويلها، ولا تقبل العلاج والإصلاح.

١٣١ - ومن كلام له عليه السلام في حال نفسه وأوصاف الإمام

الأصل: ومن كلام له عليه السلام: أَيَّتُهَا النُّفُوسُ الْمُخْتَلِفَةُ، وَالْقُلُوبُ الْمُتَشَتِّتَةُ، الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ، وَالْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، أَظْأَرُكُمْ عَلَى الْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَنْفِرُونَ عَنْهُ نُفُورَ الْمِعْزَى مِنْ وَعْوَعَةِ الْأَسَدِ! هَيْهَاتَ أَنْ أَطْلَعَ بِكُمْ سِرَارَ الْعَدْلِ، أَوْ أُقِيمَ اعْوِجَاجَ الْحَقِّ.

اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي مِنَّا مُنَافَسَةً فِي سُلْطَانٍ، وَلاَ الْتِمَاسَ شَيْءٍ مِنْ فُضُولِ الْحُطَامِ، وَلكِنْ لِنَرِدَ الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ، وَنُظْهِرَ الْإِصْلاَحَ فِي بِلاَدِكَ، فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُقَامَ الْمُعَطَّلَةُ مِنْ حُدُودِكَ.

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٢٢/٤١٨.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٤.
(٣) أخرجه الراوندي في فقه القرآن: ١/٢٤١.

ٱللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَنَابَ، وَسَمِعَ وَأَجَابَ، لَمْ يَسْبِقْنِي إِلاَّ رسول الله ﷺ بِالصَّلاَةِ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَى ٱلْفُرُوجِ وَالدِّمَاءِ وَالمَغَانِمِ وَٱلأَحْكَامِ وَإِمَامَةِ المُسْلِمِينَ ٱلْبَخِيلُ، فَتَكُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ نَهْمَتُهُ. وَلاَ ٱلْجَاهِلُ فَيُضِلَّهُمْ بِجَهْلِهِ، وَلاَ الجَافِي فَيَقْطَعَهُمْ بِجفَائِهِ، وَلاَ ٱلْحَائِفُ لِلدُّوَلِ فَيَتَّخِذَ قَوْماً دونَ قَوْم، وَلاَ المُرْتَشِي فِي ٱلْحُكْمِ، فَيَذْهَبَ بِالْحُقُوقِ، وَيَقِفَ بِهَا دون المَقَاطِعِ، وَلاَ المُعَطِّلُ لِلسُّنَّةِ، فَيُهْلِكَ ٱلأُمَّةَ.

الشرح: اظأركم: أعطفكم، ظأرت الناقةَ ظأراً، وهي ناقة مظؤورة، إذا عطفْتَها على ولد غيرها، وفي المثل: «الطعن يظأر»[1] أي يعطِف على الصلح، وظأرت الناقة أيضاً إذا عطفت على البوّ، يتعدّى ولا يتعدّى، فهي ظؤور.

والوعوعة: الصوت، والوعواع مثله.

وقوله: «هيهات أن أطْلِع بكم سرار العدل»، يفسره الناس بمعنى هيهات أنْ أطلعكم مضيئين ومنوّرين لسرار العدل. والسِّرار: آخر ليلة في الشهر، وتكون مظلمة، ويمكن عندي أن يفسَّر على وجه آخر، وهو أن يكون السّرار ها هنا بمعنى السُّرور، وهي خطوط مضيئة في الجبهة، وقد نصَّ أهلُ اللغة على أنه يجوز فيها سُرر وسِرار، وقالوا: ويجمع سِرار على أسرّة، مثل حمار وأحمرة، قال عنترة:

بزجاجةٍ صَفْرَاء ذات أسِرّةٍ ... قُرِنَتْ بأزْهَرَ في الشمال مُفَدّمِ

يصف الكأس، ويقول: إنّ فيها خطوطاً بيضاً، وهي زجاج أصفر. ويقولون: برَقَتْ أسِرّة وجهه وأسارير وجهه، فيكون معنى كلامه عليه السلام: هيهاتَ أن تلمع بكم لوامعُ العدل، وتنجلي أوضاحُه، ويبرق وجهه. ويمكن فيه أيضاً وجه آخر وهو أن ينصب «سِرار» ها هنا على الظّرفية، ويكون التقدير: هيهات أن أطلِع بكم الحق زمان استسرار العدل واستخفائه، فيكون قد حذف المفعول، وحذفه كثير.

ثم ذكر أنّ الحروبَ الّتي كانتْ منه لم تكن طلباً للملْك، ولا منافسة على الدّنيا، ولكن لتقامَ حدودُ الله على وجهها، ويجري أمر الشريعة والرعيّة على ما كان يجري عليه أيّام النبوّة.

ثم ذكر أنّه سبَق المسلمين كلَّهم إلى التوحيد والمعرفة، ولم يسبِقه بالصلاة أحدٌ إلاّ رسول الله ﷺ، وهكذا روى جمهور المحدثين، وقد تقدّم ذكْر ذلك.

فإن قلت: أيّ وجه لإدخال هذا الكلام في غُضُون مقصده في هذه الخطبة، فإنها مبنيّة على

---

(١) انظر «مجمع الأمثال» للميداني (٢/ ٢٨٦)، برقم (٢٢٧٩).

ذمّ أصحابه، وتقرير قاعدة الإمامة، وأنّه لا يجوز أن يليَها الفاسق، وأنّه لا بدّ للإمام من صفات مخصوصة، عدّدها عليه السلام، وكلّ هذا لا تعلّق لسبقه إلى الإسلام!

قلت: بل الكلامُ متعلّق بعضُه ببعض من وجهين: أحدُهما أنه لما قال: اللهمّ إنّك تعلم أني ما سَلَلْتُ السّيْفَ طلباً للملك، أراد أن يؤكّد هذا القول في نفوس السامعين، فقال: أنا أوّل من أسْلَم، ولم يكن الإسلام حينئذ معروفاً أصلاً، ومن يكون إسلامه هكذا لا يكون قد قصد بإسلامه إلاّ وجه الله تعالى والقربة إليه، فمَنْ تكونُ هذه حاله في مبدأ أمره، كيف يخطُرُ ببال عاقل أنّه يطلُب الدنيا وحُطامها، ويجرّد عليها السّيْفَ في آخر عمره، ووقت انقضاء مدّة عُمْره!

والوجه الثاني أنّه إذا كان أوّلَ السابقين، وجب أن يكون أقربَ المقرّبين، لأنّه تعالى قال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝﴾[1]، ألا ترى أنه إذا قال الملك: «العالمون العاملون هم المختصّون بنا»، وجب أن يكون أعلمهم أشدّهم به اختصاصاً، وإذا كان عليه السلام أقربَ المقرّبين، وجب أن تنتفيَ عنه الموانع الستة، التي جعل كلّ واحد منها صادًّا عن الإمامة، وقاطعاً عن استحقاقها، وهي البخل والجهل والجفاء - أي الغِلْظة -، العصبية في دولته - أي تقديم قوم على قوم - والارتشاء في الحكْم، والتعطيل للسّنّة، وإذا انتفتْ عنه هذه الموانع السّتّة تعين أن يكون هو الإمام، لأنّ شروط الإمامة موجودة فيه بالاتفاق، فإذا كانت موانعها عنه منتفيةً ولم يحصل لغيره اجتماع الشروط، وارتفاع الموانع، وجب أن يكون هو الإمام، لأنه لا يجوز خلوُّ العصر من إمامٍ، سواء كانت هذه القضيّة عقليّة أو سمعيّة.

فإن قلت، أفتراه عَنَى بهذا قوماً بأعيانهم؟

قلت: الإمامية تزعُم أنه رَمَز في الجفاء والعصبية لقوم دون قوم إلى عمر، ورمز بالجهل إلى مَنْ كان قبله، ورمز بتعطيل السّنة إلى عثمان ومعاوية، وأما نحن فنقول: إنّه عليه السلام لم يعن ذلك، وإنّما قال قولاً كلّيًا غير مخصوص، وهذا هو اللاّئق بشرفه عليه السلام، وقول الإماميّة دعوى لا دليل عليها، ولا يعدم كلّ أحد أن يستنبط من كلّ كلام ما يوافق غرضه وإن غمض، ولا يجوز أن تُبنَى العقائد على مثل هذه الاستنباطات الدقيقة.

والنَّهْمة: الهَمّة الشديدة بالأمر، قد نُهم بكذا بالضم، فهو منهوم، أي مولَع به حريص عليه، يقول: إذا كان الإمام بخيلاً كان حرصُه وجَشَعه على أموال رعيّته، ومن رواها «نَهَمَته»، بالتحريك فهي إفراط الشهوة في الطعام، والماضي نَهِم، بالكسر.

قوله عليه السلام: «فيقطعهم بجفائه» أي يقطعهم عن حاجاتهم لغلظته عليهم، لأنّ الواليَ إذا كان غليظاً جافياً أتعب الرعيّة وقطعهم عن مراجعته في حاجاتهم خوفاً من بادرته، ومعرّته.

---

(١) سورة الواقعة، الآيتان: ١٠-١١.

قوله: «ولا الحائف للدول»، أي الظالم لها، والجائر عليها. والدّول: جمع دُولة بالضمّ وهي اسم المال المتداول به، ويقال: هذا الفيء دُولة بينهم، أي يتداولونه، والمعنى أنّه يجب أن يكونَ الإمام يقسم بالسويّة، ولا يخصّ قوماً دون قوم على وجهه العصبيّة لقبيلة دون قبيلة، أو لإنسان من المسلمين دون غيره، فيتّخذ بذلك بطانة.

قوله: «فيقف بها دون المقاطع»، المقاطع: جمع مقطع، وهو ما ينتهي الحقّ إليه، أي لا تصل الحقوق إلى أربابها لأجل ما أخِذ من الرشوة عليها.

فإن قلت: فما باله قال في المانع السادس: «فيهلك الأمة» وكلّ واحد من الموانع قبله يفضي إلى هلاك الأمة!

قلت: كلّ واحد من الموانع الخمسة يفضِي إلى هلاك بعض الأمّة، وأمّا مَنْ يعطّل السّنّة أصلاً، فإنه لا محالةَ مهلك للأمّة كلّها، لأنه إذا عطّل السنة مطلقاً، عادت الجاهلية الجهلاء كما كانت.

وقد روي: «ولا الخائف الدولَ» بالخاء المعجمة. ونصب «الدّول» أي مَنْ يخاف دول الأيام وتقلّبات الدهر فيتّخذ قوماً دون قووم ظِهْرِيًّا، وهذا معنى لا بأس به.

---

١٣٢ - ومن خطبة له عليه السلام في تمجيد الله تعالى

الأصل: ومن خطبة له عليه السلام: **نَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَخَذَ وَأعطى، وَعَلَى مَا أَبْلَى وَٱبْتَلَى، ٱلْبَاطِنُ لِكُلِّ خَفِيَّةٍ، وَالحَاضِرُ لِكُلِّ سَرِيرَةٍ، ٱلْعَالِمُ بِمَا تُكِنُّ الصُّدُورُ، وَمَا تَخُونُ ٱلْعُيُونُ. وَنَشْهَدُ أَن لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَبَعِيثُهُ، شهَادَةً يُوَافِقُ فِيهَا السِّرُّ ٱلْإِعْلاَنَ، وَالقَلْبُ اللِّسَانَ.**

الشرح: على ما أبلى، أي ما أعطى، يقال: قد أبلاه الله بلاء حسناً، أي أعطاه، قال زُهير:

جَزَى الله بالإحسان ما فعلاَ بكُمْ وأبلاهما خيرَ البلاءِ الذي يَبْلُو

وأما قوله: «وابتلى» فالابتلاء إنزال مضرّة بالإنسان على سبيل الاختبار، كالمرض والفقر والمصيبة. وقد يكون الابتلاء بمعنى الاختبار في الخير، إلا أنه أكثر ما يستعمل في الشرّ.

والباطن: العالم، يقال: بطنت الأمر، أي خبرته. وتكِنّ الصدور: تستر، وما تخون العيون: ما تسترِقُ من اللحظات والرمزات على غير الوجه الشرعيّ.

والنَّجِيب: المنجَب. والبعيث: المبعوث.

الأصل: منها: فَإِنَّهُ وَٱللهِ الجِدُّ لاَ اللَّعِبُ، وَٱلْحَقُّ لاَ ٱلْكَذِبُ، وَمَا هُوَ إِلاَّ المَوْتُ أَسْمَعَ دَاعِيهِ، وَأَعْجَلَ حَادِيهِ. فَلاَ يَغُرَّنَّكَ سَوَادُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ، وَقَدْ رَأَيْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِمَّنْ جَمَعَ المَالَ وَحَذِرَ ٱلْإِقْلاَلَ، وَأَمِنَ ٱلْعَوَاقِبَ: طُولَ أَمَلٍ وَٱسْتِبْعَادَ أَجَلٍ، كَيْفَ نَزَلَ بِهِ المَوْتُ فَأَزْعَجَهُ عَنْ وَطَنِهِ، وَأَخَذَهُ مِنْ مَأْمَنِهِ، مَحْمُولاً عَلَى أَعْوَادِ المَنَايَا، يَتَعَاطَى بِهِ الرِّجَالُ الرِّجَالَ، حَمْلاً عَلَى المَنَاكِبِ، وَإِمْسَاكاً بالأَنَامِلِ.

أَمَا رَأَيْتُمُ ٱلَّذِينَ يَأْمُلُونَ بَعِيداً، وَيَبْنُونَ مَشِيداً، وَيَجْمَعُونَ كَثِيراً، أَصْبَحَتْ بُيُوتُهُمْ قُبُوراً، وَمَا جَمَعُوا بُوراً، وَصَارَتْ أَمْوَالُهُمْ لِلْوَارِثِينَ، وَأَزْوَاجُهُمْ لِقَوْمٍ آخَرِينَ، لاَ فِي حَسَنَةٍ يَزِيدُونَ، وَلاَ مِنْ سَيِّئَةٍ يُسْتَعْتَبُونَ.

فَمَنْ أَشْعَرَ التَّقْوَى قَلْبَهُ، بَرَزَ مَهَلُهُ، وَفَازَ عَمَلُهُ. فَاهْتَبِلُوا هَبَلَهَا، وَٱعْمَلُوا لِلْجَنَّةِ عَمَلَهَا، فَإِنَّ ٱلدُّنْيَا لَمْ تُخْلَقْ لَكُمْ دَارَ مُقَامٍ، بَلْ خُلِقَتْ لَكُمْ مَجَازاً، لِتَزَوَّدُوا مِنْهَا الأَعْمَالَ إِلَى دَارِ ٱلْقَرَارِ.

فَكُونُوا مِنْهَا عَلَى أَوْفَازٍ، وَقَرِّبُوا الظُّهُورَ لِلزِّيَالِ.

الشرح: قوله عليه السلام: «فإنّه والله الجِدّ»، الضمير للأمر والشأن الّذي خاض معهم في ذكره ووعظهم بنزوله. ثم أوضحه بعد إجماله، فقال: إنّه الموتُ الّذي دعا فأسمع، وحَدَا فأعجل.

وسواد الناس: عامّتهم.

ومن ها هنا، إما بمعنى الباء، أي لا يغرّنك الناس بنفسك وصحتك وشبابك، فتستبعد الموت اغتراراً بذلك، فتكون متعلّقة بالظاهر، وإمّا أن تكون متعلّقة بمحذوف، تقديره: متمكّناً من نفسك، وراكناً إليها.

والإقلال: الفقر. وطولَ أملٍ، منصوب على أنه مفعول.

فإن قلت: المفعول له ينبغي أن يكون الفعل علّة في المصدر وها هنا ليس الأمنُ علّة طول الأمل، بل طول الأمل علّة الأمن؟

قلت: كما يجوز أن يكون طول الأمل علّة الأمن، يجوز أن يكون الأمنُ عِلّة طول الأمل، ألا ترى أنّ الإنسان قد يأمن المصائب فيطول أملُه في البقاء ووجوه المكاسب، لأجْل ما عنده من الأمن. ويجوز أن ينصب «طولَ أملٍ» على البدل من المفعول المنصوب بـ«رأيت»، وهو

«مَنْ»، ويكون التقدير: قد رأيت طولَ أملِ مَنْ كان. وهذا بدل الاشتمال، وقد حذِف منه الضّمير العائد كما حذِف من قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝ ٱلنَّارِ...﴾[1].

وأعواد المنايا: النّعش. ويتعاطى به الرّجال الرّجال: يتداولونه: تارةً على أكتاف هؤلاء، وتارة على أكتاف هؤلاء، وقد فسر ذلك بقوله: «حملا على المناكب، وإمساكاً بالأنامل».

والمشيد: المبنيّ بالشِّيد، وهو الجصّ.

البُور: الفاسِد الهالك، وقوم بور، أي هَلْكى، قال سبحانه: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾[2]، وهو جمع، واحده بائر كحائل وحُول.

ويُستعتَبون ها هنا يفسّر بتفسيرين، على اختلاف الروايتين: فمن رواه بالضم على فعل ما لم يسمَّ فاعله، فمعناه لا يعاتَبون على فعل سيّئة صدرتْ منهم كما كانوا في أيّام حياتهم، أي لا يعاتبهم الناس أو لا يستطيعون - وهم موتى - أن يسيئوا إلى أحد إساءة عليها، ومن رواه «يَسْتَعتِبون» بفتح حرف المضارعة، فهو من استعتَب فلان، أي طلب أنْ يُعتَب، أي يرضَى، تقول: استعتبته فأعتبني، أي استرضيته فأرضاني.

وأشعر فلانٌ التقوى قلبَه: جعله كالشعار له، أي يلازمه ملازمة شِعار الجسد.

وبرزَ مهلُه، ويروى بالرفع والنصب، فمن رواه بالرفع جعله فاعل «برز»، أي مَنْ فاق شَوْطَه برز الرجل على أقرانه، أي فاقهم، والمهلُ شوط الفرس، ومن رواه بالنصب جعل «برز» بمعنى أبرز، أي أظهر وأبان، فنصب حينئذ على المفعولية.

واهتبلت غِرّة زيد، أي اغتنمتها، والهَبال: الصيّاد الذي يهتبل الصيد أن يغرّه وذئب هِبَلٌّ أي محتال، «هبلها» منصوب على المصدر كأنه من هبل، مثل غضب غضباً، أي اغتنموا وانتهزوا الفرصة، الانتهاز الذي يصلح لهذه الحال، أي ليكن هذا الاهتبال بجدّ وهِمّة عظيمة، فإنّ هذه الحال حال عظيمة لا يليق بها إلاّ الاجتهاد العظيم.

وكذا قوله: «واعملوا للجنّة عملها»، أي العمل الذي يصلح أن يكون ثمرته الجنّة.

ودار مقام، أي دار إقامة. والمجاز: الطريق يجاز عليه إلى المقصد.

والأوفاز: جمع وفْز بسكون الفاء، وهو العجلة. والظُّهور: الرّكاب، جمع ظَهْر. وبنو فلان مظهرون، أي لهم ظهور ينقلون عليها الأثقال، كما يقال: منجِبون، إذا كانوا أصحاب نجائب. والزِّيال: المفارقة، زايلَه مزايلَة، وزِيالاً، أي فارقه.

---

(١) سورة البروج، الآيتان: ٤-٥.
(٢) سورة الفتح، الآية: ١٢.

١٣٣ - ومن كلام له عليه السلام في أوصاف الدنيا

الأصل: وَانْقَادَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ بِأَزِمَّتِهَا، وَقَذَفَتْ إِلَيْهِ السَّمَوَاتُ وَالأَرَضُونَ مَقَالِيدَها، وَسَجَدَتْ لَهُ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ الأَشْجارُ النَّاضِرَةُ، وَقَدَحَتْ لَهُ مِنْ قُضْبَانِهَا النِّيرَانُ الْمُضِيئَةُ، وَآتَتْ أُكُلَهَا بِكَلِمَاتِهِ الثِّمَارُ الْيَانِعَةُ.

الشرح: الضمير في «له» يرجع إلى الله تعالى، وقد كان تقدّم ذكره سبحانه في أول الخطبة، وإن لم يذكره الرضيّ رحمه الله، ومعنى انقياد الدنيا والآخرة له نفوذ حكمه فيهما، وشياع قدرته وعمومها.

وأزمتها: لفظة مستعارة من انقياد الإبل بأزمّتها مع قائدها. والمقاليد: المفاتيح.

ومعنى سجود الأشجار الناضرة له تصرّفها حَسَب إرادته، وكونها مسخّرة له محكوماً عليها بنفوذ قدرته فيها، فجعل عليه السلام ذلك خضوعاً منها لمشيئته، واستعار لها ما هو أدلّ على خضوع الإنسان من جمع أفعاله، وهو السجود ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾[1].

قوله: «وقدحَتْ له من قُضبانها» - بالضم - جمع قضيب، وهو الغصن، والمعنى أنّه بقدرته أخرج من الشجر الأخضر ناراً، والنار ضدّ هذا الجسم المخصوص، وهذا هو قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾[2] بعينه.

وآتت أكلها: أعطت ما يؤكل كل منها، وهو أيضاً من الألفاظ القرآنية.

واليانعة: الناضجة. وبكلماته، أي بقدرته ومشيئته، وهذه اللفظة من الألفاظ المنقولة على أحد الأقسام الأربعة المذكورة في كتبنا في أصول الفقه، وهو استعمال لفظة متعارَفة في اللغة العربية في معنى لم يستعملْها أهلُ اللغة فيه، كنقل لفظة «الصّلاة» الذي هو في أصل اللغة للدعاء إلى هيئاتٍ وأوضاع مخصوصة، ولم تستعمل العرب تلك اللفظة فيها. ولا يصحّ قولُ من قال: المراد بذلك قوله «كُن»، لأنه تعالى لا يجوز أن يخاطب المعدوم وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[3] من باب التوسّع والاستعارة المملوء منهما القرآن، والمراد سرعة المؤاتاة، وعجلة الإيجاد، وأنّه إذا أراد من أفعاله أمراً كان.

---

(١) سورة الحج، الآية: ١٨.
(٢) سورة يس، الآية: ٨٠.
(٣) سورة يس، الآية: ٨٢.

الأصل: منها: وَكِتَابُ ٱللهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ نَاطِقٌ لاَ يَعْيَا لِسَانُهُ، وَبَيْتٌ لاَ تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ، وَعِزٌّ لاَ تُهْزَمُ أَعْوَانُهُ.

الشرح: يقال: هو نازل بين أظهرهم، وبين ظَهْرَيْهِم، وبين ظَهْرَانَيْهم، بفتح النون، أي نازل بينهم. فإن قلت: لماذا قالت العرب «بين أظهرهم»، ولم تقل: «بين صدورهم»؟ قلت: أرادت بذلك الإشعار بشدة المحاماة عنه، والمرَاماةِ مِنْ دونه، لأنّ النّزِيل إذا حامَى القوم عنه استقبلوا شَبَا الأسنّة، وأطراف السيوف عنه بصدورهم، وكان هو محروساً مصوناً عن مباشرة ذلك وراء ظهورهم.

ولا يعيا لسانه: لا يكِلّ، عَيِيت بالمنطق، فأنا عيِيٌّ، على «فَعِيل»، ويجوز: عَيّ الرجل في منطقه، بالتشديد، فهو «عَيّ» على «فَعْل».

الأصل: منها: أَرْسَلَهُ على حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ ٱلرُّسُلِ، وَتَنَازُعٍ مِنَ ٱلْأَلْسُنِ، فَقَفَّى بِهِ الرُّسُلَ، وَخَتَمَ بِهِ ٱلْوَحْيَ، فَجاهَدَ في الله المُدْبِرِينَ عَنْهُ، وَٱلْعادِلِينَ بِهِ.

الشرح: الضمير في «أرسله»، راجع إلى النبي صلى الله عليه وآله، وهو مذكور في كلام لم يحكِه جامع الكتاب.

والفترة: زمان انقطاع الوحي، والتنازع من الألسن، أنّ قوماً في الجاهليّة كانوا يعبدون الصنم، وقوماً يعبدون الشمس، وقوماً يعبدون الشيطان، وقوماً يعبدون المسيح، فكلّ طائفة تجادل مخالفيها بألسنتها لتقودها إلى معتقدها.

وقفّى به الرّسل: أتبعها به، قال سبحانه: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾[1]، ومنه الكلام المقفّى، وسمّيت قوافي الشعر، لأنّ بعضها يتبع بعضاً.

والعادلين به: الجاعلين له عَدِيلاً، أي مثلاً، وهو من الألفاظ القرآنية أيضاً، قال الله تعالى: ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[2].

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٧.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١.

الأصل: منها: وَإنّما ٱلدُّنْيَا مُنْتَهَى بَصَرِ ٱلأَعْمَى، لا يُبْصِرُ مِمَّا وَرَاءَهَا شَيْئاً، وَٱلْبَصيرُ يَنْفُذُها بَصَرُهُ، وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَّارَ وَرَاءهَا، فَالْبَصِيرُ مِنْهَا شاخِصٌ، وَٱلأَعْمَى إِلَيْها شاخِصٌ، وَٱلْبَصِيرُ مِنهَا مُتَزَوِّدٌ، وَالأَعْمَى لهَا مُتَزَوِّدٌ.

الشرح: شَبّه الدنيا وما بعدها بما يتصوّره الأعمى، من الظُّلمة التي يتخيّلها، وكأنها محسوسة له، وليست بمحسوسة على الحقيقة، وإنما هي عدم الضَّوْء، كمن يطلع في جبّ ضيق، فيتخيّل ظلاماً، فإنه لم ير شيئاً، ولكن لَمّا عدم الضوء فلم ينفذ البصر تخيّل أنه يرى الظلمة، فأمّا من يرى المبصرات في الضياء، فإنّ بصره ينفذ فيشاهد المحسوسات يقيناً، وهذه حال الدنيا والآخرة، أهلُ الدنيا منتَهى بصرهم دنياهم، ويظنّون أنّهم يبصرون شيئاً وليسوا بمبصرين على الحقيقة، ولا حواسّهم نافذَة في شيء، وأهلُ الآخرة قد نفذت أبصارهم، فرأوا الآخرة. ولم يقف إحساسهم على الدّنيا خاصّة، فأولئك هم أصحاب الأبصار على الحقيقة، وهذا معنى شريف من معاني أصحاب الطريقة والحقيقة، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ﴾[1]، فأما قوله: «فالبصير منها شاخص، والأعمى إليها شاخص»، فمن مستحسَن التجنيس، وهذا هو الذي يسمّيه أرباب الصناعة الجناس التام، فالشاخص الأوّل الراحل، والشاخص الثاني من شَخَص بصرُه، بالفتح، إذا فتح عينَه نحو الشيء مقابلاً له وجعل لا يطرف.

فصل في الجناس وأنواعه

واعلم أنّ الجناس على سبعة أضرب: أولها: الجِناس التّام كهذا اللفظ، وحدّه أن تتساوَى حروف ألفاظ الكلمتين في تركيبها وفي وزنها، قالوا: ولم يرد في القرآن العزيز منه إلا موضع واحد، وهو قوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾[2].

وعندي أن هذا ليس بتجنيس أصلاً، وقد ذكرته في كتابي المسمى «بالفلك الدائر على المثل السائر» وقلت: إنّ الساعة في الموضعيْن بمعنًى واحد، والتّجنيس أن يتّفق اللفظ ويختلف المعنى، ولا يكون أحدهما حقيقة والآخر مجازاً، بل يكونان حقيقتين، وإنّ زمان القيامة وإن طال، لكنّه عند الله في حكم الساعة الواحدة، لأنّ قدرته لا يعجِزُها أمر، ولا يطول عندها زمان، فيكون إطلاق لفظ «الساعة» على أحد الموضعين حقيقة، وعلى الآخر مجازاً، وذلك يخرِجُ الكلام عن حدّ التجنيس، كما لو قلت: ركبت حماراً، ولقيت حماراً، وأردت بالثاني البليد.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.
(٢) سورة الروم، الآية: ٥٥.

وأيضاً، فلمَ لا يجوز أن يكون أراد بقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾[1]، الأولى خاصّة من زمان البعث، فيكون لفظ «الساعة» مستعملاً في الموضعيْن حقيقة بمعنى واحد، فيخرج عن التجنيس، وعن مشابهة التجنيس بالكلّية.

قالوا: وورد في السّنة من التجنيس التّام خبر واحد، وهو قوله ﷺ لقوم من الصحابة، كانوا يتنازعون جَرِير بن عبد الله البَجَليّ في زِمام ناقته: «خَلُّوا بين جرير والجرير»[2]، فالجرير الثاني الحبْل.

وجاء من ذلك في الشعر لأبي تمام قوله:

فـأصْـبَـحَـتْ غُـرَرُ الإسـلامِ مـشـرقَـةً ... بـالـنّـصـر تَـضْـحَـكُ عـن أيـامِـكَ الـغُـرَرِ

فالغرر الأولى مستعارة من غُرّة الوجه، والغُرَرُ الثانية من غُرّة الشيء، وهي أكرمه.

وكذلك قوله:

مِنَ الْقَوْمِ جَعْدٌ أبيضُ الوجْهِ والنَّدَى ... وَلَـيْـسَ بَـنَـانٌ يُـجْـتَـدَى مـنـه بـالْـجَـعْـدِ

فالجعْد الأولى السيّد، والثاني ضدّ السَّبْط، وهو من صفات البخيل.

وكذلك قوله:

بـكُـلِّ فـتَـى ضَـرْبٍ يُـعَـرِّضُ لِـلْـقَـنَـا ... مُـحيًّا مُـحلًّى حَلْيُهُ الطّعنُ والضَّرْبُ

فالضرب الأوّل الرجل الخفيف، والثاني مصدر «ضرب».

وكذلك قوله:

عَدَاكَ حَرُّ الثُّغُورِ المستضامةِ[3] عنْ ... بَرْدِ الثُّغُورِ وَعَنْ سَلْسَالِهَا الحَصِبِ

ومن هذه القصيدة:

كَـمْ أحْـرَزَتْ قُـضُـبُ الـهِـنْـدِيِّ مُـصْـلَـتَـةً ... تـهـتـزُّ مـن قُـضُـبٍ تـهـتـزّ فـي كُـثُـبِ

بِيضٌ إذا انتضِيتْ من حُجْبِها رَجَعَتْ ... أحـقُّ بـالـبـيـضِ أبـدانـاً مـن الـحُـجُـبِ

وقد أكثر الناس في استحسان هذا التجنيس وأطنبوا، وعندي أنه ليس بتجنيس أصلاً، لأن تسميةَ السيوف «قُضُبا» وتسمية الأغصان «قضباً» كلّه بمعنى واحد، وهو القطع، فلا تجنيس إذاً. وكذلك البيض للسيوف، والبيض للنساء، كلّه بمعنى البياض، فبطَل معنى التجنيس، وأظنني ذكرت هذا أيضاً في كتاب «الفلك الدائر».

---

(١) سورة الروم، الآية: ٥٥.

(٢) ذكره ابن الأثير في «النهاية في غريب الحديث والأثر»، مادة (جرر).

(٣) استضامه: انتقصه. القاموس المحيط، مادة (ضمم).

قالوا: ومن هذا القسم قوله أيضاً:

إذا الخيلُ جابَتْ قَسْطَلَ الخيلِ صَدَّعُوا صُدُورَ العوالِي في صدور الكتائب

وهذا عندي أيضاً ليس بتجنيس، لأن الصّدور في الموضعين بمعنى واحد، وهو جزء الشيء المتقدم البارز عن سائره، فأما قوله أيضاً:

عَامِي وعامُ العيسِ بَيْنَ وَدِيقَةٍ مَسْجُورة، وتَنُوفَةٍ صَيْخُودِ[1]

حَتّى أغادِرَ كلّ يومٍ بالفَلاَ للطَّيْرِ عيداً من بنات العِيد

فإنّه من التجنيس التّام، ولا شبهة في ذلك لاختلاف المعنى، فالعيد الأول هو اليوم المعروف من الأعياد، والعيد الثاني فحل من فحول الإبل.

ونحو هذا قول أبي نواس:

عَبّاسُ عباسٌ إذا احتدَم الْوَغَى والفضلُ فضلٌ والرَّبيع ربيعُ

وقول البحتريّ:

إذا الْعَيْنُ راحتْ وهي عَيْنٌ على الهوى فليس بسرٌ ما تُسِرُّ الأضالع

فالعين الثانية الجاسوس، والأولى العين المبصرة. وللغزّي المتأخّر قصيدة أكثر من التجنيس التّام فيها، أولها:

لَو زَارَنا طيفُ ذاتِ الخال أحيانَا ونحن في حُفَر الأجداث أحيانَا

وقال في أثنائها:

تقول أنتَ امرؤٌ جافٍ مغالطةً فقلت لا هَوّمَتْ أجْفانُ أجفانا

وقال في مديحها:

لم يبقَ غيرُك إنسانٌ يُلاذُ بهِ فلا برحت لعينِ الدّهر إنسانا

وقد ذكر الغانميّ في كتابه من صناعة الشعر باباً سمّاهُ ردّ الأعجاز عل الصدور، ذكر أنّه خارج عن باب التجنيس، قال: مثل قول الشاعر:

وَنَشْري بجميلِ الصُّنْـ ـع ذكراً طيّب النّشْرِ

وَنفْرِي بسيوف الهِنْـ ـدِ مَنْ أسْرَف في النَّفْرِ

ويحري في شرى الحمد على شاكلة البَحْرِ

وهذا من التجنيس، وليس بخارج عنه ولكنه تجنيس مخصوص، وهو الإتيان به في طرفَيِ البيت. وعدّ ابن الأثير الموصليّ في كتابه من التجنيس قول الشاعر في الشيب:

---

(١) الصيخود: الصلب. القاموس، مادة (ضخد).

يَا بَيَاضاً أذْرَى دُمُوعِيَ حَتَّى ... عَادَ مِنْهَا سَوادُ عَيْنِي بَيَاضَا

وكذلك قول البحتريّ:

وأغرّ في الزمن البهيم محجّلٍ ... قد رحتُ منه على أغرّ محجّلِ

وهذا عندي ليس بتجنيس، لاتفاق المعنى. والعجب منه أنه بعد إيراده هذا أنكر على من قال: إن قول أبي تمّام:

أظُنّ الدمْعَ في خَدّي سَيُبْقي ... رسوماً من بكائي في الرّسوم

من التجنيس، وقال: أيّ تجنيس ها هنا والمعنى متفق! ولو أمعن النظر لرأي هذا مثلَ البيتيْن السابقيْن.

قالوا: فأمّا الأجناس الستة الباقية، فإنها خارجة عن التجنيس التامّ ومشبّهة به. فمنها أن تكون الحروف متساويةً في تركيبها، مختلفة في وَزْنها، فمن ذلك قول النبي ﷺ: «اللهمّ كما حسَّنت خَلْقي فحسِّن خُلُقي»[1]، وقول بعضهم: لن تنالُوا غُرَر المعالي إلا بركوب الغَرَر، واهتبال الغُرر»، وقول البحتريّ:

وَفَرّ الخَائِنُ المغرورُ يَرْجُو ... أمَاناً، أيُّ ساعةِ ما أمانِ!

يَهَابُ الالتفاتَ وقد تصدّى ... للحظة طرفِه طرَفُ السّنانِ

وقال آخر:

قد ذُبْتُ بين حُشاشةٍ وذَماءِ ... ما بين حَرّ هوى وحَرّ هواءِ

ومنها: أن تكون الألفاظ متساوية في الوزن مختلفة في التركيب بحرف واحد لا غير، فإنْ زاد على ذلك خرج من باب التجنيس، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾[2]. وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾[4]. ونحو هذا ما ورد عن النبي ﷺ من قوله: «الخَيْرُ معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة»، وقال بعضهم: «لا تُنال المكارم إلا بالمكاره».

وقال أبو تمام:

يمدّون من أيدٍ عواصٍ عواصمٍ ... تَصُول بأسيافٍ قواضٍ قواضبِ

---

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٩٥٩)، وأبو يعلى في «مسنده» (٥٠٧٥)، والبيهقي في «الشعب» (٨٥٤٢).

(٢) سورة القيامة، الآيتان: ٢٢-٢٣.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٢٦.

(٤) سورة غافر، الآية: ٧٥.

وقال البحتريّ:

مَن كلّ ساجِي الطَّرْف أغيَدَ أجْيَدٍ ... ومهفهفِ الكشحينِ أحْوَى أحْوَرِ

وقال أيضاً:

شَواجِرُ أرْمَاحٍ تُقَطِّعُ بينهمْ ... شواجنَ أرحامٍ ملومٍ قَطُوعُها

وهذا البيت حَسَن الصنعة، لأنه قد جمع بين التجنيس الناقص وبين المقلوب، وهو أرماح، وأرحام.

ومنها: أن تكون الألفاظ مختلفة في الوزن والتركيب بحرف واحد، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠﴾[1]، وكقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[2]، وكقول النبي ﷺ: «المسلم مَنْ سلِم الناس من لسانه ويده»[3] وقول بعضهم: الصديق لا يحاسب، والعدوّ لا يحتَسب له، هكذا ذكر ابن الأثير هذه الأمثلة.

قال: ومن هذا القسم قول أبي تمام:

أيّام تُدمي عَيْنَهُ تلك الدُّمَى ... حُسْناً وَتَقْمُرُ لبّه الأقمارُ

بِيضٌ فهنّ إذا رُمِقنَ سَوافِراً ... صُوَرٌ وهنّ إذا رَمَقْنَ صِوَارُ

وكذلك قوله أيضاً:

بَدْرٌ أطاعت فيك بادرةَ النوى ... وَلَعاً وشمسٌ، أُولِعَتْ بِشَماسِ

وقوله أيضاً:

جَهِلُوا فلم يستكْثروا من طاعةٍ ... معروفةٍ بعمارة الأعْمَارِ

وقوله أيضاً:

إنّ الرِّماحَ إذا غُرِسْنَ بمَشْهدٍ ... فجنَى العوالِي في ذُرَاهُ مَعالِ

وقوله أيضاً:

إذا أحسن الأقوامُ أن يتطاولوا ... بلا نعمةٍ أحسنتَ أن تتطوّلاَ

وقوله أيضاً:

شَدّ ما استنزلتكَ عن دمعك الأظـ ... ـعانُ حتّى استهلّ صَوبُ العزالي

---

(١) سورة القيامة، الآيتان: ٢٩-٣٠. (٢) سورة الكهف، الآية: ١٠٤.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (١٠)، ومسلم في كتاب: الإيمان باب بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل (٤٠)، والترمذي في كتاب: صفة القيامة في باب منه (٢٥٠٤)، والنسائي في كتاب: الإيمان وشرائعه باب صبغة المؤمن (٤٩٩٥).

أيّ رَبْـع يـكـذبُ الـدهـر عَـنْـهُ ... وَهْوَ ملقّى على طريق الليالِي!
بـيـن حـالٍ جَـنَـتْ عـلـيـه وحـولٍ ... فـهـو نِـضْـوُ الأوحـالِ والأحـوالِ
أيّ حـسـنٍ فـي الـذاهـبـيـن تـولّـى ... وجـمـالٍ عـلـى ظـهـور الـجـمـالِ
ودلالٍ مـخـيّـم فـي ذُرَى الـخِـ ... ـيمِ وحِجْلٍ مُقَصَّرٍ في الحجالِ

فالبيت الثالث والخامس هما المقصودان بالتمثيل. ومن ذلك قول علي بن جَبلة:

وَكم لك مِنْ يومٍ رفعتَ عِمادَهُ ... بذات جفونٍ، أو بذاتِ جِفانِ

وكقول البحتريّ:

نسيمُ الروض في ريح شَمالٍ ... وصَوحتُ المزن في رَاحٍ شَمُولِ

وكقوله أيضاً:

جَديرٌ بأنْ تنشَقّ عَنْ ضوءِ وجهِهِ ... ضَبَابةُ نقْعٍ تحتهَا الموتُ ناقعُ

واعلم أنّ هذه الأمثلة لهذا القسم، ذكرها ابن الأثير في كتابه، وهو عندي مستدرك، لأنه حدّ هذا القسم بما يختلف تركيبه، يعني حروفه الأصلية، ويختلف أيضاً وزنه، ويكون اختلاف تركيبه بحرف واحدٍ. هكذا قال في تحديده لهذا القسم، وليس بقمر والأقمار تختلف بحرف واحد، وكذلك عمارة والأعمار، وكذلك العوالي والمعالي. وأما قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1]، فخارج عن هذا بالكلّية، لأن جميع أمثلة هذا القسم يختلف فيه الكلمات بالحروف الزائدة، وهذه الآية اختلاف كلمتيها بحروف أصلية، فليست من التجنيس الذي نحن بصددِهِ، بل هي من باب تجنيس التصحيف، كقول البحتريّ:

وَلَمْ يكُنِ المعتزّ بالله إذْ سَرَى ... ليعجز والمعتَزُّ بالله طالبُهْ

ثم قال ابن الأثير في هذا القسم أيضاً: ومن ذلك قول محمد بن وهيب الحميريّ:

قَسَمْتَ صُروفَ الدَّهْرِ بأساً ونائلاً ... فمالك موتورٌ وسيفُك واتِرُ

وهذا أيضاً عندي مستدرَك، لأنّ اللفظتين كلاهما من الوِتر، ويرجعان إلى أصل واحد، إلا أن أحد اللفظين مفعول والآخر فاعل، وليس أحدٌ يقول إن شاعراً لو قال في شعره: ضارب ومضروب، لكان قد جانس.

ومنها القسم المكنّى بالمعكوس، وهو على ضربين: عكس لفظ وعكس حرف، فالأول كقولهم: «عادات السادات، سادات العادات»، وكقولهم: شِيَمُ الأحرار أحرارُ الشِّيَم.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٤.

ومن ذلك قول الأضبط بن قُرَيع:

قَـدْ يـجـمـعُ الـمـالَ غَـيْـرُ آكـلـه ... ويـأكـلُ الـمـالَ غَـيْـرُ مَـنْ جَـمَـعَـهْ
وَيَـقْـطَـعُ الـثّـوْبَ غـيـرُ لابـسـهِ ... ويـلـبـسُ الـثّـوب غـيـرُ مَـنْ قَـطَـعَـهْ

ومثله قول المتنبي:

فـلا مـجدَ فـي الـدّنـيـا لـمـن قـلّ مـالُـه ... ولا مـالَ فـي الـدّنـيـا لـمـنْ قـلّ مـجـدُهُ

ومثله قول الرضيّ رحمه الله من أبيات يذمّ فيها الزمان:

أسـفّ بـمـن يـطـيـر إلـى الـمـعـالـي ... وطـار بـمـن يُـسِـفُّ إلـى الـدّنـايـا

ومثله قول آخر:

إنّ الـلّـيـالـي لـلأنـام مـنـاهـلٌ ... تُـطْـوَى وتُـنْـشَـرُ بـيـنـهـا الأعـمـارُ
فَـقِـصـارُهُـنّ مـع الـهـمـوم طـويـلـةٌ ... وطـوالـهـنّ مـع الـسُّـرور قِـصَـارُ

ولبعض شعراء الأندلس بذكر غلامه:

غَـيّـرَتـنـا يـدُ الـزمـان ... فـقـد شِـبْـتُ والْـتَـحَـى
فـاسـتـحـالَ الـضُّـحَـى دُجَـى ... واسـتـحـال الـدُّجَـى ضُـحَـى

ويسمّى هذا الضرب التبديل، و قد مثّله قدامة بن جعفر الكاتب بقولهم: «اشكر لمن أنعم عليك، وأنعم على من شكرك».

ومثله قول النبي ﷺ: «جار الدار أحقّ بدار الجار»[1]. قالوا: ومنه قوله تعالى: ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾[2]، ولا أراه منه، بل هو من باب الموازنة. ومثّلوه أيضاً بقول أمير المؤمنين عليه السلام: أما بعدُ، فإنّ الإنسان يسرّه درْك ما لم يكن ليفوته، ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه. وبقول أبي تمام لأبي العميْثل وأبي سعيد الضرير، فإنهما قالا: لمّا امتدح عبدَ الله بن طاهر بقصيدة، وفي افتتاحها تكلّف وتعجرف: لم لا تقول ما يُفهم؟ فقال لهما: لم لا تفهمان ما يقال!

والضرب الثاني من هذا القسم عكس الحروف، وهو كقول بعضهم، وقد أهدى لصديق له كرسيًّا:

أهـديـتُ شـيـئـاً يَـقِـلُّ لـولا ... أُحْـدُوثـة الـفـالِ والـتَّـبَـرُّكْ

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: البيوع (٣٥١٧)، بنفس اللفظ، وأخرج الترمذي في كتاب: الأحكام (١٣٦٨)، وأحمد في كتاب: أول مسند الكوفيين (١٨٩٦٥)، بلفظ: «جار الدار أحق بالدار».
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢٧.

«كُرْسي» تفاءلتُ فيه لَمّا رأيتُ مقلوبه «يسرّكْ»

وكقول الآخر:

كيف السرور بإقبالٍ وآخره إذ تأملته مقلوب إقْبالِ

أي لا بقاء.

وكقول الآخر:

جاذبتُها والريحُ تجذب عَقْرَباً من فوق خدّ مثل قَلْبِ العقربِ
وطفقتُ ألثِمُ ثَغرَها فتمنّعَتْ وتحجّبَتْ عَنّي بقَلب العقرب

يريد «برقعاً».

ومنها النوع المَسمى المجنّب، وهو أن يجمع بين كلمتين إحداهما كالجنيبة التابعة للأخرى، مثل قول بعضهم:

أبا الفيّاض لا تحسب بأنّي لفقرِي مِنْ حُلَى الأشعار عَارِ
فلي طبعٌ كسَلْسالٍ مَعِينٍ زلالٍ من ذُرَا الأحجارِ جارِ

وهذا في التحقيق هو الباب المسمى لزوم ما لا يلزم، وليس من باب التجنيس. ومنها المقلوب، وهو ما يتساوى وزنه وتركيبه إلا أنّ حروفه تتقدّم وتتأخر، مثل قول أبي تمام:

بِيضُ الصَّفائح لا سودُ الصَّحائِف في مُتُونِهِنَّ جَلاءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ

وقد ورد مثل ذلك في المنثور، نحو ما روي عن النبي ﷺ أنه يقال يوم القيامة، لصاحب القرآن: اقرأ وارْقَ»[1].

وقد تكلّمت في كتابي المسمى «بالعبقريّ الحسان» على أقسام الصناعة البديعة نثراً ونظماً، وبيّنت أنّ كثيراً منها يتداخل، ويقوم البعض من ذلك مقام بعض، فليلمح من هناك.

الأصل: منها: وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ وَيَكَادُ صَاحِبُهُ يَشْبَعُ مِنْهُ وَيَمَلُّهُ، إِلاَّ الْحَيَاةَ فَإِنَّهُ لاَ يَجِدُ فِي الْمَوْتِ رَاحَةً، وَإِنَّمَا ذٰلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْحِكْمَةِ الَّتِي هِيَ حَيَاةٌ لِلْقَلْبِ الْمَيِّتِ، وَبَصَرٌ لِلْعَيْنِ الْعَمْيَاءِ، وَسَمْعٌ لِلأُذُنِ الصَّمَّاءِ، وَرِيٌّ لِلظَّمْآنِ: وَفِيهَا الْغِنَى كُلُّهُ وَالسَّلاَمَةُ.

كِتَابُ اللهِ تُبْصِرُونَ بِهِ، وَتَنْطِقُونَ بِهِ، وَتَسْمَعُونَ بِهِ، وَيَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَلاَ يَخْتَلِفُ فِي اللهِ، وَلاَ يُخَالِفُ بِصَاحِبِهِ عَنِ اللهِ.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن (٢٩١٤)، وأبو داود في كتاب: الصلاة (١٤٦٤)، وأحمد في كتاب: مسند المكثرين من الصحابة (٦٧٦٠).

قَدِ ٱصْطَلَحْتُمْ عَلَى ٱلْغِلِّ فِيمَا بَيْنَكُمْ، وَنَبَتَ ٱلْمَرْعَىٰ عَلَى دِمَنِكُمْ، وَتَصَافَيْتُمْ عَلَى حُبِّ ٱلْآمَالِ، وَتَعَادَيْتُمْ فِي كَسْبِ ٱلْأَمْوَالِ. لَقَدِ ٱسْتَهَامَ بِكُمُ ٱلْخَبِيثُ، وَتَاهَ بِكُمُ ٱلْغُرُورُ، وَٱللهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ.

الشرح: هذا الفصل ليس بمنتظم من أوله إلى آخره، بل هو فصول متفرّقة التقطها الرضيّ من خطبة طويلة على عادته في التقاط ما يستفصحه من كلامه ﷺ، وإن كان كلّ كلامه فصيحاً، ولكن كلّ واحد له هوًى ومحبّة لشيء مخصوص، وضروب الناس عشاقٌ ضروباً.

أما قوله: «كل شيء مملول إلا الحياة»، فهو معنى قد طَرقه الناس قديماً وحديثاً، قال أبو الطيب:

وَلَذِيذُ الحياةِ أنفسُ في النّفْـ ـسِ وأشهى من أن يملّ وأحلَى
وإذا الشيخ قال أفٍّ فما مـ ـلَّ حياةً ولكنِ الضّعفَ مَلاّ

وقال أيضاً:

أرى كُلّنا يبغي الحياة لنفسه حَرِيصاً عليها مُسْتهاماً بها صَبّا
فحبّ الجبان النفسَ أورده البَقا وحبُّ الشجاع النفس أورده الحَرْبَا

وقال أبو العلاء:

فما رَغِبَتْ في الموت كُدْرٌ مسيرها إلى الوِرْدِ خِمْساً ثم تَشْرَبْنَ من أجْنِ
يُصَادِفْنَ صَقْراً كلّ يومٍ وليلةٍ وَيَلْقَيْنَ شرًّا من مخالبه الحُجْنِ
ولا قلقاتُ اللّيل باتت كأنها من الأينِ والإدلاج بعضُ القَنَا اللُّدنِ
ضَرَبْنَ مليعاً بالسّنابك أرْبَعاً إلى الماءِ لا يقدِرْنَ مَنهُ على مَعْنِ
وخوفُ الردَى آوى إلى الكهْفِ أهلَه وكلّفَ نوحاً وابنَه عَمَل السُّفْنِ
وما استعذَبَتْهُ روحُ موسى وآدمٍ وقَدْ وُعِدَا مِنْ بَعْدِهِ جَنَّتَيْ عَدْنِ

ولي من قصيدة، أخاطب رجلَيْن فرّا في حرب:

عَذَرْتُكُمَا إنّ الحمام لمبغَضٌ وإنّ بقاء النَّفْسِ للنفس محبوبُ
ويُكْرَهُ طعم الموتِ والموتُ طالبٌ فكيف يلذّ الموتُ والموتُ مطلوبُ!

وقال أبو الطيب أيضاً:

طيبُ هذا النسيم أوْقَرَ في الأنْـ ـفُسِ أنّ الحِمَامَ مُرُّ المذَاقِ
والأسى قَبْلَ فُرْقَة الرُّوح عجزٌ والأسَى لا يكونُ بَعْدَ الفِراقِ

البحتريّ:

مــا أطْـيَــبَ الأيــام إلا أنّــهــا ... يــا صــاحــبــيّ إذا مـضـت لـم تَـرْجِـعِ

وقال آخر:

أوفى يـصـفّـق بـالـجـنـاح مـغـلّـسـاً ... ويـصـيـح مـن طـرب إلـى الـنّـدمـانِ

يـا طـيـب لـذّة هـذه الـدُّنْـيَـا لـنَـا ... لـو أنّـهـا بـقـيـتْ عـلـى الإنـسـان

وقال آخر:

أرى الـنّـاس يـهـوَوْنَ الـبـقـاء سفاهـةً ... وذلـك شـيء مـا إلـيـهِ سـبـيـلُ

وَمَـنْ يـأمَـنِ الأيـامَ! أمّـا بـلاؤهـا ... فـجـمٌّ، وأمـا خَـيْـرُهَـا فـقـلـيـلُ

وقال محمد بنِ وهيب الحميري:

ونـحـن بـنُـو الـدّنـيـا خـلِـقْـنَـا لـغـيـرِهـا ... ومـا كـنـت مـنـه فـهـو شـيء مـحـبَّـبُ

وهذا مأخوذ من قول أمير المؤمنين عليه السلام، وقد قيل له: ما أكثر حبّ الناس للدنيا! فقال: هم أبناؤها، أيلامُ الإنسان على حبّ أمّه!

وقال آخر:

يَـا مَـوْتُ مـا أفـجـاكَ مـن نـازلٍ ... تـنـزل بـالـمـرءِ عَـلَـى رُغْـمِـهِ

تـسـتـلـبُ الـعَـذْرَاءَ مِـنْ خِـدْرِهَـا ... وتـأخـذ الـواحـدَ مِـنْ أمّـهِ

أبو الطيب:

وهـي مـعـشـوقـة عـلـى الـغـدْرِ لا تـحـ ... ـفـظ عـهـداً ولا تُـتَـمِّـمُ وَصْـلاَ

كـلّ دمِـعٍ يـسـيـل مـنـهَـا عـلـيْـهَـا ... وبـفـكّ الـيـديْـن عـنـهـا تُـخَـلَّـى

شِـيَـمُ الـغـانـيـاتِ فـيـهـا فـلا أدرِي ... لـذا أنّـث اسـمَـهـا الـنـاس أم لا!

فإن قلت: كيف يقول: إنه لا يجد في الموت راحةً؟ وأين هذا من قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «الدنيا سجن المؤمن، وجنّة الكافر»! ومن قوله عليه السلام: «والله ما أرجو الرّاحة إلا بعد الموت»! وماذا يعمل بالصالحين الذين آثرُوا فراقَ هذه العاجلة، واختاروا الآخرة، وهو عليه السلام سيّدهم وأميرهم!

قلت: لا منافاة، فإنّ الصالحين، إنّما طلبوا أيضاً الحياة المستمرّة بعد الموت، ورسول الله صلى الله عليه وآله إنما قال: «إنّ الدنيا سجن المؤمن»[1]، لأنّ الموتَ غير مطلوب للمؤمن

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب: الزهد والرقائق، باب: (٢٩٥٦)، والترمذي كتاب: الزهد، باب ما جاء أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر (٢٣٢٤)، وابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: مثل الدنيا (٤١١٣)، وأحمد في «مسنده» (٦٨١٦).

لذاته، إنما يطلبه للحياة المتعقبة له، وكذلك قوله عليه السلام: «والله ما أرجو الرّاحة إلا بعد الموت»، تصريح بأنّ الراحة في الحياة التي تتعقّب الموت، وهي حياة الأبد، فلا منافاة إذاً بين هذه الوجوه وبين ما قاله عليه السلام، لأنه ما نفى إلا الرّاحة في الموت نفسه، لا في الحياة الحاصلة بعده.

فإن قلت: فقد تطرأ على الإنسان حالة يستصعبها فيودُّ الموت لنفسه، ولا يفكّر فيما يتعقّبه من الحياة التي تشير إليها ولا يخطر بباله؟

قلت: ذاك شاذّ نادر فلا يُلتفت إليه، وإنما الحكْم للأعمّ الأغلب. وأيضاً فإنّ ذاك لا يلتذُّ بالموت، وإنّما يتخلّص به من الألم، وأمير المؤمنين قال: ما مِنْ شيء من الملذّات إلا وهو مملول، إلا الحياة، وبين الملذّ والمخلص من الألم فرْقٌ واضح، فلا يكون نقضاً على كلامه.

فإن قلت: قد ذكرت ما قيل في حبّ الحياة وكراهية الموت، فهل قيل في عكس ذلك ونقيضه شيء؟ قلت: نعم، فمن ذلك قول أبي الطيب:

كَفَى بكَ داءً أنْ تَرَى الموتَ شافِيَا ... وَحَسْبُ المنايَا أنْ يكنّ أمانِيَا
تمنّيتَها لَمّا تمنّيتَ أن ترَى ... صديقاً فأعيَا، أو عدوًّا مُداجِيا

وقال آخر:

قد قلتُ إذْ مدحُوا الحياة فأسرفُوا ... في الموت ألف فضيلة لا تعرَفُ
منها أمانُ لقائه بلقائه ... وفراق كلّ معاشر لا ينصِفُ

وقيل لأعرابيٍّ وقد احتُضر: إنك ميت، قال: إلى أين يُذهب بي؟ قيل: إلى الله، قال: ما أكره أن أذهب إلى مَنْ لم أر الخير إلا منه.

إبراهيم بن مهديّ:

وإنّي وإنْ قُدِّمتَ قبلي لعالمٌ ... بأنّي وإن أبطأتُ عنك قريبُ
وإنّ صباحاً نلتقي في مسائِه ... صباحٌ إلى قَلْبِي الغداةَ حبيبُ

وقال بعض السلف: ما من مؤمن إلاّ والموت خير له من الحياة، لأنه إن كان محسناً فالله تعالى يقول: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1]، وإن كان مسيئاً فالله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا إِثْمًا﴾[2].

وقال ميمون بن مِهران: بتُّ ليلةً عند عمر بن عبد العزيز، فرأيته يبكي ويكثر من تمنّي الموت، فقلت له: إنّك أحييتَ سنناً، وأمتّ بدعاً، وفي بقائك خير للمسلمين، فما بالك تتمنّى الموت! فقال: ألاَ أكونُ كالعبد الصالح حين أقرّ الله له عينه، وجمع له أمره، قال: ﴿رَبِّ قَدْ

(١) سورة القصص، الآية: ٦٠.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.

ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1]!

وقالت الفلاسفة: لا يستكمِل الإنسانُ حدّ الإنسانية إلا بالموت، لأن الإنسان هو الحيّ الناطق الميّت.

وقال بعضهم: الصَّالح إذا مات استراح، والطالح إذا مات استُريحَ منه.

وقال الشاعر:

جَـزَى الله عَـنَّـا الـمـوتَ خَـيـراً فـإنـه ... أبَـرُّ بـنـا مـن كُـلِّ بَـرٍّ وأرأفُ

يـعـجِّلُ تـخـليـصَ الـنّفـوس من الأذى ... ويُـدْنِـي مـن الـدّار الـتـي هـي أشـرَفُ

وقال آخر:

مَـنْ كَـانَ يَـرْجُـو أن يـعـيـش فَـإنَّـنِـي ... أصْـبَـحْـتُ أرجُـو أن أمـوتَ لِأُعْـتَـقَـا

فـي الـمـوتِ ألـفُ فـضـيـلـة لـو أنـهـا ... عُـرِفـتْ لـكـانَ سـبـيـلُـهُ أنْ يُـعْـشَـقَـا

وقال أبو العلاء:

جِسْمِي وَنفْسيَ لَمّا اسْتَجْمَعَا صَنَعَا ... شرًّا إلـيَّ، فَـجَـلّ الـواحـدُ الـصَّـمَـدُ!

فـالـجـسـم يـعـذل فـيـه الـنـفـسَ مـجـتـهـداً ... وتـلـك تـزعـم أنّ الـظـالـمَ الـجَـسَـدُ

إذا هُـمَـا بَـعْـدَ طـولِ الـصُّـحْـبَـةِ افـتـرقـا ... فـإنّ ذاك لأحـداث الـزمـان يـدُ

وقال أبو العتاهية:

الـمـرء يـأمُـلُ أن يَـعـيـشَ ... وطـولُ عُـمْـرٍ قـدَ يُـضُـرُّه

تـفـنَـى بـشـاشَـتُـهُ وَيَـبْـقَـى ... بـعـد حُـلْـوِ الـعـيـشِ مُـرُّهْ

وتـخـونُـهُ الأيـامُ حَـتَّـى ... لا يَـرى شـيـئـاً يَـسُـرُّهْ

كَـمْ شـامـتٍ بـي إنْ هـلـكـ ... ـتُ وقـائـلٍ: لله دَرُّهْ!

وقال ابن المعتز:

ألستَ ترى يا صاحِ ما أعجبَ الدَّهْرَا ... فذمًّا له... لكنّ للخالِق الشُّكْرَا

لَقَدْ حبَّبَ الموتَ البقَاءُ الذي أرَى ... فيا حسداً مِنّي لمن يَسكُنُ الْقَبْرَا

فأما قوله عليه السلام: «وإنما ذلك بمنزلة الحكمة»، إلى قوله. «وفيها الغنى كلّه والسلامة»، ففصل آخر غير ملتئم بما قبله، وهو إشارة إلى كلام من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله رواه لهم، ثم

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠١.

حضّهم على التمسّك به، والانتفاع بمواعظه، وقال: إنّه بمنزلة الحكمة التي هي حياة القلوب، ونور الأبصار، وسَمْع الآذان الصمّ، ورِيّ الأكباد الحرّى، وفيها الغنى كلّه، والسلامة، والحكمة المشبَّه كلام الرسول ﷺ بها هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1] وفي قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾[2]، وفي قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[3] وهي عبارة عن المعرفة بالله تعالى، وبما في مبدعاته من الأحكام الدالّة على علمه، كتركيب الأفلاك، ووضع العناصر مواضعَها، ولطائف صنعة الإنسان وغيره من الحيوان، وكيفية إنشاء النبات والمعادن، وما في العالم من القوى المختلفة، والتأثيرات المتنوعة، الراجع ذلك كلُّه إلى حكمة الصانع وقدرته وعلمه، تبارك اسمه!

فأما قوله: «وكتابُ الله»، إلى قوله: «ولا يخالف بصاحبه عن الله»، ففصل آخر مقطوع عَمّا قبله، ومتّصل بما لم يذكره جامع «نهج البلاغة».

فإن قلتَ: ما معنى قوله: «ولا يختلف في الله، ولا يخالف بصاحبه عن الله»؟ وهل بين هاتيْن الجملتيْن فرق؟

قلت: نعم، أما قوله: «ولا يختلف في الله»، فهو أنه لا يختلف في الدلالة على الله وصفاته، أي لا يتناقض، أي ليس في القرآن آيات مختلفة يدلُّ بعضها عَلَى أنّه يعلم كلّ المعلومات مثلاً، وتدلّ الأخرى على أنّه لا يعلم كلّ المعلومات، أو يدلّ بعضها على أنّه لا يرى، وبعضها على أنّه يرى، وليس وجودنا للآيات المشتبهة بقادح في هذا القول، لأنّ آيات الجبر والتشبيه لا تدلّ، وإنما توهِم، ونحن إنّما نفينا أن يكون فيه ما يدلّ عَلَى الشيء ونقيضه.

وأما قوله: «ولا يخالف بصاحبه عن الله»، فهو أنّه لا يأخذ بالإنسان المعتمد عليه إلى غيرِ الله، أي لا يهديه إلاّ إلى جناب الحقّ سبحانه، ولا يعرُج به إلى جناب الشيطان، يقال: خالفتُ بفلان عن فلان، إذا أخذت به غير نحوه، وسلكت به غير جهته.

فأما قوله: «قد اصطلحتم عَلَى الغِلّ. . .» إلى آخر الفصل، فكلامٌ مقطوع أيضاً عَمّا قبله، والغِلّ: الحِقْد.

والدِّمَن: جمع دِمْنة، وهي الحقد أيضاً، وقد دمِنت قلوبهم بالكسر، أي ضغِنت. ونبت المرعى عليها، أي دامت وطال الزمان عليها، حتى صارت بمنزلة الأرض الجامدة الثابتة الّتي تنبت النبات. ويجوز أن يريدَ بالدِّمَن ها هنا جمع دِمْن وهو البَعْر المجتمع كالمزبلة، أو جمع

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.
(٢) سورة لقمان، الآية: ١٢.
(٣) سورة مريم، الآية: ١٢.

دِمْنة وهي آثار الناس وما سوّدوا من الأرض، يقال: قد دمّن الشاء الماء، وقد دمّن القوم الأرض، فشبّه ما في قلوبهم من الغلّ والحِقْد والضغائن بالمزبلة المجتمعة من البعر وغيره، من سُقَاطة الديار التي قد طال مكثها حتى نبت عليها المرعى، قال الشاعر:

وَقَدْ يَنْبُتُ المرْعَى عَلَى دِمَنِ الثَّرَى ... وَتَبْقَى حَزَازَاتُ النُّفُوسِ كَمَا هِيَا

قوله عليه السلام: «لقد استهام بكم الخبيث»، يعني الشيطان. واستهام بكم: جعلكم هائمين، أي استهامكم، فعدّاه بحرف الجرّ، كما تقول في «استنفرت القوم إلى الحرب»: استنفرتُ بهم، أي جعلتهم نافرين. ويمكن أن يكون بمعنى الطّلب والاستدعاء، كقولك: استعلمت منه حَالَ كذا، أي استدعيت أن يعلمنِي، واستمنحت فلاناً، أي طلبت واستدعيت أن يعطيَنِي، فيكون قوله: «واستهام بكم الخبيث»، أي استدعى منكم أن تهيموا وتقعوا في التّيه والضلال والحيرة.

قوله: «وتاه بكم الغَرور» هو الشيطان أيضاً، قال سبحانه: ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[1]. وتاه بكم: جعلكم تائهين حائرين. ثم سأل الله أن يعينه على نفسه وعليهم.

ومن كلام بعض الصالحين: «اللهمّ انصرني على أقرب الأعداء إليّ داراً، وأدناهم مني جواراً، وهي نفسي».

---

١٣٤ - ومن كلام له عليه السلام
وقد شاوره عمر بن الخطاب في الخروج إلى غزو الروم

الأصل: وَقَدْ تَوَكَّلَ ٱللهُ لِأَهْلِ هَذَا الدِّينِ بِإِعْزَازِ ٱلْحَوْزَةِ، وَسَتْرِ ٱلْعَوْرَةِ، وَٱلَّذِي نَصَرَهُمْ، وَهُمْ قَلِيلٌ لاَ يَنْتَصِرُونَ، وَمَنَعَهُمْ وَهُمْ قَلِيلٌ لاَ يَمْتَنِعُونَ، حَيٌّ لاَ يَمُوتُ.

إِنَّكَ مَتَى تَسِرْ إِلَى هَذَا ٱلْعَدُوِّ بِنَفْسِكَ، فَتَلْقَهُمْ فَتُنْكَبْ، لاَ يَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ كَهْفٌ دُونَ أَقْصَى بِلاَدِهِمْ. لَيْسَ بَعْدَكَ مَرْجِعٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ، فَابْعَثْ إِلَيْهِمْ رَجُلاً مِحْرَباً، وَٱحْفِزْ مَعَهُ أَهْلَ ٱلْبَلاَءِ وَالنَّصِيحَةِ، فَإِنْ أَظْهَرَ ٱللهُ فَذَاكَ مَا تُحِبُّ، وَإِنْ تَكُنِ ٱلْأُخْرَى، كُنْتَ رِدْءاً لِلنَّاسِ وَمَثَابَةً لِلْمُسْلِمِينَ.

الشرح: توكّل لهم: صار وكيلاً، ويروى: «وقد تكفّل»، أي صار كفيلاً.

(١) سورة الحديد، الآية: ١٤.

والحوْزة: الناحية، وحوْزة الملك بَيْضته، ويقول: إنما الذي نصرهم في الابتداء على ضَعفهم هو الله تعالى، وهو حَيٌّ لا يموت، فأجدِرْ به أن ينصرَهم ثانياً، كما نصرهم أولاً!

وقوله: «فتنكبْ» مجزوم لأنه عطف على «تسِرْ».

وكهف، أي وكهفٌ يلجأ إليه. ويروى «كانفة» أي جهة عاصمة، من قولك: كنفت الإبل، جعلتَ لها كنيفاً من الشجر تستتر به وتعتصم.

ورجلٌ مِحْرَب، أي صاحب حروب.

وحفزتُ الرّجل أحفِزه: دفعتَه من خَلْفِه وسقتَه سوقاً شديداً.

وكنت ردءاً، أي عوناً، قال سبحانه: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾[1]. ومثابة، أي مرجعاً، ومنه قوله تعالى: ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾[2]، أشار عليه السلام ألا يشخَص بنفسه، حذراً أن يصابَ، فيذهب المسلمون كلّهم لذهاب الرأس، بل يبعث أميراً من جانبه على الناس، ويقيم هو بالمدينة، فإن هُزِموا كان مرجعهم إليه.

فإن قلت: فما بالُ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يشاهِد الحروبَ بنفسه، ويباشرها بشخصه؟

قلت: إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان موعوداً بالنصر، وآمناً على نفسه بالوعْد الإلهيّ في قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾[3]، وليس عمر كذلك.

فإن قلت: فما بالُ أميرِ المؤمنين عليه السلام شهد حَرْب الجمل وصِفّين والنَّهروان بنفسه، فهلاً بعث أميراً محرَباً، وأقام بالمدينة ردءاً ومثابة!

قلت: عن هذا جوابان: أحدهما أنّه كان عالماً من جهة النبي صلى الله عليه وآله أنّه لا يقتَل في هذه الحروب، ويشهد لذلك الخبر المتّفق عليه بين الناس كافّة: «يقاتل بعدي النّاكثين والقاسطين والمارقين»[4]. وثانيهما، يجوز أن يكون غَلَب على ظنّه أنّ غيره لا يقوم مقامَه في حرب هذه الفرق الخارجة عليه، ولم يجد أميراً محرَباً من أهل البلاء والنصيحة، لأنه عليه السلام هكذا قال لعمر، واعتبر هذه القيود والشروط، فمن كان من أصحابه عليه السلام مِحْرَباً لم يكن من أهل النَّصيحة له، ومَنْ كان من أهل النصيحة له لم يكن محرباً، فدعتْه الضرورة إلى مباشرة الحرب بنفسه.

واعلم أنّ هذه الغَزاة هي غزاة فلسطين، التي فتِح فيها بيت المقدس، وقد ذكرها أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في التاريخ، وقال:

---

(١) سورة القصص، الآية: ٣٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٧.
(٤) تقدم تخريجه.

إن عليًا عليه السلام هو كان المستخلف على المدينة لَمّا شخَص عمر إلى الشام، وإن علياً عليه السلام قال له: لا تخرج بنفسك، إنّك تريد عدوّاً كَلِباً، فقال عمر: إني أبادر بجهاد العدوّ موت العباس بن عبد المطلب، إنّكم لو فقدتم العباس لانتقض بكم الشرّ كما ينتقض الحبل. فمات العباس لستّ سنين خلت من إمارة عثمان وانتقض بالناس الشرّ.

قال أبو جعفر: وقد كان الروم عرفوا من كتبهم أنّ صاحب فتح مدينة إيلِياء - وهي بيت المقدس - رجل، اسمه عَلَى ثلاثة أحرف، فكان مَنْ حضر من أمراء المسلمين يسألونَ عن اسمه، فيعلمون أنّه ليس بصاحبهم، فلما طال عليهم الأمر في حرب الروم، استمدُّوا عمر، وقالوا: إن لم تحضر بنفسك لم يُفتَحْ علينا، فكتب إليهم أن يَلْقَوْه برأس الجابية، ليوم سمّاه لهم، فلقوه وهو راكب حماراً، وكان أوّل مَنْ لقِيه يزيد بن أبي سفيان، ثم أبو عبيدة بن الجراح، ثم خالد بن الوليد، على الخيول وعليهم الدّيباج والحرير، فنزل عمر عن حِماره، وأخذ الحجارة، ورماهم بها، وقال: سَرْعان ما لُفِتُّم عن رأيكم! إياي تستقبلون في هذا الزّيّ! وإنما شبعتم منذ سنتين، سَرْع ما ترّت بكم البِطْنة، وتالله لو فعلتموها على رأس المائتين، لاستبدلت بكم غيركم!

فقالوا: يا أمير المؤمنين، إنما هي يلامقة، وتحتها السلاح، فقال: فنعم إذاً!

قال أبو جعفر: فلما علم الروم مقدَم عمر نفسه، سألوه الصلح، فصالحهم، وكتب لهم كتاباً على أن يؤدّوا الجزية، ثم سار إلى بيت المقدس، فقصّر فرسُه عن المشي، فأتِيَ ببرذَوْنٍ فركبه، فهزّه وهَمْلَج تحته، فنزل عنه، وضرب وجهه بردائه، وقال: قبّح الله مَنْ عَلّمكَ هذا! ردُّوا عليّ فرسي، فركبه وسار حتى انتهى إلى بيت المقدس.

قال: ولم يركب برذوناً قبلَه ولا بعده، وقال: أعوذ بالله من الخُيَلاء!

قال أبو جعفر: ولقيَه معاوية، وعليه ثياب ديباج، وحوله جماعة من الغلمان والخوَل، فدنا منه فقبّل يده، فقال: ما هذا يابن هندا! وإنك لعلى هذه الحال، مترَفٌ صاحب لَبُوس وتنعُّم، وقد بلغني أنّ ذوي الحاجات يقفون ببابك! فقال: يا أمير المؤمنين، أما اللّباس فإنّا ببلاد عدوّ، ونحبّ أن يَرَى أثر نعمة الله علينا، وأما الحِجاب فإنّا نخاف من البِذْلة جرأة الرعيّة. فقال: ما سألتُك عن شيء إلا تركتَني منه في أضيق من الرّواجب، إن كنتَ صادقاً فإنه رأى لبيب، وإن كنت كاذباً، فإنها خدعة أريب[1].

---

(١) تاريخ الطبري: أخرجه الطبري في تاريخه: ٣/ ١٠٤.

وقد روى الناس كلام معاوية لعمر على وجه آخر، قيل: لما قدم عمر الشام قدِمها، وهو راكب حماراً قريباً من الأرض، ومعه عبد الرحمن بن عوف راكب حمارٍ قريب أيضاً، فتلقّاهما معاوية في كَوْكَبَةٍ خشناء، فثنى وركه، ونزل وسلّم بالخلافة فلمْ يردّ عليه. فقال له عبد الرحمن: أحصرتَ الفتى يا أمير المؤمنين، فلو كلّمته! قال: إنّك لَصاحِبُ الجيش الذي أرى! قال: نعم، قال: مع شدّة احتجابك، ووقوف ذوي الحاجات ببابك! قال: أجلْ، قال: لِمَ ويحك؛ قال لأنّا ببلاد عدوّ كثير فيها جواسيسهم، فإنْ لم نتخذ العُدّة والعَدَد استخفّ بنا، وهجم على عوراتنا، وأنا بعد عاملُك، فإن استنقصتَني نقصتُ، وإن استزدتني زدتُ، وإن استوقفتني وقفت. فقال: إن كنت كاذباً إنه لرأيُ أريب، وإن كنت صادقاً إنّه لتدبير لبيب، ما سألتك عن شيء قطّ إلا تركتَني منه في أضيق من رواجب الضّرس، لا آمرُك ولا أنهاك. فلما انصرف، قال عبد الرحمن: لقد أحسن الفَتى في إصدار ما أردتَ عليه، فقال: لحسْنِ إيراده وإصداره جشّمناه ما جشّمناه.

قال أبو جعفر: شخص عمر من المدينة إلى الشام أربعَ مرات، ودخلها مرة راكب فرسٍ، ومرة راكبَ بعيرٍ، ومرةً راكب بغل، ومرةً راكب حمار، وكان لا يعرَف، وربما استخبره الواحد: أين أمير المؤمنين؟ فيسكت، أو يقول: سل الناس، وكان يدخل الشام وعليه سَحْقُ فرو مقلوب، وإذا حضر الناس طعامه رأوْا أخشن الطعام.

قال أبو جعفر: وقدم الشام في إحدى هذه المرّات الأربع، فصادف الطاعون بها فاشياً، فاستشار الناس، فكلٌّ أشار عليه بالرجوع وألاّ يدخلها، إلا أبا عبيدة بن الجراح، فإنه قال: أتفرّ من قَدَرِ الله؟ قال نعم، أفرّ من قَدَرِ الله بقَدَر الله، لو غيرك قالها يا أبا عِبيدة! فما لبث أن جاء عبد الرحمن بن عوف، فروى لهم عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا كنتم ببلادِ الطاعون فلا تخرجوا منها، وإذا قدمتم إلى بلاد الطاعون فلا تدخلوها»[1]، فحمِد الله على موافقة الخبر لما كان في نفسه، وما أشار به الناس، وانصرف راجعاً إلى المدينة، ومات أبو عبيدة في ذلك الطاعون وهو الطاعون المعروف بطاعون عِمْواس، وكان في سنة سبع عشرة من الهجرة.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الطب، باب: ما يذكر في الطاعون (٥٧٢٨)، ومسلم، كتاب: السلام، باب: الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها (٢٢١٨).

١٣٥ - ومن كلام له عليه السلام وقد وقع بينه وبين عثمان مشاجرة فقال المغيرة بن الأخنس لعثمان: انا اكفيكه فقال أمير المؤمنين عليه السلام للمغيرة

الأصل: يابْنَ اللَّعِينِ الأَبْتَرِ، وَالشَّجَرَةِ الَّتي لاَ أَصْلَ لَهَا وَلاَ فَرْعَ، أَنْتَ تَكْفِيني؟ فَوَالله ما أَعَزَّ اللهُ مَنْ أَنْتَ نَاصِرُهُ، وَلاَ قامَ مَنْ أَنْتَ مُنْهِضُهُ، اخْرُجْ عَنَّا أَبْعَدَ اللهُ نَوَاكَ، ثُم ابْلُغْ جَهْدَكَ، فَلاَ أَبْقَى اللهُ عَلَيْكَ إِنْ أَبْقَيْتَ!

الشرح: هو المَغيرة بن الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب بن علاج بن أبي سلمة الثقفيّ، حليف بني زهرة، وإنما قال له أمير المؤمنين عليه السلام: «يابنَ اللعين»، لأنّ الأخنس بن شريق كان من أكابر المنافقين، ذكره أصحاب الحديث كلّهم في المؤلّفة قلوبهم الذين أسلموا يوم الفتح بألسنتهم دون قلوبهم، وأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم مائةً من الإبل من غنائم حُنَين يتألّف بها قلبه، وابنه أبو الحكم بن الأخنس، قتله أمير المؤمنين عليه السلام يوم أُحُد كافراً في الحرب، وهو أخو المغيرة هذا. والحقْد الذي في قلب المغيرة عليه من هذه الجهة. وإنما قال له: «يابن الأبتر»، لأنّ من كان عقبه ضالاً خبيثاً، فهو كمن لا عقِب له بل من لا عقب له خير منه، ويروى: «ولا أقام من أنت منهضه» بالهمزة.

ويروى «أبعد الله نوءك» من أنواء النجوم التي كانت العرب تنسب المطر إليها، وكانوا إذا دعوا على إنسان قالوا: أبعد الله نوءك! أي خيرك.

والجَهد بالفتح: الغاية، ويقال: قد جهد فلان جَهده بالفتح، لا يجوز غير ذلك، أي انتهى إلى غايته. وقد رُوِيَ أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن ثَقيفاً.

وروي أنه عليه السلام قال: «لولا عروة بن مسعود للعنتُ ثقيفاً».

وروى الحسن البصريّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن ثلاثة بيوت: بيتين من مكة، وهما بنو أمية وبنو المغيرة، وبيتاً من الطائف وهم ثقيف.

وفي الخبر المشهور المرفوع وقد ذكر ثقيفاً «بئست القبيلة، يخرج منها كذّاب ومُبِير»[1] فكان كما قال صلى الله عليه وسلم، الكذاب المختار، والمبِير الحجاج.

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في ثقيف (٢٢٢٠)، والطبراني في «الأوسط» (٤٤٧٨)، والكبير (٢٤/ ٨١)، والحميدي (٣٢٦)، كلهم بدون قوله: «بئست القبيلة».

واعلم أن هذا الكلام لم يكن بحضرة عثمان، ولكن عوانة روى عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبيّ، أن عثمان لما كثرت شكايته من عليّ عليه السلام، أقبل لا يدخل إليه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله أحدٌ إلا شَكَا إليه عليًا، فقال له زيد بن ثابت الأنصاريّ - وكان من شيعته وخاصّته: أفلا أمشي إليه فأخبرَه بموجدتك فيما يأتي إليك؟ قال: بلى: فأتاه زيد ومعه المغيرة بن الأخنس بن شريق الثقفي - وعِدادُه في بني زُهرة، وأمّه عمة عثمان بن عفان - في جماعة، فدخلوا عليه، فحمِد زيد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعدُ فإن الله قدّم لك سلفاً صالحاً في الإسلام، وجعلك من الرسول بالمكان الذي أنت به، فأنت للخير كلّ الخير أهل، وأمير المؤمنين عثمان ابن عمّك، ووالي هذه الأمّة، فله عليك حقّان: حقّ الولاية وحق القرابة، وقد شكا إلينا أنّ عليًا يعرِض لي، ويردّ أمري عليّ، وقد مشينا إليك نصيحة لك، وكراهيَةَ أن يقع بينك وبين ابن عمّك أمرٌ نكرهه لكما.

قال، فحمِد عليٌّ عليه السلام الله، وأثنى عليه وصلّى على رسوله، ثم قال: أمّا بعد، فوالله ما أحبّ الاعتراض، ولا الردّ عليه، إلا أن يأبى حقاً لله لا يسعني أن أقول فيه إلاّ بالحق، ووالله لأكفنّ عنه ما وسِعَني الكفّ.

فقال المغيرة بن الأخنس - وكان رجلاً وَقَاحاً، وكان من شيعة عثمان وخُلصائه: إنّك والله لتَكُفَّنّ عنه أو لتُكَفَّنّ، فإنّه أقدر عليك منك عليه! وإنما أرسل هؤلاء القوم من المسلمين إعزازاً لتكون له الحجة عندهم عليكَ. فقال له عليٌّ عليه السلام: يابن اللعين الأبتر، والشجرة التي لا أصل لها ولا فرع، أنت تكفّني! فوالله ما أعزّ الله امرءًا أنت ناصره، اخرج أبعد الله نَوَاك، ثم اجهد جهدك، فلا أبقى الله عليك ولا على أصحابك إن أبقيْتم.

فقال له زيد: إنّا والله ما جئناك لنكونَ عليك شهوداً، ولا ليكون مَمْشَانا إليك حُجَّةً، ولكن مشينا فيما بينكما التماس الأجر أن يصلح الله ذاتَ بينكما، ويجمع كلمتكما ثم دعا له ولعثمان، وقام فقاموا معه[1].

وهذا الخبر يدلّ على أن اللفظة «أنت تكفُّني»، وليست كما ذكره الرضي رحمه الله «أنت تكفيني»، لكن الرضيّ طبّق هذه اللفظة على ما قبلها، وهو قوله: «أنا أكفيكه»، ولا شبهة أنها رواية أخرى.

نبذ من أخبار ثقيف

وإنما قال له: «والشجرة التي لا أصل لها ولا فرع»، لأن ثقيفاً في نسبها طعن، فقال قومٌ

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣١/ ٤٧٢.

من النسابين: إنّهم من هَوازن، وهو القول الذي تزعمه الثقفيُّون، قالوا: هو ثقيف، واسمه قسيّ بن منبّه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خَصَفة بن قيس بن عَيْلان بن مُضَر. وعلى هذا القول جمهور الناس.

ويزعم آخرون أنّ ثقيفاً من إياد بن نزار بن معد بن عدنان، وأنّ النَّخَع أخوه لأبيه وأمّه، ثم افترقا، فصار أحدهما في عِدَاد هَوَازن، والآخر في عداد مَذحِج بن مالك بن زيد بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

وقد روى أبو العباس المبرد في «الكامل» لأخت الأشتر مالك بن الحارث النَّخعِيّ تبكيه:

أبعد الأشتر النخعيّ نَرْجُو ... مكاثرةً ونقطع بَطْنَ وادِ!
ونصحبُ مذحِجاً بإخاء صدقٍ ... وإن ننسبْ فنحن ذُرَا إيادِ
ثقيفٌ عمّنا وأبو أبينا ... وإخوتنا نزار أولو السَّدادِ

قال أبو العباس: وهجا يحيى بن نوفل - وكان هجّاء خبيث اللسان - العُريانَ بن الهيثم بن الأسود النَّخعيّ، وقد كان العريان تزوّج امرأة اسمها زَبادِ - مبني على الكسر، والزاي مفتوحة بعدها باء منقوطة بواحدة - وهي من ولد هانيء بن قبيصة الشيبانيّ، وكانت قبله تحت الوليد بن عبد الملك بن مروان فطلّقها، فأنكحها إياه أخ لها يقال له زياد، فقال يحيى بن نوفل:

أعُرْيَانُ ما يدري امرؤ سِيلَ عنكُمُ ... أمِنْ مَذحج تُدْعَوْن أم مِنْ إيادِ
فإن قلتم من مذحجٍ إنّ مذحجاً ... لبيضُ الوجوه غير جدّ جعادِ
وأنتم صغار الهام حُذْلٌ كأنّما ... وجوهكُمُ مطليَّةٌ بمداد
وإن قلتُم الحيّ اليمانون أصْلُنَا ... وناصُرنا في كلّ يوم جلاَدِ
فأطوِلْ بأيْرٍ من مَعَدٍّ ونزوَةٍ ... نزتْ بإيادٍ خَلْفَ دارِ مُراد
ضللتم كما ضلّت ثقيفٌ فما لكمْ ... ولا لهم بين القبائل هادِ
لعمرُ بني شيبان إذْ يُنْكحونَهُ ... زيادٌ لَقَدْ ما قصّروا بزبادِ
أبعد وليد أنكحوا عَبْدَ مَذْحِجٍ ... كَمُنْزِيَةٍ عَيْراً خِلاَفَ جوادِ
وأنكحها لا في كِفاءٍ ولا غنًى ... زيادٌ، أضلّ الله سَعْيَ زياد

قال أبو العباس: وكان المغيرة بن شعبة، وهو والي الكوفة صار إلى دير هند بنت النعمان بن المنذر، وهي فيه عمياء مترهّبة، فاستأذن عليها، فقيل لها: أمير هذه المدَرَة بالباب. قالت: قولوا له: مِنْ ولد جبلة بن الأيهم أنت؟ قال: لا، قالتْ: أفمن ولَد المنذر بن ماء السماء أنت؟

قال: لا ، قالت: فمن أنت؟ قال: أنا المغيرة بن شعبة الثقفيّ، قالت: فما حاجتك؟ قال: جئت خاطباً، قالت: لو كنت جئتني لجمال أو حالٍ لأطلبتُك، ولكن أردت أن تتشرّف بي في محافل العرب، فتقول: نكحتُ ابنةَ النعمان بن المنذر، وإلا فأيّ خيرٍ من اجتماع أعور وعمياء!

فبعث إليها: كيف كان أمركم؟ قالت: سأختصر لك الجواب، أمسيْنا وليس في الأرض عربيٌ إلاّ وهو يرهبنا أو يرغب إلينا، وأصبحنا وليس في الأرض عربيٌ إلا ونحن نرهبه ونرغب إليه. قال: فما كان أبوك يقول في ثقيف؟ قالت: أذكر، وقد اختصم إليه رجلان منهم، أحدهما ينتهي إلى إياد، والآخر إلى هوازن، فقضى للإياديّ وقال:

إنّ ثـقـيـفـاً لـم تَـكُـنْ هـوازنَـا ... ولـم تـنـاسِـبْ عـامـراً أو مـازنـا

فقال المغيرة: أمّا نحن فمن بكر بن هوازن، فليقل أبوك ما شاء، ثم انصرف.

وقال قوم آخرون: إن ثقيفاً من بقايا ثمود، من العرب القديمة التي بادت وانقرضت.

قال أبو العباس: وقد قال الحجاج على المنبر: يزعمون أنّا من بقايا ثمود، فقد كذبهم الله بقوله: ﴿وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ﴾[1].

وقال مرة أخرى: ولئن كنّا من بقايا ثمود، لَمَا نجَا مع صالح إلا خيارهم.

وقال الحجّاج يوماً لأبي العَسوّس الطائيّ: أيٌّ أقدَم، أنزول ثقيف الطائف، أم نزول طيِّئ الجبلين؟ فقال له أبو العسوّس: إن كانت ثقيف من بكر بن هوازن فنزول طيِّئ الجبلين قبلها، وإن كانت من بقايا ثمود، فهي أقدم، فقال الحجاج: اتَّقِني فإني سريع الخطفة للأحمق المتهوّر، فقال أبو العَسوّس - قال أبو العباس، وكان أعرابياً قحًّا إلا أنّه لطيف الطبع، وكان الحجاج يمازحه:

يـؤدّبـنـي الـحـجـاجُ تـأديـبَ أهْـلِـهِ ... فـلـو كـنـتُ مـن أولاد يـوسفَ ما عـدَا

وإنّـي لأخـشـى ضـربَـةً ثـقَـفـيَّـةً ... يُـقَـدّ بـهـا مـمّـن عـصـاه الـمـقـلّـدا

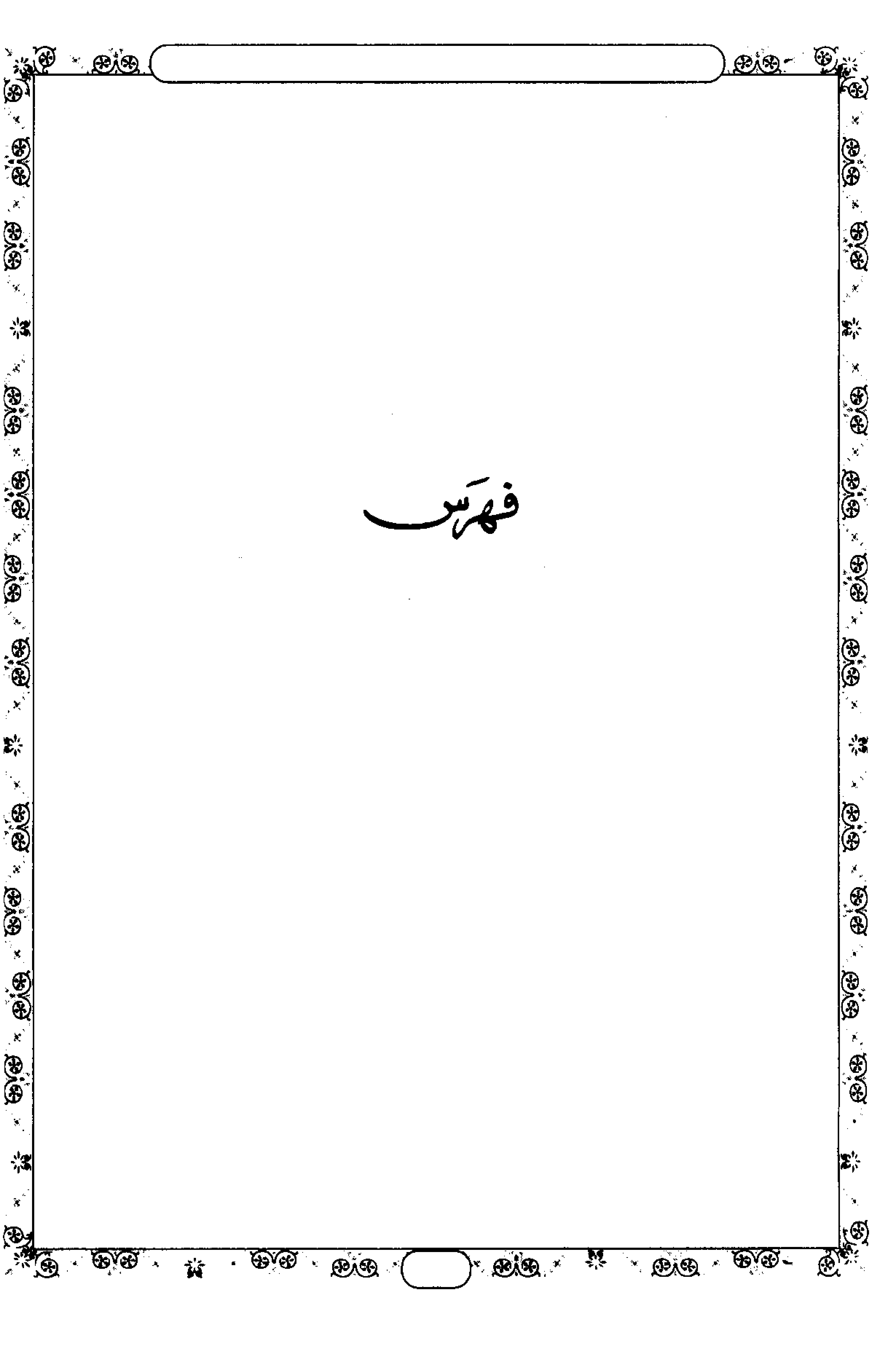
عــلــى أنّــنــي مــمــا أحــاذِرُ آمِـنٌ ... إذا قيلَ يوماً قد عصى المرء واعتدَى

وقتل المغيرة بن الأخنس مع عثمان يوم الدار، وقد ذكرنا مقتله فيما تقدّم.

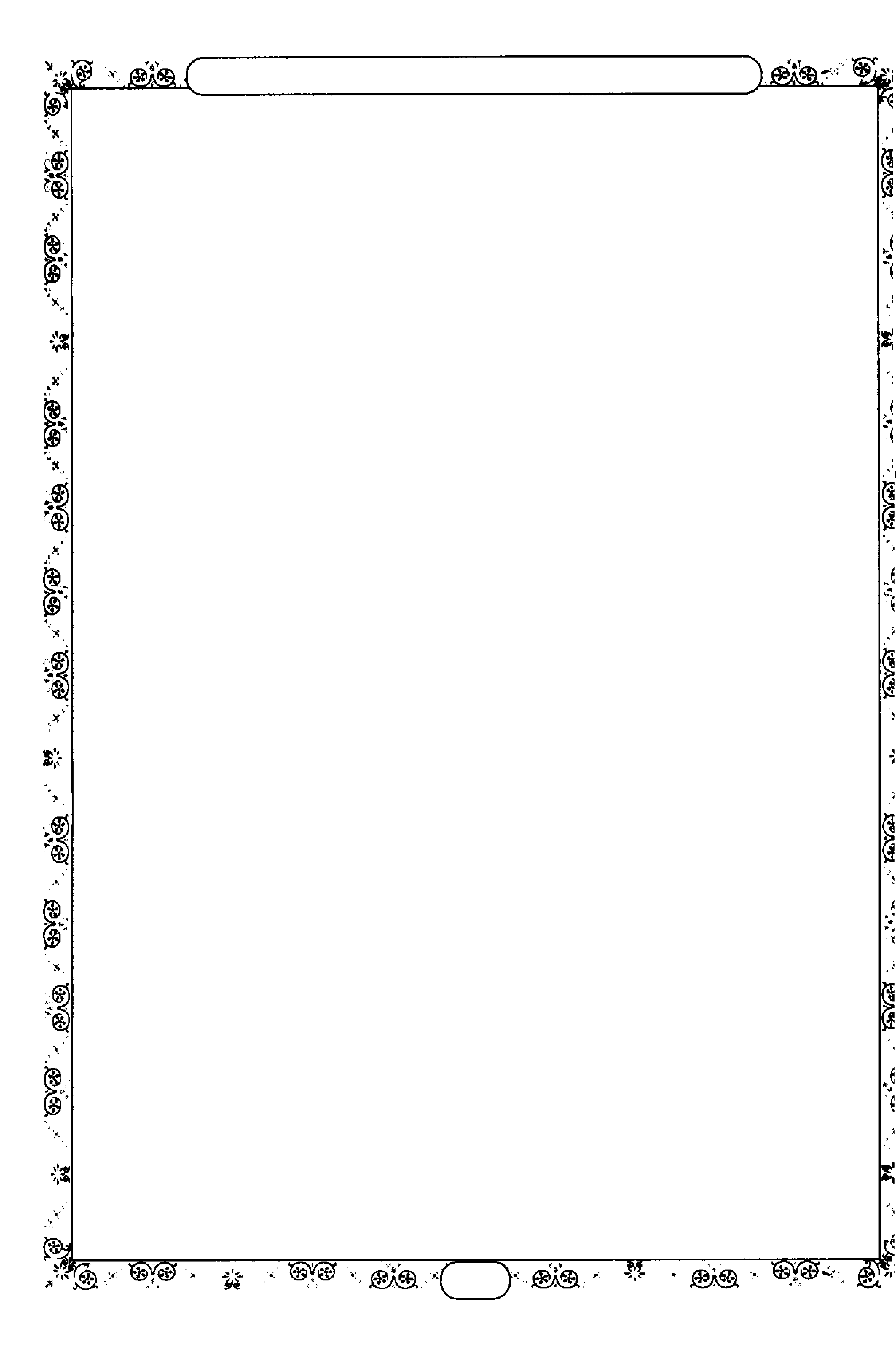
تم الجزء الثامن من شرح نهج البلاغة ويليه الجزء التاسع

---

(١) سورة النجم، الآية: ٥١.



فهرس



الفهرس

الموضوع | الصفحة

الجزء السابع